

تفسير النفس

مدارك التنزيل وحقائق التأويل

تأليف

أبي البركات عبد بن أحمد بن محمود النسفي

(ت ٧١٠ هـ)

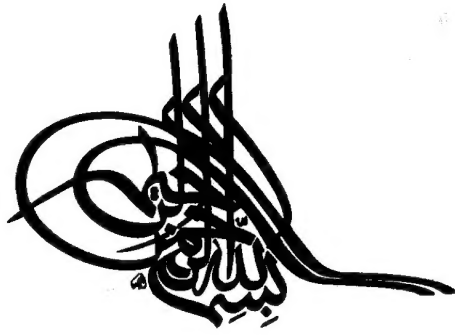
حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
يوسف علي بدوي

رَاجَعَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
محيي الدين ديبستو

المجلد الثاني

دار الكتب للطباعة

بيروت



تفسير النسيجي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

حُقوقُ الطَّبْعِ وَالتَّصَوُّيرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ
الطَّبْعَةُ الْأُولَى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ

١ - ﴿الر﴾ ونحوه ممال: حمزة، وعلي، وأبو عمرو. وهو تعديد للحروف على طريق التحدي ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. و﴿الْكِتَابِ﴾ السورة ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو: المحكم عن الكذب، والاقتراف.

٢ - والهمزة في: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار التعجب، والتعجب منه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ اسم كان، و﴿عَجَبًا﴾ خبره. واللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لـ ﴿عَجَبًا﴾ فلما تقدم صار حالاً ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ بأن أنذر. أو: هي مفسرة، إذ الإيحاء فيه معنى القول ﴿وَبَشِّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم. ومعنى اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منه. والذي تعجبوا منه أن يُوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم - فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب - وأن يذكر لهم البعث، وينذر بالنيران، ويبشر بالجنان! وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشراً مثلهم. وإرسال اليتيم أو الفقير ليس

قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا
مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بعجب أيضاً؛ لأن الله تعالى إنما يختار للنبوّة من جمع أسبابها. والغنى والتقدم في الدنيا ليس من أسبابها، والبعث للجزاء على الخير والشّر هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: سابقة، وفضلاً، ومنزلة رفيعة. ولما كان السعي والسبق بالقدم سمّيت المسعاة الجميلة، والسابقة: قدماً، كما سمّيت النعمة: يداً، لأنها تُعطى باليد، وباعاً؛ لأنّ صاحبها يبيع بها. فقليل: لفلان قدم في الخير. وإضافتها إلى ﴿صدق﴾ دلالة على زيادة فضل، وأنّه من السوابق العظيمة، أو مقام صدق، أو سبق السعادة ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الكتاب ﴿لَسِحْرٌ﴾ مدني، وبصري، وشامي. ومن قرأ ﴿لساحر﴾ فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ، وهو دليل عجزهم، واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

٣ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: استولى. فقد يقدّس الديان عن المكان، والمعبود عن الحدود ﴿يُدِيرُ﴾ يقضي، ويقدر على مقتضى الحكمة ﴿الْأَمْرُ﴾ أي: أمر الخلق كلّ، وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش. ولما ذكر ما يدلّ على عظمتها، وملكه من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة، وأنّه لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه، وتقديره. وكذلك قوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ دليل على عزّه وكبريائه ﴿ذَلِكُمْ﴾ العظيم الموصوف بما وصف به ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهو الذي يستحقّ العبادة ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحدوه، ولا تشركوا به بعض خلقه من إنسان، أو ملك، فضلاً عن جهاد لا يضر، ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتدبرون، فتستدلّون بوجود المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٤ - ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ حال، أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه، فاستعدّوا للقائه. والمرجع: الرجوع، أو مكان الرجوع ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكّد؛ لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكّد؛ لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ استئناف، معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلفين على أعمالهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل. وهو متعلّق بيجزي، أي: ليجزيهم بقسطه، ويوفّيهم أجورهم. أو: بقسطهم، أي: بما أقسطوا، وعدلوا، ولم يظلموا حين آمنوا، إذ الشرك ظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، ولوجه كلامي.

٥ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكسرة ما قبلها. وقلبها قبل همزة؛ لأنها للحركة أجل ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء أقوى من النور؛ فلذا جعله للشمس ﴿وَقَدَرَهُ﴾ وقدر القمر، أي: وقدر مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾. أو: ﴿وقدره﴾ ذا ﴿منازل﴾، كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتُهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ أي: ﴿عدد السنين﴾ والشهور، فاكثفى بالسنين لاشتمالها على الشهور ﴿وَالْحِسَابَ﴾ وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين والشهور ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ مكّي، وبصري، وحفص. وبالنون غيرهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيستفهمون بالتأمل فيها.

٦ - ﴿إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في مجيء كل واحد منها خلف الآخر، أو:

وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآئِسَةً لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾

في اختلاف لونيهما ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلاق ﴿لَآئِسَةً لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصهم بالذكر؛ لأنهم يحذرون الآخرة، فيدعوهم الحذر إلى النظر.

٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوقعونه أصلاً، ولا يخطرونه ببالهم؛ لغفلتهم عن التفطن للحقائق. أو: لا يؤملون حسن لقائنا كما يؤمله السعداء، أو: لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة، وآثروا القليل القاني على الكثير الباقي ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً، وأملوا بعيداً ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها. لا وقف عليه؛ لأن خبر إن:

٨ - ﴿أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ﴾ فـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ و﴿مَا وَاهم﴾: مبتدأ ثان، و﴿النار﴾: خبره، والجملة: خبر ﴿أُولَٰئِكَ﴾ والباء في: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام، وهو: جوزوا.

٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد، المؤدي إلى الثواب؛ ولذا جعل ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ بياناً له وتفسيراً، إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها. أو: يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة. ومنه الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صَوَّرَ لَهُ عَمَلَهُ فِي صُورَةِ حَسَنَةٍ، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. والكافر إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صَوَّرَ لَهُ عَمَلَهُ فِي صُورَةِ سَيِّئَةٍ، فيقول له: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار»^(١). وهذا دليل على أَنَّ الإيمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم، ولم يضم إليه العمل الصالح ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلق بتجري، أو: حال من ﴿الأنهار﴾.

دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَ دَعْوَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ
 إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
 الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا

١٠ - ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: دعاؤهم؛ لأن ﴿اللهم﴾ نداء لله. ومعناه: ﴿اللهم﴾ إنا نستبحك، أي: يدعون الله بقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾، تلذذاً بذكره لا عبادة ﴿وَنَحْيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: يحیی بعضهم بعضاً بالسلام، أو: هي تحية الملائكة إياهم، وأضيف المصدر إلى المفعول أو: تحية الله لهم ﴿وَأَخْرَ دَعْوَهُمْ﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح: ﴿أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، وأصله: أنه ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. والضمير للشأن. قيل: أول كلامهم التسبيح، وآخره التحميد. فيبتدون بتعظيم الله، وتنزيهه، ويختمون بالشكر، والثناء عليه، ويتكلمون بينهما بما أرادوا.

١١ - ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أصله: ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿استعجالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم. والمراد: أهل مكة، وقولهم: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. أي: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيهم إليه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لا ميثوا، وأهلكوا. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾: سامي، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ شركهم، وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون. ووجه اتصاله بما قبله: أن قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ متضمن معنى نفي التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم، فنذرهم في طغيانهم، أي: فنهملهم، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم.

١٢ - ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ أصابه. والمراد: به الكافر ﴿الضُّرُّ دَعَانَا﴾ أي: دعا الله لإزالته ﴿لِجَنبِهِ﴾ في موضع الحال، بدليل عطف الحالين، أي: ﴿أَوْ قَاعِدًا

أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صُورِ مَسْمُومٍ كَذَلِكَ زَيْنٌ
لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

أَوْ قَائِمًا. عليه، أي: دعانا مضطجعا. وفائدة ذكر هذه الأحوال أَنَّ معناه: أَنَّ
المضرور لا يزال داعياً، لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في
حالاته كلها، سواء كان مضطجعا عاجزاً عن النهوض، أو قاعداً لا يقدر على
القيام، أو قائماً لا يطيق المشي ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ﴾ أزلنا ما به. ﴿مَرَّكَانَ
لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صُورِ مَسْمُومٍ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسي
حال الجهد. أو مرَّ عن موقف الابتهال والتضرع، لا يرجع إليه، كأنه لا عهد
له به. والأصل: (كأنه لم يدعنا) فحذف، وحذف ضمير الشأن ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل
ذلك التزيين ﴿زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ﴾ للمجاوزين الحدَّ في الكفر. زين الشيطان
بوسوسته ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر، واتباع الكفر.

١٣ - ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أشركوا.
وهو ظرف لـ ﴿أهْلَكْنَا﴾ والواو في: ﴿وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم﴾ للحال، أي: ظلموا
بالتكذيب، وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ إن
بقوا ولم يهلكوا؛ لأنَّ الله علم منهم أنهم يصرون على كفرهم. وهو عطف على
﴿ظَلَمُوا﴾. أو: اعتراض. واللام لتأكيد النفي، يعني: أن السبب في إهلاكهم
تكذيبهم للرسل، وعلم الله: أنه لا فائدة في إهلاكهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة
الرسل ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء، يعني: الإهلاك ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.
وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ.

١٤ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم
محمد ﷺ، أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ﴾ أي: لننظر أتعملون خيراً أو شراً، فنعاملكم على حسب عملكم.
﴿وكيف﴾ في محل نصب بتعملون لا بنظر؛ لأنَّ معنى الاستفهام فيه يمنع أن
يتقدم عليه عامله. والمعنى: أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ

بماضيكم، أم الاغترار بما فيكم؟ قال ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»^(١).

١٥ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ حال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لما غاظمهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان، والوعيد لأهل الطغيان: ﴿أَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ليس فيه ما يغيظنا من ذلك، نتبعك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة، وذم عبادتها. فأمر بأن يجب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة، وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما يحل لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تبديل؛ لأن الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدله ﴿إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل من عند نفسي ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة. وأما الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجز عنه. إلا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] ولا يحتمل أن يريدوا بقوله: ﴿أَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ من جهة الوحي؛ لقوله: ﴿إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وغرضهم في هذا الاقتراح الكيد. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك، وأنت قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر. وأما اقتراح التبديل فلاختبار الحال، وأنه وجد منه تبديل، فإما أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخرها منه، فيجعلوا التبديل حجة عليه، وتصحيحاً لافتراءه على الله.

١٦ - ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩) ومسلم (٢٧٤٢) والترمذي (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠).

وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

الله، وإظهاره أمراً عجبياً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أُمِّي لم يتعلم، ولم يشاهد العلماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً، يغلب كل كلام فصيح، ويعلو على كل منشور ومنظوم، مشحوناً بعلوم الأصول، والفروع، والإخبار عن الغيوب؛ التي لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ﴾ ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل نزول القرآن، أي: فقد أقمت بينكم أربعين سنة، ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه، ولا قدرت عليه، ولا كنت موصوفاً بعلم وبيان، فتهموني باختراعه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلموا: أنه ليس إلا من عند الله لا من مثلي. وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ [يونس: ١٥] من إضافة الافتراء إليه.

١٧ - ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك، وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بالقرآن. فيه بيان أن الكاذب على الله والمكذب بآياته في الكفر سواء ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

١٨ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادتها ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ أي: الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: في الدنيا ومعيشتها؛ لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] أو: يوم القيامة إن يكن بعث ونشور ﴿قُلْ أَتُنبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أنخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله. وإذا لم يكن معلوماً له، وهو العالم بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً. وقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيد لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو معدوم ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ
رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَانَا

شريك، وبالتاء حمزة وعلي، و﴿ما﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: عن
الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

١٩ - ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حنفاء متفقين على ملة واحدة، من
غير أن يختلفوا بينهم. وذلك في عهد آدم - عليه السلام - إلى أن قتل قابيل
هابيل. أو: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾
فصاروا مللاً ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى
يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيما اختلفوا فيه،
ولم يزل المحق من المبطل. وسبق كلمته لحكمة، وهي: أن هذه الدار دار تكليف،
وتلك الدار دار ثواب وعقاب.

٢٠ - ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: آية من الآيات التي
اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب، فهو العالم
بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحوه
﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

٢١ - ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ﴾ أهل مكة ﴿رَحْمَةً﴾ خصباً، وسعة ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ
مَسْتَهُمْ﴾ يعني: القحط، والجوع ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَانَا﴾ أي: مكروا بآياتنا
بدفعها، وإنكارها. رُوي أنه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى
كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا^(١)، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله،
ويعادون رسول الله ﷺ، ويكيدونه. فـ ﴿إِذَا﴾ الأولى للشرط، والثانية جوابها،
وهي للمفاجأة. وهو كقوله: ﴿وَلِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾
[الروم: ٣٦] أي: وإن تصبهم سيئة قنطوا، وإذا أدقنا الناس رحمة مكروا.

قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾

والمكر: إخفاء الكيد، وطية، من: الجارية المكمورة المطوية الخلق. ومعنى ﴿مستهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم. وإنما قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ولم يصفهم بسرعة المكر؛ لأن كلمة المفاجأة دلّت على ذلك، كأنه قال: وإذا رحناهم من بعد ضراء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مسّ الضراء ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني: الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إعلام بأن ما تظنونونه خافياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وبالباء: سهل.

٢٢ - ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل، والدواب، والفلك الجارية في البحار، أو يخلق فيكم السير. (يَسْرُكُم): شامي ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السفن ﴿بِهِمْ﴾ بمن فيها. رجوع من الخطاب إلى الغيبة، للمبالغة ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب، لا عاصفة، ولا ضعيفة ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بتلك الريح للينة، واستقامتها ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: الفلك، أو الريح الطيبة، أي: تلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف، أي: شديدة الهبوب ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ هو ما علا على الماء ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البحر، أو: من جميع أمكنة الموج ﴿وَزَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أهلكوا. جعل إحاطة العدو مثلاً في الإهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ من غير إشتراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ معه غيره. يقولون: ﴿لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ﴾ الأهوال، أو: من هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمتك، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك. ولم يجعل الكون في الفلك غاية للتيسير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيّزها. كأنه قيل: يسيّرکم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج والظنّ بالهلاك، والدعاء بالإنجاء. وجواب إذا ﴿جاءتها﴾ و﴿دعوا﴾ بدل من

فَلَمَّا أَجْنَحَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى
 أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا
 مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
 وَالْأَنْعَامُ حَتَّى

﴿ظَنُوا﴾ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم للهلاك، فهو ملتبس به.

٢٣ - ﴿فَلَمَّا أَجْنَحَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يفسدون فيها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ باطلاً، أي: مبطلين ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ظلمكم يرجع إليكم، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: حفص. أي: يتمتعون ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. و﴿على أنفسكم﴾ خبر لـ ﴿بغيتكم﴾. غيره بالرفع على أنّه خبر ﴿بغيتكم﴾ و﴿على أنفسكم﴾ صلته، كقوله: ﴿فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]. ومعناه: إنّما بغيتكم على أمثالكم. أو: هو خبر، و﴿متاع﴾ خبر بعد خبر. أو ﴿متاع﴾ خبر مبتدأ مضمّر، أي: هو ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وفي الحديث: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي، واليمين الفاجرة»^(١). وروى: «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين»^(٢). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لو بغى جبلٌ على جبلٍ لدكّ الباغي. وعن محمد بن كعب: ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: البغي، والنكث، والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣] ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]^(٣) ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنخبركم به، ونجازيكم عليه.

٢٤ - ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب ﴿فاخْتَلَطَ بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ يعني: الحبوب، والثمار، والبقول ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ يعني: الحشيش ﴿حَتَّى

(١) قال الحافظ: أخرجه إسحاق في مسنده. (حاشية الكشف ٢ / ٣٣٩).

(٢) قال الحافظ: أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني. (حاشية الكشف ٢ / ٣٤٠).

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَمْرًا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يُنْفَكُّونَ ﴿٢١﴾

إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴿٢١﴾ زينتها بالنبات، واختلاف ألوانه ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ تزينت به، وهو أصله، وأدغمت التاء في الزاي. وهو كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها، وتزينت بغيرها من ألوان الزين ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا﴾ متمكنون من منفعتها، محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها ﴿أَنَّهُمْ أَمْرًا﴾ عذابنا، وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم، واستيقانهم أنه قد سلم ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه، واستئصاله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ﴾ كأن لم يغن^(١) زرعها، أي: لم يلبث. حذف المضاف في هذه المواضع لابد منه ليستقيم المعنى ﴿بِالْأَمْسِ﴾ هو مثل في الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن أنفأ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُنْفَكُّونَ﴾ فينتفعون بضرب الأمثال. وهذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعدما التفّ، وتكاثف، وزين الأرض بخضرته، ورفيفه^(٢). وحكمة التشبيه: التنبيه على أن الحياة صفوها شبيبتها، وكدرها: شبيتها، كما أن صفو الماء في أعلى الإناء. قال:

ألم تر أن العمر كأس سلافة فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقته: تزين جنة الطين بمصالح الدنيا والدين، كاختلاط النبات على اختلاف التلوين. فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس، ورياحين الروح، وزهرة الزهد، وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة، وشقائق الطريقة.

(١) «غني بالمكان»: أقام، وعاش.

(٢) «رفيفه»: أي: تلالؤه. وشجر رفيف: إذا تندر أوراقه.

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

والخبيثة تخرج خلاف الخلف، وثمام^(١)، الإثم، وشوك الشرك، وشيح^(٢) الشح، وحطب العطب، ولعاع^(٣) اللعب. ثم يدعو معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايه الحياة مغترّاً، كما يهيج النبات مصفرّاً، فتغيب جثته في الرمس، كأن لم تغن بالأمس، إلى أن يعود ربيعُ البعث، وموعد العرض والبحث. وكذلك مال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره، ولا بدّ من ترك ما زاد، كما لا بدّ من أخذ الزاد. وأخذ المال لا يصفو من زلّة، كما أنّ خائض الماء لا ينجو من بلّة، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه. فما دون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز، والجواز إلى المفاز، لا يمكن إلا بقنطرة، وهي الزكاة، وعمارتها بذل الصلوات، فمتى اختلت القنطرة، غرقت أمواج القناطير المقنطرة. وعن هذا قال ﷺ: «الزكاة قنطرة الإسلام»^(٤)، وكذا المال يساعد الأوغاد، دون الأبحار. كما أنّ الماء يجتمع في الوهاد، دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكّد البخيل، كما أنّ الماء لا يجتمع إلا بسدّ المسيل، ثمّ يفنى ويتلف، ولا يبقى كالماء في الكفّ.

٢٥ - ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ هي الجنة، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها. أو: السلام: السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشو السلام بينهم، وتسليم الملائكة عليهم: ﴿إِلَّا قَلِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ويوفق من يشاء ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى الإسلام، أو طريق السنّة. فالدعوة عامّة على لسان رسول الله بالدلالة، والهداية، خاصّة من لطف المرسل بالتوفيق، والعناية. والمعنى: يدعو العباد كلّهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

(١) «ثمام»: هو عشب ضعيف، له خوص أو شبيه بالخوص.

(٢) «شبح»: نبات عشبي ترعاه الماشية.

(٣) «لُعاع»: الهندي.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط. (مجمع الزوائد ٣ / ٦٢).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ ۖ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۖ

٢٦ - ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ آمنوا بالله، ورسله ﴿الْحُسْنَى﴾ المثوبة الحسنى، وهي: الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رؤية الرب عز وجل. كذا عن أبي بكر، وحذيفة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت - رضي الله عنهم -. وفي بعض التفاسير: أجمع المفسرون على أنَّ الزيادة: النظر إلى الله تعالى. وعن صهيب: أنَّ النبي ﷺ قال: «إِذْ دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَتُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟» فيقولون: أَلَمْ تَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ وَتَنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قال: فيرفع الحجاب، فينظرون إلى الله تعالى، فما أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ^(١). ثم تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. والعجب من صاحب الكشف أنه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة، وقال: إنه حديث مدفوع^(٢)، مع أنه مرفوع. قد أورده صاحب «المصابيح» في الصحاح. وقيل: الزيادة: المحبة في قلوب العباد. وقيل: الزيادة: مغفرة من الله ورضوان. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان. والمعنى: ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢٧ - ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ عطف على ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي: وللذين كسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فنون الشرك. ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ الباء زائدة، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أو التقدير: جزاء سيئة مقدر بمثلها ﴿وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ذل، وهوان ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِّنْ عَاصِرٍ﴾ أي: لا يعصمهم أحدٌ من سخطه، وعقابه ﴿كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: جعل عليها غطاء من سواد الليل، أي: هم سود الوجوه. وقطعاً: جمع قطعة، وهو

(١) رواه أحمد (٤ / ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢) وابن ماجه (١٨٧).

(٢) في الكشف (٢ / ٣٤٢): مرفوع. وكذا في حاشية الأصل. أي: مفترى.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ بَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ

مفعول ثانٍ لأغشيت. ﴿قَطْعًا﴾: مكِّي، وعليّ، من قوله: ﴿بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] وعلى هذه القراءة: مظلماً صفة لقطع. وعلى الأول حال من ﴿الليل﴾. والعامل فيه ﴿أغشيت﴾ لأن ﴿من الليل﴾ صفة لـ ﴿قَطْعًا﴾، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة. أو: معنى الفعل في ﴿من الليل﴾ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢٨ - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: الكفار وغيرهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أَنْتُمْ﴾ أكد به الضمير في ﴿مكانكم﴾ لشدّة مسدّ قوله: الزموا ﴿وَشُرَكَائُكُمْ﴾ عطف عليه ﴿فَرَيْلًا﴾ ففرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطعنا أقرانهم، والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾ مَنْ عبده مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولِي الْعَقْلِ، أو: الأصنام ينطقها الله عز وجل ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ إنّما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أَنْ تَتَّخِذُوا اللَّهَ أُنْدَادًا، فاطعتموهم، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَآئِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْغَيْبَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

٢٩ - ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله ﴿شَهِيدًا﴾، وهو تمييز ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ «إِنْ» مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية.

٣٠ - ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان، أو: في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿بَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ﴾ تختبر، وتذوق ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ من العمل، فتعرف كيف هو: أقبيح أم حسن؟ أنافع أم ضار؟ أمقبول أم مردود؟ وقال الزجاج: تعلم كلّ نفس ما قدمت. ﴿تتلو﴾: حمزة، وعليّ، أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو النار، أو: تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر. كذا عن الأخفش ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ربهم الصادق

وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

في ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو: الذي يتولى حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو: بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب، وشفاعة الآلهة.

٣١ - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويًا عليه من الفطرة العجيبة؟ أو من يجميها من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء؟ ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: الحيوان، والفرخ، والزرع، والمؤمن، والعالم، من النطفة، والبيضة، والحب، والكافر، والجاهل، وعكسها ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فسيجيئونك عند سؤالك: أن القادر على هذه هو: ﴿الله﴾ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك في العبودية، إذ اعترفتكم بالربوبية.

٣٢ - ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من هذه قدرته هو ﴿الله﴾ ﴿رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي: لا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطى الحق وقع في الضلال ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك.

٣٣ - ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ﴿كَلِمَاتُ﴾: شامي ومدني، أي: كما حق وثبت: أن الحق بعده الضلال، أو: كما حق: أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾. ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تزدوا في كفرهم، وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أي: حق عليهم انتفاء الإيمان، أو: حق عليهم كلمة الله: أن إيمانهم غير

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتَ
تُؤَفِّكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى
الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ

كائن، أو: أراد بالكلمة العدة بالعذاب، و﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تعليل، أي: لأنهم لا يؤمنون.

٣٤ - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ إنما ذكر ﴿ثم يعيده﴾ وهم غير مقرين بالإعادة؛ لأنه لظهور برهانها جعل أمراً مسلماً. على أن فيهم من يقر بالإعادة. أو: يحتمل إعادة غير البشر كإعادة الليل والنهار، وإعادة الإنزال والنبات ﴿قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ أمر نبيه بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني: أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق، فكلم عنهم ﴿فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن قصد السبيل؟

٣٥ - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يرشد إليه ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ يقال: هداه للحق وإلى الحق، فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى. كما يقال: «شرى» بمعنى «اشترى»، ومنه قراءة حمزة، وعليّ: ﴿أمن لا يهدي﴾ بمعنى: يهتدي. ﴿لا يهدي﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال: مكّي، وشامي، وورش. وبإشمام الهاء فتحة: أبو عمرو. وبكسر الهاء وفتح الياء: عاصم غير يحيى. والأصل ﴿يهتدي﴾ وهي قراءة عبد الله، فأدغمت التاء في الدال، وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت لالتقاء الساكنين. وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال: يحيى، لإتباع ما بعدها. وبسكون الهاء وتشديد الدال: مدني، غير ورش. والمعنى: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما وفقهم، وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد يهدي إلى الحق مثل هداية الله؟ ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع، أم لا يهدي أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهتدي غيره إلا أن يهديه الله؟ وقيل: معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدي إلا

فَالْكَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

أن ينقل. أو: لا يهتدي، ولا يصحّ منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً ناطقاً فيهديه ﴿فَالْكَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل، حيث ترعمون أنهم أنداد الله.

٣٦ - ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في قولهم للأصنام: إنها آلهة، وإنها شفعاء عند الله. والمراد بالأكثر: الجميع ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ بغير دليل. وهو اقتداؤهم بأسلافهم ظناً منهم أنهم مصيبون ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو العلم ﴿شَيْئًا﴾ في موضع المصدر، أي: إغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتباع الظن، وترك الحق.

٣٧ - ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: افتراء من دون الله. والمعنى: وما صحّ، وما استقام أن يكون مثله في علو أمره، وإعجازه مفترى ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو ما تقدّمه من الكتب المنزلة ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما كتب، وما فرض من الأحكام والشرائع، من قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ داخل في حيز الاستدراك، كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب، كائناً من رب العالمين. ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقاً من رب العالمين، وتفصيلاً منه، لا ريب في ذلك. فيكون ﴿من رب العالمين﴾ متعلقاً بتصديق، وتفصيل. ويكون ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شك فيه كريم.

٣٨ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل: أيقولون اختلقه؟ ﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما ترعمون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: شبيهة به في البلاغة، وحسن النظم، فأنتم مثلي في العريية ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وادعوا من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراه.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ
 وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي

٣٩ - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه، ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه، ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشراذهم عن مفارقة دين آبائهم. ومعنى التوقع في ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر، ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به. وجاء بكلمة التوقع ليؤذن: أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه، لما كرر عليهم التحدي، وجربوا قواهم في المعارضة، وعرفوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كَذَّابٌ كَذَّابٌ﴾ مثل ذلك التكذيب ﴿كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم، وقبل تدبرها عناداً، وتقليداً للآباء. ويجوز أن يكون معنى ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمها، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، ففسرعو إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمها، وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يجربوا إخباره بالمغيبات، وصدقه وكذبه ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

٤٠ - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالنبى، أو: بالقرآن، أي: يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكن يعاند بالتكذيب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لا يصدق به، ويشك فيه. أو: يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيسر. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين، أو: المصترين.

٤١ - ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وإن تموا على تكذيبك، ويشت من إجابتهم ﴿فَقُلْ لِي

عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانُوا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ

عَمَلِي ﴿﴾ جزاء عملي ﴿﴾ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴿﴾ جزاء أعمالكم ﴿﴾ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿﴾ فكل مؤاخذ بعمله.

٤٢ - ﴿﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴿﴾ ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون، ولا يقبلون، فهم كالصم ﴿﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿﴾ أنطمع أنك تقدر على إسماع الصم، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؟ لأنَّ الأصمَّ العاقل ربما تفرَّس، واستدلَّ إذا وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع، فقد تمَّ الأمر.

٤٣ - ﴿﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴿﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك، ويعاينون أدلة الصدق، وأعلام النبوة، ولكنهم لا يصدقون ﴿﴾ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿﴾ أحسب أنك تقدر على هداية العمي، ولو انضمَّ إلى فقد البصر فقد البصيرة؛ لأنَّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس، وأما العمى مع الحق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا، ويصدقوا؛ كالصم والعمي؛ الذين لا عقول لهم، ولا بصائر.

٤٤ - ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿﴾ ولكن الناس ﴿﴾ حمزة، وعليّ، أي: لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال، ولكنهم ظلّموا أنفسهم بترك الاستدلال، حيث عبدوا جهاداً، وهم أحياء.

٤٥ - ﴿﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ ﴿﴾ وبالياء: حفص^(١) ﴿﴾ كَانُوا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴿﴾

(١) في الأصل: «نحشرهم» وهي قراءة ابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٣/٧٧).

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ
الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

استقصروا مدة لبثهم في الدنيا، أو: في قبورهم لهول ما يرون. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم. ﴿كَانَ لَمْ يَلْبَثُوا﴾: حال من ﴿هم﴾ أي: ﴿نحسرهم﴾ مشبهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة. و﴿كَانَ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنهم. و﴿يتعارفون بينهم﴾: حال بعد حال، أو مستأنف على تقديرهم: ﴿يتعارفون بينهم﴾: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول، أي: ﴿يتعارفون بينهم﴾ قائلين ذلك، أو: هي شهادة من الله على خسرانهم. والمعنى: أنهم وَضَعُوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ للتجارة عارفين بها. وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

٤٦ - ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم ﴿فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب ﴿نتوفيتك﴾. وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف، أي: ﴿وإنما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريكه، فنحن نريكه في الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكرت الشهادة، والمراد مقتضاها، وهو العقاب، كأنه قيل: ثم الله معاقب على ما يفعلون. وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى الواو.

٤٧ - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ يبعث إليهم لينبئهم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات، فكذبوه، ولم يتبعوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين النبي ومكذبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فَأُنْجِيَ الرسول وعُذِّبَ المكذبون. أو: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم يوم القيامة ﴿رسول﴾ تنسب إليه، وتدعى به ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذب أحد بغير ذنبه.

٤٨ - ولما قال: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ أي: من العذاب،

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ

استعجلوا لما وعدوا من العذاب، فنزل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنَّ العذاب نازل. وهو خطاب منهم للنبي والمؤمنين.

٤٩ - ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾ من مرض، أو فقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحة، أو غنى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح، فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة، ولا يتأخرون، فلا تستعجلوا.

٥٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلونه ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ نصب على الظرف، أي: وقت بيات، وهو الليل، وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشغولون بطلب المعاش، والكسب ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: من العذاب. والمعنى: أَنَّ العذاب كله مكروه، موجب للنفور، فأى شيء تستعجلون منه، وليس شيء منه يوجب الاستعجال؟ والاستفهام في ﴿مَاذَا﴾ يتعلق بأرأيتم؛ لأن المعنى: أخبروني ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾؟ وجواب الشرط محذوف، وهو: تندموا على الاستعجال، أو: تعرفوا الخطأ فيه. ولم يقل: ماذا يستعجلون منه؛ لأنه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال، وهو الإجماع. أو: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ جواب الشرط، نحو: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثم يتعلق الجملة بأرأيتم. أو:

٥١ - ﴿أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ جواب الشرط. و﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ اعتراض. والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. ودخول حرف الاستفهام على ﴿ثُمَّ﴾ كدخوله على

ءَالْفَنِّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

الواو والفاء في ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ [الأعراف: ٩٧] ﴿ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ [الأعراف: ٩٨] ﴿ ءَالْفَنِّ ﴾ على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب ﴿ آلآن ﴾ أمتم به ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي: بالعذاب تكديباً واستهزاء. ﴿ آلآن ﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام، وإلقاء حركتها على اللام: نافع.

٥٢ - ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ عطف على قيل المضمرة قبل ﴿ آلآن ﴾ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي: الدوام ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الشرك، والتكذيب.

٥٣ - ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ ﴾ ويستخبرونك فيقولون: ﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار، والاستهزاء. والضمير للعذاب الموعود ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِي وَرَبِّي ﴾ نعم والله ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ إن العذاب كائن لا محالة ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين العذاب، وهو لاحق بكم لا محالة.

٥٤ - ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ كفرت، وأشركت. وهو صفة لنفس، أي: ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ما في الدنيا اليوم من خزائنها، وأموالها ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ لجعلته فدية لها. يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى: فداه ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وأظهروها. من قولهم: أسر الشيء: إذا أظهره. أو: أخفوها عجزاً عن النطق لشدة الأمر. فأسر من الأضداد ﴿ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ بين الظالمين والمظلومين. دل على ذلك ذكر الظلم ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

٥٥ - ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله بقوله: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فكيف يقبل الفداء، وأنه الميثب المعاقب، وما وعده من الثواب أو

أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ

العقاب فهو حق لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥٦ - ﴿هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجع، فيخاف، ويرجى.

٥٧ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة، وتنبيه على التوحيد. والموعظة: التي تدعو إلى كل مرغوب، وتزجر عن كل مرهوب، فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب، وزاجر عن كل مرهوب، إذ الأمر يقتضي حسن المأمور به، فيكون مرغوباً، وهو يقتضي النهي عن ضده، وهو قبيح، وعلى هذا في النهي ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: صدوركم من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن آمن به منكم.

٥٨ - ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أصل الكلام: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ فليفرحوا بذلك ﴿فليفرحوا﴾. والتكرير للتأكيد، والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، أو: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا، فبذلك فليفرحوا، وهما كتاب الله والإسلام. في الحديث: «من هداه الله للإسلام، وعلمه القرآن، ثم شكى الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه»^(١) وقرأ الآية ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وبالتالي: شامي ﴿فليفرحوا﴾ يعقوب.

٥٩ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ منصوب

فَجَعَلْنَاهُ مِثْلَهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ اُذِنَ لَكُمْ اَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ اِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ اِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا اِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ

بأنزل، أو بـ ﴿أرأيتم﴾، أي: أخبروني ﴿فَجَعَلْنَاهُ مِثْلَهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ فبعضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقوله: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُونُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]. نعم الأرزاق تخرج من الأرض. ولكن لما نيظت أسبابها بالسماء - نحو المطر الذي به تثبت الأرض النبات، والشمس التي بها النضج، وينع الثمار - أضيف إنزالها إلى السماء ﴿قُلْ ءَاللهُ اُذِنَ لَكُمْ﴾ متعلق بأرأيتم. و﴿قل﴾ تكرير للتوكيد. والمعنى: أخبروني ﴿الله اذن لكم﴾ في التحليل والتحریم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ﴾ أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. أو: الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أنفثرون على الله، تقريراً للافتراء. والآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وألا يقول أحد في شيء: جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، وإلا فهو مفترٍ على الديان.

٦٠ - ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ﴾ ينسبون ذلك إليه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ منصوب بالظن، وهو ظن واقع فيه، أي: أي شيء ظن المفتريين في ذلك اليوم ما يصنع بهم؟ وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة. وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، ولا يتنبهون ما هدوا إليه.

٦١ - ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافية. والخطاب للنبي ﷺ. والشأن: الأمر ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ من التنزيل، كأنه قيل ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ من التنزيل ﴿مِنْ قُرْءَانٍ﴾ لأن كل جزء منه قرآن. والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو: من الله عز وجل ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون. من: أفاض في الأمر: إذا

وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ وما يبعد، وما يغيب. وبكسر الزاي: علي؛ حيث كان ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ رفعهما حمزة على الابتداء. والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. يعني: اللوح المحفوظ. ونصبهما غيره على نفي الجنس. وقدمت الأرض على السماء هنا، وفي سبأ قدمت السموات، لأنّ العطف بالواو. وحكمه حكم التثنية.

٦٢ - ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ هم الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة. أو: هم الذين تولّى الله هداهم بالبرهان، الذي آتاهم، فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه. أو: هم المتحابون في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. أو: هم المؤمنون المتقون؛ بدليل الآية الثانية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن الناس.

٦٣ - ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ منصوب بإضمار، أعني: أو لأنّه صفة لأولياء. أو مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ﴿الذين آمنوا﴾ ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك، والمعاصي.

٦٤ - ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير موضع من كتابه. وعن النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»^(٢). و«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٣). وهذا لأنّ مدّة الوحي ثلاث وعشرون سنة. وكان في ستة أشهر منها يؤمر في النوم بالإنذار. وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً. أو: هي حبة

(١) رواه الترمذي (٢٢٧٥) وابن ماجه (٣٨٩٨).

(٢) رواه أحمد (٦ / ٣٨١) وابن ماجه (٣٨٩٦).

(٣) رواه أحمد (٤ / ١٢ و ١٣) والترمذي (٢٢٧٨).

وَفِي الْأَخِرَةِ لَا يَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

الناس له، والذكر الحسن. أو: لهم البشرى عند النزع بأن يرى مكانه في الجنة ﴿وَفِي الْأَخِرَةِ﴾ هي الجنة ﴿لَا يَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وكلتا الجملتين اعتراض. ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام، تقول: فلان ينطق بالحق، والحق أبلج. وتسكت.

٦٥ - ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ تكذيبهم، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك، وإبطال أمرك ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: مالي لا أحزن؟ فقول: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ. إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منهما، لا هم، ولا غيرهم، فهو يغلبهم، وينصرك عليهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] أو: به يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك. والوقف لازم على ﴿قَوْلُهُمْ﴾، لثلا يصير ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ مقول الكفار ﴿جَمِيعاً﴾ حال ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يدبرون، ويعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

٦٦ - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء، وهم: الملائكة والثقلان. وخصهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له، وفي مملكته، ولا يصح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق ألا يكون له ندأً وشريكاً ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمونها شركاء، لأن شركة الله في الربوبية محال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا ظنهم أنهم شركاء الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يخزرون، ويقدرّون أن تكون شركاء تقديرًا باطلاً. أو: استفهامية، أي: وأي شيء يتبعون؟ و﴿شركاء﴾ على هذا نصب يبدعون، وعلى الأول يتبع. وكان حقّه: وما يتبع الذين يدعون من دون الله

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُم مِّن سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُوهُ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنِّي الْبَشَرُ الْأَوَّلُ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبُ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

شركاء شركاء، فاقصر على أحدهما للدلالة. والمحذوف مفعول ﴿يدعون﴾. أو: موصولة معطوفة على ﴿من﴾ كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم. ثم نبه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله:

٦٧ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب التردد في النهار ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئاً لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم، ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع مذكر معتبر.

٦٨ - ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علة لنفي الولد، لأنه إنما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به، أو فقير ليستعين به، أو ذليل ليتشرف به. والكل أمانة الحاجة. فمن كان غنياً غير محتاج كان الولد عنه منفياً، ولأن الولد بعض الوالد فيستدعي أن يكون مركباً، وكل مركب ممكن، وكل ممكن يحتاج إلى الغير، فكان حادثاً، فاستحال القديم أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً. ولا تجتمع النبوة معه ﴿إِنْ عِنْدَكُم مِّن سُلْطٰنٍ بِهٰذَا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول. والباء حقها أن تتعلق بقوله: ﴿إِنْ عِنْدَكُم﴾ على أن يجعل القول مكاناً لسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان. ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فقال: ﴿أُنْقُلُوهُ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦٩ - ﴿قُلْ إِنِّي الْبَشَرُ الْأَوَّلُ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنة.

مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾

٧٠ - ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، حيث يقيمون به رئاستهم في الكفر، ومناصبه النبي ﷺ بالتظاهر به ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ المخلد ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ - ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وقرأ عليهم. ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه. والوقف عليه لازم، إذا لو وصل لصار ﴿إِذْ﴾ ظرفاً لقوله ﴿وَأَتْلُ﴾. بل التقدير: واذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ عظم وثقل، كقوله: ﴿وَأَنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿مَقَامِي﴾ مكاني. يعني: نفسه، كقوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] أي: خاف ربه. أو: قيامي ومكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاماً. أو: مقامي ﴿وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيتاً، وكلامهم مسموعاً ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ من أجمع الأمر: إذا نواه، وعزم عليه ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع، أي: فأجمعوا أمركم مع شركائكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: غمّاً عليكم وهماً. والغمة والغمة كالكرب والكربة. أو: ملتبساً في خفية. والغمة: السترة، من غمّه: إذا ستره. ومنه الحديث: «لا غمة في فرائض الله»^(١) أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها. والمعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاككم مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدوا إليّ ما هو حقّ عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه، أو: اصنعوا ما أمكنكم ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.

(١) قال ابن حجر: هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٦٠).

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَفِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

٧٢ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري، ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ فأوجب التولي. أو: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ ففانني ذلك بتوليكم ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وهو الثواب الذي يثيني به في الآخرة، أي: ما نصحتكم إلا لله، لا لغرض من أغراض الدنيا. وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن، والعلم الديني ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المستسلمين لأوامره ونواهي. ﴿إِنْ أَجَرِيَ﴾ بالفتح: مدني، وشامي، وأبو عمرو، وحفص.

٧٣ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فداموا على تكذيبه. ﴿فَنَجَّيْتَهُ﴾ من الغرق ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴿هو تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسلية له.

٧٤ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح - عليه السلام - ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ أي: هوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فأصروا على الكفر بعد المجيء ﴿بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل مجيئهم، يريد: أنهم كانوا قبل بعثة الرسول أهل جاهلية مكذبين بالحق. فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ مثل ذلك الطبع نختم ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاورين الحد في التكذيب.

٧٥ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا ﴿بِالآيَاتِ التَّسْعِ﴾ فاستكبروا عن قبولها. وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن قبولها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ كفاراً

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا جَاءَ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٩﴾

ذوي آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها، واجترؤوا على ردّها.

٧٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ فلما عرفوا أنّه هو الحقّ، وأنّه من عند الله ﴿قَالُوا﴾ لحبهم الشهوات: ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا جَاءَ آبَاءَنَا﴾ وهم يعلمون أنّ الحقّ أبعد شيء من السحر.

٧٧ - ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ هو إنكار، ومقولهم محذوف، أي: هذا سحر. ثم استأنف إنكاراً آخر، فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ خبر ومبتدأ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي: لا يظفر.

٧٨ - ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا﴾ لنصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: الملك، لأن الملوك موصوفون بالكبرياء، والعظمة، والعلو ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به. ﴿وَيَكُونُ﴾: حاد، ويحيى.

٧٩ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ سحار: حمزة، وعليّ.

٨٠ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾.

٨١ - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة واقعة مبتدأ. و﴿جِئْتُمْ بِهِ﴾ صلتها. و﴿السِّحْرُ﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمّاه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. ﴿السحر﴾ بعد وقف: أبو عمرو، على الاستفهام. فعلى هذه القراءة ﴿مَا﴾ استفهامية، أي: أي شيء جئتم به؟ أهو السحر؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ يظهر بطلانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يشبهه، بل يدمره.

وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾

٨٢ - ﴿ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ ﴾ ويشبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ بأوامره، وقضاياه. أو: يظهر الإسلام بعداته بالنصرة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك.

٨٣ - ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى ﴾ في أول أمره ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ ﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه. وذلك أنه دعا الآباء، فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. أو الضمير في ﴿ قومه ﴾ لفرعون. والذرية: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته. والضمير في: ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة، ومضر. أو: لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. أو: إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشرف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. دليله قوله: ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ يريد أن يعذبهم فرعون ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ ﴾ لغالب فيها، قاهر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتو بادعائه الربوبية.

٨٤ - ﴿ وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ صدقتم به، وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ فإليه أسندوا أمرهم في العصمة من فرعون ﴿ إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ شرط في التوكل الإسلام، وهو: أن يسلموا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة، لا حظ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط.

٨٥ - ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ إنما قالوا ذلك، لأن القوم كانوا مخلصين. لا جرم أن الله قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجّاهم، وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه. فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ موضع فتنة

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَأَ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ

لهم، أي: عذاب يعدّبوننا، أو يفتنوننا عن ديننا، أي: يضلّوننا. والفاتن: المضلّ عن الحق.

٨٦ - ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من تعبيدهم وتسخيرهم.

٨٧ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَأَ بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ تبوأ المكان: اتخذه مباءة، كقوله: توطّنه: إذا اتخذ وطنًا. والمعنى: اجعلوا بمصر بيوتًا من بيوتهم مباءة لقومكم، ومرجعًا يرجعون إليه للعبادة، والصلاة فيه ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مساجد متوجّهة نحو القبلة، وهي الكعبة. وكان موسى ومن معه يصلّون إلى الكعبة، وكانوا في أول الأمر مأمورين بأن يصلّوا في بيوتهم في خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم، فيؤذوهم، ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المسلمون على ذلك في أول الإسلام بمكة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ في بيوتكم حتّى تأمنوا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ياموسى. ثنى الخطاب أولًا، [ثمّ جمع، ثمّ وحّد آخرًا]^(١) لأنّ اختيار مواضع العبادة مما يفوض إلى الأنبياء، ثمّ جمع، لأنّ اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور، وخصّ موسى - عليه السلام - بالبشارة تعظيمًا لها، وللمبشّر بها.

٨٨ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً﴾ هو: ما يتزيّن به من لباس، أو حلّي، أو فرش، أو أثاث أو غير ذلك ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي: نقدًا، ونعمًا، وضيعة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ﴾ ليضلّوا أي: الناس عن طاعتك. كوفيّ. ولا وقف على الدنيا، لأنّ قوله ﴿ليضلّوا﴾ متعلّق بآيت. و﴿رَبَّنَا﴾ تكرار الأوّل للإلحاح في التضرّع. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: إذا علم منهم أنّهم يضلّون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلّوا عن سبيله.

رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
 قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
 وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا

وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فتكون الآية حجة على المعتزلة ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أهلكها، وأذهب آثارها، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك. والطمس: المحو، والهلاك. قيل: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهشاتها منقوشة، وقيل: وسائر أموالهم كذلك ﴿وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ اطبع على قلوبهم، واجعلها قاسية ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿أشدد﴾ ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ إلى أن يروا العذاب الأليم. وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وكان ذلك إيمان يأس فلم يقبل. وإنما دعا عليهم بهذا لما أيس من إيمانهم، وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون، فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون، فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء، لأنه أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإيمان. وهو يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفراً.

٨٩ - ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ قيل: كان موسى - عليه السلام - يدعو وهارون يؤمن. فثبت أن التأمين دعاء، فكان إخفاؤه أولى. والمعنى: أن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فائتبا على ما أنتما عليه من الدعوة، والتبليغ ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتبعان طريق الجهلة، الذين لا يعلمون صدق الإجابة، وحكمة الإمهال. فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون الثنية، شامي. وخطأ بعضهم، لأن النون الخفيفة واجبة السكون. وقيل: هو إخبار عما يكونان عليه، وليس بنهي. أو: حال، وتقديره: فاستقيما غير متبعين.

٩٠ - ﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ هو دليل لنا على خلق الأفعال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ فلحقهم. يقال: تبعته حتى أتبعته ﴿بَغْيًا﴾ تطاولاً

وَعَدُوا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَآلَقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَالْيَوْمَ
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً

﴿وَعَدُوا﴾ ظلماً. وانتصبا على الحال، أو: على المفعول له ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ﴾ لا وقف عليه، لَأَنَّ ﴿قَالَ ءَامَنْتُ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ ﴿أَنْتُمْ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾:
جمزة، وعلي، على الاستئناف بدل من ﴿ءَامَنْتُ﴾. وبالفتح غيرهما على حذف
الباء، التي هي صلة الإيمان ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
فيه دليل على أَنَّ الإيمان والإسلام واحد، حيث قال ﴿ءَامَنْتُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنَا
من المسلمين﴾. كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات،
حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وكانت المرة الواحدة
تكفي في حالة الاختيار.

٩١ - ﴿ءَآلَقَنَ﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدركك الغرق،
وأيست من نفسك؟ قيل: قال ذلك حين أجمه الغرق. والعامل فيه: أتؤمن
﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان. روي:
أَنَّ جبريل - عليه السلام - أتاه بفتياً: ما قول الأمير في عبدٍ لرجل نشأ في ماله
ونعمته، فكفر نعمته، وجحد حقه، وادعى السيادة دونه؟ فكتب فيه: يقول
أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن
يغرق في البحر. فلما أجمه الغرق ناوله جبريل - عليه السلام - خطه، فعرفه.

٩٢ - ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك بنجوة من الأرض. فرماه الماء إلى الساحل
كأنه ثور ﴿بِدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما
أنت بدن. أو ﴿بِبدنك﴾ كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء، ولم يتغير. أو: عرياناً
لست إلا بدنأ من غير لباس. أو: بدروعك، وكانت له درع من ذهب يُعَرَفُ
بها. وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - (بأبدانك) وهو مثل قولهم: هو بأجرامه، أي:
ببدنك كله وافيأً بأجزائه. أو: بدروعك، لأنه ظاهر بينها ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ
ءَايَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة. وهم بنو إسرائيل. وكان في أنفسهم: أَنَّ

وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ آلَ كِتَابٍ مِّن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ

فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه. وقيل: ﴿لِمَنْ خَلَفَكَ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديته، وأن ما كان يدعيه من الربوبية محال، وأنه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره إلى ماترون لعصيانه ربه، فما الظن بغيره؟ ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾.

٩٣ - ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو مصر والشام ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في دينهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: التوراة. وهم اختلفوا في تأويلها، كما اختلفت أمة محمد ﷺ في تأويل الآيات من القرآن. أو: المراد: العلم بمحمد. واختلاف بني إسرائيل - وهم أهل الكتاب - : اختلافهم في صفته أنه هو، أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم: أنه هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يميز المحق من المبطل، ويجزي كلاً جزاءه.

٩٤ - ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ آلَ كِتَابٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لما قدم ذكر بني إسرائيل، وهم قراء الكتاب، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم، لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن، وبصحة نبوته ﷺ، ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً - وسبيل من خالجه شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين، وأدلتها، أو بمباحثة العلماء - فسل علماء أهل الكتاب، فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلاً عن غيرك. فالمراد وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ، لا وصف رسول الله ﷺ بالشك فيه. ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات الواضحة، والبراهين اللامعة:

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

أَنْ مَا أَتَاكَ هُوَ الْحَقُّ، الَّذِي لَا مَجَالَ فِيهِ لِلشَّكِّ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ الشَّاكِّينَ. وَلَا وَقَفَ عَلَيْهِ لِلْعُطْفِ.

٩٥ - ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: فائتبت، ودم على ما أنت عليه من انتفاء المزية عنك، والتكذيب بآيات الله، أو: هو على طريقة التهييج والإلهاب، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧]، ولزيادة التثبيت والعصمة. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله: «لا أشك، ولا أسأل، بل أشهد أنه الحق»^(١) أو: خطب رسول الله ﷺ، والمراد أمته، أي: وإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] أو: الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك، كقول العرب: إذا عَزَّ أخوك فهن. أو: ﴿إِنْ﴾ للنفي، أي: فما كنت في شك فاسأل. أي: لا تأمرك بالسؤال، لأنك شاك، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم - عليه السلام - بمعاينة إحياء الموتى. فإن قلت: إنما يجيء «إِنْ» للنفي إذا كان بعده إلا، كقوله: ﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]. قلت: ذاك غير لازم، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١] ف«إِنْ» للنفي، وليس بعده إلا.

٩٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً. أو: قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨]. ولا وقف على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن: تتعلق بما قبلها.

٩٧ - ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم. أو: عند القيامة ولا يقبل منهم.

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١/ ١٦٨).

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ
كُلُّهُمْ جَمِيعًا

٩٨ - ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلاً كانت قرية واحدة من القرى التي
أهلكناها ثابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان قبل المعاناة، ولم تؤخر كما أخر
فرعون إلى أن أخذ بمخنقه ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ بأن تقبل الله إيمانها منها بوقوعه
في وقت الاختيار ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قوم يونس. أو:
متصل، والجملة في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة
﴿إِلَّا قَوْمٌ يونس﴾. وانتصابه على أصل الاستثناء ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي: أن يونس - عليه
السلام - بعث إلى نينوى من أرض الموصل، فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً.
فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح كلهم، وعجوا^(١) أربعين ليلة،
وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وفرقوا بين النساء
والصبيان والدواب وأولادها، فحن بعضهم إلى بعض، وأظهروا الإيمان
والتوبة، فرحمهم، وكشف عنهم. وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وبلغ من
توبتهم أن ترادوا المظالم، حتى إنَّ الرجل كان يقلع الحجر، وقد وضع عليه
أساس بنيانه، فيرده. وقيل: خرجوا لما نزل بهم العذاب إلى شيخ من بقية
علمائهم، فقال لهم: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا
حيّ، لا إله إلا أنت. فقالوا، فكشف الله عنهم. وعن الفضيل - قدس الله
روحه - قالوا: اللهم إنَّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعظم منها وأجلّ،
افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

٩٩ - ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة،
والشمول ﴿جَمِيعًا﴾ حال. مجتمعين على الإيمان، مطبقين عليه، لا يختلفون
فيه. أخبر عن كمال قدرته، ونفوذ مشيئته: أنه لو شاء لآمن من في الأرض

(١) «عجوا»: رفعوا أصواتهم.

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا

كلهم، ولكنه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر من علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به. وقول المعتزلة: المراد بالمشيئة مشيئة القسر والإجاء - أي: لو خلق فيهم الإيمان جبراً لآمنا. لكن قد شاء أن يؤمنوا اختياراً فلم يؤمنوا، دليله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ - أي: ليس إليك مشيئة الإكراه والجبر في الإيمان، إنما ذلك إليّ - فاسد، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله ما يحصل بقدرته، ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار. وتأويله عندنا: أن الله تعالى لطفاً، لو أعطاهم لآمنا كلهم عن اختيار، ولكن علم منهم أنهم لا يؤمنون، فلم يعطهم ذلك، وهو التوفيق. والاستفهام في ﴿أَفَأَنْتَ﴾ بمعنى النفي، أي: لا تملك أنت يا محمد أن تكرههم على الإيمان، لأنه يكون بالتصديق والإقرار، ولا يمكن الإكراه على التصديق.

١٠٠ - ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمشيئته، أو: بقضائه، أو: بتوفيقه وتسهيله، أو: بعلمه ﴿وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: العذاب، أو: السخط، أو: الشيطان، أي: ويسلّط الشيطان ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم. ﴿وَنُجِّلُ﴾: حماد، ويحيى.

١٠١ - ﴿قُلْ أَنْظِرُوا﴾ نظر استدلال، واعتبار ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار، وخروج الزروع والثمار ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ «ما» النافية. ﴿وَالنَّذِيرُ﴾ والرسل المندرون، أو: الإنذارات ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون.

١٠٢ - ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: وقائع الله فيهم، كما يقال: أيام العرب لوقائعها ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. ١٠٣ - ﴿ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا﴾ معطوف على كلام محذوف، يدل عليه ﴿إِلَّا مِثْلَ

وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِفَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ

أيام الذين خلوا من قبلهم ﴿ كآته قيل: نهلك الأمم ﴾ ثم ننجي رسلنا ﴿ على حكاية الأحوال الماضية ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴿ ومن آمن معهم ﴾ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿ أي: مثل ذلك الإنجاء ﴾ ننجي المؤمنين ﴿ منكم، ونهلك المشركين. ﴾ ﴿ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ اعتراض، أي: حق ذلك علينا حقاً. ﴿ نُنَجِّي ﴾ بالتخفيف: علي، وحفص.

١٠٤ - ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يا أهل مكة. ﴿ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ وصحته، وسداده، فهذا ديني فاستمعوا وصفه. ثم وصف دينه فقال: ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: الأصنام ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ ﴾ يميّتكم. وصفه بالتوفي ليريه: أنه الحقيق بأن يخاف، ويتقى، ويعبد دون ما لا يقدر على شيء ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: بأن أكون. يعني: أن الله أمرني بذلك بما ركب في من العقل، وبما أوحى إلي في كتابه.

١٠٥ - ﴿ وَأَنْ أَقِفَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ أي: ﴿ و ﴾ أوحى إلي ﴿ أَنْ أَقِفَ ﴾ ليشاكل قوله: ﴿ أُمِرْتُ ﴾، أي: استقم مقبلاً بوجهك على ما أمرك الله، أو: استقم إليه، ولا تلتفت يميناً، ولا شمالاً ﴿ حَنِيفًا ﴾ حال من الدين، أو: الوجه ﴿ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

١٠٦ - ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾ إن دعوته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن خذلته ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فكفى عنه بالفعل إيجازاً ﴿ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ «إذا» جزاء للشرط، وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين، لأنه لا ظلم أعظم من الشرك.

١٠٧ - ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ ﴾ يصبك ﴿ بِضُرٍّ ﴾ مرض ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ﴾ لذلك الضرر ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ إلا الله ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ عافية ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ فلا

يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

راد لمراهه ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه، والاعتماد إلا عليه ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ المكفر بالبلاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ المعافي بالعطاء.

أتبع النهي عن عبادة الأوثان، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر: أن الله هو الضار النافع، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده، دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به؟! وكذا إن أردك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من الفضل والإحسان، فكيف بالأوثان؟ وهو الحقيق إذا بأن توجه إليه العبادة دونها. وهو أبلغ من قوله ﴿إِن أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٢٣٨]. وإنما ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الآخر، كأنه أراد أن يذكر الأمرين: الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس، وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدل بما ذكر على ما ترك. على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾.

١٠٨ - ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا أهل مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن، أو الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ اختار الهدى، واتبع الحق ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فما نفع باختياره إلا نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن أثر الضلال فما ضر إلا نفسه. ودل اللام وعلى على معنى النفع والضر ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكل إلي أمركم، وإنما أنا بشير ونذير.

١٠٩ - ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ لك بالنصرة عليهم، والغلبة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه المطلع على السرائر، فلا يحتاج إلى بيّنة، وشهود.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَخْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْ
مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا

١ - ﴿الرَّ كِتَابٌ﴾ أي: هذا ﴿كتاب﴾. فهو خبر مبتدأ محذوف ﴿أَخْكَمْتُ﴾
ءَايَتُهُ ﴿صِفَةٌ لَهُ، أَي: نَظَّمْتُ نَظْمًا رَّصِينًا مُحْكَمًا، لَا يَقَعُ فِيهِ نَقْصٌ وَلَا خَلَلٌ،
كَالْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ﴾ ثُمَّ فَصَّلْتُ ﴿كَمَا تَفَصَّلُ الْقُلُودُ بِالْفَرَائِدِ: مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ،
وَالْأَحْكَامِ، وَالْمَوَاعِظِ، وَالْقَصَصِ. أَوْ: جَعَلْتُ فُصُولًا سُورَةً سُورَةً، وَآيَةً وَآيَةً.
أَوْ: فَارْتَقَتْ فِي التَّنْزِيلِ، وَلَمْ تَنْزَلْ جُمْلَةً. أَوْ: فَصَّلَ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ،
أَي: يُبَيِّنُ وَلِيُخَصِّصَ. وَلَيْسَ مَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾ التَّرَاخِي فِي الْوَقْتِ، وَلَكِنْ فِي الْحَالِ ﴿مِنْ
لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ صِفَةٌ أُخْرَى لِكِتَابٍ، أَوْ: خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ: صِلَةٌ لِأَحْكَمْتُ
وَفَصَّلْتُ، أَي: مِنْ عِنْدِهِ أَحْكَامُهَا، وَتَفْصِيلُهَا.

٢ - ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَي: لثَلَا تَعْبُدُوا. أَوْ: (أَنْ) مَفْسُورَةٌ،
لَأَنَّ فِي تَفْصِيلِ الْآيَاتِ مَعْنَى الْقَوْلِ. كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، أَوْ:
أَمْرُكُمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿إِنِّي لَكُرْمَنُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَي: مِنْ اللَّهِ.

٣ - ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أَي: أَمْرُكُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَالِاسْتِغْفَارِ ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾
أَي: اسْتَغْفِرُوهُ مِنَ الشَّرْكِ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ ﴿يُمْنِعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا﴾ يَطُولُ
نَفْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَنَافِعِ حَسَنَةٍ مُّرْضِيَةٍ مِنْ عَيْشَةٍ وَاسِعَةٍ، وَنِعْمَةٍ مُّتَابِعَةٍ ﴿إِلَّا أَجَلٍ
مُّسَمًّى﴾ إِلَى أَنْ يَتَوَفَّاكُمْ ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ وَيُعْطِي فِي الْآخِرَةِ كُلَّ مَنْ كَانَ
لَهُ فَضْلٌ فِي الْعَمَلِ وَزِيَادَةٌ فِيهِ جِزَاءَ فَضْلِهِ، لَا يَبْخُسُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَإِنْ

فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٢﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾ أَلَا
إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا
وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

تتولوا ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو يوم القيامة .

٤ - ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكان قادراً على إعادتكم .

٥ - ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ ﴾ يزورون عن الحق، وينحرفون عنه، لأن من
أقبل على الشيء استقبله بصدوره، ومن ازور عنه، وانحرف ثنى عنه صدره،
وطوى عنه كشه (١) ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ ليطلبوا الخفاء من الله، فلا يطلع رسوله
والمؤمنون على ازورارهم ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يتغطون بها، أي: يريدون
الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله، كقول نوح - عليه
السلام - ﴿ جَعَلُوا أَصْيَعُكُمْ فِي مَا ذَانَهُمْ وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح: ٧] ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴾ أي: لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى
ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثيهم صدورهم، واستغشائهم
ثيابهم، ونفاقهم غير نافع عنده. قيل: نزلت في المنافقين ﴿ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ
الصُّدُورِ ﴾ بما فيها.

٦ - ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ تفضلاً، لا وجوباً ﴿ وَيَعْلَمُ
مُسْتَقَرَّهَا ﴾ مكانه من الأرض، ومسكنه ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث كان مودعاً قبل
الاستقرار من صلب، أو رحم، أو بيضة ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ كل واحد من
الدواب، ورزقها؛ ومستقرها؛ مستودعها؛ في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب
فيه مبين.

٧ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وما بينهما ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من الأحد

(١) «طوى عنه كشه»: أعرض عنه.

وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ
مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ
أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنَا أَمَتُوا مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

إلى الجمعة، تعليمًا للتأني ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: فوّه. يعني: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض إلا الماء. وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض. قيل: بدأه بخلق ياقوتة خضراء، فنظر إليها بالهيبة، فصارت ماء، ثم خلق ريحاً، فأقرّ الماء على متنه، ثم وضع عرشه على الماء. وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي: خلق السموات والأرض وما بينهما للممتحن فيهما، ولم يخلق هذه الأشياء لأنفسها ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أكثر شكرًا. وعنه ﷺ: «أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه»^(١). ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي: ليفعل بكم ما يفعل المبطل لأحوالكم كيف تعملون ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. (ساحر): حمزة، وعلي، يريدون الرسول. والساحر: كاذب مبطل.

٨ - ﴿وَلَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ عذاب الآخرة، أو: عذاب يوم بدر ﴿إِلَّا أَمَتُوا﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿مَعْدُودَةً﴾ معلومة، أو قلائل. والمعنى: إلى حين معلوم ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ ما يمنعه من النزول، استعجالاً له على وجه التكذيب، والاستهزاء ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ﴾ العذاب ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بمصروفاً، أي: ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ العذاب الذي

(١) رواه داود بن المجبر في كتاب «العقل» والحارث في مسنده. (حاشية الكشف ٣٨٠/٢).

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ

كانوا به يستعجلون. وإنما وضع ﴿يستهنون﴾ موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء.

٩ - ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هو للجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة، وأمن، وجدة. واللام في ﴿لئن﴾ لتوطئة القسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبيه تلك النعمة. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُ لَيَكُونُ﴾ شديد اليأس من أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه ﴿كَافُورًا﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله، نساء له.

١٠ - ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَةٍ﴾ وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أشْر، بطر ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

١١ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في المحنة، والبلاء ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وشكروا في النعمة، والرخاء ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: الجنة.

١٢ - كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة عما جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحاتهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وكانوا لا يعتدّون بالقرآن، ويتهاونون به، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم مالا يقبلونه، ويضحكون منه، فهتجه لأداء الرسالة، وطرح المبالاة بردهم، واستهزائهم، واقتراحهم بقولهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلك ترك أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم مخافة ردهم له، وتهاونهم به ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ بأن تلوه عليهم. ولم يقل: ضيق، ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأنه ﷺ كان أفسح

أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعَتْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الناس صدراً، ولأنه أشكل ببارك ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ مخافة ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ هلاً أنزل عليه ما اقترحنا من الكثر لننفضه، والملائكة لنصدق، ولم أنزل عليه ما لا نريده، ولا نقترحه؟ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك، وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك أن ردوا، أو تهاونوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل. فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح، وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم، ولا مبال بسفهمهم، واستهزائهم.

١٣ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ «أم» منقطعة. ﴿افْتَرَاهُ﴾ الضمير لما يوحى إليك ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ﴾ تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب. فإذا تبين له العجز عن ذلك قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد ﴿مِثْلِهِ﴾ في الحسن والجزالة. ومعنى ﴿مِثْلِهِ﴾: أمثاله، ذهباً إلى مماثلة كل واحدة منها له ﴿مُفْتَرِيْنَ﴾ صفة لعشر سور. لما قالوا: افترت القرآن، واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله أرخى معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، فأبتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مخلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي ﴿وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعَتْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى.

١٤ - ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه. ﴿و﴾ اعلّموا عند ذلك ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده، وأن توحيده واجب، والإشراك به ظلم عظيم. وإنما جمع الخطاب بعد إفراده، وهو قوله لكم: ﴿فاعلموا﴾ بعد قوله: ﴿قل﴾ لأن الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ، أو: لأن

فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ

رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يحدّثونهم. أو: لأنّ الخطاب للمشرّكين، والضمير في ﴿لم يستجيبوا﴾ لمن استطعتم، أي: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة، لعلمهم بالعجز عنه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: بإذنه، أو: بأمره ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ متبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة؟ ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً على أنّه منزل من عند الله، وعلى التوحيد. ومعنى: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مخلصون؟.

١٥ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ نوصّل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصّحة، والرزق. وهم الكفّار، أو: المنافقون.

١٦ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو: صنعهم، أي: لم يكن لهم ثواب، لأنّهم لم يريدوا به الآخرة، وإنّما أرادوا به الدنيا، وقد وفّى إليهم ما أرادوا ﴿وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنّه لم يعمل لغرض صحيح. والعمل الباطل لا ثواب له.

١٧ - ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على يَتْنَةٍ من ربه. أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا يقاربونهم، يعني: أنّ بين الفريقين تبايناً بيناً. وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام، وغيره. ﴿كان على بيته من ربه﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أنّ دين الإسلام حقّ، وهو دليل العقل ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بصحّته، وهو القرآن ﴿مِّنْهُ﴾ من الله، أو من القرآن، فقد ذكره آنفاً ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن ﴿كُتِبَ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل

إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ

القرآن ﴿كتاب موسى﴾ عليه السلام ﴿إمامًا﴾ كتاباً مؤتمناً به في الدين، قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم. وهما حالان ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: مَنْ كان على بيِّنة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكة، وَمَنْ ضامتهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ مصيره، ومورده ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من الموعد ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يُحْبَسُونَ في الموقف، وتُعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله؛ بأنه اتخذ ولدًا وشريكًا ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الكاذبين على ربهم. ﴿الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد، كأصحاب وصاحب، أو: شهيد، كشریف وأشراف.

١٩ - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو: يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ «هم» الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به.

٢٠ - ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا﴾ أي: ما كانوا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ﴿وَمَا كَانُوا لَهُمْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من يتولاهم فينصرهم منه، ويمنعهم من عقابه. ولكنه أراد إنظارهم، وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم. وهو من كلام الأشهاد ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم

مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

أصلوا الناس عن دين الله. ﴿يُضَعَّفُ﴾: مكّي، وشامي ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ﴾ أي: استماع الحق ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ الحق.

٢١ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وبطل عنهم، وضاع ما اشتروه، وهو: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من
الآلهة، وشفاعتها.

٢٢ - ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ بالصد، والصدود. وفي
﴿لَا جَرَمَ﴾ أقوال: أحدها: أن ﴿لَا﴾ رد لكلام سابق، أي: ليس الأمر كما
زعموا. ومعنى: ﴿جرم﴾ كسب، وفاعله مضمر، و﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ في محل
النصب. والتقدير: كسب قولهم خسرانهم في الآخرة. وثانيها: أن ﴿لَا جَرَمَ﴾
كلمتان ركبنا، فصار معناهما: حقاً. وأن: في موضع رفع بأنه فاعل لحق، أي:
حق خسرانهم. وثالثها: أن معناه: لا محالة.

٢٣ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ واطمأنوا إليه،
وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع. من «الخبث»، وهي: الأرض المطمئنة
﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢٤ - ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ شبه فريق
الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾
يعني: الفريقين ﴿مَثَلًا﴾ تشبيهاً. وهو نصب على التمييز ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتستفعون
بضرب المثل.

٢٥ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿أَنِّي﴾: أي: باني.
والمعنى: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

بالكسر، فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كأن. والمعنى على الكسر، وبكسر الألف: شامي، ونافع، وعاصم، وحمزة على: إرادة القول.

٢٦ - ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ﴾ وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي، لوقوع الألم فيه.

٢٧ - ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يريد الأشراف؛ لأنهم يملؤون القلوب هيبة، والمجالس أبهة، أو: لأنهم ملئوا بالأحلام، والآراء الصائبة ﴿مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أرادوا: أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً، أو ملكاً وبالهمزة: أبو عمرو ﴿الرَّأْيِ﴾ وبغير همز: أبو عمرو. أي: اتبعوك ظاهر الرأي. أو: أول الرأي. من بدا يبدو: إذا ظهر، أو: بدأ يبدأ: إذا فعل الشيء أولاً. وانتصابه على الظرف. أصله: وقت حدوث ظاهر رأيهم، أو: أول رأيهم. فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا: أن اتباعهم لك شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر، ولو تفكروا ما اتبعوك، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالاً، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتشبهين بالإسلام يعتقدون ذلك، وبينون عليه إكرامهم وإهانتهم. ولقد زل عنهم: أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله، وأنتم يبعده، ولا يرفعه بل يضعه ﴿وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في مال، ورأي. عنوا: نوحاً، وأتباعه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: نوحاً في الدعوة، ومتبعيه في الإجابة والتصديق، يعني: تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيحاً للرئاسة.

قَالَ يَتَقَوِّمُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَءَالَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مِّمَّوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوِّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوِّمُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

٢٨ - ﴿قَالَ يَتَقَوِّمُ أَرْءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ﴾ برهان ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وَأَلَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ يعني: النبوة ﴿فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ﴾^(١) أي: أخفيت: حمزة، وعلي، وحفص، أي: أخفيت. أي: فعميت عليكم البينة فلم تهديكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفاضة بقوا بغير هاد. وحقيقته: أَنَّ الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي، ولا يهدي غيره ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مِّمَّوْهَا﴾ أي: الرحمة ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ لا تريدونها. والواو دخلت هنا تنمة للميم. وعن أبي عمرو: إسكان الميم. ووجهه: أَنَّ الحركة لم تكن إلا خلصة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً. وهو لحن، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

٢٩ - ﴿وَيَقَوِّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة، لأنه مدلول قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿مَالًا﴾ أجراً يثقل عليكم إن أدبتم، أو: علي إن أبيتم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾: مدني، وشامي، وأبو عمرو، وحفص ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ فيشكونني إليه إن طردتهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ تتسافهون على المؤمنين، وتدعونهم: أراذل، أو: تجهلون لقاء ربكم، أو: أنهم خير منكم.

٣٠ - ﴿وَيَقَوِّمُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ مَن يمنعني مِن انتقامه ﴿إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

(١) في الأصل المخطوط ﴿فَعُمِيتَ﴾ خفيت، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (١٠٧/٣).

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾
 قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِنَا بَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمُ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

٣١ - ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ فادعي فضلاً عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا زَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي، وضماثر قلوبهم. وهو معطوف على ﴿عندي خزائن الله﴾ أي: ﴿لا﴾ أقول: ﴿عندي خزائن الله﴾ ولا أقول: أنا ﴿أعلم الغيب﴾ ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا لي: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أحكم على من استزدلتم من المؤمنين لفقرهم: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، مساعدة لكم، ونزولاً على هواكم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من صدق الاعتقاد. وإنما عليّ قبول ظاهر إقرارهم، إذ لا أطلع على خفي أسرارهم ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء: افتعال من زرى عليه: إذا عابه. وأصله تزترى فأبدلت التاء دالاً.

٣٢ - ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِنَا بَعْدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك.

٣٣ - ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ، وإنما هو إلى من كفرتم به ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لم تقدروا على الهرب منه.

٣٤ - ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمُ نَصْحِي﴾ هو إعلام موضع الغي ليتقى، والرشد ليقنقى ﴿وَلَكِنِّي﴾ ﴿إِنِّي﴾ ﴿نَصْحِي﴾: مدني، وأبو عمرو ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: يضلّكم. وهذا شرط دخل على شرط، فيكون الثاني مقدماً في الحكم لما عرف، تقديره: إن كان يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

إن أردت أن أنصح لكم، وهو دليل بين لنا في إرادة المعاصي ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فيتصرف فيكم على قضية إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٣٥ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ بل: أ ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ﴿قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي: إن صح أنني افتريته فعلي عقوبة إجرامي، أي: افتراضي. يقال: أجرم الرجل: إذا أذنب، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ أي: ولم يثبت ذلك، وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِمَّا تُجْعَلُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجه لإعراضكم، ومعاداتكم.

٣٦ - ﴿وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ إقناط من إيمانهم، وأنه غير متوقع. وفيه دليل على أن للإيمان حكم التجدد، كأنه قال: إن الذي آمن يؤمن في حادث الوقت، وعلى ذلك تخرج الزيادة التي ذكرت في الإيمان بالقرآن ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين. والابتأس: افتعال من البؤس، وهو الحزن، والفقر. والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، فقد حان وقت الانتقام من أعدائك.

٣٧ - ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هو في موضع الحال، أي: اصنعها محفوظاً. وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن الله معه أعيناً تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿وَوَحِّينَا﴾ فإننا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو^(١) الطير ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، وقد قضى به، وجف القلم فلا سبيل إلى كفه.

(١) «جوجو»: صدر.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ

٣٨ - ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ من عمله السفينة. وكان يعملها في بركة في أبعد موضع من الماء، فكانوا يتضحكون منه، ويقولون له: يا نوح! صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ عند رؤية الهلاك ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منا عند رؤية الفلك.

رُوي: أَنَّ نوحاً - عليه السلام - اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين، وكان طولها ثلاثمئة ذراع، أو: ألفاً ومئتي ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً أو ستمئة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً. وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب، والأنعام، وركب نوح ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم - عليه السلام - وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء.

٣٩ - ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾ في محل نصب بـ «تعلمون»، أي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الذي ﴿يَأْتِيهِ﴾ ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويعني به: إيتاهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا، وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة.

٤٠ - ﴿حَتَّى﴾ هي التي يتبدأ بعدها الكلام، أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء. وهي غاية لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾ أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد. وما بينهما من الكلام حال من ﴿يصنع﴾، أي: يصنعها، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾. وجواب ﴿كلما﴾: ﴿سَخِرُوا﴾. و﴿قال﴾ استئناف على تقدير سؤال سائل. أو: ﴿قال﴾ جواب ﴿سَخِرُوا﴾ بدل من ﴿مَرَّ﴾ أو صفة لـ ﴿مَلَأَ﴾ ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ هو كناية عن اشتداد الأمر، وصعوبته. وقيل معناه: جاش الماء من تنور الخبز. وكان من حجر لحواء، فصار إلى نوح - عليه السلام - . وقيل:

قُلْنَا اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَاَهْلَكَ اِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنٌ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ اِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ اَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّٰهِ بِحَبْرٍ مَّاءٍ وَمُرْسَتْهَا

التنور: وجه الأرض ﴿قُلْنَا اَحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تفسيره في سورة المؤمنين ﴿وَاَهْلَكَ اِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ عطف على اثنين وكذا ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: واحمل اهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من اهله ﴿مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أنه من أهل النار. وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره، وإرادته. جلّ خالق العباد، عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ اِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ﷺ: «كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم»^(١). وقيل: كانوا عشرة: خمسة رجال، وخمس نسوة. وقيل: كانوا اثنين^(٢) وسبعين رجلاً وامراً، وأولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع: ثمانية وسبعون، نصفهم رجال، ونصفهم نساء.

٤١ - ﴿وَقَالَ اَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّٰهِ بِحَبْرٍ مَّاءٍ وَمُرْسَتْهَا﴾ ﴿بِسْمِ اللّٰهِ﴾ متصل بـ ﴿اَرْكَبُوا﴾، حالاً من الواو، أي: ﴿اَرْكَبُوا فِيهَا﴾ مسمّين الله، أو: قائلين: بسم الله وقت إجرائها، ووقت إرسائها، إمّا لأن المجرى والمرسى للوقت، وإمّا لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم: خفوق النجم. ويجوز أن يكون ﴿بِسْمِ اللّٰهِ بِحَبْرٍ مَّاءٍ وَمُرْسَتْهَا﴾ جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها، وهي مبتدأ وخبر، يعني: أنّ نوحاً - عليه السلام - أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم: أنّ مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أي: باسم الله إجراؤها وإرساؤها. وكان إذا أراد أن تجري قال: باسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: باسم الله، فرست. ﴿بِحَبْرٍ مَّاءٍ﴾ بفتح الميم وكسر الراء، من جرى

(١) قال ابن حجر: لم أره مرفوعاً، وذكره الطبري بإسنادٍ عن قتادة. (حاشية الكشف ٣٩٤ / ٢).

(٢) ليست في الأصل، وإثباتها ضروري.

إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَزْكَبَ مَعْنًا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

إِذَا مَصْدَر، أو وقت: حمزة، وعلي، وحفص^(١). ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث خلصهم.

٤٢ - ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دلّ عليه ﴿اركبوا فيها باسم الله﴾ كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله ﴿وهي تجري بهم﴾ أي: السفينة تجري وهم فيها. ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ يريد: موج الطوفان. وهو جمع موجة، كتمر وتمرّة. وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله. شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها، وارتفاعها. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقيل: يام. والجمهور على أنه ابنه الصليبي. وقيل: كان ابن امرأته. ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه وعن السفينة. مفعّل، من عزله عنه: إذا نحاه، وأبعده. أو: في معزل عن دين أبيه. ﴿يَبْنَىٰ﴾ بفتح الياء: عاصم، اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك: يا بنيّاً. غيره بكسر الياء، اقتصاراً عليه من ياء الإضافة. ﴿أَزْكَبَ مَعْنًا﴾ في السفينة، أي: أسلم، واركب. ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

٤٣ - ﴿قَالَ سَتَأْتِيَ﴾ أجباً. ﴿إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يمنعني من الغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ إلا الراحم، وهو الله تعالى. أو: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾ من الطوفان ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ الله. أي: ﴿إِلَّا﴾ مكان ﴿مِنْ رَحِمَ﴾ الله من المؤمنين. وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم مُعْتَصِمٌ قطّ من جبل ونحوه سوى مُعْتَصِمٍ واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجّاهم، يعني: السفينة. أو: هو استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم، كقوله: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا إِيَّايَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧] ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين ابنه والجبل، أو: بين نوح وابنه

(١) في المطبوع: وبضم الميم وكسر الراء: أبو عمرو. والباقون بضم الميم، وفتح الراء.

فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّزِضُ آبِلَى مَاءِكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَيَغِيضُ أَلْمَاءُ
وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ﴾ فصار، أو: فكان في علم الله.

٤٤ - ﴿وَقِيلَ يَتَّزِضُ آبِلَى مَاءِكِ﴾ انشفي وتشربي. والبلع: النشف ﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلِي﴾ أمسكي ﴿وَيَغِيضُ أَلْمَاءُ﴾ نقص، من: غاضه إذا نقصه، وهو لازم ومتعد ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة بعد أن طافت الأرض كلها ستة أشهر ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ هو جبل بالموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: سحقاً لقوم نوح الذين غرقوا. يقال: بعد بعداً وبعداً: إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت. ولذلك خصّ بدعاء السوء.

والنظر في هذه الآية من أربع جهات، علم البيان: وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها. فنقول: إن الله تعالى لما أراد أن يبين معنى: أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدّ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض، وأن نقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنّا وعدناه من إغراق قومه فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى؛ بني الكلام على تشبيه^(١) المراد بالمأمور الذي لا يتأتى منه - لكمال هيئته - العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لاقتداره العظيم، وأنّ السموات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة لإرادته فيها تغييراً وتبدلاً، كأنها عقلاء مميّزون، قد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده. ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام، فقال عز وجل: ﴿وقيل﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد، وهو: ﴿يا أرض﴾ و﴿يا سماء﴾، ثم قال مخاطباً لهما ﴿يا أرض﴾ و﴿يا سماء﴾ على سبيل

الاستعارة للشبه المذكور، ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ، ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوّي الأرض بالماء في الإنبات كتقوّي الأكل بالطعام. ثم قال: ﴿ماءك﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض، كاتصال الملك بالملك. ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم التأني. ثم قال: ﴿وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا﴾ ولم يُصرّح بمن أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر، وسوّى السفينة، وقال: بعداً، كما لم يصرّح بقائل: ﴿يا أرض﴾ ﴿ويا سماء﴾. سلوكاً في كلّ واحد من ذلك لسبيل الكناية، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكوّن قاهر، وأنّ فاعلها واحد لا يشارك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: ﴿يا أرض ابلي ماءك ويا سماء أقلمي﴾ ولا أن يكون الغائص والقاضي والمسوّى غيره. ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم إظهاراً لمكان السخط، وأنّ ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم.

ومن جهة علم المعاني، وهو: النظر في فائدة كلّ كلمة فيها وجهة كلّ تقديم وتأخير فيما بين جملها؛ وذلك أنّه اختير ﴿يا﴾ دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها على بعد المناذّي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، والملكوت، وإبداء العزة والجبروت، وهو تبيدُ المناذّي المؤذن بالتهاون به. ولم يقل: يا أرضي لزيادة التهاون، إذ الإضافة تستدعي القرب. ولم يقل يا أيّها الأرض للاختصار. واختير لفظ الأرض والسماء لكونهما أخفّ وأدور، واختير ﴿ابلي﴾ على ابتلي لكونه أخصر، وللتجانس بينه وبين ﴿أقلمي﴾. وقيل: ﴿أقلمي﴾ ولم يقل عن المطر، وكذا لم يقل: ﴿يا أرض ابلي ماءك﴾ فبلعت ﴿ويا سماء أقلمي﴾ فأقلعت اختصاراً، واختير ﴿غيض﴾ على غيظ، وقيل: ﴿الماء﴾ دون أن يقول: ماء الطوفان، و﴿الأمر﴾ ولم يقل أمر نوح وقومه، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك. ولم يقل: وسوّيت على الجودي، أي: أقزّت على نحو ﴿قيل﴾ و﴿غيض﴾ اعتباراً لبناء الفعل للفاعل

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ

مع السفينة في قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾ إرادة للمطابقة. ثم قيل: ﴿بعداً للقوم﴾ ولم يقل ليبعد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار. هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم، وأمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنّه قدّم النداء على الأمر، فقيل: ﴿يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي﴾ ولم يقل: ابلعي يا أرض، وأقلعي يا سماء، جرياً على مقتضى الكلام فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكّن الأمر الوارد عقبيه في نفس المتأدّي قصداً بذلك لمعنى الترشيح، ثمّ قدّم أمر الأرض على أمر السماء، وابتدأ به لابتداء الطوفان منها، ثمّ أتبع ﴿وغيض الماء﴾ لاتصاله بقصة الماء، وأخذه بحجزتها، ثمّ ذكر ما هو المقصود من القصة، وهو قوله: ﴿وقضي الأمر﴾ أي: أنجز الموعد من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومن معه في الفلك. وعلى هذا فاعتبر.

ومن جهة الفصاحة المعنوية، وهي: كما ترى نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة، لا تعقيد يُعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشكّ الطريق إلى المرتاد.

ومن جهة الفصاحة اللفظية، فالفاظها على ما ترى عربيّة، مستعملة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سلسة على الأسلات، كلّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة.

ومن ثمّ أطبق المعاندون على أنّ طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية. والله درّ شأن التزليل، لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا نظنن الآية مقصورة على المذكور، فلعلّ المتروك أكثر من المستور.

٤٥ - ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾ نداؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنّه كان ابنه مطن صلبه، أو كان ربيباً له، فهو بعض أهله. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإنّ كلّ وعد تعدّه فهو الحقّ الثابت؛ الذي لا شكّ في إنجازه، والوفاء به. وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنْتَ أَخْكُمُ

الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعِنَّ مَنِ إِتَىٰ بِكُفْرٍ كَثِيرٍ مِّنْ قَبْلُ لَئِنْ أَعِظْتُكَ أَن يَكُونَ لَكَ

الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ أي: أعلم الحكام، وأعدلهم، إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم، والعدل. ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقّب: أفضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين، فاعتبر، واستعبر.

٤٦ - ﴿قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم علّل لانتفاء كونه من أهله بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك في دينك - وإن كان حبشياً وكنت قرشياً - لصيقك. ومن لم يكن على دينك، وإن كان أسس أقاربك رحماً؛ فهو أبعد بعيد منك. وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمه، كقولها^(١):

... .. فإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(٢)

أو: التقدير: إنه ذو عمل. وفيه إشعارٌ بأنه إنما أنجى مَنْ أنجى من أهله لصالحهم، لا لأنهم أهله. وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته. ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾: عليّ، قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: كان عند نوح - عليه السلام - أن ابنه كان على دينه لأنه كان ينافق. وإلا لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله: ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [هود: ٣٧] فكان يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا - عليه الصلاة والسلام - ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتّى أطلعه الله عليه. وقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: من الذين وعدت النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر ﴿فَلَا تَتَّبِعِنَّ﴾ اجتزاء بالكسرة عن الياء: كوفي ﴿تَسْأَلْنِي﴾: بصري، ﴿تَسْأَلْنِي﴾: مدني ﴿تَسْأَلْنَ﴾: شامي. فحذف الياء، واجتزأ بالكسرة. والنون نون التأكيد ﴿تَسْأَلْنَ﴾: مكّي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بجواز مسألته ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَن

(١) هي الخنساء.

(٢) عجز بيت وصدرة: لاتسام الدهر منه كلما ذكرت.

تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿١٧﴾ قِيلَ يَنُوحُ أَهَيْطَ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾

تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿﴾ هو كما نهى رسولنا بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

٤٧ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك، واتعاضاً بموعظتك ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط مني ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

٤٨ - ﴿قِيلَ يَنُوحُ أَهَيْطَ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ بتحية منا، أو: بسلامة من الغرق ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ هي: الخيرات النامية، وهي في حقه: بكثرة ذريته، وأتباعه، فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته، وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ من للبيان. فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات. أو: قيل لهم: أمم؛ لأن الأمم تتشعب منهم، أو: لابتداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر. وهو الوجه ﴿وَأُمَمٌ﴾ رفع بالابتداء ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق، والخفض في العيش. صفة. والخبر محذوف، تقديره: ومن معك ﴿أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾. وإنما حذف لأن ﴿ممن معك﴾ يدل عليه ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. والمعنى: أن السلام منا، والبركات عليك، وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك. ومن معك أمم ممتعون بالدنيا، منقلبون إلى النار. [كان نوح - عليه السلام - أبا الأنبياء]^(١) والخلق بعد الطوفان منه، ومن كان معه في السفينة. وعن محمد بن كعب: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ
 إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ
 أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى آلِي فَأَنْتُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
 إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ

٤٩ - ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح - عليه السلام - . وحملها الرفع على
 الابتداء . والجمل بعدها وهي : ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
 قَوْمُكَ﴾ ، أخبار . أي : تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك ، مجهولة
 عندك وعند قومك ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوقت ، أو : من قبل إيجائي إليك ، وإخبارك
 بها ﴿فَاصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك ، كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة
 لك ، ولمن كذبت نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الفوز ، والنصر ،
 والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك .

٥٠ - ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم . وانتصابه للعطف على ﴿أرسلنا
 نوحاً﴾ ، أي : ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادِ أَخَاهُمْ﴾ ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَنْقُورِ
 اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بالرفع : نافع . صفة على محل
 الجاز والمجرور . وبالجزء : علي . على اللفظ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ تفترون على
 الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء .

٥١ - ﴿يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى آلِي فَأَنْتُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما من رسول
 إلا واجه قومه بهذا القول ؛ لأن شأنهم النصيحة ، ولا يحضها إلا حسم
 المطامع ، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ، ولم تنفع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إذ تردون
 نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله ، وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى
 للتهمة من ذلك .

٥٢ - ﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره
 ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي : المطر . ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ حال ، أي : كثرة الدور
 ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر ، وزيادة

وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَاطِلِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ

القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدّلين بما أوتوا من شدة البطش، والقوة. وقيل: أراد القوة في المال، أو: على النكاح. وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وعقمت أرحام نسايتهم، فوعدهم هود - عليه السلام - المطر، والأولاد، على الإيمان، والاستغفار. وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أنه وفد على معاوية، فلما خرج قال له بعض حبابه: إني رجل ذو مال، ولا يولد لي، علّمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً. فقال الحسن: عليك بالاستغفار. فكان يكثر الاستغفار، حتى ربّما استغفر في يوم واحد سبعئة مرّة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية: فقال: هلا سألته ممّ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل، فقال: ألم تسمع قول هود: ﴿ويزيدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقول نوح: ﴿وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ﴾ [نوح: ١٢]؟ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ ولا تعرضوا عني، وعمّا أدعوكم إليه ﴿بِطَرِكِ﴾ مصريّن على إجرامكم، وآثامكم.

٥٣ - ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كذب منهم وجحود. كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: ٧] مع فوت آياته الحصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ هو حال من الضمير في: ﴿تَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ كأنه قيل: وما نترك آلِهتنا صادّرين عن قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدّقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

٥٤ - ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ «إن» حرف نفى، فنفي جميع القول إلا قولاً واحداً، وهو قولهم: ﴿اعْتَرَاكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ بجنون وخبل. وتقديره: ما نقول قولاً إلا هذه المقالة، أي: قولنا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٥٥ - ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من إشراككم آلهة من دونه. والمعنى: إني أشهد الله ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. واشهدوا أنتم أيضاً أنني بريء من ذلك. وجيء به

فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ
 ءَاخِذٌ بِنَاصِيهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
 إِلَيْكُمْ وَسَنُخَلِّفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا
 جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن ييس الثرى بينه وبينه: اشهد على
 أني لا أحبك، تهكماً به، واستهانة بحاله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم، وأهلتكم ﴿ثُمَّ
 لَا تُنْظِرُونِ﴾ لا تمهلون. فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن
 تعاونتم عليّ. وكيف تضرني أهلكم، وما هي إلا جناد لا يضر ولا ينفع؟! وكيف
 تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تحبّلني، وتذهب بعقلي؟!

٥٦ - ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيهَا﴾ أي:
 مالكها. ولما ذكر توكّله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه
 بما يوجب التوكّل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، ومن كون كلّ دابة في
 قبضته، وملكته، وتحت قهره وسلطانها. والأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿إِنَّ رَبِّي
 عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إنّ ربّي على الحق لا يعدل عنه. أو: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ يدلّ ﴿عَلَى
 صراط مستقيم﴾.

٥٧ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ هو في موضع: فقد ثبتت
 الحجة عليكم ﴿وَسَنُخَلِّفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أي: ويهلككم الله،
 ويحيي بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم، وأموالكم. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾ بتوليكم
 ﴿شَيْئًا﴾ من ضرر قط؛ إذ لا يجوز عليه المضار، وإنما تضرّون أنفسكم ﴿إِنَّ رَبِّي
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ رقيب عليه، مهيم. فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل
 عن مؤاخذتكم. أو: من كان رقيباً على الأشياء كلّها حافظاً لها، وكانت
 الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضار، لم يضر مثله مثلكم.

٥٨ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا﴾ أي: بفضل منا لا يعلمهم، أو: بالإيمان أنعمنا عليهم. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ
 عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وتكرار ﴿نَجَّيْنَا﴾ للتأكيد. أو: الثانية: من عذاب الآخرة،
 ولا عذاب أغلظ منه.

وَتِلْكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

٥٩ - ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها، واعتبروا. ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل؛ لأنهم الذين يجبرون الناس على الأمور، ويعاندون ربهم. ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم.

٦ - ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ﴾ تكرار ﴿أَلَا﴾ مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم. والدعاء يُبْعَدُ بعد هلاكهم - وهو دعاء بالهلاك - للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد. وفيه فائدة لأن عاداً عادان: الأولى: القديمة؛ التي هي قوم هود، والقصة فيهم، والأخرى: إرم.

٦١ - ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ لم ينشئكم منها إلا هو. وإنشأوهم منها: خلق آدم من التراب، ثم خلقهم من آدم ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وجعلكم عمارها، وأراد منكم عمارتها. أو: استعمركم، من العمر، أي: أطال أعماركم فيها. وكانت أعمارهم من ثلاثمئة إلى ألف. وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى الله إليه: أنهم عمروا بلادهم فعاش فيها عبادي ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ فاسألوه مغفرته بالإيمان ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ داني الرحمة ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن دعاه.

قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ أَرْءَيْبَتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٧﴾ وَيَنْفَوِرَ هَذِهِ نَافَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٨﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

٦٢ - ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ للسيادة، والمشاورة في الأمور. أو: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، من: أرابه: إذا أوقعه في الريبة. وهي: قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة.

٦٣ - ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَرْءَيْبَتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة. أتى بحرف الشك مع أنه على يقين أنه على بينة؛ لأن خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدروا أنني على بينة من ربي، وأنني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم، وعصيت ربي في أوامره ﴿فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ رسالته، ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بقولكم: «أتنهنا أن نعبد ما يعبد آبائنا» ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ بنسبتكم إيتاي إلى الخسار، أو: بنسبتي إياكم إلى الخسران.

٦٤ - ﴿وَيَنْفَوِرَ هَذِهِ نَافَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ نصب على الحال، قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. و﴿لَكُمْ﴾ متعلق ب﴿آيَةٌ﴾ حالاً منها متقدمة؛ لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقها، مع أن لكم نفعها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ عقر، أو نحر ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل.

٦٥ - ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يوم الأربعاء. ﴿فَقَالَ﴾ صالح ﴿تَمَتَّعُوا﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ في بلدكم. وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يدار فيها، أي: يتصرف. أو: في دار الدنيا ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم تهلكون. فهلكوا يوم السبت

ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٌ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٌ﴾ أي: غير مكذوب فيه. فأتسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به. أو: وعد غير كذب، على أنَّ المكذوب مصدر كالمعقول.

٦٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب، أو: عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ قال الشيخ - رحمه الله -: هذا يدلُّ على أنَّ من نَجَّى إِمَّا نَجَّى برحمة الله تعالى لا بعمله، كما قال ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله»^(١) ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإضافة الخزي إلى اليوم، وانجرار اليوم بالإضافة. وبفتحها: مدني، وعليّ، لأنّه مضاف إلى إذ، وهو مبني. وظروف الزمان إذا أُضيفت إلى الأسماء المهمة، والأفعال الماضية بنيت، واكتسبت البناء من المضاف إليه، كقوله^(٢):

على حين عاتبْتُ المشيبَ عل الصبا^(٣)

والواو للعطف، وتقديره: ﴿و﴾ نَجَّيْنَاهُ ﴿من خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: من ذلّه وفضيخته، ولا خزي أعظم من خزي مَنْ كان هلاكه بغضب الله، وانتقامه. وجاز أن يريد بـ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ يوم القيامة، كما فسّر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

٦٧ - ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي: صيحة جبريل - عليه السلام - ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ﴾ منازلهم ﴿جَثِيمِينَ﴾ ميتين.

(١) رواه مسلم (٢٨١٧) بلفظ: «لا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، ولا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، ولا أنا، إلا برحمة من الله».

(٢) هو النابغة الذبياني.

(٣) هذا صدر بيت، وعجزه: فقلت ألما أصح والشيب وازع.

كَانَ لَمْ يَنْفَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِنَمُودٍ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلِمْتُ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى
أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِلْنَاكَ إِلَى قَوْمٍ
لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٦٨ - ﴿كَانَ لَمْ يَنْفَوْا فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها ﴿إِلَّا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾
﴿نمود﴾: حمزة وحفص ﴿أَلَا بَعْدًا لِنَمُودٍ﴾ ﴿لنمود﴾: علي. فالصرف للذهاب
إلى الحي، أو: الأب الأكبر. ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

٦٩ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، أو: جبريل مع
أحد عشر ملكاً ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ هي البشارة بالولد، أو: بهلاك قوم لوط.
والأول أظهر ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ سلمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلِمْتُ﴾ أمركم ﴿سلام﴾.
﴿سَلِمْتُ﴾: حمزة، وعلي، بمعنى السلام ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ﴾ فما لبث في
المجيء به، بل عجل فيه. أو: فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة. وكان
مال إبراهيم: البقر ﴿حَنِيزٍ﴾ مشوي بالحجارة المحماة.

٧٠ - ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ نكر، وأنكر بمعنى. وكانت
عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه. والظاهر: أنه
أحسن بأنهم ملائكة. ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه،
أو: لتعذيب قومه. دليله قوله: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر منهم خوفاً
﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِلْنَاكَ إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ بالعذاب. وإنما يقال هذا لمن عرفهم، ولم
يعرف فيم أرسلوا. وإنما قالوا: ﴿لا تخف﴾ لأنهم رأوا أثر الخوف، والتغير في
وجهه.

٧١ - ﴿وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع تحاورهم، أو: على رؤوسهم
تخدمهم ﴿فَضَحِكْتُ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو: بهلاك أهل الخبائث، أو: من
غفلة قوم لوط مع قرب العذاب، أو: فحاضت ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ وخصت
بالبشارة؛ لأن النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنه لم يكن لها ولد،
وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل ﴿وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ﴾ ومن بعده ﴿يَعْقُوبَ﴾
بالنصب: شامي، وحمزة، وحفص بفعل مضمر دل عليه: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾

قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا
 أَنْتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا
 ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

أي: فبشرناها بإسحاق، ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحاق. وبالرفع غيرهم
 على الابتداء، والظرف قبله: خبر، كما تقول: في الدار زيد.

٧٢ - ﴿قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ﴾ الألف مبدلة من ياء الإضافة. وقرأ الحسن:
 ﴿با ويلتي﴾ بالياء على الأصل ﴿ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين سنة ﴿وَهَذَا بَعْلِي
 شَيْخًا﴾ ابن مئة وعشرين سنة ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، و﴿بَعْلِي﴾ خبره، و﴿شَيْخًا﴾
 حال. والعامل: معنى الإشارة التي دلّت عليه ذا، أو: معنى التنبيه الذي دلّ
 عليه ﴿هَذَا﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أن يولد من هرمين، وهو استبعاد من
 حيث العادة.

٧٣ - ﴿قَالُوا أَنْتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قدرته وحكمته. وإنما أنكرت الملائكة
 تعجبها؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة
 للعدادات، فكان عليها أن تتوقّر، ولا يزدعيها ما يزدعي سائر النساء الناشئات
 في غير بيت النبوة، وأن تسبح الله، وتمجّده مكان التعجب. وإلى ذلك أشارت
 الملائكة حيث قالوا: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾. أرادوا: أن هذه
 وأمثالها مما يكرمكم به ربّ العزة، ويخصّكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة،
 فليست بمكان عجيب. وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل:
 إياك والتعجب، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل:
 الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنّ الأنبياء منهم،
 وكلّهم من ولد إبراهيم. و﴿أهل البيت﴾ نصب على النداء، أو: على
 الاختصاص ﴿إِنَّكُمْ حَمِيدٌ﴾ محمود بتعجيل النعم ﴿مَجِيدٌ﴾ ظاهر الكرم بتأجيل
 النقم.

٧٤ - ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الفزع - وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر
 أضيافه - ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد ﴿يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: لما اطمأن قلبه

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَّبِعُهُمْ فِي كُرْحِهِمْ يُعْزِزُ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِعٌ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

بعد الخوف، وملء سروراً بسبب البشرى فزع للمجادلة. وجواب لما محذوف، تقديره: أقبل يجادلنا. أو: ﴿يجادلنا﴾ جواب لما. وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إيّاهم: أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا هُمْ هَلِكُونَ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] فقال: رأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون! قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة. قالوا: لا. قال: رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم، أتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ فَأَلْوُوا نَحْبُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

٧٥ - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على كل من أساء إليه، أو: كثير الاحتمال من آذاه، صفوح عن عصاه ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من خوف الله ﴿مُنِيبٌ﴾ تائب راجع إلى الله. وهذه الصفات دالة على رقة القلب، والرأفة والرحمة، فبين: أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة، كما حمله على الاستغفار لأبيه. فقالت الملائكة:

٧٦ - ﴿يَتَّبِعُهُمْ فِي كُرْحِهِمْ يُعْزِزُ عَنْ هَذَا﴾ الجدال، وإن كانت الرحمة ديدنك ^(١) ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قضاؤه، وحكمه ﴿وَإِنَّهُمْ لَمَنِعٌ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ لا يردّ بجدال وغير ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ مرتفع باسم الفاعل، وهو ﴿مَنِعٌ﴾ تقديره: وإنهم يأتهم.

٧٧ - ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ لما أتوه، ورأى هيئاتهم وجمالهم ﴿سِيقَهُمْ﴾ أحزن؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبت قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم، ومدافعتهم ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ تمييز، أي: وصاق بمكانهم صدره ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد.

(١) «الدين»: العادة والدأب.

وَجَاءُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَفْقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾

رُوي: أَنَّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً - قال ذلك أربع مرّات - فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها.

٧٨ - ﴿وَجَاءُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون، كأنما يدفعون دفعاً ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش، حتى مرنوا عليها، وقلّ عندهم استقبحاها، فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين، لا يكفهم حياءٌ ﴿قَالَ يَفْقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فتزوجهنّ. أراد أن يقي أضيافه بيناته، وذلك غاية الكرم. وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً في ذلك الوقت، كما جاز في الابتداء في هذه الأمة، فقد زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص، وهما كافران. وقيل: كان لهم سيدان مطاعان، فأراد لوط أن يزوجهما ابنتيه ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أحلّ. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، ﴿وبناتي﴾ عطف بيان، و﴿هنّ﴾ فصل، و﴿أطهر﴾ خبر المبتدأ. أو: ﴿بناتي﴾ خبر، و﴿هنّ أطهر﴾ مبتدأ وخبر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإيثارهنّ عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تهينوني، لا تفضحوني، من الخزي. أو: ولا تخجلوني، من الخزية، وهي الحياء. وبالياء: أبو عمرو في الوصل ﴿فِي ضَيْفِي﴾ في حق ضيوفي. فإنه إذا خزي ضيف الرجل، أو: جاره، فقد خزي الرجل، وذلك من عراقه الكرم، وأصالة المروءة ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء.

٧٩ - ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ حاجة، لأنّ نكاح الإناث أمرٌ خارج عن مذهبنا، فمذهبنا: إتيان الذكران ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ عنوا: إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ

٨٠ - ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لفعلت بكم، ولصنعت. والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو: أويت إلى قوي أستند إليه، وأتمتع به، فيحميني منكم. فشبّه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته، ومنعته.

٨١ - رُوي: أنه أغلق بابه حين جاؤوا، وجعل يرادهم كما حكى الله عنه، ويحادلهم، فتسوروا الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب ﴿قَالُوا يَلُوطُ﴾ إن ركنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتح الباب، ودعنا وإياهم. ففتح الباب، فدخلوا، فاستأذن جبريل - عليه السلام - ربه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء! إن في بيت لوط قوماً سحرة ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه، ولم يقدرُوا على ضرره ﴿فَأَسْرِ﴾^(١) بالوصل: حجازي، من: سرى ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ طائفة منه، أو: نصفه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ بقلبه إلى ما خلف، أو: لا ينظر إلى ما وراءه، أو: لا يتخلف منكم أحد ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ مستثنى من ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾. وبالرفع: مكّي، وأبو عمرو على البدل من أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان: رُوي: أنه أخرجها معهم، وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي. فلما سمعت هذه العذاب التفتت، وقالت: يا قوماء! فأدركها حجر، فقتلها. ورُوي: أنه أمر بأن يخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الراويتين ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: إن الأمر. ورُوي: أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فقال:

(١) في الأصل المخطوط ﴿فَأَسْرِ﴾ وهي قراءة الوصل.

أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بَبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ
غَيْرِهِ وَلَا تَنْفُسُوا أَلْمِيزَانِ إِنِّي أَنزَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟

٨٢ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ جعل جبريل - عليه السلام - جناحه في أسفلها، أي: أسفل قراها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم، وأتبعوا الحجارة من فوقهم. وذلك قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. هي كلمة معربة من «سك كل» بدليل قوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] ﴿مَّنْضُورٍ﴾ نعت لسجّيل، أي: متتابع، أو: مجموع معد للعذاب.

٨٣ - ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ نعت لحجارة، أي: معلّمة للعذاب. قيل: مكتوب على كلّ واحد اسم من يُرمى به ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه، أو: في حكمه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ بشيء بعيد. وفيه وعيد لأهل مكة، فإنّ جبريل - عليه السلام - قال لرسول الله ﷺ: يعني: ظلمي أمتك. ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط من ساعة إلى ساعة. أو: الضمير للقرى، أي: هي قرية من ظالمي مكة، يمرّون بها في مسائرهم.

٨٤ - ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ اسم مدينتهم، أو اسم جدّهم مدين بن إبراهيم. أي: وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين، أو: إلى بني مدين ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ وَلَا تَنْفُسُوا أَلْمِيزَانِ﴾ أي المكيل بالميال ﴿وَالْمِيزَانِ﴾ والموزون بالميزان ﴿إِنِّي أَنزَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف. أو: أراكم بنعمة من الله حقّها أن تقابل بغير ما تفعلون ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مهلك. من قوله: ﴿وَأُحِيطُ بِشَمْرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢] وأصله: من إحاطة العدو. والمراد: عذاب الاستئصال في الدنيا، أو: عذاب الآخرة.

وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

٨٥ - ﴿وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموها ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل. نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال، والميزان، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه. وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس: النقص. كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العني والعيث: أشد الفساد، نحو: السرقة، والغارة، وقطع السبيل. ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثياً منهم في الأرض.

٨٦ - ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ﴾ ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا. نعم ببقية الله خير للكفرة أيضاً، لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس، والتطفيف، إلا أن فائدتها تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، ولا تظهر مع عدمه؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك تعظيم للإيمان، وتنبية على جلال شأنه. أو: المراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إياكم ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ لنعمه عليكم. فاحفظوها بترك البخس.

٨٧ - ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ﴾ وبالتوحيد كوفي، غير أبي بكر ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا﴾ كان شعيب - عليه السلام - كثير الصلوات، وكان قومه يقولون له: ما تستفيد بهذا؟ فكان يقول: إنها تأمر بالمحاسن، وتنهى عن القبائح. فقالوا على وجه الاستهزاء: ﴿أصلواتك تأمرُكَ أَنْ تَأْمُرَنَا بِتَرْكِ عِبَادَةِ مَا﴾ كان ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَتْرَكَ التَّبَسُّطَ﴾ في أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا من إيفاء ونقص؟ وجاز أن تكون الصلوات أمرة مجازاً، كما سماها الله تعالى ناهية مجازاً ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي: السفيه الضال. وهذه

قَالَ يَنْفَقِرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْفَقِرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

تسمية على القلب استهزاء. أو: إنك حلیم رشید عندنا، ولست تفعل بنا
ما يقتضيه حالك.

٨٨ - ﴿قَالَ يَنْفَقِرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا
حَسَنًا﴾ يعني النبوة، والرسالة. أو: مالاً حلالاً من غير بخس، وتطفيف.
وجواب ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ محذوف، أي: أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربّي،
وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكفّ عن
المعاصي، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا
قصده، وأنت مولّد عنه. وخالفني عنه إذا ولّى عنه، وأنت قاصده. ويلقاك
الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه
قد ذهب إليه وارداً، وأنا ذاهبٌ عنه صادراً، ومنه قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى
مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها، لأسبّد
بها دونكم ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي،
ونصيحتي، وأمرني بالمعروف، ونهي عن المنكر ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ظرف، أي:
مدة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر إلا بمعونته، وتأيدته ﴿عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في السراء، والضراء.

٨٩ - «جرم» مثل «كسب» في تعدّيه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين، ومنه
قوله: ﴿وَيَنْفَقِرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ أي: لا يكسبنكم خلافي إصابة
العذاب ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ وهو الغرق، والريح،
والرجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ في الزمان، فهم أقرب الهالكين منكم،
أو: في المكان، فمنازلهم قريبة منكم، أو: فيما يستحق به الهلاك، وهو:
الكفر، والمساوىء. وسوّي: في قريب، وبعيد، وقليل، وكثير بين المذكّر

وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَقَّهَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ أَزْهَقِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْفَوِرَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

والمؤنث، لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل، والتهيق، ونحوهما.
٩٠ - ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿وَدُودٌ﴾ يحب أهل الوفاء من الصالحين.

٩١ - ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَقَّهَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي: لا نفهم صحة ما تقول، وإلا فكيف لا يفهم كلامه، وهو خطيب الأنبياء؟! ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك، ولا عز فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، وهو شر قتلة. وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل لهم، والإكرام لهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعز علينا، ولا تكرم حتى نكرمك من القتل، ونرفعك عن الرجم. وإنما يعز علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا. وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك:

٩٢ - ﴿قَالَ﴾ في جوابهم: ﴿يَنْفَوِرَ أَزْهَقِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾. ولو قيل: وما عززت علينا؛ لم يصح هذا الجواب. وإنما قال: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾. والكلام واقع فيه وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، لأن تهاونهم به - وهو نبي الله - تهاون بالله. وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؟ ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر، لا يعبا به. والظهري منسوب إلى الظهر. والكسر من تغييرات النسب، كقولهم في النسبة إلى الأمس: أمسي ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها.

٩٣ - ﴿وَيَنْفَوِرَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ هي بمعنى المكان. يقال: مكان

إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا
إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ

ومكانة، ومقام ومقامة. أو: مصدر من: مكن، فهو مكين إذا تمكن من الشيء، يعني: اعملوا قارّين على جهنكم؛ التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو: اعملوا متمكنين من عداوتي، مطيقين لها ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة، والتأييد، ويمكنني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ «من» استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أينما يأتيه عذاب ﴿يُخْزِيهِ﴾ أي: يفضحه، وأينا هو كاذب. أو: موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه، والذي هو كاذب في زعمكم ودعواكم. وإدخال الفاء في ﴿سوف﴾ وصل ظاهر بحرف وضع للوصل. ونزعها وصل تقديرّي بالاستئناف، الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكائتنا، وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. والإتيان بالوجهين للتفنن في البلاغة. وأبلغهما الاستئناف ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر. والرقيب بمعنى الراقب، من: رقبه، كالضرب بمعنى الضارب. أو: بمعنى المراقب، كالعشير [بمعنى المعاشر]^(١). أو: بمعنى المرتقب، كالرفيع بمعنى المرتفع.

٩٤ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ صاح بهم جبريل فهلكوا. وإنما ذكر في آخر قصّة عاد ومدين ﴿ولمّا جاء﴾ وفي آخر قصّة ثمود ولوط ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ [هود: ٦٦] لأنهما وقعا بعد ذكر الموعد، وذلك في قوله: ﴿لَنُؤَخِّدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] فجاء بالفاء الذي هو للتسيب، كقولك: وعدته، فلما جاء الميعاد كان كيت و كيت. وأما الأخريان فقد وقعا مبتدأتين، فكان

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيصِينَ ﴿٩١﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ
ثَمُودُ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٣﴾ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ
فَالْبَغْيَ أَمْرُ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٤﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
النَّارَ

حقهما أن تعطفًا بحرف الجمع على ما قبلهما، كما تعطف قصّة على قصّة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيصِينَ﴾ الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم^(١)، يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة.

٩٥- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء، متصرفين، مترددين ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ﴾ البعد بمعنى البعد، وهو: الهلاك، كالرُّشد بمعنى الرشد. ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾. وقرئ ﴿كَمَا بَعْدَتْ﴾. والمعنى في البناءين واحد، وهو نقیض القرب، إلا أنهم فرّقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيّروا البناء، كما فرّقوا بين زماني الخير والشرّ، فقالوا: وعد وأوعد. ٩٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ المراد به: العصا، لأنها أبهرها.

٩٧- ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ فَالْبَغْيَ﴾ أي: الملاء ﴿أَمْرُ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وهو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره، وهو ضلال مبين. وذلك أنه ادّعى الألوهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر، الذي لا يأتي إلا من شيطان. ومثله بمعزل عن الألوهية. وفيه: أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين، وعلموا: أن مع موسى الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط. أو المراد: وما أمره بصالح، حميد العاقبة، ويكون قوله:

٩٨- ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يتقدمهم وهم على عقبه، تفسيراً له، وإيضاحاً. أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته؟ والرشد يُستعمل في كلّ ما يحمّد ويرتضى، كما استعمل الغي في كلّ ما يذم. ويقال: قدّمه بمعنى: تقدّمه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أدخلهم. وجيء بلفظ الماضي، لأنّ الماضي يدلّ على أمر موجود، مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم، فيوردهم النار لا محالة، يعني: كما

وَيَسِّرَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَسِّرَ الرِّفْدَ الْمَرْفُودَ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدمهم إلى النار، وهم يتبعونه ﴿وَيَسِّرَ الْوَرْدَ﴾ المورد، و﴿الْمَوْرُودُ﴾ الذي وردوه. شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة. ثم قال: ﴿وَيَسِّرَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ﴾ الذي يردونه: النار، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش، والنار ضده.

٩٩- ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ أي: الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة ﴿يَسِّرَ الرِّفْدَ الْمَرْفُودُ﴾ رفدهم، أي: بشس العون المعان، أو: بشس العطاء المُنْعَى.

١٠٠- ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ خبر ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿مِنْهَا﴾ من القرى ﴿قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: بعضها باق، وبعضها عافي الأثر، كالزرع القائم على ساقه، والذي حصد. والجملة مستأنفة لاجل لها من الإعراب.

١٠١- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله ﴿الَّتِي يَدْعُونَ﴾ يعبدون. وهي حكاية حال ماضية ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذابه. و﴿لَمَّا﴾ منصوب بـ ﴿مَا أَغْنَتْ﴾ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ تخسير. يقال: تب؛ إذا خسر، وتببه غيره: إذا أوقعه في الخسران. يعني: وما أفادتهم عبادة غير الله شيئاً، بل أهلكتهم.

١٠٢- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ محل الكاف: الرفع، ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من ﴿الْقُرَى﴾ ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ مؤلم، شديد، صعب على المأخوذ. وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها. فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة، ولا يغتر بالإمهال.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَٰ وَسْعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

١٠٣ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما قصّ الله من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ لعلّهم يعبروا ﴿لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: اعتقد صحته، ووجوده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ هو مرفوع بمجموع، كما يرفع فعله إذا قلت: يُجمع له الناس. وإنّما أثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم. وإنّه أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس. وإنّهم لا ينفكّون منه. يجمعون للحساب، والثواب، والعقاب ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: مشهود فيه، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، أي: يشهد فيه الخلائق الموقف، لا يغيب عنه أحد.

١٠٤ - ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم المذكور. الأجل يطلق على مدّة التأجيل كلّها، وعلى متنهاها، والعدّ إنّما هو للمدة لا لغايتها ومتنهاها، فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ﴾، إلا لانتها مدّة معدودة بحذف المضاف، أو: ما تؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدّة التي ضربناها لبقاء الدنيا.

١٠٥ - ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ وبالياء: مكّي. وافقه أبو عمرو، ونافع، وعليّ في الوصل. وإثبات الياء هو الأصل، إذ لا علّة توجب حذفها. وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. ونظيره: ﴿مَا كُنَّا بَنُحْ﴾ [الكهف: ٦٤]. وفاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضمير يرجع إلى قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] لا اليوم المضاف إلى ﴿يَأْتِ﴾. و﴿يَوْمٌ﴾ منصوب باذكر، أو: بقوله ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أي: لا تتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا يشفع أحدٌ أحداً إلا بإذن الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف، لدلالة ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ عليه. وقد مرّ ذكر الناس في قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] ﴿شَقِيَ﴾ معذب ﴿وَسَعِيدٌ﴾ أي: ومنهم ﴿سَعِيدٌ﴾ أي: منعم.

١٠٦ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ هو أول نهيق الحمار ﴿وَشَهِيقٌ﴾ هو آخره. أو: هما إخراج النفس، وردّه. والجملة في موضع

خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١٠٨﴾

الحال، والعامل فيها الاستقرار الذي في النار.

١٠٧ - ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ في موضع النصب، أي: مدة دوام السموات والأرض. والمراد سموات الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أَنَّ لها سموات وأرضاً قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عِوَجَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقيل: ما دامت فوق وتحت، ولأنه لا بد لأهل الآخرة ثَمًّا يَقلُّهم ويَظَلُّهم إمَّا سماء أو عرش. وكلُّ ما أَظْلَكَ فهو سماء. أو: هو عبارة عن التأييد، ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هو استثناء من الخلود في عذاب النار، وذلك لأنَّ أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار. أو: ﴿مَا شَاءَ﴾ بمعنى من شاء، وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة، فيقال لهم: الجهنميون، وهم المستثنون من أهل الجنة أيضاً لفارقتهم إياها بكونهم في النار أيتاماً، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأييد، ولا سعدوا سعادة من لاتمسه النار. وهو مروي عن ابن عباس، والضَّحَّاك، وقتادة - رضي الله عنهم - ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بالشقي، والسعيد.

١٠٨ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ «سُعِدُوا» حمزة، وعلي، وحفص. سَعِدَ: لازم. وسَعَدَه يسعده: متعد. ﴿فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة. وذلك أَنَّ لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها، وهو رؤية الله تعالى، ورضوانه. أو: معناه: إلا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «الاستثناء في الآيتين لأهل الجنة»^(١). ومعناه: ما ذكرنا: أنه لا يكون

(١) رواه ابن مردويه عن جابر بنحوه. (الدر المنثور ٤/ ٤٧٦).

عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١٠٩﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ
 آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١١٠﴾ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
 الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ
 مِنْهُ

للمسلم العاصي؛ الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها، ولا يكون له
 أيضاً خلود في الجنة، لأنه لم يدخل الجنة ابتداء. والمعتزلة لما لم يروا خروج
 العصاة من النار ردوا الأحاديث المروية في هذا الباب، وكفى به إثماً مبيناً
 ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ غير مقطوع، ولكنه ممتد إلى ما غير نهاية، كقوله: ﴿لَهُمْ
 أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]. وهو نصب على المصدر، أي: أعطوا ﴿عطاءً﴾.
 قيل: كفرت الجهمية بأربع آيات ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ﴾
 [الرعد: ٣٥] ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ﴿لَا مَقْطُوعٌ وَلَا مَمْنُونٌ﴾
 [الواقعة: ٣٣].

١٠٩ - لما قصَّ الله قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلَّ بهم من نقمه،
 وما أعدَّ لهم من عذابه قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءُ﴾ - أي: فلا تشك
 بعد ما أنزل عليك من هذه القصص، في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم
 قبلهم - تسلياً لرسول الله ﷺ، وعدة بالانتقام منهم، ووعيداً لهم. ثمَّ قال:
 ﴿مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يريد: أنَّ حالهم في الشرك مثل حال
 آبائهم، وقد بلغك ما نزل بأبائهم فسينزل بهم مثله. وهو استئناف، معناه:
 تعليل النهي عن المرية. و﴿مَا﴾ في ﴿مِمَّا﴾ و﴿كَمَا﴾ مصدرية، أو: موصولة،
 أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو: مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون
 منها ﴿وَلِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ﴾ حظهم من العذاب، كما وفينا آباءهم أنصباؤهم
 ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال من ﴿نصيبهم﴾ أي: كاملاً.

١١٠ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾ آمن به قوم،
 وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن. وهو تسلياً لرسول الله ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أنه لا يعاجلهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى، أو:
 قومك بالعذاب المستأصل ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من القرآن، أو: من العذاب

مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقْتَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿مُرِيبٌ﴾ من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، على الإسناد المجازي.

١١١ - ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ التثنية عوض من المضاف إليه، يعني: وإن كلهم، أي: وإن جميع المختلفين فيه ﴿وَإِنْ﴾ مشددة ﴿لَمَّا﴾^(١) مخففة: بصري، وعلي. ﴿مَا﴾ مزيدة، جيء بها ليفصل بها بين لام إن ولام ﴿يُؤْفِقْتَنَّهُمْ﴾. وهو جواب قسم محذوف. واللام في ﴿لَمَّا﴾ موطئة للقسم. والمعنى: وإن جميعهم والله ﴿ليؤفقتهم ربك أعمالهم﴾ أي: جزاء أعمالهم من إيمان، وجحود، وحسن، وقبيح. بعكس الأولى: أبو بكر. مخففتان: مكى، ونافع، على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذي هو التثنية، ولأن «إن» تشبه الفعل. والفعل يعمل قبل الحذف وبعده، نحو: لم يكن، ولم يك، فكذا المشبه به. مشددتان غيرهم. وهو مشكل. وأحسن ما قيل فيه: أنه من لممت الشيء: جمعته لماً، ثم وقف فصار: لماً، ثم أجري الوصل مجرى الوقف. وجاز أن يكون مثل الدعوى، والثروة، وما فيه ألف التأنيث من المصادر. وقرأ الزهري: (وَإِنْ كَلَّا لَمَّا) بالتثنية كقوله: ﴿أَكْثَلًا لَمَّا﴾ [الفجر: ١٩] وهو يؤيد ما ذكرنا. والمعنى: وإن كلاً ملمومين، أي: مجموعين، كأنه قيل: وإن كلاً جميعاً، كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]. وقال صاحب «الإيجاز»: ﴿لَمَّا﴾ فيه معنى الظرف، وقد دخل في الكلام اختصار، كأنه قيل: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا﴾ بعثوا ﴿ليؤفقتهم ربك أعمالهم﴾. وقال الكسائي: ليس لي بتشديد «لما» علم ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١١٢ - ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها، غير عادل عنها ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ معطوف على المستتر في (استقم). وجاز للفاصل، يعني: فاستقم أنت، وليستقم من تاب عن الكفر، ورجع إلى الله خلاصاً ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو

(١) المثبت في الأصل المخطوط (لَمَّا) مخففاً.

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ

مجازيكم فاتقوه. قيل: نزلت على رسول الله ﷺ آية كانت أشقَّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال: «شيتني هود»^(١).

١١٣ - ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تميلوا. قال الشيخ^(٢) - رحمه الله -: هذا خطابٌ لأتباع الكفرة، أي: لا تركبوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم، وفيما يدعونكم إليه ﴿فَتُمْسِكُمُ النَّارُ﴾ وقيل: الركون إليهم: الرضا بكفرهم. وقال قتادة: ولا تلحقوا بالمشركين. وعن الموفق: أنه صلى خلف الإمام، فلما قرأ هذه الآية غشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم؟! وعن الحسن: جعل الله الدين بين لاءين: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾. وقال سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه»^(٣). ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يُسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت! فقال: دعه يموت! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ حال من قوله: ﴿فَتُمْسِكُمُ النَّارُ﴾ أي: فتمسككم النار، وأنتم على هذه الحالة. ومعناه: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يقدرّون على منعكم من عذابه، ولا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ثم لا ينصركم هو، لأنه حكم بتعذيبكم. ومعنى ﴿ثم﴾ الاستبعاد، أي: النصرة من الله مستبعدة.

١١٤ - ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غدوة وعشيّة، ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وساعات من الليل. جمع زلفة، وهي ساعات القرية من آخر النهار. من: أزلفه، إذا قرّبه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشيّة: الظهر والعصر، لأن مابعد الزوال عشيّة. وصلاة الزلف: المغرب، والعشاء. وانتصاب ﴿طرفي﴾

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧).

(٢) أي: المصنف رحمه الله تعالى.

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٩٤٣٢).

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٦﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً

النهار ﴿ على الظرف، لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوله، وآخره. تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ﴾ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿ إِنَّ الصلوات الخمس يذهبن الذنوب. وفي الحديث: «إِنَّ الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب»^(١). أو: الطاعات. قال عليه الصلاة والسلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٢). أو: سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ﴿فاستقم﴾ فما بعده، أو: القرآن ﴿ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ عظة للمتعتبين. نزلت في عمرو بن غزية الأنصاريّ بائع التمر، قال لامرأة: في البيت تمر أجود، فدخلت فقبلها، فندم، فجاءه حاكياً باكياً، فنزلت. فقال عليه الصلاة والسلام: «هل شهدت معنا العصر؟» قال: نعم. قال: «هي كفارة لك». فقليل: أله خاصة؟ قال: «بل للناس عامة»^(٣).

١١٥- ﴿ وَأَصْبِرْ ﴾ على امثال ما أمرت به، والانتفاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ جاء بما هو مشتمل على جميع الأوامر والنواهي من قوله: ﴿فاستقم﴾ إلى قوله: ﴿واصبر﴾ وغير ذلك من الحسنات.

١١٦- ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فهلاً كان. هو موضوع للتخصيص، ومخصوص بالفعل ﴿ أُولُوا بَقِيَّةً ﴾ أولو فضل، وخير. وسمى الفضل والجودة ﴿بَقِيَّةً﴾ لأن الرجل يستبقى مما يخرج أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم. ومنه قولهم: في

(١) رواه محمد بن نصر كما في كنز العمال (١٨٩٥٧) بلفظ: «إِنَّ الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب». ورواه الحاكم (١١٩/١) بلفظ: «الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر».

(٢) رواه أحمد (١٥٣/٥) والترمذي (١٩٨٧).

(٣) رواه الترمذي (٣١١٣).

يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمِ
وَأَهْلَهَا مُضِلِّحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ عجب محمداً ﷺ وأتمته أن لم يكن في الأمم التي ذكر الله إهلاكهم في هذه السورة جماعة من أولي العقل، والدين، ينهون غيرهم عن الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي. و﴿مَنْ﴾ في ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا﴾ للبيان لا للتبعض؛ لأن النجاة للناهين وحدهم؛ بدليل قوله: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَسْوَءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: التاركون للنهي عن المنكر، وهو عطف على مضمّر، أي: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عن الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ شهواتهم، فهو عطف على نهوا ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: اتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والترقة من: حب الرئاسة، والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ اعتراض، وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون.

١١٧ - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ اللام لتأكيد النفي ﴿يَظْلِمِ﴾ حال من الفاعل، أي: لا يصح أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلَهَا﴾ قوم ﴿مُضِلِّحُونَ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم. وقيل: الظلم: الشرك، أي: لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم، لا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

١١٨ - ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: متقين على الإيمان والطاعات عن اختيار، ولكن لم يشأ ذلك. وقالت المعتزلة: هي مشيئة قسر، وذلك رافع للابتلاء، فلا يجوز ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الكفر والإيمان، أي: ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

١١٩ - ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً عصمهم الله عن الاختلاف، فاتفقوا على دين الحق، غير مختلفين فيه ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: ولما هم عليه من الاختلاف. فعندنا خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف، أو اتفاق، ولم يخلقهم لغير الذي علم أنهم سيصيرون إليه. كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

١٢٠ - ﴿وَكَلَّا﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه، كأنه قيل: وكل نبأ. وهو منصوب بقوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لكل. وقوله: ﴿مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من ﴿كَلَّا﴾ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو: في هذه الأنباء المقتضة ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى تثبت فؤاده: زيادة يقينه؛ لأن تكرار الأدلة أثبت للقلب.

١٢١ - ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة، وغيرهم ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على مكانتنا.

١٢٢ - ﴿وَانظُرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتصر الله تعالى من النقم النازلة بأشباهكم.

١٢٣ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾^(١) فلا بد أن يرجع إليه أمرهم

(١) في الأصل المخطوط ﴿يُرْجَعُ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ويعقوب. (معجم القراءات القرآنية ١٤٠/٣).

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وأمرك، فينتقم لك منهم. ﴿يُرْجَع﴾: نافع، وحفص ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) وبالتاء: مدني، وشامي، وحفص. أي: أنت وهم على تغليب المخاطب. قيل: خاتمة التوراة هذه الآية. وفي الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى»^(٢).

* * *

(١) في الأصل المخطوط «يعملون» وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبي عمرو، والحسن، وعيسى بن عمر. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٤٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٢٧٠) والديلمي في الفردوس (٥٨٦٨) بلفظ: «من أحب أن يعزه الله فليتوكل على الله» وقال الذهبي: في إسناده: هشام بن زياد: متروك، ومحمد بن معاوية: كذبه الدارقطني، فبطل الحديث.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

١ - ﴿الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات هذه السورة. و﴿الكتاب المبين﴾ السورة. أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب، أو: التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو: الواضحة التي لا تشبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو: قد أُبينَ فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف - عليه السلام - فقد روي: أن علماء اليهود قالوا للمشركون: سلوا محمداً لم ينتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف - عليه السلام -

٢ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف - عليه السلام - في حال كونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وسمى بعض القرآن قرآنًا؛ لأنه اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤].

٣ - ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ نُبَيِّنُ لك أحسن البيان. والقصص: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها، عن الزجاج. وقيل: القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص. تقول: قصّ الحديث يقصّه قصصاً. ويكون فعلاً بمعنى

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِذْ قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

مفعول كالنفض، والحسب^(١). فعلى الأول معناه: نحن نقص عليك أحسن
الاقتصاص، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بإيجائنا إليك هذه السورة.
على أن يكون ﴿أحسن﴾ منصوباً نصب المصدر لإضافته إليه. والمقصود
محذوف؛ لأن ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ مغن عنه. والمراد بأحسن
الاقتصاص: أنه اقتصر على أبداع طريقة، وأعجب أسلوب، فإنك لا ترى
اقتصاصه في كتب الأولين مقارباً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص
المقصود، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث. وإنما
كان أحسن لما يتضمن من العبر، والحكم، والعجائب التي ليست في غيره.
والظاهر أنه أحسن ما يقتصر في بابه، كما يقال: فلان أعلم الناس، أي: في
فته. واشتقاق القصص من: قص أثره: إذا تبعه؛ لأن الذي يقص الحديث يتبع
ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما أَوْحَيْنَا﴾
﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عنه. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة. واللام فارقة بينها وبين
النافية. يعني: وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيجائنا إليك من الجاهلين به.

٤ - ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتغال من ﴿أحسن القصص﴾ لأن الوقت مشتمل على
القصص. أو: التقدير: اذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ ﴿يُوسُفُ﴾ اسم عبراني لا عربي، إذ لو
كان عربياً لانصرف؛ لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب.
﴿يَتَابَتِ﴾ (أبت) شامي. وهي تاء تأنيث عوضت عن ياء الإضافة لتناسبهما؛
لأن كل واحدة منهما زائدة في آخر الاسم، ولهذا قلبت هاء في الوقف. وجاز
إلحاق تاء التأنيث بالمذكر، كما في: رجل ربعة. وكسرت التاء لتدل على الياء
المحذوفة. ومن فتح التاء فقد حذف الألف من: يا أبتا، واستبقى الفتحة
قبلها، كما فعل من حذف الياء في: يا غلام ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا، لا من
الرؤية ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أسماؤها بيان النبي ﷺ: «جريان، والذيال،
والطارق، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ،

(١) أي: نفضاً، بمعنى منفوض. وحسباً، بمعنى محسوب.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ

ووثاب، وذو الكتفين^(١) ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هما أبواه، أو: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته. قيل: الواو بمعنى: مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. وأجريت مجرى العقلاء في ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لأنه وصفها بما هو المختص بالعقلاء، وهو: السجود. وكررت الرؤيا؛ لأن الأولى تتعلق بالذات، والثانية بالحال. أو: الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، كأن أباه قال له: كيف رأيتهما؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أي: متواضعين، وهو حال. وكان ابن ثتي عشرة سنة يومئذ. وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، أو: ثمانون.

٥- ﴿قَالَ يَبْنَئُ﴾ بالفتح حيث كان: حفص ﴿لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ﴾ هي بمعنى الرؤية، إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة. وفرق بينهما بحرفي التأنيث، كما في القرية والقريى ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ﴾ جواب النهي، أي: إن قصصتها عليهم كادوك. عرف يعقوب - عليه السلام - أن الله يصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسد الإخوة. وإنما لم يقل فيكيدوك كما قال ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥] لأنه ضمن معنى فعل يتعدى باللام، ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون أكد، وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر، وهو ﴿كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فيحملهم على الحسد، والكيد.

٦- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الاجتناء الذي دلّت عليه رؤياك ﴿يَجْنِبُكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك. والاجتناء: الاصطفاء. افتعال، من جبيت الشيء: إذا حصّلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض: جمعته ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ، غير داخل في

(١) رواه سعيد بن منصور، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ، وألحاكم، وابن مردويه، والبيهقي معاً في دلائل النبوّة. انظر: الدر المنثور (٢ / ٤٩٨).

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْمَسْأَلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا

حكم التشبيه. كأنه قيل: وهو يعلمك ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا. وتأويلها: عابرتها، وتفسيرها. وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا. أو: تأويل أحاديث الأنبياء، وكتب الله. وهو اسم جمع للحديث، وليس بجمع أحداثه ﴿وَيُسَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، أي: جعلهم أنبياء في الدنيا، وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة. وآل يعقوب: أهله، وهم نسله وغيرهم. وأصل آل: أهل، بدليل تصغيره على: أهيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك. ولا يقال آل الحجام، ولكن أهله. وإنما علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب؛ فلذا قال: ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أراد الجد، وأبا الجد ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

٧ - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي: في قصتهم، وحديثهم ﴿ءَايَاتٍ﴾ علامات، ودلالات على قدرة الله، وحكمته في كل شيء. ﴿آيَةٌ﴾: مكي. ﴿لِّلْمَسْأَلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم، وعرفها، أو: آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم من غير سماع من أحد، ولا قراءة كتاب. وأسمائهم: يهوذا، ورويين، وشمعون، ولاوي، وزبولون، ويشجر، وأتهم: ليا بنت ليان، ودان، ونفتالي، وجاد، وأشر، من سُرِّيَّين: زلفة، وبهلة. فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل، فولدت له بنيامين، ويوسف.

٨ - ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ اللام: لام الابتداء. وفيها تأكيد، وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا: أن زيادة محبته لهما أمر ثابت، لا شبهة فيه. وإنما قالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم إخوته أيضاً؛ لأن أمهما كانت واحدة. وإنما قيل: ﴿أَحَبُّ﴾ في الاثنين؛ لأن «أفعل من» لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه،

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَفَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْحُلُ لَكُمْ وَجَّهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهٗ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

ولا بين المذكر والمؤنث، ولا بدّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف ساغ الأمران. والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ للحال. أي: أنه يفضلهما في المحبة علينا، وهما صغيران، لا كفاية فيهما، ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة، والمنفعة عليهما ﴿إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غلط في تدبير أمر الدنيا. ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا. والعصبة: العشرة فصاعداً.

٩- ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ من جملة ما حكى بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ كأنهم أطبقوا على ذلك، إلا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾. وقيل: الأمر بالقتل شمعون، والباقون كانوا راضين، فجعلوا أمرين ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة، مجهولة، بعيدة عن العمران. وهو معنى تنكيرها وإخلائها عن الوصف. ولهذا الإبهام نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يَمْحُلُ لَكُمْ وَجَّهُ أَيُّكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة، لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامة محبته لهم ممن يشاركون فيها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. وجاز أن يُراد بالوجه الذات، كما قال: ﴿وَبَقِيَ وَجَّهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿وَتَكُونُوا﴾ مجزوم عطفاً على ﴿يَمْحُلُ لَكُمْ﴾ من بعد يوسف، أي: من بعد كفايته بالقتل، أو التغريب، أو: من بعد قتله، أو طرحه. فيرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا، أو اطرخوا ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتهم عليه، أو: يصلح حالكم عند أيكم.

١٠- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإنّ القتل عظيم ﴿وَالْقَوْهٗ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ في قعر البئر، وما غاب منه عن عين الناظر. (غيابات) وكذا ما بعده: مدني ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعض الأقوام الذين يسرون في الطريق ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ به شيئاً.

قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

١١- ﴿قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصَحُونَ﴾ أي: لم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونشفق عليه؟ وأرادوا بذلك - لما عزموا على كيد يوسف - استنزاله عن رأيه، وعادته في حفظه منهم. وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه.

١٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ ^(١) نتسع في أكل الفواكه وغيرها. والرتعة: السعة ﴿وَيَلْعَبَ﴾ تنفرج بما يباح كالصيد، والرمي، والركض. بالياء فيهما: مدني، وكوفي. وبالنون فيهما: مكِّي، وشامي، وأبو عمرو. وبكسر العين: حجازي، من: ارتعى، يرتعي. افتعال من الرعي ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

١٣- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يحزني ذهابكم به. واللام لام الابتداء ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة، وأنه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم، ولعبهم.

١٤- ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ اللام موطئة للقسم. والقسم محذوف، تقديره: والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾. والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ - أي: فرقة مجتمعة، مقتدرة على الدفع -. للحال ﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ جواب للقسم، مجزئ عن جزاء الشرط، أي: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا، وخسرناها. وأجابوا عن عذره الثاني دون الأول؛ لأن ذلك كان يغيظهم.

(١) في الأصل المخطوط ﴿نَرْتَعْ﴾ وكذا ﴿نَلْعَبُ﴾. وهما قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وابن عامر، والبيهقي. معجم القراءات القرآنية (١٥٣/٣).

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عَشَاءً يَتْكُونَ ﴿١٦﴾

١٥ - ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: عزموا على إلقائه في البئر. وهي بئر على ثلاثة فراسخ^(١) من منزل يعقوب - عليه السلام -. وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف، تقديره: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة، وضربوه، وكادوا يقتلونه. فمنعهم يهوذا. فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بشياهم، فنزعوها من يده، فتعلق بحائط البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم، فيحتالوا به على أبيهم، ودلّوه في البئر، وكان فيها ماء، فسقط فيه. ثم أوى إلى صخرة، فقام عليها، وهو يبكي، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. ويروى: أن إبراهيم - عليه السلام - حين أُلقي في النار جرد عنه ثيابه، فأتاه جبريل - عليه السلام - بقميص من حرير الجنة، فالبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تيمية علقها في عنق يوسف فأخرجه جبريل، وألبسه إياه^(٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قيل: أوحى إليه في الصغر، كما أوحى إلى يحيى وعيسى - عليهما السلام - وقيل: كان إذ ذاك مدركاً ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: لتحدثن إخوانك بما فعلوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلوا شأنك، وكبرياء سلطانك. وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾ دعا بالصواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وأنكم ألقيتموه في غيابة الجب، وقتلتم لأبيه: أكله الذئب، ويعتموه بثمان بخس. أو: يتعلق ﴿وهم لا يشعرون﴾ بأوحينا، أي: أنسناه بالوحي، وأزلنا عن قلبه الوحشة ﴿وهم لا يشعرون﴾ ذلك.

١٦ - ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عَشَاءً﴾ للاستتار، والتجسس على الاعتذار ﴿يَتْكُونَ﴾

(١) الفرسخ = ١٧٢٨ م.

(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات، والله أعلم بصحة إسنادها، والأولى التنبيه عليها في كتب التفسير وغيرها.

قَالُوا يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ

حال. عن الأعمش: لا تصدق باكية بعد إخوة يوسف.

١٧ - فلما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما لكم، وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾ أي: نتسابق في العدو، أو: في الرمي. والافتعال والتفاعيل يشتركان، كالارتقاء، والترامي، وغير ذلك ﴿وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة؛ لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا، غير واثق بقولنا؟!!

١٨ - ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ذي كذب. أو: وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته. روي: أنهم ذبحوا سخلة، ولطخوا القميص بدمها، وزل عنهم أن يُمزقوه. وروي: أن يعقوب - عليه السلام - لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ وأخذه، وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص. وقال: تالله ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا. أكل ابني، ولم يُمزق عليه قميصه!! وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قد من دبره. وعمل ﴿على قميصه﴾ النصب على الظرف، كأنه قيل: وجاؤوا فوق قميصه بدم ﴿قَالَ﴾ يعقوب - عليه السلام - ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زينت، أو: سهلت. ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ خبر أو مبتدأ؛ لكونه موصوفاً، أي: فأمرى صبر جميل، أو: فصبر جميل أمثل. وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينه ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

١٩ - ﴿وَجَلَّتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة

فَازْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ

أيام من إلقاء يوسف في الحب، فأخطؤوا الطريق، فنزلوا قريباً منه، وكان الحب في قفزة بعيدة من العمران، وكان ماؤه ملحاً، فعذب حين أُلقي فيه يوسف ﴿فَازْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم، اسمه: مالك بن ذعر الخزاعي ﴿فَأَدْلَى دَلْوُهُ﴾ أرسل الدلو ليملاها، فتشبث يوسف بالدلو فنزعه ﴿يَبُشْرَىٰ﴾ كوفي: نادى البشري، كأنه يقول تعالى: فهذا أوانك. غيرهم (بشراي) على إضافتها لنفسه، أو: هو اسم غلامه، فناده مضافاً إلى نفسه ﴿هَذَا غُلَامٌ﴾ قيل: ذهب به، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يشترهم به ﴿وَأَسَرُّهُ﴾ الضمير للوارد وأصحابه. أخفوه من الرفقة. أو: لإخوة يوسف، فإنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿بِضْعَةٍ﴾ حال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة، أي: قطع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

٢٠ - ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو: زيف. ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من «ثمن» ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة تعدد عدداً، ولا توزن؛ لأنهم كانوا يعدون ما دون الأربعين، ويزنون الأربعين وما فوقها، وكانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ممن يرغب عما في يده، فيبيعه بالثمن الطفيف. أو: معنى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ واشتروه، يعني: الرفقة من إخوته ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي: غير راغبين؛ لأنهم اعتقدوا أنه أبق. ويروى: أن إخوته اتبعوهم، وقالوا: استوثقوا منه، لا يأبق. و﴿فيه﴾ ليس من صلة ﴿الزاهدين﴾ أي: غير راغبين؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول. وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا ﴿فيه﴾.

٢١ - ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ هو قطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. والملك يومئذ الريان بن الوليد، وقد آمن بيوسف ومات في

لَا مَرَاتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُمُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَنَىٰ وَهُوَ يُنَادِي بِرَبِّهِ عَنْ نَفْسِهِ

حياته. واشتراه العزيز بزنته وِرْقًا، وحريراً، ومسكاً. وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مئة وعشرين سنة ﴿لَا مَرَاتِهِ﴾ راعيل، أو زليخا، واللام متعلقة بـ ﴿قال﴾، لا بـ ﴿اشتراه﴾ ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضياً، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وعن الضحاك: بطيب معاشه، ولين رياشه، ووطيء فراشه ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ لعله إذا تدرّب، وراض الأمور، وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿أَوْ نَخْذُمُ وَلَدًا﴾ أو: نتبناه، ونقيم مقام الولد. وكان قطفير عقيماً، وقد تفرّس فيه الرشد، فقال ذلك ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من إنجائه، وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب، تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: كما أنجبناه، وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكّنّا له ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرّف فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ لا يمنع عما شاء. أو: على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد إخوته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٢٢ - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهى استعداد قوّته. وهو ثمان عشرة سنة، أو: إحدى وعشرون ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حكمة، وهو: العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه. أو: حكماً بين الناس، وفقهاً ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره.

٢٣ - ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَنَىٰ وَهُوَ يُنَادِي بِرَبِّهِ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: طلبت يوسف أن يواقعها. والمرادة: مفاعلة، من: راد يرود: إذا جاء وذهب. كأن المعنى: خادعته عن

وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَبِّهٖ

نفسه، أي: فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه. وهي عبارة عن التمثل لمواقفته إياها ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ اسم ل: تعال، وأقبل. وهو مبني على الفتح. (هَيْتُ): مَكِّي، بناه على الضم. (هَيْتُ): مدني، وشامي. واللام للبيان. كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن الشأن، والحديث ﴿رَبِّي﴾: سيدي، ومالكي - يريد: قطير - ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ حين قال لك: ﴿أكرمي مثواه﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الخائنون، أو: الزناة. أو: أراد بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

٢٤ - ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ﴾ هم عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم الطباع مع الامتناع، قاله الحسن. وقال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم خطرة، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذه عليه. ولو كان هم كهتمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين. وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وشارف أن يهم بها. يقال: هم بالأمر: إذا قصده، وعزم عليه. وجواب ﴿لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَبِّهٖ﴾ محذوف، أي: لكان ما كان. وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابه. ولا يصح؛ لأن جواب لولا لا يتقدم عليها؛ لأنه في حكم الشرط، وله صدر الكلام. والبرهان: الحجة. ويجوز أن يكون ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ داخلاً في حكم القسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ﴾ ويجوز أن يكون خارجاً. ومن حق القارئ إذا قدر خروجه من حكم القسم، وجعله كلاماً برأسه، أن يقف على ﴿بهٖ﴾ ويتبدى بقوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾. وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين. وفسر هم يوسف بأنه حلّ نكّة سراويله، وقعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها^(١). وفسر

(١) هذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يتعارض مع عصمة الأنبياء، والأسلم تفسير ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بخطرات حديث النفس، والميل إلى المخالطة بحكم الطبيعة البشرية، ولا مؤاخذه على ذلك شرعاً، وقد عصمه الله من الفعل. أو أنّ رؤيته برهان ربّه منعت من الهم أصلاً. =

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ

البرهان بأنه سمع صوتاً: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا - مَرَّتَيْنِ - فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه، حتى مثل له يعقوب عاضاً على أناملته، وهو باطل. ويدل على بطلانه وقوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ نفسه من ذلك. وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ولو كان كذلك لخانه بالغيب. وقوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره، كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود - عليهم السلام - وقد سباه الله مخلصاً، فعلم بالقطع: أنه ثبت في ذلك المقام، وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم، ناظراً في دلائل التحريم، حتى استحق من الله الثناء. ومحل الكاف في: ﴿كَذَلِكَ﴾ نصب، أي: مثل ذلك التثبيت ثبته، أو: رفع، أي: الأمر مثل ذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ خيانة السيد ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ الزنى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام حيث كان: مدني، وكوفي، أي: الذين أخلصهم الله لطاعته. وبكسرهما: غيرهم، أي: أخلصوا دينهم لله. ومعنى ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين.

٢٥ - ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ وتسابقا إلى الباب، هي للطلب، وهو للهرب. على حذف الجار، وإيصال الفعل، كقوله: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أو: على تضمين ﴿استبقا﴾ معنى: ابتدرا. ففر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ووحد الباب وإن كان جمعه في قوله: ﴿وَعَلَقْتُ الْأَبْوَابَ﴾ لأنه أراد الباب البراني، الذي هو المخرج من الدار. ولما هرب يوسف جعل فَرَّاشَ الْقُفْلِ^(١) يتناثر، ويسقط حتى خرج

= وحذا لو اقتصر النسفي - رحمه الله تعالى - على ما ذكره أولاً. وانظر تفسيره للآية رقم (٣٢).

(١) «فَرَّاشُ الْقُفْلِ»: مَنَاشِبُهُ، واحداً فَرَّاشَةً. قال ابنُ دُرَيْدٍ: لا أحسبها عربية. وكلّ =

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ اجتذبت من خلفه فانقذت، أي: انشق حين هرب منها إلى الباب، وتبعته تمنعه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ وصادفا بعلمها قطفير مقبلاً يريد أن يدخل، فلما رآته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، ولتخويف يوسف طمعاً في أن يواطئها خيفة منها، ومن مكرها، حيث ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، أو: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو الضرب بالسياط. ولم تصرح بذكر يوسف، وأنه أراد بها سوءاً، لأنها قصدت العموم، أي: كل من أراد بأهلك سوءاً، فحقه أن يسجن، أو يعذب؛ لأن ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف.

٢٦ - ولما عرضته للسجن والعذاب، ووجب عليه الدفع عن نفسه ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾. ولولا ذلك لكتم عليها، ولم يفصحها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ هو ابن عم لها. وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف. وقيل: كان ابن خال لها، وكان صبيّاً في المهد. وسمى قوله شهادة؛ لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف، وبطل قولها: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

٢٧ - ﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والتقدير: ﴿وشهد شاهد﴾ فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ﴾. وإنما دلّ قد قميصه من قبل على أنها صادقة؛ لأنه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقدم قميصه فيشقّه، ولأنه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسها، فيتخرق قميصه من قبل. وأما تنكير ﴿قُبُلٍ﴾ و﴿دُبُرٍ﴾ فمعناه من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها دبر. وإنما جمع

فَلَمَّارَةً قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوْسُفُ
أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ
نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنُهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا

بين إن التي للاستقبال وبين كان؛ لأنَّ المعنى: إن يعلم أنَّه كان قميصه قد.

٢٨- ﴿فَلَمَّارَةً﴾ قطفير ﴿قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ وعلم براءة يوسف، وصدقه، وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾، أو: إن هذا الأمر - وهو الاحتيال لنيل الرجال - ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ الخطاب لها، ولأمتها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنهنَّ ألطف كيداً، وأعظم حيلة، وبذلك يغلبن الرجال. والقصريات منهنَّ معهنَّ ما ليس مع غيرهنَّ من البوائق. وعن بعض العلماء: إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال لهنَّ: ﴿إِنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

٢٩- ﴿يُوْسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء؛ لأنَّه منادى قريب، مُفَاطَن للحديث. وفيه تقريب له، وتلطيف لمحلّه ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الأمر، واكتمه، ولا تتحدث به. ثم قال لراعيه: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنوب. يقال: خطيء؛ إذا أذنب متعمداً. وإنما قال بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث. وكان العزيز رجلاً حليماً، قليل الغيرة، حيث اقتصر على هذا القول.

٣٠- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ جماعة من النساء. وكنَّ خمساً: امرأة الساقى، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيتها غير حقيقي؛ ولذا لم يقل: قالت. وفيه لغتان: كسر النون، وضمها ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ في مصر ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ يُرْدَن قطفير. والعزير: الملك، بلسان العرب ﴿تُرْوَدُ فَتَنُهَا﴾ غلامها، يقال: فتني، وفتاتي، أي: غلامي، وجاريتي. ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ لتناول شهوتها منه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تميز، أي: قد شغفها حبه، يعني: خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد. والشغاف: حجاب القلب، أو: جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب

إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِأً وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ

﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ وبعُد عن طريق الصواب.

٣١ - ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيالهن، وقولهن ﴿امرأة العزيز﴾ عشقت عبدها الكنعاني، ومقتها. وسمي الاغتيال مكرًا لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهن سرها، فأفشيته عليها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعتهن. قيل: دعت أربعين امرأةً منهن الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وهيات. افتعلت، من: العتاد ﴿لَهُنَّ مُتَّكِأٌ﴾ ما يتكئن عليه من نمارق. قصدت بتلك الهيئة - وهي قعودهن متكئات، والسكاكين في أيديهن - أن يدهشن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكىء إذا بهت لشيء وقعت يده على يده ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان إلا بالسكاكين، كفعل الأعاجم ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بكسر التاء: بصري، وعاصم، وحمة. وبضمها غيرهم ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أعظمته، وهبن ذلك الحسن الرائق، والجمال الفائق. وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وكان إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجدران. وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وقيل: ورث الجمال من جدته سارة. وقيل: «أكبرن» بمعنى حضن. والهاء للسكت، إذ لا يقال: النساء قد حضنه؛ لأنه لا يتعدى إلى مفعول، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت. وحقيقته: دخلت في الكبر؛ لأنها بالحض تحرج من حد الصغر. وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خَفِ اللَّهُ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِرُقْعٍ فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(١) ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وجرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها. أي: أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن، فدهشن لما رأينه، فخدشن أيديهن ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ حاشا: كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء. تقول: أساء القوم حاشا زيد، وهي حرف من حروف الجزر،

(١) «لحت»: من: لاح يلوح، أي: ظهر. «العواتق»: خيار النساء.

مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُو لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ
السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

فوضعت موضع التنزيه والبراءة. فمعنى ﴿حاشا الله﴾ براءة الله، وتنزيه الله. وقراءة أبي عمرو ﴿حاشا لله﴾ نحو قولك: سقيا لك، كأنه قال: براءة، ثم قال: لله؛ لبيان من يبرأ، وينزه. وغيره: ﴿حاش الله﴾ بحذف الألف الأخيرة. والمعنى: تنزيه الله من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ نفى عن البشرية لغرابة جماله، وأثبت له الملكية، وبتن بها الحكم لما ركز في الطباع: أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها: أن لا أقبح من الشيطان.

٣٢ - ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن، ثم لمتني فيه. تعني: إنكن لم تصورنه حق صورته، وإلا لعذرتني في الافتتان به ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ الاستعصام: بناء مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها. وهذا بيان جلّي على أن يوسف - عليه السلام - بريء مما فسر به أولئك الفريق الهمم والبرهان. ثم قلن له: أطع مولاتك. فقالت راعيل: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ - الضمير راجع إلى ﴿ما﴾ وهي موصولة. والمعنى: ﴿ما أمر﴾ به، فحذف الجار، كما في قوله: أمرتك الخير. أو: ﴿ما﴾ مصدرية. والضمير يرجع إلى يوسف، أي: ولئن لم يفعل أمري إياه، أي: موجب أمري، ومقتضاه - ﴿لَيُسْجَنَ﴾ ليحبسن - الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة ﴿مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ مع الشراق، والسفك، والأباق، كما سرق قلبي، وأبق مني، وسفك دمي بالفراق. فلا يهنا ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك، كما منعني هنا كل ذلك. ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميراً، حصل في الحصر على الحصر حسيراً.

٣٣ - فلما سمع يوسف تهديدها ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. أسند الدعوة إليهن؛ لأنهن قلن له: ما عليك لو أجب مولاتك. أو: افتنت

وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُئُهُمْ حَتَّى جِيئَ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي

كل واحدة به، فدعته إلى نفسها سراً. فالتجأ إلى ربه ﴿قال رب السجن أحب إلي﴾ من ركوب المعصية ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فرغ منه إلى الله في طلب العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أمل إليهن. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنه: الصبا؛ لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيماها، وروحها ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه، فهو ومن لم يعلم سواء. أو: من السفهاء.

٣٤- فلما كان في قوله: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ معنى طلب الصرف، والدعاء، قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أجاب الله دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحاله وحالهن.

٣٥- ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ فاعله مضمّر لدلالة ما يفسره عليه، وهو: ﴿لَيْسَ جُذُئُهُمْ﴾ والمعنى: بدا لهم بدءاً، أي: ظهر لهم رأي. والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للعزیز، وأهله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ وهي الشواهد على براءته كقد القميص، وقطع الأيدي، وشهادة الصبي، وغير ذلك ﴿لَيْسَ جُذُئُهُ﴾ لإبداء عذر الحال، وإرخاء الستر على القيل والقال. وما كان ذلك إلا باستئزال المرأة لزوجها، وكان مطوعاً لها وحُمَيْلاً ذلولاً، زمامه في يدها. وقد طمعت أن يذللّه السجن، ويسخره لها. أو: خافت عليه العيون، وظنت فيه الظنون، فألجأها الخجل من الناس، والوجل من اليأس، إلى أن رضيت بالحجاب، مكان خوف الذهاب، لتشتفي بخبره، إذا مُنعت من نظره ﴿حَتَّى جِيئَ﴾ إلى زمان. كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه.

٣٦- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ عبدان للملك: خبّازه وشرابيه، بتهمة السم. فأدخل السجن ساعة أدخل يوسف، لأن «مع» يدلّ على معنى الصحبة، تقول: خرجت مع الأمير، تريد: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ أي: شرابيه ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أي: في المنام،

أَعَصِرْ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا
بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نُرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

وهي حكاية حال ماضية ﴿أَعَصِرْ خَمْرًا﴾ أي: عنباً، تسمية للعنب بما يؤول
إليه. أو: الخمر بلغة عُمَانَ اسم للعنب ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ أي: خبازه ﴿إِنِّي أَرِنِيَ
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتأويل ما رأيناه ﴿إِنَّا نُرِيكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أو: من المحسنين إلى أهل السجن.
فإنك تداوي المريض، وتعزي الحزين، وتوسع على الفقير، فأحسن إلينا بتأويل
ما رأينا. وقيل: إنهما تحالما له ليمتحناه، فقال الشراي: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي
بِسْتَانٍ، فَإِذَا بِأَصْلِ حَبَلَةٍ^(١) عليه ثلاثة عناقيد من عنب ففقطفتها، وعصرتها في
كَأْسِ الْمَلِكِ، وسقيته. وقال الخباز: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ فَوْقَ رَأْسِي ثَلَاثَ سَلَالٍ فِيهَا
أَنْوَاعُ الْأَطْعَمَةِ، فَإِذَا سَبَاعُ الطَّيْرِ تَنْهَشُ مِنْهَا.

٣٧ - ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: ببيان ماهيته
وكيفيته؛ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ ولما استعبراه،
ووصفاه بالإحسان افترس ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم
العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في
السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتیکما طعام من صفته:
كيت وكيت، فيكون كذلك. وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد،
ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك. وفيه: أنَّ الْعَالَمَ
إِذَا جَهِلَتْ مَنَزَلَتُهُ فِي الْعِلْمِ فَوُصِفَ نَفْسُهُ بِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ - وَغَرَضُهُ أَنْ يَقْتَسِبَ
مِنْهُ - لَمْ يَكُنْ مِنْ بَابِ التَّرْكِيَةِ ﴿ذَلِكَمَا﴾ إشارة لهما إلى التأويل، أي: ذلك
التأويل والإخبار بالغيبات ﴿وَمِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أوحى به إليّ، ولم أقله عن تكهن
وتنجيم ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يجوز أن يكون

(١) «الحَبَلَةُ»: الكَرْمُ، وهو شجر متسلق يحمل ثمار العنب.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾
 يَصْصِحِّي السِّجْنَ ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ

كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك، وأوحى به إلي؛
 لأنني رفضتُ ملة أولئك، وهم أهل مصر، ومن كان الفتيان على دينهم.

٣٨ - ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهي الملة الحنيفية.
 وتكرير هم للتوكيد^(١). وذكر الآباء ليربها أنه من بيت النبوة؛ أن عرفهما أنه
 نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب، ليقوي رغبتهما في اتباع قوله.
 والمراد به: ترك الابتداء لا أنه كان فيه ثم تركه^(٢) ﴿مَا كَانُوا لَنَا﴾ ما صح لنا
 معشر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان صنماً، أو: غيره ﴿ذَلِكَ﴾
 التوحيد ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله،
 فيشركون به، ولا يتنبهون.

٣٩ - ﴿يَصْصِحِّي السِّجْنَ﴾ يا ساكني السجن، كقوله: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾
 [البقرة: ٨١] و﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [البقرة: ٨٢] ﴿ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يريد التفرق في العدد والتكاثر، أي: أن تكون أرباب شتى
 يستعبدكم هذا، ويستعبدكم هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما رب
 واحد قهار، لا يُغالب، ولا يُشارك في الربوبية؟ وهذا مثل ضربه لعبادة الله
 وحده، ولعبادة الأصنام.

٤٠ - ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ خطاب لهما، ولمن كان على دينهما من أهل مصر ﴿مِنْ
 دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: سمَّيتُم
 ما لا يستحق الألوهية: آلهة، ثم طفقتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء
 لا مسميات لها. ومعنى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ سمَّيتم بها، يقال: سمَّيته زيداً،

(١) «هم» مكررة في الآية (٣٧).

(٢) هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...﴾ الآية (٣٧).

مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ
الْقَسَمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا
فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَاهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ

وسمّيته يزيد ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ بتسميتها ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾ في
أمر العبادة والدين ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾. ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَسَمَ﴾ الثابت الذي دلّت عليه البراهين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدلّ على أنّ العقوبة تلزم العبد وإن جهل إذا أمكن له العلم
بطريقه.

٤١ - ثم عبّر الرؤيا فقال: ﴿يَصْحَجِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ يريد الشرابي
﴿فَيَسْقَى رَبَّهُ﴾ سيده ﴿خَمْرًا﴾ أي: يعود إلى عمله ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ أي: الخباز
﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ روي أنه قال للأول: ما رأيت من الكرمه
وحسنها هو الملك، وحسن حالك عنده. وأما القضبان الثلاثة فإنّها ثلاثة أيام
تمضي في السجن، ثم تخرج، وتعود إلى ما كنت عليه. وقال للثاني: ما رأيت من
السلال ثلاثة أيام، ثم تخرج فتقتل. ولما سمع الخباز صلبه قال: ما رأيت
شيئاً. فقال يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: قطع وتمّ ما تستفتيان
فيه من أمركما وشأنكما، أي: ما يجرّ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما،
ونجاة الآخر.

٤٢ - ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظانّ هو يوسف - عليه السلام - إن
كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظانّ هو الشرابي، أو:
يكون الظنّ بمعنى اليقين ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ صفني عند الملك بصفتي،
وقصّ عليه قصّتي لعلّه يرحمني، ويخلصني من هذه الورطة ﴿فَأَنَسَنَاهُ
الشَّيْطَانُ﴾ فأنسى الشرابي ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: أن يذكره لربه، أو: عند ربه.
أو: فأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره. وفي الحديث: «رحم الله

فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعَ سِنِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا بَاطِلًا ﴿١٧﴾

أخي يوسف لو لم يقل: ﴿اذكري عند ربك﴾ لما لبث في السجن سبعة^(١) ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعَ سِنِينَ﴾ أي: سبعة عند الجمهور. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

٤٣ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعة آخر يابسات قد استحصدت، وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها. وقيل: كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا، ثم كان سبب نجاته أيضاً الرؤيا. ﴿سمان﴾ جمع سمين وسمينة. والعجاف: المهازيل. والعَجَفَ: الهزال الذي ليس بعده سمانة. والسبب في وقوع ﴿عجاف﴾ جمعاً لعجفاء - وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال -: حمله على نقيضه وهو سمان. ومن دأبهم حمل النظم على النظم، والنقيض على النقيض. وفي الآية دلالة على أن السنبلات اليابسة كانت سبعة كالخضر؛ لأن الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر؛ فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع، ويكون قوله: ﴿وأخر يابسات﴾ بمعنى: وسبعة آخر ﴿يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ﴾ كأنه أراد: الأعيان من العلماء، والحكماء ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا بَاطِلًا﴾ اللام في ﴿لِلرُّؤْيَا﴾ للبيان، كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾. أو: لأن المفعول به إذا تقدم على الفعل لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه، فعضد بها. تقول: عبرت الرؤيا، وللرؤيا عبرت. أو: يكون للرؤيا: خبر كان، كقولك: كان فلان لهذا الأمر: إذا كان مستقلاً به، متمكناً منه، و﴿تعبرون﴾ خبر آخر،

(١) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. (الدر المنثور ٤/٥٤١).

قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ

أو: حال. وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها، وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه، وهو عبْره. ونحوه: أولت الرؤيا؛ إذا ذكرت مآلها، وهو مرجعها. وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأئبات، ورأيتهم ينكرون عبّرت بالتشديد، والتعبير والمعبر.

٤٤- ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي: هي ﴿أضغاث أحلام﴾ أي: تخاليطها، وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس، أو: وسوسة شيطان. وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات، وحزم من أنواع الحشيش. الواحد: ضغث، فاستعيرت لذلك. والإضافة بمعنى «مِنْ» أي: أضغاث من أحلام. وإنما جمع؛ وهو حُلْم واحد تزايداً في وصف الحلم بالبطلان. وجاز أن يكون قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ أرادوا بالأحلام: المنامات الباطلة، فقالوا: ليس لها عندنا تأويل، إنما التأويل للمنامات الصحيحة. أو: اعترفوا بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين.

٤٥- ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالذال هو الفصيح. وأصله: اذتكر، فأبدلت الذال دالاً، والتاء ذالاً، وأدغمت الأولى في الثانية لتقارب الحرفين. وعن الحسن: (واذكر). ووجهه: أنه قلب التاء ذالاً، وأدغم، أي: تذكر يوسف، وما شاهد منه ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد مدة طويلة. وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه، وأعضل على الملك تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه، ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أنا أخبركم به عمّن عنده علمه ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: فابعثوني إليه لأسأله، فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال:

٤٦- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله، وتعزّف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا
حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ۖ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَتٍ
لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ إلى الملك، وأتباعه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومكانك من
العلم فيطلبوك، ويخلصوك من محتك.

٤٧ - ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ هو خبر في معنى الأمر، كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾^(١) [الصف: ١١]. دليله قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾. وإنما
يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به، فيجعل كأنه موجود،
فهو يخبر عنه ﴿دَأَبًا﴾^(٢) بسكون الهمز. وحفص يحركه بالفتح. وهما مصدران
دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي: دائبين ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي
سُنْبُلِهِ﴾ كيلا يأكله السوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

٤٨ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هو من إسناد المجاز، جعل أكل
أهلهم مسنداً إليهم ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: في السنين المخصبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تَحْصِنُونَ﴾ تحززون، وتخبتون.

٤٩ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ أي: من بعد أربع عشرة سنة عام ﴿فِيهِ يُغَاثُ
النَّاسُ﴾ من الغوث، أي: يجاب مستغيثهم. أو: من الغيث، أي: يمطرون.
يقال: غيثت البلاد: إذا مطرت ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ العنب، والزيتون، والسمس،
فيتخذون الأشربة، والأدهان ﴿تَعْصِرُونَ﴾: حمزة وعلي. فتأول البقرات السمان

(١) في الأصل المخطوط: واليوم الآخر بدل: «ورسوله» وهو خطأ.

(٢) في الأصل المخطوط ﴿دَأَبًا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة،
والكسائي، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية
(١٧٤/٣).

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ
الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ
نَفْسِہٖ قُلْنَ

والسنبلات الخضراء بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم
بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً، كثير الخير،
غزير النعم، وذلك من جهة الوحي.

٥٠ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ ارْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الملك ﴿فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ أي: حال ﴿النسوة﴾ ﴿الَّتِي قَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تثبت يوسف، وتأتى في إجابة الملك، وقدم سؤال النسوة ليظهر
براءة ساحته عما قذف به وسُجن فيه؛ لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقييح أمره
عنده، ويجعلوه سلماً إلى حظ منزله لديه، ولئلا يقولوا: ما خلّد في السجن
سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير. وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي
التهمة واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها. وقال عليه الصلاة والسلام:
«لقد عجبْتُ من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له حين سئل عن البقرات
العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني. ولقد
عجبْتُ منه حين أتاه الرسول فقال: ﴿ارجع إلى ربك﴾ ولو كنت مكانه ولبت
في السجن ما لبت، لأسرعت الإجابة، وبادرت الباب، ولما ابتغيت العذر. إن
كان لحليماً ذا أناة»^(١). ومن كرمه، وحسن أدبه، أنه لم يذكر سيّدته مع
ما صنعت به، وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات
أيديهن ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إن كيدهن عظيم، لا يعلمه إلا الله، وهو
مجازيهن عليه.

٥١ - فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة
المقطعات أيديهن، ودعا امرأة العزيز، ثم ﴿قَالَ﴾ لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ؟
مَا شَأْنُكُنَّ؟﴾ ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِہٖ﴾ هل وجدتن منه ميلاً إليكن؟ ﴿قُلْنَ

حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي

حَسَّ لِلَّهِ ﴿٥١﴾ تعجباً من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ من ذنب ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ ظهر، واستقر ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾. ولا مزيد على شهادتين له بالبراءة، والتزاهة، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قذف به.

٥٢ - ثم رجع الرسول إلى يوسف، وأخبره بكلام النسوة، وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها، فقال يوسف: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: امتناعي من الخروج والتثبت لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب في حرمة. ﴿بالغيب﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه، أو: وهو غائب عني. أو: ﴿ليعلم﴾ الملك أنني لم أخن العزيز. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: وليعلم أن الله ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا يسدده. وكأنه تعريض بامراته في خيانتها أمانة زوجها.

٥٣ - ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لثلاث يكون لها مزكياً، وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية، ولا أزكيها في عموم الأفعال. أو: في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذي هو الخطرة البشرية، لا عن طريق القصد، والعزم. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أراد الجنس، أي: أن هذا الجنس يأمر بالسوء، ويحمل عليه لما فيه من الشهوات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة. ويجوز أن يكون ﴿ما رحم﴾ في معنى الزمان، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني: أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة. أو: هو استثناء منقطع، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي: ﴿ذلك﴾ الذي قلت ﴿ليعلم﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصدق فيما سئلت عنه ﴿وَمَا أُبْرِئُ﴾

إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

نفسى ﴿ مع ذلك من الخيانة، فإنني قد خنته حين قرفته ^(١)، وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾ وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها - إنَّ كلَّ نفس ﴿لأثمارة بالسوء إلا ما رحم ربِّي﴾ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة، كنفس يوسف ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، استغفرت ربها، واسترحمتها مما ارتكبت. وإنما جعل من كلام يوسف، ولا دليل عليه ظاهر؛ لأن المعنى يقود إليه. وقيل: هذا من تقديم القرآن وتأخيرها، أي: قوله ﴿ذلك ليعلم﴾ متصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾.

٥٤ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسى ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كلِّ شيء. رُوي: أنَّ الرسول جاءه ومعه سبعون حاجباً، وسبعون مركباً، وبعث إليه لباس الملوك، فقال: أجب الملك، فخرج من السجن. ودعا لأهله: اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات. وكتب على باب السجن: هذه منازل البلواء، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ثم اغتسل، وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خير، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلّم عليه، ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. وكان الملك يتكلّم بسبعين ^(٢) لساناً، فكلّمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه، وقال: أيها الصديق! إني أحب أن أسمع رؤياي منك. قال: رأيت بقرات، فوصف لونهنّ، وأحوالهنّ، ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام

(١) «قرفته»: اتهمته.

(٢) لا وجه لهذه المبالغة ولا فائدة منها.

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

في الأهرام^(١)، فيأتيك الخلق من النواحي، ويمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلك. قال الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه؟

٥٥- ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولّني على خزائن أرضك، يعني: مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، ﴿عَلَيْمٌ﴾ عالم بوجوه التصرف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية، وهما طلبية الملوك ممن يولّونه. وإنما قال ذلك ليتوصّل إلى إمضاء أحكام الله، وإقامة الحقّ، وبسط العدل، والتمكّن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك. فطلبه ابتغاء وجه الله لا حبّ الملك والدنيا. وفي الحديث: «رحم الله أخِي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة»^(٢). قالوا: وفيه دليلٌ على أنّه يجوز أن يتولّى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولّون القضاء من جهة الظلمة. وإذا علم النبيّ، أو العالم أنّه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله، ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر، أو الفاسق، فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كلّ ما رأى، وكان في حكم التابع له.

٥٦- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. وكانت أربعين فرسخاً في أربعين. والتمكين: الإقدار، وإعطاء المكنة ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: كلّ مكان أراد أن يتخذ منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها، ودخولها تحت سلطانه. ﴿نُصِيبُ﴾ مكّي ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ بعبأتنا في الدنيا من الملك، والغنى، وغيرهما من النعم ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا.

(١) «الأهرام»: مواضع يشتدّ فيها البرد.

(٢) قال الحافظ: رواه الثعلبي بإسناد ساقط. (حاشية الكشف ٢ / ٤٨٢).

وَلَا تَجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

٥٧- ﴿وَلَا تَجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يريد يوسف وغيره من المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك، والفواحش. قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق. وتلا الآية. رُوي: أَنَّ الْمَلِكَ تَوَجَّ يَوْسُفَ، وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ، وَرَدَّاهُ بِسَيْفِهِ، وَوَضَعَ لَهُ سَرِيرًا مِنْ ذَهَبٍ مَكَلَّلًا بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، فَقَالَ: أَمَّا السَّرِيرُ فَأَشَدُّ بِهِ مَلَكًا، وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَأَدْبَرَ بِهِ أَمْرًا، وَأَمَّا التَّاجُ فَلَيْسَ مِنْ لِبَاسِي وَلَا لِبَاسَ آبَائِي، فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ، وَدَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ، وَفَوَّضَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ أَمْرَهُ، وَعَزَلَ قُطْفِيرًا، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ، فَزَوَّجَهُ الْمَلِكُ امْرَأَتَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِمَّا طَلَبْتَ؟ فَوَجَدَهَا عَذْرَاءً، فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ أَفْرَاطِيمَ، وَمِيشَا^(١). وَأَقَامَ الْعَدْلَ بِمِصْرَ وَأَحْبَبَتْهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ الْمَلِكُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَبَاعَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي سَنِي الْقَحْطِ الطَّعَامَ بِالدَّرَاهِمِ وَالْدَنَانِيرِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا، ثُمَّ بِالْحَلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ فِي الثَّانِيَةِ، ثُمَّ بِالْذَّوَابِ فِي الثَّلَاثَةِ، ثُمَّ بِالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ فِي الرَّابِعَةِ، ثُمَّ بِالْأَدْوَارِ وَالْعَقَارِ فِي الْخَامِسَةِ، ثُمَّ بِأَوْلَادِهِمْ فِي السَّادِسَةِ، ثُمَّ بِرِقَابِهِمْ فِي السَّابِعَةِ حَتَّى اسْتَرْقَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَعْتَقَ أَهْلَ مِصْرَ عَنْ آخِرِهِمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَمْلاكَهُمْ. وَكَانَ لَا يَبِيعُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَتَارِينَ أَكْثَرَ مِنْ حَمَلٍ بَعِيرٍ.

٥٨- وَأَصَابَ أَرْضَ كَنْعَانَ نَحْوُ مَا أَصَابَ مِصْرَ، فَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ بَنِيهِ لِيَمْتَارُوا. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بلا تعريف ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لتبديل الزي، ولأنه كان من وراء الحجاب، ولطول المدة، وهو أربعون سنة.

٥٩- وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا رَأَاهُمْ وَكَلَّمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، قَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، رِعَاةٌ، أَصَابَنَا الْجُحْدُ، فَجِئْنَا

(١) هذه الحكاية الإسرائيلية أشبه بحكايات العجائز، وخيالات القصصين.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَتُونِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْأَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ آبَاؤُهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا

نمتار. فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي! فقالوا: معاذ الله! نحن بنو نبيّ حزين لفقد ابن، كان أحبنا إليه، وقد أمسك أخاً له من أمه يستأنس به. فقال: اتئوني به إن صدقتم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ﴾ أعطى كل واحد منهم حمل بغير. وقرىء بكسر الجيم شاذاً ﴿أَتَتُونِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْأَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أتمه ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ كان قد أحسن إنزالهم، وضيافتهم. رغبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

٦٠- ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ فلا أبيعكم طعاماً ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: فإن لم تأتوني به تحرّموا، ولا تقربوا، فهو داخل في حكم الجزاء مجزوم معطوف على محلّ قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾. أو: هو بمعنى النهي.

٦١- ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ آبَاؤُهُ﴾ سنخادعه عنه، ونحتال حتّى ننزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة، لا نفرط فيه، ولا نتوانى. قال: فدعوا بعضكم رهناً. فتركوا عنده شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف.

٦٢- ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾ كوفي - غير أبي بكر - ﴿لَفَتِيته﴾ غيرهم. وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ. وفعلة للقلة، وفعلان للكثرة، أي: لغلمان الكياليين ﴿اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم، وكانت نعلاً، أو: أدماء، أو: ورقاً، وهو أليق بالدسّ في الرحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ يعرفون حقّ ردها، وحقّ التكرم بإعطاء البدلين ﴿إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، أو: ربّما لا يجدون بضاعة بها يرجعون، أو: ما فيهم من الديانة يعيدهم لردّ الأمانة، أو: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً.

٦٣- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ﴾ بالطعام، وأخبروه بما فعل ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا

الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا بَنِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ

الْكَيْلُ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنهم إذا أُنذروا بمنع الكيل، فقد منع الكيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفع المانع من الكيل و﴿نَكْتَلْ﴾ من الطعام ما نحتاج إليه. ﴿يَكْتَلُ﴾^(١): حمزة، وعلي، أي: يكتل أخونا، فينضمّ اكتياله إلى اكتيالنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن أن يناله مكروه.

٦٤- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أنكم قلتم في يوسف: ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون﴾ كما تقولونه في أخيه، ثم ختمتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك؟ ثم قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ كوفي - غير أبي بكر - فتوكل على الله فيه، ودفعه إليهم. وهو حال، أو تمييز. ومن قرأ ﴿حَفَظًا﴾ فهو تمييز لا غير ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين. قال كعب لما قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ قال الله تعالى: وعزّي وجلالي! لأردنّ عليك كليهما.

٦٥- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا بَنِي﴾ «ما» للنفي، أي: ﴿ما نبغي﴾ في القول، ولا تتجاوز الحق. أو: ﴿ما نبغي شيئاً﴾ وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو: ما نريد منك بضاعة أخرى. أو: للاستفهام، أي: أي شيء نطلب وراء هذا؟ ﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿ما نبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها، أي: أنّ بضاعتنا ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فنستظهر بها ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ في رجوعنا إلى الملك، أي: نجلب لهم ميرة. وهي: طعام يحمل من غير بلدك ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ في ذهابنا ومجيئنا، فما يصيبه شيء مما تخافه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ نزداد وسق

(١) في الأصل المخطوط: (لِيَكْتَلْ).

ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنِّي ۖ اللَّهُ لَتَأْتُنِّي بِهِٖ
إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَ
تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ

بغير باستصحاب أخينا ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه متيسر، لا يتعاضمه.

٦٦ - ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ وبالياء: مكِّي ﴿مَوْثِقًا﴾ عهداً
﴿مِنَ اللَّهِ﴾. والمعنى: حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أي: أراد أن
يخلفوا له بالله. وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه؛ لأنَّ الحلف به ممّا يؤكّد به
العهود، وقد أذن الله في ذلك، فهو إذن منه ﴿لَتَأْتُنِّي بِهِٖ﴾ جواب اليمين، لأنَّ
المعنى، حتى تخلفوا: ﴿لَتَأْتُنِّي بِهِٖ﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا، فلم
تطبقوا الإتيان به، فهو مفعول له، والكلام المثبت - وهو قوله: ﴿لَتَأْتُنِّي بِهِٖ﴾ -
في تأويل النفي، أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، يعني:
لا تمتنعوا منه لعلّة من العلل إلا لعلّة واحدة، وهي: ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، فهو
استثناء من أعمّ العام في المفعول له. والاستثناء من أعمّ العام لا يكون إلا في
النفي، فلا بدّ من تأويله بالنفي ﴿فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قيل: حلفوا بالله ربّ محمد
ﷺ ﴿قَالَ﴾ بعضهم يسكت عليه؛ لأن المعنى ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا
نَقُولُ﴾ من طلب الموثق، وإعطائه ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع. غير أن السكتة تفصل
بين القول والمقول، وذا لا يجوز، فالأولى أن يفرّق بينهما بالصوت، فيقصد
بقوّة النغمة اسم الله.

٦٧ - ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ الجمهور على
أنّه خاف عليهم العين لجمالهم، وجلالة أمرهم، ولم يأمرهم بالفرق في الكرة
الأولى، لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى، فالعين حقّ عندنا. ووجوده بأن
يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه، وخللاً. وكان
النبي ﷺ يُعوّذ الحسن والحسين - رضي الله عنهما - فيقول: «أعيذكما بكلمات
الله التامة من كلّ هامة، ومن كلّ عين لامة»^(١). وأنكر الجُبَّائي^(٢) العين، وهو

(١) رواه أحمد (٢٣٦/١) والبخاري (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذي (٢٠٦٠).

(٢) هو محمد أبو علي بن عبد الوهاب بن سلام الجُبَّائي المعتزلي، توفي سنة (٣٠٣هـ).

وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَلَّهَا وَلَهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ

مردود بما ذكرنا. وقيل: إنه أحبّ ألا يفطن بهم أعداؤهم فلا يحتالون لإهلاكهم ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم، ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيكم لا محالة ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ التوكل: تفويض الأمر إلى الله تعالى، والاعتماد عليه.

٦٨- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: متفرقين ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم، واقتضاحهم بذلك، وأخذ أخيه بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إِلَّا حَاجَةٌ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن حاجة ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَلَّهَا﴾ وهي شفقتة عليهم ﴿وَلَهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ يعني قوله: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ﴾ وعلمه بأنّ القدر لا يغني عنه الحذر ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ لتعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٦٩- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ﴾ ضمّ إليه بنيامين. ورؤي: أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسستم. فأنزلهم، وأكرمهم، ثمّ أضافهم، وأجلس كلّ اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه. فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً! فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله. وقال له: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: ومن يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف، وعانقه. ثمّ ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾

يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى؛ فإن الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك. ورُوي: أنه قال له: فأنا لا أفارقك، قال: لقد علمت اغتنام والدي بي، فإن حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يُحَمَد، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدسّ صاعِي في رحلك، ثم أنادي عليك بأنك سرقت ليتهياً لي ردك بعد تسريحك معهم، فقال: افعل.

٧٠ - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ هيا أسبابهم، وأوفى الكيل لهم ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية: هي مشربة يُسْقَى بها، وهي: الصواع. قيل: كان يُسْقَى بها الملك، ثم جُعِلَتْ صاعاً يُكَال به لعزة الطعام. وكان يشبه الطاس من فضة، أو ذهب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى مناد. آذنه: أي أعلمه، وأذن: أكثر الإعلام، ومنه: المؤذن لكثرة ذلك منه. رُوي: أنهم ارتحلوا، وأمهلهم يوسف - عليه السلام - حتى انطلقوا، ثم أمر بهم، فأدركوا، وحبسوا، ثم قيل لهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ هي الإبل التي عليها الأحمال، لأنها تعير، أي: تذهب وتجيء. والمراد: أصحاب البعير ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ كناية عن سرقتهم إياه من أبيه.

٧١ - ﴿قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾

٧٢ - ﴿قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ هو الصاع ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى من جاء به. وأراد: وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصّله.

٧٣ - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم، وأمانتهم، حيث دخلوا، وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعاً، أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وَمَا

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٧٦﴾

كُتِّسَرِقِينَ ﴿٧٦﴾ وما كنا نُوصِفُ قطّ بالسرقة.

٧٤- ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ الضمير للصواع، أي: فما جزاء سرقة؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في جحودكم، وادّعاءكم البراءة منه.

٧٥- ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أي: جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله. وكان حُكْم السارق في آل يعقوب أن يسترَق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه. وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير. أو: ﴿جزاؤه﴾: مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي: خبره ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: السَّارِق، بالاسترقاق.

٧٦- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة، حتى بلغ وعاءه، فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً! فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: الصواع ﴿مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ ذكر ضمير الصواع مرّات، ثم أنّه؛ لأنّ التأنيث يرجع إلى السقاية، أو: لأنّ الصواع يذكر ويؤنث. الكاف في ﴿كَذَلِكَ﴾ في محلّ النصب، أي: مثل ذلك الكيد العظيم ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: علّمناه إياه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ تفسير للكيد، وبيان له؛ لأنّ الحكم في دين الملك - أي: في سيرته - للسارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يستعبد ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله، وإرادته فيه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ بالتنوين: كوفيّ، ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ أي: في العلم، كما رفعنا درجة يوسف فيه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ فوّه أرفع درجة منه في علمه. أو: فوق العلماء كلّهم عليهم هم دونه في العلم، وهو الله عز وجلّ.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾
 ﴿قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾
 قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ

٧٧- ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أرادوا يوسف . قيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب ، كانوا يعبدونه ، فدفعه . وقيل : كان في المنزل دجاجة فأعطاه السائل . وقيل : كانت منطقة لإبراهيم - عليه السلام - يتوارثها أكابر ولده ، فورثها إسحاق ، ثم وقعت إلى ابنته ، وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يوسف ، وهي عمته بعد وفاة أمه ، وكانت لا تصبر عنه . فلما شبَّ أراد يعقوب أن ينزعه منها ، فعمدت إلى المنطقة فعزمتها على يوسف تحت ثيابه ، وقالت : فقدت منطقة إسحاق ، فانظروا مَنْ أخذها ، فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لي سَلَمٌ ، أفعَل به ما شئت ، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت .

ورُوي : أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء ، وأقبلوا عليه ، وقالوا له : فضحتنا ، وسودت وجوهنا . يا بني راحيل ! ما يزال لنا منكم بلاء . متى أخذت هذا الصاع ؟ فقال : بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ؟! ذهبتُم بأخي فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم ﴿فَأَسْرَهَا﴾ أي : مقابلتهم إنه سرق ، كأنه لم يسمعها ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ تمييز ، أي : أنتم شرُّ منزلة في السرقة ، لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون ، أو تكذبون .

٧٨- ﴿قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنّ ، وفي القدر ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أبدله على وجه الاسترهان ، أو : الاستعباد ، فإنَّ أباه يتسلّى به عن أخيه المفقود ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا ، فأتمم إحسانك . أو : من عادتكَ الإحسان ، فاجرٍ على عادتك ، ولا تغيّرْها .

٧٩- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ أي : نعوذ بالله معاذاً

إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوثٌ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا

من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به، وحذف «من» ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوثٌ﴾ «إِذَا» جواب لهم وجزاء، لأنَّ المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا. وهذا لأنَّه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله، واستعباده. فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنَّه ظلم؟

٨٠ - ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا﴾ يشسوا. وزيادة السين والتاء للمبالغة، كما مرَّ في: ﴿استعصم﴾ ﴿مِنْهُ﴾ من يوسف، وإجابته إياهم ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا عن الناس خالسين لا يخالطهم سواهم ﴿نَجِيًّا﴾ ذوي نجوى، أو: فوجاً ﴿نَجِيًّا﴾ أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً، أو: تمخضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجدِّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة عن التناجي، وحقيقتها. فالنَجْيُ يكون بمعنى المناجي، كالسمير بمعنى المسامر، وبمعنى المصدر الذي هو التناجي. وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أيِّ صفة يذهبون، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن، وهو: روبيل، أو: في العقل والرأي، وهو: يهوذا. أو: رئيسهم، وهو: شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ «ما» صلة، أي: ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم. أو: مصدرية. ومحلَّ المصدر الرفع على الابتداء. وخبره: الظرف، وهو ﴿مِنْ قَبْلُ﴾. ومعناه: وقع ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ تفريطكم ﴿فِي يُوسُفَ﴾ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها، أو بالموت، أو بقتالهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنَّه لا يحكم إلا بالعدل.

٨١ - ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرئ ﴿سُرِقَ﴾، أي: نُسب إلى السرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ من سرقة،

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَابْتِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ

وتيقنًا إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿٨١﴾ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق.

٨٢ - ﴿٨٢﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴿٨٢﴾ يعني: مصر، أي: أرسل إلى أهلها، فاسألهم عن كنه القصة ﴿٨٢﴾ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴿٨٢﴾ وأصحاب العير. وكانوا قومًا من كنعان من جيران يعقوب - عليه السلام - ﴿٨٢﴾ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ في قولنا.

٨٣ - فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿٨٣﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴿٨٣﴾ أردقوه. وإلا فمن أدرى ذلك الرجل أن السارق يسترق لولا فتواكم، وتعليمكم ﴿٨٣﴾ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴿٨٣﴾ بيوسف، وأخيه، وكبيرهم ﴿٨٣﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ بحالي في الحزن، والأسف ﴿٨٣﴾ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا للحكمة.

٨٤ - ﴿٨٤﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴿٨٤﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به. ﴿٨٤﴾ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ ﴿٨٤﴾ أضاف الأسف - وهو أشد الحزن، والحسرة - إلى نفسه. والألف بدل من ياء الإضافة. والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلف. ونحوه: ﴿٨٤﴾ أَنَا قُلْتُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيكُمْ ﴿٨٤﴾ [التوبة: ٣٨] ﴿٨٤﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ ﴿٨٤﴾ [الأنعام: ٢٦] ﴿٨٤﴾ وَهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٨٤﴾ [الكهف: ١٠٤] ﴿٨٤﴾ مِنْ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴿٨٤﴾ [النمل: ٢٢]. وإنما تأسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم لتماذي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً ﴿٨٤﴾ وَابْتِصَّتْ عَيْنَاهُ ﴿٨٤﴾ إذ أكثر الاستعبار، ومحت العبرة سواد العين، وقلبه إلى بياض كدر. قيل: قد عمي بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً ﴿٨٤﴾ مِنَ الْحُزَنِ ﴿٨٤﴾ لأن الحزن سبب البكاء الذي حدث منه البياض، فكانه حدث من الحزن. قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. ويجوز للنبي ﷺ

فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ
مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ، لأنَّ الإنسانَ مجبولٌ على ألا يملك نفسه عند الحزن، فلذلك حمد صبره. ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنَّا عليك يا إبراهيم لمحزونون»^(١). وإنما المذموم: الصَّباح، والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم. فعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] من: كظم السقاء: إذا شدَّه على ملئه.

٨٥ - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا﴾ أي: لا تفتأ، فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس، إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون. ومعنى: لا تفتأ: لا تزال ﴿تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا﴾ مشفياً على الهلاك مرضاً ﴿أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ﴾.

٨٦ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ البت: أصعب الهم؛ الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيبته إلى الناس، أي: ينشره، أي: لا أشكو إلى أحدٍ منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي، داعياً له، وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي. وروى أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجدت عليكم؛ لأنكم ذبحتم شاة، فوقف ببابكم مسكين، فلم تطعموه، وإن أحبَّ خلقي إليَّ الأنبياء، ثم المساكين، فاصنع طعاماً، وادعُ عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها، فبكت حتى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأعلم من رحمته أنه يأتيني الفرج من حيث لا أحسب. وروى: أنه رأى ملك الموت في منامه، فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، والله، هو حي فاطلبه. وعلمه هذا الدعاء: يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه غيرك، فرج عني.

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكْ لَا نَتَّيُسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي

٨٧- ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرّفوا منهما، وتطلبوا خبرهما. وهو تفعل من الإحساس، وهو: المعرفة ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله، وفرجه. ﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر، والشأن ﴿لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته. وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله، ولا تقلبه في نعمته فيياس من رحمة.

٨٨- فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الهزال من الشدة، والجوع. ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ﴾ مدفوعة، يدفعها كل تاجر رغبة عنها، واحتقاراً لها. من: أزجيته: إذا دفعته، وطرده. قيل: كانت دراهم زيوفاً، لا تؤخذ إلا بوضيعة، وقيل: كانت صوفاً وسمناً. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ الذي هو حقنا. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وتفضل علينا بالمساحة، والإغماض عن رداءة البضاعة، أو: زدنا على حقنا، أو: هب لنا أخانا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٨٩- لما قالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وتضرعوا إليه، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم، ارفضت عيناه، ولم يتمالك أن عرفهم نفسه، حيث ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾؟ أي: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴿وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ لا تعلمون قبحه، أو: إذ أنتم في حدّ السفه، والطيش؟ وفعلهم بأخيه: تعريضهم إياه للغم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

٩٠- ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكْ﴾ بهزتين: كوفي، وشامي ﴿لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ اللام لام الابتداء، و﴿أَنْتَ﴾ مبتدأ، و﴿يوسف﴾ خبره، والجملة: خبر إن ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه، لأنه كان في ذكر

قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٩١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئُونَ ﴿٩٢﴾
قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ

أخيه بيان لما سأله عنه ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالألفة بعد الفارقة. وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة، ولم يبدأ بالملامة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ الفحشاء ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أجرهم. فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتقين والصابرين. وقيل: مَنْ يَتَّقِ مولاة، ويصبر على بلواه، لا يضيع أجره في دنياه، وعقباه.

٩١ - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفصلك علينا بالعلم، والحلم، والتقوى، والصبر الحسن ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئُونَ﴾ وإن شأننا وحالنا أننا كنا خاطئين متعمدين للإثم لم نتق، ولم نصبر. لا جرم أن الله أعزك بالملك، وأذلنا بالتمسكن بين يديك.

٩٢ - ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تعير عليكم ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلق بالتثريب، أو: بيغفر. والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام؟ ثم ابتداء فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾. فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم. يقال: غفر الله لك، ويغفر لك، على لفظ الماضي والمضارع. أو: ﴿اليوم يغفر الله لكم﴾ بشارة بعاجل غفران الله. ورؤي: أن رسول الله ﷺ أخذ بعصا دتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: «ما تروني فاعلاً بكم؟» قالوا: نظنّ خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال: «أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾»^(١). ورؤي: أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت رسول الله فاتل عليه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ففعل. فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علمك»^(٢). ويرؤي:

(١) قال الحافظ: أخرجه النسائي والبيهقي بمعناه وأتم منه، وأخرجه الثعلبي بهذا اللفظ وأتم منه. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٠٣).

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٠٣).

وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ
إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ
الْكَبِيرِ ﴿٩٥﴾

أَنَّ إِخْوَتَهُ لَمَّا عَرَفُوهُ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ: أَنْتَ تَدْعُونَا إِلَى طَعَامِكَ بِكَرَّةٍ وَعَشِيًّا، وَنَحْنُ
نَسْتَحْيِي مِنْكَ لَمَّا فَرَطَ مَنَا فِيكَ. فَقَالَ يُوسُفُ: إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ وَإِنْ مَلَكَتْ فِيهِمْ
فَأَنْتُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ بِالْعَيْنِ الْأُولَى، وَيَقُولُونَ: سَبْحَانَ مَنْ بَلَغَ عَبْدًا بَيْعَ بَعِشْرِينَ
دِرْهَمًا مَا بَلَغَ، وَلَقَدْ شَرَفْتَ الْآنَ بِكُمْ حَيْثُ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّي مِنْ حَفْدَةِ إِبْرَاهِيمَ
﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَي: إِذَا رَحِمْتُمْ وَأَنَا الْفَقِيرُ الْقَتُورُ، فَمَا ظَنِّكُمْ
بِالْغَنَى الْغَفُورِ؟

٩٣ - ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ حَالِ أَبِيهِ، فَقَالُوا: إِنَّهُ عَمِيَ مِنْ كَثَرَةِ الْبُكَاءِ، قَالَ:
﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾. قِيلَ: هُوَ الْقَمِيصُ الْمَتَوَارِثُ الَّذِي كَانَ فِي تَعْوِيذِ
يُوسُفَ، وَكَانَ مِنَ الْجَنَّةِ، أَمْرُهُ جَبْرِيلُ أَنْ يَرْسِلَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ فِيهِ رِيحَ الْجَنَّةِ،
لَا يَقَعُ عَلَى مَبْتَلَى، وَلَا سَقِيمٍ إِلَّا عُوفِيَ ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يَصِرُ
بَصِيرًا. تَقُولُ: جَاءَ الْبِنَاءُ مُحْكَمًا، أَي: صَارَ. أَوْ: ﴿يَأْتِ﴾ إِلَيَّ وَهُوَ بَصِيرٌ.
قَالَ يَهُوذَا: أَنَا أَهْلُ قَمِيصِ الشِّفَاءِ، كَمَا ذَهَبَتْ بِقَمِيصِ الْجَنْفَاءِ. وَقِيلَ: حَمَلَهُ
وَهُوَ حَافٍ، حَاسِرٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى كَنْعَانَ، وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ ثَمَانِينَ فَرَسَخًا.
﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لِيَنْعَمُوا بِأَثَارِ مُلْكِي، كَمَا اغْتَمَّوْا بِأَخْبَارِ
هَلْكِي.

٩٤ - ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ﴾ خَرَجْتَ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ. يُقَالُ: فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ
فَصُولًا: إِذَا انْفَصَلَ مِنْهُ، وَجَاوَزَ حَيْطَانَهُ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لَوْلَدٌ وَلَدَهُ، وَمِنْ
حَوْلِهِ مِنْ قَوْمِهِ ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوْجَدَهُ اللَّهُ رِيحَ الْقَمِيصِ مِنْ حِينَ
أَقْبَلَ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ التَّفْنِيدُ: النِّسْبَةُ إِلَى الْفَنْدِ، وَهُوَ
الْخُرْفُ، وَإِنْكَارُ الْعَقْلِ، مِنْ هَرَمٍ، يُقَالُ: شَيْخٌ مُفَنَّدٌ. وَالْمَعْنَى: لَوْلَا تَفْنِيدُكُمْ
إِيَّايَ لَصَدَقْتُمُونِي.

٩٥ - ﴿قَالُوا﴾ أَي: أَسْبَاطُهُ ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ﴾ لَفِي ذَهَابِكَ

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا مَا نَفْعُهُ لَنَا دُثُونًا، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ

عن الصواب قديماً في إفراط محبتك ليوسف، أو: في خطئك القديم من حب يوسف، وكان عندهم أنه قد مات.

٩٦- ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ أي: يهوذا ﴿أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو: ألقاه يعقوب ﴿فَأَرْتَدَّ﴾ فرجع ﴿بَصِيرًا﴾ يقال: رده فارتد. وارتدّه: إذا ارتجعه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾ يعني: قوله ﴿إِنِّي لأجد ريح يوسف﴾ أو: قوله ﴿ولا تياسوا من روح الله﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كلام مبتدأ، لم يقع عليه القول. أو: وقع عليه، والمراد قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾. ورؤي: أنه سأل البشير: كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك؟! على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة.

٩٧- ﴿قَالُوا يَتَّبِعُنَا مَا نَفْعُهُ لَنَا دُثُونًا، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي: سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك، وحق ابنك، إننا تبنا، واعترفنا بخطايانا.

٩٨- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ آخر الاستغفار إلى وقت السحر، أو: إلى ليلة الجمعة، أو: ليتعرف حالهم في صدق التوبة، أو: إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم.

٩٩- ثم إن يوسف وجه إلى أبيه جهازاً ومثي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، فلما بلغ قريباً من مصر خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ﴾ ضم إليه ﴿أَبَوَيْهِ﴾ واعتنقهما. قيل: كانت أمه باقية، وقيل: ماتت، وتزوج أبوه خالته. والخاله أم، كما أن العم أب. ومنه قوله: ﴿وَاللَّهُ ءَاتَاكَ إِزْهَارًا وَاسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر: أنه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة،

وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي

أو قصر كان له ثمة، فدخلوا عليه، وضمّ إليه أبويه ﴿وَقَالَ﴾ لهم بعد ذلك: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من ملوكها. وكانوا لا يدخلونها إلا بجوار، أو: من القحط. وروي: أنه لما لقيه قال يعقوب - عليه السلام -: السلام عليك يا مذهب الأحزان. وقال له يوسف: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيتُ أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك. وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمئة ألف وخمسمئة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمي. وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف.

١٠٠- ﴿وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ قيل: لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره، واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرّوا له﴾ يعني الأخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجّداً﴾ وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحيّة والتكرمة، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد. وقال الزّجاج: سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم. وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه، وخرورهم سجّداً ياباه. وقيل: ﴿وخرّوا﴾ لأجل يوسف ﴿سجّداً﴾ لله شكراً. وفيه نبوة أيضاً. واختلف في استنبائهم ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صادقة. وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة، أو ثمانون، أو ست وثلاثون، أو اثنان وعشرون ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ يقال: أحسن إليه، وبه، وكذلك: أساء إليه، وبه ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر الحب، لقوله: ﴿لا تثرīb عليكم اليوم﴾ ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية، لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه، والمناجع^(١) ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد بيننا،

(١) «المناجع»: جمع المنجع، وهو الموضع الذي يُقصد لما فيه من كلاً وماء.

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

وأغرى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف التدبير ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال. أو: حكم بالائتلاف بعد الاختلاف.

١٠١- ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تفسير كتب الله، أو: تعبير الرؤيا. و﴿من﴾ فيهما للتبعض إذ لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا، وبعض التأويل. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ انتصابه على النداء ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ طلب الوفاة على حال الإسلام، كقول يعقوب لولده: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠١]. وعن الضحّاك: مخلصاً. وعن التستري: ﴿مسلماً﴾ إليك أمري. وفي «عصمة الأنبياء»: إنّما دعا به يوسف ليقّتي به قومه ومن بعده ممن ليس بمؤمن العاقبة؛ لأنّ ظواهر الأنبياء لنظر الأمم إليهم ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي، أو: على العموم.

وروي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب، فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذهب والفضة، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، حتّى أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بنيّ ما أعقك! عندك هذه القراطيس، وما كتبت إليّ على ثماني مراحل. فقال: أمرني جبريل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه متي، فأسأله. فقال جبريل: الله أمرني بذلك؛ لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ قال: فهلاًّ خفتني! وروي: أنّ يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثمّ مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق. فمضى بنفسه، ودفنه ثمة، ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة. فلمّا تمّ أمره طلبت نفسه الملك الدائم، فتمتّى الموت. وقيل: ما تمناه نبيّ قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر، وتشاحنوا في دفنه، كلّ يحبّ أن يدفن في محلّتهم، حتّى همّوا بالقتال، فراؤا أن يعملوا له صندوقاً من مرمر

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
 وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ
 إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
 عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شزعا، حتى نقل موسى - عليه السلام - بعد أربعمئة سنة تابوته إلى بيت المقدس. وولد له أفرائيم، وميشا، وولد لإفرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى. ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، فلم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه.

١٠٢ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف. والخطاب لرسول الله ﷺ. وهو مبتدأ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى بني يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ عزموا على ما همّوا به من إلقاء يوسف في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف، ويبغون له الغوائل. والمعنى: أنّ هذا النبا غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على إلقاء أخيه في البئر.

١٠٣ - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أراد العموم، أو: أهل مكة، أي: وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم.

١٠٤ - ﴿وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، أو: على الرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما القرآن إلا عظة من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وحثّ على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

١٠٥ - ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ﴾ من علامة، ودلالة على الخالق، وعلى صفاته، وتوحيده ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات، أو: على الأرض، ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ عن الآيات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يعتبرون بها. والمراد: ما يرون من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من العبر.

١٠٦ - ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: وما يؤمن أكثرهم في

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

إقراره بالله، وبأنه خلقه، وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الوثن. الجمهور على أنها نزلت في المشركين؛ لأنهم مقرون بالله خالقهم، ورازقهم. وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله، ومع ذلك يشركون به غيره. ومن جملة الشرك: ما يقوله القدريّة من إثبات قدرة التخليق للعبد. والتوحيد المحض: ما يقوله أهل السنّة، وهو: أنّه لا خالق إلا الله.

١٠٧ - ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ﴾ عقوبة تغشاهم، وتشملهم ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ حال، أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يأتيناها.

١٠٨ - ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ﴿سَبِيلِي﴾. والسبيل والطريق يذكران ويؤثنان. ثمّ فسّر سبيله بقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في ﴿أَدْعُوا﴾ ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه، أي: أدعو إلى سبيل الله أنا، ويدعو إليه من اتبعني، أو: ﴿أَنَا﴾ مبتدأ، و﴿على بصيرة﴾ خبر مقدم ﴿ومَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على ﴿أَنَا﴾. يخبر ابتداء بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان، لا على هوى ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وأنزله عن الشركاء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ مع الله غيره.

١٠٩ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ لأملائكة، لأنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أو: ليست فيهم امرأة ﴿نُوحِي﴾ بالنون: حفص ﴿إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأنهم أعلم، وأحلم. وأهل البوادي فيهم الجهل، والجفاء ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي: ﴿ولدار﴾ الساعة ﴿الآخرة﴾ ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك، وآمنوا به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وبالباء: مكّي، وأبو عمرو، وحمزة، وعلي.

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

١١٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ يتسوا من إيمان القوم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾
﴿كُذِّبُوا﴾^(١) وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم. وبالتخفيف: كوفي، أي:
وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، أي: أخلفوا. أو: وظن المرسل إليهم
أنهم كذبوا من جهة الرسل، أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم، ولم
يصدقوهم فيه ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب
﴿فَنُجِّيَ﴾ بنون واحدة، وتشديد الجيم، وفتح الياء: شامي، وعاصم، على لفظ
الماضي المبني للمفعول. والقائم مقام الفاعل ﴿من﴾. الباقون: ﴿فَنُجِّيَ﴾
[بنونين، ثانيتهما ساكنة مخففة للجيم بعدها، وإسكان الياء]^(٢) ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾
أي: النبي، ومن آمن به ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

١١١- ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم. أو: في قصة
يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ حيث نقل من غاية الحب إلى غيابة الحب،
ومن الحصر إلى السرير. فصارت عاقبة الصبر: سلامة وكرامة، ونهاية المكر:
وخامة وندامة ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم
الكفار ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن تصديق الكتب التي تقدمته،
﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين، لأنه القانون الذي تستند إليه
السنة، والإجماع، والقياس ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب
﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، وأنبيائه وما نصب بعد ﴿لَٰكِن﴾ معطوف على خبر
﴿كَانَ﴾.

(١) في الأصل المخطوط ﴿كُذِّبُوا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبي عمرو وآخرين.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

عن رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا أَرْقَاءَكُمْ سورة يوسف، فأَيُّما عبد تلاها ، وَعَلِّمَهَا أَهْلَهُ، وما ملكْت يَمِينَهُ؛ هَوْنٌ الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة ألا يحسد مسلماً»^(١). قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله - : في ذكر قصّة يوسف - عليه السلام - وإخوته تصبیر لرسول الله ﷺ على أذى قريش، كأنّه يقول: إنّ إخوة يوسف مع موافقتهم إِيَّاه في الدين، ومع الأخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد، والمكر، وصبر على ذلك، فأنت مع مخالفتهم إِيَّاكَ في الدين أخرى أن تصبر على أذاهم. وقال وهب: إنّ الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا وفيه سورة يوسف - عليه السلام - تامة، كما هي في القرآن العظيم. والله أعلم.

* * *

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

١ - ﴿الْمَرْ﴾ أنا الله أعلم وأرى. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أريد بالكتاب: السورة، أي ﴿تلك﴾ الآيات ﴿آيات﴾ السورة الكاملة العجيبة في بابها ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: القرآن كله ﴿الْحَقُّ﴾ خبر ﴿والذي﴾ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيقولون: تقوله محمد. ثم ذكر ما يوجب الإيمان فقال:

٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: خلقها مرفوعة، لا أن تكون موضوعة فرفعها. و﴿الله﴾ مبتدأ، والخبر ﴿الذي رفع السموات﴾ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ حال. وهو جمع: عماد، أو: عمود ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير يعود إلى السموات، أي: ترونها كذلك، فلا حاجة إلى البيان. أو: إلى عمد، فيكون في موضع جر على أنه صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئية ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى بالاعتدار، ونفوذ السلطان ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمنافع عباده، ومصالح بلاده ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء الدنيا ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته، وربوبيته ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يبين آياته في كتبه المنزلة ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه.

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنُونًا وَغَيْرِ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَفْضِلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ

٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت ﴿وَأَنْهَارًا﴾ جارية ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: الأسود، والأبيض، والحلو، والحامض، والصغير، والكبير، وما أشبه ذلك ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. (يُغْشَى): حمزة، وعلي، وأبو بكر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن لها صناعات، عليمًا، حكيمًا، قادراً.

٤ - ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة. وذلك دليل على قادر مدبر مريد، موقع لأفعاله على وجهٍ دون وجه ﴿وَجَعَلَتْ﴾ معطوفة على ﴿قِطْعٌ﴾ ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنُونًا وَغَيْرِ صُنُونٍ﴾ بالرفع: مكّي، وبصري، وحفص عطف على ﴿قِطْعٌ﴾. غيرهم بالجر بالعطف على ﴿أَعْنَابٍ﴾. والصنونا جمع: صنو. وهي النخلة لها رأسان، وأصلها واحد. وعن حفص: بضم الصاد. وهما لغتان ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ﴾^(١) وبالياء: عاصم، وشامي ﴿وَنَفْضِلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وبالياء: حمزة، وعلي ﴿فِي الْأَكْلِ﴾ في الثمر. ويسكون الكاف: نافع، ومكي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الحسن: مثل اختلاف القلوب في آثارها، وأنوارها، وأسرارها باختلاف القطع في أنهارها، وأزهارها، وثمارها.

٥ - ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ﴿فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ﴾

(١) في الأصل المخطوط ﴿يُسْقَى﴾ وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٠٥).

أَءَدَا كُنَّا تُرَبًّا أَوْ نَأْ لَفَى خَلَقِي جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ
فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَبَسَّعْجَلُونَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ
الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ

خبر ومبتدأ، أي: فقولهم حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك كانت الإعادة أهون شيء عليه، وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿أَءَدَا كُنَّا تُرَبًّا أَوْ نَأْ لَفَى خَلَقِي جَدِيدٌ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿قولهم﴾. قرأ عاصم، وحمة كل واحد بهمزين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك الكافرون، المتمادون في كفرهم ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصف لهم بالإصرار، أو: من جملة الوعيد ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دل تكرار ﴿أولئك﴾ على تعظيم الأمر.

٦ - ﴿وَبَسَّعْجَلُونَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالنقمة قبل العافية. وذلك أنهم سألو رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب، استهزاء منهم بإنذاره ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا؟ والمثلة: العقوبة، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحلّه الحال، أي: ظالمين لأنفسهم. قال السدي: يعني: المؤمنين. وهي أرجى آية في كتاب الله، حيث ذكر المغفرة مع الظلم، وهو بدون التوبة، فإن التوبة تزيلها وترفعها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على الكافرين. أو: هما جميعاً في المؤمنين، لكنه معلق بالمشيئة فيهما. أي: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾.

٧ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى؛ من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقليل لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ إنما أنت رجل أُرْسِلْتَ منذراً، مخوفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل،

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾

وما عليك إلا الإتيان بما يصحّ به أنك رسول منذر، وصحّة ذلك حاصلة بأيّ آية كانت. والآيات كلّها سواء في حصول صحّة الدعوى بها ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بآية خصّ بها، لا بما يريدون، ويتحكّمون.

٨ - ﴿لَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ «ما» في هذه المواضع الثلاثة موصولة، أي: يعلم ما تحمله من الولد، على أيّ حال هو من ذكورة، وأنوثة، وتام، وخداج، وحسن، وقبح، وطول، وقصر، وغير ذلك، وما تغيضه الأرحام، أي: ويعلم ما تنقصه - يقال: غاض الماء وغضته أنا - وما تزداده. والمراد: عدد الولد، فإنّها تشمل على واحد، واثنين، وثلاثة، وأربعة. أو: جسد الولد، فإنّه يكون تامّاً ومخدجاً. أو: مدّة الولادة؛ فإنّها تكون أقلّ من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى ستين عندنا، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك. أو: مصدرية، أي: يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام، وازديادها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر وحدّ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه؛ كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٩ - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الخلق ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما شاهدوه ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن؛ الذي كلّ شيء دونه ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته، أو: الذي كبر عن صفات المخلوقين، وتعالى عنها. وبالباء في الحالين^(١): مكّي.

١٠ - ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي: في علمه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ متوار ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ذاهب في سره، أي: في طريقه

(١) أي: وصلّاً ووقفاً.

لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالٍ ۚ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

ووجهه. يقال: سرب في الأرض سروباً. و﴿سارب﴾ عطف على ﴿من هو مستخف﴾ لا على ﴿مستخف﴾. أو: على ﴿مستخف﴾ غير أن ﴿من﴾ في معنى الاثنين.

١١ - والضمير في: ﴿لَمْ﴾ مردود على ﴿من﴾. كأنه قيل: لمن أسر، ومن جهر، ومن استخفى، ومن سرب ﴿مُعَقِّبَتْ﴾ جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه. والأصل: معتقات، فأدغمت التاء في القاف. أو: هو مفعلات، من: عقبه؛ إذا جاء على عقبه؛ لأن بعضهم يعقب بعضاً، أو: لأنهم يعقبون ما يتكلم به، فيكتبونه ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ﴾ أي: قدامه ووراءه ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ هما صفتان جميعاً. وليس ﴿من أمر الله﴾ بصلة للحفظ، كأنه قيل: له معتقات من أمر الله. أو: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ﴾ أجل ﴿أمر الله﴾، أي: من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه. أو: ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية، والنعمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ عذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا يدفعه شيء ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاٍ﴾ من دون الله ممن يلي أمرهم، ويدفع عنهم.

١٢ - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ انتصبا على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع. أو: على ذا خوف، وذا طمع. أو: من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين. والمعنى: يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يُخْشَى وَيُرْتَجَى يَرْجَى الْحَيَا مِنْهُ وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ^(١)

(١) «الجون»: الأسود، ويطلق على الأبيض. «الحيا»: المطر.

وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْجِجُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ
وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ

أو: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، ومن له بيت يكف^(١)، ومن البلاد: ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر؛ ويطمع فيه من له نفع فيه ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾ هو اسم جنس، والواحدة: سحابة ﴿الثِّقَالَ﴾ بالماء. وهو جمع ثقيلة. تقول: سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال.

١٣ - ﴿وَيَسْجِجُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ قيل: يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر، أي: يصيحون بسبحان الله، والحمد لله. وعن النبي ﷺ أنه قال: «الرعد مَلَكٌ موَكَّلٌ بالسحاب، معه غاريق من نار، يسوق بها السحاب»^(٢). والصوت الذي يسمع: زجره السحاب حتى ينتهي إلى حيث أمر ﴿وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ ويسبح ﴿الملائكة﴾ من هيئته، وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الصاعقة: نار تسقط من السماء. لما ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووحدانيته قال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني: الذين كذبوا رسول الله ﷺ ﴿يجادلون في الله﴾ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث، وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿مَنْ يُعْجِ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ويردّون الوحدانية باتخاذ الشركاء، ويجعلونه بعض الأجسام بقولهم: الملائكة بنات الله. أو: الواو للحال، أي: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ في حال جدالهم. وذلك: أن أريد [أخا لبيد بن ربيعة العامري]^(٣) قال لرسول الله ﷺ - حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية، وأرسل على أريد صاعقة فقتله -: أخبرني عن ربنا أمن نحاس هو،

(١) «يكف»: بقطر.

(٢) رواه الترمذي (٣١١٧) والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢). «غاريق»: جمع غرق، وهو منديل يلف ليضرب به.

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٧﴾ لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ

أم من حديد؟^(١) ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أي: الماحلة، وهي: شدة المماكرة والمكايدة. ومنه تمحل لكذا: إذا تكلف لاستعمال الحيلة، واجتهد فيه. ومحل بفلان: إذا كاده، وسعى به إلى السلطان. والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه بالهلكة من حيث لا يحتسبون.

١٤ - ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ﴾ أضيفت إلى الحق الذي هو ضد الباطل؛ للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق، وأنها بمعزل من الباطل. والمعنى: أن الله سبحانه يُدعى، فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤله، فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقة بأنه يوجه إليه الدعاء، لما في دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع، ولا يجدي دعاؤه. واتصال ﴿شديد المحال﴾ و﴿له دعوة الحق﴾ بما قبله على قصة أريد، ظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله، ومكر به من حيث لم يشعر. وقد دعا رسول الله ﷺ عليه وعلى صاحبه بقوله: «اللهم اخسفهما بما شئت»^(٢) فأجيب فيهما، فكانت الدعوة دعوة حق. وعلى الأول وعيد للكفرة على مجادلته رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ فيهم إن دعا عليهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ الاستثناء من المصدر، أي: من الاستجابة التي دل عليها ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ لأن الفعل بحروفه يدل على المصدر، وبصيغته على الزمان، وبالضرورة على المكان والحال، فجاز استثناء كل منها من الفعل، فصار التقدير: لا يستجيبون استجابة إلا استجابة كاستجابة باسط كفتيه إلى الماء، أي: كاستجابة الماء لمن بسط كفتيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. والماء جماد لا يشعر ببسط كفتيه، ولا بعطشه، وحاجته إليه، ولا يقدر أن

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٣٣٤١ و ٣٣٤٢) والطبري في تفسيره (١٣ / ١٢٥) والواحي في أسباب النزول (ص ١٨٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٤٢).

(٢) ذكره الواحي في أسباب النزول (ص ١٨٤).

وَمَا هُوَ بِبَلِّغِيٍّ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ

يجيب دعاءه، ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جناد لا يحسن بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعمهم. واللام في ﴿يلبلغ﴾ متعلق بياسط كفيه ﴿وما هو ببلغيه﴾ وما الماء ببالغ فاه ﴿وما دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجيبهم، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم.

١٥ - ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سجود تعبد، وانقياد ﴿طَوْعًا﴾ حال، يعني: الملائكة، والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني: المنافقين، والكافرين في حال الشدة، والضيق ﴿وَزِلَالُهُمْ﴾ معطوف على ﴿من﴾، جمع: ظل ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جمع غداة، كفني وقناة ﴿وَالْآصَالِ﴾ جمع أصل. جميع: أصيل. قيل: ظل كل شيء يسجد لله بالغدو والآصال، وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره، وظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع.

١٦ - ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم، لأنه إذا قال لهم: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يكن لهم بدٌّ من أن يقولوا: ﴿الله﴾. دليله قراءة ابن مسعود وأبي: (قالوا الله). أو: هو تلقين، أي: فإن لم يجيبوا فلقنهم، فإنه لا جواب إلا هذا ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة؟ ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها، أو: يدفعوا ضرراً عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموه على الخالق الرازق، الميثب، المعاقب؟ فما أين ضلالتكم! ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن، أو: من لا يبصر شيئاً، ومن لا يخفى عليه شيء ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ ملل الكفر والإيمان. ﴿يستوي﴾ كوفي - غير حفص - ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بل أجعلوا. ومعنى الهمزة: الإنكار ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ خلقوا مثل خلقه. وهو صفة لشركاء، أي: أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا، مثل خلق الله ﴿فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فاشتبه

قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ

عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فتتخذهم له شركاء، ونعبدهم كما يعبد. ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: خالق الأجسام والأعراض. لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة. ومن قال: إنَّ الله لم يخلق أفعال الخلق، وهم خلقوها، فتشابه الخلق على قولهم ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿الْقَهْرُ﴾ لا يغالب، وما عداه مربوب، ومقهور.

١٧ - ﴿أَنْزَلَ﴾ أي: الواحد القهار، وهو: الله سبحانه ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب ﴿مَاءً﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ جمع واد، وهو: الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، وإنما نكر لأنَّ المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله أنه نافع للممطرور عليهم، غير ضار ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ أي: رفع ﴿زَبَدًا﴾ هو ما على وجه الماء من الرغوة، والمعنى: علاه زبد ﴿رَابِيًا﴾ منتفخاً، مرتفعاً على وجه السيل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ ^(١) وبالباء: كوفي - غير أبي بكر - و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو: للتبويض، أي: وبعضه زبد ﴿فِي النَّارِ﴾ حال من الضمير في ﴿عليه﴾ أي: ﴿ومما توقدون عليه﴾ ثابتاً ﴿فِي النَّارِ﴾ ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ مبتغين حلية، فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في ﴿توقدون﴾. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ من الحديد، والنحاس، والرصاص يتخذ منها الأواني، وما يتمتع به في الحضر، والسفر. وهو معطوف على ﴿حلية﴾ أي: زينة من الذهب، والفضة ﴿زَبَدٌ﴾ خبث. وهو مبتدأ ﴿مِثْلُ﴾ نعت له. و﴿مما توقدون﴾

(١) في الأصل المخطوط ﴿توقدون﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ونافع، وعاصم، والحسن، ويعقوب، وأبي جعفر، والأعرج، والمطوعي، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/٢١٤).

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي
الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا

خبر له، أي: لهذه الفلزات إذا أغليت زيد مثل زيد الماء ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ﴾ أي: مثل الحق والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ حال، أي:
متلاشياً، وهو: ما تقذفه القدر عند الغليان، والبحر عند الطغيان. والجفف:
الرمي. وجفأت الرجل: صرعه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الماء، والحلي،
والأواني ﴿فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ فيثبت الماء في العيون، والآبار، والحبوب،
والثمار. وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مدة طويلة ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾
ليظهر الحق من الباطل.

وقيل: هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله
بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم
بأنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه، واتخاذ الأواني،
والآلات المختلفة. وذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً: يثبت الماء في
منافعه، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة
اضمحلاله، ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو
فوقه إذا أذيب. قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب،
والحق والباطل. فالماء: القرآن نزل لحياة الجنان، كالماء للأبدان، والأودية
للقلوب. ومعنى ﴿بِقَدْرِهَا﴾ بقدر سعة القلب وضيقه. والزبد: هواجس
النفس، ووساوس الشيطان. والماء الصافي المنتفع به مثل الحق، فكما يذهب
الزبد باطلاً، ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس
الشيطان، ويبقى الحق كما هو. وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال
السنية، والأخلاق الزكية. وأما متاع الحديد، والنحاس، والرصاص فمثل
للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة
للعقاب، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب، وبعضها آلة الدفع في
الحرب. وأما الزبد: فالرياء، والخلل، والملل، والكسل.

١٨ - واللام في: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي: أجابوا. متعلقة بيضرب، أي:

لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ آلِهَاهُمْ ﴿١٨﴾ أَفَنَنْتَعِلُكُمْ سُلَاطِينًا أَمْ أَفَنُكَلِّمُكُمْ أَمْ لَا ۚ إِنَّكُمْ أَعْيُنُكُمْ لَأَرَأَيْتُمْ أَفَتُنَبِّئُونَ بَشَرًا لَّا خَلْقَ لَهُمْ ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّأَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ يَعْهَدُ اللَّهُ

﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ هي صفة لمصدر ﴿استجابوا﴾، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ أي: ﴿و﴾ للكافرين ﴿الذين لم يستجيبوا﴾ أي: هما مثلاً الفريقين. وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين، أي: لو ملكوا أموال الدنيا، وملكوا معها مثلها، لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله. والوجه: أَنَّ الكلام قد تم على الأمثال، وما بعده كلام مستأنف. و﴿الحسنَى﴾ مبتدأ، خبره ﴿للذين استجابوا﴾. والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿لو﴾ مع ما في حيزه ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ المناقشة فيه. في الحديث: «من نُوقِشَ الحسابُ عُدْبٌ»^(١) ﴿وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿وَيَتَّبِعُ آلِهَاهُمْ﴾ المكان الممهد. والمذموم محذوف، أي: جهنم.

١٩ - دخلت همزة الإنكار على الفاء في ﴿أَفَنَنْتَعِلُكُمْ﴾ لإنكار أن تقع شبهة مابعد ما ضرب من المثل في أَنَّ حال من علم: ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، وهو المراد بقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين عملوا على قضايا عقولهم، فنظروا، واستبصروا.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ يَعْهَدُ اللَّهُ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدار﴾ كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ... أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] وقيل: هو صفة ﴿لأولي الألباب﴾. والأول أوجه. وعهد الله: ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ
سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ما أوثقوه على أنفسهم، وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من
المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد. تعميم بعد تخصيص.

٢١ - ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات. ويدخل
فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة،
ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة
مرضاهم. ومنه: مراعاة حق الأصحاب، والخدم، والجيران، والرفقاء في السفر
﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كله ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصاً، فيحاسبون
أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

٢٢ - ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس،
والأموال، ومشاق التكاليف ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا ليقال: ما أصبره، وأحملة
للنوازل، وأوقره عند الزلازل! ولا لثلا يعاب في الجزع ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ داوموا
على إقامتها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا
﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يتناول النوافل؛ لأنها في السر أفضل، والفرائض؛ لأن المجاهرة
بها أفضل، نفيًا للثمة ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالحسن من الكلام
ما يرد عليهم من سئى غيرهم. أو: إذا حُرِّمُوا أعطوا، وإذا ظَلُمُوا عَفَوْا، وإذا
قُطِعُوا وصلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا، وإذا رأوا منكراً أمروا
بتغييره. فهذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾
عاقبة الدنيا، وهي: الجنة، لأنها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا، ومرجع
أهلها.

٢٣ - ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ بدل من عَقْبَى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: آمن ﴿مِنْ
آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وقرىء ﴿صَلَحَ﴾. والفتح أفصح. و﴿مَنْ﴾ في محلِّ

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي الدَّارِ ﴿٢٤﴾
وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾

الرفع بالعطف على الضمير في ﴿يدخلونها﴾. وساغ ذلك وإن لم يؤكد؛ لأن ضمير المفعول صار فاصلاً. وأجاز الزجاج أن يكون مفعولاً معه. ووصفهم بالصلاح ليعلم: أن الأنساب لا تنفع بنفسها، والمراد: أبوا كل واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات، بالهدايا، وبشارة الرضا.

٢٤ - ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ في موضع الحال، إذ المعنى: قائلين: ﴿سلام عليكم﴾
أو: مسلمين ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: هذا ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، أي: هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات، أو على أمر الله، أو: بسلام، أي: نسلم عليكم، ونكرمكم بصبركم. والاول أوجه ﴿فَبِعَمِّي الدَّارِ﴾ الجنات.

٢٥ - ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف، والقبول ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر، والظلم ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من الرحمة. ﴿وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يحتمل أن يُراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبي الدار، وأن يُراد بالدار: جهنم، ويسوئها: عذابها.

٢٦ - ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق لمن يشاء. والمعنى: ﴿الله﴾ وحده هو ﴿يبسط الرزق ويقدر﴾ دون غيره ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر، لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرأ، يتمتع به كعُجْلة الراكب، وهو ما يتعجله من تمرات، أو شربة سويق^(١).

(١) «السويق»: طعام يُتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

٢٧- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: الآية المقترحة ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ باقتراح آيات بعد ظهور المعجزات ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ ويرشد إلى دينه مَنْ رجع إليه بقلبه.

٢٨- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هم الذين. أو: محله النصب بدل من ﴿مَنْ﴾ ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ على الدوام. أو: بالقرآن ، أو: بوعده ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين.

٢٩- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ خبره. وهو مصدر من: طاب، كبشرى. ومعنى طوبى لك: أصبت خيراً وطيباً. ومحله النصب، أو الرفع، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك. واللام في ﴿لَهُمْ﴾ للبيان مثلها في: سقياً لك. والواو في ﴿طُوبَى﴾ منقابلة عن ياء لضمّة ما قبلها، كموقن. والقراءة في ﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ مرجع: بالرفع والنصب تدلّ على محلّها.

٣٠- ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ مثل ذلك الإرسال ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات. ثم فسر كيف أرسله، فقال: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمة قد تقدّمتها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء ﴿لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وحال هؤلاء: أنهم يكفرون ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ بالبلغ الرحمة؛ الذي وسعت رحمته كل شيء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ ورب كل شيء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو ربّي الواحد، المتعالى عن الشركاء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي

وَالِإِيَّاهُ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ

عليكم ﴿وَالِإِيَّاهُ مَتَابٌ﴾ مرجعي فيشيني على مصابرتكم. «متابي، وعقابي، ومآبي» في الحالين^(١): يعقوب.

٣١ - ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مقارها، ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ حتى تتصدع، وتترايل قطعاً، ﴿أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ فتسمع وتجيّب؛ لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار، والتخويف. فجواب ﴿لو﴾ محذوف. أو معناه: ﴿ولو أنَّ قرآنًا﴾ وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيئهم، لما آمنوا به، ولما تنبهوا عليه، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَىٰهُمْ أَلْمَلِكُ مَكَّةَ﴾ [الأنعام: ١١١] الآية ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادرٌ على الآيات التي اقترحوها ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أفلم يعلم. وهي لغة قوم من النخع. وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لتضمنه معناه، لأنَّ اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل النسيان في معنى الترك، لتضمن ذلك. دليله قراءة عليّ - رضي الله عنه - (أفلم يتبين). وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس، مستوي السّنات. وهذه والله فرية ما فيها مرية ﴿أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من كفرهم، وسوء أعمالهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تفرعهم بما يحلّ الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم، وأولادهم، وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو تحلّ القارعة قريباً منهم، فيفزعون، ويتطايروا عليهم شررها، ويتعدى إليهم شرورها ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ أي: موتهم، أو القيامة. أو: ﴿ولا يزال﴾ كفار مكة ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ برسول الله من العداوة، والتكذيب ﴿قَارِعَةٌ﴾ لأنّ جيش رسول الله يغير حول مكة، ويختطف منهم ﴿أو

(١) أي: في حالتي الوقف والوصل.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تَمَّ أَخَذَتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ
سَمَوْهُمْ أَمْ يَنْتَوْنَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

تخل ﴿ أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية ﴾ حتى يأتي وعد الله ﴿
أي: فتح مكة ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ ﴿ أي: لا خلف في مواعده.

٣٢ - ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الإملاء: الإمهال،
وأن يترك ملاءمة^(١) من الزمان في خفض، وأمن ﴿ تَمَّ أَخَذَتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴾ وهذا وعيد لهم، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء
به، وتسلية له.

٣٣ - ﴿ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ ﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني: أفالله الذي
هو رقيب ﴿ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ﴾ صالحة، أو طالحة ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعلم خبره وشره،
ويعد لكل جزاءه، كمن ليس كذلك. ثم استأنف، فقال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾
أي: الأصنام. ﴿ قُلْ سَمَوْهُمْ ﴾ أي: سمّوهم له من هم، ونبّوهم بأسمائهم. ثم
قال: ﴿ أَمْ يَنْتَوْنَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ على أم المنقطعة، بل أنتبونه بشركاء
لا يعلمهم في الأرض، وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم
علم أنهم ليسوا بشيء، والمراد: نفي أن يكون له شركاء ﴿ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ بل
أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة، كقوله:
﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ كيدهم للإسلام
بشركهم ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ عن سبيل الله. بضم الصاد: كوفي. ويفتحها:
غيرهم. ومعناه: وصدوا المسلمين عن سبيل الله ﴿ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ من
أحد يقدرُ على هدايته.

٣٤ - ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالقتل، والأسر، وأنواع المحن ﴿ وَلَعَذَابُ

الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ لَا يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ تَلَوُّهَا نَارٌ وَالَّذِينَ هُمُ الْمُكْتَبُونَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴿٣٥﴾ أشدّ لدوامه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ من حافظ من عذابه. ٣٥ - ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل. وارتفاعه بالابتداء، والخبر محذوف، أي: فيما يتلى عليكم ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾. أو: الخبر ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كما تقول: صفة زيد أسمر ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ ثمرها دائم الوجود، لا ينقطع ﴿وَزُلْفَاهَا نَارٌ﴾ دائم، لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿تَلَوُّهَا نَارٌ﴾ أي: الجنة الموصوفة عقيب تقواهم، يعني: منتهى أمرهم ﴿وَعَقِبَ الْكُفْرِينَ النَّارُ﴾.

٣٦ - ﴿وَالَّذِينَ هُمُ الْمُكْتَبُونَ﴾ يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه، ومن النصراني بآرض الحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: ومن أحزابهم. وهم كفرتهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، ككعب بن الأشرف، وأصحابه، والسيد، والعاقب، وأشياعهما ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص، وبعض الأحكام والمعاني، مما هو ثابت في كتبهم. وكانوا ينكرون نبوة محمد ﷺ، وغير ذلك مما حذّفوه، وبدّلوه من الشرائع ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ هو جواب للمنكرين، أي: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ فيما أنزل إليّ بـ ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾. فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله، وألا يشرك به؟! ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ خصوصاً، لا أدعو إلى غيره ﴿وَالِإِلَهِهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابُ﴾ مرجعي. وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

٣٧ - ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله، وتوحيده، والدعوة إليه، وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حكمة

وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِفَةٍ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
 الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
 وَعَلَيْنَا

عربية مترجمة بلسان العرب. وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يشاركون فيها. فقيل: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: لا ينصرك ناصر، ولا يقيك منه واق. وهذا من باب التهيج والبعث للسامعين على الثبات في الدين، وألا يزَلَّ زَالَ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الثبات بمكان.

٣٨- وكانوا يعيونه بالزواج والولاد، ويقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ، فنزل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء، وأولاداً ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِفَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ليس في وسعه^(١) إتيان الآيات على ما يقترحه قومه، وإنما ذلك إلى الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته.

٣٩- ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يشاء نسخه ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بدله ما يشاء، أو: يتركه غير منسوخ، أو: يمحو من ديوان الحفظ ما يشاء، ويثبت غيره، أو: يمحو كفر التائبين، ويثبت إيمانهم، أو: يميت من حان أجله، وعكسه. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾: مدني، وشامي، وحمزة، وعلي ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصل كل كتاب، وهو اللوح المحفوظ، لأن كل كائن مكتوب فيه.

٤٠- ﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ﴾ وكيفما دارت الحال - أريناك مصارعهم، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو: توفيناك قبل ذلك - ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، ﴿وَعَلَيْنَا

(١) من هنا وحتى الآية (٣٥) من سورة الحجر ساقط من المخطوط، واستدرك من المطبوع.

الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَأْيَ الْأَرْضِ تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۖ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك، فلا يهتكن إعراضهم، ولا تستعجل بعداهم.

٤١- ﴿أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَأْيَ الْأَرْضِ﴾ أرض الكفرة ﴿تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب، ونزيد في دار الإسلام. وذلك من آيات النصر والغلبة. والمعنى: عليك البلاغ الذي حملته، ولا تهتم بما وراء ذلك، فنحن نكفيكم، ونتم ما وعدناك من النصر، والظفر ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد لحكمه. والمعقب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله. وحقيقته: الذي يعقبه، أي: يقفّيه بالرد، والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحق: معقب، لأنه يقفّي غريمه بالاقضاء والطلب. والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة، والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار، والانتكاس. ومحل: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ النصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه، كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه، ولا قلنسوة له. تريد: حاسراً ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فعن قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

٤٢- ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كفار الأمم الخالية بأنبيائهم. والمكر: إرادة المكروه في خفية، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره، فقال: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارِ﴾ يعني: العاقبة المحمودة، لأن من علم ما تكسب كل نفس، وأعد لها جزاءها فهو المكر كله، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون، وهم في غفلة عما يراد بهم. (الكافر) على إرادة الجنس: حجازي، وأبو عمرو.

٤٣- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ المراد بهم: كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود. قالوا: ﴿لست مرسلًا﴾ ولهذا قال عطاء: هي مكينة، إلا هذه الآية ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الأدلة على رسالتي،

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

والباء دخلت على الفاعل، و﴿شهيذاً﴾ تمييز ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قيل: هو الله عز وجل. والكتاب: اللوح المحفوظ. دليله قراءة من قرأ: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي: ومن لديه علم الكتاب، لأنَّ عِلْمَ مَنْ عِلْمُهُ مِنْ فَضْلِهِ، ولطفه. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب، الذين أسلموا، لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم. وقال ابن سلام: في نزلت هذه الآية. وقيل: هو جبريل - عليه السلام - و﴿مَنْ﴾ في موضع الجرّ بالعطف على لفظ الله. أو: في موضع الرفع بالعطف على محلّ الجارّ والمجرور، إذ التقدير: كفى الله. و(علم الكتاب) يرتفع بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلاً، لأنّ الظرف صلة لمن. و﴿مَنْ﴾ - هنا - بمعنى الذي، والتقدير: من ثبت عنده علم الكتاب، وهذا لأنّ الظرف إذا وقع صلة يعمل عمل الفعل، نحو: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول بالذي استقر في الدار أخوه. في القراءة بكسر ميم ﴿مَنْ﴾ يرتفع العلم بالابتداء.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

١ - ﴿الرَّكَتَبُ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا ﴿كتاب﴾ يعني: السورة. والجملة التي هي: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ في موضع الرفع صفة للنكرة ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله. مستعار من الإذن، الذي هو تسهيل الحجاب. وذلك ما يمنحهم من التوفيق ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ بدل من النور بتكرير العامل ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب بالانتقام ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود على الإنعام.

٢ - ﴿اللَّهُ﴾ بالرفع: مدني، وشامي، على: هو ﴿الله﴾. بالجر غيرهما، على أنه عطف بيان للعزیز الحميد ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً. ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، توعد الكافرين بالويل، وهو نقيض الوال، وهو: النجاة. وهو اسم معنى كالهلاك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو مبتدأ وخبر وصفة.

٣ - ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون، ويؤثرون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً. والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار، وأوصل الفعل ﴿الذين﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق. ووصف الضلال بالبعد من

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۖ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

الإسناد المجازي. والبعد في الحقيقة للضال، لأنه هو الذي يتباعد عن طريق الحق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه. أو: مجرور صفة للكافرين. أو: منصوب على الذم، أو: مرفوع على أعني ﴿الذين﴾ أو: هم ﴿الذين﴾.

٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ إلا متكلماً بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما هو مبعوث به وله، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولون له: لم نفهم ما خوطبنا به. فإن قلت: إنّ رسولنا ﷺ بُعِثَ إلى الناس جميعاً بقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة. قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة، أو: بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأنّ الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل. فتعيّن أن ينزل بلسان واحد. وكان لسان قومه أولى بالتعيين، لأنهم أقرب إليه، ولأنه أبعد من التحريف، والتبديل ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من أثر سبب الضلالة ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من أثر سبب الاهتداء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان.

٥ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التسع. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بأن أخرج، أو: أي: أخرج، لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه، وقلنا له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم، قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه: أيام العرب لحروبها، وملاحمها. أو: بأيام الإنعام، حيث ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ على العطايا، كأنه قال: لكل مؤمن، إذ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ «إذا» ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم
ذلك الوقت، أو: بدل اشتغال من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم
﴿وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ذكر في البقرة: ﴿يُدَّبِحُونَ﴾ [الآية: ٤٩] وفي الأعراف:
﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الآية: ١٤١] بلا واو، وهنا مع الواو. والحاصل: أن التذبيح
حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب، وبياناً له، وحيث أثبت الواو جعل
التذبيح من حيث إنه زاد على جنس العذاب، كأنه جنس آخر ﴿وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى العذاب، والبلاء:
المحنة، أو: إلى الإنجاء. والبلاء: النعمة ﴿وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:
٣٥].

٧ - ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذن. ونظير: تأذن وآذن: توعد وأوعد.
ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذا آذن ربكم إيذاناً
بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه، وهو من جملة ما قال موسى لقومه. وانتصابه
للعطف على نعمة الله عليكم، كأنه قيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذكروا نعمة
الله عليكم﴾ واذكروا حين ﴿تأذن ربكم﴾ والمعنى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ فقال:
﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ يابني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها
﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة. فالشكر: قيد الوجود، وصيد المفقود. وقيل: إذا
سمعت النعمة نعمة الشكر تأهبت للمزيد. وقال ابن عباس - رضي الله
عنهما - : ﴿لئن شكرتم﴾ بالجد في الطاعة ﴿لأزيدنكم﴾ بالجد في المثوبة ﴿ولكن
كفرتم﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتي. أما في الدنيا
فسلب النعم، وأما في العقبى فتوالي النقم.

وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ

٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ﴾ يابني إسرائيل ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والناس كلهم ﴿فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ وإن لم يحمده الحامدون. وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير، الذي لا بد لكم منه.

٩- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى لقومه، أو: ابتداء خطاب لأهل عصر محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً، أو: عطف ﴿الذين من بعدهم﴾ على ﴿قوم نوح﴾ ولا يعلمهم إلا الله ﴿اعتراض. والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون. ورُوي: أنه عليه الصلاة والسلام قال عند نزول هذه الآية: «كذب النسابون»^(١) ﴿جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ الضميران يعودان إلى الكفرة، أي: أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجباً، أو: عضوا عليها تغيظاً، أو: الثاني يعود إلى الأنبياء، أي: ردّ القوم أيديهم في أفواه الرسل كيلا يتكلموا بما أرسلوا به ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله، والتوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

١٠- ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة. وهو جواب قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ ﴿فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥٦/١) عن ابن عباس مرفوعاً وإسناده ضعيف جداً، ورواه ابن جرير في تفسيره (١٨٧/١٣) موقوفاً على ابن مسعود.

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ
 أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ
 مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ

يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ إذا آمنتم. ولم نجى مع ﴿من﴾
 إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿وَأَتَّقُوا وَأَطِيعُوا لِيُغْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ -
 ٤] ﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١].
 وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ تَحَزُّرٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى أن قال ﴿يَغْفِرُ
 لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء. وكان ذلك للترقية
 بين الخطابين، ولثلا يسوي بين الفريقين في الميعاد ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى﴾ إلى وقت قد سماه، وبين مقداره ﴿قَالُوا﴾ أي: القوم. ﴿إِنْ أَنْتُمْ
 مَا أَنْتُمْ﴾ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم
 تخصصون بالنبوة دوننا؟ ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ يعني:
 الأصنام ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بيّنة. وقد جاءتهم رسلهم بالبينات،
 وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً، ولحاجاً.

١١- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تسليم لقولهم إنهم بشر
 مثلهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالإيمان والنبوة كما من علينا ﴿وَمَا
 كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ جواب لقولهم ﴿فأتونا بسُلطان مبین﴾.
 والمعنى: أنَّ الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا، ولا في استطاعتنا،
 وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم
 للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً، كأنهم قالوا: ومن
 حقناً أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم، ومعاداتكم، وإيذاكم. ألا
 ترى إلى قوله:

١٢- ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ معناه: وأتي عذر لنا في ألا نتوكل عليه،

وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَكَ عَلَى مَا ءَاذِيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا
 فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله، الذي يجب عليه سلوكه في الدين؟! قال أبو تراب: التوكل: طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والشكر عند العطاء، والصبر عند البلاء ﴿وَلَنَصِيرَكَ عَلَى مَا ءَاذِيْتُمُونَا﴾ جواب قسم مضمر، أي: حلفوا على الصبر على أذاهم، وألا يمسكوا عن دعائهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكلون على توكلهم، حتى لا يكون تكراراً.

١٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ ﴿سُبُلَنَا﴾^(١) ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ أبو عمرو ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ من ديارنا ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكون أحد الأمرين: إخراجكم، أو: عودكم، وحلفوا على ذلك. والعود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب. أو: خاطبوا به كل رسول، ومن آمن معه، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ القول مضمر، أو: أجري الإيحاء مجرى القول، لأنه ضرب منه.

١٤- ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أرض الظالمين وديارهم. في الحديث: «من آذى جاره ورثه الله داره»^(٢) ﴿ذَلِكَ﴾ الإهلاك والإسكان، أي: ذلك الأمر حق ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي، وهو موقف الحساب، أو: المقام مقحم. أو: خاف قيامي عليه بالعلم، كقوله: ﴿أَقْمَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. والمعنى: أن ذلك حق للمتقين ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ عذابي. وبالباء: يعقوب.

(١) أي: قوله تعالى في الآية (١٢): ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشف ٥٤٥/٢). وقال العجلوني: كذا رأيته في كلام بعض من جمّع في الحديث ممن لا يُعرَف، ثم رأيت النجم قال: أورده في الكشف، ولعله مثل سائر، وليس بحديث. (كشف الخفاء ٣٠٣/٢ - ٣٠٤).

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسَيِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمَيَّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ

١٥ - ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ واستنصروا الله على أعدائهم. وهو معطوف على ﴿أَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وخسر كل متكبر بطر ﴿عَنِيدٍ﴾ بجانب للحق. معناه: فنصروا، وظفروا، وأفلحوا ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ وهم قومهم. وقيل: الضمير للكفار. ومعناه: واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق، والرسل على الباطل ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ منهم، ولم يفلح باستفتاحه.

١٦ - ﴿مِّنْ وَرَائِهِ﴾ من بين يديه ﴿جَهَنَّمُ﴾. وهذا وصف حاله، وهو في الدنيا، لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه، وهو على شفيرها، أو: وصف حاله في الآخرة، حيث يبعث، ويوقف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ يلقي فيها مايلقى ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ مايسيل من جلود أهل النار. و﴿صديد﴾ عطف بيان لماء، لأنه مبهم، فبين بقوله: ﴿صديد﴾.

١٧ - ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يشربه جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَاذُ يُسَيِّغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسيفه، فكيف تكون الإساءة؟! كقوله: ﴿لَوْ يَكْدِرْنَهَا﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يقرب من رؤيتها، فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسباب الموت من كل جهة، أو: من كل مكان من جسده. وهذا تفضيع لما يصيبه من الآلام، أي: لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكاً ﴿وَمَا هُوَ بِمَمَيَّتٍ﴾ لأنه لو مات لاستراح ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله، وأغلظ. وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس، وحبسها في الأجساد.

١٨ - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، أي: فيما يتلى عليكم ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة. وقوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة

أَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ هُوَ
 الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ يَشَأْ
 يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ

مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقول: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾
 ﴿أَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ (الرياح): مدني ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعل العصف لليوم وهو
 لما فيه، وهو الريح، كقولك: يوم ماطر. وأعمال الكفرة المكارم التي كانت
 لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسرى، وعقر الإبل للأضياف،
 وغير ذلك. شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس - وهو الإيمان بالله تعالى -
 برماد طيرته الريح العاصف ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من
 أعمالهم ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يُقدَّر من الرماد
 المطير في الريح على شيء ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن
 طريق الحق، أو: عن الثواب.

١٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم. الخطاب لكل أحد. ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ﴾ «خالق» مضافاً: حمزة، وعلي ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة، والأمر العظيم،
 ولم يخلقها عبثاً ﴿إِنَّ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم
 الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم، أو: على خلاف شكلهم إعلماً
 بأنه قادر على إعدام الموجود، وإيجاد المعدم.

٢٠ - ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر.

٢١ - ﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويرزون يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضي،
 لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد. ونحوه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وغير ذلك.
 ومعنى بروزهم لله - والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له - أنهم كانوا
 يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون: أن ذلك خافٍ على الله،
 فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أن الله لا تخفى عليه
 خافية، أو: خرجوا من قبورهم، فبرزوا لحساب الله، وحكمه ﴿فَقَالَ﴾

الضَّعَفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿١١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

الضَّعَفَاءُ ﴿١﴾ في الرأي، وهم: السَّفَلَةُ، والأتباع. وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفتح الألف قبل الهمزة، فيميلها إلى الواو ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغواهم، وصدّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء، واتباعهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تابعين. جُمع تابع على تبع، كخادم وخدم، وغائب وغيب. أو: ذوي تبع. والتبع: الاتباع، يقال: تبعه تبعاً ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه. و﴿من﴾ الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ بعض الشيء الذي هو عذاب الله. أو: هما للتبعيض، أي: فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله. ولما كان قول الضعفاء توبيخاً لهم، وعتاباً على استغوائهم، لأنهم علموا أنهم لا يقدرّون على الإغناء عنهم ﴿قَالُوا﴾ لهم مجيبين متعذرين: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه، أو: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنيا عنكم، وسلكننا بكم طريق النجاة، كما سلكننا بكم طريق الهلكة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. رُوي: أنهم يقولون في النار: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمئة عام، فلا ينفعهم الجزع، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمئة عام، فلا ينفعهم الصبر. ثم يقولون: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾. واتّصّاله بما قبله من حيث إنّ عتابهم لهم كان جزءاً تاماً هم فيه، فقالوا لهم: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع، كما لا فائدة في الصبر ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا. ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً.

٢٢ - ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لما حكم بالجنة والنار لأهلبيهما، وفرغ

إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِ خَيْ^ط إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ^٤

من الحساب، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ورُوي: أَنَّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً على منبر من نار، فيقول لأهل النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ بأن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من تسلط، واقتدار. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ لكنني دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي، وتزييني. والاستثناء منقطع، لأن الدعاء ليس من جنس السلطان ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فأسرعتهم إجابتي ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ لأن من تجرد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح، مع أَنَّ الرحمن قد قال لكم: ﴿لَا يَقِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ آبَايَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث اتبعتموني بلا حجة، ولا برهان. وقول المعتزلة: هذا دليل على أَنَّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة، أو السعادة، ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين؛ باطل لقوله: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ كما مرَّ ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِ خَيْ^ط﴾ لا ينبغي بعضنا بعضاً من عذاب الله، ولا يغيثه. والإصرار: الإغاثة. ﴿بِمُصْرِخِي﴾: حمزة، إتباعاً للخاء. غيره: بفتح الياء، لثلاث تجمع الكسرة والياءان بعد كسرتين. وهو جمع مصرخ. فالياء الأولى ياء الجمع، والثانية ضمير المتكلم ﴿إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ وبالياء: بصري. وما: مصدرية ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بأشركتموني، أي: كفرت اليوم بإشراككم إيتاي مع الله من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له؛ كقوله: ﴿إِنَّا بَرَاءُكُمْ وَأَنتُمْ بَرَاءُ مِنَّا وَمَا تَقْبَلُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]. أو: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾. متعلق بكفرت و﴿مَا﴾ موصولة، أي: كفرت ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتموني، وهو الله عز وجل. تقول: أشركني فلان، أي: جعلني له شريكاً. ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزيتهم لهم من عبادة الأوثان، وهذا

إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

آخر قول الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قول الله عز وجل. وقيل: هو من تمام كلام إبليس. وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين.

٢٣ - ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ عطف على ﴿برزوا﴾ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله، وأمره ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة، أو: تسليم الملائكة عليهم.

٢٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: وصفه، وبيته ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نصب بمضمر. أي: جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾. وهو تفسير لقوله: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ نحو: شرف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فارس. أو: انتصب ﴿مثلاً﴾ و﴿كلمة﴾ بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، يعني: جعلها مثلاً. ثم قال: ﴿كشجرة طيبة﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة طيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: في الأرض، ضارب بعروقه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها ورأسها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾. والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد، أصلها: تصديق بالجنان، وفرعها: إقرار باللسان، وأكلها: عمل الأركان. وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملاً، فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملاً. ولكن الأشجار لا تُرَاد إلا للثمار، فما أقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الإثمار. والشجرة: كل شجرة مثمرة طيبة: الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، ونحو ذلك. والجمهور على أنها النخلة. فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ماهي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبياً، فوقع في قلبي: أنها النخلة، فهبت

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةِ حَيْثُ كَشَجَرَةٍ حَيْثُ اجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

رسول الله ﷺ أن أقولها، وأنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ : «ألا إنها النخلة» فقال عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حُمُر النعم^(١).

٢٥ - ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتيسير خالقها، وتكوينه ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام، وتذكير، وتصوير للمعاني.

٢٦ - ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةِ حَيْثُ﴾ هي كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ حَيْثُ﴾ هي كل شجرة لا يطيب ثمرها. وفي الحديث: «إنها شجرة الحنظل»^(٢) ﴿اجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ استوصلت جنتها. وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها، وهو في مقابلة: ﴿أصلها ثابت﴾ ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: استقرار. يقال: قر الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثبوتاً. شبه بها القول الذي لا يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت.

٢٧ - ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يديمهم عليه ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ هو قول لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حتى إذا فتنوا في دينهم لم يزولوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، وغير ذلك ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجمهور على أن المراد به في القبر بتلقين الجواب، وتمكين الصواب. فعن البراء: أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسان في قبره، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي. فذلك قوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾. ثم يقول

(١) رواه البخاري (٦١) ومسلم (٢٨١١).

(٢) رواه الترمذي (٣١١٩).

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

الملك: عشت سعيداً، ومت حميداً، نم نومة العروس^(١) ﴿٢٧﴾ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن، وتنزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل، وأزل ﴿٢٩﴾ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٠﴾ فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين، وإضلال الظالمين.

٢٨- ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴿٢٨﴾ أي: شكر نعمة الله ﴿كُفْرًا﴾، لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلاً، وهم أهل مكة. أكرمهم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دار الهلاك.

٢٩- ﴿٢٩﴾ جَهَنَّمَ ﴿٢٩﴾ عطف بيان ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَيَنَسُّ الْقَرَارَ﴾ وينس جهمهم.

٣٠- ﴿٣٠﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا ﴿٣٠﴾ أمثالاً في العبادة، أو: في التسمية ﴿لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ويفتح الباء: مكى، وأبو عمرو ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ في الدنيا. والمراد به: الخذلان، والتخلية. وقال ذو النون: التمتع: أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ مرجعكم إليها.

٣١- ﴿٣١﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٣١﴾ خصهم بالإضافة إليه تشريفاً. ويسكون الباء: شامي، وحمة، وعلي، والأعشى ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ المقول محذوف؛ لأن ﴿قُلْ﴾ تقتضي مقولاً، وهو: أقيموا. وتقديره: قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيموا الصلاة، وينفقوا. وقيل: إنه أمر، وهو المقول،

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٨٧) وأبو داود (٣٢١٢). وانظر: شرح الصدور للسيوطي (ص ٩١-٩٣). تحقيق: يوسف بدوي، طبع دار ابن كثير، دمشق - بيروت.

سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِيعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ

والتقدير: ليقيموا، ولينفقوا، فحذف اللام للدلالة ﴿قل﴾ عليه. ولو قيل: ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ ابتداء بحذف اللام لم يجز ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ انتصبا على الحال، أي: ذوي سرٍّ وعلانية، يعني: مسرّين ومعلنين، أو: على الظرف، أي: وقتي سرٍّ وعلانية، أو: على المصدر، أي: إنفاق سرٍّ وإنفاق علانية. والمعنى: إخفاء التطوُّع وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِيعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا انتفاع فيه بمبايعة، ولا مخالّة. والخلال: المخالّة. وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. بفتحهما: مكّي، وبصريّ. والباقون: بالرفع والتنوين.

٣٢ - ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خبره ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات. أو: ﴿من الثمرات﴾ مفعول ﴿أخرج﴾ و ﴿رزقاً﴾ حال من المفعول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾

٣٣ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ دائمين. وهو حال من الشمس والقمر، أي: يدأبان في سيرهما، وإنارتها، ودرثهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان، والنبات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفه لمعاشكم، وسباتكم.

٣٤ - ﴿وَأَتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ﴿من﴾ للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو: ﴿وَأَتَاكُم مِّن كُلِّ﴾ شيء سألتموه، وما لم تسألوه. ف﴿ما﴾ موصوفة والجملة صفة لها، وحذفت الجملة الثانية؛ لأن الباقي يدل على المحذوف كقوله: ﴿سَرَّيْلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ﴿من كلِّ﴾ عن أبي عمرو. و﴿ما سألتموه﴾ نفي، ومحلّه النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه. أو: ﴿ما﴾ موصولة، أي: وآتاكم من كل ذلك

وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾ وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ

ما احتجتم إليه، فكأنكم سألتموه، أو: طلبتموه بلسان الحال ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ
اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ لا تطبقوا عدّها، وبلوغ آخرها. هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على
الإجمال، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ﴿إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمة
ياغفال شكرها ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران لها. أو: ﴿ظَلُومٌ﴾ في الشدة يشكو
ويجزع ﴿كَفَّارٌ﴾ في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار
بالظلم والكفران من يوجدان منه.

٣٥ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ
أَي: البلد الحرام ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن. والفرق بين هذه وبين ما في البقرة: أنه قد
سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها، وفي الثاني: أن يخرجها من
صفة الخوف إلى الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً ﴿وَاجْنُبْنِي﴾
وبعدني، أي: ثبتني، وأدمني على اجتناب عبادتها، كما قال: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ
لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: ثبتنا على الإسلام ﴿وَبَنِيَّ﴾ أراد بنيه من صلبه ﴿أَنْ
نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ من ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

٣٦ - ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ جعلن مضلّات على طريق التسيب؛
لأنّ الناس ضلّوا بسببهن، فكأنهن أضلّنهم ﴿فَمَنْ يَتَّبِعْنِي﴾ على ملتي، وكان
حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿وَمَنْ
عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أو: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ عصيان
شرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إن تاب، وأمن.

٣٧ - ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد
منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط
﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ هو بيت الله، سُمّي به لأنّ الله تعالى حرّم التعرّض له،
والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو: لأنّه لم يزل ممتعاً، يهابه كلّ

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

جبار، أو: لأنه محترم عظيم الحرمه، لا يجل انتهاكها، أو: لأنه حرم على
الطوفان، أي: منع منه، كما سمي عتيقاً؛ لأنه أعتق منه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾
اللام متعلقة بـ ﴿أُسكنت﴾ أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا ﴿ليقيموا
الصلاة﴾ عند بيتك المحرم، ويعمره بذكرك وعبادتك ﴿فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ
النَّاسِ﴾ ﴿أفئدة من﴾ أفئدة ﴿النَّاسِ﴾. و﴿من﴾ للتبعيض. لما روي عن مجاهد:
لو قال: أفئدة الناس لزامتكم عليه فارس، والروم، والترك، والهند. أو:
للابتداء، كقولك: القلب مني سقيم، تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس.
ونكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتأكيد أفئدة - لأنها في الآية نكرة - ليتناول
بعض الأفئدة ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم من البلاد الشاسعة، وتطير نحوهم
شوقاً ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ﴾ مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب
إليهم من البلاد الشاسعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات
في وادٍ ليس فيه شجر، ولا ماء.

٣٨ - ﴿رَبَّنَا﴾ النداء المكرر دليل التضرع، واللجأ إلى الله ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي
وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلم السر، كما تعلم العلن ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم - عليه السلام - أو من كلام
إبراهيم. و﴿من﴾ للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى على الله شيء ما.

٣٩ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ ﴿علي﴾ بمعنى مع. وهو في
موضع الحال، أي: وهب لي وأنا كبير ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ روي: أن
إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مئة
واثنتي عشرة سنة. وروي: أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق
لتسعين. وإنما ذكر حال الكبر؛ لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم؛ لأنها حال
وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم،

إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيب الدعاء، من قولك: سمع الملك كلام فلان: إذا تلقاه بالإجابة والقبول. ومنه: سمع الله لمن حمده. وكان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١٠٠] فشكر الله ما أكرمه به من إجابته. وإضافة السمع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميع الدعاء. وقد ذكر سيويه فعلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا رحيم أباه.

٤٠ - ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وبعض ذريتي، عطفاً على المنصوب في ﴿اجْعَلْنِي﴾. وإنما بعض؛ لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفار. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ بالياء: في الوصل والوقف: مكّي. وافقه أبو عمرو، وحزة في الوصل. الباقيون بلا ياء. أي: استجب دعائي، أو: عبادتي ﴿وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِي﴾ [مريم: ٤٨].

٤١ - ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي: آدم وحواء، أو قاله قبل النهي واليأس عن إيمان أبويه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت. أو: أسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، مثل: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

٤٢ - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. والخطاب لغير الرسول عليه الصلاة والسلام. وإن كان للرسول فالمراد تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وكما جاء في الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقيل: المراد به الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره، على سبيل الوعيد والتهديد،

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٦﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٧﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٨﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

كقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارهم لا تقرر في أماكنها من هول ما ترى.

٤٣ - ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم نظرهم، فينظروا إلى أنفسهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ صفر من الخير، لا تعي شيئاً، من الخوف. والهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام. فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً، لا قوة في قلبه ولا جراءة. وقيل: جوف لا عقول لهم.

٤٤ - ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يوم القيامة. و﴿يَوْمَ﴾ مفعول ثان لأنذر، لا ظرف، إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: الكفار ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ أي: ردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك، واتباع رسلك. فيقال لهم: ﴿أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ أي: حلفتكم في الدنيا أنكم إذا متم لا تزلون عن تلك الحالة، ولا تتقلون إلى دار أخرى، يعني: كفرتم بالبعث، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] و﴿ما لكم﴾ جواب القسم. وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله ﴿أقسمتم﴾. ولو حكى لفظ المقسمين لقليل: ما لنا من زوال. أو: أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو: يوم موتهم معذنين بشدة السكرات، ولقاء الملائكة بلا بشرى، فإنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب.

٤٥ - يقال: سكن الدار، وسكن فيها، ومنه: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر؛ لأن السكنى من السكون، وهو اللبث. والأصل تعديته بفي، نحو: قر في الدار، وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص

وَبَيَّنَّا لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا
مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾
فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتْهُ رُسُلُهُ ۚ

تصرف فيه، فقل: سكن الدار، كما قيل: تبوأها. ويجوز أن يكون سكنوا من
السكون، أي: قرأوا فيها، واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في
الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبة
ظلمهم فيعتبروا، ويرتدعوا ﴿وَبَيَّنَّا لَكُمُ﴾ بالأخبار، أو: المشاهدة، وفاعل
﴿تبيين﴾ مضمّر دلّ عليه الكلام، أي: تبيين لكم حالهم. و﴿كَيْفَ﴾ ليس
بفاعل؛ لأنّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وإنما نصب ﴿كَيْفَ﴾ بقوله:
﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: أهلكتناهم، وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي:
صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم.

٤٦- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه
جهدهم، وهو: ما فعلوه من تأييد الكفر، وبطلان الإسلام ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾
هو مضاف إلى الفاعل كالأول. والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو
مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو: إلى المفعول، أي: عند الله مكرهم الذي
يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِنْ كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية. والتقدير:
وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبي ﷺ، فعبر عن النبي عليه الصلاة والسلام
بالجبال لعظم شأنه. و﴿كَانَ﴾ تامة، و﴿إِنْ﴾ نافية: واللام مؤكدة لها،
كقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] والمعنى: ومحال أن تزول
الجبال بمكرهم. على أنّ الجبال مثل آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال
الراسية ثباتاً وتمكناً. دليله قراءة ابن مسعود: ﴿وما كان مكرهم﴾ ويفتح اللام
الأولى ورفع الثانية: علي، أي: ﴿وإن كان مكرهم﴾ من الشدة بحيث تزول
منه الجبال، وتنقطع عن أماكنها، فإنّ خفقة من إنّ واللام مؤكدة.

٤٧- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتْهُ رُسُلُهُ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾
[غافر: ٥١] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيَّ بَنِي أَدَارِئِيلَ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿مُخْلَفٌ﴾: مفعول

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ

ثان لتحسين، وأضاف ﴿مخلف﴾ إلى ﴿وعده﴾ وهو المفعول الثاني له. والاول ﴿رسله﴾. والتقدير: مخلف رسله وعده. وإنما قدّم المفعول الثاني على الاول ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً. كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩]. ثم قال: ﴿رسله﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً، فكيف يخلفه رسله؛ الذين هم خيرته، وصفوته؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

٤٨- وانتصاب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ على الظرف للانتقام، أو: على إضمار اذكر. والمعنى ﴿يوم تبدل﴾ هذه ﴿الأرض﴾ التي تعرفونها أرضاً أخرى ﴿غير﴾ هذه المعروفة ﴿و﴾ تبدل ﴿السموات﴾ غير السموات. وإنما حذف لدلالة ما قبله عليه، والتبديل: التغيير. وقد يكون في الذوات، كقولك: بدلت الدراهم دنائير، وفي الأوصاف، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً؛ إذا أذبتها، وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل. واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدل أوصافها، وتسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها، وتسوى، فلا ترى فيها عوجاً، ولا أمناً. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي تلك الأرض، وإنما تغير. وتبدل السماء بانشار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً. وقيل: تخلق بدلها أرض وسموات آخر. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن علي - رضي الله عنه -: تبدل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب ﴿وَبَرَزُوا﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ هو كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لأن الملك إذا كان لواحد غلب لا يغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره، كان الأمر في غاية الشدة.

٤٩- ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض، أو: مع الشياطين، أو: قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلّين

فِي الْأَصْفَادِ ﴿١٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٢٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٢﴾

﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ ﴿مَقْرَنِينَ﴾، أي: يقرنون في الأصفاد. أو: غير متعلق به. والمعنى: مقرنين مصفدين. والأصفاد: القيود، أو: الأغلال.

٥٠- ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصهم ﴿مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبل، فيطبخ، فيهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدته، وحزه. ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار. وهو أسود اللون، متنن الريح، فيطلى به جلود أهل النار، حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل؛ ليجتمع عليهم لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وتنن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكل ما وعده الله، أو: أوعده به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلاّ الأسامي والمسميات ثمة. نعوذ بالله من سخطه وعذابه (من قَطِرَانٍ) زيد، عن يعقوب: نحاس مذاب بلغ حره إناه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ تعلقوها باشتعالها. وخصّ الوجه لأنه أعزّ موضع في ظاهر البدن، كالقلب في باطنه؛ ولذا قال: ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

٥١- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كلّ نفس مجرمة ما كسبت، أو: كلّ نفس من مجرمة ومطبعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم، علم أنه يثيب المؤمنين بطاعتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر.

٥٢- ﴿هَذَا﴾ أي: ما وصفه في قوله: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ كفاية في التذكير، والموعظة ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ بهذا البلاغ. وهو معطوف على محذوف، أي: لينصحوها ﴿وَلِينذِرُوا﴾ ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأنّ الخشية أم الخير كله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول.

سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

١ - ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ «تلك» إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. و﴿الكتاب﴾ والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى: «تلك آيات الكتاب» الكامل في كونه كتاباً ﴿و﴾ «آي القرآن مبين». كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال وللغربة في البيان.

٢ - ﴿رَبِّمَا﴾ بالتخفيف: مدني، وعاصم. وبالتشديد: غيرهما. و﴿ما﴾ هي الكافة؛ لأنها حرف مجز ما بعده، ويختص بالاسم النكرة. فإذا كُفَّت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم. وإنما جاز ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، فكانه قيل: ربما ودّ. وودادتهم تكون عند النزاع، أو: يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، أو: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، فيتمنى الكافر لو كان مسلماً. كذا روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حكاية ودادتهم. وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلن. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنّا مسلمين؛ لكان حسناً. وإنما قلل برُب؛ لأن أهوال القيامة؛ تشغلهم عن التمني، فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودّوا لو

ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

كانوا مسلمين. وقول من قال: إِنَّ (رَبِّ) يعني: بها الكثرة سهو؛ لأنه ضد ما يعرفه أهل اللغة؛ لأنها وضعت للتقليل.

٣- ﴿ذَرَّهُمْ﴾ أمر إهانة، أي: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عما هم عليه، والصد عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم ﴿يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا﴾ بديانهم ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغلهم أملهم وأمانهم عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم. وفيه تنبيه على أن إثارة التلذذ والتنعم، وما يؤدي إليه طول الأمل، ليس من أخلاق المؤمنين.

٤- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية. والقياس: ألا يتوسط الواو بينهما كما في ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ إذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو، فجاء بالواو تأكيداً لذلك. والوجه: أن تكون هذه الجملة حالاً لقرية؛ لكونها في حكم الموصوفة، كأنه قيل: وما أهلكنا قرية من القرى، لا وصفاً. وقوله: ﴿كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ، وبين. ألا ترى إلى قوله:

٥- ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا﴾ في موضع كتابها ﴿وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ أي: عنه. وحذف لأنه معلوم، وأنت الأمة أولاً، ثم ذكرها آخراً، حملاً على اللفظ والمعنى.

٦- ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الكفار ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. يعنون محمداً ﷺ. وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّا يُرْسِلَ إِلَيْكُمُ الْمَجْنُونُ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وكيف يقرون بنزول الذكر عليه، وينسبونه إلى الجنون. والتعكيس في كلامهم للاستهزاء. والتهكم سافح، ومنه ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿ [هود: ٨٧] . والمعنى: إِنَّكَ لتقول قول المجانين؛ حيث تدعي: أَنَّ الله نَزَلَ عَلَيْكَ الذِّكْرَ.

٧- ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ ركبت مع «لا» و«ما» لامتناع الشيء لوجود غيره، أو: التحضيض. و«هل» ركبت مع لا للتحضيض فحسب. والمعنى: هَلَّا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ بِصَدَقِكَ، أو: هَلَّا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ لِلْعِقَابِ عَلَى تَكْذِيبِنَا لَكَ إِن كُنْتَ صَادِقًا.

٨- ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ﴾ كوفي - غير أبي بكر - ﴿نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ﴾: أبو بكر، و﴿نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: تنزل غيرهم ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَّا تَنْزِيلًا مُلْتَبَسًا بِالْحِكْمَةِ ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِذَا﴾ جواب لهم. وجزاء الشرط مقدر. تقديره: ﴿و﴾ لو نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ ﴿مَا كَانُوا﴾ مُنْظَرِينَ إِذَا، وما أَمَرَ عَذَابِهِمْ.

٩- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُمُ الْحَفِظُونَ﴾ وهو ردّ لإنكارهم، واستهزائهم في قولهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]. ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فأكد عليهم أَنَّهُ هو المنزل على القطع، وَأَنَّهُ هو الذي نَزَّلَهُ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كلِّ وقت من الزيادة، والنقصان، والتحريف، والتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فَإِنَّهُ لم يتولَّ حفظها، وَإِنَّمَا استحفظها الرّبّانين والأخبار، فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فوقع التحريف، ولم يكل القرآن إلى غيره حفظه. وقد جعل قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُمُ الْحَفِظُونَ﴾ دليلاً على أَنَّهُ منزل من عنده آية، إذ لو كان من قول البشر، أو غير آية لتطرّق عليه الزيادة والنقصان، كما يتطرّق على كلِّ كلام سواه. أو: الضمير في ﴿لَهُ﴾ لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ [المائدة: ٦٧].

١٠- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِي﴾ الفرق ﴿الأولين﴾. والشيعه: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب، وطريقة.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

١١- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن «ما» لا تدخل على مضارع إلاّ وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلاّ وهو قريب من الحال ﴿مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعزّي نبيّه عليه الصلاة والسلام.

١٢- ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما سلكنّا الكفر، أو: الاستهزاء في شيع الأولين ﴿نَسْلُكُهُ﴾ أي: الكفر، أو الاستهزاء، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ من أمتك من اختار ذلك. يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته: إذا أدخلته فيها. وهو حجة على المعتزلة في الأصلح، وخلق الأفعال.

١٣- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالله، أو: بالذكر. وهو حال ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ مضت طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله. وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

١٤- ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية، وهو: فتح باب من السماء ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون.

١٥- ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ حيرت، أو: حبست، من الإبصار، من السُّكْر، أو: من السُّكَّر. ﴿سُكِّرَتْ﴾: مكّي، أي: حبست كما يحبس النهر من الجري. والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسرّ لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان مارأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك. أو: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار؛ ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: ﴿إِنَّمَا﴾ ليدلّ على أنهم يبتون القول بأنّ ذلك ليس إلاّ تسكيراً للأبصار.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ ﴿٢٠﴾

١٦- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ﴾ خلقنا فيها ﴿بُرُوجًا﴾ نجومًا، أو: قصوراً فيها الحرس، أو: منازل للنجوم ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: السماء ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾
١٧- ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي: السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ملعون، أو: مرمي بالنجوم.

١٨- ﴿إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: المسموع، و﴿مِنْ﴾ في محل نصب على الاستثناء ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ نجم ينقض فيعود ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين. قيل: كانوا لا يحجبون عن السموات كلها. فلما ولد عيسى - عليه السلام - منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها.

١٩- ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها من تحت الكعبة. والجمهور على أنه تعالى مدّها على وجه الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ في الأرض: جبالاً ثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان. أو: له وزن، وقدّر في أبواب المنفعة والنعمة. أو: ما يوزن كالزعفران، والذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، وغيرها. وخصّ ما يوزن لانتهاه الكيل إلى الوزن.

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَعَيشَ﴾ ما يعاش به من المطاعم، جمع: معيشة. وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها، فإنّ تصريح الياء فيها خطأ ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ﴾ ﴿مَنْ﴾ في محل نصب بالعطف على معاش، أو: على محلّ لكم. كأنه قيل: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشَ﴾ جعلنا لكم ﴿مَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ﴾. أو: جعلنا لكم فيها معاش، ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم: العيال، والممالك، والخدم؛ الذين يظنون أنّهم يرزقونهم، ويخطئون، فإنّ الله هو الرازق، يرزقهم وإياهم. ويدخل فيه الأنعام، والدواب، ونحو ذلك.

وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾

ولا يجوز أن يكون محل ﴿من﴾ جزأً بالعطف على الضمير المجرور في ﴿لكم﴾ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار.

٢١- ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده، وتكوينه، والإنعام به. وما نعطيه إلا بمقدار معلوم، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

٢٢- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ جمع لاقحة، أي: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ﴾ حوامل بالسحاب؛ لأنها تحمل السحاب في جوفها كأنها لاقحة بها. من: لقحت الناقة: حملت. وضدّها: العقيم. ﴿الريح﴾: حمزة ﴿فَاَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سقياً ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبتته لنفسه في قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى: نحن القادرون على خلقه في السماء، وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته، وعجزهم.

٢٣- ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: نحوي بالإيجاد، ونميت بالإفناء. أو: نميت عند انقضاء الآجال، ونحوي لجزاء الأعمال. على التقديم والتأخير. إذ الواو للجمع المطلق ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلهم. وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه.

٢٤- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من تقدّم ولادة وموتاً ومن تأخر، أو: من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو: من تقدّم في الإسلام، أو: في الطاعة، أو: في صف الجماعة، أو: صف الحرب ومن تأخر.

وَلَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَلَلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

٢٥- ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هو وحده يقدر على حشرهم، ويحيي بحشرهم ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ باهر الحكمة، واسع العلم.

٢٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: آدم ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾ صفة لصلصال، أي: خلقه ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ كائن ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾ أي: طين أسود متغير ﴿مَسْنُونٍ﴾ مصور. وفي الأول كان تراباً فعجن بالماء، فصار طيناً، فمكث فصار حملاً، فخلص فصار سلالة، فصور وبيس، فصار صلصالاً، فلا تناقض.

٢٧- ﴿وَلَلْجَانَّ﴾ أبا الجن كآدم للناس. أو: هو إبليس. وهو منصوب بفعل مضمر يفسره: ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل آدم ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار؛ التي خلق الله منها الجان.

٢٨- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

٢٩- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ﴾ أتممت خلقته، وهياتها لنفخ الروح فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وجعلت فيه الروح، وأحييته. وليس ثمة نفخ، وإنما هو تمثيل. والإضافة للتخصيص ﴿فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ هو أمر من: وقع، يقع، أي: اسقطوا على الأرض، يعني: اسجدوا له. ودخل الفاء لأنه جواب ﴿إِذَا﴾. وهو دليل على أنه يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل.

٣٠- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فالملائكة جمع عام، محتمل للتخصيص، فقطع باب التخصيص بقوله: ﴿كُلُّهُمْ﴾. وذكر الكل احتمال تأويل التفرق، فقطعه بقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَبْتَائِلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾

٣١ - ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ظاهر الاستثناء يدل على أنه كان من الملائكة، لأنَّ المستثنى يكون من جنس المستثنى منه. وعن الحسن: أنَّ الاستثناء منقطع، ولم يكن هو من الملائكة. قلنا: غير المأمور لا يصير بالترك ملعونا. وقال في الكشف: كان بينهم مأموراً بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلا هندا ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ امتنع أن يكون معهم. و﴿أَبَى﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد. ف قيل: ﴿أَبَى﴾ ذلك، واستكبر عنه. وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى.

٣٢ - ﴿قَالَ يَبْتَائِلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ حرف الجزر مع أن محذوف تقديره: ﴿مالك﴾ في ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: أي غرض لك في إباءك السجود؟!

٣٣ - ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: لا يصح مني أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾

٣٤ - ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من السماء، أو: من الجنة، أو: من جملة الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من رحمة الله. ومعناه: ملعون لأنَّ اللعنة هو الطرد من الرحمة، والإبعاد منها.

٣٥ - ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ضرب يوم الدين حداً لِلْعَنْتَةِ؛ لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم. والمراد به: أنك مذموم، مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه.

٣٦ - ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فأخرنى ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٣٧ - ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾

٣٨- ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ يوم الدين. و﴿يوم يبعثون﴾ و﴿يوم الوقت المعلوم﴾ في معنى واحد. ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لثلاث يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأنظر إلى آخر أيام التكليف.

٣٩- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم. و﴿ما﴾ مصدرية. وجواب القسم: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾. والمعنى: أقسم يا غواثك إيتاي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصي. ونحوه قوله: ﴿بما أغويتني لأزيتن لهم﴾ ﴿فَعِزَّكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: ٨٢] في أنه إقسام. إلا أن أحدهما: إقسام بصفة الذات، والثاني: بصفة الفعل. وقد فرق الفقهاء بينهما. فقال العراقيون: الحلف بصفة الذات - كالقدرة، والعظمة، والعزة - يمين، والحلف بصفة الفعل - كالرحمة، والسخط - ليس بيمين. والأصح: أن الأيمان مبنية على العرف، فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً ومالا فلا. والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال، وحملهم على التسبب عدول عن الظاهر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور. أو: أراد: إني أقدر على الاحتيال لأدم، والتزيين له الأكل من الشجرة، وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

٤٠- ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام: بصري، ومكي، وشامي. استثنى المخلصين، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلونه منه.

٤١، ٤٢- ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: هذا طريق حق علي أن أراعيه، وهو: ألا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته. وقيل معنى: ﴿علي﴾ إلي. ﴿علي﴾: يعقوب، من علو الشرف، والفضل.

٤٣- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الضمير للغاوين.

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾

٤٤ - ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب معلوم مفرز. قيل: أبواب النار: أطباقها، وأدراكها. فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين.

٤٥ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(١) ويضم العين: مدني، وبصري، وحفص. المتقي على الإطلاق: من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه. وقال في «الشرح» إن دخل أهل الكبائر في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فالمراد بالمتقين: الذين اتقوا الكبائر، وإلا فالمراد به: الذين اتقوا الشرك.

٤٦ - ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم ادخلوها. ﴿بِسَلَامٍ﴾ حال، أي: سالمين، أو مسلماً عليكم، تسلم عليكم الملائكة. ﴿ءَامِينَ﴾ من الخروج منهما، والآفات فيها. وهو حال أخرى.

٤٧ - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ﴾ وهو: الحقد الكامن في القلب، أي: إن كان لأحدهم غلٌّ في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم، وطيب نفوسهم. وعن عليّ - رضي الله عنه -: أرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير منهم. وقيل: معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غلٍّ، وألقى فيها التوادم، والتحابّ ﴿إِخْوَانًا﴾ حال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُُّتَقَابِلِينَ﴾ كذلك. قيل: تدور بهم الأسرة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين، يرى بعضهم بعضاً.

(١) في الأصل المخطوط ﴿وَعُيُونٌ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ٢٢٥).

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿١٨﴾ نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٠﴾ وَنَبَتْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢١﴾ إِذْ
دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
عَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ﴿٢٤﴾

٤٨ - ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ في الجنة، تعب ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فتمام
النعمة بالخلود.

٤٩، ٥٠ - ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه: ﴿نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿تقريباً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس.
قال ﷺ: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما توزع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه
لبخع نفسه في العباداة، ولما أقدم على ذنب»^(١).

٥١ - ﴿وَنَبَتْهُمْ﴾ وأخبر أمتك. عطفه على: ﴿نَبَتْ عِبَادِي﴾ ليتخذوا
ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله، وانتقامه من
المجرمين، ويتحققوا عنده أَنَّ عَذَابِهِ: ﴿هو العذاب الأليم﴾ ﴿عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾
أي: أضيفه. وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكاً. والضيف يجيء
واحداً وجمعاً، لأنه مصدر ضافه.

٥٢ - ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلاماً، أو: سلمنا سلاماً
﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون، لا متناعمهم من الأكل، أو:
لدخولهم بغير إذن، وبغير وقت.

٥٣ - ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي
عن الوجل، أي: إنك مبشّر آمن فلا توجل. وبالتخفيف وفتح النون: حمزة
﴿يُغْلِيهِ عَلَيْهِ﴾ هو إسحاق، لقوله في سورة هود [الآية: ٧١] ﴿فَبَشَّرْنَاهَا
بِإِسْحَاقَ﴾.

٥٤ - ﴿قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: أبشروني مع مسّ الكبر بأن
يولد لي؟ أي: أَنَّ الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر ﴿فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي﴾ هي «ما»

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِيطِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ
إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَآءَ آل لُّوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾

الاستفهامية دخلها معنى التعجب، كأنه قيل: فبأي أعجوبة ﴿تبشرون﴾. ويكسر النون والتشديد: مكّي. والأصل: تبشرونني، فأدغم نون الجمع في نون العماد، ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلاً عليها ﴿تبشرون﴾ بالتخفيف: نافع، والأصل: تبشرونني، فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة، وحذف نون الجمع لاجتماع النونين. والباقون بفتح النون، وحذف المفعول. والنون نون الجمع.

٥٥- ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا لبس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِيطِ﴾ من الآيسين من ذلك.

٥٦- ﴿قَالَ﴾ إبراهيم. ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ ويكسر النون: بصري، وعلي ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿إِلَّا المَخْطُونَ طريق الصواب، أو: إِلَّا الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّمَا لَا يَأْتِيَنَّ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها.

٥٧- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾

٥٨- ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: قوم لوط.

٥٩- ﴿إِلَآءَ آل لُّوطٍ﴾ يريد: أهله المؤمنين. والاستثناء منقطع؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام، والمستثنى ليس كذلك. أو: متصل، فيكون استثناء من الضمير في «مجرمين». كأنه قيل: ﴿إِلَى قَوْمٍ﴾ قد أجرموا كلّهم ﴿إِلَآءَ آل لُّوطٍ﴾ وحدهم. والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين؛ لأنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، يعني: أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين: كإرسال السهم إلى الرمي، في أنّه في معنى التعذيب، والإهلاك. كأنه قيل: إِنَّا أَهْلَكْنَا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ، ولكنّ آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، يعني: أنّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء، وينجوا هؤلاء. وإذا انقطع الاستثناء جرى ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مجرى خبر لكنّ في

إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَٰئِرِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ لَكُمْ قَوْمٌ مِّنْكُمْ مَّنْكَرُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٩﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ ﴿٢٠﴾ فَآسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ

الاتصال بآل لوط؛ لأن المعنى: لكن آل لوط منجون. وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ﴾.

٦٠- ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ﴾ مستثنى من الضمير المجرور في ﴿لمنْجُوهُمْ﴾ وليس باستثناء من الاستثناء؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، بأن يقول: أهلكتناهم إلا آل لوط ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ﴾. وهنا قد اختلف الحكماء؛ لأن ﴿إِلَّا آل لوط﴾ متعلق بأرسلنا، أو: بمجرمين، و﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ﴾ متعلق بمنجُوهم، فكيف يكون استثناء من استثناء؟! ﴿لَمُنْجُوهُمْ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعلي ﴿قَدَرْنَا﴾ وبالتخفيف؛ أبو بكر ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْفَٰئِرِينَ﴾ الباقيين في العذاب. قيل: لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح إن، لأنه مع اسمه وخبره مفعول ﴿قَدَرْنَا﴾. ولكنه كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْإِغْنَىٰ إِيَّاهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصفات: ١٥٨]. وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله لقربهم، كما يقول خاصة الملك: أمرنا بكذا، والأمر هو الملك.

٦١، ٦٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالَ لَكُمْ قَوْمٌ مِّنْكُمْ مَّنْكَرُونَ ﴿١٨﴾ أي: لا أعرفكم، أي: ليس عليكم زي السفر، ولا أنتم من أهل الحضر، فأخاف أن تطرقوني بشر.

٦٣- ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه سرورك، وتشفيك من أعدائك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيمترون فيه، أي: يشكون، ويكذبونك.

٦٤- ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَلِنَّا لَصٰدِقُونَ﴾ في الإخبار بنزوله بهم.

٦٥- ﴿فَآسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ في آخر الليل، أو: بعد ما يمضي شيء

وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ
الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ
إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَانْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ
الْعَلَمِيكَ ﴿٧٠﴾

صالح من الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وسر خلفهم، لتكون مطلعاً عليهم، وعلى
أحوالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، فيرقوا
لهم. أو: جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير، وترك التواني،
والتوقف؛ لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة ﴿وَامْضُوا حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ﴾ حيث أمركم الله بالمضي إليه، وهو الشام، أو: مصر.

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ عدى ﴿قضينا﴾ بلى، لأنه ضمن معنى:
أوحينا، كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً. وفسر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ
دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾. وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر. ودابرهم: آخرهم، أي:
يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مُصْحِحِينَ﴾ وقت دخولهم في
الصبح. وهو حال من هؤلاء.

٦٧- ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ سدوم التي ضرب بقاضياها المثل في الجور
﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ باللائكة طمعاً منهم في ركوب الفاحشة.

٦٨- ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي؛ لأن من
أساء إلى ضيفي فقد أساء إلي.

٦٩- ﴿وَانْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: ولا تذلوني بإذلال ضيفي. من: الخزي،
وهو: الهوان. وبالياء فيهما^(١): يعقوب.

٧٠- ﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَلَمِيكَ﴾ عن أن تحجر منهم أحداً، أو: تدفع
عنهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن
المنكر، والحجز بينهم وبين المتعرض له، فأوعده، وقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْهَ بَلَوْطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. أو: عن ضيافة الغرباء.

(١) أي في قوله في الآية السابقة: ﴿تَفْضَحُونِ﴾ وقوله في هذه الآية: ﴿تُخْزُونِ﴾.

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

٧١- ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ﴾ فانكحوهنّ، وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزاً. ولا تتعرضوا لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلّ الله دون ما حرّم. فقالت الملائكة للوط عليه السلام:

٧٢- ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيزون فكيف يقبلون قولك، ويصغون إلى نصيحتك؟ أو: الخطاب لرسول ﷺ. وهو قسمٌ بحياته - وما أقسم بحياة أحد قط - تعظيماً له. والعمر والعمر واحد، وهو البقاء، إلا أنهم خصّوا القسم بالفتوح إثارةً للأخف؛ لكثرة دور الحلف على ألسنتهم، ولذا حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك قسمي.

٧٣- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل - عليه السلام - ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في الشروق، وهو: بزوغ الشمس.

٧٤- ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا﴾ رفعها جبريل - عليه السلام - إلى السماء ثم قلبها. والضمير لقرى قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرسين المتأملين، كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمّة ظاهرة.

٧٦- ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإنّ هذه القرى، يعني: آثارها ﴿لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ﴾ ثابت، يسلكه الناس، لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ فَتْنًا﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

٧٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المتفكرون بذلك.

٧٨- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وإن الأمر والشأن ﴿كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: الغيضة ﴿لَظَالِمِينَ﴾ لكافرين. وهم قوم شعيب - عليه السلام -.

فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَسْأَلُوهُم عَنَّا قَوْلَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨١﴾ وَكَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ
الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

٧٩ - ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فاهلكناهم لما كذبوا شعبياً ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: قرى قوم لوط، والأيكة. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لبطريق واضح. والإمام: اسم ما يؤتم به، فسُمي به الطريق، ومَطَرُ البناء؛ لأنهما مما يؤتم به.

٨٠ - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ هم ثمود. والحجر: واديهما. وهو بين المدينة والشام ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسول جميعاً، فمن كذب واحداً منهم، فكأنما كذبهم جميعاً، أو: أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين، كما قيل: «الخبثيون» في ابن الزبير وأصحابه.

٨١ - ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَسْأَلُوهُم عَنَّا قَوْلَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها.

٨٢ - ﴿وَكَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ينقبون في ﴿الْجِبَالِ بَيُوتًا﴾ أو: ينون من الحجارة ﴿ءَامِنِينَ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم، ومن نقب للصوص والأعداء. أو: ﴿آمنين﴾ من عذاب الله، يحسبون أن الجبال تحميهم منه.

٨٣ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ في اليوم الرابع وقت الصبح.

٨٤ - ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واقتناء الأموال النفيسة.

٨٥ - ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقنا ملتبساً بالحق، لا باطلاً وعبثاً. أو: بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة لتوقعها كل ساعة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويمجزيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

جَمِلاً بِحِلْمٍ وَإِغْضَاءٍ. قيل: هو منسوخ بآية السيف. وإن أُريد به المخالفة فلا يكون منسوخاً.

٨٦ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الذي خلقك، وخلقهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم.

٨٧ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ أي: سبع آيات، وهي الفاتحة. أو: سبع سور، وهي الطوال. واختلف في السابعة فقليل: الأنفال وبراءة؛ لأنهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما. وقيل: سورة يونس. أو: أسباع القرآن ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ هي من الثنية، وهي التكرير؛ لأنَّ الفاتحة مما يتكرر في الصلاة. أو: من الثناء لاشتغالها على ما هو ثناء على الله. والواحد: مثناة، أو: مثنية صفة للآية. وأما السور، أو الأسباع؛ فلما وقع فيها من تكرير القصص، والمواعظ، والوعد، والوعيد، ولما فيها من الثناء، كأنها ثني على الله. وإذا جعلت السبع مثاني ف﴿مِنَ﴾ للتبيين، وإذا جعلت القرآن مثاني ف﴿مِنَ﴾ للتبويض ﴿وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ هذا ليس بعطف الشيء على نفسه؛ لأنه إذا أُريد بالأسباع الفاتحة، أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض، كما يقع على الكل. دليله قوله: ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] يعني: سورة يوسف. وإذا أُريد به الأسباع فالمعنى: ﴿ولقد آتيناك﴾ ما يقال له السبع المثاني ﴿والقرآن العظيم﴾ أي: الجامع لهذين النعتين، وهو الثنية، أو: الثناء، والعظم ثم قال لرسوله:

٨٨ - ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه، متمنٍّ له ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار كاليهود، والنصارى، والمجوس، يعني: قد أوتيت النعمة العظمى التي كلّ نعمة - وإن عظمت - فهي إليها حقيرة، وهي: القرآن العظيم. فعليك أن تستغني به، ولا تمدَّ عَيْنَكَ إِلَى متاع الدنيا. وفي الحديث: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»^(١). وحديث أبي بكر:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً، وعظم صغيراً^(١) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتمنّ أموالهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم لم يؤمنوا، فيتقوى بمكانهم الإسلام، والمسلمون ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء.

٨٩ - ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أنذركم ببيان وبرهان: أن عذاب الله نازلٌ بكم.

٩٠ - ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا﴾ متعلق بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾. وهم أهل الكتاب.

٩١ - ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاء - جمع: عضة، وأصلها: عضوة، فعلة، من عضى الشاة: إذا جعلها أعضاء - حيث قالوا بعنادهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما. فاقسموه إلى حق وباطل، وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي. أو: أريد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم، وقد اقساموه: فاليهود أقرت ببعض التوراة، وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل، وكذبت ببعض. ويجوز أن يكون: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ منصوباً بالندير، أي: أنذر المعصين؛ الذين يجزئون القرآن إلى سحر، وشعر، وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين - وهم الاثنا عشر الذين اقساموا مدخل مكة أيام الموسم، ففقدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر. فأهلكهم الله.. و﴿لَا تَمْدَنْ عَيْنِكَ﴾ على الوجه الأول اعتراض بينهما؛ لأنه لما كان ذلك تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعتراض بما هو مدار لمعنى التسلي من النهي عن الالتفات

(١) قال الحافظ: لم أجده عن أبي بكر. (حاشية الكشف ٥٨٨/٢).

فَوَرِّبْكَ لِنَسْلِكَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

إلى دنياهم، والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يُقبل بكليته على المؤمنين.
٩٢، ٩٣- ﴿فَوَرِّبْكَ لِنَسْلِكَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ☆ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ أقسم بذاته
وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في
رسول الله ﷺ، أو: في القرآن، أو: في كتب الله.

٩٤- ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، وأظهره. يقال: صدع بالحجة: إذا تكلم
بها جهاراً، من: الصديق، وهو الفجر. أو: ﴿فأصدع﴾ فافرق بين الحق
والباطل، من: الصدع في الزجاج، وهو: الإبانة ﴿بما تؤمر﴾. والمعنى: ﴿بما
تؤمر﴾ به من الشرائع، فحذف الجار. كقوله^(١):

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به^(٢)

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ هو أمر استهانة بهم.

٩٥- ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر، كانوا
يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ، والاستهزاء به، فأهلكهم الله. وهم: الوليد بن
المغيرة مرنبئال، فتعلق بثوبه سهم، فأصاب عِزْقاً في عقبه، فقطعه فمات،
والعاص بن وائل: دخل في أخمصه شوكة، فانتفخت رجله، فمات،
والأسود بن عبد المطلب: عمي، والأسود بن عبد يغوث: جعل ينطح رأسه
بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، والحارث بن قيس امتخط قيحاً،
ومات.

٩٦- ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم
يوم القيامة.

(١) هو خفاف بن ندبة، وقيل: غيره.

(٢) صدر بيت، وعجزه: فقد تركتك ذا مالٍ وذو نسب.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

٩٧ - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك، أو: في القرآن، أو: في

الله .

٩٨ - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ فافزع فيما نابك إلى الله - والفرع

إلى الله: هو الذكر الدائم، وكثرة السجود - يكفك، ويكشف عنك الغم .

٩٩ - ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ودُم على عبادة ربك ﴿حَقَّ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت،

يعني: ما دمت حياً فاشتغل بالعبادة. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(١).

* * *

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٦ و ٢٦٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

١ - كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، ونزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء، وتكذيباً بالوعد، ف قيل لهم: ﴿أَفَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ﴾. أي: هو بمنزلة الآتي الواقع - وإن كان منتظراً - لقرب وقوعه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ جلّ وعزّ عن أن يكون له شريك، وعن إشراكهم. فـ«ما» موصولة، أو: مصدرية. واتصال هذا باستعجالهم من حيث إن استعجالهم استهزاء وتكذيب، وذلك من الشرك.

٢ - ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ وبالتخفيف: مكّي، وأبو عمرو ﴿بِالرُّوحِ﴾ بالوحي، أو: بالقرآن؛ لأنّ كلّاً منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، أو: يحیی القلوب الميتة بالجهل ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا﴾ «أن» مفسرة، لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول. ومعنى «أنذروا» ﴿أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: أعلموا بأنّ الأمر ذلك، من: نذرت بكذا؛ إذا علمته. والمعنى: أعلموا الناس قولي: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فخافون. وبالباء: يعقوب.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ ﴿٦﴾

٣- ثُمَّ دَلَّ عَلَى وحدانيته، وأنه لا إله إلا هو بما ذكر تما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض، وهو قوله: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وبالتاء في الموضعين: ^(١) حمزة، وعلي. وخلق الإنسان وما يكون منه، وهو قوله:

٤- ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ أي: فإذا هو منطوق، مجادل عن نفسه، مكافح لخصومه، مبين لحجته بعد ما كان نطفة لا حسن به، ولا حركة. أو: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: ﴿ مَنْ يُنْحِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]؟ وهو وصف للإنسان بالوقاحة، والتماذي في كفران النعمة. وخلق ما لا بد له منه من البهائم لأكله، وركوبه، وحمل أثقاله، وسائر حاجاته، وهو قوله:

٥- ﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ هي الأزواج الثمانية، وأكثر ما يقع على الإبل. وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر، كقوله: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]. أو: بالعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان، والأنعام. ثم قال: ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ أي: ما خلقها إلا لكم يا جنس الإنسان ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف، أو وبر، أو شعر ﴿ وَمَنْفَعٌ ﴾ وهي نسلها، ودزها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قدم الظرف، وهو يؤذن بالاختصاص - وقد يؤكل من غيرها - لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معاشهم. وأما الأكل من غيرها كالدجاج، والبط، وصيد البر والبحر، فكغير المعتد به، وكالجارى مجرى التفكه.

٦- ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ ﴾ تردونها من مراعيها إلى مرايحها بالعشي ﴿ وَحِينَ تَسْرَحْنَ ﴾ ترسلونها بالغداة إلى مسارحها. من الله تعالى بالتجمل بها، كما

وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّتَرْتَكُونُوا بِإِلَيْهِ إِلَّا يَشِقَّ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُّوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ

من بالانتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشي؛ لأن الرعيان إذا رَوَّحوها بالعشي، وسَرَّحوها بالغداة تزيتت بإراحتها وتسريحها الأفنية. وفَرَّحت أربابها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. وإنما قدمت الإراحة على التسريح، لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطن، حافلة الضروع.

٧ - ﴿وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّتَرْتَكُونُوا بِإِلَيْهِ إِلَّا يَشِقَّ الْإِنْفُسَ﴾ وبفتح الشين: أبو جعفر. وهما لغتان في معنى المشقة. وقيل: المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقاً. وحقيقته راجعة إلى الشق؛ الذي هو الصدع. وأما الشق فالنصف؛ كأنه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد. والمعنى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه﴾ لو لم تخلق الإبل إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم. أو: معناه: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ بها ﴿إلا يشق الأنفس﴾. وقيل: أثقالكم: أبدانكم. ومنه: الثقلان للجن والإنس. ومنه: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]. أي: بني آدم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُّوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل، وتيسير هذه المصالح.

٨ - ﴿وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ عطف على ﴿الأنعام﴾. أي: وخلق هذه للركوب والزينة. وقد احتج أبو حنيفة - رحمه الله - على حرمة أكل لحم الخيل بأنه علل خلقها للركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام، ومنفعة الأكل أقوى. والآية سيقت لبيان النعمة، ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنة أدنى نعمتين، ويترك أعلاهما. وانتصاب ﴿زينة﴾ على المفعول له، عطفاً على محل ﴿لتركبوها﴾. وخلق ما لا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومن هذا وصفه يتعالى عن أن يشرك به غيره:

٩ - ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ المراد به: الجنس. ولذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾. والقصد: مصدر بمعنى الفاعل. وهو القاصد. يقال: سبيل قصد وقاصد،

وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُم أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ

أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤتمه السالك، لا يعدل عنه. ومعناه: أن هداية الطريق الموصل إلى الحق عليه. كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]. وليس ذلك للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكن يفعل ذلك تفضلاً. وقيل: معناه: وإلى الله. وقال الزجاج: معناه: ﴿وعلى الله﴾ تبيين الطريق الواضح المستقيم، والدعاء إليه بالحجج ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي: من السبيل مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُم أَجْمَعِينَ﴾ أراد: هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعد الهدى العام.

١٠ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ «لكم» متعلق بأنزل. أو: خبر لشراب، وهو: ما يشرب ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ من: سامت الماشية؛ إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من: السومة، وهي: العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

١١ - ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ولم يقل: كل الثمرات؛ لأن كلها لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلون بها عليه، وعلى قدرته، وحكمته. والآية: الدلالة الواضحة.

١٢ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (١) ينصب الكل على: ﴿وَجَعَلَ﴾ «النجوم مسخرات». «والنجوم مسخرات».

(١) في الأصل المخطوط: «... والنجوم مسخرات» وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٧٢).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
 أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ
 لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ
 مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي
 الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَنِمَّ بِكُمْ

فقط: حفص. ﴿والشمس والنجوم مسخرات﴾: شامي، على الابتداء والخبر
 ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية، وذكر العقل لأن الآثار العلوية
 أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء، والعظمة.

١٣- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿الليل والنهار﴾ أي:
 ما خلق فيها من حيوان، وشجر، وثمر، وغير ذلك ﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال ﴿أَلْوَنَهُ﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

١٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك.
 ووصفه بالطراوة؛ لأن الفساد يسرع إليه، فيؤكل سريعاً طرياً خيفة الفساد.
 وإنما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحماً؛ لأن مَبْنَى الإيمان على العرف.
 ومن قال لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار
 ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً﴾ هي اللؤلؤ، والمرجان ﴿تَلَسُّونَهَا﴾ المراد بلبسهم: لبس
 نسائهم، ولكنهن إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنها زيتهم، ولباسهم
 ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ﴾ جوارى تجري جرياً، وتشق الماء شقاً. والمخر: شق
 الماء بحيزومها^(١) ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ هو عطف على
 محذوف، أي: لتعتبروا ﴿ولتبتغوا﴾. وابتغاء الفضل: التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم عليكم به.

١٥- ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ جبلاً ثوابت ﴿أَنْ تَنِمَّ بِكُمْ﴾ كراهية أن
 تميل بكم، وتضطرب، أو: لئلا تميد بكم. لكن حذف المضاف أكثر. قيل:
 خلق الله الأرض فجعلت تميد، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها،

وَأَنْهَرَا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمْنَا وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

فأصبحت وقد أرسيت بالجلال، لم تدبر الملائكة مم خلقت ﴿وَأَنْهَرَا﴾ وجعل فيها ﴿أَنْهَرَا﴾ لأن ﴿القي﴾ فيه معنى: جعل ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم، أو: إلى توحيد ربكم.

١٦- ﴿وَعَلَّمْنَا﴾ هي معالم الطرق، وكل ما يستدل به السابلة من جبل، وغير ذلك ﴿وِبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ المراد بالنجم: الجنس؛ أو: هو الشريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدى. فإن قلت: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه ﴿هُمْ﴾، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنه أراد قريشاً، فلهم اهتداء بالنجوم في مسيرهم، ولهم بذلك علم، لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

١٧- ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ أي: الله تعالى ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ أي: الأصنام. وجيء بـ«مَنْ» الذي هو لأولي العلم، لزعمتهم حيث سَمَّوها آلهة، وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم، أو: لأن المعنى: أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؟ وإنما لم يقل: أفمن لا يخلق كمن لا يخلق - مع اقتضاء المقام بظاهرة إيّاه؛ لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثان، وسمَّوها آلهة تشبيهاً بالله - لأنهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾. وهو حجة على المعتزلة في خلق الأفعال ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه.

١٨- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها، ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطبقوا القيام بحقها من أداء الشكر. وإنما أتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيهاً على أن ما وراءها لا ينحصر، ولا يعدّ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

١٩- ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من أقوالكم، وأفعالكم. وهو وعيد.

٢٠- ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ والآلهة الذين يدعونهم الكفار ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وبالتناء: غير عاصم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٢١- ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي: هم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين؛ وأحياء لا يموتون؛ وعالمين بوقت البعث. وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات، جاهلون بالبعث. ومعنى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾: أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي: غير جائز عليها الموت، وأمرهم بالعكس من ذلك. والضمير في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للداعين، أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم. وفيه تهكم بالمشركون، وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث.

٢٢- ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: ثبت بما مر أن الإلهية لا تكون لغير الله، وأن معبودكم واحد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ للوحدانية ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها، وعن الإقرار بها.

٢٣- ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: سرهم وعلاانيتهم، فيجازيهم. وهو وعيد ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن التوحيد، يعني: المشركين.

٢٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ «ماذا» منصوب بـ «أنزل»، أي: أي شيء ﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾. أو: مرفوع على

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ

الابتداء، أي: أي شيء أنزله ربكم. و﴿أساطير﴾ خبر مبتدأ محذوف. قيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة، ينقرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديث الأولين، وأباطيلهم. واحدها: أسطورة. وإذا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ يخبرونهم بصدقه، وأنه نبي، فهم الذين قالوا خيراً.

٢٥ - ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس، فحملوا أوزار ضلالهم كاملة، وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال؛ لأنّ المضلّ والضالّ شريكان. واللام للتعليل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول، أي: يضلّون من لا يعلم أنّهم ضلال ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ محلّ ﴿مَا﴾ رفع.

٢٦ - ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: من جهة القواعد، وهي: الأساطين. وهذا تمثيل، يعني: أنّهم سوّا منصوبات ليمكروا بها رسل الله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنو بنياناً، وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعفت، فسقط عليهم السقف، وماتوا، وهلكوا. والجمهور على أنّ المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل، طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فأهّب الله الريح فخرّ عليه، وعلى قومه، فهلكوا. ﴿فَأَتَى اللَّهَ﴾ أي: أمره بالاستئصال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يحسبون، ولا يتوقعون.

٢٧ - ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلهم بعذاب الخزي، سوى ما عذبوا به في الدنيا ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم

الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾
الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا سَلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تعادون،
وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ﴿تשאقون﴾: نافع، أي: تشاقوني فيهم؛ لأن
مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: الأنبياء والعلماء من
أمتهم؛ الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان، ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم،
ويشاقونهم. يقولون ذلك شماتة بهم. أو: هم الملائكة: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾
الفضيحة ﴿وَالسُّوءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

٢٨ - ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ وبالباء: حمزة، وكذا ما بعده ^(١) ﴿ظَالِمِينَ
أَنْفُسِهِمْ﴾ بالكفر بالله ﴿قَالُوا سَلَمَ﴾ أي: الصلح، والاستسلام، أي: أجبنا،
وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ
سُوءٍ﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفران، والعداوة. فردّ عليهم أولو العلم،
وقالوا: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. وهذا أيضاً من
الشماتة. وكذلك:

٢٩ - ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنم.

٣٠ - ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ وإنما نصب
هذا، ورفع أساطير؛ لأنّ التقدير هنا أنزل ﴿خيراً﴾ فأتبعوا الجواب على
السؤال. وثمة التقدير: هو ﴿أساطير الأولين﴾ فعدلوا بالجواب عن السؤال
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ أي: آمنوا، وعملوا الصالحات، أو: قالوا:
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالرفع، أي: ثواب، وأمن، وغنيمة. وهو بدل
من ﴿خيراً﴾ حكاية لقول الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول، فقدم عليه
تسميته خيراً، ثمّ حكاه. أو: هو كلام مستأنف عدة للقائلين، وجعل قولهم

(١) أي: قوله تعالى: ﴿تتوفاهم﴾ في الآية (٣٢).

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ
تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

من جملة إحسانهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: لهم في الآخرة ما هو خير منها،
كقوله: ﴿فَقَالَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] ﴿وَلَنِعْمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح؛ لتقدم ذكره.

٣١- ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أو: هو المخصوص بالمدح
﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال. ﴿يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
الْمُتَّقِينَ.

٣٢- ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر؛ لأنه في
مقابلة: ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: إذا أشرف
العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله! الله يقرأ
عليك السلام. ويشره بالجنة. ويقال لهم في الآخرة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم.

٣٣- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظر هؤلاء الكفار ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض
أرواحهم. وبالباء: علي، وحمة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أي: العذاب المستأصل،
أو: القيامة ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك، والتكذيب ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا
ما استحقوا به التدمير.

٣٤- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأحاط بهم جزاء استهزائهم.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
 حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ
 الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
 فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
 يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ
 يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا

٣٥ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾
 هذا كلام صدر منهم استهزاء، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً ﴿ وَلَا حَرَمْنَا مِنْ
 دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعني: البحيرة، والسائبة، ونحوهما ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ ﴾ أي: كذبوا الرسل، وحرّموا الحلال، وقالوا مثل قولهم استهزاء ﴿ فَهَلْ
 عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ إلا أن يبلغوا الحق، ويطلعوا على بطلان الشرك،
 وقبحه.

٣٦ - ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ بأن وحدوه ﴿ وَاجْتَنِبُوا
 الطَّاغُوتَ ﴾ الشيطان، يعني: طاعته ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ لاختيارهم الهدى
 ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي: لزمته لاختياره إياها ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ حيث أهلكهم الله، وأخلى ديارهم عنهم.
 ثم ذكر عناد قريش، وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وأعلمه أنهم من قسم
 من حقت عليه الضلالة، فقال:

٣٧ - ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ بفتح الياء وكسر الدال:
 كوفي. الباقون: بضم الياء وفتح الدال. والوجه فيه: أن ﴿ مَنْ يُضِلُّ ﴾ مبتدأ،
 و﴿ لَا يَهْدِي ﴾ خبره ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله
 عليهم، ويدفعون عنهم عذابه الذي أعد لهم.

٣٨ - ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ معطوف على ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾
 ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى ﴾ هو إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم ﴿ وَعَدًّا عَلَيْهِ
 حَقًّا ﴾ هو مصدر مؤكد لما دل عليه ﴿ بلى ﴾ لأن يبعث موعد من الله، وبين أن

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

الوفاء بهذا الوعد حق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعده حق، أو: أنهم يبعثون.

٣٩ - ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلق بما دلّ عليه ﴿بلى﴾ أي: يبعثهم ﴿ليبين لهم﴾، والضمير لـ ﴿من يموت﴾ وهو يشمل المؤمنين والكافرين ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ هو الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ في قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾.

٤٠ - ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فهو يكون. وبالنصب: شامتي، وعليّ، على جواب كن. ﴿قولنا﴾ مبتدأ، و﴿أن نقول﴾ خبره، و﴿كن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث بلا توقف. وهذه عبارة عن سرعة الإيجاد، تبين أن مراداً لا يمتنع عليه، وأن وجوده عند إرادته غير متوقف، كوجود الأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، الممثل، ولا قول ثم. والمعنى: أن إيجاد كلّ مقدور على الله بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات؟

٤١ - ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ في حقه، ولوجهه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هم رسول الله وأصحابه، ظلمهم أهل مكة، ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة ﴿لَنبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر، أي: تبوءة ﴿حسنة﴾. أو: ﴿لنبوءهم﴾ مباءة حسنة، وهي المدينة حيث آواهم أهلها، ونصروهم ﴿وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الوقف لازم عليه لأنّ جواب ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ محذوف. والضمير للكفار، أي: لو علموا ذلك لرغبوا في الدين. أو: للمهاجرين، أي: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لزادوا في اجتهدهم، وصبرهم.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَشْكُلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾

٤٢- ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: هم ﴿الذين صبروا﴾ أو: أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على مفارقة الوطن - الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم؟ - وعلى المجاهدة، وبذل الأرواح في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون الأمر إلى ربهم، ويرضون بما أصابهم في دين الله.

٤٣- ولما قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً نزل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾^(١) على السنة الملائكة. ﴿نوحى﴾: حفص ﴿فَتَشْكُلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب ليعلموكم: أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً. وقيل للكتاب: الذكر؛ لأنه موعظة، وتنبيه للغافلين ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٤٤- ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي: بالمعجزات والكتب. والباء يتعلق بـ «رجالاً» صفة له، أي: رجالاً ملتبسين بالبينات. أو: بـ «أرسلنا» مضمرأ، كأنه قيل: بم أرسل الرسل؟ فقيل: بالبينات. أو: بـ «نوحى»، أي: نوحى إليهم بالبينات، أو: بـ: «لا تعلمون»، وقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدمة. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذكر مما أمروا به، ونهوا عنه، ووعدوا به، وأوعدوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تنبيهاته فيستبهاوا.

٤٥- ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المكرات السيئات، وهم: أهل مكة وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما فعل بمن تقدمهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بغتة.

(١) في الأصل المخطوط: يُوحى. وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وخلف، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٨١).

أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ

٤٦- ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ﴾ متقلِّين في مسائرهم، ومتاجرهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

٤٧- ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ متخوفين، وهو: أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون، متوقعون. وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم. والمعنى: أنه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم فإنما رأفته تقيكم، ورحمته تحميكم.

٤٨- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: حمزة، وعلي، وأبو بكر ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ «ما» موصولة بـ ﴿خلق الله﴾، وهو مبهم، بيانه: ﴿مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ﴾ أي: ترجع عن موضع إلى موضع. وبالتاء: بصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: الأيمان ﴿وَالْشَّمَائِلِ﴾ جمع: شمال ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ حال من الظلال. عن مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون. وهو حال من الضمير في ﴿ظلاله﴾ لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظلّ. وجمع بالواو والنون؛ لأن الدخور من أوصاف العقلاء أو: لأنّ في جملة ذلك من يعقل فغلب. والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله تعالى، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ. والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، غير ممتنعة.

٤٩- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيان لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أنّ في السموات خلقاً يدبّون فيها، كما تدبّ الأناسي في الأرض. أو: بيان لما في الأرض وحده. والمراد بما في السموات: ملائكتهنّ، ويقولن: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة من الحفظة وغيرهم. قيل: المراد

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ ﴿٢١﴾ وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا

بسجود المكلفين: طاعتهم، وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقيادهم لإرادة الله. ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا؛ فلذا جاز أن يعبرَ عنهما بلفظ واحد. وجيء بـ «ما» إذ هو صالح للعقلاء وغيرهم. ولو جيء بـ «مَنْ» لتناول العقلاء خاصة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٥٠- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ هو حال من الضمير في: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يستكبرون خائفين ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ إن علّفته بـ يخافون، فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم. وإن علّفته برّبهم حالاً منه، فمعناه: يخافون ربهم ﴿غالباً لهم قاهراً﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون، مدارون على الأمر والنهي، وأنهم بين الخوف والرجاء.

٥١- ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ فإن قلت: إنّما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا: عندي رجال ثلاثة؛ لأنّ المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص. فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد، ورجلان اثنان. قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دالٌّ على شيئين: على الجنسية، والعدد المخصوص؛ فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنى به منهما هو العدد شفع بما يؤكّده، فدلّ به على القصد إليه، والعناية به؛ ألا ترى أنك لو قلت: إنّما هو إله، ولم تؤكّده بواحد، لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية؟ ﴿فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترغيب من قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ (فارهبوني): يعقوب.

٥٢- ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَاصِبًا﴾ واجباً ثابتاً؛ لأنّ كلّ نعمة منه. فالطاعة واجبة له على كلّ منعم عليه، وهو حال عمل فيه

أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلُ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَأْذِنَ عَمَّا كُتِبَ تَقَرُّونَ ﴿٥٦﴾

الظرف. أو: ﴿وله﴾ الجزء دائماً، يعني: الثواب، والعقاب ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾.

٥٣- ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلُ﴾ وأي شيء اتصل بكم من نعمة عافية، وغنى، وخصب ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ ﴿ف﴾ هو ﴿من الله﴾. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ المرض، والفقر، والجذب ﴿فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه. والجوار: رفع الصوت بالدعاء، والاستغاثة.

٥٤- ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخطاب في ﴿وما بكم من نعمة﴾ إن كان عاماً، فالمراد بالفريق الكفرة. وإن كان الخطاب للمشركين فقلوه: ﴿منكم﴾ للبيان لا للتبعيض. كأنه قال: فإذا ﴿فريق﴾ كافر وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقلوه: ﴿فَلَمَّا بَجَّهْتُم إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢].

٥٥- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة. ثم أوعدهم فقال: ﴿فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هو عدول إلى الخطاب، على التهديد.

٥٦- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: لآلهتهم. ومعنى: ﴿لا يعلمون﴾ أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر، وتنفع، وتشفع عند الله، وليس كذلك؛ لأنها جهاد لا تضر، ولا تنفع. أو: الضمير في ﴿لا يعلمون﴾ للآلهة، أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم، أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم ﴿تَاللَّهِ لَتَسْتَأْذِنَ﴾ وعيد ﴿عَمَّا كُتِبَ تَقَرُّونَ﴾ من أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ

٥٧ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه، أو: تعجب من قولهم ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين. ويجوز في ﴿مَا﴾ الرفع على الابتداء، و﴿لَهُمْ﴾ الخبر. والنصب على العطف على البنات، و﴿سبحانه﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

٥٨ - ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار. فظل، وأمسى، وأصبح، وبات، تستعمل بمعنى الصيرورة؛ لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتمًا، مسود الوجه من الكآبة، والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء حنقًا على المرأة.

٥٩ - ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ﴾ يستخفي منهم من أجل سوء المبرر به، ومن أجل تعييرهم، ويحدث نفسه، وينظر ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: أمسك ما بشر به على هون وذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يثده؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون الولد؛ الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

٦٠ - ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء، وهي: الحاجة إلى الأولاد الذكور، وكراهة الإناث، وأدهن خشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وهو الغنى عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في تنفيذ ما أراد ﴿الْحَكِيمُ﴾ في إهمال العباد.

٦١ - ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ بكفرهم، ومعاصيهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ قط، ولاهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين. عن أبي هريرة

وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

- رضي الله عنه -: إِنَّ الْحُبَارَى (١) لَمُوت فِي وَكْرَهَا بظلم الظالم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كَادَ الْجُعْلُ (٢) يَهْلِكُ فِي جَحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾: مِنْ مَّشْرِكٍ يَدْبُ ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: أَجَلَ كُلِّ أَحَدٍ. أَوْ: وَقْتُ تَقْضِيَةِ الْحِكْمَةِ. أَوْ: الْقِيَامَةُ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٦٢ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ مَا يَكْرَهُونَهُ لِأَنفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ، وَمِنْ شُرَكَاءَ فِي رِثَاسَتِهِمْ، وَمِنْ الْاسْتِخْفَافِ بِرِسْلِهِمْ. وَيَجْعَلُونَ لَهُ أَرْدَلَ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا صَنَامَهُمْ أَكْرَمَهَا ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾ مَعَ ذَلِكَ، أَي: وَيَقُولُونَ الْكُذْبَ: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ عِنْدَ اللَّهِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ إِنْ كَانَ الْبَعْثُ حَقًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وَ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾: بَدَلٌ مِنْ ﴿الْكُذْبِ﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿مُفْرَطُونَ﴾: نَافِعٌ. ﴿مُفْرَطُونَ﴾: أَبُو جَعْفَرٍ، فَالْمَفْتُوحُ بِمَعْنَى مُقَدَّمُونَ إِلَى النَّارِ، مُعْجَلُونَ إِلَيْهَا، مِنْ: أَفْرَطْتُ فَلَانًا، وَفَرَطْتُهُ فِي طَلَبِ الْمَاءِ: إِذَا قَدَّمْتَهُ، أَوْ: مَنْسِيُونَ مَتْرُوكُونَ، مِنْ: أَفْرَطْتُ فَلَانًا خَلْفِي: إِذَا خَلَفْتَهُ وَنَسِيتَهُ. وَالْمَكْسُورُ الْمَخْفَفُ، مِنْ: الْإِفْرَاطِ فِي الْمَعَاصِي، وَالْمَشْدَدُ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي الطَّاعَاتِ، أَي: التَّقْصِيرِ فِيهَا.

٦٣ - ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أَي: أَرْسَلْنَا رَسُولًا إِلَىٰ مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ الْأُمَمِ ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ، وَالتَّكْذِيبِ بِالرَّسْلِ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ أَي: قَرِينُهُمْ فِي الدُّنْيَا تَوَلَّى إِضْلَالَهُمْ بِالْغُرُورِ. أَوْ: الضَّمِيرُ لِمَشْرِكِي قَرِيشٍ. أَي: زَيْنَ لِلْكَفَّارِ قَبْلَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّ هَؤُلَاءِ لِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ.

(١) «الْحُبَارَى»: طائر أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقاً، رمادي اللون، على شكل الإوزة.

(٢) «الْجُعْلُ»: جنس خنافس من مغمذات الأجنحة.

وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِطُونَهُ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا

أو: هو على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

٦٤- ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ هو البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محل ﴿لتبين﴾ إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما؛ لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخلت اللام على ﴿لتبين﴾ لأنه فعل المخاطب، لا فعل المنزل ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٦٥- ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع إنصاف وتدبر؛ لأن من لم يسمع بقلبه، فكأنه لا يسمع.

٦٦- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِطُونَهُ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين القرث والدم يكتفانه، وبينه وبينهما برزخ لا ينبغي أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته^(١)، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعله دماً. والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى القرث في

(١) إن كلام الإمام النسفي - رحمه الله - يتفق مع مفهوم عصره عن الطعام وتحولاته في جسم الإنسان، وقد بين العلم الحديث عملية الهضم والامتصاص في الأمعاء. وقد تجلّت المعجزة الربانية - إخراج اللبن المتميز بلونه وطعمه وتلقيه وسوغ شربه من بين قرث ودم - بشكل أوضح؛ مما يؤكد توافق العلم مع الإيمان.

سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَتُوتًا وَمِنَ
الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

الكرش، ثم ينحدر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، وسئل شقيق^(١) عن الإخلاص، فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المزور في الحلق. ويقال: لم يغص أحد باللبن قط. و﴿مِنَ الْأَوَّلَى لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ اللَّبْنَ بَعْضُ مَا فِي بَطُونِهَا، وَالثَّانِيَةَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ.

٦٧ - ويتعلق ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ بمحذوف تقديره: ﴿و﴾ نسقيكم ﴿مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ أي: من عصيرها. وحذف لدلالة ﴿نسقيكم﴾ قبله عليه. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو: تتخذون. و﴿منه﴾ من تكرير الظرف للتوكيد. والضمير في ﴿منه﴾ يرجع إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير. والسكر: الخمر. سُمِّيَتْ بالمصدر، من سكر سُكْرًا وَسَكَرًا، نحو: رُشِدًا وَرَشْدًا. ثم فيه وجهان: أحدهما: أَنَّ الْآيَةَ سَابِقَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، فَتَكُونُ مَنْسُوخَةً. وثانيهما: أن يجمع بين العتاب والمثنة. وقيل: السكر: التبيذ، وهو: عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد. وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف - رحمهما الله - إلى حد السكر. ويحتجان بهذه الآية، ويقولون عليه الصلاة والسلام: «الخمر حرام لعينها، والسكر من كل شراب»^(٢) وبأخبار جمّة ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ هو الخَلُّ، والرُّبُّ، والتمر، والزبيب، وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٦٨ - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وألهم. ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَتُوتًا﴾ هي أن المفسرة؛ لِأَنَّ الْإِيحَاءَ فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ. قال الزجاج: واحد النحل نحلة، كنخل ونخلة. والتأنيث باعتبار هذا. و﴿مِنَ الْجِبَالِ﴾ و﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

(١) هو شقيق بن إبراهيم البلخي، المتوفى سنة ١٩٤ هـ.

(٢) «الحيزوم»: الصدر أو وسطه.

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

يرفعون من سقوف البيت، أو: ما يبنون للنحل في الجبال، والشجر، والبيوت من الأماكن التي تعسل فيها، للتبعيض؛ لأنها لا تبني بيوتها في كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش. والضمير في «يعرشون» للناس. وبضم الراء: شامي، وأبو بكر.

٦٩ - ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ابني البيوت، ثم كلي كل ثمرة تشتهينها. فإذا أكلتها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ فادخلي الطرق التي ألهمك، وأفهمك في عمل العسل. أو: إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ﴿فَاسْلُكِي﴾ إلى بيوتك راجعة ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ لا تضلين فيها ﴿ذُلًّا﴾ جمع: ذلول. وهي حال من السبل؛ لأن الله تعالى ذللها، وسهلها، أو: من الضمير في ﴿فَاسْلُكِي﴾ أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب، تلقيه من فيها، ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ منه أبيض، وأصفر، وأحمر من الشباب، والكهول، والشيب أو: على ألوان أعذيتها ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لأنه من جملة الأدوية النافعة. وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل. وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك. وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو: لأن فيه بعض الشفاء؛ لأن النكرة في الإثبات تخص. وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال ﷺ: «اسقه عسلاً»، فجاءه وقال: زاده شراً. فقال ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك. اسقه عسلاً فسقاه فصيح^(١)». وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل. ومن بدع الروافض: أن المراد بالنحل علي وقومه. وعن بعضهم: أن رجلاً قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم. فضحك المهدي. وحدث به المنصور، فانخذوه أضحوكة من أضحاحهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) في الطب ومسلم (٢٢١٧) في السلام.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً

عجيب أمرها، فيعلمون أن الله أودعها علماً بذلك، وفطنها، كما أعطى أولي العقول عقولهم.

٧٠- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ بقبض أرواحكم من أبدانكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمُرِ﴾ إلى أخسته، وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، أو: ثمانون أو تسعون ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ لينسى ما يعلم، أو: لئلا يعلم زيادة علم على علمه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحكم التحويل إلى الأزدل من الأكمل، أو: إلى الإفناء من الإحياء، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء.

٧١- ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق ممالئكم، وهم بشر مثلكم ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ في الرزق، يعني: الملاك ﴿بِرَادَىٰ﴾ بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾. فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساوا في الملبس والمطعم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ جملة اسمية وقعت في موضع جملة فعلية في موضع نصب؛ لأنه جواب النفي بالفاء، وتقديره: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فيستووا مع عبيدهم في الرزق. وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء. فقال لهم: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم. فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وبالتاء: أبو بكر. فجعل ذلك من جملة جحود النعمة.

٧٢- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع: حافد. وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة، والخدمة. ومنه قول القانت: وإليك نسعى ونحفد. واختلف فيه فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد. والمعنى ﴿و﴾ جعل لكم ﴿حَفَدَةً﴾

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَالِبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا

أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: بعضها؛ لأنَّ كلَّ الطيبات في الجنة، وطيبات الدنيا أنموذج منها ﴿أَفِيَالِبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام، وشفاعتها ﴿وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ﴾ أي: الإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أو: الباطل: الشيطان، والنعمة: محمد ﷺ. أو: الباطل: ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحلّ لهم.

٧٣- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: الصنم، وهو جاد لا يملك أن يرزق شيئاً. فالرزق يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يرزق. فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شيئاً﴾ أي: لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان ﴿شيئاً﴾ بدلاً منه، أي: قليلاً. و﴿مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صلة للرزق إن كان مصدراً، أي: لا يرزق من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، وصفة إن كان اسماً لما يرزق. والضمير في: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لما؛ لأنه في معنى الآلهة بعد ما قال ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ على اللفظ. والمعنى: لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم.

٧٤- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا لله مثلاً، فإنه لا مثل له، أي: فلا تجعلوا له شركاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا مثل له من الخلق ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، أو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كيف يضرب الأمثال ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. والوجه: الأول. ثم ضرب المثل فقال:

٧٥- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا﴾ هو بدل من ﴿مثلاً﴾ ﴿مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ مصدران في موضع الحال، أي: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك، عاجز عن التصرف، وبين حر مالك، قد رزقه الله مالاً، فهو يتصرف فيه، وينفق منه

هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

ما شاء. وقيد بالملوك ليميزه من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً، إذ هما من عباد الله. وب: ﴿لا يقدر على شيء﴾ ليمتاز من المكاتب والمأذون، فهما يقدران على التصرف. و﴿من﴾ موصوفة، أي: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً، أو: موصولة ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ جمع الضمير لإرادة الجمع، أي: لا يستوي القبيلان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن الحمد والعبادة لله. ثم زاد في البيان فقال:

٧٦ - ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ الأبكم: الذي ولد أخرس فلا يفهم، ولا يفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: ثقل وعيال على مَنْ يلي أمره، ويعوله ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يرسله، ويصرفه في مطلب حاجة، أو كفاية مهم، لم ينفع، ولم يأتِ بنجح ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: ومن هو سليم الحواس، نفاع، ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو يأمر الناس بالعدل، والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة، ودين قويم. وهذا مثل ثانٍ، ضربه لنفسه، ولما يفيض على عباده من آثار رحمته، ونعمته، وللأصنام التي هي أموات لا تضر، ولا تنفع.

٧٧ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه. أو: أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض، لم يطلع عليه أحدٌ منهم ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ في قرب كونها، وسرعة قيامها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ كرجع طرف - وإنما ضرب به المثل لأنه لا يعرف زمان أقل منه - ﴿أَوْ هُوَ﴾ أي: الأمر ﴿أَقْرَبُ﴾. وليس هذا لشك المخاطب، ولكن المعنى: كونوا في كونها على هذا الاعتبار. وقيل: بل ﴿هو أقرب﴾ ﴿إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي
جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ

على أن يقيم الساعة، ويبعث الخلق؛ لأنه بعض المقدورات. ثم دل على قدرته
بما بعده فقال:

٧٨- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وبكسر الألف وفتح الميم: علي،
إتباعاً لكسرة النون. وبكسرهما: حمزة. والهاء مزيدة في أمهات للتوكيد، كما
زيدت في أراق، ف قيل: أهراق. وشذت زيادتها في الواحدة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾
حال، أي: غير عالين شيئاً من حق المنعم؛ الذي خلقكم في البطون ﴿وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما ركب فيكم هذه
الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل؛ الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به
من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه. والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في
غراب، وهو من جموع القلة؛ التي جرت مجرى جموع الكثرة، لعدم السماع في
غيرها.

٧٩- ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: شامي، وحمزة ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات
للطيран بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المواتية لذلك ﴿فِي جَوِّ
السَّمَاءِ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ في
قبضهن، وبسطهن، ووقوفهن ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بقدرته. وفيه نفي لما يصوره الوهم
من خاصية القوى الطبيعية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الخلق لا غنى به
عن الخالق.

٨٠- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو فَعَلَ بمعنى مفعول، أي:
ما يسكن إليه، وينقطع إليه من بيت، أو: إلف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾
هي: قباب الأدم ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب، والنقص،
والنقل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يسكون العين: كوفي، وشامي. ويفتح العين: غيرهم.

وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ
 جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ
 سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
 عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ
 نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

والظعن بفتح العين وسكونها: الارتحال ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قراركم في منازلكم.
 والمعنى: أنها خفيفة عليكم في أوقات السفر، والحضر، على أن اليوم بمعنى
 الوقت ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: أصواف الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وأوبار الإبل
 ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ وأشعار المعز ﴿أَثْنَا﴾ متاع البيت ﴿وَمِئَةً﴾ شيئاً ينتفع به ﴿إِلَى
 حِينٍ﴾ مدة من الزمان.

٨١ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ كالأشجار، والسقوف ﴿وَجَعَلَ
 لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ جمع كن، وهو: ما سترك من كهف، أو غار
 ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ هي: القمصان، والثياب من الصوف، والكتان، والقطن
 ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي: تقي البرد أيضاً، إلا أنه اكتفى بأحد الضدين، ولأن
 الوقاية من الحر أهم عندهم؛ لكون البرد يسيراً محتملاً ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
 بَأْسَكُمْ﴾ ودروعاً من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم في قتالكم. والبأس:
 شدة الحرب. والسربال عام يقع على ما كان من حديد، أو: غيره ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ
 نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به،
 وتنقادون له.

٨٢ - ﴿إِذَا تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فلا
 تبعة عليك في ذلك؛ لأن الذي عليك هو التبليغ الظاهر، وقد فعلت.

٨٣ - ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عددناها بأقوالهم، فإنهم يقولون: إنها من
 الله ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم. أو: في الشدة، ثم في
 الرخاء ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين. أو: ﴿نعمة
 الله﴾: نبوة محمد ﷺ، كانوا يعرفونها، ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون
 المنكرون بقلوبهم، و«ثم» يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
 وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ
 فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

المعرفة؛ لأنَّ حقَّ من عرف النعمة أن يعترف، لا أن ينكر.

٨٤ - ﴿وَيَوْمَ﴾ انتصابه باذكر ﴿نَبْعَثُ﴾ نحشر ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نبياً يشهد لهم وعليهم بالتصديق، والتكذيب، والإيمان، والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار. والمعنى: لا حجة لهم، فدلَّ بترك الإذن على أن لا حجة لهم، ولا عذر ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم؛ لأنَّ الآخرة ليست بدار عمل. ومعنى: ﴿ثُمَّ﴾ أنهم يُؤمنون، أي: يُبتلون بعد شهادة الأنبياء عليهم السلام بما هو أطم وأغلب منها، وهو أنهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجة.

٨٥ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون قبله.

٨٦ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم التي عبدوها ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا﴾ أي: آلهتنا التي جعلناها شركاء ﴿الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أي: نعبد ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب؛ لأنها كانت جامداً لا تعرف من عبدها، ويحتمل: أنهم كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة، تنزيهاً لله عن الشرك.

٨٧ - ﴿وَأَلْقُوا﴾ يعني: الذين ظلموا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ إلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء، والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وبطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أنَّ الله شركاء، وأنهم ينصرونهم، ويشفعون لهم، حين كذبوهم، وتبرؤوا منهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

٨٨- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وحلوا غيرهم على الكفر ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي: عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصددهم عن سبيل الله ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين الناس بالصد.

٨٩- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بليغاً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين. أما في الأحكام المنصوصة فظاهر، وكذا فيما ثبت بالسنة، أو: بالإجماع، أو: بقول الصحابة، أو: بالقياس؛ لأن مرجع الكل إلى الكتاب، حيث أمرنا فيه باتباع رسوله ﷺ وطاعته بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] وحشنا على الإجماع فيه بقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وقد رضي رسول الله ﷺ لأمرته اتباع أصحابه بقوله: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١). وقد اجتهدوا، وقاسوا، ووطؤوا طرق الاجتهاد والقياس، مع أنه أمرنا به بقوله: ﴿فَاعْتَرِضُوا يَتَّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. فكانت السنة، والإجماع، وقول الصحابي، والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب، فتبين أنه كان تبياناً لكل شيء ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ودلالة إلى الحق، ورحمة لهم، وبشارة لهم بالجنة.

٩٠- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى من أساء إليكم. أو: هما الفرض، والندب؛ لأن الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط، فيجبره الندب ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء ذي القرابة، وهو: صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧).

الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩١﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا

الْفَحْشَاءُ ﴿٩١﴾ عن الذنوب المفرطة في القبح ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما تنكره العقول ﴿وَالْبَغْيِ﴾ طلب التناول بالظلم، والكبر ﴿يَعِظُكُمْ﴾ حال، أو: مستأنف ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بمواعظ الله. وهذه الآية سببُ إسلام عثمان بن مظعون، فإنه قال: ما كنتُ أسلمتُ إلا حياء منه عليه الصلاة والسلام لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام، ولم يستقرّ الإيمان في قلبي، حتى نزلت هذه الآية، وأنا عنده، فاستقرّ الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة، فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر. وقال أبو جهل: إنّ إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق. وهي أجمعُ آية في القرآن للخير والشرّ، ولهذا يقرؤها كلّ خطيب على المنبر في آخر كلّ خطبة لتكون عظة جامعة لكلّ مأمور، ومنهي.

٩١- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أيمن البيعة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله. وأكد ووكد لغتان فصيحتان. والأصل: الواو، والهمزة بدل منها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً ورفيقاً؛ لأنّ الكفيل مرّاح لحال المكفول به، مهيمن عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من البرّ والحسن، فيجازيكم به.

٩٢- ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقض الأيمان ﴿كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته، فجعلته ﴿أَنْكَا﴾ جمع نكت، وهو: ما ينكت فتله. قيل: هي ربطة، وكانت حمقاء، تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾ حال، كأنكاثاً ﴿دَخَلًا﴾. أحد مفعولي: تتخذ، أي: ولا تنقضوا

يَبْنِيَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۖ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْذِثُوبَتِهَا وَتَذُقُوا الشَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا

أيمانكم متخذها دخلاً ﴿يَبْنِيَكُمْ﴾ أي: مفسدة وخيانة ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن تكون أمة؛ يعني: جماعة قريش ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي أزيد عدداً، وأوفر مالاً من جماعة المؤمنين. ﴿هي أربى﴾ مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمة. و﴿أمة﴾ فاعل ﴿تكون﴾. وهي: تامة. و﴿هي﴾ ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير للمصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكّدتُم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم، وقلة المؤمنين وفقركم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. وفيه تحذير عن مخالفة ملة الإسلام.

٩٣ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حنيئة مسلمة ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة، فتجزون به.

٩٤ - ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كَرَّرَ النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظمه ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْذِثُوبَتِهَا﴾ فتزل أقدامكم عن حجة الإسلام بعد ثبوتها عليها. وإنما وُحِّدَت القدم، ونكرت؛ لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وَتَذُقُوا الشَّوَاءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ بصدودكم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وخروجكم عن الدين. أو: بصدكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة، وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

٩٥ - ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾. وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا

قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكَ إِن كُنْتَ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكَ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

قَلِيلًا. عرضاً من الدنيا يسيراً، كأن قوماً من أسلم بمكة زين لهم الشيطان - لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش، واستضعافهم المسلمين، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد - أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لِّكَ إِن كُنْتَ تَعْلَمُونَ﴾.

٩٦ - ﴿مَا عِنْدَكَ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ ^(١) وبالنون: مكّي، وعاصم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين، ومشاق الإسلام ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٩٧ - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ «مَنْ» مبهم يتناول النوعين إلا أنّ ظاهره للذكور، فبين بقوله: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنَّىٰ﴾ ليعم الموعد النوعين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الإيمان؛ لأنّ أعمال الكفار غير معتد بها. وهو يدلّ على أنّ العمل ليس من الإيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ أي: في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وعده الله ثواب الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿فَقَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح، موسراً كان أو معسراً، يعيش عيشاً طيباً؛ إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه، وهو: القناعة، والرضا بقسمة الله تعالى. وأمّا الفاجر فأمره بالعكس: إن كان معسراً فظاهر، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه. وقيل: الحياة الطيبة: القناعة، أو: حلاوة الطاعة، أو: المعرفة بالله، وصدق المقام مع الله، وصدق الوقوف على أمر الله، والإعراض عما سوى الله.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وليجزين﴾ وهي قراءة: قنبل، وابن عامر، ونافع، وحمة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن ذكوان، وهشام. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ٢٩٥).

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُمْ لَمُ سَلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ
بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

٩٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ فإذا أردت قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فعبر عن
إرادة الفعل بلفظ الفعل؛ لأنها سبب له. والفاء للتعقيب، إذ القراءة المصدرة
بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: إبليس ﴿الرَّجِيمِ﴾
المطروود، أو: الملعون. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: قرأت على رسول الله
ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. فقال لي: «قل: أعوذ
بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عليه السلام»^(١).

٩٩- ﴿إِنَّهُمْ لَمُ سَلْطَنٌ﴾ لإبليس ﴿سُلْطَنٌ﴾ تسلط، وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالؤمن المتوكل، لا يقبل منه وساوسه.

١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ﴾ يتخذونه ولياً، ويتبعون وساوسه
﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير يعود إلى ربهم، أو: إلى الشيطان، أي:
بسببه.

١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةٍ﴾ تبديل الآية مكان الآية هو:
النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها، وهو معنى قوله:
﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ وبالتخفيف: مكى، وأبو عمرو ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ﴾ هو جواب: ﴿إِذَا﴾. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ اعتراض. كانوا
يقولون: إن محمداً يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً،
فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون
بالأشق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في ذلك.

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٣٧) وقال الألباني في السلسلة الضعيفة
(٤٣٩/١): موضوع، آفته: جعفر بن عبد الواحد.

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيْ ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾

١٠٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل - عليه السلام - أضيف إلى القدس، وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود، والمراد: الروح المقدس، وحاتم الجواد. والمقدس: المطهر من المآثم ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ من عنده، وأمره ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: نزله ملتبساً بالحكمة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ليلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة؛ لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب، حكم لهم بثبات القدم، وصحة اليقين، وطمأنينة القلوب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى﴾ مفعول لهما، معطوفان على محلّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ والتقدير: تثبيتاً لهم، وإرشاداً وبشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وفيه تعريض بحصول أصداد هذه الخصال لغيرهم.

١٠٣- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أرادوا به غلاماً كان لحويطب قد أسلم، وحسن إسلامه، اسمه: عائش، أو يعيش، وكان صاحب كتب. أو: هو جبر؛ غلام رومي لعامر بن الحضرمي. أو: عبدان: جبر، ويسار. كانا يقرأان التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ يسمع ما يقرأان. أو: سلمان الفارسي ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ﴾ وفتح الياء والحاء: حمزة، وعلي ﴿إِلَيْهِ أَعْجَمِيْ ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، لسان أعجمي، غير بين. ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ ذو بيان وفصاحة. رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وهذه الجملة، أعني: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ لا محل لها؛ لأنها مستأنفة، جواب لقولهم. واللسان: اللغة. ويقال: ألحد القبر، ولحده، وهو ملحد، وملحدود: إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شق منه. ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه. ومنه الملحد؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي
الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ
كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ
شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

١٠٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ ما داموا
مختارين الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة على كفرهم.

١٠٥- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي:
إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقاباً عليه. وهو ردّ
لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي:
وأولئك ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ على الحقيقة، الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب
آيات الله أعظم الكذب. أو: ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ في قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ﴾.

١٠٦- جوزوا أن يكون ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ شرطاً مبتدأ،
وحذف جوابه؛ لأنّ جواب ﴿من شرح﴾ دالّ عليه، كأنه قيل: من كفر بالله
فعليهم غضب ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ساكن به ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ
بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً، واعتقده ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وأن يكون بدلاً من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ على أن
يجعل ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ اعتراضاً بين البدل والمبدل منه. والمعنى: إنّما
يفتري الكذب ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾. واستثنى منهم المكره، فلم
يدخل تحت حكم الافتراء. ثمّ قال: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم
غضب من الله﴾. وأن يكون بدلاً من المبتدأ؛ الذي هو ﴿وأولئك﴾، أي: ومن
كفر بالله من بعد إيمانه ﴿هم الكاذبون﴾. أو: من الخبر الذي هو الكاذبون،
أي: وأولئك هم ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾. وأن يتنصب على الذم.

رُوي أنّ ناساً من أهل مكّة فتنوا فارتدّوا، وكان فيهم من أكره، فأجرى
كلمة الكفر على لسانه، وهو معتقّد للإيمان. منهم عمار - وأما أبواه: ياسر

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ
الْخَسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا

وسميّة فقد قُتِلَا، وهما أول قتيلين في الإسلام - ف قيل لرسول الله ﷺ: إن عمّاراً
كفر. فقال: «كلاً، إن عمّاراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه»^(١) واختلط الإيمان
بلحمه ودمه»^(٢). فأتى عمّار رسول الله ﷺ وهو يبكي. فجعل رسول الله ﷺ
يمسح عينيه. وقال: «مالك؟ إن عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت»^(٣). وما فعل
أبو عمار أفضل؛ لأنّ في الصبر على القتل إعزازاً للإسلام.

١٠٧- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد، وهو: لحوق الغضب، والعذاب العظيم
﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا﴾ آثروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: بسبب إثارة
الدنيا على الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما داموا مختارين
للكفر.

١٠٨- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ فلا
يتدبرون، ولا يصغون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَافِلُونَ﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ لأنّ الغفلة عن تدبّر العواقب هي غاية
الغفلة، ومنتهاتها.

١٠٩، ١١٠- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
﴿ثُمَّ﴾ يدلّ على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾
من مكّة، أي: أنّه لهم لا عليهم، يعني: أنّه وليّهم وناصرهم، لا عدوّهم
وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محمياً منقوعاً، غير مضرور

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي، والواحدي في «الوسيط» عن الثعلبي. (حاشية الكشف
٦٣٤/٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/١٣٩).

(٣) رواه ابن عساکر. (كتر العمال ٣٣٥٢٠).

مِنْ بَعْدِ مَا فَتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبِّرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ

﴿مِنْ بَعْدِ مَا فَتِنُوا﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر. ﴿فَتِنُوا﴾: شامِي، أي: بعد ما عذبوا المؤمنين، ثم أسلموا ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا﴾: المشركين بعد الهجرة ﴿وَصَبِّرُوا﴾: على الجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾: من بعد هذه الأفعال، وهي: الهجرة، والجهاد، والصبر ﴿لَغَفُورٌ﴾: لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقيّة. ﴿رَحِيمٌ﴾: لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الإكراه.

١١١- ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ منصوب برحيم، أو: باذكر ﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ وإنما أضيفت النفس إلى النفس؛ لأنه يقال لعين الشيء، وذاته: نفسه، وفي نقيضه: غيره. والنفس: الجملة كما هي. فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها وذاتها، فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته، لا يهتم شأن غيره، كل يقول: نفسي، نفسي. ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها، كقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ تُعطى جزاء عملها وافيًا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك.

١١٢- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا، وتولّوا، فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾: من القتل والسبي ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾: لا يزعجها خوف؛ لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج، والقلق مع الخوف ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾: واسعاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: من كل بلد ﴿فَكَفَرَتْ﴾: أهلها ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾: جمع: نعمة، على ترك الاعتداد بالثناء، كدرع، وأدرع. أو: جمع: نعم، كبؤس وأبؤس ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ

لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا
طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ الْفَيْسَةَ وَالْذَّمَّ وَاللَّحْمَ الْخَازِرَ وَمَا آهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ
بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ الإذاقة واللباس: استعارتان.
والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، ووجه صحة ذلك: أن الإذاقة
جارية عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البليات والشدائد، وما يمس الناس
منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه العذاب. شبه ما يدرك من أثر
الضرر والألم بما يدرك من طعم المر، والبشع. وأما اللباس فقد شبه به
لا شتماله على اللباس - ما غشى الإنسان، والتبس به من بعض الحوادث.
وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى
منهما، ويلابس؛ فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشاهم من الجوع، والخوف.

١١٢ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ
وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: في حال التباسهم بالظلم. قالوا: إنه القتل بالسيف يوم بدر.

١١٤ - رُوي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَجَّهَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فِي سَنِي الْقَحْطِ بِطَعَامٍ،
فَفَرَّقَ فِيهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَذَاقَهُمُ الْجُوعَ: ﴿فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾
عَلَى يَدَيِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ بَدَلًا عَمَّا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ حَرَامًا خَبِيثًا مِنْ
الْأَمْوَالِ الْمَأْخُوضَةِ بِالْغَارَاتِ، وَالْغُصُوبِ، وَخَبَائِثِ الْكُسُوبِ ﴿وَاشْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تَطِيعُونَ. أَوْ: إِنْ صَحَّ زَعْمُكُمْ أَنَّكُمْ تَعْبُدُونَ
اللَّهَ بِعِبَادَةِ الْآلِهَةِ؛ لِأَنَّهَا شَفَعَاؤُكُمْ عِنْدَهُ.

١١٥ - ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِمْ مُحَرَّمَاتِ اللَّهِ، وَنَهَايَهُمْ عَنْ تَحْرِيمِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمْ بِأَهْوَائِهِمْ
فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْذَّمَّ وَاللَّحْمَ الْخَازِرَ وَمَا آهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ﴾ إِنَّمَا لِلْحَصْرِ: أَي: الْمَحْرَمِ هَذَا
دُونَ الْبَحِيرَةِ وَأَخَوَاتِهَا. وَبَاقِي الْآيَةِ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُ.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ

١١٦- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ هو منصوب بلا تقولوا، أي: ﴿ولا تقولوا﴾ الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرم في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي، أو: إلى القياس المستنبط منه. واللام مثلها في قولك: لا تقولوا لما أحل الله هو حرام. وقوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب. ولك أن تنصب ﴿الكذب﴾ بـ«تصف» وتجعل ﴿ما﴾ مصدرية، وتعلق ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بـ«لا تقولوا»، أي: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام، وهذا لوصف ألسنتكم الكذب، أي: ولا تحرموا، ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجول في أفواهكم لا لأجل حجة وبيّنة، ولكن قول ساذج، ودعوى بلا برهان. وقوله: ﴿تصف ألسنتكم الكذب﴾ من فصيح الكلام، جعل قولهم كأنه عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته، وصوّرته بصورته، كقولك: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر. واللام في: ﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾.

١١٧- ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة، وعذابها عظيم.

١١٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، يعني: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرِ...﴾ الآية [١٤٦]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتحريم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم.

١١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ﴾ في موضع الحال، أي:

ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ

عملوا السوء جاهلين، غير متدبرين للعاقبة؛ لغلبة الشهوة عليهم، ومرادهم لذة الهوى، لا عصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ بتكفير ما كثروا قبل من الجرائم ﴿رَحِيمٌ﴾ بتوثيق ما وثقوا بعد العزائم.

١٢٠- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير، كقوله^(١):

ليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ
وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده، والناس كلهم كفار. أو: كان أمة بمعنى مأموم، يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ هو القائم بما أمره الله. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: إن معاذاً كان أمة، قانتاً لله. فقيل له: إنما هو إبراهيم - عليه السلام - فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وكان معاذ كذلك. وقال عمر - رضي الله عنه -: لو كان معاذ حياً لاستخلفته، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة. ومعاذ أمة الله، قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون»^(٢) ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان إلى ملة الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش، لزعمتهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم. وحذف النون للتشبيه بحروف اللين.

١٢١- ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ رُوي: أنه كان لا يتغذى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخّر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فخلتوا له أن بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/١٤٠).

(٢) الشاعر هو: أبو نواس.

أَجَبْنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكُم ﴿أَجَبْنَهُ﴾ اختصه، واصطفاه للنبوة ﴿وَهَدَنَهُ﴾ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى ملة الإسلام.

١٢٢- ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نبوة، وأموالاً، وأولاداً. أو: تنويه الله بذكره، فكل أهل دين يتولونه، أو: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم ﴿وَأِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ لمن أهل الجنة.

١٢٣- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في ﴿ثُمَّ﴾ تعظيم منزلة نبيتنا ﷺ، وإجلال محله، والإيدان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته.

١٢٤- ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: فرض عليهم تعظيمه، وترك الاصطياد فيه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ روي: أن موسى - عليه السلام - أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة، وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض، وهو السبت، إلا شذمة منهم قد رضوا بالجمعة. فهذا اختلافهم في السبت؛ لأن بعضهم اختاروه، وبعضهم اختاروا عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد، فمسخهم الله دون أولئك. وهو يحكم بينهم يوم القيامة، فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله.

١٢٥- ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ بالمقالة الصحيحة المحكمة، وهو: الدليل الموضح للحق، المزيل للشبهة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها، أو:

وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُتَّهِنِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

بالقرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة، وموعظة حسنة. أو: الحكمة: المعرفة بمراتب الأفعال، والموعظة الحسنة: أن يخلط الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق، واللين، من غير فظاظة. أو: بما يوقظ القلوب، ويعظ النفوس، ويجلو العقول. وهو ردّ على مَنْ يَأْبَى المناظرة في الدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَّهِنِينَ﴾ أي: هو أعلم بهم، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل.

١٢٦- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ سمي الفعل الأول عقوبة، والعقوبة هي الثانية؛ لازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سِنِينَ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالثانية ليست بسنة. والمعنى: إن صنع بكم صنع سوء من قتل، أو: نحوه، فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه. روي: أَنَّ المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبي عليه الصلاة والسلام حمزة مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك» فنزلت. فكفر عن يمينه وكف عما أَرَادَهُ^(١). ولا خلاف في تحريم المثلة؛ لورود الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ الضمير في ﴿لهو﴾ يرجع إلى مصدر ﴿صبرتم﴾. والمراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم؛ لأنهم صابرون على الشدائد. ثم قال لرسول الله ﷺ:

١٢٧- ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أنت، فعزم عليه بالصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه، وتبليته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكفار أن لم يؤمنوا، وعلى المؤمنين،

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٤٢).

وَلَا تَلُفْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
تُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

وما فعل بهم الكفار، فإنهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿وَلَا تَلُفْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: ﴿ضَيْقٌ﴾ مكِّي. والضيق تخفيف الضيق، أي: في أمر ضيق. ويجوز أن يكونا مصدرين، كالقليل والقول، والمعنى: ولا يضيقتن صدرك من مكرهم، فإنه لا ينفذ عليك.

١٢٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ تُحْسِنُونَ﴾ أي: هو ولي الذين اجتنبوا السيئات، وولي العاملين بالطاعات. قيل: من اتقى في أفعاله، وأحسن في أعماله، كان الله معه في أحواله. ومعنيته: نصرته في المأمور، وعصمته في المحذور.

* * *

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

١ - ﴿سُبْحَنَ﴾ تنزيه الله عن سوء، وهو علم للتسييح، كعثمان للرجل. وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله ﴿سبحان﴾. ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسدّ مسدّه، ودلّ على التنزيه البليغ ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ. وسرى وأسرى لغتان ﴿لَيْلًا﴾ نصب على الظرف. وقيده بالليل. والإسراء لا يكون إلا بالليل للتأكيد، أو: ليدلّ بلفظ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب. والمراد بالمسجد الحرام: الحرم؛ لإحاطته بالمسجد، والتباسه به. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: الحرم كله مسجد. وقيل: هو المسجد الحرام بعينه. وهو الظاهر. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق، وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة»^(١). وكان العروج به من بيت المقدس. وقد أخبر قريشاً عن غيرهم، وعدد جمالها، وأحوالها، وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٠٨ - ٢٠٩) والبخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي
وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

العجائب، وأنه لقي الأنبياء - عليهم السلام - وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى. وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكان في اليقظة. وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عُرج بروحه^(١). وعن معاوية مثله. وعلى الأول الجمهور، إذ لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ هو بيت المقدس، لأنه لم يكن حيثئذ وراءه مسجد ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء - عليهم السلام - ومهبط الوحي. وهو مخفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدانية الله، وصدق نبوته برؤيته السموات وما فيها من الآيات ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿الْبَصِيرُ﴾ بالأفعال. ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم، فقليل: ﴿أَسْرَى﴾ ثم ﴿بَارَكْنَا﴾ ثم ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ وهي طريقة الالتفات، التي هي من طرق البلاغة.

٢ - ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب، وهو: التوراة ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي: لا تتخذوا. وبالباء: أبو عمرو. أي: لئلا يتخذوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ رياً تكونون إليه أموركم.

٣ - ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص، أو: على النداء فيمن قرأ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ بالناء على النهي. أي: قلنا لهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ يا ذرية من حملنا مع نوح ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن نوحاً - عليه السلام - ﴿كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ في السراء والضراء - والشكر: مقابلة النعمة بالشاء على المنعم. روي: أنه كان لا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس إلا قال: الحمد لله - وأنتم ذرية من آمن به، وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم، كما جعله آباؤكم أسوتهم. وآية

(١) قال الحافظ: قال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة بهذا. (حاشية الكشف ٢ / ٦٤٧).

وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

رشد الأبناء: صحّة الاقتداء بسنة الآباء. وقد عرفتم حال الآباء هنالك، فكونوا
أيها الأبناء كذلك.

٤ - ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ وأوحينا إليهم وحيًا
مقضيًا، أي: مقطوعًا مبتوتًا بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة. والكتاب:
التوراة. و﴿لتفسدن﴾ جواب قسم محذوف. أو: جرى القضاء المبتوت مجرى
القسم، فيكون ﴿لتفسدن﴾ جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا ﴿لتفسدن﴾ في
الأرض ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: قتل زكريا - عليه السلام - وحبس أرمياء - عليه
السلام - حين أنذرهم سخط الله، والأخرى: قتل يحيى بن زكريا - عليهما
السلام - وقصد قتل عيسى - عليه السلام - ﴿وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولتستكبرن
عن طاعة الله، من قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. والمراد
به: البغي، والظلم، وغلبة المفسدين على المصلحين.

٥ - ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: وعد الله عقاب أولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾
سلطنا عليكم ﴿عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أشداء في القتال، يعني: سنحارب
وجنوده، أو: بختنصر، أو: جالوت. قتلوا علماءهم، وأحرقوا التوراة،
وخربوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ تردّدوا للغارة
فيها. قال الزجاج: الجوس: طلب الشيء بالاستقصاء ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾
وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل.

٦ - ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي: الدولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بعثوا
عليكم حين تبتم، ورجعتم عن الفساد، والعلو. قيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ
بني إسرائيل أسراهم، وأموالهم، ورجوع الملك إليهم. وقيل: أعدنا لكم الدولة
بملك طالوت، وقتل داود جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا﴾ مما كنتم. وهو تمييز، جمع نفر، وهو: من ينفر مع الرجل من قومه.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا
تَنْبِيْرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ
هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

٧ - ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ قيل: اللام بمعنى على، كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والصحيح: أنها على بابها، لأن اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة. يعني: أن الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن عليّ - رضي الله عنه -: ما أحسنت إلى أحد، ولا أسأت إليه، وتلاها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد المرة الآخرة بعثناهم ﴿لِيَسْتَوْفُوا﴾ أي: هؤلاء ﴿وُجُوهَكُمْ﴾. وحذف لدلالة ذكره أولاً عليه، أي: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكتابة فيها، كقوله: ﴿سَيَبْتَ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧] ﴿ليسوء﴾: شامي، وحمزة، وأبو بكر. والضمير لله عز وجل، أو: للوعد، أو: للبعث. ﴿لنسوء﴾: عليّ ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا تَنْبِيْرًا﴾ «ما علوا» مفعول «ليتبرأوا» أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه، واستولوا عليه. أو: بمعنى مدة علوهم.

٨ - ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى، وانزجرت عن المعاصي ﴿وَلِنْ عُدتُمْ﴾ مرة ثالثة ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم. وقد عادوا، فأعاد الله عليهم النعمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الإتاوة عليهم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: سُلِّطَ عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً. يقال للسجن: محصر، وحصير.

٩ - ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات، وأسدها، وهي: توحيد الله، والإيمان برسله، والعمل بطاعته، أو: للملة، أو: للطريقة ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿وَيُبَشِّرُ﴾: حمزة، وعليّ ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: الجنة.

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحُونًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ

١٠ - ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾ وبأن الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا - قلبت تاء - ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني: النار. والآية ترد القول بالمتزلة بين المنزلتين، حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم، ولم يذكر الفسقة.

١١ - ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: ويدعو الله عند غضبه بالشَّرِّ على نفسه، وأهله، وماله، وولده، كما يدعو لهم بالخير. أو: يطلب النفع العاجل - وإن قل - بالضرر الآجل - وإن جل - ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه، ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأني المتبصر. أو: أريد بالإنسان: الكافر، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء، ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يعني: أنَّ العذاب آتية لا محالة، فما هذا الاستعجال؟. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو النضر بن الحارث قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، فأجيب، فضربت عنقه صبراً. وسقوط الواو من ﴿يدع﴾ في الخط على موافقة اللفظ.

١٢ - ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحُونًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعداد، أي: ﴿فمحونا﴾ الآية التي هي الليل ﴿وجعلنا﴾ الآية التي هي النهار ﴿مبصرة﴾. أو: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، يريد: الشمس والقمر ﴿فمحونا آية الليل﴾، التي هي القمر، حيث لم يخلق له شعاعاً كشعاع الشمس، فترى الأشياء به رؤية بيّنة ﴿وجعلنا﴾ الشمس ذات شعاع، يبصر في ضوئها كل شيء؛ ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في معاشكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ باختلاف الجديدين ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ يعني: حساب الآجال، ومواسم الأعمال. ولو كانا مثليين لما عرف الليل من النهار، ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مما تفتقرون إليه في

فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٧﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْضِهِ وَنُخْرِجُهُ لَوِّ يَوْمِ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٨﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٩﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

دينكم وديناكم ﴿فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ بيناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا.

١٣- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ﴾ عمله ﴿فِي عُرْضِهِ﴾ يعني: أن عمله لازم له لزوم القلادة، أو: الغلّ للعنق لا يفك عنه ﴿وَنُخْرِجُهُ لَوِّ يَوْمِ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ﴾ هو صفة لـ «كتاباً» ﴿يَلْقَاهُ﴾: شامي ﴿مَنشُورًا﴾ حال من ﴿يلقاه﴾ يعني: غير مطويّ ليتمكنه قراءته. أو: هما صفتان للكتاب. ونقول له:

١٤- ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ أي: كتاب أعمالك. وكلّ يُبْعَثُ قارئاً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ﴾ الباء زائدة، أي: كفى نفسك ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز. وهو بمعنى حاسب. و«على» متعلق به، من قولك: حسب عليه كذا، أو: بمعنى الكافي. وضع موضع الشهيد، فعدي بعل؛ لأنّ الشاهد يكفي المدعي ما أهمه. وإنّما ذكر ﴿حَسِيبًا﴾ لأنّه بمنزلة الشهيد، والقاضي، والأمير، إذ الغالب أن يتولّى هذه الأمور الرجال، فكانه قيل: ﴿كَفَىٰ﴾ نفسك رجلاً ﴿حَسِيبًا﴾. أو: تؤوّل النفس بالشخص.

١٥- ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فلها ثواب الاهتداء، وعليها وبال الضلال ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: كلّ نفس حاملة وزراً فإنّما تحمل وزرها، لا وزر نفس أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وما صحّ منا أن نعذب قوماً عذاب استئصال في الدنيا، إلّا بعد أن نرسل إليهم رسولا يلزمهم الحجّة.

١٦- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبايرتها بالطاعة، عن أبي عمرو، والزجاج ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الأمر، كقولك: أمرته فعصى. أو: ﴿أَمَرْنَا﴾ كثّرنا، دليله قراءة يعقوب

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

﴿آمرنا﴾ ومنه الحديث: «خيرُ المالِ سَكَّةُ مَيبُورَةٌ أوْ مَهْرَةٌ مَأمُورَةٌ»^(١) أي: كثيرة النسل ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ فأهلكناها إهلاكاً.

١٧- ﴿وَكَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان لـ ﴿كَمْ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يعني: عاداً، وثمود، وغيرهما ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها السطور.

١٨- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ لا ما يشاء ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ بدل من ﴿له﴾ بإعادة الجاز. وهو بدل البعض من الكل؛ إذ الضمير يرجع إلى ﴿مَنْ﴾، أي: مَنْ كانت العاجلة همّة، ولم يرد غيرها، كالكفرة، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد. فقيد المعجل بمشيئته، والمعجل له بإرادته. وهكذا الحال؛ ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون، ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة. وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة، فإن أوتي حظاً من الدنيا فيها، وإلا فربما كان الفقر خيراً له ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا﴾ ممقوتاً ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله.

١٩- ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ - هو مفعول به - أي: حقها من السعي، وكفائها من الأعمال الصالحة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق لله في وعده ووعيده ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ مقبولاً عند الله، مثاباً عليه. عن بعض السلف: مَنْ لم يكن معه ثلاثٌ لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة،

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٦٨) والطبراني (٦٤٧٠ و ٦٤٧١) والبخاري في التاريخ الكبير (١٤٤/ ٢/ ٢) والقضاعي في مسند الشهاب (٧٧٨).

كُلًّا نُمِذْ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا

وعمل مُصِيب. وتلا الآية. فإنه شرط فيها ثلاث شرائط: في كون السعي مشكوراً بإرادة الآخرة، والسعي فيما كلف، والإيمان الثابت.

٢٠ - ﴿كُلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتونين عوض عن المضاف إليه، وهو منصوب بقوله: ﴿نُمِذْ هَتُولَاءِ﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾، أي: نمد هؤلاء ﴿وَهَتُولَاءِ﴾ أي: من أراد العاجلة، ومن أراد الآخرة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ رزقه. و﴿من﴾ تتعلق بنمذ. والعطاء: اسم للمعطى، أي: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً عن عباده وإن عصوا.

٢١ - ﴿أَنْظِرْ﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في المال، والجاه، والسعة، والكمال ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ روي: أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر - رضي الله عنه - فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دُعوا ودُعينا - يعني: إلى الإسلام - فأسرعوا، وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة؟! ولئن حسدتموه على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر.

٢٢ - ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به: أمته ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُورًا﴾ فتصير جامعاً على نفسك الذم، والخذلان. وقيل: مشتوماً بالإهانة، محروماً عن الإعانة؛ إذ الخذلان ضد النصر والعون. دليله: قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠] حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر.

٢٣ - ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ﴿أَنْ﴾ مفسرة و﴿لا تعبدوا﴾ نهي، أو: بالآ تعبدوا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ

بالوالدين إحساناً، أو: بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ «إمّا» هي: إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها؛ ولذا أدخلت النون المؤكدة في الفعل. ولو أفردت «إن» لم يصح دخولها. لا تقول: إن تكرمّن زيداً يكرمك، ولكن: إمّا تكرمته ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل ﴿يَبْلُغَنَّ﴾. وهو في قراءة حمزة وعليّ: (يبلغان)، بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً، وبدلاً ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ﴾ مدنيّ، وحفص. ﴿أَفْ﴾: مكّي، وشاميّ ﴿أَفْ﴾: غيرهم. وهو صوت يدل على تضجّر. فالكسر على أصل التقاء الساكنين، والفتح للتخفيف، والتنوين لإرادة التنكير، أي: أنضجّر تضجّراً. وتركه لقصد التعريف، أي: أنضجّر التضجّر المعلوم ﴿وَلَا تَنْهَرَهُمَا﴾ ولا تزجرهما عمّا يتعاطيانه مما لا يعجبك. والنهي والنهر أخوان ﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾ بدل التأنيف، والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً ليتأ كما يقتضيه حسن الأدب، أو: هو أن يقول يا أبتاه! يا أمّاه! ولا يدعوها بأسمائهما فإنه من الجفاء. ولا بأس به في غير وجهه، كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: نحلني أبو بكر كذا. وفائدة: ﴿عِنْدَكَ﴾ أنهما إذا صارا كلاً على ولدهما، ولا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشقّ عليه، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتّى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما: أف، فضلاً عمّا يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما؛ حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثمّ ضيق الأمر في مراعاتهما حتّى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجّر مع موجبات الضجر، ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها.

٢٤- ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ﴾ أي: اخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] فأضافه إلى الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود. والمعنى: واخفض لهما جناحك الذليل ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ زَيْكُمُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيْبِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْيَتَامَى وَالسَّبِيلَ وَلَا بُدَّرَ

إليهما بالأمر. وقال الزجاج: وألن جانبك متذللًا لهما من مبالغتك في الرحمة لهما ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما رحمة الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتكما عليك في صغرك، وتربيتكما لك. والمراد بالخطاب غيره عليه الصلاة والسلام. والدعاء مختص بالأبوين المسلمين. وقيل: إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية. وعن النبي ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»^(١). وروى: «يفعل البار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما شاء أن يفعل فلن يدخل الجنة»^(٢). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين فإن الجنة يوجد ربحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ربحها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء. إن الكبرياء لله رب العالمين»^(٣).

٢٥- ﴿زَيْكُمُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ بما في ضمائرهم من قصد البر إلى الوالدين، ومن النشاط والكرامة في خدمتهما ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر هنة تؤدي إلى أذاهما، ثم أنتم إلى الله، واستغفرتن منها ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيْبِ غَفُورًا﴾ الأبواب: الذي إذا أذنب بادر إلى التوبة. فجاز أن يكون هذا عامًّا لكل من فرطت منه جنابة، ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه، التائب من جنابته لوروده على أثره.

٢٦- ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ مِنْكَ حَقَّهُ﴾، أي: النفقة إذا كانوا محارم فقراء ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ﴾ أي: ﴿وَأَتِ﴾ هؤلاء حقهم من الزكاة ﴿وَلَا بُدَّرَ﴾

(١) رواه الترمذي (١٨٩٩).

(٢) قال الحافظ: رواه الثعلبي. (حاشية الكشف ٢/ ٦٥٩).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٥/٥).

تَبَذِرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾

تَبَذِرًا ﴿٢٦﴾ ولا تسرف إسرافاً. قيل: التبذير: تفريق المال في غير الحلّ والمحلّ. فعن مجاهد: لو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً. وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير.

٢٧- ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة، وهي: غاية المذمة؛ لأنه لا شرّ من الشيطان، أو: هم إخوانهم، وأصدقاؤهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ فما ينبغي أن يُطاع، فإنه لا يدعو إلّا إلى مثل فعله.

٢٨- ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياءً من الردّ ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك - فسمّى الرزق: رحمة - فردّهم ردّاً جميلاً. فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء، والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبّب موضع السبب. يقال: يُسر الأمر وعُسر، مثل: سَعِدَ الرجل ونَحِسَ، فهو مفعول. وقيل معناه: ﴿فَقُلْ لَهُمْ﴾ رزقنا الله وإياكم من فضله، على أنّه دعاء لهم يسرّ عليهم فقرهم، كأنّ معناه: قولاً ذا ميسور، وهو: اليسر، أي: دعاء فيه يسر. و﴿ابتغاء﴾ مفعول له، أو: مصدر في موضع الحال. و﴿ترجوها﴾ حال.

٢٩- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ نصب على المصدر لإضافته إليه. وهذا تمثيلٌ لمنع الشحيح، وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ﴿ملوماً﴾ عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضيّ عنده وعند الناس - يقول الفقير: أعطى فلاناً وحرمني، ويقول الغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة - وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿مَحْسُورًا﴾ منقطعاً بك، لا شيء عندك، من: حسر السفر: إذا أثر فيه أثراً بليغاً، أو: عارياً، من: حسر رأسه. وقد خاطرت مسلمة ضرّتها

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانَتْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا
 أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْتُمْ تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا
 الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْجَسَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ

اليهودية في أنه - يعني: محمداً ﷺ - أجود من موسى عليه السلام، فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذي عليه فدفعه وقعد عريانا، فأقيمت الصلاة، فلم يخرج للصلاة. فتزلت^(١).

٣٠- ثم سلى رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضاعة، بأن ذلك ليس لهوان منك عليه، ولا لبخل به عليك، ولكن لأن بسط الأرزاق وقدرها مفوض إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فليس البسط إليك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو يضيّق، فلا لوم عليك ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا﴾ بمصالحهم، فيمضيها ﴿بَصِيرًا﴾ بحوائجهم، فيقضيها.

٣١- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ قتلهم أولادهم: وأدهم بناتهم ﴿خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْتُمْ﴾ فقر ﴿تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ نهاهم عن ذلك، وضمن أرزاقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ إثماً عظيماً. يقال: خطيء خطأ، كائم إثماً. ﴿خِطْأً﴾: شامي. وهو ضد الصواب، اسم من أخطأ. وقيل: هو والخطء، كالحذر والحذر. (خِطَاء) بالمد والكسر: مكّي.

٣٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ﴾ القصر فيه أكثر. والمد لغة. وقد قرئ به. وهو نهى عن دواعي الزنى؛ كالمن، والقبلة، ونحوهما. ولو أريد النهي عن نفس الزنى لقال: ولا تزنا ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ فَرْجَسَةً﴾ معصية مجاوزة حد الشرع والعقل ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقه.

٣٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بارتكاب ما يبيح الدم ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مرتكب ما يبيح الدم ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ الضمير للولي، أي: فلا

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٩٤).

إِنَّكُمْ كَانُمْ مِنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة أهل الجاهلية. أو: الإسراف: المثلة. أو: الضمير للقاتل الأول. ﴿فلا تسرف﴾: حمزة، وعلي، على خطاب الولي، أو: قاتل المظلوم ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ مِنْصُورًا﴾ الضمير للولي، أي: حسبه أن الله قد نصره، بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك، أو: للمظلوم، أي: الله ناصره، حيث أوجب القصاص بقتله، وينصره في الآخرة بالثواب، أو: للذي يقتله الولي بغير حق، ويسرف في قتله، فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرف. وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي؛ لأن أنفس أهل الذمة والعبيد داخلة في الآية؛ لكونها محرمة.

٣٤- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة والطريقة التي هي أحسن، وهي: حفظه، وتشميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: ثماني عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ بأوامر الله تعالى، ونواهيهِ ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً، يطلب من المعاهد ألا يضيعه، ويفي به. أو: إن صاحب العهد كان مسؤولاً.

٣٥- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾^(١) وبكسر القاف: حمزة، وعلي، وحفص. وهو كل ميزان صغير، أو كبير من موازين الدراهم وغيرها، وقيل: هو القرسطون، أي: القبان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ المعتدل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة. وهو تفعليل، من: آل؛ إذا رجع، وهو: ما يؤول إليه.

٣٦- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا تتبع ما لم تعلم، أي: لا تقل: رأيت، وما رأيت، وسمعت، وما سمعت. وعن ابن الحنفية: لا تشهد بالزور. وعن ابن عباس: لا ترم أحداً بما لا تعلم. ولا يصح الثبوت به لبطل

(١) في الأصل المخطوط: (بِالْقِسْطَاسِ) بضم القاف، وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبي عمرو، وعاصم، وحمزة، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/٣٢٠).

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

الاجتهاد؛ لأن ذلك نوع من العلم ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنِينَ﴾ [المتحنة: ١٠] وأقام الشارع غالب الظنّ مقام العلم، وأمر بالعمل به كما في الشهادات. ولنا في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ «أولئك» إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد؛ لأنّ «أولئك» كما يكون إشارة إلى العقلاء، يكون إشارة إلى غيرهم، كقول جرير:

ذمّ المنازلَ بعد منزلة اللّوى والعيشَ بعد أولئك الأيّام

و﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية، أي: كلّ واحد منها كان مسؤولاً عنه. فمسؤول مسند إلى الجارّ والمجرور، كالمغضوب في: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يقال للإنسان: لم سمعتَ ما لم يحلّ لك سماعه؟ ولم نظرتَ إلى ما لم يحلّ لك النظر إليه؟ ولم عزمتَ على ما لم يحلّ لك العزم عليه؟ كذا في «الكشاف». وفيه نظرٌ لبعضهم، لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخرا عن الفعل، فأما إذا تقدّما فلا.

٣٧- ﴿وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو حال، أي: ذا مرح ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها، وشدة وطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهوتكم بالمختال. أو: لن تحاذيها قوة. وهو حال من الفاعل، أو: المفعول.

٣٨- ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ كوفي، وشاميّ على إضافة سيّء إلى ضمير ﴿كُلِّ﴾. ﴿سَيِّئُهُ﴾: غيرهم ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ذكر ﴿مَكْرُوهًا﴾ لأن السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه. ألا تراك تقول: الزنى سيئة، كما تقول: السرقة سيئة. فإن قلت: الخصال المذكورة بعضها سيّء، وبعضها حسن. ولذلك قرأ من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ بالإضافة - أي: ما كان من المذكور سيّئاً كان عند الله مكروهاً - فما وجه قراءة من قرأ

ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

﴿سَيِّئَةٌ؟﴾ قلت: ﴿كل ذلك﴾ إحاطة بما نهى عنه خاصة، لا بجميع الخصال المعدودة.

٣٩- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ إلى هذه الغاية ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ مما يحكم العقل بصحته، وتصلح النفس بأسوته ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من الرحمة.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى - عليه السلام - أولها: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ وآخرها: ﴿مدحوراً﴾. ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها، ومن عديمه لم تنفعه حكمة، وإن بذ فيها الحكماء، وحك بيافوخه السماء. وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضلّ من النعم.

٤٠- ثم خاطب الذين قالوا: الملائكة بنات الله بقوله: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ الهمزة للإنكار. يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم البنون ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ واتخذ أدونهم، وهي البنات؟ وهذا خلاف الحكمة، وما عليه معقولكم. فالعبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاهها، ويكون أردوها وأدونها للسادات! ﴿إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ حيث أضفتم إليه الأولاد، وهي: من خواص الأجسام، ثم فصلتم عليه أنفسكم، حيث يجعلون له ما تكرهون.

٤١- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: التنزيل. والمراد: ولقد صرّفناه، أي: هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير؛ لأنه معلوم ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ وبالتخفيف: حمزة، وعلي، أي: كررناه ليتعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

وكان الثوري إذا قرأها يقول: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

٤٢- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ﴾ مع الله. ﴿آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾^(١) وبالباء: مكّي، وحفص ﴿إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يعني: لطلبوا إلى من له الملك والربوبية ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو: لتقربوا إليه، كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. و﴿إِذَا﴾ دالة على أن ما بعدها وهو ﴿لا تبتغوا﴾ جواب عن مقالة المشركين، وجزاء لـ «لو».

٤٣- ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وبالتاء: حمزة، وعلي ﴿عُلُوًّا﴾ أي: تعالياً. والمراد: البراءة من ذلك، والتزاهة ﴿كَبِيرًا﴾ وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة، والبعد ممّا وصفوه به.

٤٤- ﴿تُسَبِّحُ﴾^(٢) وبالتاء: عراقي غير أبي بكر ﴿لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: يقول: سبحان الله وبحمده. عن السدي. قال عليه السلام: «ما اصطيد حوت في البحر، ولا طائر يطير إلا بما يضيّع من تسبيح الله تعالى»^(٣) ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لاختلاف اللغات، أو: لتعسر الإدراك. أو: سبب لتسبيح الناظر إليه، والدالّ على الخير كفاعله. والوجه الأول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا﴾ عن جهل العباد ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب المؤمنين.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿تقولون﴾. وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، ورويس، والأعمش. معجم القراءات القرآنية (٣/٣٢٤).

(٢) في الأصل المخطوط: ﴿يُسَبِّحُ﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبي جعفر، ورويس، وابن محيصن. معجم القراءات القرآنية (٣/٣٢٥).

(٣) رواه أبو نعيم كما في كثر العمال (١٩١٩)، وانظر: الدر المنثور (٥/٢٩١).

وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾
 وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثْ
 وَلَوْ عَلَىٰ أَذُنٍ مِّنْهُمْ نَفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ
 يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَوَّارًا لَّمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٤٥ - ﴿ وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ ذا
 ستر، أو: حجاباً لا يرى، فهو مستور.

٤٦ - ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ جمع كنان، وهو: الذي يستر الشيء ﴿ وَأَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ نقلاً يمنع عن الاستماع ﴿ وَلِذَا ذُكِّرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثْ ﴾ يقال: وحد يحد وحداً وحدة، نحو: وعد يعد وعداً وعدة. فهو مصدر سدّ مسدّ الحال. أصله: يحد وحده بمعنى واحداً ﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَذُنٍ مِّنْهُمْ ﴾ رجعوا على أعقابهم ﴿ نَفُورًا ﴾ مصدر بمعنى التولية، أو: جمع نافر، كقاعد وقعود. أي: يحبّون أن تذكر معه آلهتهم؛ لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا.

٤٧ - ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ أي: نحن أعلم بالحال، أو الطريقة التي يستمعون القرآن بها. فالقرآن هو المُستمع، وهو محذوف. ﴿ وَبِهِ ﴾ حال، وبيان لـ «ما»، أي: يستمعون القرآن هازئين لا جادين، والواجب عليهم أن يستمعوه جادين ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ نصب بأعلم، أي: ﴿ أَعْلَمُ ﴾ وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ وبما يتناجون به ﴿ إِذْ هُمْ ﴾ ذوو ﴿ نَجْوَىٰ ﴾ ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ بدل من ﴿ إِذْ هُمْ ﴾ ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ سحر فجنّ.

٤٨ - ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ مثلك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي: ﴿ فَضَلُّوا ﴾ في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره، لا يدري ما يصنع.

٤٩ - ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي: منكرو البعث ﴿ آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَوَّارًا لَّمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي: مجدداً. ﴿ وَخَلَقًا ﴾ حال، أي: مخلوقين.

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۖ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ لِأَعْيُنِهِمْ فَتَنْظُنُونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّا الشَّيْطَانُ كَانُ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۖ ﴿٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُم ۖ ﴾

٥٠، ٥١- ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾
 أي: السموات والأرض، فإنها تكبر عندكم عن قبول الحياة ﴿ فَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾. والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة بعد ما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائرته، فليس بدع أن يردّها الله بقدرته إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة، أو حديدًا، لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿ فَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ فسيحركونها نحوكم تعجباً، واستهزاء ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي: هو قريب. وعسى للوجوب.

٥٢- ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى المحاسبة، وهو يوم القيامة ﴿ فَتَسْجُدُ لِأَعْيُنِهِمْ ﴾
 أي: تحييون حامدين. والباء للحال. عن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿ وَتَنْظُنُونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: لبثاً قليلاً أو: زماناً قليلاً في الدنيا، أو: في القبر.

٥٣- ﴿ وَقُلْ لِّعِبَادِي ﴾ وقل للمؤمنين ﴿ يَقُولُوا ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وألين، ولا يخاشنوهم، وهي أن يقولوا: يهديكم الله ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ يُلقي بينهم الفساد، ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشاقة. والنزغ: إيقاع الشر، وإفساد ذات البين. وقرأ طلحة: ﴿ يَنْزِعُ ﴾ بالكسر. وهما لغتان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانُ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ ظاهر العداوة.

٥٤- أو فسر ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بقوله: ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُم ۖ ﴾

أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ

بالهداية والتوفيق ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالخذلان، أي: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما يغيظهم، ويهيجهم على الشر. وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ اعتراض ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً لأعمالهم، وموكلواً إليك أمرهم. وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم، ومُر أصحابك بالمداواة.

٥٥- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم، وبكل ما يستأهل كل واحد منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله، وأنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم. لأن ذلك مكتوب في زبور داود. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمته. ولم يعرف الزبور هنا، وعرفه في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ لأنه كالعباس وعباس، والفضل وفضل.

٥٦- ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنها آلهتهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله. وهم الملائكة، أو: عيسى، وعزير، أو نفر من الجن عبدتهم ناس من العرب، ثم أسلم الجن، ولم يشعروا ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ادعوه، فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض، أو فقر، أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر.

٥٧- ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة، أي: يدعونهم آلهة، أو: يعبدونهم. والخبر ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة، وهي القربة إلى الله عز وجل ﴿أَيُّهُمْ﴾ بدل من واو ﴿يَبْتَغُونَ﴾ و﴿أَيَّ﴾ موصولة، أي: يبتغي من هو ﴿أَقْرَبُ﴾ منهم الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب؟ أو: ضمن يبتغون ﴿الوسيلة﴾ معنى يحرصون، فكانه قيل:

وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعْذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

يحرصون ﴿أيهم﴾ يكون ﴿أقرب﴾ إلى الله، وذلك بالطاعة، وازدياد الخير ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنهم الهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب، ونبي مرسل، فضلاً عن غيرهم.

٥٨ - ﴿وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعْذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: الهلاك للصالحه، والعذاب للطالحه ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً. وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها: أما مكّة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجلال بالصواعق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب، وأما بلخ فتصيبهم هذة فيهلك أهلها، وأما بدخشان فيخربها أقوام، وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون، وأما صغانيان إلى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع، وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء، فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً، وكذا فرغانة، والشاش، وأسبيجاب، وخوارزم. وأما بخارى فهي أرض الجابرة، فيموتون قحطاً وجوعاً، وأما مرو فيغلب عليها الرمل، ويهلك بها العلماء والعباد، وأما هراة فيمطرون بالحيات فتأكلهم أكلاً، وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد، وبرق، وظلمة، فيهلك أكثرهم. وأما الري فيغلب عليها الطبرية، والديلم، فيقتلونهم. وأما أرمينية وأذربيجان فيهلكها سناك الخيول، والجيش، والصواعق، والرواجف. وأما همذان فالديلم يدخلها، ويخربها. وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة، وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير، ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر، فويل لأهلها ولأهل دمشق، وويل لأهل إفريقية، وويل لأهل الرملة، ولا يدخل بيت المقدس. وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياًماً، ثم هذة تأتيهم، ويموت فيها العلماء. وأما كرمان وأصبهان وفارس

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَايَاتُنَا شُودُ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً
فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ
وَمَا جَعَلْنَا الرُّمْيَا الَّتِي أَرَبْتُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ

فيأتيهم عدو، وصاحوا^(١) صيحة تنخلع [لها] القلوب، وتموت الأبدان^(٢).

٥٩ - ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ استعير المنع لترك إرسال الآيات، و﴿أَنْ﴾ الأولى مع صلتها في موضع النصب؛ لأنها مفعول ثان لـ «منعنا». و﴿أَنْ﴾ الثانية مع صلتها في موضع الرفع؛ لأنها فاعل ﴿منعنا﴾. والتقدير: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين. والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى، وغير ذلك. وسنة الله في الأمم أَنَّ من اقترح منهم آية، فأجيب إليها، ثم لم يؤمن، أن يعاجل بعذاب الاستئصال. والمعنى: وما منعنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أَنْ كَذَّبَ بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم، كعاد، وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك، وعذبوا العذاب المستأصل. وقد حكمنا أن نؤخر أمر من بُعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون، ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا، واحدة. وهي ناقة صالح - عليه السلام - لأن آثار هلاكهم قرية من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. فقال: ﴿وَأَيْنَا شُودُ النَّاقَةِ﴾ باقتراحهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة، فالمعنى: لا نرسلها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة، والمقدمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: ﴿وما نرسل﴾ ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وإنذاراً بعذاب الآخرة. وهو مفعول له.

٦٠ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّمْيَا الَّتِي أَرَبْتُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾

(١) كذا في الأصل، وما بين قوسين سقط منه.

(٢) هذا الخبر رواه مقاتل بن سليمان المفسر، وهو متهم بالكذب، وينقل عن أهل الكتاب، وقيل: إنه لم يلق الضحّاك. ميزان الاعتدال (١٧٣/٤).

وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾

وأذكر إذ أوحينا إليك أنَّ ربك أحاط بقريش علماً وقدره، فكلهم في قبضته، فلا تبال بهم، وامض لأمرك، وبلغ ما أرسلت به. أو: بشرناك بوقعة بدر، وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿سَيَهْرُمُ الْبَطْنُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ﴿قُلْ لِلَّهِ يَكْفُرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] فجعله كأن قد كان، ووجد، فقال: ﴿أحاط بالناس﴾ على سنته في أخباره. ولعلَّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: «والله لكأن أنظرُ إلى مصارع القوم»^(١) وهو يؤمى إلى الأرض، ويقول: «هذا مصرع فلان». فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أمر بدر، وما أرى في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون، ويسخرون، ويستعجلون به استهزاء ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي: ﴿و﴾ ما جعلنا ﴿الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ؛ فإنهم حين سمعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ طَعَامُ الْإِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤] جعلوها سخرية، وقال: إنَّ محمداً يزعم أنَّ الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول: تنبت فيها الشجرة. ﴿وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره﴾ إذ قالوا ذلك فإنه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار، فوبر السمندل - وهو دويبة ببلاد الترك - يتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار، فذهب الوسخ، وبقي المنديل سالماً، لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها. وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى: أنَّ الآيات إنما تُرسل تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر، وخوفوا بعذاب الآخرة، وبشجرة الزقوم، فما أثر فيهم. ثم قال: ﴿وَخَوْفُهُمْ﴾ أي: بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات؟

وقيل: الرؤيا هي الإسراء، والفتنة: ارتداد من استعظم ذلك. وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام. ومن قال: كان في اليقظة، فسر الرؤيا

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

بالرؤية. وإنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها، استبعاداً منهم، كما سُمي أشياء بأساميتها عند الكفرة، كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ﴾ [الصفات: ٩١] ﴿أَنْ شُرَكَاءَ كُفٍّ﴾ [النحل: ٢٧]. أو هي رؤيا أنه سيدخل مكة. والفتنة: الصد بالحديبية. فإن قلت: ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم؟ قلت: معناه: والشجرة الملعون آكلها، وهم الكفرة، لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ مِنْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذَّبُونَ﴾ ﴿لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ﴾ ﴿فَالَّذِينَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣]. فوصفت بلعن أهلها على المجاز. ولأن العرب تقول لكل طعام مكروه ضار: ملعون، ولأن اللعن هو: الإبعاد من الرحمة. وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة.

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ هو تمييز، أو حال من الموصول. والعامل فيه: ﴿أَسْجُدُ﴾ على ﴿أَسْجُدُ﴾ له وهو طين، أي: أصله طين.

٦٢- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي﴾ الكاف لا موضع لها، لأنها ذكرت للخطاب تأكيداً. ﴿هَذَا﴾ مفعول به. والمعنى أخبرني عن هذا الذي ﴿كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضلته لم كرمته علي، و﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]؟ فحذف ذلك اختصاراً للدلالة ما تقدم عليه، ثم ابتداء فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾^(١) وبلا ياء: كوفي، وشامي. واللام موطنه للقسم المحذوف ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ لاستأصلتهم بإغوائهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم: المخلصون. قيل: من كل ألف واحد. وإنما علم الملعون ذلك بالإعلام، أو: لأنه رأى أنه خلق شهواني.

(١) في الأصل المخطوط (أخترتني). وهي قراءة: ابن كثير، ويعقوب، وابن محيصن، في حالتي الوصل والوقف. معجم القراءات القرآنية (٣/٣٢٩).

قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ
أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ

٦٣ - ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء، وإنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخليّة، ثم عقبه بذكر ما جزه سوء اختياره، فقال: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ والتقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك. ثم غلب المخاطب على الغائب ف قيل: ﴿جزاؤكم﴾ وانتصب ﴿جزاء مَوْفُورًا﴾ أي: موفراً بإضمار تجازون.

٦٤ - ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ استزَلَّ، أو: استخَفَّ. استفزّه، أي: استخفّه. والفرّ: الخفيف ﴿مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ بالوسوسة، أو: بالغناء، أو: بالزمّار ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ﴾ أجمع، وصح بهم. من الجلبة، وهو: الصياح ﴿بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ﴾^(١) بكلّ راكب وماشٍ من أهل العيث. فالخيل: الخيّالة، والرجل: اسم جمع للراجل، ونظيره: الركب، والصحب. ﴿وَرَجِلِكَ﴾: حفص، على أن فعلاً بمعنى فاعل، كتعب وتاعب. ومعناه: وجمعك الرجل. وهذا لأنّ أقصى ما يُستطاع في طلب الأمور: الخيل، والرجل. وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل، ورجال ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال الزجاج: كلّ معصية في مال وولد، فإبليس شريكهم فيها، كالربا، والمكاسب المحرّمة، والبحيرة، والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصّل إلى الأولاد بالسبب الحرام، والتسمية بعبد العزّى، وعبد شمس ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وإيثار العاجل على الآجل، ونحو ذلك ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهّم أنّه صواب.

٦٥ - ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الصالحين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يد بتبديل الإيمان،

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وَرَجِلِكَ﴾. وهذه قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٣٠).

وَكَفَىٰ بَرِّيكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ بِرَحْمَتِهِ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا بَجَّيْنَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكِيلًا ﴿٦٨﴾

ولكن بتسويل العصيان ﴿وَكَفَىٰ بَرِّيكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك، أو: حافظاً لهم عنك. والكل أمر تهديد فيعاقب به. أو: إهانة، أي: لا يخل ذلك بملكي.

٦٦- ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ﴾ يجري، وَيُسِيرُ ﴿لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: الربح في التجارة ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ بِرَحْمَتِهِ﴾.

٦٧- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: خوف الغرق ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ ذهب عن أوهامكم كل من تدعون في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه. أو: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾ من الآلهة عن إغائتكم، ولكن الله وحده الذي ترجونه، على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا بَجَّيْنَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ أي: الكاف. ﴿كَفُورًا﴾ للنعم.

٦٨- ﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ الهمة للإنكار. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: ﴿إِنْ﴾ نجوتم ﴿فَأَمِنْتُمْ﴾ فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ انتصب ﴿جانب﴾ بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله: ﴿لَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] و﴿بكم﴾ حال. والمعنى: أن يخسف جانب البر، أي: يقلبه وأنتم عليه. والحاصل: أن الجوانب كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب، برّاً كان، أو بحراً، سبب من أسباب الهلاك، ليس جانب البحر وحده مختصاً به، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر الخسف، وهو تغيب تحت التراب. والغرق: تغيب تحت الماء. فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب، وحيث كان ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هي: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكِيلًا﴾ يصرف ذلك عنكم.

أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا إِلَهًا يَّبْعَا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

٦٩ - ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ﴿أم أمتم﴾ أن يقوي دواعيكم، ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا، فتركبوا البحر الذي نجاكم منه، فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل عليكم ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي: الريح التي لها قصيف، وهو: الصوت الشديد، أو: هو الكاسر للفلك ﴿فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمة، وهو: إعراضكم حين نجاكم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا إِلَهًا يَّبْعَا﴾ مطالباً، من قوله: ﴿فَأَنبِئُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبة. والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً، ودركاً للنار من جهتنا. [وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]]^(١) ﴿أَنْ نَخْسِفَ﴾، ﴿أَوْ نَرْسِلَ﴾، ﴿أَنْ نَعِيدَكُمْ﴾، ﴿فَنَرْسِلَ﴾، ﴿فَنُغْرِقَكُمْ﴾ بالنون: مكّي، وأبو عمرو.

٧٠ - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بالعقل، والنطق، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش، والمعاد، والاستيلاء، وتسخير الأشياء، وتناول الطعام بالأيدي. وعن الرشيد: أنه أحضر طعاماً، فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف - رحمه الله تعالى - فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق، فردّها، وأكل بأصابعه ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ باللذيزات، أو: بما كسبت أيديهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: على الكل، كقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. قال الحسن: أي: كلهم. وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦] ذكر في «الكشاف» أن المراد بالأكثر: الجميع. وعنه عليه السلام: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة»^(٢). وهذا لأنهم محبوبون

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧).

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَاُولَئِكَ يَفْرَهُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى
وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة، وفي البهائم شهوة بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما. فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم، ولأنه خلق الكل لهم، وخلقهم لنفسه.

٧١ - ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ منصوب باذکر ﴿كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الباء للحال. والتقدير: مختلطين بإمامهم، أي: بمن ائتموا به من نبي، أو: مقدم في الدين، أو: كتاب، أو: دين. فيقال: يا أتباع فلان! يا أهل دين كذا! أو: كتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير! يا أصحاب كتاب الشر! ﴿فَمَنْ أُوِّيَ﴾ من هؤلاء المدعوين ﴿كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَاُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ﴾ وإنما قيل: ﴿أولئك﴾ لأن ﴿من﴾ في معنى الجمع ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء. ولم يذكر الكفار، وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله:

٧٢ - ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ كذلك ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأعمى، أي: أضل طريقاً. والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات؛ لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة. أما في الدنيا فلفقد النظر، وأما في الآخرة فلائنه لا ينفعه الاهتداء إليه. وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل بدليل عطف «وأضل» ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالأ، والثاني مفخماً؛ لأن أفعال التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلمة، فلا يقبل الإمالة. وأما الأول فلم يتعلّق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف، فقبلت الإمالة. وأمالهما حمزة، وعليّ، وفخهما: الباقون.

٧٣ - ولما قالت قريش: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك نزل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة. واللام فارقة بينها وبين النافية. والمعنى: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فانتين ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا، ونواهيها، ووعدنا، ووعدنا

لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا ذَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرُهُ﴾ لتقول علينا ما لم نقل، يعني: ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً، والوعيد وعداً ﴿وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: ولو اتبعت مرادهم ﴿لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ ولكنك لهم ولياً، وخرجت من ولايتي.

٧٤- ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ركوناً قليلاً. وهذا تهيج من الله له، وفضل تثبيت.

٧٥- ﴿إِذَا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لَا ذَقْنَكَ﴾ عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك، كما قال: ﴿يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنْ بِفَلْحِشَةٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٠]. وأصل الكلام: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات، وهو عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة، وهو عذاب النار. والعذاب يوصف بالضعف كقوله: ﴿فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: مضاعفاً، فكأن أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات. ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف، فقليل: ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾. ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر، وعذاب النار. وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين، دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله. ولما نزلت كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»^(١) ثم لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا معيناً لك يمنع عذابنا عنك.

(١) قال ابن حجر: لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلاً. (حاشية الكشف ٦٨٥/٢).

وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَرَأَيْتَ الصَّلَاةَ لِلذُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

٧٦- ﴿وَأِنْ كَادُوا﴾ أي: أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ ليزعجونك بعدوانهم، ومكرهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ من أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خَلْفَكَ﴾ ^(١) بعدك، أي: بعد إخراجك - ﴿خَلْفَكَ﴾: كوفي غير أبي بكر، وشامي بمعناه - ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً فَإِنَّ الله مهلكهم. وكان كما قال، فقد أهلكوا بيد بعد إخراجه بقليل. أو: معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه. وقيل: من أرض العرب، أو: من أرض المدينة.

٧٧- ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم. ونصبت نصب المصدر المؤكد، أي: سن الله ذلك سنة ﴿وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلاً.

٧٨- ﴿أَفَرَأَيْتَ الصَّلَاةَ لِلذُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لزوالها. وعلى هذا: الآية جامعة للصلوات الخمس، أو: لغروبها. وعلى هذا يخرج الظهر، والعصر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ هو الظلمة، وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الفجر. سُمِّيَتْ قُرْآنًا - وهو القراءة - لكونها ركناً، كما سُمِّيَتْ ركوعاً، وسجوداً. وهو حجة على الأصم؛ حيث زعم: أنَّ القراءة ليست بركن، أو: سُمِّيَتْ قُرْآنًا لطول قراءتها. وهو عطف على الصلاة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل، وأول ديوان النهار. أو: يشهده الكثير من المصلين في العادة.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿خَلْفَكَ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وأبي جعفر، وابن محيصن، واليزيدي، ورويس، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٣٠).

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ
 أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾
 وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ
 شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

٧٩ - ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ عليك بعض الليل ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ التهجّد: ترك الهجود للصلاة. ويقال في النوم أيضاً: تهجد ﴿به﴾ بالقرآن ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس. وضع ﴿نافلة﴾ موضع تهجداً؛ لأنّ التهجد عبادة زائدة. فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك، أو: فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوّع لهم ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ نصب على الظرف، أي: ﴿يبعثك﴾ معنى: يقيمك. وهو مقام الشفاعة عند الجمهور. ويدلّ عليه الأخبار، أو: هو مقام يُعطى فيه لواء الحمد.

٨٠ - ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ هو مصدر. أي: ﴿أدخلني﴾ القبر إدخالاً مرضياً على طهارة من الزلات ﴿وأخرجني مخرج صديق﴾ أي: ﴿أخرجني﴾ منه عند البعث إخراجاً مرضياً، ملقى بالكرامة، آمناً من الملامة. دليله: ذكره على أثر ذكر البعث. وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد: إدخال المدينة والإخراج من مكة. أو: هو عام في كلّ ما يدخل فيه، ويلاسه من أمر ومكان ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ حجة تنصّرني على من خالفني، أو: ملكاً وعزاً قوياً، ناصراً للإسلام على الكفر، مظهرأ له عليه.

٨١ - ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وزَهَقَ﴾ وذهب، وهلك ﴿الْبَاطِلُ﴾ الشرك. أو: جاء القرآن، وهلك الشيطان ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ كان مضمحلاً في كل أوان.

٨٢ - ﴿وَنُزِّلَ﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ «من» للتبيين ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ من أمراض القلوب ﴿ورحمة﴾ وتفرّيج للكروب، وتطهير للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي الحديث: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

الله»^(١) ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ ضللاً لتكذيبهم به، وكفرهم.

٨٣- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بالصحة، والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله، أو: ﴿أنعمنا﴾ بالقرآن أعرض ﴿وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليّه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه، ويوليّه ظهره. أو: أراد الاستكبار؛ لأن ذلك من عادة المستكبرين. ﴿نَأَى﴾ بالإمالة: حزة، وبكسرهما: علي ﴿وَلِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر، والمرض، أو: نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

٨٤- ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كل أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ على مذهبه، وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى، والضلّال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أسدّ مذهبا، وطريقة.

٨٥- ﴿وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من أمر يعلمه ربّي. الجمهور: على أنه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته، فأخبر أنه من أمر الله، أي: بما استأثر بعلمه. وعن أبي هريرة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح^(٢). وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته، بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه. والحكمة في ذلك: تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له؛ ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز. ولذا ردّ ما قيل في حدّه: إنه جسم دقيق هوائي في كلّ جزء من الحيوان. وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو جبريل عليه السلام ﴿نَزَلَ بِهِ

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٦٨٩/٢). ورواه الدارقطني في الأفراد، كما في كنز العمال (٢٨١٠٦).

(٢) قال الحافظ: ذكره الواحدي في «الوسيط». (حاشية الكشاف ٦٩٠/٢).

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴿الشعراء: ١٩٣﴾. وعن الحسن: القرآن. دليله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ولأنَّ به حياة القلوب و﴿من أمر ربي﴾ أي: من وحيه، وكلامه ليس من كلام البشر. ورُوي: أنَّ اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عن الكل، أو سكت عن الكل، فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض، وسكت عن بعض فهو نبي. فبين لهم القصتين، وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم. وقيل: كان السؤال عن خلق الروح، يعني: أهو مخلوق أم لا؟ وقوله: ﴿من أمر ربي﴾ دليل خلق الروح، فكان هذا جواباً ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الخطاب عام. فقد رُوي: أنَّ رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب، أم أنت معنا فيه؟ فقال: «بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إِلَّا قَلِيلًا»^(١) وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة، وفيها الحكمة، وقد تلوت: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فقليل لهم: إنَّ علم التوراة قليل في جنب علم الله. فالقلة والكثرة من الأمور الإضافية. فالحكمة التي أوتيتها العبد خير كثير في نفسها، إِلَّا أَنهَا إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهِيَ قَلِيلَةٌ.

٨٦ - ثم نبه على نعمة الوحي، وعزاه بالصبر على أذى الجدل في السؤال بقوله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على «إن» توطئة للقسم. والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، فلم نترك له أثراً ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده، وإعادته محفوظاً مسطوراً.

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٩٠).

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾

٨٧- ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي: إلا أن يرحمك ربك، فيرده عليك، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد. أو: يكون على الاستثناء المنقطع، أي: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به. وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله، وتحفيظه.

٨٨- ونزل جواباً لقول نضر: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: ٣١]: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ معيناً. و﴿لا يأتون﴾ جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله^(١):

... .. يقول لا غائبٌ مالي ولا حريم^(٢)

لأن الشرط وقع ماضياً، أي: لو نظاها على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته، وحسن نظمه، وتأليفه؛ لعجزوا عن الإتيان بمثله.

٨٩- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ ردّنا، وكثرنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته، وحسنه ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً. وإنما جاز ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ ولم يجز ضربت إلا زيداً؛ لأن ﴿أبى﴾ متأول بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضوا ﴿إلا كفوراً﴾.

٩٠- ولما تبين إعجاز القرآن، وانضمت إليه المعجزات الأخر، ولزمتهم الحجة، وغلبوا اقترحوا الآيات، ففعل المبهوت، المحجوج، المتحير ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ وبالتخفيف: كوفي ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: مكة ﴿يَنْبُوعًا﴾ عيناً غزيرة، من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع. يفعل، من: نبع الماء.

(١) الشاعر: زهير بن أبي سلمى.

(٢) عجز بيت وصدرة: وإن أتاه خليل يوم مسغبة.

أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنَبٌ فَتُنْفِجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ
السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُةٍ وَالْمَلَكُوتُ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ
بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ
سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

٩١- ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنَبٌ فَتُنْفِجِرَ﴾ والتشديد هنا مجمع عليه
﴿الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾.

٩٢- ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا﴾ بفتح السين: مدني، وعاصم،
أي: قطعاً. يقال: أعطني كسفة من هذا الثوب. ويسكون السين غيرهما، جمع
كسفة، كسدرة وسدر. يعنون قوله: ﴿إِنْ شَاءَ نَخْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمُ
كَيْسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَهُةٍ وَالْمَلَكُوتُ قَبِيلًا﴾ كفيلاً بما تقول
شاهداً بصحته. والمعنى: أو تأتي بالله قبيلًا، وبالملائكة قبلاً، كقوله^(١):
... .. كنت منه ووالدي برياً (٢)

أو: مقابلاً كالعشير، بمعنى المعاشر، ونحوه: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ
نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أو: جماعة، حالاً من الملائكة.

٩٣- ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ﴾ ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ تصعد إليها
﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفَيْكَ﴾ لأجل رفيك ﴿حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو.
﴿كِتَابًا﴾ من السماء فيه تصديقك ﴿نَقْرُؤُهُ﴾ صفة كتاب ﴿قُلْ﴾ (قال): مكِّي،
وشامي، أي: قال الرسول ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم. وكان الرسل
لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إلي
إنما هو إلى الله، فما بالكم تتخيرونها علي؟

(١) الشاعر: الفرزدق.

(٢) البيت بتمامه:

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ
كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ

٩٤- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ يعني: أهل مكة ومحل ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ نصب بآته
مفعول ثانٍ لمنع ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ النبي، والقرآن ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ فاعل منع.
والتقدير: وما منعهم الإيمان بالقرآن، ونبوة محمد ﷺ إلا قولهم ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ
بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: إلا شبهة تمكنت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله
البشر. والهمزة في ﴿أبعث الله﴾ للإنكار. وما أنكروه ففي قضية حكمته
منكر^(١). ثم رد الله عليهم بقوله:

٩٥- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم كما يمشي
الإنس - ولا يطبّرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها، ويعلموا ما يجب
علمه - ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ حال، أي: ساكنين في الأرض قارين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ يعلمهم الخير، ويهديهم المرشد. فأما الإنس فإنما يرسل
الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم، وإرشادهم.
و﴿بَشَرًا﴾ و﴿مَلَكًا﴾ حالان من ﴿رَسُولًا﴾.

٩٦- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أتني بلغت ما أرسلت به
إليكم، وأنكم كذبتهم وعاندتم. ﴿شَهِيدًا﴾ تمييز، أو: حال ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾
المنذرين، والمنذرين ﴿خَبِيرًا﴾ عالمًا بأحوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالهم، فهو مجازيم.
وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ، ووعدٌ للكفرة.

٩٧- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ وبالياء: يعقوب، وسهل. وافقهما
أبو عمرو، ومدني في الوصل، أي: من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى،

(١) كذا في الأصل، وفي الكشاف (٦٩٤/٢): وما أنكروه فخلاله هو المنكر عند الله؛ لأن
قضية حكمته ألا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء.

وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَجْدَلَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا
وَبِكُمْ وَضُمًّا مَّا وَنْهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا
لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ

فهو المهتدي عند الله ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يخذله، ولم يعصمه حتى قبل
وساوس الشيطان ﴿فَلَنْ يَجْدَلَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يسحبون عليها، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْجَوْنَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾
[القمر: ٤٨] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن
الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم»^(١) ﴿عُمِيًّا وَبِكُمْ
وَضُمًّا﴾ كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن
استماعه، فهم في الآخرة كذلك، لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون
ما يلذ مسامعهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم ﴿مَّا وَنْهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾
طَفِئَ لهبها ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً.

٩٨ - ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا﴾ أي: ﴿ذلك﴾ العذاب بسبب أنهم كذبوا بالإعادة بعد الإفاء، فجعل
الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها، ثم يعيدها، لا يزالون على ذلك
ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث.

٩٩ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموت، أو: القيامة
﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ جحوداً مع وضوح الدليل.

١٠٠ - ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تقديره: لو تملكون أنتم؛ لأنّ لو تدخل على
الأفعال دون الأسماء، فلا بدّ من فعل بعدها، فأضمر «تملك» على شريطة
التفسير، وأبدل من الضمير المتصل، وهو الواو، ضمير منفصل، وهو ﴿أنتم﴾

خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَبَ بِئْسَ الْإِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠٢﴾

لسقوط ما يتصل به من اللفظ. فأنتم فاعل الفعل المضمر، و﴿تملكون﴾ تفسيره. وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب. وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن ﴿أنتم تملكون﴾ فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشئ المتبالغ ﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ رزقه، وسائر نعمه على خلقه ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ بخيلاً.

١٠١- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل. وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات - مكان الحجر - والبحر، والطور. ﴿فَسْتَلَبَ بِئْسَ الْإِسْرَءِيلَ﴾ ﴿ف﴾ قلنا له ﴿اسأل بني إسرائيل﴾ أي: سلهم من فرعون، وقل له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥] ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ متعلق بالقول المحذوف، أي: فقلنا له: سلهم حين ﴿جاءهم﴾ ﴿فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سحرت، فخولط عقلك.

١٠٢- ﴿قَالَ﴾ أي: موسى. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالفهما ﴿بَصَآئِرٍ﴾ - حال، أي: بينات مكشوفات - إلا أنك معاند. ونحوه: ﴿وَحَدِّثُوا إِنَّمَا وَاسْتَفَقْتُنَّهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿عَلِمْتُ﴾ بالضم: علي، أي: إني لست مسحوراً كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر، وأن هذه الآيات منزلها ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثم قارع ظنه بظنه بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنأ أظنك مسحوراً هالكاً. وظني أصح من ظنك؛ لأن له أماره ظاهرة، وهي إنكارك ما عرفت صحته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها.

فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ااسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

وأما ظنك فكذب بحت؛ لأنّ قولك مع علمك بصحة أمري: إنني لأظنك مسحوراً قول كذب. وقال الفراء ﴿مبشوراً﴾: مصروفاً عن الخير، من قولهم: ما ثبرك عن هذا، أي: ما منعك وصرفك.

١٠٣ - ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ﴾ يخرجهم، أي: موسى وقومه ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مصر، أو: ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ فحاق به مكره بأن استغفره الله بإغراقه مع قبضه.

١٠٤ - ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد فرعون ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ااسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جمعاً، مختلطين إيتاكم وإيتاهم، ثمّ نحكم بينكم، ونميّز بين سعدائكم وأشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

١٠٥ - ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة، لاشتماله على الهداية إلى كل خير. أو: ما أنزلناه من السماء إلا بالحق، محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. قال الراوي: اشتكى محمد بن السماك، فأخذنا ماءه، وذهبنا به إلى طبيب نصراني، فاستقبلنا رجل حسن الوجه، طيب الرائحة، نفى الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله! تستعينون على وليّ الله بعدو الله، اضربوه على الأرض، وارجعوا إلى ابن السماك، وقولوا له: ضع يديك على موضع الوجع، وقل: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾، ثمّ غاب عنا، فلم نره. فرجعنا إلى ابن السماك، فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، وقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت. وقال: كان ذلك الخضر - عليه السلام - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار.

وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْتَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

١٠٦- ﴿وَقَرَأْنَا﴾ منصوب بفعل يفسره: ﴿فَرَّقْتَهُ﴾ أي: فصلناه، أو: فرقنا فيه الحق من الباطل ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ على تودة، وثبت ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

١٠٧- ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: اختاروا لأنفسكم النعيم المقيم، أو: العذاب الأليم. ثم علل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: التوراة من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ حال.

١٠٨- ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ لقوله: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به، ولم يصدقوا بالقرآن، فإن خيراً منهم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب قد آمنوا به، وصدقوه، فإذا تلي عليهم خروا سجداً، وسبحوا الله تعظيماً لأمره، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة، وبشر به من بعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد المذكور ﴿إِنْ﴾ بمعنى: إنه، وهي تؤكد الفعل، كما أن ﴿إِنْ﴾ تؤكد الاسم، وكما أكدت ﴿إِنْ﴾ باللام في ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢٧] أكدت (إِنْ) باللام في ﴿لَمَفْعُولًا﴾.

١٠٩- ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ معنى الخرور للذقن: السقوط على الوجه. وإنما خصّ الذقن لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن. يقال: خرّ على وجهه، وعلى ذقنه، وخرّ لوجهه، ولذقنه. أما معنى «على» فظاهر، وأما معنى اللام فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور، واختصّه به؛ إذ اللام للاختصاص. وكرر ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ لاختلاف الحالين، وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ لين قلب، ورطوبة عين.

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لِنَا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ

١١٠- ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ لما سمعه أبو جهل يقول: يا الله! يا رحمن! قال: إنه نهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر! فنزلت. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقلّ ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت. والدعاء بمعنى التسمية، لا بمعنى النداء. و﴿أَوْ﴾ للتخيير، أي: سموا بهذا الاسم، أو: بهذا، أو: اذكروا إما هذا، وإما هذا. والتنوين في: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ عوض من المضاف إليه. و﴿مَا﴾ زيدت للتوكيد. و﴿أَيًّا﴾ نصب بتدعوا، وهو مجزوم بأيّ، أي: أيّ هذين الاسمين ذكرتم، وستيتم ﴿قُلْهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الضمير في ﴿قُلْهُ﴾ يرجع إلى ذات الله تعالى. والفاء لأنه جواب الشرط، أي: أيّاماً تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: ﴿قُلْهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلّها؛ حسن هذان الاسمان لأنهما منها. ومعنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعاني التمجيد، والتقدير، والتعظيم ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ بقراءة صلاتك، على حذف المضاف؛ لأنه لا يلبس، إذ الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير. والصلاة أفعال وأذكار. وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا، وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته. والمعنى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ حتى تسمع المشركين ﴿وَلَا تَخَافُوا بِهَا﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً. أو: معناه ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ كلّها ﴿وَلَا تَخَافُوا بِهَا﴾ كلّها ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار. أو: ﴿بِصَلَاتِكُمْ﴾ بدعائك.

١١١- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لِنَا﴾ كما زعمت اليهود، والنصارى، وبنو مليح ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لم يذلّ، فيحتاج إلى ناصر، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به؛ ليدفعها بموالاته

وَكِبْرَةٌ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

﴿وَكِبْرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ وعظمه، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد، أو شريك. وسمى النبي ﷺ الآية آية العز. وكان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية^(١).

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق. (حاشية الكشاف ٧٠١/٢).

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا
مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن، لقن الله عباده، وفقهم كيف يشنون عليه، ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم، وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾ أي: شيئاً من العوج. والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان. يقال: في رأيه عِوَجٌ، وفي عصاه عِوَجٌ. والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة.

٢ - ﴿فِيمَا﴾ مستقيماً. وانتصابه بمضمر، وتقديره: جعله ﴿فِيمَا﴾ لأنه إذا نفى عنه العوج، فقد أثبت له الاستقامة. وفائدة الجمع بين نفي العوج، وإثبات الاستقامة - وفي أحدهما غنى عن الآخر - التأكيد. فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح. أو ﴿فِيمَا﴾ على سائر الكتب، مصداقاً لها، شاهداً بصحتها ﴿يُنْذِرُ﴾ «أنذر» متعد إلى مفعولين، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠]. فاقصر على أحدهما وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بَأْسًا﴾ عذاباً ﴿شَدِيدًا﴾. وإنما اقتصر على أحد مفعولي أنذر؛ لأن المنذر به هو المسوق إليه، فاقصر عليه ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: الجنة ﴿وَيُبَشِّرُ﴾: حمزة، وعلي.

مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢﴾ وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿١﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٣﴾ فَلَعَلَّكَ
بِخُصْمِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٤﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا

٣- ﴿مَكِينٍ﴾ حال من هُم في ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فِيهِ﴾ في الأجر، وهو: الجنة ﴿أَبَدًا﴾.

٤- ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ذكر المنذرين دون المنذر به، بعكس الأول، استغناء بتقديم ذكره.

٥- ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو: باتخاذ. يعني: أن قولهم هذا لم يصدر عن علم، ولكن عن جهل مفرط. فإن قلت: اتخذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟ قلت: معناه: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس ممّا يعلم لاستحالته. وانتفاء العلم بالشيء إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، أو: لأنه في نفسه محال ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ المقلّدين ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة! والضمير في ﴿كَبُرَتْ﴾ يرجع إلى قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. وسميت كلمة كما يستمون القصيدة بها ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لكلمة تفيد استعظاماً؛ لاجترائهم على النطق بها، وإخراجها من أفواههم، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات، لا يتمالكون أن يتفوهوا به، بل يكظمون عليه، فكيف بمثل هذا المنكر؟! ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ما يقولون ذلك ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: قولاً كذباً.

٦- ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِغٌ نَفْسِكَ﴾ قاتل نفسك ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ أي: آثار الكفار. شبهه وإياهم حين تولّوا عنه، ولم يؤمنوا به، وما تداخله من الأسف على توليهم برجل فارقه أحبته، فهو يتساقط حشرات على آثارهم، ويبخغ نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ بالقرآن ﴿أَسَفًا﴾ مفعول له، أي: لفرط الحزن. والأسف: المبالغة في الحزن، والغضب.

٧- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ أي: ما يصلح أن يكون زينة لها

لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

ولأهلها ، من زخارف الدنيا، وما يُستحسن منها. ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وحسن العمل: الزهد فيها، وترك الاغترار بها.

٨ - ثم زهد في الميل إليها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة ﴿صَعِيدًا﴾ أرضاً ملساء ﴿جُرُزًا﴾ يابساً، لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة. والمعنى: نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، وغير ذلك.

٩ - ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض، بما خلق فوقها من الأجناس؛ التي لا حصر لها، وإزالة ذلك كله، كأن لم يكن، قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ يعني: أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف، وإبقاء حياتهم مدة طويلة. والكهف: الغار الواسع في الجبل. والرقيم: اسم كلبهم، أو: قريتهم. أو: اسم كتاب كتب في شأنهم. أو: اسم الجبل الذي فيه الكهف ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجبا﴾ من آياتنا، وصفاً بالمصدر، أو: على ذات عجب.

١٠ - ﴿إِذْ﴾ أي: اذكر ﴿إِذْ﴾ ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةٌ﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وهي: المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رَشَدًا﴾ حتى نكون بسببه راشدين، مهتدين. أو: اجعل أمرنا ﴿رشدًا﴾ كله، كقولك: رأيت منك أسداً. أو: يسر لنا طريق رضاك.

١١ - ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني: أنماهم إنامة ثقيلة، لا تنبههم فيها الأصوات، فحذف المفعول الذي هو الحجاب ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذوات عدد، فهو صفة لسنين. قال الزجاج: أي: تعدد عدداً لكثرتها؛ لأنَّ القليل يعلم مقداره من غير عدد، فإذا كثر عدد. فأما

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ
إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] فهي على القلة؛ لأنهم كانوا يعدّون القليل،
ويزنون الكثير.

١٢- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم من النوم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم في
مدّة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك، وذلك قوله: ﴿قال قائل منهم
كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ريكم أعلم بما لبثتم﴾. وكان الذين
قالوا: ﴿ريكم أعلم بما لبثتم﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو:
﴿أيّ الحزبين﴾ المختلفين من غيرهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا﴾ غاية. و﴿أَحْصَىٰ﴾
فعل ماض. و﴿أَمَدًا﴾ ظرف لـ ﴿أَحْصَىٰ﴾، أو: مفعول له. والفعل الماضي
خبر المبتدأ، وهو: ﴿أَيُّ﴾. والمبتدأ مع خبره سدّ مسدّد مفعولي ﴿نَعْلَمُ﴾.
والمعنى: أتيتهم ضبط ﴿أَمَدًا﴾ لأوقات لبثهم، وأحاط علماً بأمَد لبثهم. ومن
قال: أحصى: أفعل، من الإحصاء، وهو: العدّ، فقد زلّ؛ لأنّ بناءه من غير
الثلاثي المجرد ليس بقياس. وإنّما قال: ﴿لِنَعْلَمُ﴾ مع أنّه تعالى لم يزل عالماً
بذلك؛ لأنّ المراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً
واعتباراً، وليكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بيّنة لكفّاره. أو: المراد: ﴿لِنَعْلَمُ﴾
اختلافهما موجوداً، كما علمناه قبل وجوده.

١٣- ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ﴾ جمع: فتى.
والفتوة: بذل الندى، وكفّ الأذى، وترك الشكوى، واجتناب المحارم،
واستعمال المكارم. وقيل: الفتى: من لا يدعي قبل الفعل، ولا يزكي نفسه بعد
الفعل ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يقيناً. وكانوا من خواصّ دقيانوس، قد
قذف الله في قلوبهم الإيمان، وخاف بعضهم بعضاً، وقالوا: ليخل اثنان اثنان
منا، فيظهر كلاهما ما يضمّر لصاحبه، ففعلوا، فحصل اتفاقهم على الإيمان.

١٤- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناها بالصبر على هجران الأوطان، والفرار
بالدين إلى بعض الغيران، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحقّ، والتظاهر
بالإسلام ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي الجبار، وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين

فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١١﴾
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ أَعَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى
الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٣﴾ * وَتَرَى
الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ

عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفتخرين ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾. ولئن سميناهم آلهة ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ قولاً ذا شطط، وهو: الإفراط في الظلم، والإبعاد فيه، من: شَطَّ يَشْطُ ويشْطُ: إذا بعد.

١٥- ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ خبر. وهو إخبار في معنى الإنكار ﴿لَوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ﴾ هلاً ﴿يأتون﴾ على عبادتهم. فحذف المضاف ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة ظاهرة، وهو تبكيت؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

١٦- ﴿وَإِذْ أَعَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ نصب عطف على الضمير، أي: ﴿وَإِذْ أَعَزَلْتُمُوهُمْ﴾ واعتزلتم معبودهم ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ استثناء متصل؛ لأنهم كانوا يقرنون بالخالق، ويشركون معه غيره، كأهل مكة. أو: منقطع، أي: وإذ عزلتم الكفار والأصنام التي يعبدونها من دون الله. أو: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية، أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ صيروا إليه. أو: اجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ من رزقه. ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ مَرْفَقًا: مدني، وشامي. وهو: ما يرتفق به، أي: يتنفع. وإنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، وقوة في رجائهم؛ لتوكلهم عليه، ونصوح يقينهم. أو: أخبرهم به نبي في عصرهم.

١٧- ﴿* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ﴾ بتخفيف الزاي: كوفي ﴿تَزَّوَّرُ﴾ شامي، ﴿تَزَّاورُ﴾: غيرهم. وأصله: تتزاور، فحُفِّفَ بإدغام التاء في الزاي، أو: حذفها. والكلل من الزور، وهو: الميل. ومنه: زاره: إذا مال إليه.

عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا عَزَمْتَ تَفَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً أَنْ يَنْكُظَ وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ

والزُّور: الميل عن الصدق ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ أي: تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ جهة اليمين. وحقيقتها: الجهة المسماة باليمين ﴿وَإِذَا عَزَمْتَ تَفَرِّضُهُمْ﴾ تقطعهم، أي: تتركهم، وتعذل عنهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ في متسع من الكهف. والمعنى: أنهم في ظلّ نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع، منفتح، معرض لإصابة الشمس، لولا أنّ الله يجحبها عنهم. وقيل: منفسح من غارهم، ينالهم فيه روح الهواء، وبرد النسيم، ولا يحسّون كرب الغار ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس، وقرضها طالعة وغاربة آية ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. يعني: أنّ ما كان في ذلك السمّت تصيبه الشمس، ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شمالي، مستقبل لبنات نعش، فهم في مقناة^(١) أبداً. ومعنى ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: أنّ شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ مثل ما مرّ في ﴿سُبْحَانَ﴾^(٢) وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله، وأسلموا له وجوههم، فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ أي: من أضله فلا هادي له.

١٨ - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾^(٣) بفتح السين: شامي، وحزمة، وعاصم، غير الأعشى. وهو خطاب لكلّ أحد ﴿أَيُّكَ أَظَا﴾ جمع: يقظ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك ﴿أَيُّكَ أَظَا﴾. ﴿وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قيل: لهم تقلبتان في السنة. وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء

(١) «المقناة»: الذي لا تطلع عليه الشمس، وهو نقيض: المضحاة..

(٢) أي: في سورة: الإسراء آية (٩٧).

(٣) في الأصل المخطوط ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣/٣٥٣).

وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَقَتْ عَلَيْهِمْ لَوْلِيَّتٌ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلِئَتْ مِنْهُمْ رُجُبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ

﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى الماضي ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بالفناء، أو: بالعتبة ﴿لَوِ اطْلَقَتْ عَلَيْهِمْ﴾ لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿لَوْلِيَّتٌ مِنْهُمْ﴾ لأعرضت عنهم، وهربت منهم ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر؛ لأن معنى ﴿وَلِيَّتٌ مِنْهُمْ﴾: فررت منهم ﴿وَلَمْلِئَتْ مِنْهُمْ﴾ وبتشديد اللام: حجازي، للمبالغة ﴿رُجُبًا﴾ تمييز. وبضم العين: شامي، وعليّ. وهو الخوف الذي يرعب الصدر، أي: يملؤه. وذلك لما ألبسهم الله من الهيئة، أو: لطول أظفارهم وشعورهم، وعظم أجرامهم. وعن معاوية: أنه غزا الروم، فمّر بالكهف، فقال: أريد أن أدخل، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لقد قيل لمن هو خير منك ﴿لَوْلِيَّتٌ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، فدخلت جماعة بأمره، فأحرقتهم ريح.

١٩- ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وكما أنماهم تلك النومة، كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرّة على الإنامة والبعث جميعاً ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً، ويتعرّفوا حالهم، وما صنع الله بهم فاعتبروا، ويستدلّوا على عظم قدرة الله، ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ رئيسهم ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ كم مدة لبثكم ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ جواب مبني على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظنّ الغالب ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ بمدّة لبثكم. إنكار عليهم من بعضهم، كأنهم قد علموا بالأدلة، أو يالهام أن المدّة متطاولة، وأنّ مقدارها لا يعلمه إلا الله. وروى: أنّهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباههم بعد الزوال، فظنّوا أنّهم في يومهم، فلمّا نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. وقد استدّل ابن عباس - رضي الله عنهما - على أنّ الصحيح: أن عددهم سبعة، لأنّه قد قال في الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ وهذا واحد. وقالوا في جوابه: لبثنا يوماً، أو بعض يوم، وهو جمع، وأقله ثلاثة، ثم قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ وهذا

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ
يُظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَعَلْنَا آتَ وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا

قول جمع آخرين، فصاروا سبعة ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ كأنهم قالوا: ريتكم أعلم
بذلك، لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهتمكم ﴿فابعثوا
أحدكم﴾ أي: يملئها. ﴿بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ هي الفضة مضروبة كانت، أو غير
مضروبة. ويسكون الراء: أبو عمرو، وحمة، وأبو بكر ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ هي
طرسوس. وحملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة، وما يصلح
للمسافر، هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلمين على الاتفاقات، وعلى ما في
أوعية القوم من النفقات. وعن بعض العلماء: أنه كان شديد الحنين إلى بيت
الله، ويقول: ما لهذا السفر إلا شيطان: شدّ الهميان، والتوكل على الرحمن
﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا﴾ أي أهلها، فحذف، كما في: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].
و﴿أَيُّ﴾ مبتدأ، خبره ﴿أزكى﴾ ﴿أزكى﴾ أحلّ، وأطيب، أو: أكثر، وأرخص.
﴿طَعَامًا﴾ تمييز ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلّف اللطف فيما يباشره
من أمر المبايعة حتى لا يغبن، أو: في أمر التخفي حتى لا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور بنا من غير قصد منه، فسَمَى
ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنه سبب فيه.

٢٠- والضمير في: ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى الأهل المقدّر في ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿إِنْ يُظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ﴾ يطلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي
مِلَّتِهِمْ﴾ بالإكراه. والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا
أَبَدًا﴾ ﴿إِذَا﴾ يدلّ على الشرط، أي: ﴿ولن تفلحوا﴾ إن دخلتم في دينهم
﴿أبدًا﴾.

٢١- ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم وبعشناهم - لما في ذلك من
الحكمة - أطلعنا عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أي: الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ
وَعْدَ اللَّهِ﴾ وهو البعث ﴿حَقٌّ﴾ كائن؛ لأنّ حالهم في نومهم وانتباههم بعدها

وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ
أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾

كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإنهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ متعلق بأعثرنا، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أمر دينهم، ويختلفون في حقيقة البعث - فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح - ليرتفع الخلاف، وليتبين: أَنَّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها، كما كانت قبل الموت ﴿فَقَالُوا﴾ حين توفي الله أصحاب الكهف ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أي: على باب كهفهم لئلا يتطرق إليهم الناس، ضناً بتربثهم، وحفاظة عليها، كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالخطيرة ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم تذكروا أمرهم، وتناقلوا الكلام في أنسابهم، وأحوالهم، ومدة لبثهم. فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾. أو: من كلام الله عز وجل ردّاً لقول الخائضين في حديثهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمين وملكهم، وكانوا أولى بهم، وبالبناء عليهم ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ﴾ على باب الكهف ﴿مَسْجِدًا﴾ يصلي فيه المسلمون، ويتبركون بمكانهم.

رُوي: أَنَّ أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام، وأكروهوا على عبادتها. ومن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك، وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان، والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف، ومروا بكلب، فتبعهم، فطرده، فأنطقه الله تعالى فقال: ما تريدون مني؟ إني أحب أحبَاء الله، فناموا، وأنا أحرسكم. وقيل: مروا براح معه كلب، فتبعهم على دينهم، ودخلوا الكهف، فضرب الله على آذانهم، وقيل أن يبعثهم الله مَلَك مدينتهم رجلٌ صالح، مؤمن. وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته، وأغلق بابه، ولبس مسحاً، وجلس على رماد، وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجلٍ من رعيانهم، فهدم ما سد به فم الكهف؛ ليتخذة حظيرة لغنمه. ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياح الطعام، وأخرج الورق، وكان من ضرب

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ
وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

دقيانوس، اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصّ عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه، وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث. ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله، ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، وتوفّى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكل واحد تابوتاً من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج^(١)، وبنى على باب الكهف ﴿مسجداً﴾.

٢٢- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير في ﴿سيقولون﴾ لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من المؤمنين وأهل الكتاب. سألوها رسول الله ﷺ عنهم، فأخّر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأنّ المصيب منهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم. ويروى أنّ السيّد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ، فجري ذكر أصحاب الكهف، فقال السيّد - وكان يعقوبياً -: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب - وكان نسطورياً -: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. فحقّق الله قول المسلمين. وإنّما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ وبما ذكرنا من قبل. وعن علي - رضي الله عنه -: هم سبعة نفر، أسماؤهم: يملیخا، ومكشلینا، ومشلیینا، هؤلاء أصحاب يمين الملك. وكان على يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشاذنوش. وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره. والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس. واسم مدينتهم أفسوس، واسم كلبهم قطمير. وسين الاستقبال وإن دخل في الأوّل دون الآخرين، فهما داخلان في حكم السين، كقولك: قد أكرم وأنعم، تريد: معنى التوقع في الفعلين جميعاً. أو: أريد بفعل

(١) «الساج»: شجر عظيم صلب الخشب أسوده، يعظم جداً، ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق كبير.

قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ

معنى الاستقبال الذي هو صالح له ﴿ثلاثة﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة. وكذلك خمسة وسبعة. و﴿رابعهم كلبهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر، واقعة صفة لثلاثة. وكذلك ﴿سادسهم كلبهم﴾ و﴿ثامنهم كلبهم﴾ ﴿رجماً بالغيب﴾ رمية بالخبر الخفي، وإتياناً به، كقوله: ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سبا: ٥٣] أي: يأتون به. أو: وضع الرجم موضع الظن، فكأنه قيل: ظناً بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظن، مكان قولهم: ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين. والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف. وفائدتها: توكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر. وهذه الواو التي أذنت بأن الذين قالوا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قالوه عن ثبات علم، ولم يرجعوا بالظن كما رجم غيرهم. دليله: أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رجماً بالغيب﴾، وأتبع القول الثالث قوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ أي: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ وقد أخبركم بها بقوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنا من ذلك القليل.

وقيل: ﴿إلا قليل﴾ من أهل الكتاب خاصة. أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظن، وتخمين ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ﴿إِلَّا مِرَّةً ظَهْرًا﴾ إلا جدالاً ظاهراً، غير متعمق فيه، وهو: أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد من غير تجهيل لهم. أو: بمشهد من الناس ليظهر صدقك ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً، فترده عليه، وتزيّف ما عنده، ولا سؤال مسترشد؛ لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

٢٣ - ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ﴾ لأجل شيء تعزم عليه: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ الشيء

عَدَا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿عَدَا﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن تقوله بأن يأذن لك فيه، أو: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله، أي: إلا بمشيئته، وهو في موضع الحال، أي: إلا ملتبساً بمشيئة الله، قائلاً: إن شاء الله. وقال الزجاج: معناه: ﴿ولا تقولن﴾: إني أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى؛ لأن قول القائل: أنا أفعل ذلك إن شاء الله، معناه: لا أفعله إلا بمشيئة الله. وهذا نهي تأديب من الله لنبية حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف، وذوي القرنين. فسألوه، فقال^(١): «اتوني غداً أخبركم» ولم يستثن. فأبطأ عليه الوحي حتى شقّ عليه.

٢٤- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ مشيئة ربك، وقل: إن شاء الله؛ إذا فرط منك نسيان لذلك. والمعنى: ﴿إذا نسيت﴾ كلمة الاستثناء، ثم تنبّهت عليها، فتداركها بالذكر. عن الحسن: ما دام في مجلس الذكر. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ولو بعد سنة. وهذا محمولٌ على تدارك التبرّك بالاستثناء، فأما الاستثناء المغيّر حكماً فلا يصح إلا متصلاً. وحكى: أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة - رحمه الله - خالف ابن عباس - رضي الله عنهما - في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه، فقال له أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا، فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامه، وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده. أو معناه: ﴿واذكر ربك﴾ بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء تشديداً في البعث على الاهتمام بها. أو: صلّ صلاة نسيته إذا ذكرتها. أو: إذا نسيت فاذكره ليذكرك المنسي. ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ يعني: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك. وذكر ربك عند نسيانه أن تقول: ﴿عسى ربّي أن يهديني﴾ لشيء آخر بدل هذا المنسي، أقرب منه رشداً، وأدنى خيراً ومنفعة ﴿أن يهديني﴾ ﴿إن ترن﴾ ﴿أن يؤتيني﴾ ﴿أن تُعلّمن﴾: مكّي في الحالين. ووافقه أبو عمرو، ومدني في الوصل.

(١) رواه ابن المنذر عن مجاهد (الدر المنثور ٥/٣٧٧).

وَلِيُثْبِتُوا فِي كَهْفِهِمْ تِلْكَ مِائَةُ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٦﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثْبِتُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٥- ﴿وَلِيُثْبِتُوا فِي كَهْفِهِمْ تِلْكَ مِائَةُ سِنِينَ﴾ يريد لبثهم فيه أحياء، مضروباً على آذانهم هذه المدة. وهو بيان لما أجمل في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ و﴿سِنِينَ﴾ عطف بيان لثلاثمئة ﴿ثلاثمئة سنين﴾ بالإضافة: حمزة، وعلي، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز، كقوله: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلًا﴾ [الكهف: ١٠٣] ﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي: تسع سنين للدلالة ما قبله عليه. و﴿تِسْعًا﴾ مفعول به؛ لأنَّ زاد تقتضي مفعولين، فازداد يقتضي مفعولاً واحداً.

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثْبِتُوا﴾ أي: هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم، والحق ما أخبرك به. أو: هو حكاية لكلام أهل الكتاب، و﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ رد عليهم. والجمهور على أنَّ هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنَّهم لبثوا في كهفهم كذا مدة ﴿لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السموات والأرض، وخفي فيها من أحوال أهلها ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: وأسمع به. والمعنى: ما أبصره بكلِّ موجود، وما أسمعته لكلِّ مسموع ﴿مَا لَهُمْ﴾ لأهل السموات والأرض ﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ من متولٍّ لأموالهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه ﴿أَحَدًا﴾ منهم ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ على النهي: شامي.

٢٧- كانوا يقولون له: ﴿أَنْتَ بِشَرِّهِ أَنْ غَيَّرْتَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ [يونس: ١٥] فقيل له: ﴿وَأَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فإنه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا يقدر أحدٌ على تبديلها، أو تغييرها، إنما يقدر على ذلك هو وحده ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً تعدل إليه إن همت بذلك.

٢٨- ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نخ هؤلاء الموالي - وهم صهيب، وعقار، وخباب، وسلمان، وغيرهم من فقراء المسلمين -

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ

نجالسك نزل: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ واحبسها معهم، وثبتها ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ دائبين على الدعاء في كل وقت. أو: ﴿بالغداة﴾ لطلب التوفيق، والتيسير، ﴿والعشي﴾ لطلب عفو التقصير. أو: هما: صلاة الفجر والعصر ﴿بالغدوة﴾: شامي. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ رضا الله ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تجاوز. عداه إذا جاوزه. وعدي بعن لتضمن عدا معنى نبا، في قولك: نبت عنه عينه. وفائدة التضمنين: إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في موضع الحال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر، وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق أفعال العباد ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ مجاوزاً عن الحق.

٢٩ - ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: الإسلام، أو: القرآن. و﴿الحق﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ أي: جاء الحق، وزاحت العلل، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة، أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخير، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء، فكانه مخير، مأمور بأن يتخير ما شاء من التجدين. ثم ذكر جزاء من اختار الكفر، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ للكافرين. فقيد بالسياق - كما تركت حقيقة الأمر والتخير بالسياق - وهو قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهي: الحجرة التي تكون حول الفسطاط. أو: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، أو: هو حائط من نار يطيف بهم ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ هو دُرْدِي الزيت، أو: ما أذيب من جواهر الأرض. وفيه تهكم بهم ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾

وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَقَقًا ﴿٣١﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ

ذلك ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَقَقًا﴾ متكأ، من: الرفق. وهذه لمشاكلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَقَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. وإلا فلا ارتفاع لأهل النار.

٣٠، ٣١ - وبين جزء من اختار الإيمان فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ كلام مستأنف بيان للأجر المبهم. ولك أن تجعل: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ و﴿أُولَٰئِكَ﴾ خبرين معاً. والمراد: من أحسن منهم عملاً، كقولك: السمن مَنَوْنٌ^(١) بدرهم. أو: لأن ﴿من أحسن عملاً﴾ و﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ينتظمهما معنى واحد، فأقام ﴿من أحسن﴾ مقام الضمير ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ «من» للابتداء. وتكثير «أساور» - وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار - لإبهام أمرها في الحسن ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ «من» للتبيين ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ﴾ ما رق من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه، أي: يجمعون بين النوعين ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ خصّ الالتكاء؛ لأنه هيئة المتنعمين، والملوك على أسرّتهم. ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ﴾ الجنة ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنة، والأرائك ﴿مُرْتَقَقًا﴾ متكأ.

٣٢ - ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ ومثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين - وكانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه: قَطْرُوس، والآخر مسلم اسمه: يهوذا - وقيل: هما المذكوران في ﴿وَالصَّافَاتِ﴾ في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فجعلها شطرين، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار، فقال المؤمن: اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا اشتري منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدق به. ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إني اشتري منك داراً في الجنة بألف، فتصدق

(١) «مَنَوْنٌ»: مثني مَنَاء، هو: كَيْل يُكَال به السمن وغيره. أو: ميزان يُوزَن به.

جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ
 ءَاتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ وَنْتَهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لِمَنْ ثَمَرُ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
 وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

به. ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للهور. ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار، فقال: اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدق به. ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمر به في حشمه، فتعرض له، فطرده، ووبخه على التصدق بماله ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ بستانين من كروم ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجتتين. وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة. يقال: حقوه؛ إذا أطافوا به، وحففته بهم، أي: جعلتهم حافين حوله. وهو متعد إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة، لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن، والترتيب الأنيق.

٣٣ - ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ﴾ أعطت. حمل على اللفظ، لأن لفظ كلتا مفرد. ولو قيل: «آتتا» على المعنى لجاز ﴿أُكْلَهَا﴾ ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِمِ وَنْتَهُ﴾ ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ نعتها بوفاء الثمار، وتقام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب، فجعله أفضل ما يسقى به، وهو النهر الجاري فيها.

٣٤ - ﴿وَكَانَ لِمَنْ ثَمَرُ﴾ لصاحب الجنتين ﴿ثَمَرُ﴾ أنواع من المال. من: ثمر ماله: إذا كثره، أي: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب، والفضة، وغيرهما ﴿لَهُ ثَمَرُ﴾ «وأحيط بثمره» بفتح الميم والشاء: عاصم، وبضم الشاء، وسكون الميم: أبو عمرو، وبضمهما: غيرهما ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه الكلام، من حار يحور: إذا رجع، يعني: قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما، ويفاخره بما ملك من المال دونه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أنصاراً وحشماً، أو: أولاداً ذكوراً؛ لأنهم ينفرون معه دون الإناث.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ

٣٥- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ إحدى جنتيه، أو: سمّاهما جنة لاتحاد الحائط، وجنتين: للنهر الجاري بينهما ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ضار لها بالكفر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ أي: أن تهلك هذه الجنة. شك في بيدودة جنته لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق السنة أحوالهم بذلك.

٣٦- ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض، كما يزعم صاحبه، ليجد في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، ادعاء لكرامته عليه، ومكانته عنده ﴿منقلباً﴾ تمييز، أي: مرجعاً، وعاقبة.

٣٧- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك؛ لأن خلق أصله سبب في خلقه، وكان خلقه خلقاً له ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: خلقك من نطفة ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ عدلك، وكمّلك إنساناً، ذكراً، بالغاً مبلغ الرجال. جعله كافراً بالله لشكّه في البعث.

٣٨- ﴿لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ بالألف في الوصل: شامي. الباقون: بغير ألف. وبالألف في الوقف اتفاق. وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة، وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان، فأدغمت الأولى في الثانية بعد أن سكنت ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ «هو» ضمير الشأن. والشأن الله ربي. والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه ياء الضمير، وهو استدراك لقوله: ﴿أكفرت﴾. قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب لكنّ عمراً حاضر. وفيه حذف، أي: أقول: هو الله بدليل عطف ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

٣٩- ﴿وَلَوْلَا﴾ وهلاً ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة المحلّ على أنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. أو: شرطية

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّ أُنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِمْ فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كَفِّيهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

منصوبة الموضع، والجزاء محذوف، يعني: أي شيء شاء الله كان. والمعنى: هلا قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها: الأمر ﴿ما شاء الله﴾ اعترافاً بأنها وكل ما فيها إنما حصل بمشيئة الله، وأن أمرها بيده، إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها، وتدير أمرها هو بمعونته، وتأيدته من قرأ: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنْ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا﴾ بنصب ﴿أَقَلَّ﴾ فقد جعل ﴿أَنَا﴾ فصلاً. ومن رفع - وهو الكسائي - جعله مبتداً و﴿أَقَلَّ﴾ خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لـ «ترني» ﴿وَوَلَدًا﴾ فيه نصرة لمن فسر النفر بالآولاد في قوله: ﴿وَأَعَزُّنَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

٤٠- ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا، أو: في العقبى. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً بيضاء، يزلق عليها للاستها.

٤١- ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ غائراً، أي: ذاهباً في الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ فلا يتأتى منك طلبه، فضلاً عن الوجود. والمعنى: إن ترن أفقر منك، فأننا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي، وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك، ويسلبك لكفرك نعمته، ويخرب بساتينك.

٤٢- ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِمْ﴾ هو عبارة عن إهلاكه. وأصله: من: أحاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه، واستولى عليه. ثم استعمل في كل إهلاك ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: الكافر ﴿يُقْلَبُ كَفِّيهِ﴾ يضرب إحداها على الأخرى ندماً، وتحسراً. وإنما تقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر؛ لأنّ النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كما كُني عن ذلك بعض الكف، والسقوط في اليد. ولأنه في معنى الندم عدي تعديته بعل، كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عمارتها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على

وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةٍ يَصْرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٢﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ

الأرض، وسقطت فوقها الكروم ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٣﴾ تذكر موعظة أخيه، فعلم أنه أتى من جهة كفره وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمني. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان.

٤٣- ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةٍ يَصْرُونَهُ﴾ يقدر على نصرته ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هو وحده القادر على نصرته، لا يقدر أحد غيره أن ينصره، إلا أنه لم ينصره لحكمة ﴿وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله.

٤٤- ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ﴿يَكُنْ﴾ بالياء، و﴿الولاية﴾ بكسر الواو: حمزة، وعليّ. فهي بالفتح: النصر، والتولي، وبالكسر: السلطان، والملك. والمعنى ﴿هنالك﴾ أي في ذلك المقام، وتلك الحال النصر لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه. تقريراً لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. أو: ﴿هنالك﴾ السلطان والملك ﴿لِلَّهِ﴾ لا يغلب. أو: في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله، ويؤمن به كل مضر. يعني: أن قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كلمة ألجئ إليها، فقالها جزعاً ممّ دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. أو: ﴿هنالك الولاية لله﴾ ينصر فيها أوليائه المؤمنين على الكفرة، ويتقم لهم. يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ ويرسل عليها حساباً من السماء ﴿ويؤيده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه. أو: ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الآخرة، أي: في تلك الدار ﴿الولاية لله﴾ كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿الْحَقِّ﴾ بالرفع: أبو عمرو، وعليّ، صفة للولاية. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي الحق، أو: هو الحق. غيرهما بالجر، صفة لله ﴿عقباً﴾ بسكون القاف: عاصم، وحمزة. وبضمها: غيرهما، وفي الشواذ ﴿عقبى﴾ على وزن فعلى. وكلها بمعنى العاقبة.

٤٥- ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: هي كماء أنزلناه

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴿٤٥﴾ أَلَمَّا وَالْبُنُوتَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

من السماء ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتفت بسببه، وتكاثف، حتى خالط بعضه بعضاً. أو: أثر في النبات الماء، فاختلط به، حتى روي ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً، مُتَكَسِّراً. الواحدة: هشيمة ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ تنسفه، وتطيره ﴿الرِّيحُ﴾: حزمة، وعلي ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنشاء، والإفناء ﴿مُقْدِرًا﴾ قادراً. شبه حال الدنيا في نضرتها، وبهجتها، وما يتعقبها من الهلاك والإفناء، بحال النبات يكون أخضر، ثم يبيج، فتطيره الريح كان لم يكن.

٤٦- ﴿أَلَمَّا وَالْبُنُوتَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا زاد القبر، وعدة العقبى ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ جزاء ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأنه وعد صادق، وأكثر الآمال كاذبة، يعني: أن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

٤٧- ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ ﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: مكى، وشامي، وأبو عمرو، أي: تسير في الجو، أو: يذهب بها بأن تجعل هباءً منثوراً، منشأ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال، والأشجار ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: الموتى ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فلم نترك. غادره، أي: تركه، ومنه الغدر: ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل.

٤٨- ﴿وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ مصطفين، ظاهرين، ترى جماعتهم كما ترى كل واحد، لا يحجب أحد أحداً. شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾. وهذا المضمرة يجوز أن يكون عامل النصب في ﴿يوم نسير﴾ ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: لقد بعشناكم كما أنشأناكم أول مرة، أو: جئتمونا عراة لا شيء معكم، كما خلقناكم أولاً. وإنما قال: ﴿وحشرناهم﴾ ماضياً بعد ﴿نسير﴾ و﴿ترى﴾ للدلالة على حشرهم

بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿١٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ
وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّئَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٢٠﴾ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ

قبل التسيير، وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأحوال، كأنه قيل: ﴿وحشرناهم﴾
قبل ذلك ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على السنة
الأنبياء من البعث والنشور، أو: مكان وعد للمحاسبة.

٤٩- ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ أي: صحف الأعمال ﴿فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾
خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّئَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: لا يترك شيئاً من المعاصي ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ حصرها،
وضبطها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ في الصحف عتيداً. أو: جزاء ﴿ما عملوا﴾
﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل، أو: يزيد في عقابه، أو: يعذبه
بغير جرم.

٥٠- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود تحية، أو: سجود انقياد
﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهو مستأنف، كأن قائلًا قال: ما له لم
يسجد؟ فقيل: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ خرج عما أمره ربه به من
السجود. وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ
وَذُرِّيَّتَهُ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه
وذريته ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ وتستبدلونهم بي؟ ومن ذريته: لا قيس: موسوس
الصلاة، والأعور: صاحب الزنى، وبتر: صاحب المصائب، ومطوس: صاحب
الأراجيف، وداسم: يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾
أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ بئس البذل من الله إبليس لمن استبدله، فاطاعه بدل
طاعة الله.

٥١- ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ أي: إبليس، وذريته ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني:

وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة، وإنما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية. فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأعتضد بهم في خلقها، أو: أشاورهم فيه، أي: تفردت بخلق الأشياء، فأفردوني في العبادة ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: ﴿وَلَا نَقْتُلُوهَا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي: وما كنت متخذهم ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعواناً، فوضع المضلين موضع الضمير ذماً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟!

٥٢- ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله للكفار. وبالنون: حمزة ﴿نَادُوا﴾ ادعوا بصوت عال ﴿شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم فيكم شركائي يمنعوكم من عذابي. وأراد الجن، وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ مهلكاً، من: وبقَ يبقَ وبقواً: إذا هلك، أو: مصدر كالموعد، أي: ﴿وجعلنا بينهم﴾ وادياً من أودية جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد، مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، أو: الملائكة، وعزيراً، وعيسى. والموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً؛ لأنهم في قعر جهنم، وهم في أعلى الجنان.

٥٣- ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ فاقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ غالطوها، واقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا﴾ عن النار ﴿مَصْرِفًا﴾ معدلاً.

٥٤- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجون إليه ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ تمييز، أي: أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل - إن فصلتها واحداً بعد واحد - خصوصاً، وممارسة الباطل، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ

٥٥ - ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: سببه، وهو الكتاب والرسول ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ﴿أَنْ﴾ الأولى: نصب، والثانية: رفع. وقبلها مضاف محذوف، تقديره: ﴿وما منع الناس﴾ الإيمان، والاستغفار إلا انتظار ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهي الإهلاك، أو: انتظار ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ كوفي، أي: أنواعاً، جمع: قبيل. الباقون ﴿قُبُلًا﴾ أي: عياناً.

٥٦ - ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يوقف عليه، ويستأنف بقوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ هو قولهم للرسول: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ونحو ذلك ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليزيلوا، ويبطلوا بالجدال النبوة ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ «ما» موصولة. والراجع من الصلة محذوف، أي: وما أُنذروه من العقاب، أو: مصدريّة، أي: وإنذارهم ﴿هُزُوًا﴾ موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة: حمزة. وبإبدال الهمزة واواً: حفص. وبضمّ الزاي والهمزة غيرهما.

٥٧ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بالقرآن؛ ولذلك رجع الضمير إليها مذكراً في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتذكر حين ذكر، ولم يتدبر ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ عاقبة ﴿ما قدمت يدها﴾ من الكفر والمعاصي، غير متفكر فيها، ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بُدَّ لهما من جزاء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية. جمع كنان، وهو: الغطاء ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقلاً عن استماع الحق. وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه ﴿وَلَنْ تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد

إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدَوْا إِذَا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبِرْحَ حَقٌّ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ

﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى الإيمان ﴿فَلَنْ يَهْتَدَوْا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة ﴿إِذَا﴾ جزءا وجواب. فدلّ على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول - بمعنى: أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه - وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ ف قيل: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدَوْا إِذَا﴾ ﴿أَبَدًا﴾ مدة التكليف كلها.

٥٨- ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلاً، مع فرط عداوتهم لرسول الله ﷺ ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو يوم بدر ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ منجى، ولا ملجأ. يقال: وأل: إذا نجا، وأل إليه: إذا لجأ إليه.

٥٩- ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿الْقُرَى﴾ صفة؛ لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس. والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾. أو: ﴿تلك القرى﴾ نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير، والمعنى: ﴿وتلك﴾ أصحاب ﴿القرى أهلكناهم﴾. والمراد: قوم نوح، وعاد، وثمود ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه، كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر. والمهلك: الإهلاك ووقته. ويفتح الميم وكسر اللام: حفص. ويفتحهما: أبو بكر، أي: لوقت هلاكهم، أو لهلاكهم. والموعد: وقت أو مصدر.

٦٠- ﴿وَإِذْ﴾ واذكر ﴿إِذْ﴾ ﴿قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ هو يوشع بن نون. وإنما قيل: فتناه؛ لأنه كان يخدمه، ويتبعه، ويأخذ منه العلم ﴿لَا آتِبِرْحَ﴾ لا أزال. وقد حذف الخبر لدلالة الحال، والكلام عليه. أمّا الأولى: فلأنها كانت حال سفر. أمّا الثاني: فلأن قوله: ﴿حَقٌّ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ غاية مضروبة

أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

تستدعي ما هي غاية له. فلا بد أن يكون المعنى: ﴿لا أبرح﴾ أسير ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾. وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر - عليهما السلام -. وهو ملتقى بحر فارس والروم. وسُمِّي خضرًا لأنه أينما يصل يخضر ما حوله ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو: أسير زماناً طويلاً، قيل: ثمانون سنة. روي أنه لما ظهر موسى - عليه السلام - على مصر مع بني إسرائيل، واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربّه: أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني، ولا ينساني. قال: فأني عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق، ولا يتبع الهوى. قال: فأني عبادك أعلم؟ قال: الذي يتنغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى، أو: تردّه عن ردى. فقال: إن كان في عبادك مَنْ هو أعلم مِنِّي، فدلّني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يارب! كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكنل، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني. فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت، ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة فإذا رجل مُسَجَّى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بأرضنا السلام؟! فعرفه نفسه. فقال: يا موسى! أنا على علم علّمنيّه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علّمكّه الله لا أعلمه أنا.

٦١ - ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: نسي أحدهما، وهو يوشع لأنه كان صاحب الزاد، دليله: ﴿فَأَنِّي نَسِيتَ الْحُوتَ﴾ وهو كقولهم: نسوا زادهم، وإنما ينساه متعهد الزاد. قيل: كان الحوت سمكة مملوحة، فتزلا ليلة على شاطئ عين الحياة، ونام موسى. فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت، ووقعت في الماء ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: اتخذ طريقاً له من البرّ إلى البحر ﴿سَرَبًا﴾ نصب على المصدر، أي: سرب فيه سرباً، يعني: دخل فيه، واستتر به.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْلَقْدَ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ
 أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
 فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ
 عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ
 عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

٦٢- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين، ثم نزلوا وقد سارا ما شاء الله ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْلَقْدَ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ تعباً، ولم يتعب، ولا جاع قبل ذلك.

٦٣- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ هي موضع الموعد ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ ثم اعتذر فقال: ﴿وَمَا أَنَسِيْنِيهُ﴾ وبضم الهاء: حفص ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ بالقاء الخواطر في القلب ﴿أَنْ أَذْكُرْهُ﴾ بدل من الهاء في: ﴿أنسانيه﴾ أي: وما أنساني ذكره ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وهو أنَّ أثره بقي إلى حيث سار.

٦٤- ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ نطلب. وبالياء: مكِّي. وافقه أبو عمرو، وعلي، ومدني في الوصل. ويغير ياء فيهما غيرهما اتباعاً لخط المصحف. و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي كنا نطلب؛ لأنَّ ذهاب الحوت كان علماً على لقاء الخضر - عليه السلام - ﴿فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاء فيه ﴿قَصَصًا﴾ يقصان ﴿قَصَصًا﴾ أي: يتبعان آثارهما اتباعاً، قال الزجاج: القصص: اتباع الأثر.

٦٥- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: الخضر راقداً تحت ثوب، أو: جالساً في البحر ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ هي: الوحي والنبوة، أو: العلم، أو: طول الحياة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: الإخبار بالغيوب. وقيل: العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الإلهام.

٦٦- ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد أرشد به في ديني ﴿رُشْدًا﴾ أبو عمرو، وهما لغتان، كالبخل والبخل. وفيه دليل

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا

على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

٦٧ - ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ ^(١) ويفتح الياء: حفص. وكذا ما بعده في هذه السورة ﴿صَبْرًا﴾ أي: عن الإنكار، والسؤال.

٦٨ - ﴿وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ تمييز. نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير. والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزع إذا رأى ذلك، فكيف إذا كان نبياً؟!

٦٩ - ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ من الصابرين عن الإنكار، والاعتراض ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ في محل نصب عطف على ﴿صَابِرًا﴾ أي: ﴿ستجدني... صابراً﴾ وغير عاصٍ. أو: هو عطف على ﴿ستجدني﴾ ولا محل له.

٧٠ - ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بفتح اللام وتشديد النون: مدني، وشامي. ويسكون اللام وتخفيف النون: غيرهما. والياء ثابتة فيهما إجماعاً ﴿عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً، وقد علمت أنه صحيح، إلا أنه خفي عليك وجه صحته، فأنكرت في نفسك، ألا تفتأ تخني بالسؤال، ولا تراجعني فيه؛ حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من أدب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع.

٧١ - ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلما ركبها قال أهلها: هما من اللصوص. وقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء، فحملوهما بغير نول، فلما لججوا ^(٢) أخذ الخضر الفأس

(١) في الأصل المخطوط: ﴿مَعِيَ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو،

وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٨٢).

(٢) «لججوا»: بلغوا لجة البحر، أي: غرّضه.

قَالَ أَخْرِقْنَهَا لِلْغُرُقِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

فخرق السفينة، بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسدّ الخرق بشيابه. ثم ﴿قَالَ أَخْرِقْنَهَا لِلْغُرُقِ أَهْلَهَا﴾: «ليغرق أهلها» حمزة، وعليّ، من: غرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتيت شيئاً عظيماً، من: أمر الأمر: إذا عظم. ٧٢- ﴿قَالَ﴾ أي: الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

٧٣- فلما رأى موسى أنّ الخرق لا يدخله الماء، ولم يفرّ من السفينة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيت، أو: بشيء نسيت، أو: بنسياني، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذه على الناسي، أو أراد بالنسيان الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أوّل مرة ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ رهقه: إذا غشيه. وأرهقه إياه، أي: ولا تُغشني عسراً من أمري، وهو: اتّباعه إياه، أي: ولا تعسر عليّ متابعتك، ويسرها عليّ بالإغضاء، وترك المناقشة.

٧٤- ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: ضرب برأسه الحائط. وقيل: أضجعه، ثم ذبحه بالسكين. وإنما قال: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ بالفاء، وقال: ﴿أَخْرِقَهَا﴾ بغير فاء؛ لأنّ خرقها جعل جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء ﴿قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا﴾ وإنما خولف بينهما؛ لأنّ خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام ﴿زَكِيَّةً﴾ (زاكية): حجازي، وأبو عمرو. وهي الطاهرة من الذنوب، إمّا لأنها طاهرة عنده؛ لأنّه لم يرها قد أذنبت، أو: لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل نفساً فيقتصر منها. وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: أنّ نجدة الحروريّ كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ وبضم الكاف حيث كان: مدني، وأبو بكر. وهو المنكر. وقيل: النكر أقل من الإمر؛ لأنّ قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. أو: معناه

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحُنِيْ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّيْ عُذْرًا ﴾ ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَنُخَذْتُ عَلَيْهِ آجْرًا ﴿٧٧﴾

﴿جئت شيئاً﴾ أنكر من الأول؛ لأن الخرق يمكن تداركه بالسد، ولا يمكن تدارك القتل.

٧٥- ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ زاد ﴿ لك ﴾ هنا؛ لأن النكر فيه أكثر.

٧٦- ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ بعد هذه الكرة، أو: المسألة ﴿ فَلَا تُصْبِحُنِيْ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّيْ عُذْرًا ﴾ أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق. و﴿ لدني ﴾ بتخفيف النون: مدني، وأبو بكر.

٧٧- ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ هي: أنطاكية، أو: الأيلة، وهي أبعد أرض الله من السماء! ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا ﴾ استضافا ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ ضيقه: أنزله، وجعله ضيفه قال ﷺ: «كانوا أهل قرية لثاماً»^(١). وقيل: شر القرى التي تبخل بالقرى ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا ﴾ في القرية ﴿ جِدَارًا ﴾ طوله مئة ذراع ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ يكاد يسقط. استعيرت الإرادة للمدانة والمشارفة، كما استعير الهم والعزم لذلك ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ بيده، أو: مسحه بيده، فقام، واستوى، أو: نقضه، وبناه. كانت الحال حال اضطراب وافتقار إلى الطعام، وقد لزمتهما^(٢) الحاجة إلى آخر كسب المرء، وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً. فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَنُخَذْتُ عَلَيْهِ آجْرًا ﴾ أي: لطلبت على عملي جُعلاً حتى تستدفع به الضرورة ﴿ لَنُخَذْتُ ﴾ بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال: بصري. وبإظهارها: مكّي. ويتشديد التاء وفتح الخاء وإظهار الذال: حفص. ويتشديد التاء وفتح الخاء وإدغام الذال في

(١) رواه النسائي في الكبرى (١١٣٠٧).

(٢) «لزمتهما»: اضطرتهما، وألجأتها.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ فَنُحِشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

التاء: غيرهم. والتاء في تخذ أصل، كما في تبع. واتخذ: افتعل منه، كاتبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

٧٨- ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذه إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ وقد قرئ به. فأضيف المصدر إلى الظرف، كما يضاف إلى المفعول به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

٧٩- ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قيل: كانت عشرة إخوة، خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أمامهم، أو: خلفهم، وكان طريقهم في رجوعهم عليه، وما كان عندهم خبره، أعلم الله به الخضر، وهو جلندي ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة، لا عيب فيها ﴿غصبًا﴾، وإن كانت معيبة تركها. وهو مصدر، أو: مفعول له. فإن قلت: قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب، قلت: المراد به التأخير، وإنما قدم للعناية.

٨٠- ﴿وَأَمَّا الْفُلَّةُ﴾ وكان اسمه: الحسين ﴿فَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ فَنُحِشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فحفنا أن يُغْشِيَ الوالدين المؤمنين ﴿طغيانًا﴾ عليهما ﴿وكفرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه، وسوء صنيعه، ويُلحق بهما شرًا وبلاء، أو: يُعديهما بدائه، ويُضللهم بضلاله، فيرتدأ بسببه. وهو من كلام الخضر. وإنما خشي الخضر منه ذلك، لأنه تعالى أعلمه بحاله، وأطلعه على سر أمره، وإن كان من قول الله تعالى فمعنى: ﴿فَنُحِشِينَا﴾ فعلمنا إن عاش أن يصير سبباً لكفر والديه.

٨١- ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾: مدني، وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ طهارة، ونقاء من الذنوب ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفًا. و﴿زكاة﴾

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَمْرِئِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

و﴿رحمًا﴾ تمييز. رُوي أنه وُلدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبيًا، أو: سبعين نبيًا. أو: أبدلها ابناً مؤمناً مثلهما. ﴿رُحْمًا﴾: شامي. وهما لغتان.

٨٢ - ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾ أصرم، وصريم ﴿يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هي: القرية المذكورة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلا الله محمد رسول الله. أو: مال مدفون من ذهب وفضة، أو: صحف فيها علم. والأول أظهر. وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا، وحرم علينا، وحزمت الغنيمة عليهم، وأحللت لنا ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ قيل: جدّهما السابع ﴿صَالِحًا﴾ ممن يصحّبه. وعن الحسين بن علي - رضي الله عنهما -: أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدي خير منه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: الحلم ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً﴾ مفعول له، أو: مصدر منصوب بـ «أَرَادَ رَبُّكَ» لأنه في معنى رحمهما ﴿مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عَنْ أَمْرِئِ﴾ عن اجتهادي، وإنما فعلته بأمر الله. والهاء تعود إلى الكل، أو: إلى الجدار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأجوبة الثلاثة ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ حذف التاء تخفيفاً. وقد زلّ أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي. وهو كفر جلّي حيث قالوا: أمر موسى بالتعلم من الخضر، وهو ولي! والجواب: أن الخضر نبي، وإن لم يكن - كما زعم البعض - فهذا ابتلاء في حق موسى - عليه السلام - على أن أهل الكتاب يقولون: إن موسى هذا ليس موسى بن عمران، إنما هو موسى بن مئان، ومن المحال أن يكون الولي ولياً إلا بإيمانه بالنبي، ثم يكون النبي دون الولي! ولا غضاضة في طلب موسى العلم، لأنّ الزيادة في العلم مطلوبة. وإنما ذكر

وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَعَآيِنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَغُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

أولاً: ﴿فأردت﴾ لأنه إفساد في الظاهر، وهو فعله، وثالثاً: ﴿فأراد ربك﴾ لأنه إنعام محض، وغير مقدور البشر، وثانياً: ﴿فأردنا﴾ لأنه إفساد من حيث الفعل، إنعام من حيث التبديل. وقال الزجاج: معنى: ﴿فأردنا﴾: فأراد الله عز وجل. ومثله في القرآن كثير.

٨٣- ﴿وَسْأَلُونَكَ﴾ أي: اليهود على جهة الامتحان، أو: أبو جهل وأشياعه ﴿عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين وسليمان، وكافران: نمرود ويختنصر. وكان بعد نمرود. وقيل: كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وسخر له النور والظلمة. فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل: نبياً، وقيل: ملكاً من الملائكة. وعن عليّ - رضي الله عنه - أنه قال: ليس بملك ولا نبي، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فُسِّمِي ذا القرنين، وفيكم مثله، أراد نفسه. قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد، فيقتلونهم، فيحييه الله تعالى. وقال عليه الصلاة والسلام: «سُمِّي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا»^(١) يعني: جانبيها؛ شرقها وغربها. وقيل: كان له قرنان، أي: صغيرتان، أو انقرض في وقته قرنان من الناس، أو: لأنه ملك الروم وفارس، أو: الترك والروم، أو: كان لتاجه قرنان، أو: على رأسه ما يشبه القرنين، أو: كان كريم الطرفين أباً وأماً. وكان من الروم ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾.

٨٤- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا له فيها مكانة، واعتلاء ﴿وَعَآيِنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أرادته من أغراضه، ومقاصده في ملكه ﴿سَبَبًا﴾ طريقاً موصلاً إليه.

٨٥- ﴿فَأَنْبَغُ سَبَبًا﴾ السبب: ما يتوصل به إلى المقصود من علم، أو: قدرة

(١) قال الحافظ: لم أجده مرفوعاً. (حاشية الكشاف ٧٤٣/٢).

حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقُرَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعْذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

فأراد بلوغ المغرب ﴿فأتبع سبياً﴾ يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق فأتبع سبياً، وأراد بلوغ السدين فأتبع سبياً. ﴿فأتبع﴾ ﴿ثم أتبع﴾: كوفي، وشامي. الباقر بوصل الألف وتشديد التاء. عن الأصمعي: ﴿أتبع﴾ لحق. و﴿أتبع﴾ اقتفى، وإن لم يلحق.

٨٦ - ﴿حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: منتهى العمارة نحو المغرب، وكذا المطلع. قال ﷺ: «بدء أمره أنه وجد في الكتب: أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد، فجعل يسير في طلبها، والخضر وزيره وابن خالته، فظفر فشرب، ولم يظفر ذو القرنين»^(١) ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة، من: حمئت البئر: إذا صارت فيها الحمأة. (حامية): شامي، وكوفي، غير حفص، بمعنى حارة. وعن أبي ذر: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال: «أتدري يا أباذر أين تغرب هذه؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تغرب في عين حامية»^(٢). وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - عند معاوية فقرأ معاوية: ﴿حامية﴾ فقال ابن عباس: ﴿حمئة﴾ فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأها؟ فقال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطن، كذلك نجده في التوراة، فوافق قول ابن عباس - رضي الله عنهما - ولا تنافي. فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ عراة من الثياب، لباسهم جلود الصيد، وطعامهم ما لفظ البحر. وكانوا كفاراً ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقُرَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعْذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إن كان نبياً فقد أوحى الله إليه بهذا، وإلا فقد أوحى إلى نبي فأمره النبي به، أو: كان إلهاماً. خير بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم، وبين أن يتخذ فيهم حسناً بإكرامهم، وتعليم

(١) رواه أبو داود (٤٠٠٢).

(٢) انظر: الدر المنثور (٤٤٤/٥ - ٤٤٨).

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُم مِّنْ أَمْرٍ يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنبَأَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

الشرائع إن آمنوا أو: التعذيب: القتل، واتخاذ الحسن: الأسر؛ لأنه بالنظر إلى القتل إحسان.

٨٧- ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا﴾ في القيامة، يعني: أما من دعوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم، وهو الشرك، فذاك هو المعذب في الدارين.

٨٨- ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: عمل ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فله جزاء الفعلة الحسنى؛ التي هي كلمة الشهادة ﴿جزاء الحسنى﴾ كوفي، غير أبي بكر، أي: فله الفعلة الحسنى جزاء ﴿وَسَنَقُولُ لَهُم مِّنْ أَمْرٍ يُسْرًا﴾ أي: ذا سر، أي: لا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة، والخراج، وغير ذلك.

٨٩ ، ٩٠- ﴿ثُمَّ أَنبَأَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم الزنج ﴿لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا﴾ من دون الشمس ﴿سِتْرًا﴾ أي: أبنية. عن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوها، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معاشهم. أو: الستر: اللباس. عن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.

٩١- ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: كما وصفناه، تعظيماً لأمره ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود، والآلات، وأسباب الملك ﴿خُبْرًا﴾ نصب على المصدر؛ لأنَّ في ﴿أَحَطْنَا﴾ معنى: خبرنا. أو: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها. أو: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني: أنهم كفرة مثلهم، وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ
تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ

٩٢، ٩٣ - ﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا﴾ ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴿٩٢﴾ بين الجبلين. وهما جبلان؛ سدّ ذو القرنين ما بينهما. ﴿السَّدَّيْنِ﴾ و﴿سَدًّا﴾: مكّي، وأبو عمرو، وحفص ﴿السَّدَّيْنِ﴾ و﴿سُدًّا﴾: حمزة، وعليّ. وبضمهما: غيرهم. قيل: ما كان مسدوداً خلقه فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح. وانتصب ﴿بين﴾ على أنّه مفعول به لـ ﴿بلغ﴾، كما انجرّ بالإضافة في: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ وكما ارتفع في ﴿لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] لأنّه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً. وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ من ورائهما ﴿قَوْمًا﴾ هم الترك ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لا يكادون يفهمونه إلّا بجهد ومشقة، من إشارة، ونحوها. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: حمزة، وعليّ، أي: لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛ لأنّ لغتهم غريبة، مجهولة.

٩٤ - ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ هما اسمان أعجميّان بدليل منع الصرف، وهما عاصم فقط، وهما من ولد يافث. أو: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجليل، والديلم ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون شيئاً أخضر إلّا أكلوه، ولا يابساً إلّا احتملوه، ولا يموت أحدهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلّهم قد حلّ السلاح، وقيل: هم على صنفين، طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ (خراجاً): حمزة، وعليّ، أي: جعلاً نخرجه من أموالنا، ونظيرهما: النول، والنوال ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

٩٥ - ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام. وبفكّه^(١). مكّي ﴿فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما جعلني ﴿فيه﴾ مكيناً من كثرة المال، واليسار ﴿خير﴾ تما تبدلون لي من

(١) أي: فك الإدغام (ما مكَّنِّي).

فَأَعِثُّنِي يَوْمَ يُنْفَخُ أَجَلُكُمْ وَيَنْتَهُمُ رَدْمًا ﴿٩٦﴾ أَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَقًّا إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَقًّا إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٧﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا ﴿٩٨﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي

الخراج، فلا حاجة لي إليه ﴿فَأَعِثُّنِي يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بفعلة، وصناع يحسنون البناء، والعمل، وبالألات ﴿أَجَلُكُمْ وَيَنْتَهُمُ رَدْمًا﴾ جداراً، أو: حاجزاً حصيناً موثقاً. والردم أكبر من السد.

٩٦- ﴿أَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد. والزبرة: القطعة الكبيرة. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر، والنحاس المذاب. والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم، حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمي، فاختلط، والتصق بعضه ببعضه، وصار جبلاً صلباً، وقيل: بُعد ما بين السدين مئة فرسخ ﴿حَقًّا إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بفتحيتين: جانبي الجبلين؛ لأنهما يتصادفان، أي: يتقابلان. ﴿الصَّدَفَيْنِ﴾: مكّي، وبصري، وشامي. ﴿الصَّدَفَيْنِ﴾: أبو بكر ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ أي: ﴿قال﴾ ذو القرنين للعملة^(١): ﴿انفخوا﴾ في الحديد ﴿حَقًّا إِذَا جَعَلَهُ﴾ أي: المنفوخ فيه، وهو الحديد ﴿نَارًا﴾ كالنار ﴿قَالَ أَتُونِي﴾ أعطوني ﴿أُفْرِغْ﴾ أصب ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاساً مذاباً، لأنه يقطر. وهو منصوب بأفرغ، وتقديره: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. ﴿قال اتوني﴾ بوصل الألف: حمزة. وإذا ابتداء كسر الألف، أي: جيئوني.

٩٧- ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾ بحذف التاء للخفة؛ لأن التاء قرية المخرج من الطاء ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوا السد ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا﴾ أي لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه، ولا نقب لصلابته.

٩٨- ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾ أي: هذا السدّ نعمة من الله، ورحمة على عباده، أو: هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فإذا دنا مجيء يوم

جَعَلَهُمْ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

القيامة، وشارف أن يأتي ﴿جَعَلَهُمْ﴾ أي: السدَّ ﴿دَكَّاءَ﴾^(١) أي: مذكوكاً مبسوطاً، مسوى بالأرض. وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك. ﴿دَكَّاءَ﴾: كوفي، أي: أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ آخر قول ذي القرنين.

٩٩- ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وجعلنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ بعض الخلق ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ يختلط ﴿فِي بَعْضٍ﴾ أي: يضطربون، ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويموز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السدَّ مزدحمين في البلاد. وروي: أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به من الناس، ولا يقدر أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفاً^(٢) في أقفاصهم، فيدخل في آذانهم، فيموتون. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَهُمْ﴾ أي: جمع الخلائق للثواب والعقاب. ﴿جَمْعًا﴾ تأكيد.

١٠٠- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وأظهرناها لهم، فرأوها، وشاهدوها.

١٠١- ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي يُنظر إليها أو: عن القرآن فأذكره بالتعظيم، أو: عن القرآن، وتأمل معانيه. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: كانوا صمماً عنه، إلا أنه أبلغ إذ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به. وهؤلاء كأنهم أُصميت أسماعهم، فلا استطاعة بهم للسمع.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿دكاً﴾. وهي قراءة: ابن عامر، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، وهيرة عن حفص عن عاصم. وقال غير هيرة عن حفص عن عاصم: ﴿دكاء﴾ ممدوداً. معجم القراءات القرآنية (١٨/٤)، والسبعة في القراءات (ص ٤٠٢).

(٢) «النغف»: الدود الأبيض الذي يكون في النوى إذا أنقع، أو يكون في أنوف الإبل والغنم.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾

١٠٢ - ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أظن الكفار اتخاذهم عبادي، يعني: الملائكة وعيسى - عليهم السلام - أولياء نافعهم؟! بش ما ظنوا. وقيل: ﴿أَنْ﴾ بصلتها سد مسد مفعولي ﴿أَفَحَسِبَ﴾. و﴿عِبَادِي﴾ أولياء مفعولا ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ وهذا أوجه، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ هو ما يقام للنزول، وهو الضيف. ونحوه: ﴿فَنَبِّئُهُمْ بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

١٠٣ - ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ «أعمالاً» تميز. وإنما جمع - والقياس أن يكون مفرداً - لتنوع الأهواء. وهم: أهل الكتاب، أو: الرهبان.

١٠٤ - ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ﴾ ضاع وبطل. وهو في محل الرفع، أي: هم ﴿الذين﴾ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

١٠٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ فلا يكون لهم عندنا وزن، ومقدار.

١٠٦ - ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ هي عطف بيان لـ: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا﴾ أي: جزاؤهم جهنم بكفرهم، واستهزائهم بآيات الله، ورسله.

١٠٧، ١٠٨ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ تحولاً إلى غيرها، رضاً بما أعطوا. يقال: حال من مكانه حولاً. أي: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم، وأمانيتهم. وهذه غاية الوصف، لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثْنَا بِمِثْلِهِ
 مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
 فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

كان فهو طامعٌ، مائل الطرف إلى أرفع منه. أو: المراد: نفي التحول، وتأكيـد
 الخلود.

١٠٩- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: ماء البحر ﴿مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قال أبو عبيدة:
 المداد: ما يكتب به، أي: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً
 لها - والمراد بالبحر: الجنس - ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثْنَا بِمِثْلِهِ﴾ بمثل
 البحر ﴿مَدَدًا﴾ لنفد أيضاً، والكلمات غير نافدة. و﴿مدداً﴾ تمييز، نحو: لي
 مثله رجلاً. والمدد مثل المداد، وهو: ما يمدّ به. ﴿ينفد﴾: حمزة، وعليّ.
 وقيل: قال حمي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
 كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تفرّون ﴿وَمَا أُوتِشِرْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:
 ٨٥] فتزلت، يعني: أنّ ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

١١٠- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾
 فمن كان يأمل حسن لقاء ربّه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، أو: فمن كان
 يخاف سوء لقاء ربّه. والمراد باللقاء: القدوم عليه. وقيل: رؤيته كما هو حقيقة
 اللفظ، والرجاء على هذا مجرى على حقيقته ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ خالصاً،
 لا يريد به إلا وجه ربّه، ولا يخلط به غيره. وعن يحيى بن معاذ: هو
 ما لا يُستحى منه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هو نهى عن الشرك، أو: عن الرياء.
 قال ﷺ: «اتَّقُوا الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال:
 «الرياء»^(١).

قال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فهو معصومٌ ثمانية أيّام من كلّ فتنة
 تكون. فإن يخرج الدّجال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدّجال. ومن قرأ
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إلى آخرها عند مضجعه كان له نوراً يتلألأ

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه، والثعلبي (حاشية الكشاف ٧٥١/٢).

.....

من مضجعه إلى مكّة، حشو ذلك النور ملائكة، يصلّون عليه حتّى يقوم عن مضجعه. وإن كان مضجعه بمكّة فتلاها كان له نوراً يتلأأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة، يصلّون عليه، ويستغفرون له حتّى يستيقظ^{(١)(٢)}.

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه إسحاق والبخاري (حاشية الكشاف ٧٥١/٢).

(٢) هنا ينتهي السقط الذي بدأ من الآية (٣٨) من سورة الرعد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيِّصَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا

١ - ﴿كَهَيِّصَ﴾ قال السُّدِّي: هو اسم الله الأعظم. وقيل: هو اسم للسورة. قرأ عليّ ويحيى بكسر الهاء والياء. ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب. وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء. وحزمة بعكسه. وغيرهم بفتحهما.

٢ - ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ، أي: هذا ﴿ذِكْرُ﴾ ﴿عَبْدُ﴾ مفعول الرحمة ﴿زَكِرِيَّا﴾ بالقصر: حمزة، وعليّ، وحفص. وهو بدل من ﴿عبده﴾.

٣ - ﴿إِذْ﴾ ظرف للرحمة ﴿نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ دعاه دعاء سرّاً كما هو المأمور به، وهو أبعدُ عن الرياء، وأقربُ إلى الصفاء. أو: أخفاه لئلا يُلَامَ على طلب الولد في أوان الكبر؛ لأنه كان ابن خمس وسبعين، أو: ثمانين سنة.

٤ - ﴿قَالَ رَبِّ﴾ هذا تفسير الدعاء. وأصله: يا ربّي، فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾: ضعف. وخصّ العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه. فإذا وهن تداعى، وتساقطت قوّته. ولأنّه أشدّ ما فيه، وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحدته؛ لأنّ الواحد هو الدالّ على معنى الجنسية. والمراد: أنّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشدّ ما تركّب منه الجسد قد أصابه الوهن ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز، أي: فشا في

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحًا ﴿١﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ

رأسي الشيب، واشتعال النار: إذا تفرقت في التهابها، وصارت شعلاً. شبه الشيب بشواظ النار في بياضه، وانتشاره في الشعر، وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار. ولا ترى كلاماً أفصح من هذا. ألا ترى أن أصل الكلام: يارب قد شخت، إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن، وشيب الرأس المتعرض لهما. وأقوى منه: ضعف بدني، وشاب رأسي، ففيه مزيد التقرير للتفصيل. وأقوى منه: وهنت عظام بدني. ففيه عدول عن التصريح إلى الكناية، فهي أبلغ منه. وأقوى منه: أنا وهنت عظام بدني. وأقوى منه: إني وهنت عظام بدني. وأقوى منه: إني وهنت العظام من بدني، ففيه سلوك طريق الإجمال والتفصيل. وأقوى منه: إني وهنت العظام مني، ففيه ترك توسيط البدن. وأقوى منه: إني وهنت العظم مني لشمول الوهن العظام فرداً فرداً، باعتبار ترك جمع العظم إلى الأفراد؛ لصحة حصول وهن المجموع ببعض دون كل فرد فرد. ولهذا تركت الحقيقة في: شاب رأسي إلى أبلغ، وهي الاستعارة، فحصل: اشتعل شيب رأسي. وأبلغ منه: اشتعل رأسي شيباً لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته، وهو الرأس لإفادة شمول اشتعال الرأس. إذ وزان: اشتعل شيب رأسي، واشتعل رأسي شيباً، وزان: اشتعل النار في بيتي، واشتعل بيتي ناراً. والفرق نير. ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز. وأبلغ منه: واشتعل الرأس مني شيباً لما مر. وأبلغ منه: واشتعل الرأس شيباً، ففيه اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا لقرينة العطف، على: وهن العظم مني ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، أي: بدعائي إياك ﴿رَبِّ شَقِيحًا﴾ أي: كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم، سعيداً به، غير شقي فيه. يقال: سعد فلان بحاجته؛ إذا ظفر بها، وشقي: إذا خاب، ولم ينلها. وعن بعضهم: أن محتاجاً سأل، وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته.

٥ - ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ هم عصيته: إخوته، وبنو عمه. وكانوا شرار بني إسرائيل، فخافهم أن يغيروا الدين، وآلا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبا صالحاً من صلبه، يقتدى به في إحياء الدين ﴿مِنْ وَرَأْيِ﴾ بعد موتي. وبالفصر

وَكَاَنَتِ آمْرَآتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنِّىٓ ءَالِ يَعْقُوبَ
وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَكْمَلُ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ
مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكََاَنَتِ آمْرَآتِي عَاقِرًا وَقَدْ
بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

وفتح الياء كهداي: مكّي. وهذا الظرف لا يتعلّق بخفت؛ لأنّ وجود خوفه بعد موته لا يتصور. ولكن بمحذوف. أو: بمعنى الولاية في ﴿الموالي﴾، أي: خفت فعل ﴿الموالي﴾ وهو تبديلهم، وسوء خلافهم ﴿من ورائي﴾. أو: ﴿خفت﴾ الذين يلون الأمر ﴿من ورائي﴾ ﴿وَكَاَنَتِ آمْرَآتِي عَاقِرًا﴾ عقيماً لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ اختراعاً منك بلا سبب: لأنّى وامرأتى لا نصلح للولادة ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً يلي أمرى بعدي.

٦- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ برفعهما صفة لـ «وليّاً» أي: هب لي ولداً وارثاً متي العلم، ومن آل يعقوب النبوة. ومعنى وراثة النبوة: أنّه يصلح لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوة تورث، وبجزمهما: أبو عمرو، وعليّ على أنّه جواب للدعاء. يقال: ورثته، وورثت منه ﴿مِنِّىٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضياً ترضاه، أو: راضياً عنك، وبحكمك. فأجاب الله تعالى دعاءه، وقال:

٧- ﴿يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَكْمَلُ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ تولى الله تسميته تشريفاً له. ﴿نَبَشِّرُكَ﴾ بالتخفيف: حمزة ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يسم أحد ييحيى قبله. وهذا دليل على أنّه في موضع الحال جدير بالآثرة. وقيل: مثلاً وشبهاً، ولم يكن له مثل في أنّه لم يعص، ولم يهّم بمعصية قطّ، وأنّه ولد بين شيخ وعجوز، وأنّه كان حصوراً.

٨- فلما بشرته الملائكة به ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وليس هذا باستبعاد، بل هو استكشاف أنّه بأيّ طريق يكون؟ أيوهب له وهو وامراته بتلك الحال، أم يحولان شائين؟ ﴿وَكَاَنَتِ آمْرَآتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: بلغت عتياً - وهو اليبس، والجساوة في المفاصل والعظام، كالعود اليابس - من أجل الكبر، والظعن في السنّ العالية. ﴿عِتِيًّا﴾ و﴿صِلِيًّا﴾

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾
 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٥﴾
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبِيحَى خُذِ
 الْكِتَابَ يَقُوقَ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾

[مريم: ٧٠] و﴿جِثْيَا﴾ [مريم: ٦٨] و﴿بُكْيَا﴾ [مريم: ٥٨] بكسر الأواصل: حمزة، وعلي، وحفص إلا في ﴿بُكْيَا﴾.

٩- ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ الكاف رفع، أي: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾. تصديق له. ثم ابتداء ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾. أو: نصب بقال. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى مبهم يفسره ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي: خلق يحى من كبيرين سهل ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أوجدتك من قبل يحى. (خلقناك): حمزة، وعلي ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ لأنَّ المعدوم ليس بشيء.

١٠- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعرف بها حبل امرأتي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تَكَلِّمَ﴾ أي: حال كونك سوي الأعضاء واللسان. يعني: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح ما بك خرس، ولا بكم. ودل ذكر الليالي هنا، والأيتام في آل عمران، على أنَّ المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيتام ولياليهن، إذ ذكر الأيتام يتناول ما يبازيها من الليالي. وكذا ذكر الليالي يتناول ما يبازيها من الأيتام عرفاً.

١١- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ من موضع صلاته. وكانوا ينتظرونه، ولم يقدر أن يتكلم ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أشار بأصبعه ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ صلوا، و﴿أَنْ﴾ هي المفسرة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ صلاة الفجر، والعصر.

١٢- ﴿يَبِيحَى﴾ أي: وهبنا له يحى، وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب: ﴿يَا يَحْيَى﴾ ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿يَقُوقَ﴾ حال، أي: بجذ، واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ الحكمة. وهو فهم التوراة، والفقهاء في الدين ﴿صَبِيًّا﴾ حال. قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي، فقال: ما للعب خلقنا.

وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ
أُنْبِئَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا
رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

١٣- ﴿وَحَنَانًا﴾ شفقة، ورحمة لأبويه وغيرهما. عطفًا على ﴿الحكم﴾ ﴿يَن﴾
﴿لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿وَزَكَاةً﴾ أي: طهارة وصلاحًا، فلم يعمل بذنب ﴿وَكَانَ
تَقِيًّا﴾ مسلمًا، مطيعًا.

١٤- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ بارًا بهما، لا يعصيهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبرًا
﴿عَصِيًّا﴾ عاصيًا لربه.

١٥- ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ أمان من الله له ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان ﴿وَيَوْمَ
يَمُوتُ﴾ من فتاني القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من الفرع الأكبر. قال ابن عيينة: إنها
أوحش المواطن.

١٦- ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾، أي: اقرأ عليهم في
القرآن قصة مريم ليقفوا عليها، ويعلموا ما جرى عليها ﴿إِذِ﴾ بدل من
﴿مريم﴾ بدل اشتغال؛ إذ الأحياء مشتملة على ما فيها. وفيه: أنَّ المقصود
بذكر مريم ذكر وقتها هذا؛ لوقوع هذه القصة العجيبة فيه ﴿أُنْبِئَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾
أي: اعتزلت ﴿مَكَانًا﴾ ظرف ﴿شَرْقِيًّا﴾ أي: تخلت للعبادة في مكان مما يلي
شرقي بيت المقدس، أو: من دارها معتزلة عن الناس. وقيل: قعدت في مشرقه
للاغتسال من الحيض.

١٧- ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ جعلت بينها وبين أهلها حجابًا يسترها
لتغتسل وراءه ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل - عليه السلام - والإضافة
للتشريف. وإنما سُمِّي روحاً لأن الدين يحيا به، ويوحيه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا﴾
أي: فتمثل لها جبريل في صورة آدمي شاب، أمرد، وضيء الوجه، جعد
الشعر، ﴿سَوِيًّا﴾ مستوي الخلق. وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس
بكلامه، ولا تنفر عنه. ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت، ولم تقدر على
استماع كلامه.

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَهَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

١٨- ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كان يرجى منك أن تتقي الله، فإني عائذة به منك.

١٩- ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أمتها مما خافت، وأخبر أنه ليس بآدمي، بل هو رسول من استعازت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله تعالى. أو: لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع. (ليهب لك) أي: الله: أبو عمرو، ونافع ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو: نامياً على الخير، والبركة.

٢٠- ﴿قَالَتْ أَنَّى﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ابن ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ زوج بالنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة تبغي الرجال، أي: تطلب الشهوة من أي رجل كان. ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين. والبغي: فعول عند المبرد: «بغوي» فقلبت^(١)، وأدغمت، وكسرت الغين إتباعاً، ولذا لم تلحق تاء التأنيث، كما لم تلحق في: امرأة صبور، وشكور. وعند غيره هي فاعل، ولم تلحقها الهاء؛ لأنها بمعنى: مفعولة. وإن كانت بمعنى فاعلة، فهو قد يشبه به مثل: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٢١- ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر كما قلت: لم يمسسك رجل نكاحاً، أو: سفاحاً ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ أي: إعطاء الولد بلا أب عليّ سهل ﴿وَلَنَجْعَلَ لَهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تعليل معلله محذوف، أي: ﴿وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك. أو: هو معطوف على تعليل مضمر، أي: لنبين به قدرتنا ﴿وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: عبرة، وبرهاناً على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ لمن آمن به ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً، مسطوراً في اللوح.

(١) أي: الواو ياء.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ٢٢ ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ ٢٣ ﴿ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾

٢٢- فلما اطمانت إلى قوله، دنا منها، فنفخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلى بطنها ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾، أي: الموهوب، وكان سنّها: ثلاث عشرة سنة، أو: عشرًا، أو: عشرين ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ﴾ اعتزلت وهو في بطنها. والجار والمجرور في موضع الحال. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته. وقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى. وقيل: حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعت في ساعة ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وذلك لأنها لما أحست بالحمل هربت من قومها، مخافة اللائمة.

٢٣- ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ جاء بها، وقيل: ألجأها. وهو منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءني زيد ﴿ الْمَخَاضُ ﴾ وجع الولادة ﴿ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أصلها. وكانت يابسة. وكان الوقت شتاء. وتعريفها مشعر بأنها كانت نخلة معروفة. وجاز أن يكون التعريف للجنس، أي: جذع هذه الشجرة، كأنه تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منه الرطب؛ لأنه خُرسَةُ النفساء، أي: طعامها. ثم ﴿ قَالَتْ ﴾ جزعاً مما أصابها ﴿ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ اليوم. مدني، وكوفي - غير أبي بكر - وغيرهم: بالضم. يقال: مات يموت، ومات يمات ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر. يفتح النون: حمزة، وحفص. وبالكسر: غيرهما. ومعناها واحد، وهو الشيء الذي حقه أن يطرح، وينسى لحقارته.

٢٤- ﴿ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ (١) أي: الذي تحتها. فـ «مَنْ» فاعل، وهو جبريل - عليه السلام - لأنه كان بمكان منخفض عنها. أو: عيسى - عليه السلام - لأنه خاطبها من تحت ذيلها. ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ مدني وكوفي، سوى أبي بكر، والفاعل

(١) في الأصل المخطوط: ﴿ مَنْ ﴾. وهي قراءة: عاصم، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وزر، ومجاهد، والجحدري، والحسن، وابن عباس، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/٣٩).

أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا

مضمرة، وهو عيسى عليه السلام، أو جبريل عليه السلام، والهاء في ﴿تحتها﴾ للنخلة. ولشدة ما لقيت. سُلِّيتْ بقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ لا تهتمي بالوحدة، وعدم الطعام والشراب، ومقالة الناس. و﴿أَنْ﴾ بمعنى: أي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ﴾ بقربك، أو: تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى، وإن أمرته أن يقف وقف ﴿سَرِيًّا﴾ نهراً صغيراً. عند الجمهور. وسُئِلَ النبي ﷺ عن السريِّ فقال: «هو الجدول»^(١). وعن الحسن: سيّداً كريماً، يعني: عيسى - عليه السلام - ورُوي أنّ خالد بن صفوان قال له: إنّ العرب تسمي الجدول سريّاً، فقال الحسن: صدقت. ورجع إلى قوله.

٢٥- وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ضرب عيسى، أو جبريل - عليهما السلام - بعقبه الأرض، فظهرت عين ماء عذب، فجرى النهر اليابس، فاخضرت النخلة، وأثمرت، وأينعت ثمرتها، ف قيل لها: ﴿وَهَزَيْتِ﴾ حركي ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى نفسك ﴿جَنَّةَ الْجَنَّةِ﴾ قال أبو علي: الباء زائدة، أي: هزيت جذع النخلة ﴿تَسْقُطُ عَلَيْكَ﴾ بإدغام التاء الأولى في الثانية: مكّي، ومدني، وشامي، وأبو عمرو، وعليّ، وأبو بكر. والأصل: «تساقط» بإظهار التاءين. و﴿تساقط﴾ بفتح التاء والقاف، وطرح التاء الثانية، وتخفيف السين حمزة. و﴿يساقط﴾ بفتح الياء والقاف وتشديد السين: يعقوب، وسهل، وحمّاد ونصير. و﴿تساقط﴾: حفص، من المفاعلة. وتُسْقِطُ وَيُسْقِطُ وَتَسْقُطُ وَيَسْقُطُ، التاء للنخلة، والياء للجنح فهي تسع قراءات ﴿رَطْبًا﴾ تمييز، أو: مفعول به على حسب القراءة ﴿جَنِيًّا﴾ طريّاً. وقالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض من العسل.

٢٦- ﴿فَكُلِي﴾ من الجنّي ﴿وَاشْرَبِي﴾ من السريّ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالولد الرضيّ. و﴿عَيْنًا﴾ تمييز، أي: طيبي نفساً بعيسى، وارفضي عنك ما أحزنك

فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئَةُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ
هَٰؤُلَاءِ مَا كَانَ آبَاؤُكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ يَغِيًّا ﴿٢٨﴾

﴿فَإِمَّا﴾ أصله: إن ما، فضممت إن الشرطية إلى ما، وأدغمت فيها ﴿تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك صمتاً، وإسكاً عن الكلام. كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: صياماً حقيقة، وكان صومهم فيه الصمت، فكان التزامه التزامه. وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت، فصار ذلك منسوخاً فينا، وإنما أمرت أن تنذر السكوت؛ لأن عيسى - عليه السلام - يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها، ولئلا تجادل السفهاء. وفيه أن السكوت عن السفه واجب. وما قُدِّع^(١) سفيه بمثل الإعراض، ولا أطلق عنانه بمثل العراض. وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة. وقد تسمى الإشارة كلاماً وقولاً. ألا ترى إلى قول الشاعر في وصف القبور:

وتكلمت عن أوجه تبلى

وقيل: كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام. أو: سوَّغ لها هذا القدر بالنطق ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ آدمياً.

٢٧- ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا﴾ بعد ما طهرت من نفاسها ﴿تَحْمِلُهُ﴾ حال منها، أي: أقبلت نحوهم حاملة إياه، فلما رأوه معها ﴿قَالُوا يَمْرِئَةُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ بديعاً عجيباً. والفري: القطع، كأنه يقطع العادة.

٢٨- ﴿يَتَأَخَتِ هَٰؤُلَاءِ﴾ وكان أخاها من أبيها، ومن أفضل بني إسرائيل. أو: هو أخو موسى - عليهما السلام - . وكانت من أعقابها، وبينهما ألف سنة. وهذا كما يقال: يا أخا همدان! أي: يا واحداً منهم! أو: رجل صالح، أو طالح في زمانها، شبهوها به في الصلاح، أو: شتموها به ﴿مَا كَانَ آبَاؤُكَ﴾ عمران ﴿أَمْرًا سَوْءًا زَانِيًا﴾ ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ﴾ حنة ﴿بَغِيًّا﴾ زانية.

(١) قُدِّع: كُفَّ ومُنِع.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا
دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

٢٩- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى أن يجيبهم، وذلك أن عيسى - عليه السلام - قال لها: لا تحزني، وأحيل بال جواب عليّ. وقيل: أمرها جبريل بذلك. ولما أشارت إليه غضبوا، وتعجبوا، و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ﴾ حدث، ووجد ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ المعهود ﴿صَبِيًّا﴾ حال.

٣٠- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ولما أسكتت بأمر الله لسانها الناطق، أنطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية، وهو ابن أربعين ليلة، أو: ابن يوم. روي أنه أشار بسبابته، وقال بصوت رفيع: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾. وفيه ردّ لقول النصارى ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ روي عن الحسن: أنه كان في المهد نبياً، وكلامه معجزته. وقيل: معناه: أن ذلك سبق في قضائه، أو: جعل الآتي لا محالة كأنه وجد.

٣١- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ نفاعاً حيث كنت، أو: مُعلِّماً للخير ﴿وَأَوْصَانِي﴾ وأمرني ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إن ملكت مالا. وقيل: صدقة الفطر. أو: تطهير البدن. ويحتمل: وأوصاني بأن آمركم ﴿بالصلاة والزكاة﴾ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ نصب على الظرف، أي: مدة حياتي.

٣٢- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ﴾ عطفاً على ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: باراً بها، أكرمها، وأعظمها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبِّراً ﴿شَقِيًّا﴾ عاقاً.

٣٣- ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ «يوم» ظرف. والعامل فيه الخبر، وهو: ﴿عَلَيَّ﴾ ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ؛ إن كان حرف التعريف للعهد. وإن كان للجنس، فالمعنى: وجنس السلام ﴿عَلَيَّ﴾. وفيه تعريضٌ باللعنة على أعداء مريم وابنها؛ لأنه إذا قال: وجنس السلام عليّ فقد عرّض بأن ضده عليكم، إذ المقام مقام منكرة وعناد، فكان مَثْنَةً لمثل هذا التعريض.

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَلَٰنَ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ

٣٤- ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿عِيسَى﴾ خبره ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نعته، أو: خبر ثان، أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قال: إني عبد الله وكذا وكذا ﴿عِيسَى ابْن مريم﴾ لا كما قالت النصارى: إنه إله، أو: ابن الله! ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ كلمة الله. فالقول: الكلمة، والحق: الله. وقيل له: ﴿كلمة الله﴾ لأنه ولد بقوله: كن، بلا واسطة أب. وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر. أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: بدل. ونصبه: شامي، وعاصم على المدح ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون، من المرية: الشك. أو: يختلفون من المراء، فقالت اليهود: ساحر كذاب. وقالت النصارى: ابن الله، وثالث ثلاثة.

٣٥- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ما ينبغي له ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ جيء بمن لتأكيد النفي ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نزه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) بالنصب: شامي، أي: كما قال لعيسى كن، فكان من غير أب. ومن كان متصفاً بهذا كان منزهاً أن يشبه الحيوان الوالد.

٣٦- ﴿وَلَٰنَ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بالكسر: شامي، وكوفي على الابتداء. وهو من كلام عيسى، يعني: كما أنا عبده فأنتم عبيده، وعليّ وعليكم أن نعبد. ومن فتح عطف على ﴿بالصلاة﴾ أي: ﴿وأوصاني بالصلاة وبالزكاة﴾ وبأن ﴿الله ربّي وربكم﴾ أو: علّقه بما بعده، أي: ولأن ﴿الله ربّي وربكم فاعبدوه﴾ هَٰذَا الذي ذكرت ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

٣٧- ﴿فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ﴾ الحزب: الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها. وهم ثلاث فرق: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين أصحاب عيسى، أو: من بين قومه، أو: من بين الناس. وذلك: أن النصارى اختلفوا في عيسى حين رفع، ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة، كانوا عندهم

(١) في الأصل المخطوط: ﴿فَيَكُونُ﴾.

قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنِ الظَّالِمُونَ
الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

أعلم أهل زمانهم، وهم: يعقوب، ونسطور، وملكاء^(١). فقال يعقوب: هو الله هبط إلى الأرض، ثم صعد إلى السماء. فقال نسطور: كان ابن الله، أظهره ما شاء، ثم رفعه إليه. وقال الثالث: كذبوا، كان عبداً مخلوقاً نبياً، فتبع كل واحد منهم قوم ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأحزاب، إذ الواحد منهم على الحق ﴿مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو: من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة، والأنبياء، وجوارحهم بالكفر. أو: من مكان الشهادة، أو: وقتها. أو: المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه. وجعله يوماً عظيماً لفظاً ما شهدوا به في عيسى.

٣٨- ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا﴾ الجمهور على أن لفظه أمر، ومعناه التعجب، والله تعالى لا يوصف بالتعجب. ولكن المراد أن إسماعهم وإبصارهم جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صمّاً عمياً في الدنيا. قال قتادة: إن عموا وصمتوا عن الحق في الدنيا، فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم! ﴿وَبِهِمْ﴾ مرفوع المحل على الفاعلية، كأكرم بزيد، فمعناه: كرم زيد جداً ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أقيم الظاهر مقام الضمير أي: لكنهم ﴿اليوم﴾ في الدنيا بظلمهم أنفسهم، حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم، ووضعوا العبادة في غير موضعها ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عن الحق ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر، وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه - إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم.

٣٩- ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ خوفهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يقع فيه الندم على ما فات. وفي الحديث: «إذا رأوا منازلهم في الجنة أن لو آمنوا»^(٢) ﴿إِذْ﴾ بدل من يوم الحسرة، أو: ظرف للحسرة، وهو مصدر ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب، وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ هنا عن الاهتمام

(١) كذا في الأصل المخطوط والفصل في الملل والأهواء والنحل (٦٢/٢) وفي الكشف والقرطبي «ملكان».

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١٥٥/٣).

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾

لذلك المقام ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون به. و﴿هم﴾ و﴿هم﴾ حالان، أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين، غير مؤمنين.

٤٠- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نتفرد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلك، والفناء. وذكر ﴿من﴾ لتغليب العقلاء ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم. وفتح الياء: يعقوب، أي: يردون فيجازون جزاء وفاقاً.

٤١- ﴿وَادْكُرْ﴾ لقومك ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ قصته مع أبيه ﴿إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ بغير همز. وهمزة نافع. قيل: الصادق المستقيم في الأفعال، والصديق: المستقيم في الأحوال، فالصديق من أبنية المبالغة، ونظيره الضحيك.

والمراد: فرط صدقه، وكثرة ما صدق به من غيوب الله، وآياته، وكتبه، ورسله، أي: كان مصدقاً لجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبياً في نفسه. وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ما هو بدل منه، وهو:

٤٢- ﴿إِذْ قَالَ﴾ وجاز أن يتعلق ﴿إِذْ﴾ بكان، أو: ب﴿صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ أي: كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات. والمراد بذكر الرسول إياه، وقصته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس، ويبلغه إياهم، كقوله ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩] وإلا فالله عزّ وعلا هو ذاكره، ومورده في تنزيله ﴿لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ﴾ بكسر التاء. وفتحها: ابن عامر. والتاء عوض من ياء الإضافة. ولا يقال: يا أبتى؛ لثلا يجمع بين العوض والمعوّض منه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ المفعول فيهما منسّي غير منوئي، ويجوز أن يقدر، أي: لا يسمع شيئاً، ولا يبصر شيئاً ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ يحتمل أن يكون ﴿شيئاً﴾ في موضع المصدر، أي: ﴿شيئاً﴾ من الغنى وأن يكون مفعولاً به من قولك: أغن عني وجهك، أي: بقدر.

يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ يَتَابَتِ لَا
تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٤﴾ يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ
مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٥﴾

٤٣- ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحي، أو: معرفة الرب ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ «ما» في ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ و﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يجوز أن تكون موصولة، أو: موصوفة ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ﴾ أرشدك ﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مستقيماً.

٤٤- ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لا تطعه فيما سؤل من عبادة الصنم. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ عاصياً.

٤٥- ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ﴾ قيل: أعلم ﴿أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قريناً في النار تليه ويليك، فانظر في نصيحته أباه كيف راعى المجاملة، والرفق، والخلق الحسن كما أمر. ففي الحديث: «أوحى الله إلى إبراهيم: إِنَّكَ خَلِيلِي. فَحَسَّنْ خَلْقَكَ وَلَوْ مَعَ الْكُفَّارِ، تَدْخُلْ مَدَاحِلَ الْأَبْرَارِ»^(١). فطلب منه أولاً العلة في خطابه طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة - وهم الأنبياء - كان محكوماً عليه^(٢) بالغي المبين، فكيف بمن يعبد شجراً، أو حجراً لا يسمع ذكر عابده، ولا يرى هيئات عبادته، ولا يدفع عنه بلاء، ولا يقضي له حاجة؟! ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترقفاً به، متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إِنَّ مَعِيَ شَيْئاً مِنَ الْعِلْمِ لَيْسَ مَعَكَ، وإذا علم الدلالة على الطريق السوي، فهب أني وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه. ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه، أوقعك في عبادة الصنم، وزينها لك، فأنت عابده في الحقيقة. ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة، وما يجره ما هو فيه [من التبعة

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠/٨).

(٢) مستدرک من المطبوع.

قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَنَابِرَهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

والوبال^(١) مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به، وأن العذاب لاصق به. بل قال: ﴿أخاف أن يمسك عذاب﴾ بالتنكير المشعر بالتقليل، كأنه قال: إنني أخاف أن يصيبك نقيان - قليل - من عذاب الرحمن. وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب، كما أن رضوان الله أكبر من الصواب في نفسه. وصدر كل نصيحة بقوله: ﴿يا أبت﴾ توسلاً إليه، واستعطافاً، وإشعاراً بوجوب احترام الأب، وإن كان كافراً.

٤٦- فتمَّ ﴿قَالَ﴾ آزر توبيخاً: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَنَابِرَهِيمُ﴾ أي: أترغب عن عبادتها؟! فناداه باسمه، ولم يقابل ﴿يا أبت﴾ بـ «يابني». وقدم الخبر على المبتدأ؛ لأنه كان أهمّ عنده ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَه﴾ عن شتم الأصنام ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالرجام لأقتلنك بالحجارة، أو: لأضربنك بها حتى تتباعد، أو: لأشتمنك ﴿وَأَهْجُرَنِي﴾ عطف على محذوف، يدلّ عليه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تقديره: فاحذرنى ﴿واهجرنى﴾ ﴿مَلِيًّا﴾ ظرف، أي: زماناً طويلاً. من: الملاوة.

٤٧- ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع، ومتاركة، أو: تقريب، وملاطفة. ولذا وعده بالاستغفار بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة، بأن يهديك للإسلام ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ملطفاً بعموم النعم، أو: رحيماً، أو: مكرماً. والحفاوة: الرأفة، والكرامة.

٤٨- ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أراد بالاعتزال: المهاجرة من أرض بابل إلى الشام. ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من أصنامكم ﴿وَأَدْعُوا﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾. ثم قال تواضعاً، وهضمًا للنفس، ومعرّضاً بشقاوتهم بدعاء آلهتهم: ﴿عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام.

فَلَمَّا أَعَزَّاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ
وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا لَهُمْ إِسْهَاقَ صِدِّيقًا ۖ وَآذَكُرَّ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ۖ
إِنَّهُمْ كَانُوا مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَنَدَبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ
وَوَهَبْنَا لَهُمِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ

٤٩- ﴿ فَلَمَّا أَعَزَّاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فلما اعتزل الكفار، ومعبودهم ﴿ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ ﴾ ولداً ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ نافلة ليستأنس بهما ﴿ وَكُلًّا ﴾ أي: وكل واحد منهما ﴿ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾، أي: لما ترك الكفار الفجار لوجهه؛ عوضه أولاداً مؤمنين، أنبياء.

٥٠- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا ﴾ هي: المال، والولد ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ إِسْهَاقَ صِدِّيقًا ﴾ ثناء حسناً، وهو: الصلاة على إبراهيم، وآل إبراهيم في الصلوات. وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد، وهي: العطية ﴿ عَلِيًّا ﴾ رفيعاً، مشهوراً.

٥١- ﴿ وَآذَكُرَّ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُخْلِصًا ﴾ كوفي، غير المفضل، أي: أخلصه الله، واصطفاه و﴿ مُخْلِصًا ﴾ غيرهم، أي: أخلص هو العبادة لله تعالى، فهو مخلص بما له من السعادة بأصل الفطرة، مخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ فالرسول الذي معه كتاب من الأنبياء. والنبي: الذي ينبيء عن الله - عز وجل - وإن لم يكن معه كتاب كيشوع.

٥٢- ﴿ وَنَدَبْنَاهُ ﴾ دعوانه، وكلمناه ليلة الجمعة ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ هو جبل بين مصر ومدين ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ من اليمين، أي: من ناحيته اليمنى. والجمهور على أن المراد: أيمن موسى - عليه السلام - لأن الجبل لا يمين له. والمعنى: أنه حين أقبل من مدين يريد مصر، نودي من الشجرة، وكانت في جانب الجبل على يمين موسى - عليه السلام - ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ تقريب منزلة ومكانة، دون منزل ومكان ﴿ نَجِيًّا ﴾ حال، أي: مناجياً، كنديم بمعنى: مناد.

٥٣- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمِنْ رَحْمِنَا ﴾ من أجل رحمتنا، وترؤفنا عليه ﴿ أَخَاهُ ﴾ مفعول ﴿ هَارُونَ ﴾ بدل منه ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال، أي: وهبنا له نبوة أخيه، وإلا فهارون كان أكبر سنًا منه.

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا
نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

٥٤ - ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم في الأصح ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ
الْوَعْدِ﴾ وافيهِ، وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يعود إليه، فانتظره سنة في مكانه
حتى عاد. وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى. وقيل: لم يعد ربه
موعداً إلا أنجزه. وإنما خصه بصدق الوعد - وإن كان موجوداً في غيره من
الأنبياء - تشريفاً له، ولأنه المشهور من خصاله ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى جرحهم ﴿نَبِيًّا﴾
غبراً منذراً.

٥٥ - ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أمته؛ لأن النبي أبو أمته، وأهل بيته. وفيه دليل
على أنه لم يدهن غيره ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يحتمل أنه إنما خصت هاتان
العبادتان؛ لأنهما أما العبادات البدنية، والمالية ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ قرىء:
(مرضوا) على الأصل.

٥٦ - ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو أخنوخ، أول مرسل بعد آدم - عليه
السلام - وأول من خط بالقلم، وخاط اللباس، ونظر في علم النجوم
والحساب، واتخذ الموازين، والمكاييل، والأسلحة، فقاتل بني قابيل. وقولهم:
سُمي به لكثرة دراسته كتاب الله، لا يصح؛ لأنه لو كان «إفيعيلاً» من الدرس،
لم يكن فيه إلا سبب واحد، وهو العلمية، وكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف
دليل العجمة ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

٥٧ - ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله. وقيل: معناه:
رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة. وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج فيها. وعن
الحسن: إلى الجنة، لا شيء أعلى من الجنة. وذلك: أنه حُب لكثرة عبادته إلى
الملائكة، فقال لملك الموت: أذقني الموت يهن عليّ، ففعل ذلك بإذن الله فحيي.
وقال: أدخلني النار أزد ربه ففعل. ثم قال: أدخلني الجنة أزد رغبة، ففعل
وقال له: أخرج، فقال: قد ذقت الموت، ووردت النار، فما أنا بخارج من
الجنة، فقال الله عز وجل: بإذني فعل، وبإذني دخل، فدعه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكْيًا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ

٥٨- ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ «من» للبيان؛ لأن جميع الأنبياء مُنعم عليهم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ «من» للتبعض. وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، أي: يعقوب وهم: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى؛ لأن مريم من ذريته ﴿وَمِمَّنْ﴾ يحتمل العطف على ﴿من﴾ الأولى، والثانية ﴿هَدَيْنَا﴾ لمحاسن الإسلام ﴿وَاجَبَيْنَا﴾ من الأنام، أو: لشرح الشريعة، وكشف الحقيقة ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ أي: إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة. وهو كلام مستأنف إن جعلت ﴿الذين﴾ خبراً لـ ﴿أولئك﴾، وإن جعلته صفة له كان خبراً. ﴿يتلى﴾ بالياء: قتيبة؛ لوجود الفاصل، مع أنَّ التأنيث غير حقيقي ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ سقطوا على وجوههم ساجدين، رغبة ﴿وَبُكْيًا﴾ باكين رهبة. جمع باك، كسجود، وقعود، في جمع: ساجد، وقاعد. في الحديث: «اتلوا القرآن، وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»^(١). وعن صالح المري: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا صالح هذه القراءة، فأين البكاء؟ ويقول في سجدة التلاوة: سبحان ربي الأعلى، ثلاثاً.

٥٩- ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فجاء من بعد هؤلاء المفضلين ﴿خَلْفٌ﴾ أولاد سوء. وفتح اللام: لعقب الخير. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هم اليهود ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ تركوا الصلاة المفروضة ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ ملاذ النفوس. وعن علي - رضي الله عنه -: من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس

(١) رواه أحمد (١٧٥/١) وأبو داود (١٤٧٠) وابن ماجه (١٣٣٧) والدارمي (٣٤٩/١).

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُومًا بَيِّنًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا

المشهور. وعن قتادة : هو في هذه الأمة ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ جزاء غي. وكل شر عند العرب: غي، وكل خير: رشاد. وعن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهم -: هو واد في جهنم أعد للمصر على الزنى، وشرب الخمر، وأكل الربا، والعاق، وشاهد الزور.

٦٠- ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ رجع عن كفره ﴿وَأَمَنَ﴾ بشرطه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بعد إيمانه ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ ^(١) بضم الياء وفتح الخاء: مكّي، وبصري، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ولا يمنعون، بل يضاعف لهم. أو: ولا يظلمون شيئاً من الظلم.

٦١- ﴿جَنَّاتٍ﴾ بدل من ﴿الجنة﴾ لأن الجنة تشتمل على ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ لأنها جنس، أو: نصب على المدح ﴿عَدْنٍ﴾ معرفة؛ لأنه علم لمعنى العدن، وهو: الإقامة. أو: علم لأرض الجنة لكونها مكان إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ أي: ﴿عباده﴾ التائبين المؤمنين؛ الذين يعملون الصالحات؛ كما سبق ذكرهم، ولأنه أضافهم إليه، وهو للاختصاص، وهؤلاء أهل الاختصاص ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: وعدّها وهي غائبة عنهم، غير حاضرة. أو: غائبون عنها، لا يشاهدونها ﴿إِنَّهُمْ﴾ ضمير الشأن، أو: ضمير الرحمن ﴿كَانُوا وَعَدُومًا﴾ أي: موعوده، وهو: الجنة ﴿مَائِنًا﴾ أي: هم يأتونها.

٦٢- ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ فحشاً، أو كذباً، أو مالا طائلاً تحته من الكلام، وهو: المطروح منه. وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه، حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: لكن يسمعون سلاماً من الملائكة، أو: من بعضهم على بعض. أو: لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، فهو استثناء منقطع عند الجمهور. وقيل:

(١) في الأصل المخطوط: ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَأْكُلِ آيَاتِنَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

معنى السلام هو: الدعاء بالسلامة. ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة، كان ظاهره من باب اللغو: وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار ثم؛ لأنهم في النور أبداً، وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ومقدار الليل بإرخائها. والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب، فوصف الله جنته بذلك. وقيل: أراد: دوام الرزق، كما تقول: أنا عند فلان بكرة وعشيّاً، تريد: الدوام.

٦٣- ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نجعلها ميراث أعمالهم، يعني: ثمرتها وعاقبتها. وقيل: يرثون المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا؛ لأن الكفر موت حكماً ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ عن الشرك.

٦٤- عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(١) والتنزل على معنيين: معنى: النزول على مهل، ومعنى: النزول على الإطلاق، والأول أليق هنا، يعني: أن نزولنا في الأحيان وقتاً غب وقت ليس إلا بأمر الله ﴿لَمْ يَأْكُلِ آيَاتِنَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: له ما قدامنا، وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيها، فلا نتمالك أن نتنقل من مكان إلا بأمر الملك ومشيتته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث من الأحوال، لا تجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنتي لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه؟!

٦٥- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ﴿رَبُّكَ﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال لرسوله: لما عرفت أنه

فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرِجَ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ

متصف بهذه الصفات ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ فأنبت على عبادته، ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: اصطر على مكافأة الحسود لعبادة المعبود، واصطر على المشاق لأجل عبادة الخلاق، أي: لتتمكن من الإتيان بها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ شبيهاً، ومثلاً، أو: هل يسمي أحد باسم الله غيره؟ لأنه مخصوص بالمعبود بالحق، أي: إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده؛ لم يكن بد من عبادته، والاصطبار على مشاقها.

٦٦- تهافت أبي بن خلف عظماً، وقال: أنبعث بعد ما صرنا كذا؟ فترل: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرِجَ حَيًّا﴾^(١) والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دل عليه الكلام، وهو أبعث، أي: إذ ما مِثُّ أبعث. وانتصابه بـ ﴿أُخْرِجَ﴾ ممتنع؛ لأن ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها، فلا تقول: اليوم لزيد قائم. ولا حم الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، وتؤكد مضمون الجملة، فلما جاءت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد، وضمحل معنى الحال. و﴿مَا﴾ في ﴿إِذَا مَا﴾ للتوكيد أيضاً، فكأنه قال: أحقاً أنا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد. وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل: أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكراً، ومنه جاء إنكارهم.

٦٧- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ خفيف: شامي، نافع، وعاصم، من: الذكر. والساثر: بتشديد الذال والكاف، وأصله ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ كقراءة أبي، فادغمت التاء في الذال، أي: ألا يتدبر؟ والواو عطف على ﴿يَذْكُرُ﴾ على ﴿يَقُولُ﴾ ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعني: أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر النشأة الأخرى؟ فإن تلك أدل على قدرة الخالق، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، وأما الثانية:

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٠٤).

أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا ﴿١٩﴾

فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة، وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل الحالة التي هو فيها، وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ هو دليل على ما بيّنا، وعلى أَنَّ المعدوم ليس بشيء، خلافاً للمعتزلة.

٦٨ - ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: الكفار المنكرين للبعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ الواو للعطف. وبمعنى مع أوقع، أي: يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووه، يقرن كلّ كافر مع شيطان في سلسلة. وفي إقسام الله باسمه مضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ حال، جمع جاث، أي: بارك على الركب. ووزنه فعول؛ لأنَّ أصله جثو، كسجود وساجد، أي: يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلاً على حالهم؛ التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم.

٦٩ - ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ طائفة شاعت - أي: تبعت - غاوية من الغواية ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾ جراءة، أو فجوراً، أي: لنخرجنّ من كلّ طائفة من طوائف الغي أعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، نقدّم أولاهم بالعذاب فأولاهم. وقيل: المراد بأشدّهم عتياً: الرؤساء؛ لتضاعف جرمهم؛ بكونهم ضلّالاً ومضلّين. قال سيبويه: ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبني على الضمّ لسقوط صدر الجملة التي هي صلته، وهو «هو» من ﴿أشدّ﴾ حتّى لو جيء به لأعرب بالنصب. وقيل: أيُّهم هو أشدّ، وهذا لأنّ الصلة توضح الموصول وتبيّنه، كما أنّ المضاف إليه يوضح المضاف، ويخصّصه. فكما أنّ حذف المضاف إليه في ﴿من قبل﴾ يوجب بناء المضاف، وجب أن يكون حذف الصلة، أو شيء منها موجباً للبناء. وموضعها نصب بـ«نزع». وقال الخليل: هي معربة. وهي مبتدأ، و﴿أشدّ﴾ خبره. وهو رفعٌ على الحكاية، تقديره: ﴿لننزعنّ﴾ الذين يقال فيهم: ﴿أَيُّهم أشدّ على الرحمن عتياً﴾. ويجوز أن يكون النزع واقعاً على ﴿من كلّ شيعَةٍ﴾ كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٠] أي: لننزعنّ بعض كلّ شيعَةٍ، وكأنّ قائلًا قال: من هم؟ فقيل:

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَلَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

أيتهم أشدَّ عتياً. و﴿على﴾ يتعلّق بأفعل، أي: عتوهم أشدَّ على الرحمن.

٧٠- ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا﴾ أحقّ بالنار ﴿صِلِيًّا﴾ تمييز، أي: دخولاً. والباء تتعلّق بـ «أولى».

٧١- ﴿وَلَإِنْ مِّنكُمْ﴾ أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ داخلها. والمراد: النار. والورود: الدخول عند عليّ وابن عباس - رضي الله عنهم - وعليه جمهور أهل السنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨] ولقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُّولاً ۖ إِلَهَةً مَّا وَّرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩] ولقوله: ﴿ثُمَّ تَنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢] إذ النجاة إنّما تكون بعد الدخول، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلّا دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم»^(١). و«تقول النار للمؤمن: جز يا مؤمن؛ فإنّ نورك أطفأ لهبي»^(٢). وقيل: الورد بمعنى الدخول؛ لكنّه يختصّ بالكفار؛ لقراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -: (وإن منهم) وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات. وعن عبد الله: الورد: الحضور، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وأجيب عنه بأن المراد: عن عذابها. وعن الحسن وقتادة: الورد: المرور على الصراط؛ لأنّ الصراط ممدود عليها، فيسلم أهل الجنة، ويتقاذف أهل النار. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار: وهو منّ الحمى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الحمى حظّ كلّ مؤمن من النار»^(٣). وقال رجل من الصحابة لآخر: أيقنت بالورود؟ قال: نعم. قال: وأيقنت بالصدر؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ وفيم التناقل؟ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم واجباً

(١) رواه أحمد (٣/٣٢٩).

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/٣٦٠) والدليمي في الفردوس (٢٣٦٥).

(٣) رواه البزار كما في كشف الأستار (٧٦٥).

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ ءَاهَلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾

كائنًا محكوماً به. والхتم: مصدر حتم الأمر؛ إذا أوجبه، فسمي به الموجب، كقولهم: ضرب الأمير.

٧٢- ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ وعلي: بالتخفيف ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك، وهم المؤمنون ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا﴾ فيه دليل على دخول الكل؛ لأنه قال: ﴿ونذر﴾ ولم يقل: وندخل. والمذهب أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه، ثم ينجو لا محالة، وقالت المرجئة الخبيثة: لا يعاقب؛ لأن المعصية لا تضر مع الإسلام عندهم. وقالت المعتزلة: يخلد.

٧٣- ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات الإعجاز أو حججاً وبراهين - حال مؤكدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] إذ آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً - ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مشركو قريش، وقد رَجَلُوا شعورهم، وتكلفوا في زيتهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ للفقراء، ورؤوسهم شعثة، وثيابهم خشنة ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن أم أنتم ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ بالفتح - وهو موضع القيام. والمراد: المكان، والمسكن. وبالضم: مكّي، وهو: موضع الإقامة والمنزل - ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً يجتمع القوم فيه للمشاورة. ومعنى الآية: أن الله تعالى يقول: إذ أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبر فيها إلى الافتخار بالثروة، والمال، وحسن المنزل والحال. فقال تعالى:

٧٤- ﴿وَكَذَٰلِكَ ءَاهَلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾ فـ ﴿كم﴾ مفعول أهلكنا، و﴿من﴾ تبين لإيهامها، أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنك لو تركت: ﴿هم﴾ كان ﴿أحسن﴾ نصباً على الوصفية ﴿أَثْنًا﴾ هو متاع البيت، أو: ما جد من الفرش ﴿وَرِيًّا﴾ منظراً وهيئة فعليل بمعنى مفعول، من: رأيت. ﴿وَرِيًّا﴾ بغير همز مشدداً: نافع، وابن عامر، على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم الإدغام. أو: من الري؛ الذي هو النعمة.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيِّنَاتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

٧٥- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ جواب ﴿مَنْ﴾ لأنها شرطية، وهذا الأمر بمعنى الخبر، أي: من كفر مد له الرحمن، يعني: أمهله، وأملى له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وإنما أخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممثل لتقطع معاذير الضلال ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ هي متصلة بقوله ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾. وما بينهما اعتراض، أي: لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعد رأياً عين ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا، وهو تعذيب المسلمين إياهم بالقتل، والأسر ﴿وَلِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وما ينالهم من الخزي، والنكال. فهما بدلان من ﴿ما يوعدون﴾ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا منزلاً ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أعواناً، وأنصاراً، أي: فحينئذ يعلمون أن الأمر على عكس ما قدروه، وأنهم شر مكاناً، وأضعف جنداً، لا خير مقاماً، وأحسن ندياً، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم. وجاز أن تتصل بما يليها. والمعنى: أن الذين في الضلالة محدود لهم في ضلالتهم، لا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصره الله المؤمنين، أو يشاهدوا الساعة. و«حتى» هي التي يحكي بعدها الجمل. ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها، وهي قوله: ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾.

٧٦- ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ معطوف على موضع ﴿فليمدد﴾ لوقوعه موضع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مد، أو: يمد له الرحمن و﴿يزيد﴾، أي: يزيد في ضلال الضلال بخذلانه، ويزيد المهتدين، أي: المؤمنين ﴿هدى﴾ ثباتاً على الاهتداء، أو يقيناً، وبصيرة بتوفيقه ﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّلَاحُ﴾ أعمال الآخرة كلها، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ مما يفتخر به الكفار ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مرجعاً وعاقبة وفي التفضيل تهكم بالكفار؛ لأنهم قالوا للمؤمنين:

أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ

﴿أَيَّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرَ مَقَامًا وَأَحْسَنَ نَدِيًّا﴾.

٧٧- ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ ثُمَّ. وبضم الواو وسكون اللام في أربعة مواضع: هاهنا، وفي الزخرف، ونوح: حمزة، وعليّ، جمع ولد، كأُسْد في أُسْد، أو: بمعنى الولد، كالعُزْب في العَرَب. ولما كانت رؤية الأشياء طريقاً إلى العلم بها، وصحة الخبر عنها استعملوا رأيت في معنى: أخبر. والفاء أفادت التعقيب، كأنه قال: أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك. وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّ﴾ جواب قسم مضمّر.

٧٨- ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ من قولهم: أطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه. الهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل محذوفة، أي: انظر في اللوح المحفوظ فرأى مُنْبِئَهُ؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ موثقاً أن يؤتبه ذلك. أو: العهد: كلمة الشهادة.

وعن الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة. والمشهور أنها في العاص بن وائل، فقد رُوي أنّ خباب بن الارتّ صاغ للعاص بن وائل حليّاً، فاقتضاه الأجر، فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون، وأنّ في الجنة ذهباً وفضّة، فأنا أقضيك ثمّ، فإنّي أوتي مالا وولداً حينئذ.

٧٩- ﴿كَلَّا﴾ رَدْع وتنبية على الخطأ، أي: هو مخطيء فيما يصوره لنفسه، فليرتدع ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: قوله. والمراد: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله، لأنّه كما قال: كتب من غير تأخير. قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وهو كقوله^(١):

إذ ما انتسبنا لم تَلِدْني لثيمة^(٢)

أي: علم وتبين بالانتساب أنّي لست بابن لثيمة ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ نزيده ﴿من العذاب﴾ كما يزيد في الافتراء والاجترأ. من: المدد، يقال: مدّه وأمدّه

(١) هو زائد بن صعصعة.

(٢) صدر بيت، وعجزه: ولم تجدي من أن تقري بها بدا.

مَذَا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾

بمعنى ﴿مَذَا﴾ أكد بالمصدر لغضبه تعالى.

٨٠- ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة. والمعنى: مسمى ما يقول وهو: المال، والولد ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ حال، أي: بلا مال ولا ولد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا﴾. [الأنعام: ٩٤]. فلا يجدي عليه تمثيه، وتأليته.

٨١- ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ أي: اتخذ هؤلاء المشركون أصناماً يعبدونها ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: ليتعززوا بآلهتهم، ويكونون لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب.

٨٢- ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عما ظنوا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الضمير للآلهة، أي: سيجحدون عبادتهم، وينكرونها، ويقولون: والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون. أو: للمشركين، أي: ينكرون أن يكونوا قد عبدوها، كقوله: ﴿وَاللَّوْرَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ﴿وَيَكُونُونَ﴾ أي: المعبودون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المشركين ﴿ضِدًّا﴾ خصماً؛ لأن الله تعالى ينطقهم، فيقولون: يارب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك. والصد يقع على الواحد والجمع. وهو في مقابلة: ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾. والمراد ضد العز، وهو: الذل، والهوان، أي: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ لما قصده، أي: يكونون عليهم ذلاً، لا لهم عزاً. وإن رجع الضمير في ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ و﴿يَكُونُونَ﴾ إلى المشركين، فالمعنى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أعداءهم ﴿ضِدًّا﴾ أي: كفره بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

٨٣- ثم عَجَّب نبيّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أي: خلقناهم وإياهم، من: أرسلت البعير: أطلقته. أو: سلطناهم عليهم بالإغواء ﴿تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ تغريمهم على المعاصي إغواء. والأز والهز أخوان ومعناهما: التهيج، وشدة الإزعاج.

٨٤- ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: إنما نعد لهم

يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

أعمالهم للجزاء، أو أنفاسهم للفناء. وقرأها ابن السماك عند المأمون، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد!

٨٥، ٨٦- ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ركبناً على نوق، رحالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين سوق الأنعام؛ لأنهم كانوا أضلّ من الأنعام ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾ عطاشاً؛ لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش. وحقيقة الورد: المسير إلى الماء، فيستوى به الواردون. فالوفد: جمع وافد، كركب، وراكب. والورد: جمع وارد. ونصب ﴿يوم﴾ بمضمر، أي: ﴿يوم نحشر﴾ ﴿ونسوق﴾ نفعل بالفريقين ما لا يوصف. أو: اذكر يوم نحشرهم.

ذُكِرَ الْمُتَّقُونَ بأنهم يُجْمَعُونَ إلى رَبِّهِمْ؛ الذي غمرهم برحمته، كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، والكافرون بأنهم يساقون إلى النار، كأنهم نعم عطاش يساقون إلى الماء استخفافاً بهم.

٨٧- ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ حال. والواو إن جعل ضميراً فهو للعباد، ودلّ عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة. ويجوز أن يكون علامة للجمع، كالتي في: أكلوني البراغيث، والفاعل ﴿من اتخذ﴾ لأنه في معنى الجمع. ومحلّ ﴿من اتخذ﴾ رفع على البدل من واو ﴿يملكون﴾ أو: على الفاعلية. أو: نصب على تقدير حذف المضاف، أي: ﴿إلا﴾ شفاعة ﴿من اتخذ﴾. والمراد: ﴿لا يملكون﴾ أن يُشْفَعَ لهم ﴿إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بأن آمن.

في الحديث: «من قال لا إله إلا الله كان له عند الله عهد»^(١). وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول

وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾

كلّ صباح ومساءً: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمداً عبداً ورسولك، وإنّك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشّر، وتباعدي من الخير، وإني لا أثق إلاّ برحمتك، فأجعل لي عهداً توفينيهِ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش. فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كان لهم عند الرحمن عهد؟ فيدخلون الجنة^(١). أو: يكون من: عهد الأمير إلى فلان بكذا: إذا أمره به، أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها.

٨٨- ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي: النصارى واليهود، ومن زعم أنّ الملائكة بنات الله.

٨٩- ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة. وهو ٢ التفات، وأمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم ذلك. الإذ: العَجَبُ، أو: العظيم المنكر. والإذّة: الشدة. وأذني الأمر: أثقلني، وعظم عليّ، أذاً.

٩٠- ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ تقرب. وبالياء: نافع، وعليّ ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ وبالنون: بصريّ، وشاميّ، وحزة، وخلف، وأبو بكر. الانفطار: من: فطره: إذا شقه. والتفطر من: فطره: إذا شققه ﴿مِنْهُ﴾ من عظم هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ تنخسف، وتنفصل أجزاءها ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ وتسقط ﴿هَذَا﴾ كسراً، أو قطعاً، أو هدماً. والهدّة: صوت الصاعقة من السماء. وهو مصدر، أي: تهّد هذا من سماع قولهم. أو: مفعول له، أو: حال، أي: مهدودة.

٩١- ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ لأن سمّوا. وعمله جر بدل من الهاء في ﴿منه﴾. أو: نصب مفعول له، علل الخور بالهدّ، والهدّ بدعاء الولد للرحمن. أو: رفع فاعل هذا، أي: هدها دعاؤهم ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشف ٣/٤٤).

وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَخَصَّنَّمْ وَعَدَّهَمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

٩٢- ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ انبغى: مطاوع بَغَى: إذ طلب، أي: ما يتأتى له اتخاذ الولد، وما ينطلب لو طُلب مثلاً؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة. وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة، وهو منزّه عنهما. وفي اختصاص الرحمن وتكريره كزاتٍ بيان أنه الرحمن وحده لا يستحقّ هذا الاسم غيره؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه، فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن.

٩٣- ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ﴾ نكرة موصوفة صفتها ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وخبر ﴿كُلِّ﴾ ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ﴾ ووحد ﴿آتَى﴾ و﴿آتِيهِ﴾ حملاً على لفظ ﴿كُلِّ﴾ وهو اسم فاعل، من: أتى. وهو مستقبل، أي: يأتيه ﴿عَبْدًا﴾، حال، أي: خاضعاً، ذليلاً، متقادماً. والمعنى: ما ﴿كُلِّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة والناس إلّا هو يأتي الله يوم القيامة مقراً له بالعبودية. والعبودية والبنوة تتنافيان حتّى لو ملك الأب ابنه يعتق عليه. ونسبة الجميع إليه نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون البعض ولداً والبعض عبداً؟. وقرأ ابن مسعود (آتِ الرحمن) على أصله قبل الإضافة.

٩٤- ﴿لَقَدْ أَخَصَّنَّمْ وَعَدَّهَمْ عَدًّا﴾ أي: حصرهم بعلمه، وأحاط بهم.

٩٥- ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ولا ولد، وبلا معين وناصر.

٩٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ مودة في قلوب العباد. قال الربيع: يحبّهم الله ويحبّهم إلى الناس. وفي الحديث: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ مِيقَةً^(١) فِي صَدُورِ الْأَبْرَارِ، وَمَهَابَةٌ فِي قُلُوبِ الْفَجَّارِ». وعن قتادة وهريم:

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه. وعن كعب: ما يستقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر له في السماء.

٩٧- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ سهلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك. حال ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ شداداً في الخصومة بالباطل، أي: الذين يأخذون في كلٍ لديد، أي: شق، من: المراء والجدال. جمع: ألد. يريد أهل مكة.

٩٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ تخويف لهم، وإنذار ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل تجد، أو ترى، أو تعلم - والإحساس: الإدراك بالحاسة - ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتاً خفياً. ومنه: الركاز، أي: لما أتاهاهم عذابنا لم يبق شخص يرى، ولا صوت يُسمع، يعني: هلكوا كلهم، فكذا هؤلاء، إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك؛ فعاقبتهم الهلاك، فليهن عليك أمرهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾

١ - ﴿طه﴾ فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء: أبو عمرو. وأمالهما: همزة، وعليّ، وخلف، وأبو بكر. وفخمهما على الأصل غيرهم. وما روي عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم أنّ معناه: يا رجل، فإن صحّ فظاهر، وإلا فالحق ما هو المذكور في سورة البقرة.

٢ - ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ إن جعلت ﴿طه﴾ تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ - و﴿القرآن﴾ ظاهر، أوقع موقع المضمّر لأنها قرآن - وأن يكون جواباً لها، وهي قسم ﴿لِتَشْقَى﴾ لتعب بفرط تأسفك عليهم، وعلى كفرهم، وتحسّرك على أن يؤمنوا، أو: بقيام الليل. فإنه رُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورّمت قدماه. فقال له جبريل عليه السلام: أبقِ على نفسك، فإنّ لها عليك حقاً^(١). أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة.

٣ - ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع، أي: لكن أنزلناه تذكرة. أو: حال ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ لمن يخاف الله، أو: لمن يؤول أمره إلى الخشية.

تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٢﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٣﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٥﴾

٤- ﴿تَنْزِيلًا﴾ بدل من ﴿تذكرة﴾ إذا جعل حالاً، ويجوز أن ينتصب بنزل مضمراً، أو: على المدح، أو: بـ ﴿يخشى﴾ مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ﴾ يتعلّق بـ ﴿تَنْزِيلًا﴾، صلة له ﴿الْعُلَى﴾ جمع العليا، تأنيث الأعلى. ووصف السموات بالعلی دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها.

٥- ﴿الرَّحْمَنُ﴾ رفع على المدح، أي: هو ﴿الرحمن﴾ ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿اسْتَوَى﴾ ^{استوى} ^{بلسان} ^{الزجاج} ونبه بذكر العرش - وهو أعظم المخلوقات - على غيره. وقيل: لما كان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك ممّا يردّف الملك، جعلوه كناية عن الملك، فقالوا: استوى على العرش. أي: ملك وإن لم يقعد على السرير البتة. وهذا كقولك: يد فلان مبسوطة، أي: جواد وإن لم يكن له يد رأساً. والمذهب قول عليّ - رضي الله عنه -: الاستواء غير مجهول، والتكليف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ لأنه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان، لم يتغيّر عما كان.

٦- ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خبر ومبتدأ ومعطوف ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ذلك كله ملكه ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ماتحت السبع الأرضين، أو: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

٧- ﴿وَإِنْ يُجْهَرِ بِالْقَوْلِ﴾ ترفع صوتك ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ ما أسررتك إلى غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ منه. وهو: ما أخطرته ببالك، أو: ما أسررتك في نفسك، وما ستره فيها.

٨- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: هو واحد بذاته وإن افرقت عبارات صفاته. ردّاً لقولهم إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى. و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي
 آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا
 رَبُّكَ

٩ - ﴿وَهَلْ﴾ أي: وقد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ خبره. فقاه بقصة موسى - عليه السلام - ليأتسي به في تحمل أعباء النبوة والصبر على المكاره؛ لينال الدرجة العليا كما نالها موسى عليه السلام.

١٠ - ﴿إِذْ رَأَى﴾ ظرف لمضمَر، أي: حين رأى ﴿نَارًا﴾ كان كيت وكيت، أو: مفعول به لا ذكر. رُوي أنَّ موسى - عليه السلام - استأذن شعبياً في الخروج إلى أمته، وخرج بأهله، فولد له في الطريق ابنٌ في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضلَّ الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده، وقدح فصلد زنده^(١)، فرأى عند ذلك ﴿نَارًا﴾ في زعمه، وكان نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أقيموا في مكانكم ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا﴾ والإيناس: رؤية شيء يؤنس به ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ بنى الأمر على الرجاء؛ لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ بنار مقتبسة في رأس عود، أو: فتيلة ﴿أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى﴾ ذوي هدى، أي: قوماً يهدوني الطريق. ومعنى الاستعلاء في ﴿على النار﴾ أنَّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها.

١١ - ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها. وكانت شجرة العناب، أو العوسج، ولم يجد عندها أحداً. ورُوي أنه كلما طلبها بعدت عنه، فإذا تركها قربت منه. فشم ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿يَمْوَسَى﴾.

١٢ - ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة، أي: ﴿نودي﴾ فقيل: ﴿يا موسى إني﴾، ولأنَّ النداء ضرب من القول، فعومل معاملته. وبالفتح: مكّي، وأبو عمرو، أي: نودي بأنّي ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ مبتدأ، أو: تأكيد، أو فصل. وكثر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة. رُوي: أنه لما نودي ﴿يا موسى﴾ قال: من المتكلم؟

(١) «صلد زنده»: صوت، ولم يخرج ناراً.

فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا

فقال الله عز وجل: ﴿أنا ربك﴾ فعرف أنه كلام الله عز وجل بأنه سمعه من جميع جهاته الست، وسمعه بجميع أعضائه ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدس، أو: لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ، أو: لأن الحفوة تواضع لله. ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين. والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة. وتعظيم لها. فخلعهما، وألقاهما من وراء الوادي ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر، أو: المبارك ﴿طُوًى﴾ حيث كان مُنَوَّن: شامي، وكوفي، لأنه اسم علم للوادي، وهو بدل منه. وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة. وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين.

١٣- ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ اصطفتك للنبوّة. (وإنّا اخترناك): حمزة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ إليك، للذي يوحى، أو: للوحي. واللام يتعلّق بـ «استمع»، أو: بـ «اخترتك».

١٤- ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وحدني، وأطعني ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ لتذكرني فيها لاشتغال الصلاة على الأذكار، أو: لأنني ذكرتها في الكتب، وأمرت بها. أو: لأن أذكرك بالمدح والثناء، أو: لذكري خاصة، لا تشوبه بذكر غيري، أو: لتكون لي ذاكرةً غير ناس. أو: لأوقات ذكري، وهي مواقيت الصلاة، لقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانه. وذا يصحّ بتقدير حذف المضاف، أي: لذكر صلاتي. وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها.

١٥- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ لا محالة ﴿أَكَادُ﴾ أريد، عن الأخفش. وقيل: صلة. ﴿أُخْفِيهَا﴾ قيل: هو من الأضداد، أي: أظهرها، أو: أسترها عن العباد، فلا أقول: هي آتية؛ لإرادتي إخفاءها. ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة - وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها

لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرَدَّىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ
بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

في كل وقت - لما أخبرت به ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿آتِيَةٌ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ بسعيها من خير أو شر.

١٦- ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصرفك عن العمل للساعة، أو: عن إقامة الصلاة، أو: عن الإيمان بالقيامة. فالخطاب لموسى، والمراد به: أمته ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لا يصدق بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في مخالفة أمره ﴿فَتَرَدَّىٰ﴾ فهلك.

١٧- ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ﴾ «ما» مبتدأ، و﴿تِلْكَ﴾ خبره. وهي بمعنى: هذه. و﴿بِيمِينِكَ﴾ حال عمل فيها معنى الإشارة، أي: قارة، أو: مأخوذة بيمينك. أو: ﴿تِلْكَ﴾ موصول صلته ﴿بِيمِينِكَ﴾. والسؤال للتنبيه ليقع المعجز بها بعد الثبوت فيها، أو: للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية، أو: للإيناس، ورفع الهيبة في المكالمة.

١٨- ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها إذا أعيت، أو: وقفت على رأس القطيع، وعند الطفرة^(١) ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أخبط ورق الشجر ﴿عَلَىٰ غَنَمِي﴾ لتأكله ﴿وَلِيَ فِيهَا﴾ حفص ﴿مَنَازِبُ﴾ جمع مأربة بالحركات الثلاث، وهي: الحاجة ﴿أُخْرَىٰ﴾ والقياس: أخر. وإنما قال ﴿أُخْرَىٰ﴾ رداً إلى الجماعة، أو: لنسق الآي. وكذا «الكبرى». ولما ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل، أو: ليسأل عنها الملك العلام، فيزيد في الإكرام. والمآرب الأخر: أنها كانت تماشيه، وتحذته، وتحارب العدو والسباع، وتصير رشاء فتطول بطول البئر، وتصير شعبتها دلوأ، وتكونان شمعتين بالليل، وتحمل زاده، ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب. وكانت تقيه الهوام. والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكراً، أو: لأنها جواب سؤال آخر؛ لأنه لما قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ قيل له: ما تصنع بها؟ فأخذ يعدد منافعها.

(١) «الطفرة»: الوثبة.

قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَنَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
ءَايَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾

١٩ - ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى﴾ اطرح عصاك لتفرغ مما تتكىء عليه، فلا تسكن إلا بنا، وترى كنه ما فيها من المآرب، فتعتمد علينا في المطالب.

٢٠ - ﴿فَأَلْقَنَهَا﴾ فطرحها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ تمشي سريعاً. قيل: انقلبت ثعباناً يتلعب الصخر والشجر، فلما رآه يتلعب كل شيء خاف، وإنما وصفت بالحية هنا، وبالثعبان - وهو العظيم من الحيات، وبالجان وهو الدقيق - في غيرها، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر، والأنثى، والصغير، والكبير. وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها. أو: لأنها كانت في عظم الثعبان، وسرعة الجان. وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً.

٢١ - ولما ﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده في فمها، وأخذ بلحييها ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ سنردها ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ تأنيث الأول. والسيرة: الحالة التي يكون عليها الإنسان، غريزية كانت، أو: مكتسبة. وهي في الأصل فِعْلَةٌ من السير، كالركبة من الركوب. ثم استعملت بمعنى الحالة، والطريقة. وانتصبت على الظرف، أي: سنعيدها في طريقته الأولى، أي: في حال ما كانت عصا. والمعنى: نردها عصا كما كانت. وأرى ذلك موسى عند المخاطبة لثلا يفزع منها إذا انقلبت حية عند فرعون.

٢٢ - ثم نبه على آية أخرى فقال: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضد. وجناح الإنسان: جنباه. والأصل المستعار منه جناح الطائر، سميًا جناحين لأنه يُجْنَحُهُمَا عند الطيران. والمعنى: أدخلها تحت عضدك ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس يُغْشِي البصر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص ﴿ءَايَةً أُخْرَى﴾ لنبوتك. ﴿بَيْضَاءَ﴾ ﴿وَأَيَّةَ﴾ حالان معاً. و﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ «من» صلة ﴿بَيْضَاءَ﴾ كقولك: ابيضت من غير سوء. وجاز أن ينتصب ﴿آيَةً﴾ بفعل محذوف يتعلّق به لام:

لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾

٢٣- ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض ﴿آياتنا الكبرى﴾ العظمى، أو: لنريك بهما الكبرى من آياتنا. أو المعنى: فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى.

٢٤- ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ جاوز حدَّ العبودية إلى دعوى الربوبية.

٢٥- ولما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى، وعرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسعه ليحتمل الوحي والمشاق، وردىء الأخلاق من فرعون وجنده.

٢٦- ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وسهل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون. و﴿اشرح لي صدري﴾ أكد من: اشرح صدري؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل؛ لأنه بقوله: ﴿اشرح لي﴾ و﴿يسر لي﴾ علم أنّ ثمّ مشروحات وميسراً، ثم رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر.

٢٧- ﴿وَأَحْلِلْ﴾ افتح ﴿عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ وكان في لسانه رتّة^(١) للجمرة التي وضعها على لسانه في صباه. وذلك لأنّ موسى أخذ لحية فرعون، ولطمه لطمه شديدة في صغره، فأراد قتله، فقالت آسية: أيتها الملك إنه صغير لا يعقل، فجعلت في طشت ناراً، وفي طشت يواقيت، ووضعتهما لدى موسى، فقصد اليواقيت، فأمال الملك يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه، فاحترق لسانه، فصار لُكْنَةً منها. ورُوي أن يده احترقت، واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ. ولما دعاه قال: إلى أيّ ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي، وقد عجزت عنها. و﴿من لساني﴾ صفة لعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني، وهذا يشعر بأنّه لم تزل العقدة بكمالها. وأكثرهم على ذهاب جميعها.

٢٨- ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ عند تبليغ الرسالة.

(١) «الرتّة»: العجمة في الكلام.

وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰؤُلَاءِ أَهْلِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كُنْتُ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ كُنْتَ تَتْلُو مِمَّا يَلْمِزُكَ أَمْثَلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٥﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٦﴾

٢٩- ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا﴾ ظهيراً اعتمد عليه، من: الوزر: الثقل؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو: من الوزر: الملجأ؛ لأن الملك يعتصم برأيه، ويلجئ إليه أموره، أو: معيناً، من: الموازنة وهي: المعاونة. فوزيراً مفعول أول لـ: اجعل، والثاني: ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ أو: ﴿لي وزيراً﴾ مفعولاه. وقوله:

٣٠- ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْلِي﴾ عطف بيان للوزير. وقوله: ﴿أَخِي﴾ بدل، أو: عطف بيان آخر. أو: ﴿وزيراً﴾ و﴿هارون﴾ مفعولاه. وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة.

٣١- ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ قوّ به ظهري. وقيل: الأزر: القوة.

٣٢- ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ اجعله شريكى في النبوة والرسالة. و﴿أَشَدُّ﴾ و﴿أَشْرِكُهُ﴾ على حكاية النفس: شامئ على الجواب. والباقون: على الدعاء، والسؤال.

٣٣- ﴿كُنْتُ شَيْعَكَ﴾ نصلي لك، وننزهك تسييحاً ﴿كَبِيرًا﴾.

٣٤- ﴿وَتَذْكُرَكَ كَبِيرًا﴾ في الصلوات، وخارجها.

٣٥- ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا.

٣٦- فأجابه الله تعالى حيث: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ﴾ أعطيت مسؤلك. فالسؤال: الطلبة، فُعل بمعنى: مفعول، كخبز بمعنى مخبوز. ﴿سؤلك﴾ بلا همز: أبو عمرو.

٣٧- ﴿وَلَقَدْ مَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَيْكَ مَرَّةً﴾ كَرَّةً ﴿أُخْرَىٰ﴾ قبل هذه. ثم فسرهما

فقال:

٣٨- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ إلهاماً، أو: مناماً حين ولدت. فكان

فرعون يقتل أمثالك. و﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿مَنَّا﴾. ثم فسر ﴿ما يوحى﴾ بقوله:

أَنِ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ

٣٩- ﴿أَنِ اقْدِفِيهِ﴾ ألقيه ﴿فِي التَّابُوتِ﴾. و﴿أَن﴾ مفسرة؛ لأن الوحي بمعنى القول ﴿فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ الجانب، وسُمِّي ساحلاً لأنَّ الماء يَسْخَلُهُ، أي: يقرُّه. والصيغة أمر ليناسب ما تقدَّم، ومعناه: الإخبار، أي: يلقيه اليمُّ بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ يعني: فرعون. والضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام. ورجوع بعضها إليه، وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تنافر النظم. والمقدوف في البحر والملقى إلى الساحل، إن كان هو التابوت، لكنَّ موسى عليه السلام في جوف التابوت. رُوي: أنها جعلت في التابوت قطناً ملحوجاً، فوضعت فيه، وقبرته^(١)، ثم ألقته في اليمِّ. وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير. وبينما هو جالسٌ على رأس بركة مع أسيه إذا بالتابوت، فأمر به، فأخرج، ففتح، فإذا صبيُّ أصبح الناس وجهاً، فأحبَّه فرعون حباً شديداً، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. يتعلّق ﴿مِّنِّي﴾ بالقيت، يعني: إني أحببتك، ومن أحبَّه الله أحبَّته القلوب، فما رآه أحد إلاَّ أحبَّه. قال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحه ما رآها أحد إلاَّ أحبَّه ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ لتحبّ وتُصنع ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ أي: لتربّي بمرأى مِنِّي. وأصله من صنع الفرس، أي: أحسن القيام عليه، يعني: أنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ بسكون اللام والجزم: يريد على أنه أمر.

٤٠- ﴿إِذْ تَمْشِي﴾ بدل من ﴿إِذْ أُوحِينَا﴾ لأنَّ مشيَ أخته كان مئة عليه ﴿أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾ رُوي أنَّ أخته مريم جاءت متعرّفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت:

(١) قَبْرَتُهُ: دمهته بالقار، وهو الزفت: أحد المنتجات الثقيلة التي تتخلف من تقطير البترول الخام.

فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّلتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا ۚ
فَلَيْتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى ﴿١٩﴾ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِى ﴿٢١﴾
أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَخُوكَ بِتَابِتِي وَلَا لَنِيَا فِي ذِكْرِى ﴿٢٢﴾

هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيريه؟ وأرادت بذلك المرضعة. وتذكير الفعل للفظ ﴿من﴾. فقالوا: نعم. فجاءت بالأم فقبل ثديها، فذلك قوله ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ فرددناك ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ كما وعدناها بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ لمقامك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقك ﴿وَقَلَّلتَ نَفْسًا﴾ قبطياً كافراً ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ من القود. قيل: الغم: القتل بلغة قريش. وقيل: اغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب الله، ومن اقتصاص فرعون، فغفر الله له ^(١) باستغفاره ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾. ونجّاه من فرعون بأن [ذهب به] ^(٢) من مصر إلى مدين ﴿وَفَتَّكَ فُتُونًا﴾ ابتلياك ابتلاءً بلياقاك في المحن، وتخليصك منها. والفتون: مصدر كالقعود. أو: جمع فتنة، أي: فتناك ضرورياً من الفتن. والفتنة: المحنة، وكل ما يبتلي الله به عباده فتنة ﴿وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿فَلَيْتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب - عليه السلام - على ثماني مراحل من مصر. قال وهب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشر منها مهر لصفوراء، وأقام عنده ثماني عشرة سنة بعدها حتى ولد له أولاد ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى﴾ أي: موعد ومقدار للرسالة، وهو أربعون سنة.

٤١- ﴿وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِى﴾ اخترتك، واصطفيناك لوحى ورسالتى لتصرف على إرادتى ومحبتى. قال الزجاج: اخترتك لأمرى، وجعلتك القائم بحجّتى، والمخاطب بينى وبين خلقي، كأنى أقمت عليهم الحجة، وخاطبتهم.

٤٢- ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَخُوكَ بِتَابِتِي﴾ بمعجزاتى ﴿وَلَا لَنِيَا﴾ تفترا. من الونى، وهو: الفتور، والتقصير ﴿فِي ذِكْرِى﴾ أي: اتخذنا ذكركى جناحاً تطيران به. أو:

(١) مستدرك من المطبوع.

(٢) فى الأصل: ذهبت.

أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٦﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّكَ تَبْذَرُهُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿١٨﴾

أريد بالذكر تبليغ الرسالة. فالذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أعظمها.

٤٣- ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ كثر، لأنَّ الأوَّل مطلق، والثاني مقيد ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جاوز الحد بادعاء الربوبية.

٤٤- ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا﴾ الطفا له في القول؛ لما له من حق تربية موسى، أو: كنياه، وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرة^(١). أو: عدها شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع عنه إلا بالموت. أو: هو قوله: ﴿هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فظاهره: الاستفهام، والمشورة ﴿لَعَلَّكَ تَبْذَرُهُ﴾ أي: يتعظ، ويتأمل، فيذعن للحق ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أي: يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجزه إنكاره إلى الهلكة. وإنما قال: ﴿لَعَلَّكَ تَبْذَرُهُ﴾ مع علمه أنه لا يتذكر؛ لأنَّ الترجي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر علمه. وجدوى إرسالهما إليه، مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة، وقطع المذرة. وقيل معناه: ﴿لَعَلَّكَ تَبْذَرُهُ﴾ متذكر ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ خاش. وقد كان ذلك من كثير من الناس. وقيل: ﴿لَعَلَّكَ تَبْذَرُهُ﴾ من الله واجب، وقد تذكر، ولكن حين لم ينفعه التذكر. وقيل: تذكر فرعون، وخشي، وأراد اتباع موسى، فمنعه هامان، وكان لا يقطع أمراً دونه. وتُليث عند يحيى بن معاذ فبكى، وقال: هذا رفقك بمن يقول أنا إله، فكيف بمن قال: أنت الإله؟ وهذا رفقك بمن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ فكيف بمن قال: سبحان ربي الأعلى؟

٤٥- ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ يعجل علينا بالعقوبة. ومنه: الفارط، يقال: فرط عليه، أي: عجل ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ يجاوز الحد في الإساءة إلينا.

(١) هذا الكلام لاصحة له لا من نقل ولا من عقل، وإنما هو مجرد روايات إسرائيلية مضحكة!!

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَمْوَسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

٤٦- ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ أقوالكم ﴿وَأَرَى﴾ أفعالكم. قال ابن عباس: ﴿أسمع﴾ دعاء كما فأجيبه ﴿وَأرى﴾ ما يراد بكما فأمنع، لست بغافل عنكما، فلا تهتما.

٤٧- ﴿فَأَنبَاهُ﴾ أي: فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أطلقهم عن الاستعباد، والاسترقاق ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتكليف المشاق ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ﴾ بحجة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على صدق ما ادَّعينا. وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى، وهي: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ مجرى البيان، والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلاً ببيئتها، وهي المجيء بالآية فقال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أي: سلم من العذاب من أسلم، وليس بتحية. وقيل: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين.

٤٨- ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا والعقبى ﴿عَلَى مَن كَذَبَ﴾ بالرسول ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان. وهي أرجى أي القرآن، لأنه جعل جنس السلام للمؤمن، وجنس العذاب على المكذب، وليس وراء الجنس شيء. فأنباه، وأدبها الرسالة، وقالوا له ما أمرا به.

٤٩- ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَىٰ﴾ خاطبهما، ثم نادى أحدهما؛ لأن موسى هو الأصل في النبوة، وهارون تابعه.

٥٠- ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ «خلقه»: أول مفعولي أعطى، أي: أعطى خلقيقته كل شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به. أو: ثانيهما، أي: أعطى كل شيء صورته وشكله؛ الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذا الأنف

ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍ ﴿٥٣﴾

والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها. وقرأ نصير: ﴿خَلَقَهُ﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه، أي: ﴿أعطى كل شيء﴾ مخلوق عطاء ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة في الدنيا، والسعادة في العقبى.

٥١- ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ فما حال الأمم الخالية، والرسم البالية؟ سأله عن حال من تقدم من القرون، وعن شقاء من شقي منهم، وسعادة من سعد.

٥٢- ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ - مبتدأ وخبر - ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: اللوح. خبر ثان. أي: هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد، لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب. وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يخطئ شيئاً. يقال: ضللت الشيء: إذا أخطأته في مكانه، فلم تهتد له، أي: لا يخطئ في سعادة الناس وشقاوتهم ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ ثوابهم وعقابهم. وقيل: ﴿لَا يَنْسَى﴾ ما علم، فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه.

٥٣- ﴿الَّذِي﴾ مرفوع صفة لـ «رَبِّي»، أو: خبر مبتدأ محذوف. أو: منصوب على المدح ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ كوفي. وغيرهم: (مهاداً). وهما لغتان لما ييسط، ويفرش ﴿وَسَلَكَ﴾ أي: جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقات ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ بالياء. نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاوع للافتنان. وقيل: تم كلام موسى، ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ وقيل: هذا كلام موسى، أي: فأخرجنا نحن بالحرارة، والغرس ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً ﴿مِنْ نَبَاتٍ﴾ هو مصدر، سُمِّيَ به النبات، فاستوى فيه الواحد والجمع ﴿شَقٍ﴾ صفة للأزواج، أو: للنبات، جمع: شتيت، كمریض ومرضى، أي: أنها مختلفة النفع، والطعم، واللون، والرائحة، والشكل، بعضها للناس، وبعضها للبهائم. ومن نعمته تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ لَيْنَا

الله تعالى علفها مما يفضل عن حاجتنا، ما لا تقدر على أكله قائلين:

٥٤- ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ﴾ حال من الضمير في ﴿فأخرجنا﴾، والمعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها، وتعلفوا بعضها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في الذي ذكرت ﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول، واحدها: نُهية؛ لأنها تنهى عن المحذور، أو: يُتَهَيَّ إليها في الأمور.

٥٥- ﴿مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَكُمْ﴾ أي: أباكم آدم - عليه السلام - وقيل: يعجن كل نطفة بشيء من تراب مدفنه، فيخلق من التراب والنطفة معاً، أو: لأن النطفة من الأغذية، وهي من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا مَتَمَّ فدفنتم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾. والمراد بإخراجهم: أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب، ويردهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر.

عَدَدَ الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم، وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأمهم التي منها ولدوا، وهي كفاتهم إذا ماتوا.

٥٦- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أي: فرعون ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وهي تسع آيات: العصا، واليد، وقلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل ﴿فَكَذَّبَ﴾ الآيات ﴿وَأَبَى﴾ قبول الحق.

٥٧- ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً. وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تعلل. وإلا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكاً من أرضه؟

٥٨- ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِثْلِهِ﴾ فلنعارضنك بسحر مثل سحرك ﴿فَاجْعَلْ لَيْنَا

وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾ هو مصدر بمعنى الوعد. ويقدر مضاف، أي: مكان موعد. والضمير في: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ للموعد. قرأ يزيد بالجزم على جواب الأمر. وغيره بالرفع على الوصف للموعد ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا﴾ هو بدل من المكان المحذوف. ويجوز ألا يقدر مضاف، ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه. وانتصب مكاناً بالمصدر، أو: بفعل يدلّ عليه المصدر ﴿سُوًى﴾ ^(١) بالكسر: حجازي، وأبو عمرو، وعليّ. وغيرهم بالضم. وهو نعت لـ ﴿مكاناً﴾، أو: منصفاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية.

٥٩- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ مبتدأ وخبر. وهو يوم عيد كان لهم. أو: يوم نيروز. أو: يوم عاشوراء. وإنّما استقام الجواب بالزمان - وإن كان السؤال عن المكان على التأويل الأوّل - لأنّ اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكان لا محالة، فبذكر الزمان علم المكان، وعلى الثاني تقديره: وعدكم وعد يوم الزينة ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أي: يجمع. في موضع رفع، أو: جرّ عطفاً على ﴿يوم﴾ أو: الزينة ﴿ضُحًى﴾ أي: وقت الضحوة؛ ليكون أبعد عن الريبة، وأبين لكشف الحق، وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

٦٠- ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أدبر عن موسى معرضاً ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ مكره، وسحرته. وكانوا اثنين وسبعين، أو أربعمئة، أو سبعين ألفاً ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ للموعد.

٦١- ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ﴾ أي: للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ كوفي، غير أبي بكر. يهلككم. وغيرهم بفتح الباء والحاء. والسحت والإسحات بمعنى الإعدام. وانتصب على جواب النهي ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ من كذب على الله.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿سُوًى﴾.

فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٦﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ

٦٢ - ﴿فَنَنْزِعُوا﴾ اختلقوا، أي: السحرة، فقال بعضهم: هو ساحر مثلنا، وقال بعضهم: ليس هذا بكلام السحرة، أي: ﴿لا تفتروا على الله كذباً﴾ الآية ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي: تشاوروا في السر، وقالوا: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر. والنجوى: يكون مصدراً واسماً. ثم لفقوا هذا الكلام يعني:

٦٣ - ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ﴾ يعني: موسى وهارون. قرأ أبو عمرو: (إن هذين لساحران) وهو ظاهر، ولكنه مخالف للإمام. وابن كثير، وحفص، والخليل - وهو أعرف بالنحو واللغة -: ﴿إن هذان لساحران﴾ بتخفيف ﴿إن﴾ مثل قولك: إن زيد لمنطلق. واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة. وقيل: هي بمعنى «ما»، واللام بمعنى «إلا»، أي: ما هذان إلا ساحران. دليله قراءة أبي: (إن ذان إلا ساحران) وغيرهم: ﴿إن هذان لساحران﴾ قيل: هي لغة بلحارث بن كعب، وخثعم، ومراد، وكنانة، فالتثنية في لغتهم بالآلف أبداً، فلم يقبلوها ياء في الجر والنصب، كعصا وسعدى، قال^(١):

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بَلَّغَا في المجدِ غَايَتَاهَا

وقال الزجاج: ﴿إن﴾ بمعنى نعم، قال الشاعر^(٢):

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَا كَ وَقد كَبُرَتْ فَقُلْتُ إِنَّهُ

أي: نعم. والهاء للوقف. و﴿هذان﴾ مبتدأ، و﴿ساحران﴾ خبر مبتدأ محذوف. واللام داخلة على المبتدأ المحذوف، تقديره: هذان لهما ساحران، فيكون دخولها في موضعها الموضوع لها، وهو الابتداء، أو قد تدخل اللام في الخبر، كما تدخل في المبتدأ. قال:

خالي لأنت ومن جرير خاله

(١) الشاعر: رؤبة، أو أبو النجم، أو رجل من بني الحارث بن كعب.

(٢) هو: عبيد الله بن قيس الرقيات.

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَبْنُوْنَ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ

قال: وعرضته على المبرد فرضيه، وقد زيفه أبو علي.

﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ بدينكم، وشريعتكم ﴿الْمُثَلَّى﴾ الفضلى، تأنيث الأمثل، وهو: الأفضل.

٦٤- ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ فأحكموا، أي: اجعلوه مجعاً عليه حتى لا يختلفوا. ﴿فَأَجْمَعُوا﴾: أبو عمرو، ويعضده ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: ٦٠] ﴿كَيْدَكُمْ﴾ هو ما يكاد به ﴿ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفَاً﴾ مصطفين، حال. أمروا بأن يأتوا صفاء؛ لأنه أهيب في صدور الرائين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ وقد فاز من غلب. وهو اعتراض.

٦٥- ﴿قَالُوا﴾ أي: السحرة ﴿يَبْنُوْنَ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ عصاك أولاً ﴿وَلِئَمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما معنا. وموضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر، أو: رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف. معناه: اختر أحد الأمرين، أو: الأمر إلقاؤك، أو إلقاؤنا. وهذا التخير منهم استعمال أدب حسن معه. وكأنه تعالى ألهمهم ذلك، وقد وصل إليهم بركته، وعلم موسى عليه السلام اختيار إلقائهم أولاً حتى:

٦٦- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً ليبرزوا ما معهم من مكائد السحر، ويظهر الله سلطانه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية نيرة للناظرين، وعبرة بيّنة للمعتبرين. فآلقوا ﴿فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ﴾ يقال في ﴿إِذَا﴾ هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق: أنها إذا الكائنة لمعنى الوقت، الطالبة ناصباً لها، وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجآت، والجملة ابتدائية لا غير. والتقدير: ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيتهم. والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيتهم، مخيلة إليه السعي ﴿يُخِيلُ﴾ وبالتاء: ابن ذكوان

إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ اسْتَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحِرٍ وَلَا يَقْلِحُ السَّاحِرُ
حَيْثُ أَقَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ بُجْدًا

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ اسْتَعَى﴾ رفع بدل اشتغال من الضمير في ﴿يُخِيلُ﴾ أي: يخيل الملقى. رُوي: أنهم لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت، واهترت، فخيّلت ذلك.

٦٧ - ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أضمر في نفسه خوفاً، ظناً منه أنها تقصده؛ للجبلة البشرية. أو: خاف أن يخالج الناس شكّ فلا يتبعوه.
٦٨ - ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ الغالب، القاهر. وفي ذكر إنَّ وأنت وحرف التعريف ولفظ العلوّ - وهو: الغلبة الظاهرة - مبالغة بيّنة.

٦٩ - ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ﴾ بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف: حفص. و﴿تَلْقَفُ﴾ ابن ذكوان. الباكون: تَلْقَفَ ﴿مَا صَنَعُوا﴾ زوروا، وافتعلوا، أي: اطرح عصاك تبتلع عصيتهم وحبالهم. ولم يقل عصاك تعظيماً لها، أي: لا تحتفل بما صنعوا، فإنَّ ما في يمينك أعظم منها. أو: تحقيراً، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيتهم، وألقى العويد الفرد الذي في يمينك، فإنه بقدرة ربك يتلقفها على وحدته، وكثرتها ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحِرٍ﴾ سحر: كوفي - غير عاصم - بمعنى ذي سحر، أو: هم لتوغلهم في سحرهم، كأنهم السحر. و﴿كَيْدُ﴾ بالرفع على القراءتين. و﴿مَا﴾ موصولة، أو: مصدرية. وإنما وُحِدَ ﴿سَاحِرُ﴾ ولم يُجمع؛ لأنَّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخيّل أنَّ المقصود هو العدد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يَقْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَقَى﴾ أينما كان.

٧٠ - فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا، فلعظيم ما رأوا من الآية دُفعوا إلى السجود، فذلك قوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ بُجْدًا﴾ قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا، فما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيتهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! رُوي: أنهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها في السجود، فرفعوا رؤوسهم

قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
 عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا اقْطَعَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ
 وَلَنَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَابْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي
 فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ

ثم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ إنما قدم هارون هنا، وآخر في الشعراء، محافظة
 للفاصل ولأن الواو لا توجب ترتيباً.

٧١ - ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ﴾ بغير مدّ: حفص. وبهمزة ممدودة: بصريّ، وشاميّ،
 وحجازيّ. وبهمزتين: غيرهم - ﴿لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: لموسى. يقال: آمن
 له، وآمن به ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ لعظيمكم، أو: لمعلمكم. يقول
 أهل مكة للمعلم: أمري كبير ﴿فَلَا اقْطَعَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ القطع من
 خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كلّ واحد من العضوين
 يخالف الآخر بأنّ هذا يد وذاك رجل، وهذا يمين وذاك شمال. و﴿مِنْ﴾ لابتداء
 الغاية؛ لأنّ القطع مبتدأ، وناشئ من مخالفة العضو العضو. ومحلّ الجار
 والمجرور النصب على الحال، أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها
 بعضاً فقد اتّصفت بالاختلاف. شبه تمكّن المصلوب في الجذع بتمكّن المظروف في
 الظرف؛ فلذا قال: ﴿وَلَا صَلْبَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وخصّ ﴿النخل﴾ لطول
 جذوعها ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا﴾ أنا على إيمانكم به، أو: رب موسى على ترك
 الإيمان. وقيل: يريد نفسه - لعنه الله - وموسى عليه السلام - بدليل قوله:
 ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾. واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، كقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَيُؤْمِنُ لِلْيَوْمِينِ﴾ [التوبة: ٦١]. ﴿وَابْقَى﴾ أدوم.

٧٢ - ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة الدالة
 على صدق موسى ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عطف على ﴿ما جاءنا﴾، أي: لن نختارك على
 الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. أو قسم. وجوابه: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ مقدّم على
 القسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع من القطع والصلب. قال^(١):

إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٦﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٧﴾ إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَى ﴿٧٨﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٩﴾ جَنَّاتُ
عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٨٠﴾

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا^(١)

أي: صَنَعَهُمَا. أو: احكم ما أنت حاكم ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي:
في هذه الحياة الدنيا، فانتصبت على الظرف، أي: إِنَّمَا تحكم فينا مدة حياتنا.

٧٣- ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ «ما»: موصولة منصوبة
بالعطف على ﴿خطايانا﴾ ﴿مِنَ السِّحْرِ﴾ حال من ﴿ما﴾. روي: أَنَّهُمْ قَالُوا
لِفِرْعَوْنَ: أَرْنَا مُوسَى نَائِمًا، ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا
بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره، فكروهوا معارضته خوف الفضيحة،
فأكروههم فرعون على الإتيان بالسحر، انظر كيف نفعمهم علمهم بالسحر، وضرر
فرعون جهله به؟ فكيف بعلم الشرع؟! ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ ثواباً لمن أطاعه ﴿وَأَبْقَى﴾
عقاباً لمن عصاه. وهو رد لقول فرعون: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:
٧١].

٧٤- ﴿إِنَّكُمْ﴾ هو ضمير الشأن. ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ كافراً ﴿فَإِنَّ لَهُمُ﴾ للمجرم
﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح بالموت ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة ينتفع بها.

٧٥- ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ مات على إيمانه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان
﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ جمع العليا.

٧٦- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين
﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الشرك بقول: لا إله إلا الله. قيل: هذه الآيات
الثلاث حكاية قولهم. وقيل: خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية، وهو
أظهر.

(١) صدر بيت، وعجزه: داود، أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَعُّ.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا
وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ وَمَآ هَدَى ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَبْحَيْنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدَنَّاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ

٧٧ - ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه؛ أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً، ويأخذ بهم طريق البحر ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ أي: اجعل لهم، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً ﴿يَبَسًا﴾ أي: يابساً. وهو مصدرٌ وصف به، يقال: يبس يبساً، ويُبْساً ﴿لَا تَخَفْ﴾ حال من الضمير في ﴿فاضرب﴾، أي: اضرب لهم طريقاً غير خائف. ﴿لَا تَخَفْ﴾: حمزة على الجواب ﴿دَرَكًا﴾ هو اسمٌ من الإدراك، أي: لا يدركك فرعون وجنوده، ولا يلحقونك ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ الغرق. وعلى قراءة حمزة: ﴿ولا تخشى﴾ استئناف، أي: وأنت لا تخشى. أو: يكون الألف للإطلاق، كما في ﴿وَتَطْمَئِنُّ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]. فخرج بهم موسى من أول الليل، وكانوا سبعين ألفاً، وقد استعاروا حليتهم، فركب فرعون في ستمئة ألف من القبط، فقص أثرهم، فذلك قوله.

٧٨ - ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وهو حال، أي: خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أصابهم من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾. هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل.

٧٩ - ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿وَمَا هَدَى﴾ وما أرشدهم إلى الحق والسداد. وهذا رد لقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

٨٠ - ثم ذكر مته على بني إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر، وأهلك فرعون وقومه، بقوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: ﴿أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ وقلنا: ﴿يا بني إسرائيل﴾ ﴿قَدْ أَبْحَيْنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ﴾ أي: فرعون ﴿وَوَعَدَنَّاكَ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾. وذلك: أن الله تعالى وعد موسى أن يأتي هذا المكان، ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة. وإنما نسب إليهم المواعدة؛ لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم، ودينهم. و﴿الأيمن﴾ نصب، لأنه صفة جانب. و﴿قُرِءَ﴾

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

بالجرّ على الجوار ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ في التيه، وقلنا لكم:

٨١ - ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ﴿أُنَجِّيتَكُمْ﴾. ﴿وَوَاعَدْتَكُمْ﴾. ﴿وَرَزَقْنَاكُمْ﴾ كوفي - غير عاصم - ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ ولا تتعدوا حدود الله فيه؛ بأن تكفروا النعم، وتنفقوها في المعاصي، أو: لا يظلم بعضكم بعضاً فيه ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ عقوبتي ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك، أو: سقط سقوطاً لا نهوض بعده. وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك. وتحقيقه: سقط من شرف الإيمان، إلى حفرة من النيران. قرأ علي: ﴿فَيَحِلُّ﴾، ﴿ويَحِلُّ﴾. والباقون بكسرهما. فالمكسور في معنى الوجوب، من: حلّ الدين يحلّ: إذا وجب أدائه. والمضمون في معنى النزول.

٨٢ - ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَأَمَنَ﴾ وحّد الله تعالى، وصدّقه فيما أنزل ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدى الفرائض ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام، وثبت على الهدى المذكور. وهو: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

٨٣ - ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ وأي شيء عجّل بك ﴿عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ أي: عن السبعين الذين اختارهم. وذلك: أنّه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدّمهم شوقاً إلى كلام ربه، وأمرهم أن يتبعوه. فقال الله تعالى: ﴿وما أعجلك﴾ أي شيء أوجب عجلتك؟! استفهام إنكار. و﴿وما﴾ مبتدأ و﴿أعجلك﴾ الخبر.

٨٤ - ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ أي: هم خلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة. ثم ذكر موجب العجلة، فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ﴾ أي: إلى الموعد الذي وعدت ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ لتزداد عني رضا. وهذا دليل على جواز الاجتهاد.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ

٨٥- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ألقيناهم في فتنة ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ من بعد خروجك من بينهم. والمراد بالقوم: الذين خلفهم مع هارون ﴿وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وإجابتهم له. وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها: السامرة. وقيل: كان علجاً من كرمان، فاتخذ عجلاً. واسمه: موسى بن ظفر، وكان منافقاً.

٨٦- ﴿فَرَجَعَ مُوسَى﴾ من مناجاة ربه ﴿إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ شديد الغضب، أو: حزينا ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، وكانت ألف سورة، كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون رجلاً. ولا وعد أحسن من ذلك ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم. والعهد: الزمان. يقال: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ وعده أن يقيموا على أمره، وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده باتخاذ العجل.

٨٧- ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ بفتح الميم: مدني، وعاصم. وبضمها: حمزة، وعلي. وبكسرها: غيرهم. أي: ما أخلفنا موعداً بأن ملكنا أمرنا، أي: لو ملكنا أمرنا، وخلينا، ورأينا لما أخلفناه، ولكننا غلبنا من جهة السامري، وكيده ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا﴾ بالضمة والتشديد: حجازي، وشامي، وحفص. وافتح الحاء والميم مع التخفيف: غيرهم ﴿أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أثقالاً من حلبي القبط، أو: أرادوا بالأوزار: أنها آثام وتبعات؛ لأنهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلّة أن غداً لنا عيد، فقال السامري: إنما حبس موسى لشؤم حرمتها - لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس

فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَّبَكَ آلَيْكَ السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾

للمستأمن أن يأخذ مال الحربى. على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ - فأخبر قوها. فخبأ في حفرة النار قالب عجل، فانصاغت عجلًا مجوفًا فخار بدخول الريح في مجار منه أشباه العروق. وقيل: نفخ فيه تراباً من موضع قوائم فرس جبريل - عليه السلام - يوم الغرق، وهو فرس الحياة فحبي، فخار، ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه ﴿فَقَدْ فَتَنَّا﴾ في نار السامري التي أوقدها في الحفرة، وأمرنا أن نطرح فيها الحلي ﴿فَكَذَّبَكَ آلَيْكَ السَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحلي في النار، أو: ما معه من التراب؛ الذي أخذ من أثر حافر فرس جبريل - عليه السلام -.

٨٨- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ السامري من الحفرة ﴿عِجْلًا﴾ خلقه الله تعالى من الحلي التي سبكتها النار ابتلاء ﴿جَسَدًا﴾ مجسداً ﴿لَّهُمْ خُورًا﴾ صوت. وكان يخور كما تخور العجاجيل ﴿فَقَالُوا﴾ أي: السامري وأتباعه: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ فأجاب عامتهم إلا اثني عشر ألفاً ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ﴿فَنَسِيَ﴾ موسى ربه هنا، وذهب يطلبه عند الطور. أو: هو ابتداء كلام من الله عز وجل أي: نسي السامري ربه، وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر. أو: نسي السامري الاستدلال على أن العجل لا يجوز أن يكون إلهاً بدليل قوله:

٨٩- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ﴾ أي: أنه ﴿لا يرجع﴾ فإن مخفقة من الثقيلة ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: هو عاجز عن الخطاب، والضّر، والنفع، فكيف يتخذونه إلهاً؟ فقل: إنه ما خار إلا مرة.

٩٠- ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ﴾ لمن عبدوا العجل ﴿هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى إليهم ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ﴾ ابتليتكم بالعجل، فلا تعبدوه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لا العجل ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ كونوا على ديني الذي هو الحق ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في ترك عبادة العجل.

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٩٥﴾

٩١- ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾ أي: لن نزال مقيمين على العجل، وعبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظر هل يعبد كما عبدنا، وهل صدق السامري أم لا؟

٩٢- فلما رجع موسى ﴿قَالَ يَهْدُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل.

٩٣- ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ بالياء في الوصل والوقف: مكّي. وافقه أبو عمرو، ونافع في الوصل. وغيرهم: بلا ياء. أي: ما دعاك إلى ألا تتبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعي إلى تركه. وقيل: ﴿لَا﴾ مزيدة. والمعنى: أي شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك، وتلحق بي وتخبرني؟ أو: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن. ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أبشره أنا لو كنت شاهداً؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم.

٩٤- ثم أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله غضباً وإنكاراً عليه؛ لأن الغيرة في الله ملكته ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ ويخفض الميم: شامي، وكوفي غير حفص. وكان أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور، ولكنه ذكر الأم استعطافاً، وترقيقاً ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ ثم ذكر عذره فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ﴾ إذا قاتلت بعضهم ببعض: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أوفقت أن تقول: إن فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق، وتبع السامري فريق: فرقت بين بني إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوْلِي﴾: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمٍ وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وفيه دليل جواز الاجتهاد.

٩٥- ثم أقبل موسى على السامري منكراً عليه حيث: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ ما أمرك الذي تخاطب عليه ﴿يُسْمِعُنِي﴾؟.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا
مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا
لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

٩٦- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وبالتاء: حمزة، وعلي. قال الزجاج: بصر: علم، وأبصر: نظر، أي: علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل. قال موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس الحياة، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره، فما ألقيته على شيء إلا صار له رُوح، ولحم، ودم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ القبضة: المزة من القبض. وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. وقرىء: ﴿فَقَبِضْتُ قَبْضَةً﴾ فالضاد: بجميع الكف، والصاد: بأطراف الأصابع ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرس الرسول. وقرىء بها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فطرحتها في جوف العجل ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿لِي نَفْسِي﴾ أن أفعله ففعلته اتباعاً لهوأي. وهو اعتراف بالخطأ، واعتذار منه.

٩٧- ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ من بيننا طريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ ما عشت ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك: ﴿لَا مِسَاسَ﴾. أي: لا يمسنني أحد، ولا أمسه. فمنع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحرّم عليهم مخالطته، ومكالمته، ومبايعته. وإذا اتفق أن يماس أحداً حمّ الماسّ والممسوس. وكان يهيم في البرية يصيح: لا ميساس. ويقال: إن ذلك موجود في أولاده إلى الآن. وقيل: أراد موسى - عليه السلام - أن يقتله، فمنعه الله منه لسخائه ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾ لن يُخلفك الله مواعده؛ الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا. ﴿لَنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾: مكّي، وأبو عمرو، وهذا من: أخلفت الموعد: إذا وجدته خلفاً ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وأصله: ظللت، فحذف اللام الأولى تخفيفاً ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ لُنْذُرِيَّتُهُ ﴿فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾. فحرقه، وذراه في البحر، فشرب بعضهم من مائه حباً له، فظهرت على شفاههم صفرة الذهب.

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾

٩٨- ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز، أي: وسع علمه كل شيء.

٩٩- ومحل الكاف من: ﴿كَذَلِكَ﴾ نصب، أي: مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمم الماضية، تكثيراً لبيئاتك، وزيادة في معجزاتك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أعطيناك ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ قرآنًا، فهو ذكر عظيم، وقرآن كريم، فيه النجاة لمن أقبل عليه، وهو مشتمل على الأقايصص والأخبار، الحقيقة بالتفكر والاعتبار.

١٠٠- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن هذا الذكر، وهو القرآن، ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة. سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الثقيل؛ الذي يُنْقَضُ ظهره، ويلقي عليه بُهْرَه. أو: لأنها جزء الوزر، وهو: الإثم.

١٠١- ﴿خَلِيدٍ﴾ حال من الضمير في ﴿يَحْمِلُ﴾. وإنما جمع على المعنى، ووحد في ﴿فَإِنَّهُ﴾ حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ ﴿فِيهِ﴾ في الوزر، أي: في جزء الوزر، وهو: العذاب ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿سَاءَ﴾ في حكم «بئس» وفيه ضمير مبهم يفسره ﴿حِمْلًا﴾. وهو تمييز. واللام في ﴿لَهُمْ﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء الحمل حملاً وزرهم.

١٠٢- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿نُفْخُ﴾: أبو عمرو ﴿فِي الصُّورِ﴾ في القرن. أو: هو جمع صورة، أي: نفخ الأرواح فيها. دليلاً قراءة قتادة ﴿فِي الصُّورِ﴾ بفتح الواو، جمع صورة ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ حال، أي: عمياً، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وهذا لأن حدة من يذهب نور بصره تزرُق.

يَتَخَفَتُونَ يَتَنَّهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾

١٠٣- ﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ يتسارون ﴿يَتَنَّهُمْ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض سراً لهول ذلك اليوم: ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: عشر ليال. يستقصرون مدة لبثهم في القبور، أو: في الدنيا؛ لما يعانينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور، فيتأسفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لأن أيام السرور قصار. أو: لأنها ذهبت عنهم، والذاهب - وإن طال مدته - قصير بالانتهاء. أو: لاستطالتهم الآخرة. لأنها أبد يستقصّر إليها عمر الدنيا، ويُتَقَال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد رجّح الله قول من يكون أشدّ تقللاً منهم بقوله:

١٠٤- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم قولاً: ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾. وهو كقوله: ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلِ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

١٠٥- ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ سألوا النبي ﷺ ما يصنع بالجبال يوم القيامة؟ وقيل: لم يسأل. وتقديره: إن سألوكم ﴿فَقُلْ﴾؛ ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله: ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ [البقرة: ١١١] ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا﴾ [الكهف: ٨٣] لأنها سؤالات تقدّمت، فورد جوابها. ولم يكن فيها معنى الشرط، فلم يذكر الفاء ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها، كما يذرى الطعام. وقال الخليل: يقلعها.

١٠٦- ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارّها، أو: يجعل الضمير للأرض للعلم بها؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكْتُ عَلَى ظَهْرٍهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ مستوية، ملساء.

لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا ﴿١١٠﴾
وَعَنَتِ الْوُجُوهُ

١٠٧- ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ انخفاصاً ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ ارتفاعاً. والعِوَج بالكسر وإن كان في المعاني، كالمتنوح في الأعيان. والأرض عين، ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه ما، وإن دقت الحيلة، ولطفت، جرت مجرى المعاني.

١٠٨- ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أضاف اليوم إلى وقت نصف الجبال، أي: يوم إذ نسفت. وجاز أن يكون بدلاً بعد بدل من ﴿يوم القيامة﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ إلى المحشر، أي: صوت الداعي، وهو إسرافيل، حين ينادي على صخرة بيت المقدس: آيتها العظام البالية، والجلود المتمزقة، واللحوم المتفرقة، هلمّي إلى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب إلى صوبه، لا يعدلون عنه ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ أي: لا يعوج له مدعو، بل يستون إليه من غير انحراف، متبعين لصوته ﴿وَخَشَعَتِ﴾ وسكنت ﴿الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ هيبة وإجلالاً ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً لتحريك الشفاه. وقيل: هو من همس الإبل، وهو: صوت أخفافها إذا مشت، أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام، ونقلها إلى المحشر.

١٠٩- ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ محل ﴿من﴾ رفع على البذل من الشفاعة، بتقدير حذف المضاف، أي: ﴿لا تنفع الشفاعة إلا﴾ شفاعة ﴿من﴾ أذن له الرحمن ﴿أي: أذن للشافع في الشفاعة﴾ ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: رضي قوله لأجله بأن يكون المشفوع له مسلماً. أو: نصب على أنه مفعول ﴿تنفع﴾.

١١٠- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما تقدمهم من الأحوال، وما يستقبلونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا﴾ أي: بما أحاط به علم الله، فيرجع الضمير إلى ﴿ما﴾، أو: يرجع الضمير إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى ليس بمحاط به.

١١١- ﴿وَعَنَتِ﴾ خضعت، وذلت. ومنه قيل للأسير: عان ﴿الْوُجُوهُ﴾

لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

أي: أصحابها ﴿لِلْحَيِّ﴾ الذي لا يموت، وكل حياة يتعقبها الموت فهي كأن لم تكن ﴿الْقَيُّومِ﴾ الدائم، القائم على كل نفس بما كسبت، أو: القائم بتدبير الخلق ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ يشس من رحمة الله ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ من حمل إلى موقف القيامة شركاً؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه.

١١٢ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بما جاء به محمد ﷺ. وفيه دليل أنه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة، فإن الإيمان شرط قبولها ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿فَلَا يَخَفُ﴾ على النهي: مكّي ﴿ظُلْمًا﴾ أن يزداد في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا ينقص من حسناته. وأصل الهضم: النقص، والكسر.

١١٣ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ وكثرنا ﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ الوعيد، أو: القرآن ﴿ذِكْرًا﴾ عظة، أو: شرفاً بإيمانهم به. وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو.

١١٤ - ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ ارتفع عن فنون الظنون، وأوهام الأفهام، وتنزه عن مضاهاة الأنام، ومضاهية الأجسام ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي احتاج إليه الملوك ﴿الْحَقُّ﴾ المحق في الألوهية. ولما ذكر القرآن وإنزاله، قال استطراداً: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن، فتأن عليك ريثما يسمعك، ويفهمك ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ بقراءته ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ بالقرآن ومعانيه. وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾

١١٥ - ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ أي: أوحينا إليه ألا يأكل من الشجرة. يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدم الملك إلى فلان، وأوعز إليه، وعزم عليه، وعهد إليه. فعطفت قصة آدم عليه السلام على: ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾. والمعنى: وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم، ووصيناه ألا يقرب الشجرة ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ من قبل وجودهم؛ فخالف إلى ما نهي عنه، كما أنهم يخالفون، يعني: أن أساس أمر بني آدم على ذلك، وعزقهم راسخ فيه ﴿فَتَسَى﴾ العهد، أي: النهي. والأنبياء - عليهم السلام - يؤخذون بالنسيان الذي لو تكلفوا لحفظوه ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ قصداً إلى الخلاف لأمره. أو: لم يكن آدم من أولي العزم. والوجود بمعنى العلم، ومفعولاه ﴿له عزمًا﴾، أو: بمعنى نقيض العدم، أي: وعدمنا له عزمًا، و﴿له﴾ متعلق بـ ﴿نجد﴾.

١١٦ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ منصوب باذكر ﴿لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ قيل: هو السجود اللغوي الذي هو الخضوع، والتذلل. أو: كان آدم كالقابلة لضرب تعظيم فيه له ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن إبليس كان ملكاً من جنس المستثنى منهم. وقال الحسن: الملائكة لباب الخليفة من الأرواح، ولا يتناسلون، وإبليس من نار السموم. وإنما صح استثناءه منهم؛ لأنه كان يصحبهم ويعبد الله معهم ﴿أَبَى﴾ جملة مستأنفة، كأنه جواب لمن قال: لِمَ لم يسجد؟ والوجه ألا يقدر له مفعول، وهو السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فسجدوا﴾ وأن يكون معناه: أظهر الإباء، وتوقف.

١١٧ - ﴿فَقُلْنَا يَنْقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حيث لم يسجد لك، ولم ير فضلك ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما ﴿فَتَشْقَى﴾ فتعذب في طلب القوت، ولم يقل: فتشقى اكتفاءً لرؤوس الآي، أو: دخلت تبعاً، ولأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة. ورؤي: أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر، وكان يحرث عليه، ويمسح العرق من جبينه.

إِنَّ لَكَ الْآلَاجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ
إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لَا يَبُلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا
مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ
فَغَوَى ﴿١٢١﴾

١١٨- ﴿إِنَّ لَكَ الْآلَاجُوعَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَى﴾ عن الملابس؛ لأنها معدة
أبدًا فيها.

١١٩- ﴿وَأَنَّكَ﴾ ^(١) بالكسر: نافع، وأبو بكر، عطفًا على ﴿إِنَّ﴾ الأولى.
وغيرهما بالفتح عطفًا على ﴿الْآلَاجُوعَ﴾ ومحلّه نصب بأنّ، وجاز للفصل، كما
تقول: إنّ في علمي أنك جالس ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ لا تعطش لوجود الأشربة فيها
﴿وَلَا تَصْحَى﴾ لا يصيبك حرّ الشمس، إذ ليس فيها شمس، فأهلها في ظلّ
ممدود.

١٢٠- ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: أنهى إليه الوسوسة، ك: أسر إليه
﴿قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد - وهو الخلود -
لأنّ من أكل منها خلد بزعمه، ولا يموت ﴿وَمُلْكُ لَا يَبُلَى﴾ لا يفنى.

١٢١- ﴿فَأَكَلَا﴾ أي: آدم وحواء ﴿مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءُ تَهُمَا﴾ عوراتهما
﴿وَطَفِقَا﴾ طفق يفعل كذا، مثل: جعل يفعل. وهو كـ «كاد» في وقوع الخبر
فعلًا مضارعًا، إلّا أنّه للشروع في أوّل الأمر، وكاد للدنو منه ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: يُلْزِقَانِ الورق بسوءاتهما للتستر، وهو: ورق التين ﴿وَعَصَى
آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ضلّ عن الرأي. وعن ابن عيسى: خاب. والحاصل: أنّ
العصيان ووقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي. وقد يكون عمدًا فيكون ذنبًا،
وقد لا يكون عمدًا فيكون زلّة. ولما وصف فعله بالعصيان، خرج فعله من أن
يكون رشدًا، فكان غيًّا؛ لأنّ الغيّ خلاف الرشد. وفي التصريح بقوله:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ والعدول عن قوله: وزلّ آدم، مزجرة بليغة،
وموعظة كافة للمكلّفين، كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نُعيث على النبيّ

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وانك﴾.

ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
فَأَمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر.

١٢٢- ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ﴾ قرّبه إليه، أو: اصطفاه. وقرىء به. وأصل الكلمة الجمع، يقال: جُنِبَ إِلَيَّ كَذَا، فاجتنبته ﴿فَأَبَى عَلَيْهِ﴾ قبل توبته ﴿وَهَدَى﴾ وهده إلى الاعتذار، والاستغفار.

١٢٣- ﴿قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ يعني: آدم وحواء ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ياذرية آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بالتحاسد في الدنيا، أو الاختلاف في الدين ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى﴾ كتاب، وشريعة ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في العقبى. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. يعني: أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله، وامثل أوامره، وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال، ومن عقابه.

١٢٤- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ عن القرآن ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقاً. وهو مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث. عن ابن جبير: نسلبه القناعة حتى لا يشبع. فمع الدين التسليم، والقناعة، والتوكل، فتكون حياته طيبة، ومع الإعراض: الحرص، والشح، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، ويشوش عليه رزقه ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ عن الحجّة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿أَعْمَى﴾ البصر. وهو كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهو الوجه.

١٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا.

قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١٢٦ - ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت. ثم فسر فقال: ﴿أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي﴾ أي: أنتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعبر، وتركتها، وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك، ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

١٢٧ - ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في العقبي، ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى﴾ أي: للحشر على العمى؛ الذي لا يزول أبداً أشد من العيش المنقضي.

١٢٨ - ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: الله. بدليل قراءة زيد عن يعقوب - بالنون - ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد، وثمود، وقوم لوط، ويعاينون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى﴾ لذوي العقول، إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم، فلا يفعلون مثل ما فعلوا.

١٢٩ - ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد ﷺ ﴿لَكَانَ لِرِزَامًا﴾ لازماً. فاللزام مصدر لازم، فوصف به ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ القيامة. وهو معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾. والمعنى: ﴿ولولا﴾ حكم سبق بتأخير العذاب عنهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو القيامة ﴿لَكَانَ﴾ العذاب لازماً لهم في الدنيا، كما لزم القرون الماضية الكافرة.

١٣٠ - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك. ﴿وَسَبِّحْ﴾ وصل ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح، وأعانك عليه

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾
وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي: وتعمد آناء الليل، أي: ساعاته ﴿وأطراف النهار﴾ مختصاً لها بصلاتك. وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص، كما اختصت في قوله: ﴿وَالضُّكُوفُ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] عند البعض، وإنما جمع ﴿وأطراف النهار﴾ وهما طرفان لأمن الإلباس. وهو عطف على ﴿قَبْلَ﴾ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ لعل للمخاطب، أي: اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك، ويسر قبلك. و﴿تَرْضَى﴾: عليّ، وأبو بكر، أي: يرضيك ربك.

١٣١ - ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: نظر عينيك. ومدّ النظر: تطويله، وأن لا يكاد يردّه استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به. وفيه: أنّ النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك أن يباده الشيء بالنظر، ثم يغض الطرف. ولقد شدد المتقون في وجوب غَضِّ البصر عن أبنية الظلمة، وعدد الفسقة في ملابسهم، ومراكبهم، حتى قال الحسن: لا تنظروا إلى دققة هماليج^(١) الفسقة، ولكن انظروا كيف يلوح ذلّ المعصية من تلك الرقاب! وهذا لأنهم إنّما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم، ومغر لهم على اتخاذها ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة. ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير، والفعل الواقع على ﴿منهم﴾ كأنه قال: إلى الذي متعنا به - وهو أصناف - بعضهم، وناساً منهم ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زينتها، وبهجتها. وانتصب على الذمّ، أو: على إبداله من محلّ ﴿به﴾. أو: على إبداله من ﴿أزواجاً﴾ على تقدير: ذوي زهرة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود

(١) «هماليج»: جمع هملاج، وهو البرذون. وحُسن سَيْر الدابة في سُرعة.

وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣٢﴾ وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطِرِّ عَلَيْهَا لَا تَشْتَلِكُ رِزْقًا نَحْنُ
نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؎ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٤﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ وَنَخْزِيَ ﴿١٣٥﴾

الكفران منهم، أو: لنعذبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ ثوابه، وهو الجنة،
أو: الحلال الكافي. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ مما رزقوا.

١٣٢- ﴿وَأَمْرُ أَهْلِكَ﴾ أمتك، أو: أهل بيتك ﴿بِالصَّلَاةِ وَأَصْطِرِّ عَلَيْهَا﴾ أنت. دوام
عليها ﴿عَلَيْهَا لَا تَشْتَلِكُ رِزْقًا﴾ أي: لا نسألك أن ترزق نفسك، ولا أهلك ﴿نَحْنُ
نَرْزُقُكَ﴾ وإيتاهم، فلا تهتم لأمر الرزق، وفرغ بالك لأمر الآخرة؛ لأن من كان
في عمل الله كان الله في عمله. وعن عروة بن الزبير: أنه كان إذا رأى ما عند
السلطين قرأ: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنِكَ﴾ الآية، ثم ينادي: الصلاة! الصلاة! رحكم
الله. وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا،
بهذا أمر الله رسوله. وعن مالك بن دينار: مثله. وفي بعض المسانيد: أنه عليه
الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرر أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية
﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: وحسن العاقبة لأهل التقوى، بحذف المضامين.

١٣٣- ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الكافرون ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؎﴾ هلا ﴿يَأْتِينَا﴾
محمد ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ تدل على صحة نبوته ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾ مدني، وبصري،
وحفص ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: الكتب المتقدمة، يعني: أنهم اقترحوا
على عادتهم في التعنت آية على النبوة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أم
الآيات، وأعظمها في باب الإعجاز؟ - يعني: القرآن - من قبل: أن القرآن
برهان ما في سائر الكتب المنزلة، ودليل صحته؛ لأنه معجزة، وتلك ليست
بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها.

١٣٤- ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل الرسول، أو: القرآن
﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ بالنصب لأنه جواب

قُلْ كُلُّ مُتَرِِّصٍ فَتَرِِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾

الاستفهام بالفاء ﴿ءَايُنْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ﴾ بنزول العذاب ﴿وَنُخْزِي﴾ في العقبي.

١٣٥- ﴿قُلْ كُلُّ﴾ كل واحد منا ومنكم ﴿مُتَرِِّصٍ﴾ منتظر للعاقبة، ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرِِّصُوا﴾ أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا جاءت القيامة ﴿مَنْ أَصْحَبُ﴾ مبتدأ وخبر، ومحلهما نصب ﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ إلى النعيم المقيم.

قال عليه الصلاة والسلام: «لا يقرأ أهل الجنة إلا طه ويس»^(١).

* * *

(١) قال الحافظ: رواه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب. (حاشية الكشف ١٠٠/٣).
ورواه ابن مردويه من حديث أبي أمامة. (الدر المنثور ٥٤٨/٥).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾

١- ﴿أَقْرَبَ﴾ دنا. ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام صلة لـ ﴿أقرب﴾. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أَنَّ المراد بالناس: المشركون؛ لأنَّ ما يتلوه بعد من صفات المشركين ﴿حِسَابُهُمْ﴾ وقت محاسبة الله إياهم، ومجازاته على أعمالهم، يعني: يوم القيامة. وإنما وصفه بالاقتراب لقلَّة ما بقي بالإضافة إلى ما مضى، ولأنَّ كلَّ آت قريب ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن حسابهم، وعمَّا يفعل بهم ثمَّ ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأهب لذلك اليوم. فالاقتراب عام، والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين، فرب غافل عن حسابه؛ لاستغراقه في دنياه، وإعراضه عن مولاه، ورب غافل عن حسابه؛ لاستهلاكه في مولاه، وإعراضه عن دنياه، فهو لا يفيق إلا برؤية المولى. والأوَّل إنما يفيق في عسكر الموتى، فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وتنبه للعرض قبل أن تنبته، وتعرض عن الغافلين، وتشغل بذكر خالق الخلق أجمعين؛ لتفوز بقاء رب العالمين.

٢- ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ﴾ شيء من القرآن ﴿مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ﴾ في التنزيل إثباته، مبتدأ تلاوته، قريب عهده باستماعهم، والمراد به: الحروف المنظومة، ولا خلاف في حدوثه ﴿إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ﴾ من النبي عليه الصلاة والسلام، أو غيره ممن يتلوه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ
السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ

٣- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ حال من ضمير ﴿يلعبون﴾. أو: ﴿وهم يلعبون﴾ و﴿لا إلهة﴾ حالان من الضمير في ﴿استمعوه﴾. ومن قرأ ﴿لا إلهة﴾ بالرفع يكون خبراً بعد خبر؛ لقوله: ﴿وهم﴾. وارتفعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ب: لا إلهة، وهي من: لها عنه: إذا ذهل، وغفل. والمعنى: قلوبهم غافلة عما يراد بها ومنها. وقال أبو بكر الوراق: القلب اللاهي: المشغول بزينة الدنيا وزهرتها، والغافل عن الآخرة وأحوالها ﴿وَأَسْرُوا﴾ وبالغوا في إخفاء ﴿النَّجْوَى﴾، وهي: اسم من التناجي. ثم أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو: ﴿وَأَسْرُوا﴾ إيذاناً بأنهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به، وجاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو: هو مجرور المحل لكونه صفة، أو بدلاً عن الناس، أو هو: منصوب المحل على الذم، أو: هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾، فقدّم عليه، أي: والذين ظلموا أسروا النجوى ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ هذا الكلام كله في محلّ النصب بدل من ﴿النجوى﴾، أي: وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرأ، والمعنى: أنهم اعتقدوا أنّ الرسول لا يكون إلا ملكاً، وأنّ كلّ من ادعى الرسالة من البشر، وجاء بالمعجزة، فهو ساحر، ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون، وتعاينون أنّه سحر؟!

٤- ﴿قَالَ رَبِّي﴾: حزة، وعليّ، وحفص، أي: ﴿قال﴾ محمّد. وغيرهم: ﴿قل ربّي﴾ أي: ﴿قل﴾ يا محمد للذين أسروا النجوى ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم قول كلّ قائل هو في السماء والأرض سراً أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرهم.

٥- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أضربوا عن قولهم: هو سحر، إلى: أنّه تخاليط أحلام رآها في نومه، فتوهمها وحياً من الله إليه، ثم إلى

فَلْيَأْنِئْنَا بِآيَاتِهِ ﴿٥﴾ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٦﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج^(١)، والمبطل رجّاع غير ثابت على قول واحد، ثم قالوا: إن كان صادقاً في دعواه، وليس الأمر كما يظن، ﴿فَلْيَأْنِئْنَا بِآيَاتِهِ﴾ بمعجزة ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ كما أرسل من قبله باليد البيضاء، والعصا، وإبراء الأكهم، وإحياء الموتى. وصحة التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ من حيث إنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات. ألا ترى أنه لافرق بين قولك: أرسل محمد، وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

٦ - فرد الله عليهم قولهم بقوله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ صفة لقريّة عند مجيء الآيات المقترحة؛ لأنهم طلبوها تعتياً ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم، أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا، مع أنهم أعتى منهم؟ والمعنى: أن أهل القرى المهلكة اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا، وخالفوا، فأهلكهم الله، فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون؛ لنكثوا أيضاً.

٧ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] ﴿نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾^(٢): نوحى حفص ﴿فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ العلماء بالكتابين، فإنهم يعرفون: أن الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، وكان أهل مكة يعتمدون على قولهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثم بين أنه كمن تقدمه من الأنبياء بقوله:

(١) لجلج: متردد، وغير بين.

(٢) أثبتت في الأصل ﴿يُوْحِي﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحزة، والكسائي، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/١٣٠).

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

٨- ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ وحد الجسد لإرادة الجنس ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ صفة لـ ﴿جسدًا﴾، يعني: وما جعلنا الأنبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ كأنهم قالوا: هلا كان ملكاً لا يُطعم ويخلد، معتقدين: أن الملائكة لا يموتون، أو: مستين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاوله: خلوداً.

٩- ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ بإنجائهم. والأصل: في الوعد، مثل: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾ تما حل بقومهم ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ هم المؤمنون ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد بالكفر. ودل الإخبار بإهلاك المسرفين على أن ﴿من نشاء﴾ غيرهم.

١٠- ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم إن عملتم به، أو: لأنه بلسانكم، أو: فيه ذكر دينكم، ودنياكم. والجملة، أي: ﴿فيه ذركم﴾ صفة لـ ﴿كتاباً﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتمكم به على غيركم فتؤمنون.

١١- ﴿وَكَمْ﴾ نصب بقوله: ﴿قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿مِنْ قَبْرٍ﴾ أي: أهلها، بدليل قوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة. وهي واردة عن غضب شديد، وسخط عظيم؛ لأن القصم أفضع الكسر، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم فإنه كسر بلا إبانة ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فسكنوا مساكنهم.

١٢- ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا﴾ أي: المهلكون ﴿بَأَسَنَّا﴾ عذابنا، أي: علموا علم حس، ومشاهدة ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا﴾ من القرية، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة، و﴿هم﴾ مبتدأ، والخبر ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين. والركض: ضرب الدابة بالرجل، فيجوز أن يركبوا دوابهم، يركضونها هاربين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، أو: شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين، الراكضين لدوابهم، فليل لهم:

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْآ
كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا
خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴿١٦﴾

١٣، ١٤- ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ والقائل بعض الملائكة ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ نعمتم فيه من الدنيا، ولين العيش. قال الخليل: المترف: الموسع عليه عيشه، القليل فيه همه ﴿وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ﴾ أي: يقال لهم - استهزاء بهم -: ﴿ارجعوا﴾ إلى نعيمكم ﴿وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ﴾ غداً عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم، فتجيبوا السائل عن علم، ومشاهدة. أو: ارجعوا، واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم، ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقولوا لكم: بم تأمرون؟ وكيف نأتي ونذر؟ كعادة المنعمين المُخْدَمِينَ، أو: يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، أو: يسألكم الوافدون عليكم والطَّماع، ويستمطرون سحاب أكفكم. أو: قال بعضهم لبعض: ﴿لا تركضوا وارجعوا﴾ إلى منازلكم وأموالكم ﴿لعلكم تسألون﴾ مالا وخراجا، فلا تُقْبَلُونَ. فنودي من السماء: يا لثارات الأنبياء! وأخذتهم السيوف. فثم ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنْآ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا حين لا ينفع الاعتراف.

١٥- ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ﴾ هي إشارة إلى ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ﴿دَعْوَتُهُمْ﴾ دعاءهم. و﴿تِلْكَ﴾ مرفوع على أنه اسم زالت، و﴿دعواهم﴾ الخبر. ويجوز العكس ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد، أي: الزرع المحصود. ولم يجمع كما لم يجمع المقدّر ﴿خَمِيدِينَ﴾ ميتين خمود النار، و﴿حصيداً خامدين﴾ مفعول ثانٍ لجعل، أي: جعلناهم جامعين لمائلة الحصيد والخمود، كقولك: جعلته حلواً حامضاً، أي: جعلته جامعاً للطعنين.

١٦- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ﴾ اللعب فعل يروق أوله، ولا ثبات له. و﴿للعين﴾ حال من فاعل ﴿خلقنا﴾. والمعنى: وما سويْنَا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع، ﴿وما بينهما﴾ من أصناف الخلق، للهو واللعب، وإنما سويْنَاها لِئُسْتَدَلَّ بها على قدرة مدبرها، ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقضيه حكمتنا.

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَغِيثُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْصِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

١٧- ثم نزه ذاته عن سمات الحدث بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ - أي: ولدًا، أو امرأة. كأنه ردّ على من قال: عيسى ابنه، ومريم صاحبه - ﴿لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ من الولدان، أو: الحور ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ﴿إِنْ كُنَّا﴾ ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالة في حقنا، وقيل: هو نفى، كقوله: ﴿وَلَا يَدْرِي﴾ [الأنبياء: ١٠٩] أي: ما كنا فاعلين.

١٨- ﴿بَلْ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو، وتنزيه منه لذاته، كأنه قال: سبحانه أن نتخذ اللهو، بل من ستننا أن ﴿نَقْذِفُ﴾ أي: نرمي، ونسلط ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالقرآن ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الشيطان. أو: بالإسلام على الشرك، أو: بالجدّ على اللعب ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ فيكسره، ويدحض الحقّ الباطل. وهذه استعارة لطيفة؛ لأنّ أصل استعمال القذف، والدمغ في الأجسام، ثم استعير القذف لإيراد الحقّ على الباطل، والدمغ لإذهاب الباطل. فالمستعار منه حسي، والمستعار له عقليّ، فكأنه قيل: بل نورد الحقّ الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف، فيبطله إبطال الجسم القويّ الضعيف ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ أي: الباطل ﴿زَاهِقٌ﴾ هالك ذاهب ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ الله من الولد، ونحوه.

١٩- ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فأنتى يكون شيء منه ولدًا له، وبينهما تناف؟ ويوقف على ﴿الْأَرْضِ﴾؛ لأنّ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُمْ﴾ - منزلة ومكانة، لا منزلاً ومكاناً، يعني: الملائكة: مبتدأ، خبره ﴿لَا يَسْتَغِيثُونَ﴾ لا يتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْصِرُونَ﴾ ولا يغيثون.

٢٠- ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يسبحون﴾ أي: تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم، لا تتخلله فترة بفرغ، أو: بشغل آخر، فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا.

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا
فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

٢١- ثم أضرب عن المشركين منكرًا عليهم وموبخًا، فجاء بـ «أم» التي بمعنى بل والهمزة، فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ يحيون الموتى. و: ﴿من الأرض﴾ صفة لآلهة؛ لأن آلهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب، والفضة، والحجر. و: تعبد في الأرض، فنسبت إليها، كقولك: فلان من المدينة، أي: مدني. أو: متعلق بـ «اتخذوا»، ويكون فيه بيان ابتداء غاية الاتخاذ. وفي قوله: ﴿هم ينشرون﴾ زيادة توبيخ - وإن لم يدعوا أن أصنامهم تحيي الموتى، وكيف يدعون، ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات - لأنه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشاء؛ لأن العاجز عنه لا يصح أن يكون إلهاً، إذ لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشاء من جملة المقدورات. وقرأ الحسن: ﴿يُنْشِرُونَ﴾ بفتح الباء، وهما لغتان. أنشر الله الموتى، ونشرها، أي: أحيها.

٢٢- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا﴾ أي: غير ﴿الله﴾ وصفت ﴿آلهة﴾ بـ «إلا»، كما وصفت بغير لو قيل: آلهة غير الله. ولا يجوز رفعه على البدل؛ لأن «لو» بمنزلة «إن» في أن الكلام معه موجب. والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْبِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ [هود: ٨١] ولا يجوز نصبه استثناء؛ لأن الجمع إذا كان منكرًا لا يجوز أن يستثنى منه عند المحققين؛ لأنه لا عموم له، بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء. والمعنى: لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتنا لوجود التمانع. وقد قررناه في أصول الكلام. ثم نزه ذاته فقال: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والشريك.

٢٣- ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنه المالك على الحقيقة. ولو اعترض على السلطان بعض عبده - مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه، وعدم الملك الحقيقي - لاستقبح ذلك، وعدّ سفهاً. فمن هو مالك الملوك، ورب الأرباب، وفعله صواب كله، أولى بالاعتراض عليه ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنهم مملوكون خطاؤون،

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾

فما أخلقهم بأن يقال لهم: «لم فعلتم؟» في كل شيء فعلوه. وقيل: ﴿وهم يسألون﴾ يرجع إلى المسيح والملائكة، أي: هم مسؤولون، فكيف يكونون آلهة، والألوهية تنافي [الجنسية و] ^(١) المسؤولية؟

٢٤- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ الإعادة لزيادة الإفادة، فالأول للإنكار من حيث العقل، والثاني من حيث النقل. أي: وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك، فقيل لمحمد: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على ذلك. وذا عقلي، وهو يأباه كما مر، أو نقلي، وهو الوحي، وهو أيضاً يأباه، فإنكم لا تجدون كتاباً من الكتب السماوية إلا وفيه توحيده، وتنزيهه عن الأنداد ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ يعني: أمته ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني: أمم الأنبياء من قبلي. وهو وارد في توحيد الله، ونفي الشركاء عنه ﴿مَعِيَ﴾: حفص. فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: القرآن. وهو نصب بـ ﴿يعلمون﴾ وقرئ: ﴿الحق﴾ أي: هو الحق ﴿فَهُمْ﴾ لأجل ذلك ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن النظر فيما يجب عليهم.

٢٥- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ﴾ كوفي - غير أبي بكر - وحماد ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وحدوني. فهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد.

٢٦- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فتره ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: بل هم عباد مكرمون، مشرفون، مقربون، ليسوا بأولاد؛ إذ العبودية تنافي الولادة.

لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

٢٧- ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: بقولهم، فأنبت اللام مناب الإضافة، والمعنى: أنهم يتبعون قوله، فلا يسبق قولهم قوله، ولا يتقدمون قوله بقولهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كما أنَّ قولهم، تابع لقوله، فعملهم أيضاً مبني على أمره، لا يعملون عملاً لم يؤمروا به.

٢٨- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما قدموا وأخروا من أعمالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ أي: لمن رضي الله عنه، أو قال: لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

٢٩- ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة: ﴿إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله - ﴿إِنِّي﴾: مدني، وأبو عمرو - ﴿فَذَلِكَ﴾ مبتدأ - أي: ﴿فَذَلِكَ﴾ القائل - خبره ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وهما جواب الشرط ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين الذين وضعوا الإلهية في غير موضعها. وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقيق عصمتهم. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة والضحاك: قد تحقق الوعيد في إبليس، فإنه ادعى الإلهية لنفسه، ودعا إلى طاعة نفسه، وعبادته.

٣٠- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الم ير) مكِّي ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا﴾ أي: جماعة السموات وجماعة الأرض؛ فلذا لم يقل: كن ﴿رَتْقًا﴾ بمعنى المفعول، أي: ﴿كانتا﴾ مرتوقتين. وهو مصدر؛ فلذا صلح أن يقع موقع مرتوقتين ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فشققناهما. والفتق: الفصل بين الشيئين. والرتق: ضد الفتق. فإن قيل: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: إنه وارد في القرآن؛ الذي هو معجزة، فقام مقام المرئي المشاهد؛ ولأن الرؤية بمعنى العلم، وتلاصق الأرض والسماء، وتباينهما جائزان في العقل. فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بد له من مخصص، وهو القديم جلّ جلاله. ثم قيل: إن السماء كانت لاصقة بالأرض، لا فضاء بينهما ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي: فصلنا بينهما

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

بالهواء: وقيل: كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة، ففتقها الله، وجعلها سبع سموات. وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها، وجعلها سبع أرضين. وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥] أو: كأنما خلقناه من الماء لفطر احتياجه إليه، وحبه له، وقلة صبره عنه، كقوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بما يشاهدون.

٣١- ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت. من: رسا: إذا ثبت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا تضطرب بهم، فحذف لا، واللام، وإنما جاز حذف «لا» لعدم الإلباس، كما يُزاد كذلك في: ﴿لَيْتَ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ طرقاً واسعة، جمع: فجج، وهو الطريق الواسع. ونصب على الحال من ﴿سُبُلًا﴾ مُقَدِّمَةٌ. فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى ﴿لَيْسَلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] وبين هذه؟ قلت: الأول للإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني: لبيان أنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة.

٣٢- ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ في موضعه عن السقوط، كما قال: ﴿وَمُتَسِكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] أو: ﴿مَحْفُوظًا﴾ بالشهب عن الشياطين، كما قال ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾ عن الأدلة التي فيها كالشمس، والقمر، والنجوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين فيها فيؤمنون.

٣٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتتصرفوا فيه ﴿وَالشَّمْسَ﴾ لتكون سراج النهار ﴿وَالْقَمَرَ﴾ ليكون سراج الليل ﴿كُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، أي: كلهم، والضمير للشمس والقمر. والمراد

فِي فَلَاكِ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَايِنَ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾
 كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ
 وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفِرُونَ ﴿٣٦﴾

بهما: جنس الطوالع. وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم، وهو: السباحة ﴿فِي فَلَاكِ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: الفلك: السماء. والجمهور على أنَّ الفلك موج مكفوف تحت السماء، تجري فيه الشمس، والقمر، والنجوم. و﴿كل﴾ مبتدأ، خبره ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسرون أو يدورون. والجملة في محلّ النصب على الحال من الشمس، والقمر.

٣٤ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ البقاء الدائم ﴿أَفَايِنَ مَتَّ﴾ بكسر الميم: مدني، وكوفي غير أبي بكر ﴿فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ والفاء الأول لعطف جملة على جملة، والثاني: لجزاء الشرط. كانوا يقدرون أنه سيموت، فنفى الله عنه الشماتة بهذا، أي: قضى الله ألا يخلد في الدنيا بشر ﴿أَفَايِنَ مَتَّ﴾ أنت أبقى هؤلاء؟

٣٥ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ﴾ نخبركم. سمي ابتلاء، وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار ﴿بِالشَّرِّ﴾ بالفقر، والضرر ﴿وَالْخَيْرِ﴾ الغنى، والنفع ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر، والشكر. وعن ابن ذكوان: ﴿تَرْجَعُونَ﴾.

٣٦ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّ يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُؤًا﴾ مفعول ثانٍ لـ: ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾. نزلت في أبي جهل مرّ به النبي عليه الصلاة والسلام فضحك، وقال: هذا نبيّ بني عبد مناف ﴿أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ﴾ يعيب ﴿آلِهَتَكُمْ﴾. والذكر يكون بخير وبخلافه. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذمّ ﴿وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ﴾ أي: بذكر الله، وما يجب أن يذكر به من الوجدانية ﴿هُمْ كَفِرُونَ﴾ لا يصدقون به أصلاً، فهم أحقّ بأن يُتَّخَذُوا هُزُؤًا منك، فإنك محقّ، وهم مبطلون. وقيل: ﴿بذكر الرحمن﴾ أي:

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾

بما أنزل عليك من القرآن ﴿هم كفرون﴾ جاحدون. والجملة في موضع الحال، أي: يُتَّخَذُونَكَ هُزُؤاً وهم على حال هي أصل الهُزء والسخرية، وهي: الكفر بالله. وكرر ﴿هم﴾ للتأكيد، أو: لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر، فأعيد المبتدأ.

٣٧ - ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فسر بالجنس. وقيل: نزلت حين كان نصر بن الحارث يستعجل بالعذاب. والعجل والعجلة مصدران، وهو: تقديم الشيء على وقته. والظاهر أن المراد الجنس، وأنه ركب فيه العجلة، فكأنه خلق من العجل، ولأنه يكثر منه. والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خلق من الكرم. فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة، وأنه مطبوع عليها، ثم منع، وزجر كأنه قال: ليس يبدع منه أن يستعجل، فإنه مجبول على ذلك، وهو طبعه، وسجيته، وقد رُكِّبَ فيه. وقيل: العجل: الطين بلغة حمير، قال شاعرهم:

والنَّبْعُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَاءُ مَنِيَّتُهُ وَالنَّخْلُ تُسَبِّتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ (١)

ولأنما منع عن الاستعجال، وهو مطبوع عليه، كما أمره بقمع الشهوة، وقد ركبها فيه؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة، وترك العجلة. و﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ حال، أي: عَجَلاً ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ نعماتي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها. وهو بالياء عند يعقوب. وافقه سهل، وعياش في الوصل.

٣٨ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ إتيان العذاب، أو: القيامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قيل: هو أحد وجهي استعجالهم.

٣٩ - ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جواب «لو» محذوف. و﴿حِينَ﴾ مفعول به ليعلم، أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ وهو وقت تحيط

(١) «النَّبْع»: شجر تتخذ منه القسي. «الصماء»: الصلبة.

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
 اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ
 رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
 أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

بهم فيه النار من وراء وقدام، فلا يقدرّون على دفعها ومنعها من أنفسهم،
 ولا يجدون ناصرًا ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر، والاستهزاء،
 والاستعجال. ولكنّ جهلهم به هو الذي هوته عندهم.

٤٠- ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتحيّرهم، أي:
 لا يكفونها، بل تفجؤهم فتغلبهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فلا يقدرّون على
 دفعها ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون.

٤١- ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ فحلّ ونزل ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا
 مِنْهُمْ﴾ جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. سلّى رسول الله ﷺ عن استهزائهم بأنّ
 له في الأنبياء أسوة، وأنّ ما يفعلونه به يحقّ بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء
 ما فعلوا.

٤٢- ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ﴾ يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من عذابه
 إن أتاكم ليلاً أو نهاراً ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: بل هم
 معرضون عن ذكره، ولا يخطرّونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتّى إذا رزقوا
 الكلاءة منه عرفوا من الكلاء، فصلحوا للسؤال عنه. والمعنى: أنّه أمر رسوله
 بسؤالهم عن الكلاء، ثمّ بين أنّهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من
 يكلؤهم. ثمّ أضرب عن ذلك بقوله:

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ لما في ﴿أَمْ﴾ من معنى «بل» فقال:
 ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا، وحفظنا؟ ثم استأنف بقوله: ﴿لَا
 يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فبيّن: أنّ ما ليس بقادر على
 نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره،
 وينصره؟ ثمّ قال:

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ
نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا
يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

٤٤ - ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: ما هم فيه من
الحفظ والكلاءة إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلاًناهم
وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما تمتعنا غيرهم من
الكفار، وأمهلناهم، حتى طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، فظنوا أنهم
دائمون على ذلك. وهو أمل كاذب ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا﴾ أي: ننقص أرض الكفر، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها،
وإظهارهم على أهلها، وردّها داراً للإسلام. وذكر ﴿نَأْتِي﴾ يشير بأن الله يجريه
على أيدي المسلمين، وأنّ عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين، وتأتيها غالبية
عليها ناقصة من أطرافها ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أو كفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا
من أطراف أرضهم ١٩ أي: ليس كذلك، بل يغلبهم رسول الله ﷺ وأصحابه
بنصرنا.

٤٥ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أخوفكم من العذاب بالقرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ
الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ بفتح الياء والميم، ورفع ﴿الصِّمِّ﴾ ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصِّمُّ﴾: شامي،
على خطاب النبي ﷺ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ يخوفون. واللام في ﴿الصِّمِّ﴾ للعهد.
وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين. والأصل: ولا يسمعون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.
فوضع الظاهر موضع المضمّر للدلالة على تصامتهم، وسدّهم أسماعهم إذا
ما أنذروا.

٤٦ - ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ دفعة يسيرة ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ صفة لـ: ﴿نَفْحَةٌ﴾
﴿لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ولئن مسّهم من هذا الذي ينذرون به
أدنى شيء لذلّوا، ودعوا بالويل على أنفسهم، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين
تصاموا، وأعرضوا. وقد بلغ حيث ذكر المسّ والنفحة؛ لأنّ النفع يدلّ على
القلّة، يقال: نفحه بعطية: رضخه بها، مع أن بناءها للمرّة.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَهُ ﴿٥٠﴾

٤٧ - ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ جمع ميزان، وهو: ما يوزن به الشيء فيعرف كميته. وعن الحسن: هو ميزان، له كفتان ولسان. وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها، كما في قوله ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] والوزن لصحائف الأعمال في قول ﴿الْقِسْطَ﴾ وصفت الموازين بالقسط، وهو العدل، مبالغة، كأنها في أنفسها قسط. أو: على حذف المضاف، أي: ذوات القسط ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لأهل يوم القيامة، أي: لأجلهم ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من الظلم. ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أي: وإن كان الشيء مثقال حبة. ﴿مِثْقَالٌ﴾ بالرفع: مدني. وكذا في لقمان على ﴿كَانَ﴾ التامة ﴿مِنْ خَرْدَلٍ﴾ صفة لـ: ﴿حَبَّةٍ﴾ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وأنت ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة، كقولهم: ذهب بعض أصابعهم ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ عالمين حافظين، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه.

٤٨ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ قيل: هذه الثلاثة هي التوراة، فهي فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصل به إلى سبيل النجاة، وذكراً. أي: شرف، أو: وعظ، وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دارهم. ودخلت الواو على الصفات، كما في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩] وتقول: مررت بزيد الكريم، والعالم، والصالح. ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤٩ - وعمل ﴿الَّذِينَ﴾ جرّ على الوصفية. أو: نصب على المدح، أو: رفع عليه ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخافونه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال، أي: يخافونه في الخلاء ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ﴾ القيامة، وأحوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

٥٠ - ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير، غزير النفع ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ على محمد ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَهُ﴾ استفهام توبيخ، أي: جاحدون أنه منزل من عند الله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ٥١ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ٥٢ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٥٤ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٥٦

٥١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ هداه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل موسى وهارون، أو: من قبل محمد ﷺ ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ بإبراهيم، أو: برشده ﴿عَالِمِينَ﴾ أي: علمنا أنه أهل لما آتينا.

٥٢- ﴿إِذْ﴾ إما أن تتعلق بـ: ﴿آتينا﴾، أو: بـ: ﴿رشده﴾ ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام المصورة على صورة السباع، والطيور، والإنسان. وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم، مع علمه بتعظيمهم لها ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ لأجل عبادتها مقيمون.

٥٣- فلما عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ فقلدناهم.

٥٤- ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أراد أن المقلدين والمقلدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر، لا يخفى على عاقل. وأكد بـ: ﴿أَنْتُمْ﴾ ليصح العطف؛ لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع.

٥٥- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ بالجد ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي: أجاد أنت فيما تقول أم لاعب؟ استظماً منه إنكاره عليهم، واستعباداً أن يكون ما هم عليه ضلالاً. فتمَّ أضرب عنهم مخبراً بأنه جاد فيما قال، غير لاعب، مثبتاً لربوبية الملك العلام، وحدث الأصنام بقوله:

٥٦- ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أي: التماثيل، فأنى يعبد المخلوق، ويوجد الخالق؟! ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ المذكور من التوحيد شاهد ﴿مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾.

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا
سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

٥٧- ﴿وَتَاللَّهِ﴾ - أصله: والله. وفي التاء معنى التعجب، كأنه تعجب من تسهّل الكيد على يده مع صعوبته، وتعدّره لقوة سلطنة نمروء. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ لاكسرناها ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال ذلك سراً من قومه، فسمعه رجل واحد، فعرض بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩] أي: سأسقم؛ ليتخلف فرجع إلى بيت الأصنام.

٥٨- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذَا﴾ قطعاً - من: الجذذ، وهو: القطع، جمع جذاذة، كزجاجة وزجاج. ﴿جُذَاذَا﴾ بالكسر عليّ؛ جمع جذيد، أي: مجذوذ، كخفيف وخفاف - ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ للأصنام، أو، للكفار. أي: فكسرها كلها بفأس في يده إلا كبيرها، فعلق الفأس في عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عن كاسرها، فيتبين لهم عجزه، أو: إلى إبراهيم ليحتجّ عليهم، أو: إلى الله لما رأوا عجز آلهتهم.

٥٩- ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إنّ من فعل هذا الكسر لشديد الظلم؛ لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير، والتعظيم.

٦٠- ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ الجملتان صفتان لـ: ﴿فَتَى﴾، إلا أنّ الأوّل - وهو ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيهم - لا بدّ منه لـ: «سمع»؛ لأنك لا تقول: سمعت زيدا، وتسكت، حتى تذكر شيئاً مما يسمع، بخلاف الثاني. وارتفاع ﴿إبراهيم﴾ بأنّه فاعل ﴿يقال﴾. فالمراد الاسم لا المسمّى، أي: الذي يقال له هذا الاسم.

٦١- ﴿قَالُوا﴾ أي: نمروء، وأشراف قومه ﴿فَأَتُوا بِهِ﴾ احضروا إبراهيم ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ في محلّ الحال بمعنى معائناً مشاهداً، أي: بمرأى منهم، ومنظر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما سُمع منه، أو: بما فعله. كأنهم كرهوا

قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا لِهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ

عقابه بلا بيّنة . أو: يحضرون عقوبتنا له .

٦٢ - فلما أحضروه ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا لِهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾

٦٣ - ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ عن الكسائي: أنه يَقِفُّ عليه، أي: فعله مَنْ فعله. وفيه حذف الفاعل، وأنه لا يجوز. وجاز أن يكون الفعل مسنداً إلى الفتى المذكور في قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾، أو إلى إبراهيم في قوله: ﴿يا إبراهيم﴾. ثم قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وهو مبتدأ وخبر. والأكثر على أنه لا وقف، والفاعل ﴿كبيرهم﴾. و﴿هذا﴾ وصف، أو: بدل. ونسب الفعل إلى كبيرهم، وقصد تقريره لنفسه، وإثباته لها، على أسلوب تعريضي، تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجة عليهم؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح إلهاً. وهذا كما قال لك صاحبك، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق: أننت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي، فقلت له: بل كتبت أنت. كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأمي؛ لأن إثباته للعاجز منكما، والأمر دايّر بينكما، استهزاءً به، وإثبات للقادر. ويمكن أن يقال: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة، وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأن الفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإن من حق من يُعبد، ويُدعى إلهاً أن يقدر على هذا. ويحكى أنه قال: غضب أن تُعبد هذه الصغار معه، وهو أكبر منها فكسّرهن. أو: هو معلق بشرط لا يكون، وهو نطق الأصنام، فيكون نفياً للمخبر به، أي: بل فعله كبيرهم ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وقوله: ﴿فَتَنَلُوهُمْ﴾ اعتراض. وقيل: عرض بالكبير نفسه، وإنما أضاف نفسه إليهم لاشتراكهم في الحضور ﴿فَتَنَلُوهُمْ﴾ عن حالهم ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وأنتم تعلمون عجزهم عنه.

٦٤ - ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فرجعوا إلى عقولهم، وتفكروا بقلوبهم لما

فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٨﴾ أَفِ لَكُمْ لِكْرٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢٠﴾

أخذ بمخانتهم، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلمتم: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]. فَإِنَّ مَنْ لَا يَدْفَعُ عَنْ رَأْسِهِ الْفَاسْنَ، كَيْفَ يَدْفَعُ عَنْ عَابِدِهِ الْبَاسَ؟

٦٥- ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قال أهل التفسير: أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، أي: ردوا إلى الكفر بعد أن أقرروا على أنفسهم بالظلم. يقال: نكسته: قلبته؛ فجعلت أسفله أعلاه. أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم، وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها؟ والجملة سدت مسدّ مفعولي علمت. والمعنى: لقد علمت عجزهم عن النطق، فكيف نسألهم؟

٦٦- ﴿قَالَ﴾ محتجاً عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ هو في موضع المصدر، أي: نفعاً ما. ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن لم تعبدوه.

٦٧- ﴿أَفِ لَكُمْ لِكْرٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ «أف»: صوت إذا صُوَّت به علم أن صاحبه متضجر. أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق، فتأفف بهم. واللام لبيان التأفف به، أي: ﴿لكم﴾ ولآلهتكم هذا التأفف. ﴿أف﴾: مدني، وحفص. ﴿أف﴾: مكّي، وشامي. ﴿أف﴾: غيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلهاً. فلما لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب:

٦٨- ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ بالنار؛ لأنها أهول ما يعاقب به، وأفزع ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام منه ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزرأ، فاخترأوا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق، وإلا قرطتم في نصرتها.

قُلْنَا يَنَّاؤُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِِبْرَاهِيْمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
الْأَخْسَرِيْنَ ﴿٧٠﴾ وَفَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِيْنَ ﴿٧١﴾

والذي أشار بإحراقه نمرود، أو: رجل من أكراد فارس. وقيل: إنهم حين همّوا بإحراقه حبسوه، ثم بنوا بيتاً بكوئي^(١)، وجمعوا شهراً أصناف الخشب، ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجو من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً، مغلولاً، فرموا به فيها، وهو يقول: حسبي الله ونعم الوكيل. وقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا! قال: فسل ربك. قال: حسبي من سؤالي، علمه بحالي. وما أحرقت النار إلا وثاقه. وعن ابن عباس: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل.

٦٩- ﴿قُلْنَا يَنَّاؤُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ أي: ذات برد وسلام، فبولغ في ذلك، كأن ذاتها برد، وسلام ﴿عَلَيَّ إِِبْرَاهِيْمَ﴾ أراد: ابردي، فيسلم منك إبراهيم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. والمعنى: أن الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر، والإحراق، وأبقاها على الإضاءة، والإشراق كما كانت، وهو على كل شيء قدير.

٧٠- ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ إحراقاً ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِيْنَ﴾ فأرسل على نمرود وقومه البعوض، فأكلت لحومهم، وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة في دماغ نمرود فأهلكته.

٧١- ﴿وَفَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ أي: إبراهيم ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخيه هاران من العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِيْنَ﴾ أي: أرض الشام. وبركتها: أن أكثر الأنبياء منها، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية، وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغني والفقير. وقيل: ما من ماء عذب في الأرض إلا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس. روي: أنه نزل بفلسطين، ولوط بالموتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فخير الناس إلى مهاجر إبراهيم»^(٢).

(١) «كوئي»: اسم موضع بسواد العراق، في أرض بابل. انظر معجم البلدان (٤/٤٨٧).

(٢) رواه أبو داود (٢٤٨٢).

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۖ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ
الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ طَآءَنَّا عَنْهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَغَيْنَاهُ مِنْ
أَلْفَرُتَةٍ ۖ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي
رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ

٧٢- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قيل: هو مصدر كالعافية من غير
لفظ الفعل السابق، أي: ﴿وهبنا له﴾ هبة. وقيل: هي ولد الولد، وقد سأل
ولداً فأعطيه، وأعطى يعقوب ﴿نافلة﴾ أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال، وهي
حال من يعقوب ﴿وكُلًّا﴾ أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهو المفعول الأول
لقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ والثاني ﴿صَالِحِينَ﴾ في الدين، والنبوة.

٧٣- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يُقْتَدَى بِهِمْ في الدين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾
بوحينا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ وهي جميع الأعمال الصالحة. وأصله: أن
تُفْعَلَ الخيرات، ثم فِعْلًا الخيرات، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ
الزَّكَاةِ﴾ والأصل: وإقامة الصلاة، إلا أن المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء
﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ لا للأصنام. فأنتم يا معشر العرب! أولاد إبراهيم، فاتَّبِعُوهُ
في ذلك.

٧٤- ﴿وَلَوْ طَآءَنَّا عَنْهُمْ حُكْمًا﴾ يفسره ﴿وَعِلْمًا﴾ حكمة. وهي: ما يجب
فعله من العمل، أو: فصلاً بين الخصوم، أو: نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً ﴿وَبَغَيْنَاهُ
مِنْ أَلْفَرُتَةٍ﴾ من أهلها، وهي: سدوم ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثَ﴾ اللواط،
والضُّرَّاط، وحذف المارة بالحصى، وغيرها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَسَقِينَ﴾
خارجين عن طاعة الله.

٧٥- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في أهل رحمتنا، أو: في الجنة ﴿إِنَّهُمْ مِنَ
الصَّالِحِينَ﴾ أي: جزاء له على صلاحه، كما أهلكنا قومه عقاباً على فسادهم.

٧٦- ﴿وَنُوحًا﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿نُوحًا﴾ ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا على قومه
بالبهلاك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: دعاءه

فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِثَايَلَتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: المؤمنين من ولده، وقومه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الطوفان، وتكذيب أهل الطغيان.

٧٧ - ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِثَايَلَتِنَا﴾ منعناه منهم، أي: من أذاهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

٧٨ - ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي: واذكرهما ﴿إِذْ﴾ بدل منهما ﴿يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ في الزرع. أو: الكرم ﴿إِذْ﴾ ظرف ليحكمان ﴿نَفَسَتْ﴾ دخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ ليلاً فأكلته، وأفسدته. والنفس: انتشار الغنم ليلاً بلا راع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أرادهما والمتحامين إليهما ﴿شَاهِدِينَ﴾ أي: كان ذلك بعلمنا، ومرأى منا.

٧٩ - ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي: الحكومة، أو: الفتوى ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان - صلوات الله عليه -. وقصته: أن الغنم رعت الحرث، وأفسدته بلا راع ليلاً، فتحاكما إلى داود، فحكم بالغنم لأهل الحرث، وقد استوت قيمتهما، أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث. فقال سليمان - وهو ابن إحدى عشرة سنة -: غير هذا أرفق بالفريقين. فعزم عليه ليحكم، فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها، وأولادها، وأصوافها، والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث، ويعود كهيته يوم أفسد، ثم يترادان. فقال: القضاء ما قضيت. وأمضى الحكم بذلك. وكان ذلك باجتهاد منهما. وهذا كان في شريعتهم. فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه - رحمهم الله - بالليل أو بالنهار، إلا أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد. وعند الشافعي - رحمه الله - يجب الضمان بالليل. وقال الجصاص: إنما ضَمِنُوا لأنهم أرسلوها. ونسخ الضمان بقوله عليه الصلاة

وَكُنَّا ءَايِنًا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخَصِّنْكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَسُلْطَمِنَ الرِّيحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾

والسلام: «العجماء جَبَار»^(١). وقال مجاهد: كان هذا صلحاً. وما فعله داود كان حكماً، والصلح خير ﴿وَكُنَّا﴾ من داود، وسليمان ﴿ءَايِنًا حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ معرفة بموجب الحكم ﴿وَسَخَرْنَا﴾ وذلنا ﴿مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ﴾ وهو حال بمعنى مسبحات، أو استئناف، كأن قائلًا قال: كيف سخرهن؟ فقال: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ﴿وَالطَّيْرُ﴾ معطوف على ﴿الجبال﴾ أو مفعول معه. وقدمت الجبال على الطير؛ لأنَّ تسخيرها وتسييحها أعجب، وأغرب، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد. روي: أنه كان يمرّ بالجبال مسبحاً، وهي تجاوبه. وقيل: كانت تسير معه حيث سار ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بالأنبياء مثل ذلك، وإن كان عجباً عندكم.

٨٠- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: عمل اللبوس والدروع. واللبوس: اللباس، والمراد: الدرع ﴿لِنُخَصِّنْكُمْ﴾ شامي، وحفص. أي: الصنعة، وبالنون: أبو بكر، وحماد، أي: الله عز وجل. وبالياء: غيرهم، أي: اللبوس، أو: الله عز وجل ﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ من حرب عدوكم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر، أي: فاشكروا الله على ذلك.

٨١- ﴿وَلَسُلْطَمِنَ الرِّيحِ﴾ أي: وسخرنا له الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ حال، أي: شديدة الهبوب. ووصفت في موضع آخر بالرخاء؛ لأنها تجري باختياره، فكانت في وقت رخاء، وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم إرادته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ بأمر سليمان ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الأنهار، والأشجار، والثمار. والمراد: الشام، وكان منزله بها، وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ وقد أحاط علمنا بكل شيء، فتجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا.

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُوتُ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
 حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَيُؤْتِيكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ
 مَعَهُمْ

٨٢ - ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسخرنا منهم ﴿مَنْ يَفْضُوتُ لَهُ﴾ في البحار
 بأمره لاستخراج الدرّ، وما يكون فيها ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي:
 دون الغوص، وهو بناء المحاريب، والتماثيل، والقصور، والقصور، والجفان
 ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو: يبدلوا، أو: يوجد منهم فساد
 فيما هم مسخرون فيه.

٨٣ - ﴿وَيُؤْتِيكَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿يُؤْتِيكَ﴾ ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي﴾ أي:
 دعا بأنّي ﴿مَسَّيَ الضُّرِّ﴾ الضّر - بالفتح - الضرر في كل شيء، وبالضم: الضرر
 في النفس من مرض، أو: هزال ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ألطف في السؤال حيث
 ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربّه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالملوب،
 فكأنّه قال: أنت أهل أن ترحم، وأيوب أهل أن يرحم، فارحمه، واكشف عنه
 الضر الذي مسّه. عن أنس - رضي الله عنه - أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على
 النهوض إلى الصلاة، ولم يشك. وكيف يشكو من قيل له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا يَقُمُ
 الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]؟ وقيل: إنّما شكا إليه تلذذاً بالنجوى؛ لآمنه تضرراً
 بالشكوى. والشكاية إليه غاية القرب، كما أنّ الشكاية منه غاية البعد.

٨٤ - ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أجبنا نداءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ فكشفنا ضرّه
 إنعاماً عليه ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ روي: أنّ أيوب - عليه السلام -
 كان رومياً من ولد إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وله سبعة بنين، وسبع
 بنات، وثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمئة فدان، يتبعها خمسمئة
 عبد، لكلّ عبد امرأة وولد ونخيل^(١). فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده، وماله،
 وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة، أو: ثلاث عشرة سنة، أو: ثلاث سنين.

رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ

وقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله عز وجل! فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة. فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلاني مدة رخائي. فلما كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم، ورزقه مثلهم معهم ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هو مفعول له ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: ﴿رحمة﴾ لأتوب، وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره، فيثابوا كثوابه.

٨٥- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ بن شيث بن آدم ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي: أذكرهم. وهو إلياس، أو: زكريا، أو: يوشع بن نون. وسُمِّي به، لأنه ذو الحظ من الله، والكفل: الحظ ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر.

٨٦- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ نبوتنا، أو: النعمة في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ممن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد.

٨٧- ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي: اذكر صاحب الحوت، والنون: الحوت، فأضيف إليه ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ حال، أي: مراغماً لقومه، ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقتهم خووفهم حلول العقاب عليهم عندها. روي: أنه برم بقومه لطول ما ذكرهم، فلم يتعظوا، وأقاموا على كفرهم، فراغمهم، وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله. وكان عليه أن يصابر، ويتنظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم، فابتلي ببطن الحوت ﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ﴾ نصيقت ﴿عَلَيْهِ﴾ وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه دخل يوماً على معاوية، فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، ففرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك. قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية، فقال: أو يظن نبي الله ألا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، كقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَتُوبُهُمْ وَرَكَعُكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٧] أو: ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَبَيَّضْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ وَكَرَّمْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

﴿أَنْ﴾ أي: بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أو بمعنى: أي ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسه في خروجي من قومي قبل أن تأذن لي. في الحديث: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»^(١)، وعن الحسن: ما نجاه -والله- إلا إقراره على نفسه بالظلم.

٨٨- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَبَيَّضْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ غم الزلّة، والوحشة، والوحدة ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ إذا دعونا، واستغاثوا بنا. ﴿نُفَجِّي﴾: شامي، وأبو بكر بإدغام النون في الجيم عند البعض؛ لأنّ النون لا تدغم في الجيم، وقيل: تقديره: نُجِّي النجاء المؤمنين، فسكن الياء تخفيفاً، وأسند الفعل إلى المصدر، ونصب المؤمنين بالنجاء. لكنّ فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول، وهذا لا يجوز. وفيه تسكين الياء، وبابه: الضرورات. وقيل: أصله ننجي، من التنجية، فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين، كما حذفت إحدى التاءين في ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ﴾ [القدر: ٤].

٨٩- ﴿وَكَرَّمْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه، ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلماً فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي، فإنك خير وارث، أي: باق.

٩٠- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَوَهَبْنَا لَهُمْ يَحْيَىٰ﴾ ولداً ﴿وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد عُقرها، أو: حسنة، وكانت سيئة الخلق ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الأنبياء المذكورين ﴿كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: إنهم إنما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٠) والنسائي (٦٥٥) في عمل اليوم والليلة، والحاكم (١/ ٥٥٥).

وَيَدْعُونَا رَعْبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩١﴾ وَالَّتِي أَخْصَنْتَ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ
هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٣﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَجْعَلُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وَيَدْعُونَا رَعْبًا وَرَهَبًا﴾ أي: طمعاً وخوفاً، كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. وهما مصدران في موضع الحال، أو: المفعول له، أي: للرجبة فينا، والرهبة منا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ متواضعين، خائفين.

٩١- ﴿وَالَّتِي﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿التي﴾ ﴿أَخْصَنْتَ فَرْجَهَا﴾ حفظته، من الحلال والحرام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أجرينا فيها روح المسيح، أو: أمرنا جبريل، فنفخ في جيب درعها، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها. وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى - عليه السلام - ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً﴾ مفعول ثانٍ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وإنما لم يقل آيتين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً وَالتَّهَارُ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي: ولادتها إياه من غير فعل. أو: التقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، ف﴿آية﴾ مفعول المعطوف عليه، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿آيتين﴾.

٩٢- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمة: الملة. وهذه ﴿إشارة إلى ملة الإسلام، وهي: ملة جميع الأنبياء، و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال، أي: متوحدة غير متفرقة. والعامل ما دل عليه اسم الإشارة، أي: أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: ربيتكم اختياراً، فاعبدوني شكراً وافتخاراً. والخطاب للناس كافة.

٩٣- ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أصل الكلام: وتقطعتم، إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات. والمعنى: وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، وصاروا فرقاً وأحزاباً، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ﴿كُلُّ إِلَهِنَا يَجْعَلُونَ﴾ فنجازيهم على أعمالهم.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرِّمُوا عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقَّ إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ

٩٤ - ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ شيئاً ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي: فإنَّ سعيه مشكور مقبول. والكفران مثل في حرمان الثواب، كما أنَّ الشكر مثل في إعطائه. وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ للسعي أي: الحفظة بأمرنا ﴿كَاتِبُونَ﴾ في صحيفة عمله، فثيبه به.

٩٥ - ﴿وَحَرِّمُوا﴾: ﴿وَحَرِّمُوا﴾ كوفي - غير حفص - وخلف. وهما لغتان، كحلّ وحلال وزناً، وضده معنى. والمراد بالحرام: الممتنع وجوده ﴿وَعَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ والمعنى: وممتنع على مهلك غير ممكن ألا يرجع إلى الله بالبعث أو: ﴿وحرام على قرية أهلناها﴾ - أي: قدرنا إهلاكهم، أو: حكمنا بإهلاكهم ذاك، وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح، والسعي المشكور غير المكفور، ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى الإسلام.

٩٦ - ﴿حَقَّ﴾ هي التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكي: الجملة من الشرط والجزاء، أعني: ﴿إِذَا﴾ وما في حيزها ﴿فَتُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: فتح سدّهما، فحذف المضاف، كما حذف المضاف إلى ﴿قرية﴾. ﴿فَتُفْتَحُ﴾: شامي. وهما قبيلتان من جنس الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها: يأجوج ومأجوج ﴿وَهُمْ﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ نَشْر من الأرض، أي: ارتفاع ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون.

٩٧ - ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي: القيامة. وجواب ﴿إِذَا﴾: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ وهي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادة مسدّ الفاء، كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]. فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد. ولو قيل: فهي شاحصة، أو: إذا ﴿هي شاحصة﴾ كان سديداً.

شَخِصَةً أَنْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ

﴿وهي﴾ ضمير مبهم يوضحه الأبصار، ويفسره ﴿شَخِصَةً أَنْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مرتفعة الأجفان، لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه ﴿يَتَوَلَّيْنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون: ﴿يا ويلنا﴾، ويقولون: حال من ﴿الذين كفروا﴾ ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة في غير موضعها.

٩٨- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، وإبليس، وأعوانه؛ لأنهم بطاعتهم لهم، واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم ﴿حَصْبُ﴾ حطب. وقرىء ﴿حطب﴾ ﴿جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ فيها داخلون.

٩٩- ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ ءَالِهَةً﴾ كما زعمتم. ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ ما دخلوا النار ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿خَالِدُونَ﴾.

١٠٠- ﴿لَهُمْ﴾ للكفار. ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين، وبكاء، وعويل ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ما؛ لأنهم صاروا صماً، وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

١٠١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الخصلة المفضلة في الحسن. تأنيث الأحسن. وهي، السعادة، أو البشري بالشواب، أو التوفيق للطاعة. نزلت جواباً لقول ابن الزبغري عند تلاوته عليه الصلاة والسلام على صناديد قريش: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ إلى قوله ﴿خالدون﴾: أليس اليهود عبدوا عزيزاً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة؟^(١) على أن قوله ﴿وما تعبدون﴾ لا يتناولهم؛ لأن ﴿ما﴾ لمن لا يعقل، إلا أنهم أهل عناد، فزيد

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢٧٠/٣) من غير إسناد، وانظر حاشية الكشاف (٣/١٣٦).

أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلِئِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ
الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ

في البيان ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: عزيزاً، والمسيح، والملائكة ﴿عَنْهَا﴾ عن جهنم
﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم. وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ
لَهُمْ مَنَا الْحَسَنَى﴾ جميع المؤمنين؛ لما رُوي أَنَّ علياً - رضي الله عنه - قرأ هذه
الآية، ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير،
وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. وقال الجنيد - رحمه الله -: سبقت لهم منا
العناية في البداية، فظهرت لهم الولاية في النهاية.

١٠٢- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها الذي يحسّ، وحركة تلهبها. وهذه
مبالغة في الإبعاد عنها، أي: لا يقربونها حتى لا يسمعوها صوتها وصوت من
فيها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَالِدُونَ﴾ مقيمون. والشهوة:
طلب النفس اللذة.

١٠٣- ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾ النفخة الأخيرة ﴿وَنَلَقْنَاهُمُ﴾ أي:
تستقبلهم ﴿الْمَلِئِكَةَ﴾ مهتئين على أبواب الجنة يقولون: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم في الدنيا.

١٠٤- العامل في: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ لا يحزنهم ﴿أَوْ﴾: ﴿تَلْقَاهُمْ﴾.
﴿نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ يزيد. وطبها: تكوير نجومها، ومحو رسومها، أو: هو ضدّ
النشر: نجمها، ونطويها ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ أي: الصحيفة ﴿لِلْكُتُبِ﴾ حمزة،
وعليّ، وحفص، أي: للمكتوبات، أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة،
وغيرهم: (للكتاب) أي: كما يُطوى الطومار للكتابة، أو: لما يكتب فيه؛ لأنّ
الكتاب أصله المصدر، كالبناء، ثمّ يقع على المكتوب. وقيل: ﴿السِّجِلِّ﴾ ملك
يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه. وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ.
﴿وَالْكِتَابِ﴾ على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها. والطيّ مضاف إلى الفاعل،
وعلى الأوّل إلى المفعول ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ انتصب الكاف بفعل

وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٧﴾
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

مضمّر يفسره ﴿نعيده﴾، و﴿ما﴾ موصولة، أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده،
و﴿أول خلق﴾ ظرف لبدأننا، أي: أول ما خلق. أو: حال من ضمير الموصول
الساقط من اللفظ، الثابت في المعنى. وأول الخلق: إيجاده، أي: فكما أوجده
أولاً يعيده ثانياً، تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.
والتنكير في ﴿خلق﴾ مثله في قولك: هو أول رجل جاءني، تريد: أول الرجال،
ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى ﴿أول خلق﴾
أول الخلق بمعنى: أول الخلائق؛ لأن الخلق مصدر لا يجمع ﴿وعداً﴾ مصدر
مؤكد؛ لأن قوله: ﴿نعيده﴾ عدة للإعادة ﴿عليناً﴾ أي: ﴿وعداً﴾ كائنات لا محالة
﴿إنا كنا فاعلين﴾ ذلك، أي: محققين هذا الوعد، فاستعدوا له، وقدموا
صالح الأعمال؛ للخلاص من هذه الأهوال.

١٠٥- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ كتاب داود - عليه السلام - ﴿مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ﴾ التوراة ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: الشام ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ﴾ ساكنة البقاء: حمزة،
غيره: بفتح الياء ﴿الصَّالِحُونَ﴾ أي: أمة محمد ﷺ. أو: ﴿الزبور﴾ بمعنى
المزبور، أي: المكتوب، يعني: ما أنزل على الأنبياء من الكتب. و﴿الذكر﴾ أم
الكتاب، يعني: اللوح؛ لأن الكل أخذوا منه. دليله: قراءة حمزة وخلف بضم
الزاي، على جمع الزبر بمعنى المزبور. و﴿الأرض﴾: أرض الجنة.

١٠٦- ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي: القرآن، أو: في المذكور في هذه السورة من
الأخبار، والوعد، والوعيد، والمواعظ ﴿لَبَلَاغًا﴾ لكفاية. وأصله: ما تبلغ به
البلغية ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ موحدن، وهم أمة محمد ﷺ.

١٠٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهْدَاةٌ﴾^(١)
﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن لم يتبع فإنما أتى من عند

(١) رواه ابن سعد والحكيم الترمذي عن أبي صالح مرسلاً. (كنز العمال ٣١٩٩٥).

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ

نفسه، حيث ضيَّع نصيبه منها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين في الدارين، وللكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال، والمسخ، والخسف. و﴿رحمة﴾ مفعول له، أو: حال، أي: ذا رحمة.

١٠٨- ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ لقصر الحكم على شيء، أو: لقصر الشيء على حكم، نحو: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد. وفاعل ﴿يُوحِي إِلَيَّ﴾ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾. والتقدير: ﴿يُوحِي إِلَيَّ﴾ وحدانية إلهي. ويجوز أن يكون المعنى: إن الذي يوحى إليّ. فتكون ﴿مَا﴾ موصولة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر، أي: أسلموا.

١٠٩- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حال، أي: مستوين في الإعلام به، ولم أخصص بعضكم. وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا أدري متى يكون يوم القيامة؛ لأن الله تعالى لم يطلعني عليه، ولكني أعلم بأنه كائن لا محالة، أو: لا أدري متى يحل بكم العذاب إن لم تؤمنوا.

١١٠- ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إنه عالم بكل شيء، يعلم ما تجاهرونني به من الطعن في الإسلام، وما تكتُمونه في صدوركم من الأحقاد، وهو مجازيكم عليه.

١١١- ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾ وتمنيع لكم إلى الموت؛ ليكون ذلك حجة عليكم.

١١٢- ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ افض بيننا وبين أهل مكة بالعدل، أو: بما يحق عليهم من العذاب، ولا تحابهم، وشدد عليهم، كما قال: «واشدد وطأتك على

وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

مضر^(١). ﴿قال رب﴾ حفص، على حكاية قول رسول الله ﷺ. ﴿ربُّ احكم﴾: يزيد، ﴿رَبِّي أَحْكَمُ﴾: زيد، عن يعقوب ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ العاطف على خلقه ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وعن ابن ذكوان: بالياء. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة، فكذب الله ظنونهم، وخيب آمالهم، ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين، وخذلهم، [أي: الكفار، وهو: المستعان على ما يصفون]^(٢).

* * *

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٥٧).

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

سُورَةُ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

١ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ﴾ أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى ييقوا على أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم؛ بامثال ما أمرهم به ربهم من التردّي بلباس التقوى؛ الذي يؤمنهم من تلك الأفزاع. والزلزلة: شدة التحريك والإزعاج. وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله، كأنها هي التي تزلزل الأرض، على المجاز الحكمي، أو: إلى الظرف؛ لأنها تكون فيها، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] ووقتها يكون يوم القيامة، أو: عند طلوع الشمس من مغربها، ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً؛ فإن هذا اسم لها حال وجودها.

٢ - وانتصب ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الزلزلة، أو: الساعة. بقوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ تغفل. والذهول: الغفلة ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعها، أو: عن الذي أرضعته، وهو الطفل. وقيل: ﴿مرضعة﴾ ليدلّ على أنّ ذلك الهول إذا حدث، وقد ألقت الرضيع ثديها، نزعت عن فيه؛ لما يلحقها من الدهشة،

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ
السَّعِيرِ ﴿٤﴾

إذ المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ أي: حبل ﴿حَمْلَهَا﴾ ولدها قبل تمامه. عن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحمل ما في بطنها لغير تمام ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ أيها الناظر ﴿سُكَرَى﴾ على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة، وسلطنة الجبروت، وسرادق الكبرياء، حتى قال كل نبي: نفسي نفسي ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ على التحقيق ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله، وعن الحسن: ﴿وترى الناس سكارى﴾ من الخوف ﴿وما هم بسكارى﴾ من الشراب. ﴿سكرى﴾ فيهما بالإمالة: حمزة، وعلي، وهو كعطشى في عطشان. روي أنه نزلت الآيتان ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما النبي ﷺ، فلم تر أكثر باكية من تلك الليلة^(١).

٣ - ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال. نزلت في النصر بن الحارث، وكان جدلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي. أو: هي عامة في كل من يخاصم في الدين بالهوى. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في ذلك. ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ عات مستمر في الشر، ولا وقف على ﴿مريد﴾ لأن ما بعده صفته.

٤ - ﴿كَتَبَ عَلَيْهِ﴾ قضى على الشيطان ﴿أَنَّهُ﴾ أن الأمر والشأن - وهو فاعل ﴿كُتِبَ﴾ - ﴿مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ تبعه، أي: تبع الشيطان، ﴿فَأَنَّهُ﴾ فإن الشيطان ﴿يُضِلُّهُ﴾ عن سواء السبيل ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ النار، قال الزجاج: الفاء

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشاف ١٤١/٣). وفي المطبوع والكشاف: «ير».

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ

في ﴿فَاتِهِ﴾ للعطف، و﴿أَنَّ﴾ مكررة للتأكيد. وردّ عليه أبو عليّ، وقال: إنّ ﴿مِّنْ﴾ إنّ كان للشرط، فالفاء دخل لجزاء الشرط، وإن كان بمعنى الذي، فالفاء دخل على خبر المبتدأ. والتقدير: فالأمر أنّه يضلّه. قال: والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول. والمعنى: ﴿كتب﴾ على الشيطان إضلال من ﴿تولاه﴾ وهدايته إلى النار.

٥ - ثم ألزم الحجة على منكري البعث، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ يعني: إنّ ارتبتم في البعث، فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء، وليس سبب إنكاركم البعث إلاّ أنّه، وهو صيرورة الخلق تراباً وماء ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: أباكم ﴿مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خلقتم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: قطعة دم جامدة. ﴿ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ﴾ أي: لحمة صغيرة قدر ما يمضغ. ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المخلقة: المسواة، الملساء من النقصان والعيب، كأن الله عز وجل يخلق المضع متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم، وتماهم، ونقصانهم. وإنما نقلناكم من حال إلى حال، ومن خلقة إلى خلقة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدرّج كمال قدرتنا وحكمتنا، وأنّ من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، ولا مناسبة بين التراب الماء، وقدر أن يجعل النطفة علقة، والعلقه مضغة، والمضغة عظماً، قادر على إعادة ما بدأه ﴿وَنُقَرِّرُ﴾ بالرفع عند غير المفضل، مستأنف بعد وقف، أي: نحن نبشّث ﴿فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ ثبوته، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وقت الولادة. وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من الرحم ﴿طِفْلاً﴾ حال. وأريد به الجنس، فلذا لم يجمع، أو: أريد به: ثم نخرج كلّ واحد منكم ﴿طِفْلاً﴾ ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا﴾ ثم نريكم لتبلغوا ﴿أَشَدَّكُمْ﴾ كمال عقلكم وقوتكم. وهو من ألفاظ الجموع التي لا يستعمل

وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْفَقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرْدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ

لها واحد ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْفَقُ﴾ عند بلوغ الأشد، أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرْدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ أخسّه، يعني: الهرم، والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ شيئاً ﴿مَنْ بَعْدُ﴾ ما كان يعلمه. أو: لكيلا يستفيد علماً، وينسى ما كان عالماً به. ثُمَّ ذكر دليلاً آخر على البعث، فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة، يابسة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت ﴿وَرَبَاتٌ﴾ حيث كان: يزيد: ارتفعت ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن، سار للناظرين إليه.

٦- ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم، وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا، وهو ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الثابت الوجود ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ﴾ كما أحيا الأرض ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

٧- ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أنه حكيم لا يخلف الميعاد. وقد وعد الساعة والبعث، فلا بد أن يفي بما وعد.

٨- ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في صفاته، فيصفه بغير ما هو له. نزلت في أبي جهل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ضروري ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: استدلالٍ؛ لأنه يهدي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: وحي. والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة.

٩- ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ حال، أي: لاوياً عنقه عن طاعة الله كبراً وخيلاء^(١)

(١) في المطبوع بعد هذا: وعن الحسن: ﴿ثاني عطفه﴾ - بفتح العين - أي: مانع تعطفه إلى غيره.

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَيُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ

﴿لِيُضِلَّ﴾ تعليل للمجادلة. ﴿لِيُضِلَّ﴾: مكّي، وأبو عمرو ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: القتل يوم بدر ﴿وَيُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: جمع له عذاب الدارين.

١٠ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ أي: السبب في عذاب الدارين هو ما قدّمت نفسه من الكفر، والتكذيب، وكُتّي عنها باليد؛ لأنّ اليد آلة الكسب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يأخذ أحداً بغير ذنب، ولا بذنب غيره. وهو عطف على ﴿بِمَا﴾ أي: وبأن الله. وذكر الظلام بلفظ المبالغة؛ لاقترانه بلفظ الجمع، وهو العبيد، ولأنّ قليل الظلم منه - مع علمه بقبحه واستغناؤه - كالكثير منّا.

١١ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة. وهو حال، أي: مضطرباً ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ صحّة في جسمه، وسعة في معيشته، ﴿اطْمَأَنَّ﴾ سكن، واستقرّ ﴿بِهِ﴾ بالخير الذي أصابه، أو: بالدين، فعبد الله ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ شر، وبلاء في جسده، وضيق في معيشته ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ جهته، أي: ارتدّ، ورجع إلى الكفر. كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسن بظفر وغنيمة، قرّ واطمأنّ، وإلا قرّ وطار على وجهه. قالوا: نزلت في أعراب قدموا المدينة مهاجرين، وكان أحدهم إذا صحّ بدنه، وتنجّث فرسه مهراً سوياً، وولدت امرأته غلاماً سوياً، وكثر ماله وماشيته، قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً، واطمأنّ. وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب عن دينه ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ حال. و«قد» مقدرة. دليله قراءة: روح، وزيد: (خاسر الدنيا والآخرة). والخسران في الدنيا بالقتل فيها، وفي الآخرة بالخلود في النار

ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ
 ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى
 وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خسران الدارين ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

١٢- ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الصنم، فإنه بعد الردة يفعل كذلك ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إن عبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الصواب.

١٣- ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ والإشكال أنه تعالى نفى الضر والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية، وأثبتهما لها هنا! والجواب: أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سقاه الكافر بأنه يعبد جهاداً لا يملك ضرراً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه أنه يشفعه. ثم قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر - بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ولا يرى أثر الشفاعة -: ﴿لِمَنْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ الناصر ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ الصاحب. وكرر يدعو، كأنه قال: يدعو^(١) من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه. ثم قال: ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ﴾ بكونه معبوداً ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ بكونه شافعاً.

١٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿هَذَا وَعَدَ لِمَنْ عَبْدَ اللَّهِ بِكُلِّ حَالٍ، لَا لِمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ.

١٥- ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ المعنى: أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن ظن من أعاديه غير ذلك ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ إلى سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ثم ليختنق به. وسمي الاختناق قطعاً؛ لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وبكسر اللام: بصريّ وشاميّ ﴿فَلْيَنْظُرْ

هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُمْ مَا يَغِيطُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنْ

هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُمْ مَا يَغِيطُ ﴿أي الذي يغيظه، أو: ﴿ما﴾ مصدرية، أي: غيظه. والمعنى: فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وسمي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكذب به محسوده، إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ.

١٦- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله ﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ واضحات ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي: ولأن الله يهدي به الذين يعلم أنهم يؤمنون - أو: يثبت الذين آمنوا، ويزيدهم هدى - أنزله كذلك مبيّناً.

١٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان، وواحد للرحمن. والصابغون نوع من النصاري، فلا تكون ستة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ في الأحوال والأماكن، فلا يجازيهم جزاء واحداً، ولا يجمعهم في موطن واحد. وخبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ كما تقول: إن زيدا إن أباه قائم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به، حافظ له، فلينظر كل امرئ معتقده، وقوله، وفعله. وهو أبلغ وعيد.

١٨- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام البيان ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُمْ﴾ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ ﴿قيل: إن الكل يسجد له، ولكننا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقيل: سُمِّيَتْ مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجوداً له؛ تشبيهاً لمطاوعته بسجود المكلف؛ الذي كل خضوع دونه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْ

النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رِيبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾

النَّاسِ ﴿١٨﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة. أو: هو مرفوع على الابتداء ﴿ومن الناس﴾: صفة له، والخبر محذوف، وهو: مثاب. ويدل عليه قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره، وإيائه السجود ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ بالسعادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإكرام، والإهانة، وغير ذلك. وظاهر هذه الآية، والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: شاء أشياء ولم يفعل. وهو يقول: ﴿يفعل ما يشاء﴾.

١٩- ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي: فريقان مختصمان. فالخصم صفة وصف بها الفريق. وقوله: ﴿أَخَصِمُوا﴾ للمعنى، و﴿هَذَانِ﴾ للفظ. والمراد: المؤمنون والكافرون. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: رجع إلى أهل الأديان المذكورة، فالمؤمنون خصم، وسائر الخمسة خصم ﴿فِي رِيبِهِمَا﴾ في دينه، وصفاته. ثم بين جزاء كل خصم بقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو فصل الخصومة المعني بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٧] ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ كأن الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم، تشمل عليهم، كما تقطع الثياب الملبوسة. واختير لفظ الماضي؛ لأنه كائن لا محالة، فهو كالثابت المتحقق ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ بكسر الهاء والميم: بصري، وبضمها: حمزة، وعلي، وخلف، وبكسر الهاء وضم الميم؛ غيرهم ﴿الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

٢٠- ﴿يُصْهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِ﴾ بالحميم ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي: يذيب أمعاءهم وأحشاءهم، كما يذيب جلودهم، فيؤثر في الظاهر والباطن.

٢١- ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ﴾ سياط مختصة بهم ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ يضربون بها.

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٢٢- ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدل الاشتمال من ﴿منها﴾ بإعادة الجار. أو: الأولى لابتداء الغاية، والثانية بمعنى: من أجل، يعني: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا﴾ الخروج من النار ﴿من﴾ أجل ﴿غَمٍّ﴾ يلحقهم فخرجوا ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ بالمقامع. ومعنى الخروج عند الحسن: أَنَّ النار تضربهم بلهبها فتلقئهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً. والمراد: إعادتهم إلى معظم النار، لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية، ثم يعودون إليها ﴿وَذُوقُوا﴾ أي: ﴿و﴾ قيل لهم: ﴿ذُوقُوا﴾ ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الغليظ من النار المنتشر، العظيم الإهلاك. ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال:

٢٣- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾. جمع: أسورة، جمع: سوار ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب: مدني، وعاصم، على: ويؤتون ﴿لُؤْلُؤًا﴾. وبالجر: غيرهم، عطفاً على ﴿من ذهب﴾ ويترك الهمزة الأولى في كل القرآن: أبو بكر، وحماد. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ إبريسم.

٢٤- ﴿وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: أرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد، وإلى ﴿صراط الحميد﴾ أي: الإسلام. أو: هداهم الله في الآخرة، وألهمهم أن يقولوا: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وهداهم إلى طريق الجنة. و﴿الحميد﴾: الله المحمود بكل لسان.

٢٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون عن الدخول في الإسلام. ﴿ويصدون﴾ حال من فاعل ﴿كفروا﴾ أي: ﴿و﴾ هم ﴿يصدون﴾ أي: الصدود منهم مستمر دائم، كما يقال: فلان يحسن إلى الفقراء، فإنه يراد

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
بِالْحَكْمِ يُظْلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ
لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾

به: استمرار وجود الإحسان منه في الحال والاستقبال ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ويصدون عن ﴿المسجد الحرام﴾ والدخول فيه ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ مطلقاً من غير فرق بين حاضر وباء، فإن أريد بالمسجد الحرام: مكة، ففيه دليل على أنه لا تباع دور مكة، وإن أريد به البيت، فالمعنى: أنه قبله لجميع الناس ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب حفص. مفعول ثان لجعلناه، أي: ﴿جعلناه﴾ مستوياً ﴿الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وغير المقيم. بالياء: مكّي، وافقه أبو عمرو في الوصل. وغيره بالرفع، على أنه خبر، والمبتدأ مؤخر، أي: العاكف فيه والباد سواء. والجملة مفعول ثان. و﴿للناس﴾ حال ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ في المسجد الحرام ﴿بِالْحَكْمِ يُظْلَمِ﴾ حالان مترادفان. ومفعول ﴿يرد﴾ متروك؛ ليتناول كل متناول، كأنه قال: ﴿ومن يرد فيه﴾ مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً. فالإحاد: العدول عن القصد ﴿نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة. وخبر ﴿إِنْ﴾ محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه. تقديره: ﴿إن الذين كفروا ويصدون﴾ عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم. وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

٢٦- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ مباءة، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارة، والعبادة. وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها، فكنت مكان البيت، فبناه على أسنه القديم ﴿أَنْ﴾ هي المفسرة للقول المقدّر، أي: قائلين له: ﴿لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾^(١) من الأصنام، والأقدار. وفتح الياء: مدني، وحفص ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ لمن يطوف به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ والمقيمين بمكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين. جمع راع، وساجد.

(١) في الأصل المخطوط ﴿بَيْتِي﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/١٧٦).

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ

٢٧- ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ نادٍ فيهم. والحج: هو القصد البليغ إلى مقصد منيع. روي أنه صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس حجّوا بيت ربكم فأجاب من قدر له أن يحجّ من الأصلاب والأرحام بـ: لبيك اللهم ليك. وعن الحسن: أنه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع، والأول أظهر. وجواب الأمر ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة، جمع راجل، كقائم وقيام ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ حال معطوفة على ﴿رِجَالًا﴾ كأنه قال رجالاً، وركبائاً. والضامر: البعير المهزول. وقدم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشاة، كما ورد في الحديث ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لكل ضامر؛ لأنه في معنى الجمع. وقرأ عبد الله (يأتون) صفة للرجال، والركبان. ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. قال محمد بن ياسين: قال لي شيخ في الطواف: من أين أنت؟ قلت: من خراسان. قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين، أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب فاكتهلت. قلت: والله هذه الطاعة الجميلة، والمحبة الصادقة، فضحك وقال:

زُرْ من هويت وإن شطت بك الدار وحال من دونه حُجِبَ وأستار
لا يمنعك بُغْدٌ عن زيارته إنَّ المحبَّ لمن يهواه زوّار

٢٨- واللام في: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا. متعلق بـ ﴿أَذِّنْ﴾، أو: بـ ﴿يَأْتُوكَ﴾ ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ نكرها؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادة، وهذا لأنّ العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة، والصوم، أو: بالمال كالزكاة. وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال، وركوب الأهوال، وخلع الأسباب، وقطيعة الأصحاب، وهجر البلاد والأوطان، وفرقة الأولاد والخلّان، والتنبيه على ما يستمرّ عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء. فالحاج إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده، ولا يأكل إلا من زاده. فكذا المرء إذا خرج من شاطئ الحياة، وركب

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ

بحر الوفاة، لا ينفع وحدته إلا ما سعى في معاشه لمعاده، ولا يؤنس وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده. وغسل من يحرم وتأهبه، ولبسه غير المخطط وتطيه، مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره، لغسله وتجهيزه، مطبياً بالحنوط، ملقفاً في كفن غير مخيط. ثم المحرم يكون أشعث حيران، فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان. ووقوف الحجيج بعرفات آمليين رغباً ورهباً، سائلين خوفاً وطمعاً، وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات: ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيئَةٍ فَمِنْهُمْ سَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء، هو السوق لفصل القضاء. ومنى هو موقف المني للمذنبين، إلى شفاعة الشافعين. وحلق الرأس والتنظيف، كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف. والبيت الحرام الذي ﴿مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] من الإيذاء والقتال، أنموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال. غير أن الجنة حقت بمكاره النفس العادية، كما أن الكعبة حقت بمتالف البادية. فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي، شوقاً إلى لقاء يوم التنادي ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند الذبح ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة - رحمه الله - وآخرها يوم النحر. وهو قول ابن عباس - رضي الله عنهما - وأكثر المفسرين - رحمهم الله - وعند صاحبيه: هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر - رضي الله عنهما - ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبحه. وهو يؤيد قولهما. والبهيمة: مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبيئت بالأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها. والأمر للإباحة. ويجوز الأكل من هدي التطوع، والمتعة، والقران؛ لأنه دم نسك، فأشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ الذي أصابه بؤس، أي: شدة ﴿الْفَقِيرَ﴾ الذي أضعفه الإعسار.

٢٩ - ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم. كذا قاله نفطويه.

قيل: قضاء التفث: قص الشارب، والأظفار، ونف الإبط، والاستحداد.

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ

والتفت: الوسخ. والمراد: قضاء إزالة التفت. وقال ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم -: قضاء التفت: مناسك الحج كلها ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ - مواجب حجهم. والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه: وفي بنذره، وإن لم ينذر. أو: ما يندرونه من أعمال البر في حجهم. ﴿وَلْيُوفُوا﴾ بسكون اللام والتشديد: أبو بكر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الزيارة؛ الذي هو ركن الحج، ويقع به تمام التحلل. اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عامر، وأبي عمرو^(١). ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم؛ لأنه ﴿أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] بناه آدم، ثم جدده إبراهيم. أو: الكريم. ومنه عتاق الخيل لكرائمها، وعتاق الرقيق: الخروج من ذل العبودية إلى كرم الحرية. أو: لأنه أعتق من الغرق؛ لأنه رفع زمن الطوفان. أو: من أيدي الجبابرة. كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله! أو: ومن أيدي الملاك، فلم يملك قط. وهو مطاف أهل الغبراء، كما أن العرش مطاف أهل السماء، فإن الطالب إذا حاجته معية الطرب، وجذبه جواذب الطلب، جعل يقطع مناكب الأرض مراحل، ويتخذ مسالك المهالك منازل. فإذا عاين البيت لم يزد التسلي به إلا اشتياقاً، ولم يفده التشقي باستلام الحجر إلا احتراقاً. فيذبذبه الأسف لهفان، ويُردّده اللهف حوله في الدوران. وطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث. وأولها الإحرام. وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام، حتى لا يرتفض بارتكاب ما هو محذور فيه، ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه. كما أن عقد الإسلام لا ينحلّ بازدحام الآثام. وترتفع ألف حوبة بتوبة. وثانيها: الوقوف بعرفات بسمة الابتهاال، في صفة الاهتبال، وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الأعمال، وشواهد الأحوال.

٣٠- ﴿ذَلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ﴿ذَلِكَ﴾. أو: تقديره:

(١) أي أن قراءة: ﴿ليقضوا - ليوفوا - ليطوفوا﴾ بكسر اللامات الثلاث هي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وقبيل، وابن محيصن، ورويس، واليزيدي، وابن حجاز، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٧٧).

وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ

ليفعلوا ﴿ذلك﴾ ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ الحرمة: ما لا يحل هتكه. وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها، فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصاً بما يتعلق بالحج. وقيل: ﴿حرمات الله﴾: البيت الحرام، والمشرع الحرام، والشهر الحرام، والبلد الحرام، والمسجد الحرام ﴿فَهُوَ﴾ أي: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراجعة، والحفظ، والقيام بمراعاتها ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ﴾ أي: أكلها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه. وذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣]. والمعنى: أن الله تعالى أحل لكم الأنعام كلها إلا ما بين في كتابه، فحافظوا على حدوده، ولا تحرموا شيئاً مما أحل؛ كتحرим البعض البحرية، ونحوها. ولا تحلوا مما حرم كإحلالهم أكل الموقودة، والميتة، وغيرهما. ولما حث على تعظيم حرمانه، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان، وقول الزور بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ لأن ذلك من أعظم الحرمات، وأسبقها. و﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس؛ لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ الذي هو الأوثان. وسمى الأوثان رجساً على طريقة التشبيه، يعني: أنكم تنفرون بطباعكم عن الرجس، فعليكم أن تنفروا عنها. وجمع بين الشرك وقول الزور - أي: الكذب، والبهتان، أو شهادة الزور، وهو من الزور، وهو الانحراف - لأن الشرك من باب الزور، إذ المشرك زاعم: أن الوثن تحق له العبادة.

٣١ - ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مسلمين ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حال كحنفاء ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تسلبه بسرعة. ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ أي: تتخطفه: مدني ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تسقطه

فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَكَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلَاهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ

- والهوي: السقوط - ﴿فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ بعيد. يجوز أن يكون هذا تشبيهاً مركباً، ويجوز أن يكون مفروقاً. فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده، بأن صور حاله بصورة حال من ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ فاخطفته الطير، ففترق قطعاً في حواصلها، أو: عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإن كان مفروقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسما، والذي أشرك بالله بالساقط من السما، والأهواء المردية بالطير المتخطفة، والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

٣٢- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذَلِكَ﴾ ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَكَ اللَّهُ﴾ تعظيم الشعائر - وهي: الهدايا؛ لأنها من معالم الحج -: أن يختارها عظام الأجرام، حسناً، سماناً، غالبية الأثمان ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. وإنما ذكرت القلوب؛ لأنها مراكز التقوى.

٣٣- ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الركوب عند الحاجة، وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحْلَاهَا﴾ أي: وقت وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. والمراد: نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت، إذ الحرم حريم البيت. ومثله في الاتساع قولك: بلغت البلد، وإنما اتصل مسيرك بحدوده. وقيل: الشعائر: المناسك كلها. وتعظيمها: إتمامها. و﴿مَحْلَاهَا﴾ إلى البيت العتيق؛ يآباه.

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ جماعة مؤمنة قبلكم ﴿جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ - حيث كان بكسر السين؛ بمعنى الموضع: عليّ، وحمة، أي: موضع قربان. وغيرهما بالفتح على المصدر، أي: إراقة الدماء، وذبح القرابين - و﴿لِّذِكْرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ أي: عند نحرها، وذبحها

فَالْهَكْمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَيَشِرِ الْمُخَيِّتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ
وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبَدَنُ
جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبَهَا فَاكْلُوا مِنْهَا وَاطْعَمُوا الْقَانِعَ

﴿فَالْهَكْمُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي: اذكروا على الذبح اسم الله وحده، فَإِنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهُ واحد. وفيه دليل على أَنَّ ذكر اسم الله شرط الذبح. يعني: أَنَّ الله تعالى شرع لكل أمة أن ينسكوا له، أي: يذبحوا له على وجه التقرب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه - تقدست أسماؤه - على النسائك ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه له سالماً، أي: خالصاً، لا تشوبوه بإشراك ﴿وَيَشِرِ الْمُخَيِّتِينَ﴾ المطمئنين بذكر الله، أو: المتواضعين الخاشعين. من: الخَبْتِ، وهو المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقيل: تفسيره ما بعده، أي:

٣٥ - ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت منه هيبة ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المحن، والمصابب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

٣٦ - ﴿وَالْبَدَنُ﴾ جمع بدنة، سميت لعظم بدنها، وفي الشريعة: يتناول الإبل والبقر. وقرء برفعها. وهو كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ﴾ [يس: ٣٩] ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ﴾ أي: من أعلام الشريعة التي شرعها الله. وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها. و﴿من شعائر الله﴾ ثاني مفعولي ﴿جعلناها﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ النفع في الدنيا، والأجر في العقبى ﴿فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند نحرها ﴿صَوَافٍ﴾ حال من الهاء، أي: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا﴾ وجوب الجنوب: وقوعها على الأرض، من وجب الحائط وجبة: إذا سقط، أي: إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها، وسكنت حركتها ﴿فَاكْلُوا مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَاطْعَمُوا الْقَانِعَ﴾ السائل، من: قنعت إليه: إذا خضعت له، وسألته،

وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لَحْمُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَنَبِّشِرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

قنوعاً ﴿وَالْمُعْتَرِّ﴾ الذي يريك نفسه، ويتعرض، ولا يسأل. وقيل: القانع: الراضي بما عنده، وبما يُعطى من غير سؤال، من: قنعت قنعا وقناعة. والمعتر: المتعرض للسؤال ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: كما أمرناكم بنحرها ﴿سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾. أو: هو كقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ﴾ [الحج: ٣٠] ثم استأنف فقال: ﴿سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾، أي: ذللناها لكم مع قوتها وعظم أجرامها، لتتمكنوا من نحرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

٣٧- ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لَحْمُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي: لن يتقبل الله اللحم والدماء، ولكن يتقبل التقوى، أو: لن يصيب رضا الله اللحم المتصدق بها، ولا الدماء المراقبة بالنحر. والمراد: أصحاب اللحم والدماء. والمعنى: لن يُرضي المضخون، والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية، والإخلاص، ورعاية شروط التقوى. وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحرُوا الإبل نضحوا الدماء حول البيت، ولطخوه بالدم. فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلت ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾ أي: البذن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ لتسبوا الله عند الذبح، أو: لتعظموا الله ﴿عَلَى مَا هَدَيْكُمْ﴾ على ما أرشدكم إليه ﴿وَنَبِّشِرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الممثلين أوامره بالثواب.

٣٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ﴾ - ﴿يُدْفِعُ﴾^(١) -: مكي، وبصري. وغيرهما ﴿يدافع﴾ أي: يبالغ في الدفع عنهم ﴿عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين. ونحوه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمة الله، أي:

(١) هذه القراءة هي المثبتة في الأصل المخطوط، وأما ﴿يدافع﴾ فهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي. (السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٤٣٧).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصُلُوتٌ وَمَسَاجِدُ

لأنه لا يجب أصدادهم، وهم الخونة الكفرة؛ الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله، ويغيطونها.

٣٩- ﴿أُذِنَ﴾: مدني، وبصري، وعاصم ﴿لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ بفتح التاء: مدني، وشامي، وحفص. والمعنى: ﴿أُذِنَ﴾ لهم في القتال - فحذف المأذون فيه لدلالة ﴿يقاتلون﴾ عليه - ﴿بأنهم ظلموا﴾ بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: «اصبروا، فإنني لم أؤمر بالقتال» حتى هاجر. فأنزلت هذه الآية. وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية^(١) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ على نصر المؤمنين ﴿لَقَدِيرٌ﴾ قادر. وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة. وهو مثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

٤٠- ﴿الَّذِينَ﴾ في محل جر بدل من ﴿للذين﴾، أو: نصب بأعني، أو: رفع بإضمار «هم» ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بمكة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: بغير موجب سوى التوحيد؛ الذي ينبغي أن يكون موجب التمكين، لا موجب الإخراج. ومثله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] ومحل ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ جر بدلاً من ﴿حق﴾ والمعنى: ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ﴾ ﴿دفاع﴾: مدني، ويعقوب ﴿النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصُلُوتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أي: لولا إظهاره، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة، لا ستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمئتهم، وعلى متعبداتهم، فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعاً،

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، وعزاه الواحدي في «الوسيط» للمفسرين. (حاشية الكشف ١٦٠/٣).

يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلَيْكَ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ

ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات - أي: كنائس. وسميت الكنيسة صلاة؛ لأنها يُصلى فيها - ولا للمسلمين مساجد. أو: لغللب المشركون في أمة محمد ﷺ على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم، وهدموا متعبدات الفريقين. وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجوداً، أو: لقربها من التهديم ﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ في المساجد، أو: في جميع ما تقدم. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي: ينصر دينه، وأوليائه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٌ﴾ على انتقام أعدائه.

٤١- ﴿الَّذِينَ﴾ محله نصب بدل من ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾. أو: جرّ تابع للذين أخرجوا ﴿إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكَّنهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين. وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - أعطاهم التمكين، ونفذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن الحسن: هم أمة محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَيْكَ بِالْأُمُورِ﴾ أي: مرجعها إلى حكمه، وتقديره. وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه، وإعلاء كلمتهم.

٤٢- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ هذا تسلية لمحمد ﷺ من تكذيب أهل مكة إياه، أي: لست بأوحدٍ في التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَتَمُودُ﴾ صالحاً.

٤٣- ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً.

٤٤- ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ شعيباً ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ كذبه فرعون والقبط، ولم

فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

يقول: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه. أو: كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: ﴿وكذب موسى﴾ أيضاً مع وضوح آياته، وظهور معجزاته، فما ظنك بغيره؟ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلتهم، وأخرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم على كفرهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري وتغييري، حيث أبدلتهم بالنعم نقماً، وبالحياة هلاكاً، وبالعماره خراباً. ﴿نكيري﴾ بالياء في الوصل والوقف: يعقوب.

٤٥ - ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾: ﴿أهلكتها﴾: بصري ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال، أي: وأهلها مشركون ﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. من: خوى النجم: إذا سقط ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يتعلّق بخواوية. والمعنى: أنها ساقطة على سقوفها، أي: خرت سقوفها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. ولا محلّ لـ ﴿فهي خاوية﴾ من الإعراب؛ لأنها معطوفة على ﴿أهلكتها﴾ وهذا الفعل ليس له محلّ. وهذا إذا جعلنا ﴿كأين﴾ منصوب المحلّ على تقدير: كثيراً من القرى أهلكتها ﴿وَيَبْرٌ مُعَطَّلَةٌ﴾ أي: متروكة لفقد دلوها ورشائها. ورَفُضَ تفقدها. أو: هي عاملة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطّلت، أي: تركت لا يستقي منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ مجصّص، من الشيد: الجصّ. أو: مرفوع البنيان، من: شاد البناء: رفعه. والمعنى: كم قرية أهلكتها! وكم بئر عطّلناها عن سقاتها! وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه! أي: أهلكتنا البادية والحاضرة جميعاً، فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن ورّادها. والأظهر: أن البئر والقصر على العموم.

٤٦ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا حثّ على السفر ليروا مصارع من أهلكتهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم، فيعتبروا ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه، ويسمعون

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾

ما يجب سماعه من الوحي ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الضمير في ﴿فَإِنَّهَا﴾ ضمير القصة، أو: ضمير مبهم يفسره ﴿الابصار﴾. أي: فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار. ولكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه، وعينان في قلبه، فإذا أبصر ما في القلب، وعمي ما في الرأس لم يضره، وإن أبصر ما في الرأس، وعمي ما في القلب لم ينفعه. وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب، ولثلا يقال: إن القلب يعني به غير هذا العضو، كما يقال: القلب لب لكل شيء.

٤٧- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآجل استهزاء ﴿ولن يخلف الله وعده﴾. كأنه قال: ولم يستعجلونك به؟ كأنهم يجوزون القوة، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وما وعدّه ليصيبتهم ولو بعد حين ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعدّون: مكّي، وكوفي غير عاصم، أي: كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنينكم؛ لأن أيام الشدائد طوال.

٤٨- ﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: المرجع إليّ، فلا يفوتني شيء، وإنما كانت الأولى، أي: ﴿فَكَأَنَّ﴾ [الحج: ٤٥] معطوفة بالفاء، وهذه أي: ﴿وَكَأَنَّ﴾ بالواو؛ لأن الأولى وقعت بدلاً عن ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. وأما هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، وهما: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٤٧].

٤٩- ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وإنما لم يقل بشير ونذير، لذكر

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي
ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا
نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ

الفريقين بعده؛ لأن الحديث مسوق إلى المشركين، و﴿يا أيها الناس﴾ نداء لهم،
وهم الذين قيل فيهم: ﴿أفلم يسيروا﴾ ووصفوا بالاستعجال. وإنما أقحم
المؤمنون وثوابهم ليغاظوا. أو: تقديره: ﴿نذير مبين﴾ وبشير. فبشر أولاً فقال:
٥٠- ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
أي: حسن. ثم أنذر فقال:

٥١- ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ سعى في أمر فلان: إذا أفسده بسعيه ﴿فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي:
القرآن ﴿مُعْجِزِينَ﴾ حال ﴿مُعْجِزِينَ﴾ حيث كان: مكّي، وأبو عمرو. وعاجزه:
سابقه، كأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه
قيل: أعجزه، وعجزه. والمعنى: سعا في معناها بالفساد من الطعن فيها،
حيث سموها سحراً، وشعراً، وأساطير، مسابقين في زعمهم وتقديرهم،
طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: النار الموقدة.

٥٢- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية ﴿مِنْ رَّسُولٍ﴾ زائدة
لتأكيد النفي ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ هذا دليل على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي،
بخلاف ما يقوله البعض: إنهما واحد. وسُئِلَ النبي ﷺ عن الأنبياء فقال: «مئة
ألف وأربعة وعشرون ألفاً» ف قيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلاثمئة وثلاثة
عشر»^(١). والفرق بينهما: أن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه،
والنبي: من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله. وقيل:
الرسول واضع شرع، والنبي حافظ شرع غيره ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ﴾ قرأ. قال^(٢):

تَمَنَّيَ كَتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنَّيَ دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ

﴿الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ تلاوته، قالوا: إنه عليه الصلاة والسلام كان في

(١) رواه ابن حبان (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦-١٦٨).

(٢) الشاعر هو: حسان بن ثابت.

فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْمَنَهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾

نادي قومه يقرأ ﴿والنجم﴾، فلما، بلغ قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ جرى على لسانه: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. ولم يفتن له، حتى أدركته العصمة فتنبه عليه. وقيل: نبهه جبريل - عليه السلام - فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان. وهذا القول غير مرضي؛ لأنه لا يخلو إما أن يتكلم النبي عليه الصلاة والسلام بها عمداً. وإنه لا يجوز؛ لأنه كفر، ولأنه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها. أو: أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه الصلاة والسلام جبراً، بحيث لا يقدر على الامتناع منه. وهو ممتنع؛ لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] ففي حقه أولى. أو: جرى ذلك على لسانه سهواً وغفلة. وهو مردود أيضاً؛ لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله. ولأنه تعالى قال في صفة المنزل عليه: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحد، وهو أنه عليه الصلاة والسلام سكت عند قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي ﷺ، فوقع عند بعضهم أنه عليه الصلاة والسلام هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي ﷺ^(١)، وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، ويسمع كلامه، فقد روي أنه نادى يوم أحد: ألا إن محمداً قد قُتِلَ. وقال يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يذهب به، ويبطله، ويغير أنه من الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْمَنَهُ﴾ أي: يشبثها، ويحفظها من حقوق الزيادة من الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما أوحى إلى نبيه، ويقصد الشيطان ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يدعه حتى يكشفه، ويزيله. ثم ذكر: أن ذلك ليفتن الله تعالى به قوماً بقوله:

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٢٦٣) وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ١١٥).

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ تَرَ يَوْمَذِي لَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فَأَلْزَمَ الْكَافِرَ الْكَافِرَ وَالْكَافِرَ لَكُمْ يُنْفِخُ السُّورَةُ ﴿٥٦﴾

٥٣- ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ محنة وابتلاء ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، ونفاق ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون المكذبون، فيزدادوا به شكاً وظلمة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المنافقين والمشركين. وأصله: وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق.

٥٤- ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله، وبيدنه، وبآيات ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿فَتُخْبِتَ﴾ فتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيتأولون ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبون لما أشكل منه المحمل؛ الذي تقتضيه الأصول المحكمة، حتى لا تلحقهم حيرة، ولا تعزيبهم شبهة.

٥٥- ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِنْهُ﴾ من القرآن، أو: من الصراط المستقيم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يعني: يوم بدر. فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرج، أو: راحة، كالريح العقيم لا تأتي بخير، أو: شديد لا رحمة فيه، أو: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه. وعن الضحّاك: أنه يوم القيامة، وأن المراد بالساعة: مقدماته.

٥٦- ﴿أَلَمْ تَرَ يَوْمَذِي لَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة - والتنوين عوض عن الجملة، أي: يوم يؤمنون، أو: يوم تزول مريتهم - ﴿لَهُ﴾ فلا منازع له فيه. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي. ثم بين حكمه فيهم بقوله: ﴿فَأَلْزَمَ الْكَافِرَ الْكَافِرَ وَالْكَافِرَ لَكُمْ يُنْفِخُ السُّورَةُ﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيتٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَلَا يَبْكُ اللَّهُ لَهُمْ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَهُ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

٥٧- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيتٌ﴾ ثم خصص قوماً من الفريق الأول بفضيلة، فقال:

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد - ﴿قُتِلُوا﴾: شامي - ﴿أَوْ مَاتُوا﴾: حتف أنفسهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: الرزق الحسن: الذي لا ينقطع أبداً ﴿وَلَا يَبْكُ اللَّهُ لَهُمْ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال، المتكفل للرزق بلا ملال.

٥٩- ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا﴾ وبفتح الميم: مدني. والمراد: الجنة. ﴿يُرْضَوْنَهُ﴾ لأن فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوال من قضى نحبه مجاهداً، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً، ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال من قاتلهم معانداً. روي: أن طوئف من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله! هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

٦٠- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذَلِكَ﴾. وما بعده مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ سمي الابتداء بالجزاء عقوبة لملاسته له من حيث إنه سبب، وذلك مسبب عنه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أي: من جازى بمثل ما فعل به من الظلم، ثم ظلم بعد ذلك، فحق على الله أن ينصره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿غَفُورٌ﴾ يستر أنواع العيوب. وتقريب الوصفين بسياق الآية: أن المعاقب مبعوث من عند الله على العفو، وترك العقوبة بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر، فهو تارك للأفضل، وهو ضامن لنصره في

ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً

الكرّة الثانية إذا ترك العفو، وانتقم من الباغي. وعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين. أو: دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنّه قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلاّ القادر على ضده، كما قيل: العفو عند القدرة.

٦١- ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنّه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته أنّه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ - أي: يزيد من هذا في ذلك، ومن ذلك في هذا، أو: بسبب أنّه خالق الليل والنهار ومصرّفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر، والبغي والإنصاف - وأنّه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولون، ولا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون، ولا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي، وإن توالى الظلمات.

٦٢- ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ﴾ عراقي غير - أبي بكر - ﴿مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار، وإحاطته بما يجري فيهما، وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أنّ الله الحقّ الثابت إلهيته، وأنّ كل ما يُدعى إلهاً دونه باطل الدعوة، وأنّه لا شيء أعلى منه شأنًا، وأكبر سلطاناً.

٦٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات بعد ما كانت مسودة يابسة. وإنّما صرف إلى لفظ المضارع، ولم يقل: فأصبحت؛ ليفيد بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان فأروح وأغدو شاكرًا له. ولو قلت: فرحت، وغدوت، لم يقع ذلك الموقع.

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ
رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٩﴾

وإنما رفع ﴿فتصبح﴾ ولم ينصب جواباً للاستفهام؛ لأنه لو نصب لبطل الغرض.
وهذا لأن معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، كما
تقول لصاحبك: ألم تر أنني أنعمت عليك فتشكر. إن نصبته نفيت شكره،
وشكوت من تفریطه فيه، وإن رفعته أثبت شكره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ واصل
عمله، أو: فضله إلى كل شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم. أو:
اللطيف: المختص بدقيق التدبير، والخبير: المحيط بكل قليل وكثير.

٦٤- ﴿لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكاً وَمِلْكاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْغَفِيُّ﴾ المستغني بكمال قدرته بعد فناء ما في السموات وما في الأرض
﴿الْحَكِيمُ﴾ المحمود بنعمته قبل ثناء من في السموات ومن في الأرض.

٦٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من البهائم مذلة للركوب في البر
﴿وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: ومن المراكب جارية في البحر. ونصب الفلك
عطفاً على ﴿مَا﴾، و﴿تَجْرِي﴾ حال لها، أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها
﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي: يحفظها من ﴿أَنْ تَقَعَ﴾ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾
بأمره، أو: بمشيئته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ﴾ بتسخير ما في الأرض ﴿رَحِيمٌ﴾
بإمساك السماء، لئلا تقع على الأرض. عدد آلاؤه مقرونة بأسمائه، ليشكروه
على آلائه، ويذكرونه بأسمائه. وعن أبي حنيفة - رحمه الله -: أَنَّ اسم الله الأعظم
في الآيات الثمانية يُستجاب لقارئها البتة.

٦٦- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ في أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند
انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لإيصال جزائكم ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾
لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم. أو:

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَخْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

لا يعرف نعمة الإنشاء المبدئ للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصل إلى المقصود.

٦٧- ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مر بيانه. وهو ردُّ لقول من يقول: إنَّ الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كل أمة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ﴾ فلا يجادلُكَ. والمعنى: فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكّنهم من أن ينازعوك ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أمر الذبائح، أو الدين. نزلت حين قال المشركون للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعني: الميتة ﴿وَاذْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادة ربك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم. ولم يذكر الواو في ﴿لكل أمة﴾ بخلاف ما تقدم؛ لأن تلك وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النساءك، فعطفت على أخواتها. وهذه وقعت مع أباعد عن معناها، فلم تجد معطفاً.

٦٨- ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ مرء وتعتنا، كما يفعل السفهاء بعد اجتهادك ألا يكون بينك وبينهم تنازع، وجدال ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول. والمعنى: أن الله أعلم بأعمالكم، وما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين، وتأديب يحاب به كل متعنت.

٦٩- ﴿اللَّهُ يَخْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب؛ ومسلاة لرسول الله ﷺ مما كان يلقي منهم.

٧٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كيف يخفى عليه ما تعلمون، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الموجود فيهما ﴿فِي كِتَابٍ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَنْشَأُ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَجِيعُوا لَهُ ءَايَاتِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا

عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٣﴾ أي: علمه بجميع ذلك عليه يسير.

٧١- ثُمَّ أَشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ﴾ يُنَزِّل: مَكِّي، وبصري ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة، وبرهاناً. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لم يتمسكوا في عبادتهم لها ببرهان سماوي من جهة الوحي، ولا حملهم عليها دليل عقلي ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم، ويصوب مذهبهم.

٧٢- ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الإنكار بالعبوس، والكراهة. والمنكر: مصدر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون. والسطو: الثوب، والبطش ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ هم النبي ﷺ، وأصحابه ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين، وسطوكم عليهم، أو: مما أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلي عليكم ﴿النَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأن قائلًا قال: ما هو؟ فقيل: ﴿النَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف كلام ﴿وَيَنْشَأُ الْمَصِيرُ﴾ النار.

٧٣- ولما كانت دعواهم بأن الله تعالى شريكاً جارية في الغرابة والشبهة مجرى الأمثال المسيرة، قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ﴾ بين ﴿مَثَلٌ فَاَسْتَجِيعُوا لَهُ﴾ لضرب هذا المثل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ﴿يَدْعُونَ﴾: سهل، ويعقوب ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ آلهة ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ ﴿لَن﴾ لتأكيد نفي المستقبل، وتأكيده - هنا - للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل، كأنه قال: محال أن يخلقوا. وتخصيص الذباب لمهانتة، وضعفه، واستقذاره. وسُمِّي ذباباً لأنه كلما ذُب

وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٦﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي
مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾

لاستقذاره، أب لاستكباره ﴿وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ﴾ لخلق الذباب. ومحلّه: النصب على الحال، كأنه قيل: مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب، مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه، وتعاونهم عليه. وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى، وأذله ﴿وَلَوْ أَجْتَمَعُوا﴾ لذلك ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ ثاني مفعولي ﴿يسلبهم﴾ ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل، فإذا سلبه الذباب عجزت الأصنام عن أخذه ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ أي: الصنم يُطلب ما سلب منه ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ الذباب يطلب ما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف، فإن الذباب حيوان، وهو جمد، وهو غالب، وذاك مغلوب.

٧٤ - ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكاً له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: إن الله قادر وغالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟! أو ﴿لَقَوِيٌّ﴾ بنصر أوليائه، ﴿عَزِيزٌ﴾ ينتقم من أعدائه.

٧٥ - ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ يختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وغيرهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ رسلاً كإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وغيرهم عليهم الصلاة والسلام. هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أن رسل الله على ضربين: ملك، وبشر. وقيل: نزلت حين قالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره لرسالته. أو: ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال الرسل فيما قبله العقول

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ

﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوال الأمم في الرد والقبول.

٧٦- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما مضى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما لم يأت. أو: ما عملوه، وما سيعملونه. أو: أمر الدنيا وأمر الآخرة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: إليه مرجع الأمور كلها. والذي هو بهذه الصفات ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه، وتدابيره، واختيار رسله ﴿تُرْجَعُ﴾: شامي، وحزة، وعلي.

٧٧- ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ في صلاتكم. وكان أول ما أسلموا يصلّون بلا ركوع وسجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود. وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان، وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قيل: لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة؛ التي هي ذكر خالص؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] ثم إلى العبادة بغير الصلاة، كالصوم، والحج، وغيرهما، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات. وقيل: أريد به صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أو: كي تفوزا. أو: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح، غير مستيقنين، ولا تتكلوا على أعمالكم.

٧٨- ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أمرٌ بالغزو، أو: مجاهدة النفس والهوى، وهو: الجهاد الأكبر، أو: هو كلمة حق عند أمير جائر ﴿فِي اللَّهِ﴾ أي: في ذات الله، ومن أجله ﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾ وهو ألا يخاف في الله لومة لائم. يقال: هو حقّ عالم، وجدّ عالم، أي: عالم حقاً وجدّاً، ومنه: ﴿حقّ جهاده﴾ وكان القياس حقّ الجهاد فيه، أو: حقّ جهادكم فيه، لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة، واختصاص. فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث إنّه مفعول لوجهه، ومن أجله، صحت إضافته إليه. ويجوز أن يتسع في الظرف، كقوله:

هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
 فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ
 النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

وَيَوْمَ شَهِدَنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا^(١)

﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ﴾ اختاركم لدينه، ونصرته ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، بل رخص لكم في جميع ما كلفكم من الطهارة، والصلاة، والصوم، والحج، بالتيمم، والإيماء، والقصر، والإفطار بعذر السفر والمرض، وعدم الراحلة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: اتبعوا ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾. أو: نصب على الاختصاص، أي: أعني بالدين ملة أبيكم. وسماه أباً - وإن لم يكن أباً للأمة كلها -؛ لأنه أبو رسول الله ﷺ، وكان أباً لأمته؛ لأن أمة الرسول في حكم أولاده. قال ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد»^(٢) ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الله؛ بدليل قراءة أبي: ﴿اللَّهُ سَمَّاكُمْ﴾ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في القرآن، أي: فضلكم على سائر الأمم، وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم. وإذ خصكم بهذه الكرامة، والأثرة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بواجباتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ بشرائطها ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا بالله، وتوكلوا عليه، لا بالصلاة، والزكاة ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: مالكم، وناصركم، ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: الناصر هو، حيث أعانكم على طاعتكم، وقد أفلح من هو مولاه، وناصره.

* * *

(١) صدر بيت، وعجزه: قليل سوى الطعن النihal نوافله.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٥٠) والنسائي (١/ ٣٨) وابن ماجه (٣١٣).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾

١ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ «قد»: نقيضة لَمَّا، هي تثبيت المتوقع، و«لَمَّا» تنفيه. وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة، وهي: الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخطبوا بما دلّ على ثبات ما توقعوه. والفلاح: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المهرب، أي: فازوا بما طلبوا، ونجوا مما هربوا. والإيمان في اللغة: التصديق، والمؤمن: المصدق، لغة، وفي الشرع: كلّ مَنْ نطق بالشهادتين موثقاً قلبه لسانه، فهو مؤمن. قال ﷺ: «خلق الله الجنة فقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ - ثلاثاً - أنا حرام على كلّ بخيلٍ مُراءٍ»^(١) لأنه بالرياء أبطل العبادات البدنية، وليس له عبادة مالية.

٢ - ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون بالقلب، ساكنون بالجوارح. وقيل: الخشوع في الصلاة: جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، وألاً يجاوز بصره مصلاه، وأن لا يلتفت، ولا يعث، ولا يسدل، ولا يفرق أصابعه، ولا يقلّب الحصى، ونحو ذلك. وعن أبي الدرداء: هو إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التام، وجمع الاهتمام. وأضيفت الصلاة إلى المصلّين، لا إلى

(١) رواه أبو نعيم في صفة الجنة (١٧) وابن أبي الدنيا كما في النهاية (٢ / ٣٨٤).

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

المصلّى له، لانتفاع المصلّي بها وحده، وهي: عدّته، وذخيرته. وأما المصلّى له فغني عنها.

٣- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو: كلّ كلام ساقط حقه أن يلغى، كالكذب، والشتم، والهزل. يعني: أنّ لهم من الجدّ ما شغلهم عن الهزل. ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقين على الأنفس؛ اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

٤- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مؤدّون. ولفظ ﴿فاعِلون﴾ يدل على المداومة، بخلاف مؤدّون. وقيل: الزكاة: اسم مشترك، يطلق على العين، وهو القدر الذي يخرج المزكي من النصاب إلى الفقير، وعلى المعنى: وهو فعل المزكي؛ الذي هو التزكية، وهو: المراد هنا، فجعل المزيّن فاعلين له؛ لأنّ لفظ الفعل يعمّ جميع الأفعال كالضرب، والقتل، ونحوهما. تقول للضارب، والقاتل، والمزكي: فعل الضرب، والقتل، والتزكية. ويجوز أن يُرادّ بالزكاة العين، ويقدر مضاف محذوف، وهو: الأداء. ودخل اللام لتقدّم المفعول، وضعف اسم الفاعل في العمل، فإنك تقول: هذا ضارب لزيد، ولا تقول: ضرب لزيد.

٥- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الفرج: يشمل سوء الرجل والمرأة.

٦- ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: إلّا والين على أزواجهم، أو: قوامين عليهنّ، من قولك: كان زياد على البصرة، أي: والياً عليها. والمعنى: أنّهم ﴿لفروجهم حافظون﴾ في جميع الأحوال، إلّا في حال تزوجهم، أو: تسريحهم. أو: تعلق ﴿على﴾ بمحذوف يدلّ عليه ﴿غير ملومين﴾ كأنّه قيل: يلامون ﴿إلّا على أزواجهم﴾ أي: يلامون على كلّ مباشرة، إلّا على ما أطلق لهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ عليه. وقال الفراء: ﴿إلّا﴾ من ﴿أزواجهم﴾ أي: زوجاتهم ﴿أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: إمائهم، ولم يقل: مَنْ؛ لأنّ المملوك جرى

فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لَا مُنْتَنِبِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ

مجرى غير العقلاء؛ ولهذا يُباع كما تباع البهائم! ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي:
لا لوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نساءهم، وإمائهم.

٧- ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ طلب قضاء شهوة من غير هذين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان. وفيه دليلٌ تحريم المتعة، والاستمنااء بالكف
لإرادة الشهوة.

٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَّا مُنْتَنِبِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ ﴿لَا مَانْتَهُمْ﴾: مكّي، وسهل. سمّي
الشيء المؤمن عليه والمعاهد عليه: أمانة، وعهداً. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وإنما تؤدى العيون لا المعاني.
والمراد به: العموم في كل ما ائتمنوا عليه، وعوهدوا من جهة الله عز وجل،
ومن جهة الخلق ﴿رَاعُونَ﴾ حافظون. والراعي: القائم على الشيء بحفظ
وإصلاح، كراعي الغنم.

٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ (صلاتهم): كوفي - غير أبي بكر - ﴿يُحَافِظُونَ﴾:
يذاومون في أوقاتها. وإعادة ذكر الصلاة؛ لأنها أهم، ولأن الخشوع فيها غير
المحافظة عليها، ولأنها وُحِّدَتْ أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، آية صلاة
كانت. وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض، والواجبات،
والسنن، والتوافل.

١٠- ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الأحقاء بأن يسموا
ورثاً دون من عداهم. ثم ترجم الوارثين بقوله:

١١- ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ من الكفار. في الحديث: «ما منكم من أحد إلا وله
متزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل الجنة ورث أهل النار

الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا

منزله، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله»^(١) ﴿الْفِرْدَوْسَ﴾ هو البستان الواسع، الجامع لأصناف الثمر. وقال قطرب: هو أعلى الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنث الفردوس بتأويل الجنة.

١٢- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: آدم ﴿مِّن سُلَالَةٍ﴾ «مِنْ» للابتداء. والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تسَلَّ من بين الكدر. وقيل: إنما سمي التراب الذي خلق آدم منه سلالة؛ لأنه سَلَّ من كلِّ تربة ﴿مِّن طِينٍ﴾ «مِنْ» للبيان، كقوله: ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠].

١٣- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: نسله. فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ لأنَّ آدم - عليه السلام - لم يُصَيَّرْ نطفة. وهو كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧ - ٨]. وقيل: ﴿الإنسان﴾ بنو آدم، والسلالة: النطفة. والعرب تسمي النطفة: سلالة، أي: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة﴾ يعني: من نطفة مسلوكة ﴿مِّن طِينٍ﴾، أي: مِنْ مخلوق من طين، وهو: آدم - عليه السلام - ﴿نُطْفَةً﴾ ماء قليلاً ﴿فِي قَرَارٍ﴾ مستقر، يعني: الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ حصين.

١٤- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ أي: صيّرناها - بدلالة تعدّيه إلى مفعولين، والخلق يتعدّى إلى مفعول واحد ﴿عَلَقَةً﴾ قطعة دم. والمعنى: أحلنا النطفة البيضاء علقه حمراء ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ لحماً قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ فصيّرناها عظماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ فأنبتنا عليها اللحم، فصار لها كاللباس. ﴿عِظْمًا﴾ العظم: شامي، وأبو بكر. ﴿عِظْمًا﴾ العظام: زيد عن يعقوب. ﴿عِظْمًا﴾ العظم: عن أبي زيد. وضع الواحد موضع الجمع

ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِمَيْتُونَ ﴿١٥﴾
ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ
الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

لعدم اللبس؛ إذ الإنسان ذو عظام كثيرة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ﴾ الضمير يعودُ إلى الإنسان، أو: إلى المذكور ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: ﴿خَلْقًا﴾ مبيناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً وكان جاداً، وناطقاً وسميعاً وبصيراً، وكان بضد هذه الصفات. ولهذا قلنا: إذا غصب بيضة، فأفرخت عنده، يضمن البيضة، ولا يرث الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى أمره في قدرته، وعلمه ﴿أَحْسَنُ﴾ بدل، أو: خبر مبتدأ محذوف، وليس بصفة، لأنه نكرة وإن أضيف؛ لأن المضاف إليه عوض من «مِنْ» ﴿الْخَالِقِينَ﴾ المقدّرين، أي: أحسن المقدّرين تقديراً. فترك ذكر المميّز لدلالة ﴿الخالقين﴾ عليه. وقيل: إنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب النبي ﷺ نطق بذلك قبل إملائه، فقال له رسول الله ﷺ: «هكذا نزلت». فقال: عبد الله: إن كان محمد نبياً يُوحى إليه فأنا نبي يُوحى إليّ. فارتدّ، ولحق بمكة، ثم أسلم يوم الفتح^(١). وقيل: هذه الحكاية غير صحيحة؛ لأن ارتداده كان بالمدينة، وهذه السورة مكّية. وقيل: القائل عمر، أو: معاذ - رضي الله عنهما -.

١٥- ﴿ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما ذكرنا من أمركم ﴿لِمَيْتُونَ﴾ عن انقضاء أجالكم.

١٦- ﴿ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَبْعُوثُونَ﴾ تحيون للجزاء.

١٧- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ جمع طريقة، وهي: السموات؛ لأنها طرق الملائكة، ومتقلباتهم ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أراد بالخلق: السموات، كأنه قال: خلقناها فوقهم، وما كنا عنها غافلين وعن حفظها. أو: أراد به الناس، وأنه إنّما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وما كان غافلاً عنهم، وعمّا يصلحهم.

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وعزاه الواحدي إلى الكلبي عن ابن عباس (حاشية الكشف ٣/ ١٧٩).

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُةٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِيلِ ﴿٢٠﴾

١٨ - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو: بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿فَسَلَّكُمُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]. وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض، فماء الأرض كله من السماء، ثم استأذى شكرهم بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه، فقيدوا هذه النعمة بالشكر.

١٩ - ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات، ﴿فَوَكُةٌ كَثِيرَةٌ﴾ سوى النخيل، والأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من الجنات، أي: من ثمارها. ويجوز أن هذا من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن صنعة يغتفلها، أي: أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم، منها ترزقون، وتتعتشون.

٢٠ - ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على ﴿جَنَاتٍ﴾ وهي: شجرة الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ طور سيناء وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرئ القيس، وهو جبل فلسطين. و﴿سيناء﴾ غير منصرف بكل حال، مكسور السين، كقراءة الحجازي وأبي عمرو؛ للتعريف والعجمة، أو مفتوحها كغيرهم^(١)؛ لأن الألف للتأنيث كصحراء ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ قال الزجاج: الباء للحال، أي: ﴿تَنْبُتُ﴾ ومعها الدهن. ﴿تَنْبُتُ﴾: مكى، وأبو عمرو، إما لأن أنبت بمعنى نبت، كقوله: حتى إذا أنبت البقل. أو: لأن مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها، وفيه الدهن ﴿وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِيلِ﴾ أي: إدام لهم. قال مقاتل: جعل الله تعالى في هذه إداماً ودهناً. فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

(١) أي كقراءة غيرهم.

وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعْنَةٌ شَقِيقَةٌ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ

وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان. وخصّ هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر، وأفضلها، وأجمعها للمنافع.

٢١- ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ جمع نعم، وهي: الإبل، والبقر، والغنم ﴿لَعْنَةٌ شَقِيقَةٌ﴾ وبفتح النون: شامي، ونافع، وأبو بكر. وسقى وأسقى لغتان ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهَا﴾ أي: نخرج لكم من بطونها لبناً سائغاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى الألبان، وهي منافع الأصواف، والأوبار، والأشعار ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لحومها.

٢٢- ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في أسفاركم. وهذا يشير إلى أنّ المراد بالأنعام: الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في العادة؛ فلذا قرنها بالفلك التي هي السفائن؛ لأنها سفائن البر. قال ذو الرمة:

... .. سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدَي زِمَامُهَا^(١)

يريد: ناقته.

٢٣- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾ وحّدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ بالرفع على المحلّ، وبالجَرّ على اللفظ. والجملة استئناف، تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقوبة الله؛ الذي هو ربكم، وخالفكم إذا عبدتم غيره، مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

٢٤- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: أشرافهم لعواتهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يأكل ويشرب، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطلب الفضل عليكم،

(١) عجز بيت، وصدرة: طروقاً وجلب الرجل مشدودة به.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَضُوا عَلَيْهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فِإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا

ویرأس ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إرسال رسول ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ لأرسل ملائكة ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بإرسال بشر رسولاً، أو بما يأمرنا به من التوحيد، وسبب الهتنا. والعجب منهم: أنهم رضوا بالالوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوة للبشر ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

٢٥- ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون ﴿فَرَضُوا عَلَيْهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فانتظروا، واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلا قتلتموه.

٢٦- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ﴾ فلما أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، والمعنى: أهلكهم بسبب تكذيبهم إيتي، إذ في نصرته إهلاكهم. أو: ﴿انصُرْنِي﴾ بدل ﴿مَا كَذَّبْتُ﴾ كقولك: هذا بذاك، أي: بدل ذاك. والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم.

٢٧- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ ﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك، ورؤيته إيتك، أو: بحفظنا وكلاءتنا، كأن معك من الله حفاظاً يكلؤونك بعيونهم؛ لئلا يتعرض لك، ولا يُفسد عليك مفسد عملك. ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة ﴿وَوْحَيْنَا﴾ أمرنا، وتعليمنا إيتك صنعتها. روي: أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جوجو^(١) الطائر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بأمرنا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: فار الماء من تنور الخبز، أي: أخرج سبب الغرق، من موضع الحرق؛ ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار. روي: أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة. فلما نبغ الماء من التنور أخبرته امرأته، وكان تنور آدم فصار إلى نوح. وكان من حجارة. واختلف في مكانه، فقيل: في مسجد الكوفة، وقيل: بالشام، وقيل: بالهند ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ فأدخل

مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي بَخَسَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾

في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾^(١) من كل أمتي زوجين، وهما أمة الذكر، وأمة
الأنثى، كالجمال، والنوق، والحصان، والرمك ﴿اثْنَيْنِ﴾ واحدین مزدوجین
كالجمل والناقة، والحصان والرمكة^(٢). رُوي: أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض.
﴿مِنْ كُلِّ﴾: حفص، أي: من كل أمة ﴿زوجين اثنين﴾. و﴿اثنين﴾ تأكيد،
وزيادة بيان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ونساءك، وأولادك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ من الله
بإهلاكه، وهو ابنه، وإحدى زوجتيه، فجيء بـ«على» مع سبق الضار، كما
جاء باللام مع سبق النافع في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾
[الصافات: ١٧١] ونحوها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]
﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ولا تسألني نجاة الذين كفروا، فإني
أغرقهم.

٢٨- ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ فإذا تمكنتم عليها راكبين ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي بَخَسَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم. ولم يقل:
فقلولوا، وإن كان ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾ في معنى: إذا استويتم؛ لأنه
نبيهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

٢٩- ﴿وَقُلْ﴾ حين ركبت على السفينة، أو: حين خرجت منها ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي
مُنْزَلًا﴾ أي: إنزالاً، أو: موضع إنزال. ﴿مُنْزَلًا﴾ أبو بكر، أي: مكاناً ﴿مُبَارَكًا﴾
وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة
النسل، وتتابع الخيرات.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿كُلِّ﴾. وهي قراءة: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبي
عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم. معجم القراءات القرآنية (٢٠٨/٤).

(٢) «الرمكة»: الفرس والبزذونة تتخذ للنسل.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ

٣٠- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ لعبراً، ومواعظ. ﴿وَإِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة بين النافية وبينها. والمعنى: وإن الشأن، والقصة ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، وعقاب شديد، أو: مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥].

٣١- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد قوم هود. ويشهد له قول هود: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في الأعراف، وهود، والشعراء.

٣٢- ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ الإرسال يعدى بـ«إلى»، ولم يعد بـ«في» هنا، وفي قوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِينَةٍ﴾ [الأعراف: ٩٤] ولكن الأمة والقرية جعلت موضعاً للإرسال، كقول رؤبة:

أَرْسَلْتُ فِيهَا مُضْعَبًا ذَا إِفْحَامٍ^(١)
رَسُولًا هُودًا مِنْهُمْ مَنْ قَوْمِهِمْ ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
مفسرة لأرسلنا، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٣٣- ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ ذكر مقال قوم هود في جوابه في الأعراف وهود بغير واو؛ لأنه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقل له: قالوا: كيت وكيت. وهاهنا مع الواو؛ لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل. وليس بجواب للنبي ﷺ متصل بكلامه، ولم يكن بالفاء، وجيء بالفاء في قصة نوح؛ لأنه جواب لقوله واقع عقبيه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ صفة لـ«الملا»، أو: لقومه ﴿وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ﴾

وَأَرْفَقْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْدِكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

أي: بقاء ما فيها من الحساب، والثواب، والعقاب، وغير ذلك ﴿وَأَرْفَقْنَهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال، والأولاد ﴿مَا هَذَا﴾ أي: النبي ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: منه. فحذف لدلالة ما قبله عليه، أي: من أين يدعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم؟

٣٤ - ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به، وينهاكم عنه ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ واقع في جزاء الشرط، وجواب للذين قالوهم من قومهم ﴿لَخَسِرُونَ﴾ بالانقياد لثلكم. ومن حقهم: أنهم أبوا اتباع مثلهم، وعبدوا أعجز منهم.
٣٥ - ﴿أَيْدِكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بالكسر: نافع، وحمة، وعلي، وحفص. وغيرهم: بالضم ﴿وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ مبعوثون للسؤال، والحساب، والثواب، والعقاب، وثنى ﴿أَنْتُمْ﴾ للتأكيد. وحسن ذلك للفصل بين الأول والثاني بالظرف. و﴿تُخْرَجُونَ﴾ خبر عن الأول. والتقدير: ﴿أَيْدِكُمْ﴾ أنكم تخرجون ﴿إِذْ مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾.

٣٦ - ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ﴾ ويكسر التاء: يزيد. ورُوي عنه بالكسر والتنوين فيهما. والكسائي يقف بالهاء؛ وغيره بالتاء. وهو اسم للفعل، واقع موقع بُعد، وفاعلها مضمر، أي: بعد التصديق، أو: الوقوع ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ من العذاب. أو: فاعلها: «ما توعدون» واللام زائدة، أي: بُعد ما توعدون من البعث.

٣٧ - ﴿إِنَّ هِيَ﴾ هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه. وأصله: إن الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. ثم وضع ﴿هي﴾ موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليها، ويبيتها. والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منا. وهذا؛ لأن ﴿إِنَّ﴾ النافية دخلت على ﴿هي﴾ التي في معنى الحياة الدالة على الجنس، فنفتها، فوازنت لا؛ التي لنفي الجنس ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ لَمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمُ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا

بعض، ويولد بعض، ينقرض قرن فيأتي قرن آخر. أو: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت. وهو قراءة أبي، وابن مسعود - رضي الله عنهما - ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

٣٨- ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما هو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ لَمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

٣٩- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فأجاب الله دعاء الرَسُول بقوله:

٤٠- ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ﴿مَا﴾ زائدة، أو: بمعنى شيء، أو: زمن. و﴿قَلِيلٍ﴾ بدل منها. وجواب القسم المحذوف ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ إذا عاينوا ما يحل بهم.

٤١- ﴿فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل - عليه السلام - صاح عليهم فدمرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل من الله. يقال: فلان يقضي بالحق، أي: بالعدل ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ غُثَاءً﴾ شبههم في دمارهم بالغشاء، وهو: حميل السيل مما بلي، واسود من الورق، والعيدان ﴿فَبَعْدًا﴾ فهلاكاً. يقال: بَعْدَ بَعْدًا وَبَعْدًا، أي: هلك. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بيان لمن دعي عليه بالبعد، نحو: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٤٢- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ قوم صالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم.

٤٣- ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ «مِنْ»: صلة، أي: ما تسبق أمة ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوب لها، والوقت الذي حُدَّ لها، وكُتِبَ ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ لا يتأخرون عنه.

٤٤- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ فعلى. والألف للتأنيث؛ كسكرى؛ لأن الرسل جماعة؛ ولذا لا ينون؛ لأنه غير منصرف. (تترى) بالتنوين: مكى، وأبو عمرو، ويزيد؛ على أَنَّ الألف للإحق كَارْطَى. وهو نصب على الحال في القراءتين،

كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا

أي: متتابعين واحداً بعد واحد. وتاؤها فيهما بدل من الواو. والأصل: وترى من الوتر، وهو الفرد، فقلبت الواو تاء، كتراث ﴿كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ الرسول يلبس المرسل والمرسل إليه، والإضافة تكون بالملاسة، فتصح إضافته إليهما ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ الأمم والقرون ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخباراً يُسَمَّرُ بها، ويتعجب منها. والأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث النبي ﷺ. وتكون جمعاً للأحدوثة، وهو: ما يتحدث به الناس تلهياً، وتعجباً، وهو: المراد هنا ﴿فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤٥- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ بدل من ﴿أَخَاهُ﴾ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة.

٤٦- ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعاً، وتكبراً ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين، مترفعين.

٤٧- ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ البشر يكون واحداً وجمعاً. ومثل، وغير يوصف بهما الاثنان، والجمع، والمذكر، والمؤنث ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَبِيدُونَ﴾ خاضعون مطيعون، وكل من دان لملك فهو عابد له عند العرب.

٤٨- ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق.

٤٩- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ أي: قوم موسى ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعملون بشرائعها، ومواعظها.

٥٠- ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ تدل على قدرتنا على ما نشاء؛ لأنه خلق من غير نطفة. وحُد لأن الأعجوبة فيهما واحدة. أو: المراد ﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وأمة﴾ آية، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا﴾ جعلنا

إِلَىٰ رَبِّكَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً رَّبُّكُمْ فَأَنْتَقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ

ماواهما، أي: منزلهما ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ - شامي، وعاصم ﴿رَبُّوهُ﴾ غيرهما - أي: أرض مرتفعة، وهي بيت المقدس، أو: دمشق، أو: الرملة، أو: مصر ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر من أرض مستوية منبسطة، أو: ذات ثمار وماء، يعني: أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء ظاهر جارٍ على وجه الأرض، وهو مفعول، أي: مدرك بالعين بظهوره، من: عانه؛ إذا أدركه بعينه. أو: فعيل؛ لأنه نفاع بظهوره وجريه، من: الماعون، وهو: المنفعة.

٥١- ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك، ووصي به؛ ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل، ووصوا به حقيق أن يؤخذ به، ويُعمل عليه. أو: هو خطاب لمحمد ﷺ لفضله وقيامه مقام الكل في زمانه، وكان يأكل من الغنائم. أو: لعيسى - عليه السلام - لاتصال الآية بذكره، وكان يأكل من غزل أمه، وهو أطيب الطيبات. والمراد بالطيبات: ما حلّ. والأمر للتكليف. أو: ما يستطاب، ويستلذ، والأمر للترفيه والإباحة ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ موافقاً للشريعة ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم على أعمالكم.

٥٢- ﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ كوفي على الاستئناف. ﴿وَأَنَّ﴾ حجازي، وبصري بمعنى: ولأن، أي: ﴿فَأَنْتَقُونِ﴾ لأن هذه. أو: معطوف على ما قبله، أي: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وبأن هذه. أو: تقديره: ﴿و﴾ اعلموا ﴿أَنَّ هَذِهِ﴾ ﴿أُمَّةً﴾ أي: ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملّة واحدة، وهي: شريعة الإسلام. وانتصاب ﴿أُمَّةً﴾ على الحال. والمعنى: وإن الدين دين واحد وهو الإسلام. ومثله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَأَنْتَقُونِ﴾ وحدي، فخافوا عقابي في مخالفتكم أمري.

٥٣- ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تقطّع بمعنى: قطع، أي: قطعوا أمر دينهم

زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا
نُمِذُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَثَابَتْ رَبِّهِمْ يَوْمُئِذٍ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا
يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿زُبُرًا﴾ جمع زبور، أي: كتباً مختلفة، يعني: جعلوا دينهم أدياناً. وقيل: تفرقوا
في دينهم فرقاً، كل فرقة تتحل كتاباً. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعاً،
وحرفوه. وقرئ ﴿زُبُرًا﴾ جمع زُبْرَة، أي: قطعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ كل فرقة من فرق
هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الكتاب، والدين، أو: من
الهوى، والرأي ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون، معتقدون أنهم على الحق.

٥٤- ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ جهالتهم، وغفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن
يُقتلوا، أو يموتوا.

٥٥، ٥٦- ﴿أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِذُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وخبر
أن: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: والعائد من خبر أن إلى اسمها محذوف، أي: نسارع
لهم به. والمعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي، وهم
يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، ومعالجة بالشواب جزاء على حسن صنيعهم.
وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إن الله
لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له في الدين. وقد أخبر: أن ذلك
ليس بخير لهم في الدين، ولا أصلح ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ «بل» استدراك لقوله:
﴿أَيْحَسِبُونَ﴾ أي: بل هم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتى يتأملوا في ذلك أنه
استدراج، أو: مسارعة في الخير.

٥٧- ثم بين ذكر أوليائه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي:
خائفون.

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَثَابَتْ رَبِّهِمْ يَوْمُئِذٍ﴾ أي: يكتب الله كلَّها، لا يفرقون بين
كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم، وهم أهل الكتاب.

٥٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ كمشركي العرب.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾
حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾

٦٠- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات. وقرئ: ﴿يأتون ما آتوا﴾ بالقصر، أي: يفعلون ما فعلوا ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ألا تقبل منهم لتقصيرهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ الجمهور على أن التقدير: لأنهم وخبر ﴿إن الذين﴾:

٦١- ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون في الطاعات فيبادرونها ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: لأجل الخيرات سابقون إلى الجنات، أو: لأجلها سبقوا الناس.

٦٢- ﴿وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، يعني: أن الذي وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع، والطاقة. وكذلك كل ما كلفه عباده. وهو رد على من جوز تكليف ما لا يُطاق ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ أي: اللوح، أو: صحيفة الأعمال ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل، لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب، أو نقصان ثواب، أو بتكليف ما لا وسع له به.

٦٣- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا﴾ بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك، أي: لما وصف به المؤمنون ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ وعليها مقيمون، لا يفظمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

٦٤- ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعيمهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ عذاب الدنيا، وهو: القحط سبع سنين، حين دعا عليهم النبي عليه الصلاة والسلام، أو: قتلهم يوم بدر. و﴿حتى﴾ هي التي يتبدأ بعدها الكلام. والكلام: الجملة الشرطية ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ يصرخون استغاثة. والجوار: الصراخ باستغاثة، فيقال لهم:

لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَضُرُّونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ
 تُنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَن جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
 ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ

٦٥- ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ﴾. فإن الجوار غير نافع لكم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَضُرُّونَ﴾ أي: من جهتنا لا يلحقكم نصر، أو: معونة.

٦٦- ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى. والنكوص: أن يرجع القهقرى، وهو أقبح مشية؛ لأنه لا يرى ما وراءه.

٦٧- ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ متكبرين على المسلمين. حال من ﴿تُنْكِصُونَ﴾ ﴿بِهِ﴾ بالبيت، أو: بالحرم؛ لأنهم يقولون: لا يظهر علينا أحد لأننا أهل الحرم، والذي سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت. أو: بـ «آياتي»؛ لأنها في معنى كتابي. ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً. ضمن ﴿مستكبرين﴾ معنى مكذبين، فعدي تعديته. أو: يتعلق الباء بقوله: ﴿سِمِرًا﴾ تسمرون بذكر القرآن، وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن، وتسميته شعراً وسحراً. والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع. وقرئ: (سماراً). أو: بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ وهو من الهجر: الهذيان. ﴿تَهْجُرُونَ﴾: نافع، من أهجر في منطقه: إذا أفحش.

٦٨- ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾ أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا: أنه الحق المبين، فيصدقوا به، وبمن جاء به ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فلذلك أنكروه، واستبدعوه.

٦٩- ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمداً بالصدق، والأمانة، ووفور العقل، وصحة النسب، وحسن الأخلاق؟! أي: عرفوه بهذه الصفات ﴿فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ بغياً، وحسداً.

٧٠- ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون؟ وليس كذلك؛ لأنهم يعلمون أنه أرجحهم

بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾

عقلاً، وأنقبهم ذهنًا ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ الأبلج، والصراط المستقيم، وبما خالف
شهواتهم وأهواءهم، وهو التوحيد والإسلام، ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا،
فلذلك نسبوه إلى الجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ فيه دليل على أن أقلهم ما كان
كارهاً للحق، بل كان تاركاً للإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن
يقولوا: صبا، وترك دين آبائه، كأبي طالب.

٧١- ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ﴾ أي: الله ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيما يعتقدون من الآلهة
﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾
[الأنبياء: ٢٢] ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ خصّ العقلاء بالذكر؛ لأنّ غيرهم تبع ﴿بَلْ
أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذكركم، أي: وعظهم، أو: شرفهم؛ لأنّ
الرسول منهم والقرآن بلغتهم. أو: بالذكر الذي كانوا يتمنونونه، ويقولون: ﴿لَوْ
أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية [الصافات: ١٦٨] ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ بسوء
اختيارهم.

٧٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ﴾: حجازي، وبصري، وعاصم.
﴿خَرْجًا... فَخَرَجَ﴾: شامي. ﴿خَرَجًا... فَخَرَجَ﴾: عليّ، وحمة. وهو
ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كلّ عامل من أجرته، وجعله.
والخرج أخصّ من الخراج، تقول: خراج القرية، وخرج الكرّدة^(١)، فزيادة
اللفظ لزيادة المعنى. ولذا حسنت القراءة الأولى، يعني: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على
هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من الخالق خير ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾
أفضل المعطين.

(١) «الكرّدة»: المَشَارَة من المزارع.

وَلِئِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوءُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْغَدَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

٧٣- ﴿وَلِئِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام، فحقيق أن يستجيبيوا لك.

٧٤- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكِبُونَ﴾ لعادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو: الصراط المستقيم.

٧٥- ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ لما أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز^(١)، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم، أأنت تزعم أنك بُعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى» فقال: قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع! فنزلت: الآية^(٢). والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضر، وهو: القحط الذي أصابهم برحمته لهم، ووجدوا الخصب ﴿لَلْجُوءُ﴾ أي: لتmadوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون. يعني: لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار، وعداوة رسول الله ﷺ، والمؤمنين، ولذهب عنهم هذا التملق بين يديه.

٧٦- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْغَدَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ استشهد على ذلك بأننا أخذناهم أولاً بالسيف، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم، وأسرهم، فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة، أي: خضوع ولا تقصّر - وقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ عبارة عن دوام حالهم، أي: وهم على ذلك بعد، ولذا لم يقل: وما تضرعوا. ووزن استكان: استفعل، من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال.

٧٧- ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا﴾ «فتحنّا»: يزيد ﴿عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: باب

(١) «العلهز»: طعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢١١).

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾

الجوع؛ الذي هو أشد من الأسر والقتل ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون، آيسون من كل خير، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد ليستعطفك. أو: محتاهم بكلّ محنة من القتل والجوع فما روي فيهم لين مقادة. وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

٧٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصّها بالذكر؛ لأنها تتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون شكراً قليلاً. و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً. والمعنى: إنكم لم تعرفوا عظم هذه النعم، ووضعتموها غير مواضعها، فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله، ولم تستدلّوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولا تشركوا به شيئاً.

٧٩- ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وبثكم بالتناسل، وتجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

٨٠- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي النسم بالإنشاء، ويميتها بالإفناء ﴿وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: مجيء أحدهما عقيب الآخر، واختلافهما في الظلمة والنور، أو: في الزيادة والقصور. وهو مختص به، ولا يقدر على تصرفهما غيره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفوا قدرتنا على البعث، أو: فتستدلّوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا.

٨١- ﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي: أهل مكة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: الكفار قبلهم. ثم بين ما قالوا بقوله:

قَالُوا إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا إِنَّكُم مَّن كَافِرِينَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعدْنَا نَحْنُ وَوَعْدَنَا حَقٌّ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ
كَانُوا يَحْكُمُونَ ﴿٨٣﴾ لَكُنَّا عَنْ أَهْلِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ لَقَدْ وَعدْنَا نَحْنُ وَوَعْدَنَا حَقٌّ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ
كَانُوا يَحْكُمُونَ ﴿٨٥﴾ لَكُنَّا عَنْ أَهْلِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ لَقَدْ وَعدْنَا نَحْنُ وَوَعْدَنَا حَقٌّ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ
كَانُوا يَحْكُمُونَ ﴿٨٧﴾ لَكُنَّا عَنْ أَهْلِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾

٨٢- ﴿قَالُوا إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(١) ﴿مِتْنًا﴾: نافع، وحمة، وعلي، وحفص.

٨٣- ﴿لَقَدْ وَعدْنَا نَحْنُ وَوَعْدَنَا حَقٌّ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ﴾ من قبل مجيء محمد
﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ جمع: أسطار، جمع: سطر، وهي: ما كتبه
الأولون مما لا حقيقة له. وجمع: أسطورة أوفق. ثم أمر نبيه عليه الصلاة
والسلام بإقامة الحجة على المشركين بقوله:

٨٤، ٨٥- ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ فإنهم ﴿سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ﴾ لأنهم مقرون بأنه الخالق. فإذا قالوا: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعملوا أن من
فطر الأرض ومن فيها كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بالآل يشرك به
بعض خلقه في الربوبية. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعلي، وحفص.
وبالتشديد: غيرهم.

٨٦، ٨٧- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾
﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ أفلا تخافونه فلا تتركوا به؟ أو: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في جحودكم
قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الأشياء.

٨٨- ﴿قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلِكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملوك: الملك. والواو والتاء
للمبالغة، فتنبئ عن عظم الملك ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه، ومنعته، يعني: وهو يغيث من يشاء ممن
يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿مِتْنًا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو،
وابن عامر، وشعبة، وأبي جعفر، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٦٨/٧).

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنشَأْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

٨٩- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ نخدعون عن الحق، أو: عن توحيده، وطاعته. والخادع: هو الشيطان، والهوى. الأول: ﴿لله﴾ بالإجماع، إذ السؤال ﴿لمن﴾ وكذا الثاني والثالث عند غير أهل البصرة على المعنى، لأنك إذ قلت: من رب هذا، فمعناه: لمن هذا؟ فيجواب: لفلان، كقول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد؟ قيل: لخالد أي: لمن المزالف. ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر؛ لأنك إذا قلت: من رب هذا؟ فجوابه: فلان.

٩٠- ﴿بَلْ أَنشَأْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ بأن نسبة الولد إليه محال، والشرك باطل ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: اتخذ الله ولداً ودعائهم الشريك. ثم أكد كذبهم بقوله:

٩١- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لأنه منزّه عن النوع، والجنس. وولد الرجل من جنسه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ وليس معه شريك في الألوهية ﴿إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لا نفرد كل واحد من الآلهة بالذي خلقه، فاستبد به، ولتميز ملك كل واحد منهم عن الآخر، ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ولغلب بعضهم بعضاً، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة، وهم متغالبون. وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد، بيده ملكوت كل شيء. ولا يقال: «إذا» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وهما هنا وقع ﴿لذهب﴾ جزاء وجواباً، ولم يتقدمه شرط، ولا سؤال سائل؛ لأنَّ الشرط محذوف، وتقديره: ولو كان معه آلهة؛ لدلالة: ﴿وما كان معه من إله﴾ عليه. وهو جواب لمن حاجه من المشركين ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الأنداد، والأولاد.

٩٢- ﴿عَلِيمٌ﴾ بالجر، صفة لله. وبالرفع: مدني، وكوفي - غير حفص - خبر

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٢﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٤﴾ أَدْفَعِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٥﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٦﴾

مبتدأ محذوف ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السر، والعلانية ﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ من الأصنام؛ وغيرها.

٩٣، ٩٤- ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ﴾ «ما» والنون مؤكدان، أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا، أو: في الآخرة ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فلا تجعلني قريباً لهم، ولا تعذبني بعذابهم. عن الحسن - رضي الله عنه -: أخبره الله أن له في أمته نعمة، ولم يخبره متى وقتها، فأمر أن يدعو بهذا الدعاء. ويجوز أن يسأل النبي المعصوم ﷺ ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيز به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه. واستغفاره عليه الصلاة والسلام إذ قام من مجلسه سبعين مرة لذلك، والفاء في: ﴿فَلَا﴾ لجواب الشرط. و﴿رَبِّ﴾ اعتراض بينهما للتأكيد.

٩٥- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ كانوا ينكرون الموعد بالعذاب، ويضحكون منه، ف قيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملت، فما وجه هذا الإنكار؟

٩٦- ﴿أَدْفَعِ بِأَلَّتِي﴾ الخلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾. وهو أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة؛ لما فيه من التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصَّفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي شهادة أن لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك، أو: الفحش بالسلام، أو: المنكر بالموعظة. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: حكمة؛ إذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدَّ إلى ثلم دين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ من الشرك - أو: بوصفهم لك، وسوء ذكركهم - فنجازيهم عليه.

٩٧- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ من وساوسهم ونخساتهم. والهمز: النخس. والهمزات: جمع المرة منه، ومنه مهماز الرائض. والمعنى أن

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

الشياطين يحثون الناس على المعاصي، كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها على المشي.

٩٨ - ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً، أو: عند تلاوة القرآن، أو: عند النزاع.

٩٩ - ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ يتعلق بـ ﴿يصفون﴾، أي: لا يزالون يشركون إلى وقت مجيء الموت. أو: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم، مُستعيناً بالله على الشيطان أن يستنزله على الحلم، ويغريه على الانتصار منهم ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أي: ردوني إلى الدنيا. خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم، كخطاب الملوك.

١٠٠ - ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾^(١) في الموضع الذي تركت، وهو: الدنيا؛ لأنه ترك الدنيا، وصار إلى العقبى. قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهل، ولا إلى عشيرة، ولكن ليتدارك ما فرط. ﴿لَعَلِّي﴾ ساكنة الياء: كوفي، وسهل، ويعقوب ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب الرجعة، وإنكار، واستعباد ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ المراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. وهو قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ لا محالة لا يخلّيها، ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة، والندم عليه ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أي: أمامهم. والضمير للجماعة ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لم يرد أنهم يرجعون يوم البعث، وإنما هو إقناطٌ كلي لما علم أن لا رجوع بعد البعث إلا إلى الآخرة.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿لَعَلِّي﴾ بفتح الياء. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/٢٢٣).

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَلِّيٰ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا

١٠١- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قيل: إنها النفخة الثانية ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وبالإدغام: أبو بكر لاجتماع المثلين وإن كانا من كلمتين. يعني: يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين، ولا يكون التواصل بينهم بالأنساب، إذ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْرَزَاقُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُخِيهِ وَأُخِيهِ وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦] وإنما يكون بالأعمال ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا؛ لأن كلاً مشغول عن سؤال صاحبه بحاله. ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧] فللقِيامة مواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون.

١٠٢- ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع موزون، وهي: الموزونات من الأعمال الصالحة؛ التي لها وزن وقدر عند الله تعالى، من قوله: ﴿فَلَا نَقِمْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ذَنْبًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

١٠٣- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالسيئات. والمراد: الكفار ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ غبنوها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ولا محل للبدل والمبدل منه؛ لأن الصلة لا محل لها. أو: خبر بعد خبر لـ: ﴿أُولَئِكَ﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف.

١٠٤- ﴿تَلْفَحُ﴾ أي: تحرق ﴿وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ عابسون. فيقال لهم:

١٠٥- ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَلِّيٰ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: القرآن ﴿تُنَلِّيٰ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتزعمون أنها ليست من الله تعالى.

١٠٦- ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا مَلَكُنَا﴾ ﴿شِقْوَتُنَا﴾. (شقاوتنا): حزة، وعلي. وكلاهما مصدر، أي: شقينا بأعمالنا السيئة التي عملناها. وقول أهل التأويل:

وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾

غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح؛ لأنه إنما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم أنه يختاره، ولا يكتب غير الذي علم أنه يختاره، فلا يكون مغلوباً ومضطرباً في الفعل. وهذا لأنهم إنما يقولون ذلك القول اعتذاراً لما كان منهم من التفريط في أمره، فلا يحتمل أن يطلبوا لأنفسهم عذراً فيما كان منهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق، والصواب.

١٠٧ - ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر، والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

١٠٨ - ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلة، وهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم، فإنه لا يرفع، ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به ثم، ولا كلام بعد ذلك إلا الشهيق، والزفير.

﴿أَنْ يَحْضُرُونِي﴾ ﴿أَرْجِعُونِي﴾ ﴿وَلَا تَكَلِّمُونِي﴾ بالياء في الوصل والوقف: يعقوب، وغيره: بلا ياء.

١٠٩، ١١٠ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿إِنَّ الْأَمْرَ، وَالشَّأْنَ﴾ ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ مفعول ثان. وبالضم: مدني، وحمة، وعلي. وكلاهما مصدر سخر، كالسخر، إلا أن في ياء النسبة مبالغة. قيل: هم الصحابة - رضي الله عنهم - . وقيل: أهل الصفة خاصة، ومعناه: اتخذتموهم هزواً، وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم﴾ بتشاكلهم بهم على تلك الصفة ﴿ذِكْرِي﴾ فركتموه، أي: كان التشاغل بهم سبباً لنسيانكم ذكري ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم.

١١١ - ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ﴿هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، أي: جزيتهم اليوم فوزهم؛ لأن جزى يتعدى إلى اثنين ﴿وَجَزَيْتُهُم بِمَا صَبَرُوا جَزَاءً﴾ [الإنسان: ١٢]. ﴿إِنَّهُمْ﴾: حمزة،

قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا
 الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
 خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

علي، على الاستئناف، أي: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ لا أنتم.

١١٢ - ﴿قُلْ﴾ أي: الله، أو: المأمور بسؤالهم من الملائكة ﴿قُلْ﴾: مكي،
 وحمزة، وعلي، أمر لملك أن يسألهم ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في الدنيا ﴿عَدَدَ
 سِنِينَ﴾ أي: كم عدد سنين لبستم؟ فـ ﴿كم﴾ نصب بـ «لبستم». و﴿عدد﴾ تمييز.

١١٣ - ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصروا مدة لبثهم في الدنيا، بالإضافة
 إلى خلودهم، ولما هم فيه من عذابها؛ لأنَّ المتحن يستطيل أيام محنته،
 ويستقصر ما مرَّ عليه من أيام الدعة ﴿فَتَنَّا الْعَادِينَ﴾ الحساب، أو: الملائكة
 الذين يعدون أعمار العباد، وأعمالهم. ﴿فسل﴾ بلا همز: مكي، وعلي.

١١٤ - ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ما ﴿لَبِئْتُمْ إِلَّا﴾ زمنًا ﴿قَلِيلًا﴾ أو:
 لبثًا قليلًا ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صدقهم الله تعالى في تقالهم لسني لبثهم في
 الدنيا، ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها. ﴿قُلْ إِنْ﴾: حمزة، وعلي.

١١٥ - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ حال، أي: عابثين. أو: مفعول له،
 أي: للعبث ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ويفتح التاء وكسر الجيم: حمزة، وعلي،
 ويعقوب. وهو معطوف على: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾. أو: على ﴿عَبَثًا﴾ أي:
 للعبث، ولنترككم غير مرجوعين؟ بل خلقناكم للتكليف، ثم للرجوع من دار
 التكليف إلى دار الجزاء، فثيب المحسن، ونعاقب المسيء.

١١٦ - ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ﴾ عن أن يخلق عبثًا ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يحق له
 الملك؛ لأنَّ كلَّ شيء منه وإليه. أو: الثابت الذي لا يزول، ولا يزول ملكه
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وصف العرش بالكرم؛ لأنَّ الرحمة تنزل
 منه، أو: لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرئ شاذًا برفع الكريم صفة للرب
 تعالى.

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

١١٧- ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا حجة ﴿لَهُ بِهِ﴾ اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد - لا أحق بالإحسان منه - فإن الله مثيبه. أو: صفة لازمة، جيء بها للتوكيد، كقولك: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ أي: جزاؤه وهذا جزاء الشرط ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فهو يجازيه لا محالة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ جعل فاتحة السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وخاتمتها ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة. ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله:

١١٨- ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغتته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ

١ - ﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿سورة﴾ ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ صفة لها. وقرأ طلحة ﴿سورة﴾ على: زيدا ضربته. أو: على اتل ﴿سورة﴾. والسورة: الجامعة لجمال آيات بفاتحة لها وخاتمة، واشتقاقها من: سور المدينة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: فرضنا أحكامها التي فيها. وأصل الفرض: القطع، أي: جعناها مقطوعاً بها. وبالتشديد: مكّي، وأبو عمرو للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو: لأن فيها فرائض شتى، أو: لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلائل واضحة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تتعظوا. وبتخفيف الدال: حمزة، وعليّ، وخلف، وحفص. ثم فصل أحكامها فقال:

٢ - ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ رفعهما على الابتداء. والخبر: محذوف، أي: فيما فرض عليكم ﴿الزانية والزاني﴾، أي: جلدهما. أو: الخبر: ﴿فَاجْلِدُوا﴾. ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي، وتضمينه معنى الشرط، وتقديره: التي زنت، والذي زنى فاجلدهما، كما تقول: من زنى فاجلده، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤]. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، على إضمار فعل يفسره الظاهر. وهو أحسن من ﴿سورة أنزلناها﴾ لأجل الأمر ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الجلد: ضرب الجلد. وفيه إشارة إلى

وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ عَذَابِهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ

أنه لا يبالغ ليصل الألم إلى اللحم. والخطاب للأئمة؛ لأن إقامة الحد من الدين، وهي على الكل، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام مناهم. وهذا حكم حرّ ليس بمحصن؛ إذ حكم المحصن الرجم. وشرائط إحصان الرجم: الحرية، والعقل، والبلوغ، والإسلام، والتزوّج بنكاح صحيح، والدخول. وهذا دليل على أن التغريب غير مشروع؛ لأنّ الفاء إنّما يدخل على الجزاء، وهو اسم للكافي. والتغريب المرويّ منسوخ بالآية، كما نسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥] وقوله: ﴿فَعَاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦] بهذه الآية ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: رحمة، والفتح لغة، وهي قراءة مكّي. وقيل: الرأفة في دفع المكروه، والرحمة في إيصال المحبوب. والمعنى: أنّ الواجب على المؤمنين أن يتصلّبوا في دين الله، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده، فيعطّلوا الحدود، أو: يخفّفوا الضرب ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله، أو: حكمه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهييج، وإلهاب الغضب لله ولدينه. وجواب الشرط مضمّر، أي: فاجلدوا، ولا تعطّلوا الحدّ ﴿وَلَشَهَادَةُ عَذَابِهِمَا﴾ وليحضر موضع حدّهما. وتسميته عذاباً دليل على أنّه عقوبة ﴿طَائِفَةٌ﴾ فرقة يمكن أن تكون حلقة ليعتبروا، وينزجر هو. وأقلّها: ثلاثة، أو أربعة. وهي صفة غالبية، كأنّها الجماعة الخافّة حول شيء. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أربعة إلى أربعين رجلاً ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدّقين بالله.

٣- ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: الخبيث الذي من شأنه الزنى لا يرغب في نكاح الصالح من النساء، وإنّما يرغب في خبيثة من شكله، أو: في مشرّكة. والخبيثة: المسافحة كذلك، لا يرغب في نكاحها الصالحاء من الرجال، وإنّما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة، أو المشركين. فالآية تهديد في نكاح البغايا، إذ الزنى عديلُ الشرك في القبح. والإيمان قرينُ العفاف والتحصّن. وهو نظير قوله: ﴿الْفَاسِقُ يُخَالِفُ

وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

لِلْحَيِّثِينَ ﴿[النور: ٢٦] وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقيل: المراد بالنكاح: الوطء؛ لأن غير الزاني يستقذر الزانية ولا يشتهيها. وهو صحيح لكنه يؤدي إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا يزني بها إلا زان. وسئل عليه السلام عن زنى بامرأة، ثم تزوجها، فقال: «أوله سفاح، وآخره نكاح»^(١). ومعنى الجملة الأولى: صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في الفواجر. ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء، ولكن للزناة، وهما معنيان مختلفان. وقدمت الزانية على الزاني أولاً؛ لأن تلك الآية سيقى لعقوبتهما على ما جنىا، والمرأة هي المادّة التي منها نشأت تلك الجناية؛ لأنها لو لم تُطعم الرجل، ولم تُومض له، ولم تمكّنه لم يطعم، ولم يتمكّن، فلمّا كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدى بذكرها. وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه؛ لأنه الخاطب، ومنه بدء الطلب. وقرئ ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ بالجزم على النهي، وفي المرفوع أيضاً معنى النهي ولكن أبلغ وأكد. ويجوز أن يكون خبراً محضاً، على معنى: أن عاداتهما جارية على ذلك، وعلى المؤمن ألا يدخل نفسه تحت هذه العادة، ويتصوّن عنها ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الزنى، أو: نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنى، أو: لما فيه من التشبه بالفساق، وحضور مواقع التهمة، والتسبب لسوء القالة فيه، والغيبة. ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام؟! فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب؟!

٤- ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ وبكسر الصاد: عليّ. أي: يقذفون بالزنى الحرائر والعفائف المسلمات المكلفات. والقذف يكون بالزنى وبغيره. والمراد هنا: قذفهن بالزنى بأن يقول: يا زانية؛ لذكر المحصنات عقيب الزواني، ولا شترط أربعة شهداء بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: ثم لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنى؛ لأنّ القذف بغير الزنى بأن يقول: يا فاسق، يا آكل الربا، يكفي فيه شاهدان، وعليه التعزير. وشروط إحصان القذف: الحرية،

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٥٦٥٧).

فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣﴾

والعقل، والبلوغ، والإسلام، والعفة عن الزنى، والمحصن كالمحصنة في وجوب حد القذف ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً﴾ إن كان القاذف حرّاً. ونصب ﴿ثمانين﴾ نصب المصادر، كما نصب ﴿مئة جلدة﴾. و﴿جلدة﴾ نصب على التمييز ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ نكر ﴿شهادة﴾ في موضع النفي، فتعم كل شهادة. وردّ الشهادة من الحدّ عندنا، ويتعلّق باستيفاء الحدّ، أو: بعضه على ما عرف. وعند الشافعي - رحمه الله تعالى - يتعلّق ردّ شهادته بنفس القذف. فعندنا جزاء الشرط - الذي هو: الرمي -: الجلد، وردّ الشهادة على التأيد، هو مدّة حياتهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كلام مستأنف، غير داخل في حيّز جزاء الشرط، كأنّه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطيّة. وقوله:

٥ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: القذف ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أحوالهم، استثناء من ﴿الفاسيقون﴾. ويدلّ عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر ذنوبهم، ويرحمهم. وحقّ الاستثناء أن يكون منصوباً عندنا؛ لأنّه عن موجب، وعند من جعل الاستثناء متعلّقاً بالجملة الثانية أن يكون مجروراً بدلاً من هم في ﴿لهم﴾:

٦ - ما ذكر حكم قذف الأجنبية وهذا بيان حكم قذف الزوجات، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ﴾ أي: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ يرتفع على البذل من ﴿شهداء﴾ ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ﴾^(١) وبالرفع: كوفي - غير أبي بكر - على أنّه خبر. والمبتدأ ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾. وغيرهم بالنصب؛ لأنّه في حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر، والعامل فيه المصدر؛ الذي هو: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾. وعلى هذا خبره محذوف، تقديره: فواجب شهادة أحدهم أربع ﴿شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

(١) في الأصل المخطوط ﴿أَرْبَعٌ﴾.

وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِيِّكَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

٧- ﴿وَالْخَمِيسَةُ﴾ لاختلاف في رفع الخامسة هنا في المشهور، والتقدير: والشهادة الخامسة ﴿أَنْ لَعَنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فهي مبتدأ وخبر ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِيِّكَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

٨- ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ويدفع عنها الحبس. وفاعل يدرأ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِيِّكَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

٩- ﴿وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ أي: الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى، نصب حفص ﴿الخامسة﴾ عطفاً على ﴿أَرْبَعَ﴾. وغيره رفعها بالابتداء. و﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾: خبره. وخفف نافع ﴿أَنْ لَعَنَ اللَّهُ﴾ و﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾ بكسر الضاد، وهما في حكم المثقلة. و﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾: سهل، ويعقوب، وخصَّ الغضب في جانبها؛ لأنَّ النساء يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث، فربما يجترئن على الإقدام لكثرة جري اللعن على المستهتة، وسقوط وقعه على قلوبهن، فذكر الغضب في جانبهن؛ ليكون رادعاً لهن. والأصل: أنَّ اللعان عندنا شهادات مؤكَّدات بالأيمان، مقرونة باللعن، قائمة مقام حدِّ القذف في حقه، ومقام حدِّ الزنى في حقها؛ لأنَّ الله تعالى سمَّاه شهادة، فإذا قذف الزوج زوجته بالزنى - وهما من أهل الشهادة - صحَّ اللعان بينهما. وإذا التعنَّا - كما بين في «النهر» - لا تقع الفرقة حتى يفرق القاضي بينهما. وعند زفر - رحمه الله تعالى - تقع بتلاعهما. والفرقة تطليقة بائنة. وعند أبي يوسف وزفر والشافعي - رحمهم الله -: تحريم مؤبد. ونزلت آية اللعان في هلال، أو عويمر، حيث قال: وجدتُ على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء، فكذبتة، فلاعن النبي ﷺ بينهما^(١).

(١) انظر القصة في سنن أبي داود برقم (٢٢٤٥) وما بعده.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ

١٠ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ تفضله ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ نعمته ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف، أي: لفضحك، أو: لعاجلكم بالعقوبة.

١١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وأصله: الإفك، وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد: ما أفك به على عائشة - رضي الله عنها - قالت عائشة: فقدت عقداً في غزوة بني المصطلق، فتخلّفت، ولم يُعرفَ خلوة الهودج لخفتي. فلما ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطل بعيده، وساقه، حتى أتاهم بعد ما نزلوا، فهلك فيّ من هلك، فاعتلتُ شهراً. وكان عليه الصلاة والسلام يسأل: «كيف أنت؟» ولا أرى منه لطفاً كنتُ أراه حتى عثرتُ خالة أبي - أم مسطح - فقالت: تعس مسطح. فأنكرتُ عليها، فأخبرتني بالإفك. فلما سمعت ازددتُ مرضاً، وبت عند أبيي، لا يرقأ لي دمع، وما أكتحل بنوم، وهما يظنان أنّ الدمع فالتق كبدتي، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «أبشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك» فقلت: بحمد الله لا بحمدك^(١) ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة من العشرة إلى الأربعين. واعصوصوا: اجتمعوا. وهم: عبد الله بن أبي رأس النفاق، وزيد بن رفاعه، وحسان بن ثابت، ومسطح ابن أثاثه، وحنّة بنت جحش، ومن ساعدهم ﴿مِّنْكُمْ﴾ من جماعة المسلمين. وهم ظنّوا أنّ الإفك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أي: الإفك ﴿شَرًّا لَّكُمْ﴾ عند الله ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الله أثابكم عليه، وأنزل في البراءة منه ثماني عشرة آية. والخطاب لرسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان، ومن ساءه ذلك من المؤمنين ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: على كلّ امرئ من العصبة جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه. وكان بعضهم ضحك، وبعضهم تكلم فيه، وبعضهم سكت ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي: عظمه،

(١) رواه أحمد (١٩٤/٦) والبخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠). بلفظ: أبشري يا عائشة!..

مِنْهُمْ لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

عبد الله بن أبي ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصابة ﴿لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: جهنم. - يحكى: أن صفوان مَرَّ بهودجها عليه، وهو في ملأ من قومه فقال: مَن هذه؟ فقالوا: عائشة، فقال: والله ما نجت منه، ولا نجا منها!

١٢- ثم وَبَّخَ الخائضين فقال: ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: الإفك ﴿ظَنَّ﴾ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ ﴿بِالَّذِينَ مِنْهُمْ﴾؛ فالمؤمنون كنفس واحدة، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿خَيْرًا﴾ عَفَاءً، وَصِلَاحًا. وذلك نحو ما يروى: أن عمر - رضي الله عنه - قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: أنا قاطعٌ بكذب المنافقين؛ لأنَّ الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك؛ لأنَّه يقع على النجاسات فيتلطَّخ بها، فلَمَّا عصمك الله من ذلك القدر من القدر، فكيف لا يعصمك عن صحبة مَن تكون متلطَّخة مثل هذه الفاحشة؟! وقال عثمان: إنَّ الله ما أوقع ظلك على الأرض لثلا يضع إنساناً قدمه على ذلك الظل، فلَمَّا لم يمكن أحداً من وضع القدم على ظلك، كيف يمكن أحداً من تلويث عرض زوجتك؟! وكذا قال عليّ - رضي الله عنه -: إنَّ جبريل أخبرك أنَّ عليّ نعليك قدراً، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك، بسبب ما التصق به من القدر، فكيف لا يأمرُك بإخراجها بتقدير أن تكون متلطَّخة بشيء من الفواحش؟!

وروي: أنَّ أبا أيوب الأنصاري قال لامرأته: ألا ترين ما يقال؟! فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظنُّ بحرم رسول الله سوءاً؟ فقال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنتُ رسول الله، فعائشة خير مِنِّي، وصفوان خير منك. وإنَّما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً، وقتلتم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدلَّ التصريح بلفظ الإيمان على أنَّ الاشتراك فيه يقتضي ألاَّ يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على اختها قول غائب، ولا طاعن. وهذا من الأدب الحسن، الذي قلَّ القائم به، والحافظ له: وليتك تجد من يسمع ويسكت ولا يشيِّعه بأخوات ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب ظاهر لا يليق بهما.

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ
الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

١٣- ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هَلَا ﴿جَاؤُوا﴾ على القذف لو كانوا
صادقين ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ﴾ الأربعة ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه،
وشريعته ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: القاذفون؛ لأن الله تعالى جعل التفصيلة بين الرمي
الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة، وانتفاءها. والذين رموا عائشة
- رضي الله عنها - لم يكن لهم بيّنة على قولهم، فكانوا كاذبين.

١٤- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ﴾ «لولا» هذه لامتناع الشيء، لوجود غيره بخلاف ما تقدم، أي:
﴿ولولا﴾ أتت قضيت أن أنفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم؛ التي من
جلتها الإمهال للتوبة، وأن أترحم عليكم في الآخرة في العفو والمغفرة لعاجلتكم
بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. يقال: أفاض في الحديث،
وخاض، واندفع.

١٥- ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ: «مسكم» أو: لـ: «أفضتم» ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ يأخذه
بعضكم من بعض. يقال: تلقى القول، وتلقنه، وتلقفه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: أن
بعضكم كان يقول لبعض: هل بلغك حديث عائشة؟ حتى شاع فيما بينهم،
وانتشر، فلم يبق بيت، ولا ناد إلا طار فيه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾
إنما قيد بالأفواه، مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون
علمه في القلب، ثم يترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في
أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أي: خوضكم في عائشة - رضي
الله عنها - ﴿هَيِّنًا﴾ صغيرة ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ كبيرة. جزع بعضهم عند
الموت، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله
عظيم.

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾
يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

١٦ - ﴿وَلَوْلَا﴾ وهلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ فصل بين ﴿لَوْلَا﴾ و﴿قُلْتُمْ﴾ بالظرف؛ لأنَّ للظروف شأنًا، وهو: تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها؛ فلذا يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها. وفائدة تقديم الظرف: أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلمَّا كان ذكر الوقت أهمَّ قدم، والمعنى: هلا قُلْتُمْ إِذْ سَمِعْتُمْ الإفك: ما يصحُّ لنا أن نتكلم بهذا؟! ﴿سُبْحَنَكَ﴾ للتعجب من عظم الأمر. ومعنى التعجب في كلمة التسييح: أنَّ الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صناعته، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه. أو: لتزويه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة. وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط، ولم يجوز أن تكون فاجرة؛ لأنَّ النبي مبعوثٌ إلى الكفار ليدعوهم، فيجب ألا يكون معه ما ينفرهم عنه. والكفر غير منفر عندهم. وأما الكشخنة^(١) فمن أعظم المنفرات ﴿هَذَا بَهْتَنٌ﴾ زور يبهت من يسمع ﴿عَظِيمٌ﴾ وذكر فيما تقدَّم: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. ويجوز أن يكونوا أمروا بهما مبالغة في التبري.

١٧ - ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا﴾ في أن تعودوا ﴿لِمِثْلِهِ﴾ لمثل هذا الحديث من القذف، أو: استماع حديثه ﴿أَبَدًا﴾ ما دمت أحياء مكلفين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه تهيج لهم ليتعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو: الإيمان الصادق عن كل قبيح.

١٨ - ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدلالات الواضحات، وأحكام الشرائع، والآداب الجميلة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم، وبأعمالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ يجزي على وفق أعمالكم. أو: علم صدق نزاهتها، وحكم براءتها.

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ
اللَّهُ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا
مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ
مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

١٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ما قبح جداً.
والمعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد الإشاعة، ومحبة لها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾
بالحد - ولقد ضرب النبي ﷺ ابن أبيي وحساناً ومسطحاً الحد - ﴿وَالْآخِرَةِ﴾
بالنار. وعدّها إن لم يتوبوا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بواطن الأمور، وسرائر الصدور
﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة، وهو معاقب
عليها.

٢٠- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لعجل لكم العذاب. وكثر المنة بترك
المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنة عليهم، والتوبيخ لهم ﴿وَأَنَّ
اللَّهُ رَءُوفٌ﴾ حيث أظهر براءة المقدوف، وأثاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بغفرانه جناية القاذف
إذا تاب.

٢١- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: آثاره، ووساوسه
بالإصغاء إلى الإفك، والقول فيه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ فإن الشيطان
﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ما أفرط قبحه ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما تنكره النفوس، فتنفر عنه،
ولا ترتضيه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ولولا أن الله تفضل
عليكم بالتوبة الممتحنة، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾
لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم، وإخلاصهم.

٢٢- ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ ولا يحلف. من: اتلى: إذا حلف، افتعال من الآلية. أو:
لا يقصر، من: الألو ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ في الدين ﴿وَالسَّعَةِ﴾ في الدنيا ﴿أَنْ
يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لا يحلفوا على ألا يحسنوا

وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

إلى المستحقين للإحسان، أو: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم وبينهم شحنة لجناية اقترفوها ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ العفو: الستر، والصفح: الإعراض، أي: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليعرضوا عن العقوبة ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فلتفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتأدبوا بأدب الله، واغفروا، وارحموا. نزلت في شأن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حين حلف ألا ينفق على مسطح ابن خالته لحوضه في عائشة - رضي الله عنها - وكان مسكيناً، بدرتاً، مهاجراً. ولما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر قال: بلى، أحبُّ أن يغفر الله لي. وَرَدَّ إِلَى مَسْطَحٍ نَفَقَتَهُ.

٢٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفاف ﴿الْفَاحِشَاتِ﴾ السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهنّ دهاء ولا مكر؛ لأنهنّ لم يجربن الأمور، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بما يجب الإيمان به. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هنّ أزواجه عليه الصلاة والسلام. وقيل: هنّ جميع المؤمنات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة - رضي الله عنها - وحدها. وإنما جمع لأنّ من قذف واحدة من نساء النبي عليه الصلاة والسلام، فكأنّه قذفهنّ ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جعل القذفة ملعونين في الدارين، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة إن لم يتوبوا.

٢٤- والعامل في: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ يعذبون. وبالياء: حمزة، وعلي ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما أفكوا، أو: بهتوا.

٢٥- والعامل في: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ بالنصب، صفة للدين، وهو: الجزء. ومعنى الحق: الثابت الذي هم أهله. وقرأ مجاهد بالرفع صفة لله، كقراءة أبي (يؤفكهم الله الحق دينهم) وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحق وصفاً لله بأن ينتصب على المدح ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِينَ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ
أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

لارتفاع الشكوك، وحصول العلم الضروري. ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة - رضي الله عنها - فأوجز في ذلك، وأشبع، وفصل، وأجل، وأكد، وكرّر، وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة. وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الإفك. ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف - عليه السلام - بشاهد من أهلها، وموسى - عليه السلام - من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بشوبه، ومريم - رضي الله عنها - بإنطاق ولدها، وعائشة - رضي الله عنها - بهذه الآي العظام في كتابه المعجز، المتلوة على وجه الدهر بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله، والتنبيه على إنافة محله ﷺ وعلى آله.

٢٦ - ﴿الْخَيْثُوثُ﴾ من القول يقال ﴿لِلْخَيْثِينَ﴾ من الرجال والنساء ﴿وَالْخَيْثُوثُ﴾ منهم يتعرّضون ﴿لِلْخَيْثِينَ﴾ من القول، وكذلك: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: فيهم. و﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرّءون مما يقول الخيثون من خبيثات الكلم. وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة - رضي الله عنها - وما رمت به من قول لا يطابق حالها في التزاهة، والطيب. ويجوز أن يكون إشارة إلى أهل البيت، وأنهم مبرّءون مما يقول أهل الإفك، وأن يُراد بالخبيثات والطيبات النساء الخبيثات يتزوجن الخبيثات، والخبيثات تتزوج الخبيثات. وكذا أهل الطيب ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ مستأنف، أو: خبر بعد خبر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة. ودخل ابن عباس - رضي الله عنهما - على عائشة - رضي الله عنها - في مرضها، وهي خائفة من القدوم على الله تعالى، فقال: لا تخافي لأنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم، وتلا الآية. فغشي عليها فرحاً بما تلا. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة: نزل جبريل بصوري في راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام أن يتزوجني، وتزوجني بكرةً وما تزوج بكرةً غيري، وتوفي

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

عليه الصلاة والسلام ورأسه في حجري، وقبر في بيتي، ونزل عليه الوحي وأنا في لحافه، وأنا ابنة خليفته وصديقه، ونزل عذري من السماء، وخلقت طيبة عند طيب، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً. وقال حسان معتذراً في حقها:

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بَرِيَّةٌ وَتَصْبِحُ غَرْنَىٰ مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ ^(١)
حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصَبًا نَبِيَّ الْهَدَىٰ وَالْمَكْرَمَاتِ الْفَوَاضِلِ
عَقِيلَةٌ حَيٍّ مِنْ لُؤَيٍّ بَنِ غَالِبٍ كَرَامِ الْمُبَاغِي، مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلٍ
مَهْدَبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا ^(٢) وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ وَبَاطِلٍ

٢٧ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتاً لستم تملكونها، ولا تسكنونها ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: تستأذنوا؛ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقد قرأ به. والاستئناس في الأصل: الاستعلام، والاستكشاف، استفعال، من: آنس الشيء: إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً، أي: حتى تستعملوا مطلقاً لكم الدخول أم لا؟ وذلك بتسيحة، أو: تكبيرة، أو: تحميدة، أو: تنحج ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ والتسليم أن يقول: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا رجع. وقيل: إن تلاقيا يقدم التسليم، وإلا فالاستئذان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان، والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تحية الجاهلية والدمور - وهو: الدخول بغير إذن - وكان الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول: حَيِّتُمْ صباحاً، وحَيِّتُمْ مساءً، ثم يدخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تَذَكَّرُوا، وتَعْظُوا، وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان.

٢٨ - ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ من الأذنين ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

(١) «حصان»: عفيفة. «رزان»: ذات وقار وثبات. «غرنى»: جائعة، يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس.

(٢) «خيمها»: الخيم: السجية والطبيعة.

يُؤْذَنُ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾
 لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
 وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى
 لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

يُؤْذَنُ لَكُمْ ﴿٢٨﴾ حَتَّى تَجِدُوا مَنْ يَأْذَنُ لَكُمْ. أَوْ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ مِنْ أَهْلِهَا وَلَكُمْ فِيهَا حَاجَةٌ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا؛ لِأَنَّ التَّصَرُّفَ فِي مَلِكٍ الْغَيْرِ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِرِضَاهُ ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا﴾ أَي: إِذَا كَانَ فِيهَا قَوْمٌ فَقَالُوا: ارجِعُوا ﴿فَارجِعُوا﴾ وَلَا تَلْحُوا فِي إِطْلَاقِ الْإِذْنِ، وَلَا تَلْجُوا فِي تَسْهِيلِ الْحِجَابِ، وَلَا تَقْفُوا عَلَى الْأَبْوَابِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِمَّا يَجْلِبُ الْكَرَاهَةَ. فَإِذَا نَهَى عَنْ ذَلِكَ لِأَدَاتِهِ إِلَى الْكَرَاهَةِ، وَجِبَ الْإِنْتِهَاءُ عَنْ كُلِّ مَا يُؤْدِي إِلَيْهَا مِنْ قَرَعِ الْبَابِ بِعَنْفٍ، وَالتَّصْيِيحِ بِصَاحِبِ الدَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ: مَا قَرَعْتَ بَابًا عَلَى عَالَمٍ قَطُّ! ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أَي: الرَّجُوعُ أَطْيَبُ وَأَطْهَرُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ سَلَامَةِ الصَّدُورِ، وَالبَعْدُ عَنِ الرِّيْبَةِ، أَوْ: أَنْفَعُ، وَأَنْمَى خَيْرًا ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَعِيدٌ لِلْمَخَاطِئِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذْرُونَ مِمَّا خَوَّطُوا بِهِ، فَمَوْفٍ جَزَاءَهُ عَلَيْهِ.

٢٩- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا﴾ فِي أَنْ تَدْخُلُوا ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾. اسْتَنْتَى مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي يَجِبُ الِاسْتِثْنَاءُ عَلَى دَاخِلِهَا مَا لَيْسَ بِمَسْكُونٍ مِنْهَا، كَالْخَانَاتِ، وَالرُّبُطِ، وَحَوَانِيتِ التِّجَارِ ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ أَي: مُنْفَعَةٌ كَالِاسْتِثْنَاءِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَإِيْوَاءِ الرِّحَالِ وَالسَّلْعِ، وَالشِّرَاءِ، وَالْبَيْعِ. وَقِيلَ: الْخُرَبَاتُ يَتَبَرَّزُ فِيهَا. وَالْمَتَاعُ: التَّبَرُّزُ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وَعِيدٌ لِلَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْخُرَبَاتِ، وَالدُّورَ الْخَالِيَةَ مِنْ أَهْلِ الرِّيْبَةِ.

٣٠- ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ «مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ. وَالْمُرَادُ: غَضُّ الْبَصَرِ عَمَّا يَحْرَمُ، وَالِاقْتِصَارُ بِهِ عَلَى مَا يَحِلُّ ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عَنِ الزُّنَى، وَلَمْ تَدْخُلِ «مِنْ» هُنَا لِأَنَّ الزُّنَى لَا رَخِصَةَ فِيهِ بِوَجْهِهِ. وَيُجُوزُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَكَفِّهَا، وَقَدَمَيْهَا - فِي رَوَايَةٍ - وَإِلَى رَأْسِ الْمَحَارِمِ، وَالصَّدْرِ، وَالسَّاقَيْنِ، وَالْعُضْدَيْنِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: غَضُّ الْبَصَرِ، وَحِفْظُ الْفَرْجِ ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أَي: أَطْهَرُ عَنِ دَنَسِ الْإِثْمِ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فِيهِ تَرْغِيبٌ وَتَرْهيبٌ. يَعْنِي: أَنَّهُ ﴿خَبِيرٌ﴾

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ

بأحوالهم، وأفعالهم، وكيف يخشون أبصارهم، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى، وحذر في كل حركة، وسكون.

٣١ - ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أمرن بغضّ الأبصار، فلا يحلّ للمرأة أن تنظر من الأجنبيّ إلى ما تحت سترته إلى ركبتيه، وإن اشتدت غصّت بصرها رأساً، ولا تنظر إلى المرأة إلّا إلى مثل ذلك. وغضّ بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها، وإنّما قدّم غضّ الأبصار على حفظ الفروج، لأنّ النظر بريد الزنى، ورائد الفجور، فبذر الهوى طموح العين ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة: ما تزينت به المرأة من حلي، أو كحل أو: خضاب. والمعنى: ولا يظهرن مواضع الزينة، إذ إظهار عين الزينة - وهي الحلي، ونحوها - مباح. فالمراد بها مواضعها، أو: إظهارها، وهي في مواضعها لإظهار مواضعها؛ لا لإظهار أعيانها، ومواضعها: الرأس، والأذن، والعنق، والصدر، والعضدان، والذراع، والساق، فهي للإكليل، والقرط، والقلادة، والوشاح، والدملج، والسوار، والخلخال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إلّا ما جرت العادة والجلبة على ظهوره، وهو: الوجه، والكفان، والقدمان، ففي سترها حرج بين، فإنّ المرأة لا تجدد بدءاً من مزاوله الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة، والمحكمة، والنكاح. وتضطرّ إلى المشي في الطرقات، وظهور قدميها، وخاصة الفقيرات منهنّ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليضعن، من قولك: ضربت بيدي على الحائط: إذا وضعتها عليه ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمار ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ بضم الجيم: مدنيّ، وبصريّ، وعاصم. كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها صدورهنّ وما حواليتها، وكنّ يسدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة، فأمرن بأن يسدلنها من قدامهنّ حتى تغطّينها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدر، والساق، والرأس، ونحوها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ لأزواجهن، جمع: بعل ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم الأجداد ﴿أَوْ آبَاءِ

بُعُولَتِهِمْ أَوْ أُنْسَاءِهُمْ أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ
 بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ إِسَاءِيَهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ
 الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ
 لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

بُعُولَتِهِمْ ﴿فقد صاروا محارم﴾. ﴿أَوْ أُنْسَاءِهُمْ﴾ ويدخل فيهم النوافل ﴿أَوْ
 أُنْسَاءِهُمْ﴾ فقد صاروا محارم أيضاً ﴿أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي
 أَخَوَاتِهِمْ﴾ ويدخل فيهم النوافل، وسائر المحارم كالأعمام، والأخوال، وغيرهم
 دلالة ﴿أَوْ إِسَاءِيَهُمْ﴾ أي: الحرائر؛ لأنّ مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر ﴿أَوْ مَا
 مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: إمائهن. ولا يحلّ لعبدها أن ينظر إلى هذه المواضع منها،
 خصياً كان، أو: عتيماً، أو: فحلاً. وقال سعيد بن المسيّب: لا تغرنكم سورة
 النور فإنها في الإماء دون الذكور، وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها أباحت
 النظر إليها لعبدها ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ﴾ بالنصب: شامي، ويزيد، وأبو بكر على
 الاستثناء، أو: الحال. وغيرهم بالجرّ على البدل، أو: على الوصفية ﴿أُولَى
 الْإِرْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء. قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيروا من فضل
 طعامكم، ولا حاجة لهم إلى النساء؛ لأنهم بله، لا يعرفون شيئاً من أمرهن،
 أو: شيوخ صلحاء، أو: العتین، أو: الخصى، أو: المختن. وفي الأثر: أنه
 الم محبوب. والأوّل الوجه ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ حال ﴿أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ﴾ هو جنس،
 فصلح أن يراد به الجمع ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: لم يطلعوا لعدم
 الشهوة. من: ظهر على الشيء: إذا اطلع عليه، أو: لم يبلغوا أوان القدرة على
 الوطء، من: ظهر على فلان: إذا قوي عليه ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ
 مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقة
 خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال، فنهين عن ذلك؛ إذ سماع صوت الزينة
 كإظهارها، ومنه سمي صوت الحلي: وسواساً ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ
 الْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿أَيُّهُ﴾ شامي إتباعاً للضمّة قبلها بعد حذف الألف لالتقاء
 الساكنين، وغيره على فتح الهاء؛ لأنّ بعدها ألفاً في التقدير ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَسْتَ عَفِيفٌ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ

العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه، وإن اجتهد؛ فلذا وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة، وبتأميل الفلاح إذا تابوا. وقيل: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس له حاجة إلى التوبة، وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافي الإيمان.

٣٢ - ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ - جمع: أيم، وهو من لا زوج له رجلاً كان أو امرأة، بكرأ كان أو ثيباً. وأصله: أياثم فقلبت - ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ أي: الخيّرين، أو: المؤمنين. والمعنى: زوّجوا من تأيّم منكم من الأحرار، والحرائر، ومن كان فيه صلاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي: من غلمانكم، وجواريكم. والأمر للندب؛ إذ النكاح مندوب إليه ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ من المال ﴿يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالكفاية، والقناعة، أو: باجتماع الرزقين. وفي الحديث: «التمسوا الرزق بالنكاح»^(١). وعن عمر - رضي الله عنه - مثله ﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ﴾ غني، ذو سعة، لا يرزؤه إغناء الخلاق ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقيل: في الآية دليل على أن تزويج النساء والأيامى إلى الأولياء، كما أن تزويج العبيد والإماء إلى الموالى. قلنا: الرجل لا يلي على الرجل الأيم إلا بإذنه، فكذا لا يلي على المرأة إلا بإذنها؛ لأن الأيم ينتظمها.

٣٣ - ﴿وَلَسْتَ عَفِيفٌ الَّذِينَ﴾ وليجتهدوا في العفة، كأن المستعفّ طالب من نفسه العفاف. ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استطاعة تزوج من المهر، والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ حتى يقدرهم على المهر والنفقة. قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٢). فانظر كيف ربّ هذه الأوامر،

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢٨٢).

(٢) رواه أحمد (٣٧٨/١) والبخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠) (٢٠١).

وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ
مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ

فأمر أولاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد عن واقعة المعصية، وهو غضّ البصر، ثم بالنكاح المَحْصَن للدين المغني عن الحرام، ثم بعزة النفس الأمانة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: المالكين الذين يطلبون الكتابة، ف«الذين»: مرفوع بالابتداء، أو: منصوب بفعل يفسره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. وهو للندب. ودخلت الفاء لتضمّنه معنى الشرط. والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة، وهو أن يقول لمملوكه: كاتبك على ألف درهم، فإن آذاها عتق، ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو: كتبت عليك الوفاء بالمال، وكتبت عليّ العتق. ويجوز حالاً، ومؤجلاً، ومنجماً، وغير منجم لإطلاق الأمر ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قدرة على الكسب، أو: أمانة وديانة. والندبية معلقة بهذا الشرط ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين، وإعطائهم سهمهم من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وعند الشافعي: - رحمه الله - معناه: حطّوا من بدل الكتابة ربعاً. وهذا عندنا على وجه الندب. والأول الوجه؛ لأن الإيتاء هو التملك، فلا يقع على الخط. سأل صبيح مولاه حويطباً أن يكاّته فأبى، فنزلت.

واعلم أنّ العبيد أربعة: قنّ مقتنى للخدمة، ومأذون في التجارة، ومكاتب، وآبق. فمثال الأول: وليّ العزلة الذي حصل العزّ له بإيثار الخلوة، وترك العشرة. والثاني: وليّ العشرة، فهو نجيّ الحضرة، يخاطب الناس للخبرة، وينظر إليهم بالعبرة، ويأمرهم بالغيرة، فهو خليفة رسول الله ﷺ يحكم بحكم الله، ويأخذ الله، ويعطي في الله، ويفهم عن الله، ويتكلّم مع الله، فالدنيا سوق تجارته، والعقل رأس بضاعته، والعدل في الغضب والرضا ميزانه، والقصد في الفقر والغنى عنوانه، والعلم مَفْزَعُهُ ومنجاءه، والقرآن كتاب الإذن من مولاه، فهو كائن في الناس بظواهره، بائن منهم بسرّائه، فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطناً، ثم وصلهم فيما لهم عليه الله ظاهراً.

وَلَا تَكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

وما هو مِنْهُمْ بِالْعِيشِ فِيهِمْ ولكن معدن الذهب الرِّغَامُ ^(١) يأكل ما يأكلون، ويشرب ما يشربون، وما يدرهم أنه ضيف الله، يرى السموات والأرض قائمات بأمره، وكأنه قيل فيه:

فإن تفق الأنعام وأنت منهم فإنَّ المسك بعضُ دم الغزال فحال وليّ العزلة أصفى وأحلى، وحال وليّ العشرة أوفى وأعلى. ونَزَلَ الأوّل من الثاني في حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان. أما النبي ﷺ فهو كريم الطرفين، ومعدن الشَّدَرَيْنِ ^(٢)، ومجمع الحالين، ومنبع الزلاّين، فباطن أحواله مهتدي وليّ العزلة، وظاهر أعماله مقتدي وليّ العشرة. والثالث: المجاهد، المحاسب، العامل، المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب في اليوم والليّلة خمس، وفي المتّين خمسة، وفي السنة شهر، وفي العمر زورة؛ فكأنّه اشترى نفسه من ربّه بهذه النجوم المرتّبة، فيسعى في فكّك رقبتك خوفاً من البقاء في ريقه العبوديّة، وطمعاً في فسحة الحرّيّة، ليسرح في رياض الجنّة، فيتمتّع بمناءه، ويفعل ما يشاؤه ويهواه. والرابع: الأباقي، فما أكثرهم! فمنهم القاضي الجائر، والعالم غير العامل، والقراء المرائي، والواعظ الذي لا يفعل ما يقول، ويكون أكثر أقواله فضول، وعلى كلّ من لا يُنفعه نُصُول، فضلاً عن السارق، والزاني، والغاصب. فعنهم أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ لَيَنْصُرُ هَذَا الدِّينَ بِقَوْمٍ لَا خِلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ» ^(٣) ﴿وَلَا تَكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾ كان لابن أبي ستّ جوار: معاذة، ومُسَيْلَة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، يكرههنّ على البغاء، وضرب عليهنّ الضرائب، فشكت ثنتان منهنّ إلى رسول الله ﷺ، فتزلت. ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة. والبغاء: الزنى للنساء خاصّة. وهو مصدر البغي ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً عن الزنى. وإنّما قيده بهذا الشرط؛ لأنّ الإكراه لا يكون إلّا مع إرادة التحصّن. فأمر الطّيعة للبغاء

(١) الرِّغَام - بالفتح - : التراب.

(٢) «الشَّدَر»: صغار اللؤلؤ، وقطع الذهب.

(٣) رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات. (مجمع الزوائد ٣٠٢/٥).

لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ

لا يسمى مكرهاً، ولا أمره إكراهاً. ولأنها نزلت على سبب، فوقع النهي على تلك الصفة. وفيه توبيخ بالموالي، أي: إذا رغبنا في التحصن فأنتم أحق بذلك ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ﴿لتبتغوا﴾ بإكراههم على الزنى أجورهم، وأولادهم ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لهم. وفي مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول: لهم والله، ولعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة، وهو الذي يخاف منه التلف، فكانت آثمة. أو: لهم إذا تابوا.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الباء: حجازي، وبصري، وأبو بكر، وحامد. والمراد: الآيات التي بيّنت في هذه السورة، وأوضحت في معاني الأحكام والحدود. وجاز أن يكون الأصل مبيّناً فيها، فاتسع في الظرف. وبكسرهما: غيرهم، أي: بيّنت هي الأحكام والحدود. جعل الفعل لها مجازاً، أو: من: بين بمعنى تبين، ومنه المثل: قد بين الصبح لذي عينين ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أمثال من قبلكم، أي: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم - عليهما السلام - يعني: قصة عائشة - رضي الله عنها - ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما وعظ به من الآيات والمثل، من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ﴿وَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٢] ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ١٦] ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَن تَعُدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هم المتتقون بها، وإن كانت موعظة للكل.

٣٥- نظير قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع قوله ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ ويهدي الله لنوره ﴿قولك﴾ زيد كرم وجود، ثم تقول: ينعمش الناس بكرمه وجوده. والمعنى: ذو نور السموات. ونور السموات والأرض: الحق. شبهه بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: من الباطل إلى الحق، وأضاف النور إليهما للدلالة

كَمْشَكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

على سعة إشراقه، وفشوّ إضاءته، حتّى تضيء له السموات والأرض. وجاز أنّ يُراد: أهل السموات والأرض، وأنهم يستضيئون به ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة.

وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: ﴿مثل نوره﴾ أي: نور الله الذي هدى به المؤمن. وقرأ ابن مسعود - رحمه الله - ﴿مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة﴾. وقرأ أبي: ﴿مثل نوره المؤمن﴾ ﴿كَمْشَكُوفٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي: الكوة في الجدار غير النافذة ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ أي: سراج ضخم، ثاقب ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من زجاج. شامي: أزهَر ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء، بضم الدال وتشديد الياء، منسوب إلى الدرّ؛ لفرط ضيائه، وصفائه. وبالكسر والهمزة: أبو بكر، وعليّ، كأنه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمزة: أبو بكر، وحمزة. شبّها في زهرته بأحد الكواكب الداروي، كالمشتري، والزهرة، ونحوهما ﴿يُوقَدُ﴾^(١) ﴿تَوَقَّدُ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: الزجاجة و﴿يُوقَدُ﴾ بالتخفيف: شامي، ونافع، وحفص، و﴿تَوَقَّدُ﴾: مكّي، وبصري، أي: هذا المصباح ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي: ابتداء توقّده من شجرة الزيتون، يعني: رُوِيَتْ زبالتة^(٢) بزيتها ﴿مُبْرَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع، أو: لأنّها نبتت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم - عليه السلام - ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة نعتها ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: منبتها الشام، يعني: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل في الوسط منهما، وهو الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: ليست ممّا تطلع عليه الشمس في وقت شروقها، أو: غروبها فقط، بل تصيبها بالغداة والعشيّ جميعاً، فهي شرقيّة وغربيّة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ دهنها ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وصف الزيت بالصفاء

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تَوَقَّدُ﴾.

(٢) «زبالتة»: هي الفتيلة.

نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ

والوبيص، فإنه لتلائه يكاد يضيء من غير نار ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: هذا النور الذي شبه به الحق نور متضاعف، قد تناصر فيه: المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، حتى لم تبق بقية مما يقوي النور، وهذا لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع، فإن الضوء ينتشر فيه. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاءه. وضرب المثل يكون بدني محسوس معهود، لا بعلي غير معين ولا مشهود. فأبو تمام لما قال في المأمون:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
وقيل له: إن الخليفة فوق من مثله بهم، فقال مرتجلاً:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في التدى والباس
فإنه قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ أي: لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، أي:

يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده بإلهام من الله، أو: بنظره في الدليل ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيبين كل شيء مما يمكن أن يعلم به، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿مثل نوره﴾ أي: نور الله الذي هدى به المؤمن. وقراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: (مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة) وقرأ أبي (مثل نور المؤمن).

٣٦ - ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يتعلق بـ «مشكاة»، أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد. كأنه قيل: ﴿مثل نوره﴾ كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو: بـ «توقد»، أي: توقد في بيوت، أو: بـ «يسبح»، أي: يسبح له رجال في بيوت. و﴿فيها﴾ تكرير فيه توكيد، نحو: زيد في الدار جالس فيها. أو: بمحذوف، أي: سبّحوا في بيوت ﴿أُذِنَ اللَّهُ﴾ أي: أمر ﴿أَنْ تَرْفَعَ﴾ تبنى، ﴿وَإِذْ رَفَعُ الْبَرْهَمُ الْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أو: تعظم، من:

وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُمْ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ

الرفعة. وعن الحسن: ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ﴾ يتلى فيها كتابه، أو: هو عام في كل ذكر ﴿يُسَبِّحُ لَهُمْ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: يصلي له فيها بالغداة صلاة الفجر، وبالأصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين - وإنما وحّد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة وفي الأصال صلوات. والأصال جمع أصّل، جمع أصيل، وهو: العشيّ -.

٣٧ - ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾. ﴿يُسَبِّحُ﴾ شامي، وأبو بكر، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة، أعني: ﴿له فيها بالغدو﴾. و﴿رجال﴾ مرفوع بما دلّ عليه ﴿يسبح﴾ أي: يسبح له ﴿لَا تُلْهِيمُهُمْ﴾ لا تشغلهم ﴿تِجَارَةً﴾ في السفر ﴿وَلَا بَيْعًا﴾ في الحضر، وقيل التجارة: الشراء إطلاقاً لاسم الجنس على النوع. أو: خصّ البيع بعد ما عمّ؛ لأنه أوغل في الإلهاء من الشراء؛ لأنّ الربح في البيعة الرابحة يقين، وفي الشراء مظنون ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ باللسان والقلب ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ أي: وعن إقامة الصلاة. والتاء في إقامة عوض من الألف الساقطة للإعلال، الأصل: إقوام، فلما قلبت الواو ألفاً اجتمع ألفان، فحذفت إحداها لالتقاء الساكنين، فبقي: «إقاماً»، فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء، فأسقطت ﴿وَلِإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: وعن إيتاء الزكاة. والمعنى: لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة، أو: يبيعون، ويشترون، ويذكرون الله مع ذلك، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متأقلين، كأولياء العشرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة، و﴿يَخَافُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿تلهيهم﴾. أو: صفة أخرى لرجال ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ يبلوغها إلى الحناجر ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ بالشخوص، والزركة. أو: تقلّب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان. كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَصَرَّكَ الْيَوْمَ حَدِيدًا﴾ [ق: ٢٢].

٣٨ - ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: يسبحون ويخافون

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّالِمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَ نَفْسِهِ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ

﴿ليجزئهم الله أحسن﴾ جزاء أعمالهم، أي: ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً
﴿ويزيدهم﴾ على الثواب الموعود على العمل تفضلاً ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ﴾ أي: يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق. هذه صفات
المهتدين بنور الله، فأما الذين ضلّوا عنه فالمذكورون في قوله:

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا﴾ هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس
وقت الظهر يسربُّ على وجه الأرض، كأنه ماء يجري ﴿بِقِيَعَةٍ﴾ بقاع، أو: جمع
قاع، وهو: المنبسط المستوي من الأرض، كجيرة في جار ﴿يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ﴾
يظنه العطشان ﴿مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي: جاء إلى ما توهم أنه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ
شَيْئًا﴾ كما ظنه ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ﴾ أي: جزاء الله، كقوله: ﴿يَجِدُ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[النساء: ١١] أي: يجد مغفرته، ورحمته ﴿عِنْدَهُمْ﴾ عند الكافر ﴿فَوْقَ نَفْسِهِ
حِسَابًا﴾ أي: أعطاه جزاء عمله وافيًا كاملاً. وحد بعد تقدّم الجمع، حملاً على
كل واحد من الكفار ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه لا يحتاج إلى عدّ وعقد،
ولا يشغله حساب عن حساب، أو: قريب حسابه؛ لأنّ ما هو آت قريب. شبه
ما يعمل من لا يعتقد الإيمان، ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها
تنفعه عند الله، وتنجيه من عذابه ثم يخيب في العاقبة أمله، ويلقى خلاف
ما قدر، بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيحسبه
ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية ﴿الله عنده﴾ يأخذونه فيعتلونه إلى
جهنم، فيسقونه الحميم والغساق. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾
[الغاشية: ٣] ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. قيل: نزلت في
عتبة بن ربيعة بن أمية، كان يترهب ملتصقاً للدين في الجاهلية، فلما جاء
الإسلام كفر.

٤٠- ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ﴾ هنا كأوفى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]
﴿لُجِّيٍّ﴾ عميق، كثير الماء، منسوب إلى اللُّج، وهو: معظم ماء البحر

يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ إِذَا أَخْرَجَ
يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعُ لِمَنْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتِ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿يَغْشَاهُ﴾ يغشى البحر، أو: من فيه، أي: يعلوه، ويغطيه ﴿مَوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي: من فوق الموج موح آخر ﴿مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ من فوق الموج الأعلى سحب ﴿طُلُمْتُ﴾ أي: هذه ظلمات: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر ﴿بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ﴾ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على الموج، وظلمة السحاب على الموج ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ﴾ أي: الواقع فيه ﴿لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ مبالغة في لم يرها، أي: لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها. شبه أعمالهم أولاً في فوات نفعها، وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً. ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار. وشبهها ثانياً في ظلمتها، وسوادها؛ لكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر، والأمواج، والسحاب ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ من لم يهده الله لم يهتد. عن الزجاج. في الحديث: «خلق الله الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل».

٤١ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان في الإيقان ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعُ لِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ﴾ عطف على ﴿مَنْ﴾. ﴿صَفَقَتِ﴾ حال من الطير ﴿أي: يصفقن أجنحتهن في الهواء﴾ ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُ﴾ الضمير في ﴿علم﴾ - «كل»، أو: الله. وكذا في ﴿صلاته وتسبيحه﴾. والصلاة: الدعاء. ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة؛ التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لا يعزب عن علمه شيء.

٤٢ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه خالفهما. ومن ملك شيئاً فبتمليكه إياه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الكل.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ

٤٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ﴾ يسوق إلى حيث يريد ﴿سَحَابًا﴾. جمع سحابة. دليله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ - وتذكيره للفظ - أي: يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ متراكما بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ من فتوقه ومخارجه، جمع خلل، كجبال في جبل ﴿وَيُنْزِلُ﴾: ﴿وَيُنْزِلُ﴾ مكِّي. وبصري ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابتداء الغاية؛ لأن ابتداء الإنزال من السماء ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ للتبويض؛ لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء ﴿فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ للبيان. أو: الأوليان للابتداء، والآخره للتبويض. ومعناه: أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها. وعلى الأول مفعول ينزل: ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ أي: بعض ﴿جِبَالٍ﴾. ومعنى ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾: أن يخلق الله في السماء جبال برد، كما خلق في الأرض جبال حجر. أو: يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبلاً من ذهب ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ بالبرد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يصيب الإنسان وزرعه ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فلا يصيبه، أو: يعذب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، فلا يعذب به ﴿يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ﴾ ضوئه ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ يخطفها. ﴿يَذْهَبُ﴾ يزيد على زيادة الباء.

٤٤ - ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يصرفهما في الاختلاف طويلاً وقصراً، والتعاقب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إزجاء السحاب، وإنزال الودق والبرد، وتقلب الليل والنهار ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ﴾ لذوي العقول. وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته، حيث ذكر تسبيح من في السموات والأرض، وما يطير بينهما، ودعاءهم له، وتسخير السحاب؛ إلى آخر ما ذكر. فهي براهين لائحة على وجوده، ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر. ثم بين دليلاً آخر، فقال تعالى:

٤٥ - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾ ﴿خَالِقٍ كُلِّ﴾: حمزة، وعلي - ﴿دَابَّةٍ﴾ كل حيوان

مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا

يدب على وجه الأرض ﴿مِن مَّاءٍ﴾ أي: من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو: من ماء مخصوص وهو النطفة. ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، منها الهوام، ومنها بهائم، ومنها أناسي. وهو كقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَتُفَصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤]. وهذا دليل على أن لها خالقاً ومدبراً، وإلا لم تختلف لاتفاق الأصل. وإنما عرّف الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأن المقصود ثم: أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء، وأنه هو الأصل، وإن تخللت بينه وبينها وسائط. قالوا: إن أول ما خلق الله الماء، فخلق منه النار، والريح، والطين، فخلق من النار: الجن، ومن الريح: الملائكة، ومن الطين: آدم، ودواب الأرض. ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز، غلب المميز، فأعطي ما وراءه حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون. فمن ثم قيل: ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية، والحوت - وسمي الزحف على البطن مشياً استعارة، كما يقال في الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر. أو: على طرائق المشاكلة، لذكر الزاحف مع المشين - ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان، والطيور - ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم. وقدم ما هو أعرق في القدرة، وهو المشي بغير آلة مشي؛ من أرجل أو: غيرها، ثم المشي على رجلين، ثم المشي على أربع ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ كيف يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذر عليه شيء.

٤٦ - ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بلطفه، ومشيته ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى دين الإسلام؛ الذي يوصل إلى جنته. فالآيات لإلزام حجته.

٤٧ - لما ذكر إنزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق: فرقة صدقت ظاهراً وكذبت باطناً، وهم المنافقون، وفرقة صدقت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كذبت ظاهراً وباطناً، وهم الكافرون على هذا الترتيب. وبدأ بالمنافقين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ بالاستتھام ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله،

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

والرسول ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ يعرض عن الانقياد لحكم الله، ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مخلصين. وهو إشارة إلى القائلين: آمنا، وأطعنا، لا إلى الفريق المتولي وحده. وفيه إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان؛ لا اعتقادهم ما يعتقد هؤلاء. والإعراض - وإن كان من بعضهم - فالرضا بالإعراض من كلهم.

٤٨ - ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ - أي: إلى رسول الله؛ كقولك: أعجبني زيد وكرمه، تريد: كرم زيد - ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: فاجأ من فريق منهم الإعراض. أنزلت في بشر المنافق، وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يحجره إلى رسول الله ﷺ، والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمداً يحيف علينا.

٤٩ - ﴿وَلَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: إذا كان الحق لهم على غيرهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ حال، أي: مسرعين في الطاعة طلباً لحقهم، لا رضا بحكم رسولهم. قال الزجاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة. والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر، والعدل البحت الخالص، يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق؛ لثلاث تنزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك؛ لتأخذهم ما وجب لهم في ذمة الخصم.

٥٠ - ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو: مرتابين في أمر نبوته، أو: خائفين الحيف في قضائه. ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ

بحاله، وإنما هم ظالمون، يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم. وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثم يأبون المحاكمة إليه.

٥١ - ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعن الحسن ﴿قول﴾ بالرفع. والنصب أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف. و﴿أن﴾ يقولوا ﴿أوغل﴾، بخلاف ﴿قول المؤمنين﴾ ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ النبي ﷺ ﴿لِيُحْكَمْ﴾: يزيد، أي: ليفعل الحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بحكم الله الذي أنزل عليه ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ قوله ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمره ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٥٢ - ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في سنته ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فتليت له هذه الآية، وهي جامعة لأسباب الفوز. ﴿ويتقّه﴾ بسكون الهاء: أبو عمرو، وأبو بكر بنية الوقف. ويسكون القاف وبكسر الهاء مختلصة: حفص، وبكسر القاف والهاء غيرهم.

٥٣ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلف المنافقون بالله، وهو جهد اليمين؛ لأنهم بذلوا فيها مجهودهم. وجهد يمينه مستعار من: جهد نفسه؛ إذ بلغ أقصى وسعها. وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غاية شدتها، ووكادتها. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من قال بالله فقد جهد يمينه. وأصل: أقسم جهد اليمين: أقسم يجهد اليمين جهداً، فحذف الفعل، وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَقَضَرَبَ الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤] وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: جاهدتين أيمانهم ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرنا محمد عليه الصلاة والسلام بالخروج إلى الغزو لغزونا، أو: بالخروج من ديارنا لخرجنا ﴿قُلْ لَا تُفْسِمُوا﴾ لا تحلفوا كاذبين؛ لأنه معصية ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أمثل، وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة. مبتدأ محذوف

إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

الخبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الذي يطلب منكم ﴿طاعة معروفة﴾ معلومة لا يشك فيها، ولا يرتاب، كطاعة الخلفاء من المؤمنين، لا إيمان تقسمون بها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم ما في ضمائرهم، ولا يخفى عليه شيء من سرائرهم، وإنه فاضحكم لا محالة، ومجازيكم على نفاقكم.

٥٤ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات. وهو أبلغ في توبيختهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ يريد: فإن تولَّوْا فما ضررتموه، وإنما ضررتم أنفسكم؛ فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمَّله الله تعالى، وكلفه من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقِّي بالقبول والإذعان؛ فإن لم تفعلوا، وتولَّيتم، فقد عرَّضتم نفوسكم سخط الله، وعذابه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم، فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى. فالضرر والنفع عائدان إليكم. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وما على الرسول إلا أن يبلغ، ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في توليتكم. ﴿وَالْبَلَاغُ﴾ بمعنى التبليغ، كالأداء بمعنى التأدية. ﴿الْمُبِينُ﴾ الظاهر؛ لكونه مقروناً بالآيات، والمعجزات. ثم ذكر المخلصين فقال:

٥٥ - ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولن معه. ﴿وَمِنكُمْ﴾ للبيان. وقيل: المراد به: المهاجرون. ومن للتبويض ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض الكفار. وقيل: أرض المدينة. والصحيح: أنه عام؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل» ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ ﴿اسْتَخْلَفَ﴾: أبو بكر ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴿٥٥﴾ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ بالتخفيف؛ مكِّي، وأبو بكر ﴿٥٥﴾ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿٥٥﴾ وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء، كما فعل بني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة، وأن يمكن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام - وعمكيته: تثبيته، وتوطيده - وأن يؤمن سِرْبُهُمْ، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه. وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح. فنزلت. فقال عليه الصلاة والسلام: «لَا تَغْبِرُونَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُخْتَبِيًا لَيْسَ مَعَهُ حَدِيدَةٌ»^(١). فأنجز الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا. والقسم المتلقى باللام والنون في ﴿لَيْسَتْخَلْفَتَهُمْ﴾ محذوف، تقديره: وعدهم الله، وأقسم ﴿لَيْسَتْخَلْفَتَهُمْ﴾. أو: نُزِّلَ وَعْدُ اللَّهِ فِي التَّحَقُّقِ مَنْزِلَةً الْقِسْمِ، يُتْلَقُ بِمَا يَتْلَقِي بِهِ الْقِسْمِ، كَأَنَّهُ أَقْسَمَ اللَّهُ ﴿لَيْسَتْخَلْفَتَهُمْ﴾ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ إِنْ جَعَلْتَهُ اسْتِنْفَافًا فَلَا مَحَلَّ لَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا لَهُمْ يُسْتَخْلَفُونَ وَيُؤْمِنُونَ؟ فَقَالَ: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾. وَإِنْ جَعَلْتَهُ حَالًا عَنْ ﴿وَعْدِ اللَّهِ﴾ - أَي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم - فمحله النصب. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من فاعل يعبدون، أي: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ موخدين. ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى. ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد الموعد. والمراد: كفران النعمة؛ كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الكاملون في فسقهم، حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة، وجسروا على غمطها^(٢). قال: أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان - رضي الله عنه - فاقتلوا

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٨/١٦٠). «لا تغبرون»: لا تبغون.

(٢) «غمطها»: احتقارها.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ

بعد ما كانوا إخواناً، وزال عنهم الخوف. والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم أجمعين - لأن المسخلفين الذين آمنوا، وعملوا الصالحات هم هم.

٥٦ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوف على ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ولا يضرب الفصل وإن طال. ﴿وَمَا وَنَهُمُ النَّارُ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يدعوكم إليه. وكررت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا، فإنها من مستجلبات الرحمة. ثم ذكر الكافرين، فقال:

٥٧ - ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فائتين الله بالأمر يقدر عليهم فيها. فالتاء خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو الفاعل، والمفعولان: ﴿الذين كفروا﴾، و﴿معجزين﴾. وبالياء شامي وحمزة. والفاعل: النبي ﷺ لتقدم ذكره، والمفعولان ﴿الذين كفروا﴾ و﴿معجزين﴾. ﴿وَمَا وَنَهُمُ النَّارُ﴾ معطوف على: ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين﴾، كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ﴿وما واهم النار﴾. ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع، النار.

٥٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أمر بأن يستأذن العبيد، أو العبيد والإماء. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار. وقرئ بسكون اللام تخفيفاً. ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ في اليوم واللييلة، وهي: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينাম فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ وهي نصف النهار في القيظ؛ لأنها وقت وضع الثياب للقبولة، ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والالتحاق بثياب النوم ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أي: هي أوقات ثلاث عورات، فحذف المبتدأ والمضاف. وبالنصب كوفي غير حفص

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

بدلاً عن ﴿ثلاث مرات﴾ أي: أوقات ثلاث عورات. وسمي كل واحد من هذه الأحوال عورة؛ لأنَّ الإنسان يختلّ تستره فيها. والعورة: الخلل، ومنها: الأعور: المختلّ العين. دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر - رضي الله عنه - وقت الظهيرة وهو نائم، وقد انكشف عنه ثوبه. فقال عمر - رضي الله عنه -: ودئتُ أنَّ الله نهي عن الدخول في هذه السَّاعة إلاَّ بالإذن. فانطلق إلى النبي ﷺ وقد نزلت عليه الآية^(١). ثمَّ عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهنَّ. ثمَّ بيَّن العلة في ترك الاستئذان وراء هذه الأوقات بقوله: ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هم طوافون بحوائج البيت ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ، خبره ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾. تقديره: ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طائف ﴿على بعض﴾ فحذف طائف للدلالة ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ﴾. فيجوز أن تكون الجملة بدلاً من التي قبلها وأن تكون مبينة مؤكدة، يعني: أنَّ بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام. فلو جزم الأمر بالاستئذان في كلِّ وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوعٌ في الشرع بالنص ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: كما بيَّن حكم الاستئذان بيِّن لكم غيره من الآيات؛ التي احتجتم إلى بيانها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده.

٥٩ - ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ أي: الأحرار دون المماليك ﴿الْحُلُمُ﴾ أي: الاحتلام؛ أي: إذا بلغوا، وأرادوا الدخول عليكم ﴿فَلْيَسْتَنْذِرُوا﴾ في جميع الأوقات ﴿كَمَا اسْتَنْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال، أو: الذين ذكروا من قبلهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا

(١) قال الحافظ: هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبغوي بغير سند. (حاشية الكشف

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ
الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ
بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

بَيِّنَاتٍ غَيْرَ يُبَيِّنُكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا ﴿٥٩﴾ الآية [النور: ٢٧]. والمعنى: أَنَّ
الأطفالَ مَأْذُونٌ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ إِلَّا فِي الْعُورَاتِ الثَّلَاثِ، فَإِذَا اعْتَادَ
الأطفالُ ذَلِكَ، ثُمَّ بَلَغُوا بِالْإِحْتِلَامِ، أَوْ: بِالسِّنِّ وَجِبَ أَنْ يُقَطِّمُوا عَنْ تِلْكَ
الْعَادَةِ، وَيَحْمِلُوا عَلَى أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ كَالرِّجَالِ الْكِبَارِ؛ الَّذِينَ لَمْ
يَعْتَادُوا الدُّخُولَ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِإِذْنٍ. وَالنَّاسُ عَنْ هَذَا غَافِلُونَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: ثَلَاثُ آيَاتٍ جَعَلَهُنَّ النَّاسُ: الْإِذْنَ كُلَّهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨].
وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ: يَقُولُونَ هِيَ مَنْسُوخَةٌ، وَاللَّهُ! مَا هِيَ بِمَنْسُوخَةٍ ﴿كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَصَالِحِ الْأَنَامِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا بَيْنَ مِنَ
الْأَحْكَامِ.

٦٠ - ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ جَمْعُ قَاعِدٍ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِالنِّسَاءِ،
كَالطَّالِقِ، وَالْحَائِضِ، أَيْ: اللَّاتِي قَعْدَنَ عَنِ الْحَيْضِ وَالْوَلَدِ لِكِبَرِهِنَّ ﴿مِنْ
النِّسَاءِ﴾ حَالُ ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لَا يَطْمَعْنَ فِيهِ، وَهِيَ فِي مَحَلِّ الرِّفْعِ صِفَةٌ
لِلْمُبْتَدَأِ، وَهِيَ ﴿القَوَاعِدُ﴾، وَالْخَبَرُ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ إِنْ - وَدَخَلَتْ الْفَاءُ
لَمَّا فِي الْمُبْتَدَأِ مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ بِسَبَبِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ ﴿أَنْ يَضَعْنَ﴾ فِي أَنْ يَضَعْنَ
﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ أَيْ: الظَّاهِرَةَ كَالْمَلْحَفَةِ، وَالْجُلُبَابِ الَّذِي فَوْقَ الْخِمَارِ ﴿غَيْرَ﴾ حَالُ
﴿مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أَيْ: غَيْرِ مَظْهَرَاتِ زِينَةٍ. يَرِيدُ: الزِّينَةَ الْخَفِيَّةَ كَالشَّعْرِ،
وَالنَّحْرِ، وَالسَّاقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَيْ: لَا يَقْصِدْنَ بَوَاضِعَهَا التَّبَرُّجَ، وَلَكِنْ
التَّخْفِيفَ. وَحَقِيقَةُ التَّبَرُّجِ: تَكْلُفُ إِظْهَارِ مَا يَجِبُ إِخْفَاؤُهُ ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾
أَيْ: يَطْلُبْنَ الْعِفَّةَ عَنْ وَضْعِ الثِّيَابِ فَيَسْتَرْنَ. وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾
وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَمَّا يَعْلَنَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَقْصِدْنَ.

٦١ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قَالَ

وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
 أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ
 بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
 مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ
 أَشْتَاتًا

سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبي ﷺ وضعوا
 مفاتيح بيوتهم عند الأعمى، والمريض، والأعرج، وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن
 يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرّجون من ذلك، ويقولون: نخشى ألا تكون
 أنفسهم بذلك طيبة، فنزلت الآية رخصة لهم ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: حرج
 ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم؛ لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه
 حكم نفسه؛ ولذا لم يذكر الأولاد في الآية. وقد قال ﷺ: «أنت ومالك
 لأبيك»^(١). أو: بيوت أزواجكم، لأن الزوجين صاروا كنفس واحدة، فصار
 بيت المرأة كبيت الزوج ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ
 بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ
 مَفَاتِحُهُ﴾ جمع مِفْتح، وهو: ما يفتح به الغلق. قال ابن عباس - رضي الله
 عنهما -: هو وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته، له أن يأكل من ثمر
 ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته. وأريد بملك المفاتيح: كونها في يده، وحفظه.
 وقيل: أريد به بيت عبده؛ لأن العبد وما في يده لمولاه ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾
 يعني: أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحداً وجمعاً، وهو: من يصدقك
 في مودّته، وتصدقّه في مودّتك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه،
 وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه، فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاهم أعتقها
 سروراً بذلك، فأما الآن فقد غلب الشح على الناس، فلا يؤكل إلا بإذن
 ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع

(١) رواه أحمد (١٧٩/ ٢) وأبو داود (٢٢٩١) وابن ماجه (٢٢٩٢).

فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى
يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

شت. نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتخرجون أن يأكل الرجل وحده،
فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة. أو: في
قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، أو: تخرجوا عن
الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض
﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: فابدؤوا
بالسلام على أهلها؛ الذين هم منكم ديناً، وقرابة. أو: ﴿بُيُوتًا﴾ فارغة، أو:
مسجداً، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةٌ﴾ نصب بسلاموا؛
لأنها في معنى: تسليماً نحو: قعدت جلوساً ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره،
ومشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة، وحياة للمسلم
عليه، والمحيا من عند الله ﴿مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وصفها بالبركة والطيب، لأنها
دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تعقلوا، وتفهموا.

٦٢ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي:
الذي يجمع له الناس نحو: الجهاد، والتدبير في الحرب، وكل اجتماع في الله
حتى الجمعة والعيدين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: ويأذن لهم. ولما أراد الله
عز وجل أن يريهم عظم الجنائية في ذهاب الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير
إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع، جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه: ثالث
الإيمان بالله، والإيمان برسوله، وجعلهما كالتشبيب له، والبساط لذكره،
وذلك مع تصدير الجملة بـ «إنما»، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول،
أحاطته صلته بذلك الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده
على أسلوب آخر، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾. وضمنه شيئاً آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة

فَإِذَا أَسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ

الإيمانين، وعرض بحال المنافقين، وتسألهم لوإذا ﴿فَإِذَا أَسْتَدْنُوكَ﴾ في الانصراف ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم ﴿فَأَذِّنْ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل ألا يستأذنوه. قالوا: وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم، يظاهرونهم، ولا يتفرقون عنهم إلا بالاذن. قيل: نزلت يوم الخندق. كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان.

٦٣ - ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر، فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي. أو: لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير، والتعظيم، والصوت المخفوض ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ يخرجون قليلاً قليلاً ﴿مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ حال، أي: ملاوذين. اللواذ، والملاوذة: هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا، أي: يتسللون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة، واستتار بعضهم ببعض ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: الذين يصدون ﴿عن أمره﴾ دون المؤمنين. وهم المنافقون. يقال: خالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه دونه. والضمير في ﴿أمره﴾ لله سبحانه، أو: للرسول عليه الصلاة والسلام. والمعنى: عن طاعته ودينه. ومفعول ﴿يحذر﴾: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا، أو قتل، أو زلازل، وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرب،

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْزِلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

أو إسباغ النعم استدراجاً ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب.

٦٤ - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿ألا﴾: تنبيه على ألا يخالفوا أمر مَنْ له ﴿ما في السموات والأرض﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أدخل ﴿قد﴾ ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ويرجع تأكيد العلم إلى تأكيد الوعيد. والمعنى: أن جميع ما في السموات والأرض مختص به خلقاً، وملكاً، وعلماً، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن كانوا يجهدون في سترها؟! ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وبفتح الياء وكسر الجيم: يعقوب، أي: ويعلم يوم يردون إلى جزائه، وهو: يوم القيامة. والخطاب والغيبة في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ﴿ما أنتم عليه﴾ عاماً، و﴿يرجعون﴾ للمنافقين ﴿فَيُنْزِلُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بما أبطنوا من سوء أعمالهم، ويجازيهم حق جزائهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه خافية. وروى: أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، ففسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

١ - ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من: البركة، وهي: كثرة الخير وزيادته. ومعنى تبارك الله: تزايد خيره، وتكاثر، أو: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته، وأفعاله. وهي كلمة تعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعمل منه الماضي فحسب ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ هو مصدر فرق بين الشيتين: إذا فصل بينهما، وسُمِّي به القرآن لفصله بين الحق والباطل، والحلال والحرام، أو: لأنه لم ينزل جملة، ولكن مفروقاً مفصلاً بين بعضه وبعض في الإنزال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد، أو: الفرقان ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس. وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً، أي: خوفاً، أو: إنذاراً، كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٦].

٢ - ﴿الَّذِي﴾ رَفَعَ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو: على الإبدال من ﴿الذي نزل﴾. وجَوَزَ الفصل بين البديل والمبدل منه بقوله ﴿ليكون﴾ لأن المبدل منه صلتة ﴿نزل﴾ و﴿ليكون﴾ تعليل له، فكأن المبدل منه لم يتم إلا به، أو: نصب على المدح ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على الخلوص ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم اليهود والنصارى في عزيز والمسيح - عليهما السلام - ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

كما زعمت الثنوية ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحدث ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ وحده، لا كما يقوله المجوس والثنوية: من النور والظلمة، (وَيُزْدَانِ، وَاهْرَمَنْ) ولا شبهة فيه لمن يقول: إِنَّ اللَّهَ شَيْءٌ، ولا لمن يقول بخلق القرآن؛ لأنَّ الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعوله. على أَنَّ لفظ: ﴿شَيْءٍ﴾ اختصَّ بما يصحُّ أن يخلق بقرينة ﴿وَخَلَقَ﴾. وهذا أوضح دليل لنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد ﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه، كما أنَّه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي نزل، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا، أو: تقديره للبقاء إلى أمِدٍ قصير معلوم.

٣ - ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ الضمير للكافرين؛ لاندراجهم تحت العالمين، أو: لدلالة ﴿نَذِيرًا﴾ عليهم؛ لأنَّهم المندرون ﴿مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ أي: الأصنام ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أنَّهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية، والملك، والخلق، والتقدير عبادة عجزه، لا يقدرّون على خلق شيء وهم مخلوقون ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها، ولا جلب نفع إليها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي: إماتة ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ إحياء ﴿وَلَا تُشْورًا﴾ إحياء بعد الموت. وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها.

٤ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه، واخترعه محمد ﷺ من عند نفسه، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي: اليهود، أو: عداس، ويسار، وأبوفكيهة الرومي، قاله النضر بن الحارث ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا إخبار من الله، ردّ للكفرة، فيرجع الضمير إلى الكفار. و«جاء» يستعمل في معنى «فعل»، فيعدى تعديته. أو: حذف الجار، وأوصل الفعل، أي: بظلم وجور. وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من

وَقَالُوا اسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ اكَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٦﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٨﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا

العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب. والزور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

٥ - ﴿وَقَالُوا اسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو أحاديث المتقدمين، وما سطره؛ كرستم وغيره، جمع أسطار، أو: أسطورة كأحداثه ﴿اكَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه ﴿فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أي: تلقى عليه من كتابه ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخره. فيحفظ ما يُملَى عليه، ثم يتلوه علينا.

٦ - ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَنْزَلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم كل سر خفي في السموات والأرض، يعني: أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعليم، دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فيمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولذا استوجبوها بمكابرتهم.

٧، ٨ - ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء، وخط المصحف سنة لا تُغَيَّر، وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم؛ كأنهم قالوا: أي شيء لهذا الزاعم أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام؟! ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ حال، والعامل فيها ﴿هَذَا﴾ ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أو يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: إن صح أنه رسول الله ﷺ فما باله يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد؟! يعنون: أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش. ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يُلقى إليه من السماء، يستظهر به، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثم نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل هو منه كالمياسير، أو: ﴿نَأْكُلُ﴾ نحن،

وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

قراءة عليّ، وحزة. وحسن عطف المضارع وهو: ﴿يُلْقَى﴾ و﴿تكون﴾ على ﴿أنزل﴾ وهو ماضٍ دخول المضارع، وهو ﴿فيكون﴾ بينهما. وانتصب ﴿فيكون﴾ على القراءة المشهورة؛ لأنه جواب ﴿لولا﴾ بمعنى هلا، وحكمه حكم الاستفهام. وأراد بـ«الظالمين» بقوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ إياهم بأعيانهم، غير أنه وضع الظاهر موضع المضمّر تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا. وهم كفار قريش ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ سحر فجنّ، أو: ذا سحر، وهو: الرثة، عنوا: أنه بشر، لا ملك.

٩ - ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا﴾ يتنوّا ﴿لَكَ الْأَمْثَل﴾ أي: قالوا فيك تلك الأقوال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفترى، والمُملَى عليه، والمسحور ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يجدون طريقاً إليه.

١٠ - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ أي: تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً ممّا قالوا، وهو: أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنّات، والقصور. و﴿جَنَّاتٍ﴾ بدل من ﴿خيراً﴾. ﴿ويجعل﴾ بالرفع: مكّي، وشاميّ، وأبو بكر؛ لأنّ الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم، والرفع.

١١ - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ عطف على ما حكي عنهم، يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو: تكذيبهم بالساعة، أو: متّصل بما يليه، كأنه قال: ﴿بل كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب؟! وكيف يصدّقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها؟! ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وهبنا للمكذّبين بها ناراً شديدة الاستعار.

١٢ - ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أي: النار، أي: قابلتهم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ أي: سمعوا صوت

سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَرَفِيْرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَنَجْدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيْرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُوْنَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيْرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيْهَا مَا يَشَاءُوْنَ خَالِدِيْنَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْثُوْلًا ﴿١٦﴾

غليانها. وشبه ذلك بصوت المتغيظ، والزافر. أو: إذا رأتهم زبانيته تغيطوا، وزفروا غضباً على الكفار.

١٣ - ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ من النار ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ضيقاً: - مكى - الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة؛ ولذا وصفت الجنة بأن عرضها السموات والأرض. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه يضيق عليهم، كما يضيق الزج في الزمخ ﴿مُقَرَّنَيْنِ﴾ أي: وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، أو: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ حينئذ. ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، أي: قالوا: واثبورا! أي: تعال يا ثبور فهذا حينك. فقال لهم:

١٤ - ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَنَجْدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيْرًا﴾ أي: إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، إنما هو ثبور كثير.

١٥ - ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: المذكور من صفة النار ﴿خير﴾ ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُوْنَ﴾ أي: وعدھا، فالراجع إلى الموصول محذوف، وإنما قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولا خير في النار، توبيخاً للكفار ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ﴾ ثواباً ﴿وَمَصِيْرًا﴾ مرجعاً. وإنما قيل: ﴿كَانَتْ﴾ لأن ما وعد الله، كأنه كان لتحقيقه، أو: كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم.

١٦ - ﴿لَهُمْ فِيْهَا مَا يَشَاءُوْنَ﴾ أي: ما يشاؤون ﴿خَالِدِيْنَ﴾ حال من ضمير ﴿يشاؤون﴾. والضمير في: ﴿كَانَتْ﴾ -: ﴿مَا يَشَاءُوْنَ﴾ ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا﴾ موعوداً ﴿مَّسْثُوْلًا﴾ مطلوباً، أو: حقيقة أن يسأل، أو: قد سأله المسلمون والملائكة في دعواتهم: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿رَبَّنَا

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ
أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ
أَوْلِيَاءَ

وَأَذَلَّهُمْ جَنَّتِ عَذْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴿غافر: ٨﴾.

١٧ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ^(١) للبعث، عند الجمهور. وبالياء: مكّي، ويزيد، ويعقوب، وحفص ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد المعبودين من الملائكة، والمسيح، وعزير. وعن الكلبي: يعني: الأصنام ينطقها الله، وقيل: عام. و«ما» يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبودهم ﴿فَيَقُولُ﴾ وبالنون: شامي ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ بدل من ﴿عبادي﴾ أي: المشركين ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ والقياس: ضلّ عن السبيل، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في: هداه الطريق، والأصل: إلى الطريق، أو: للطريق. وضلّ مطاوع أضله، والمعنى: أنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق بإدخال الشبه، أم هم ضلّوا عنه بأنفسهم؟. وإنما لم يقل: أضللتهم عبادي هؤلاء، أم ضلّوا السبيل، وزيد ﴿أنتم﴾ و﴿وهم﴾ لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسؤول عنه. وفائدة سؤالهم - مع علمه تعالى بالمسؤول عنه - أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يُبَيِّنَ عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فتزيد حسرتهم.

١٨ - ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تعجب منهم مما قيل لهم، أو: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكون له نبي، أو ملك، أو غيرهما ندّاً. ثم قالوا ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ما كان يصحّ ﴿لَنَا﴾ ولا يستقيم أن نتولّى أحداً دونك، فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولّونا دونك؟! ﴿نُتَّخِذُ﴾: يزيد. و«اتخذ» يتعدّى إلى مفعول واحد نحو: اتخذ وليّاً، وإلى مفعولين، نحو: اتخذ فلاناً وليّاً، قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ﴾

(١) في الأصل المخطوط بُيِّنَتْ قراءة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾. وهي قراءة: ابن عامر، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع، وعاصم، والشنوذلي، وطلحة، والحسن، وشعبة، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢٧٧/٤).

وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ
بِمَا نَقُولُوكُمْ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا

[الأنبياء: ٢١]. وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فالقراءة الأولى من المتعدي إلى واحد وهو: ﴿من أولياء﴾ والأصل: أن نتخذ أولياء، زيدت ﴿من﴾ لتأكيد معنى النفي. والقراءة الثانية من المتعدي إلى المفعولين. فالمفعول الأول ما بني له الفعل، والمفعول الثاني: ﴿من أولياء﴾. و﴿من﴾ للتبويض، أي: لا نتخذ بعض أولياء؛ لأن «من» لا تزداد في المفعول الثاني، بل في الأول. تقول: ما اتخذت من أحد ولياً، ولا تقول: ما اتخذت أحداً من ولي ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ﴾ بالأموال، والأولاد، وطول العمر، والسلامة من العذاب ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي: ذكر الله، والإيمان به، والقرآن، والشرائع ﴿وَكَانُوا﴾ عند الله ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هلكى، جمع بائر، كعائد وعود.

١٩ - ثُمَّ يُقَالُ لِلْكَفَّارِ بِطَرِيقِ الْخُطَابِ عَدُولاً عَنِ الْغِيَةِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾. وهذه المفاجآت بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات، وحذف القول. ونظيرها: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَرْقٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] وقول القائل:

قَالُوا خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا
﴿بِمَا نَقُولُوكُمْ﴾ بقولكم فيهم: إنهم آلهة، والباء على هذا كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآلِ الْحَقِّ﴾ [ق: ٥]. والجاز والمجرور. بدل من الضمير، كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون، وعن قبل: بالباء، ومعناه: فقد كذبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. والباء على هذا كقولك: كتبت بالقلم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾^(١) أي: فما

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة «يستطيعون». وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٢٨٠).

وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو: ينصروكم، وبالتالي: حفص، أي: فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم. ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ﴾ أي: يشرك؛ لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم، يؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ فسر بالخلود في النار. وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة، والخوارج.

٢٠ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كسرت ﴿إِنْ﴾ لأجل اللام في الخبر. والجملة بعد ﴿إِلَّا﴾ صفة لموصوف محذوف، والمعنى: ﴿وما أرسلنا قبلك﴾ أحداً ﴿من المرسلين﴾ إلا آكلين وماشين. وإنما حذف اكتفاء بالجواز والمجور، أي: ﴿من المرسلين﴾ ونحوه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] أي: وما منا أحد، قيل: هو احتجاج على من قال: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ وتسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: محنة، وابتلاء. وهذا تصبيرٌ لرسول الله ﷺ عما عيّروه به من الفقر، ومشيه في الأسواق. يعني: أنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء ﴿أَنْتَصِرُونَ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم؟ وحكي أنّ بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه فخرج ضجرًا، فرأى خصيًا في مراكب ومواكب، فخطر بباله شيء، فإذا بمن يقرأ هذه الآية، فقال: بلى، نصبر ربنا. أو: جعلناك فتنة لهم؛ لأنك لو كنت غنيًا صاحب كنوز وجنان، لكان طاعتهم لك للدنيا، أو: ممزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيرًا؛ لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عالمًا بالصواب فيما يبتلى به، أو: بمن يصبر، ويجزع.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

٢١ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ﴾ لا يأملون ﴿ لِقَاءَنَا ﴾ بالخير؛ لأنهم كفره لا يؤمنون بالبعث، أو: لا يخافون عقابنا إما لأن الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف، أو: لأن الرجاء في لغة تهامة الخوف ﴿ لَوْلَا ﴾ هَلَا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ ﴾ رسلاً دون البشر، أو: شهوداً على نبوته، ودعوى رسالته ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ جهره، فيخبرنا برسالته، واتّباعه ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي: أضمرُوا الاستكبار عن الحق، وهو: الكفر، والعناد في قلوبهم ﴿ وَعَتَوْا ﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿ عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ وصف العتو بالكبر، فبالغ في إفراطه، أي: إنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم، إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو. واللام جواب قسم محذوف.

٢٢ - ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِكَةَ ﴾ أي: يوم الموت، أو: يوم البعث و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بما دلّ عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾، أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مؤكد لـ: ﴿يَوْمَ يرون﴾. أو: بإضمار اذكر، أي: اذكر ﴿يَوْمَ يرون الملائكة﴾ ثم أخبر فقال: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. ولا ينتصب بـ﴿يرون﴾؛ لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا بـ: ﴿بُشْرَى﴾ لأنها مصدر، والمصدر لا يعمل فيما قبله؛ ولأن النفي بـ﴿لَا﴾ لا يعمل فيما قبل لا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ظاهر في موضع ضمير، أو: عام تناولهم بعمومه. وهم الذين اجترموا^(١) الذنوب. والمراد: الكافرون؛ لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حراماً محزماً عليكم البشرى، أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنما البشرى للمؤمنين. والحِجْرُ: مصدر. والكسر والفتح لغتان. وقرئ بهما. وهو: من: حجره: إذا منعه، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها.

(١) «اجترموا»: اكتسبوا وارتكبوا.

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِالْغَنَمِ ﴿٢٥﴾ وَنَزَلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٦﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ

و﴿عجوراً﴾ لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: موت مائت.

٢٣ - ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ الآية، هو صفة لـ: ﴿هباء﴾، ولا قدوم هنا. ولكن مُثِّلْتُ حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه، وعصاه، فقدم إلى أشياءه، وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها، ومزقها كل ممزق. ولم يترك لها أثراً. والهباء: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس، شبه بالغبار. والمنثور: المفرق. وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع، ولا يقع به الانتفاع. ثم بين فضل أهل الجنة على أهل النار، فقال:

٢٤ - ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ تمييز. والمستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون، ويتحدثون ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم في الجنة، ولكنه سمي مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه. ورؤي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وفي لفظ: «الأحسن» تهكم به.

٢٥ - ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿تَشْفَقُ السَّمَاءُ﴾ والأصل: تشفق، فحذف التاء: كوفي، وأبو عمرو. وغيرهم: أدغمها في الشين ﴿وَالْغَنَمِ﴾ لما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام، كأنه الذي تنشق به السماء، كما تقول: شق السنام بالشفرة، وانشق بها ﴿وَنَزَلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (ونزل): مكي. و﴿تَنْزِيلًا﴾ على هذا مصدر من غير لفظ الفعل، والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد.

٢٦ - ﴿الْمَلِكُ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه ﴿الْحَقُّ﴾ نعته. ومعناه: الثابت؛

لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِبَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ
أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ

لأن كل ملك يزول يومئذ، ولا يبقى إلا ملكه ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ خبره ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدًا. يقال: عَسَرَ عليه، فهو عَسِير وعَسِر. ويفهم منه: يسره على المؤمنين. ففي الحديث: «يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلّوها في الدنيا»^(١).

٢٧ - ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ عصّ اليدين كناية عن الغيظ والحسرة؛ لأنه من روادفهما، فتذكر الرادفة، ويدلّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه. واللام في ﴿الظالم﴾ للعهد. وأريد به عُقبة لما تبين. أو: للجنس فيتناول عُقبة وغيره من الكفار ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ الرَّسُولِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة، والجنة، وهو: الإيمان.

٢٨ - ﴿يَتَوَلَّى﴾ وقرئ ﴿يَا وَيْلَتِي﴾ بالياء، وهو الأصل؛ لأن الرجل ينادي ويلته - وهي: هُلكته - يقول لها: تعالي فهذا أوانك. وإنما قلبت الياء ألفاً كما في: صحارى، ومدارى ﴿لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ فلان كناية عن الأعلام، فإن أريد الظالم عُتْبَة؛ لما روي: أنه اتخذ ضيافة، فدعا إليها رسول الله ﷺ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، فقال له أبي بن خلف - وهو خليله -: وجهي من وجهك حرام إلا أن ترجع، فارتد؛ فالمعنى: ليتني لم اتخذ ألياً خليلاً، فكنى عن اسمه. وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعل كناية عنه. وقيل: هو كناية عن الشيطان.

٢٩ - ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله، أو: القرآن، أو: الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ من الله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ - أي: خليله. سمّاه شيطاناً؛

(١) رواه أحمد (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (١٣٩٠).

لِلْإِنْسَنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ

لأنه أضله كما يضلّه الشيطان. أو: إبليس؛ لأنه الذي حمله على مخالة المضلّ، ومخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام - ﴿لِلْإِنْسَنِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولًا﴾ هو مبالغة من الخذلان، أي: من عادته ترك من يواليه. وهذا حكاية كلام الله تعالى، أو: كلام الظالم.

٣٠ - ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ أي: محمد ﷺ في الدنيا: ﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشاً ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ متروكاً، أي: تركوه، ولم يؤمنوا به، من: الهجران. وهو مفعول ثانٍ لـ: ﴿اتخذوا﴾. وفي هذا تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه؛ لأن الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم، حل بهم العذاب، ولم يُنظَرُوا.

٣١ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: كذلك كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه، وكفأك بي هادياً إلى طريق قهرهم، والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. والعدو يجوز أن يكون واحداً وجعاً. والباء زائدة، أي: وكفى ربك هادياً. وهو تمييز.

٣٢ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قريش، أو: اليهود ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ حال من القرآن، أي: مجتمعاً، يعني: هلاً أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفريق؟! وهذا فضول من القول، وممارسة بما لا طائل تحته؛ لأن أمر الإعجاز، والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة، أو: مفزقاً، و﴿نزل﴾ - هنا - بمعنى: أنزل، وإلا كان متدافعاً بدليل: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وهذا اعتراض فاسد؛ لأنهم تحدّثوا بالآتيان بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم حتى لا ذوا بالمناسبة، وفرغوا إلى المحاربة، وبذلوا المهج، وما مالوا إلى الحجج ﴿كَذَلِكَ﴾ جواب لهم، أي: كذلك أنزل مفزقاً في عشرين سنة، أو: في ثلاث وعشرين. وذلك في ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى مدلول قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ لأن معناه:

لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ

لم أنزل عليك القرآن مفزقاً؟ فأعلم أن ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لِنَقْوِيْ بتفريقه ﴿فُؤَادَكَ﴾ حتّى تعيه، وتحفظه؛ لأنّ المتلقّن إنّما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لثبّت فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول، وتتابع الرسول؛ لأنّ قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به ﴿كذلك﴾ كأنه قال: كذلك فرقناه، ورتلناه، أي: قدرناه آية بعد آية، ووقفه عقيب وقفة، أو: أمرنا بترتيل قراءته. وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤] أي: اقرأه بترسل، وثبّت، أو: بيناه تبييناً، والترتيل: التبيين في ترسل، وثبّت.

٣٣ - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة، كأنه مثل في البطلان، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ إلّا أتيناك بالجواب الحق الذي لا محيد عنه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن معنى، ومؤدّى من مثلهم، أي: من سؤالهم. وإنما حذف من مثلهم؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه، كما لو قلت: رأيت زيداً وعمراً، وكان عمر أحسن وجهاً. فيه دليل على أنّك تريد: من زيد. ولما كان التفسير هو الكشف عما يدلّ عليه الكلام، وُضِعَ موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل: معناه: كذا وكذا. أولاً يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: ﴿هَلَّا أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً﴾ إلّا أعطيناك من الأحوال ما يحقّ لك في حكمتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه، ودلالة على صحّته، يعني: أنّ تنزيله مفزقاً، وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلّما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز من أن ينزل كلّ جملة.

٣٤ - ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ﴾ ﴿الذين﴾: مبتدأ، و﴿أولئك﴾ مبتدأ ثان، و﴿شرّ﴾ خبر ﴿أولئك﴾. و﴿أولئك﴾ مع ﴿شرّ﴾ خبر ﴿الذين﴾. أو: التقدير: هم ﴿الذين﴾، أو: أعني ﴿الذين﴾. و﴿أولئك﴾

مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ

مستأنف ﴿مَكَانًا﴾ أي: مكانة، ومنزلة، أو: مسكنًا، ومنزلًا ﴿وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ أي: وأخطأ طريقاً، وهو من الإسناد المجازي. والمعنى: أن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تصلون سبيله، وتحتقرون مكانه، ومنزلته. ولو نظرتم بعين الإنصاف، وأنتم من المسحوقين على وجوههم إلى جهنم، لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أضل من سبيله. وفي طريقته قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية. وعن النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أصناف: صنف على الدواب، وصنف على أرجلهم، وصنف على وجوههم». قيل: يا رسول الله! كيف يمشون على وجوههم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الذي مشاهم على أقدامهم، يُمشيهم على وجوههم»^(١).

٣٥ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، كما آتيناك القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ﴾ بدل، أو: عطف بيان ﴿وَزِيرًا﴾ وهو في اللغة: من يرجع إليه، ويُتَخَصَّن برأيه، من: الوزر، وهو: الملجأ. والوزارة لا تنافي النبوة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضاً.

٣٦ - ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: فرعون، وقومه. وتقديره: فذهبا إليهم، وأنذرا فكذبوهما ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ التدمير: الإهلاك بأمر عجيب. أراد اختصار القصة، فذكر أولها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصة، أعني: إلزام الحجة ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

٣٧ - ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ دمرنا ﴿قوم نوح﴾ ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً، وإدريس، وشيثاً - عليهم السلام - أو: كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم، أو:

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٦٣) والترمذي (٣١٤٢).

لِلنَّاسِ آيَةٌ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَثمودَا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونَا
بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَنْبِيْهُرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
عَلَى الْفَرِيقَةِ الْآتِيَةِ أَنْمُطَرًا مَطَرِ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا بِرُؤْسِهَا بَلْ كَانُوا لَا
يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون؛ لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم.

٤١ - ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ﴾ ﴿إِن﴾ نافية. ﴿إِلَّا هُزُؤًا﴾ اتخذ هزواً في معنى: استهزأ به. والأصل: اتخذ موضع هزؤ، أو: مهزوءاً به ﴿أَهَذَا﴾ محكي بعد القول المضمّر. و﴿هَذَا﴾ استصغار، واستهزاء. أي: قائلين: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾. والمحذوف حال. والعائد إلى ﴿الذي﴾ محذوف، أي: بعثه.

٤٢ - ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ﴿إِن﴾: خففة من الثقلية، واللام فارقة. وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وعرض المعجزات عليهم، حتى شاربوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاحهم، واستمساحهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ هو وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه، وإن طالت مدة الإمهال ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هو كالجواب عن قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال؛ إذ لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه.

٤٣ - ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي: من أطاع هواه فيما يأتي، ويذر، فهو عابد هواه، وجاعله إلهه. فيقول الله تعالى لرسوله، هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه: كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟ يروى: أَنَّ الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر، فإذا مرَّ بحجر أحسن منه ترك الأول، وعبد الثاني. وعن الحسن: هو في كل متبع هواه ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظاً تحفظه من متابعة هواه، وعبادة ما يهواه. أو: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ﴾ موكلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى، عرّفه: أَنَّ إليه التبليغ فقط.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُرْجَعْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا

٤٤ - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿أم﴾: منقطعة، معناه: بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حُقَّت بالإضراب عنها إليها، وهي: كونهم مسلوبو الأسماع والعقول؛ لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنًا، ولا إلى تدبره عقلاً، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة، والضلالة. فقد ركبهم الشيطان بالاستدلال؛ لتركهم الاستدلال. ثم هم أرجح ضلالة منها؛ لأن الأنعام تسبِّح ربها، وتسجد له، وتطيع من يعلفها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيئ إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها، ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان؛ الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهلك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنيء، والعذب الروي. فقالوا: للملائكة روح وعقل، وللبهائم نفس وهوى. والآدمي يجمع الكل ابتلاء. فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام، وإن غلبه الروح والعقل فضل الملائكة الكرام. وإنما ذكر الأكثر؛ لأن فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا حب الرياسة، وكفى به داء عضالاً، ولأن فيهم من آمن.

٤٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك، وقدرته ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: بسطه فعم الأرض. وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس في قول الجمهور، لأنه ظل ممدود لا شمس معه، ولا ظلمة. وهو كما قال في ظل الجنة: ﴿وَبَطْنٌ مَمْدُودٌ﴾ [الواقعة: ٣٠] لا شمس معه، ولا ظلمة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزول، ولا تذهبه الشمس ﴿ثُمَّ رَجَعْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ﴾ على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ لأنه بالشمس يعرف الظل، ولولا الشمس لما عرف الظل، فالأشياء تُعرف بأضدادها.

٤٦ - ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي: أخذنا ذلك الظل الممدود ﴿إِلَيْنَا﴾ إلى حيث أردنا

قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً غير عسير. أو: قليلاً قليلاً، أي: جزءاً فجزءاً بالشمس التي تأتي عليه. وجاء بـ: «ثم» لتفاضل ما بين الأمور، فكأنَّ الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم من الثاني. شبه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت.

٤٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم. والسبت: القطع. والنائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله، وحركته. وقيل: السبات: الموت، والمسبوت: الميت؛ لأنه مقطوع الحياة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ويعضده ذكر النشور في مقابلته ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ إذ النشور: انبعاث من النوم، كنشور الميت. أو: ينشر فيه الخلق للمعاش. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأنَّ في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية، ودينية، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر. وقال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشور.

٤٨ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾: الريح؛ مكي. والمراد به الجنس ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف بُشْر، جمع: بشور. ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام المطر، لأنه ريح، ثم سحب، ثم مطر. وهذه استعارة مליحة ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿طَهُورًا﴾ بليغاً في طهارته. والطهور صفة، كقولك: ماءً طهوراً أي: طاهر. واسم كقولك لما يتطهر به: طهور، كالوضوء، والوقود، لما يتوضأ به، وتوقد به النار. ومصدر بمعنى: التطهر، كقولك: تطهرت طهوراً حسناً. ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بطهور»^(١) أي: بطهارة. وما حُكي عن ثعلب: هو

(١) رواه الترمذي (١) بلفظ: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مِّيتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا

ما كان طاهراً في نفسه، مطهراً لغيره. وهو مذهب الشافعي - رحمه الله تعالى - إن كان هذا زيادة بيان لطهارته فحسن. ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُرْزَلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءٌ يُطَهِّرُكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١]. وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء. وقياسه على ما هو مشتق من الأفعال المتعدية، كقطع ومنوع، غير سديد؛ لأن بناء المفعول للمبالغة، فإن كان الفعل متعدياً فالمفعول متعد، وإن كان لازماً فلازم.

٤٩ - ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ بالمطر. ﴿بَلَدَةً مِّيتًا﴾ ذكر ﴿مِيتًا﴾ على إرادة البلد، أو: المكان ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي: ونسقي الماء البهائم والناس. و﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾: حال من: ﴿أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ﴾ أي: أنعاماً وأناسي مما خلقنا. وسقى وأسقى لغتان. وقرأ المفضل والبرجمي: ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾. والأناسي: جمع إنسي على القياس، ككرسي وكراسي، أو: إنسان، وأصله: أناسين، كسرحان وسراحين، فأبدلت النون ياء، وأدغمت. وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي؛ لأن حياتها سبب لحياتها، فقدم ما هو سبب حياتها على سقيها. وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب؛ لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها، فكأن الإنعام بسقي الأنعام كالإنعام بسقيهم. وتنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؛ لأن أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار، فيهم غنية عن سقي السماء. وأعقابهم - وهم كثير - يعيشون بماء ينزله الله من رحمته. وتنكير البلدة لأنه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء. ولما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء، وصفه بالطهور إكراماً لهم، وبياناً: أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم؛ لأن الطهورية شرط للإحياء.

٥٠ - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾: ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ حمزة، وعليّ. يريد: ولقد صرّفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل، وهو ذكر إنشاء السحاب، وإنزال القطر، ليتفكروا، ويعتبروا، ويعرفوا حق النعمة

فَأَبَیْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

فيه ويشكروا ﴿فَأَبَیْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة، وجحودها، وقلة الاكتراث لها. أو: صرّفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، والأوقات المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل، وطلّ، وجود، ورذاذ، وديمة، فأبوا إلا الكفران، وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يذكرنا صنع الله تعالى ورحمته. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله يُصَرِّفُهُ حيث يشاء. وقرأ الآية. وروى: أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام؛ لأنه لا يختلف، ولكن يختلف فيه البلاد. وينتزع من هنا جواب في تنكير البلدة، والأنعام، والأناسي. ومن نسب الأمطار إلى الأنواء، وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله تعالى: كفر، وإن رأى أن الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات، ودلالات عليها: لم يكفر.

٥١، ٥٢ - ﴿لَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لو شئنا لحققنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، ولبعثنا في كل قرية نبياً ينذرها، ولكن شئنا أن نجتمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين، فقصرنا الأمر عليك، وعظمتناك به، فتكون وحدك ككلهم - ولذا خوطب بالجمع ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] فقابل ذلك بالشكر، والتشدد، والتصبر، ولا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم، ومداهنتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فأثر رضائي على جميع الأهواء. وأريد بهذا تهيبه، وتهيب المؤمنين، وتحريكهم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ بالله، يعني: بعونه وتوفيقه - أو: بالقرآن، أي: جادلهم به، وقرّعهم بالعجز عنه - ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق. ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿به﴾ إلى مادلّ عليه ﴿لَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١] من كونه نذير كافة القرى؛ لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات، فكبر جهاده من أجل ذلك، وعظم. فقال له: ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ جامعاً لكل مجاهدة.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٥٣) ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (٥٤) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (٥٥) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٥٦) ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾

٥٣ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ خلاهما متجاورين، متلاصقين. تقول: مرجت الدابة: إذا خلقتها ترعى، وسمى الماءين الكثيرين الواسعين: بحرين ﴿ هَذَا ﴾ أي: أحدهما ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ صفة لـ: ﴿ عذب ﴾، أي: شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ صفة لـ: ﴿ ملح ﴾، أي: شديد الملوحة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حائلًا من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمازج، فهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقة منفصلان ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ وسترًا ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

٥٤ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ ﴾ أي: النطفة ﴿ بَشَرًا ﴾ إنساناً ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أراد تقسيم البشر قسمين: ذوي نسب، أي: ذكوراً ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر، أي: إنثاء يصاهر بهن، كقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ بَيْنَهُ الْزَوَّجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ [القيامة: ٣٩] ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين: ذكراً وأنثى. وقيل: ﴿ فجعله نسباً ﴾ أي: قرابة ﴿ وصِهْرًا ﴾ مصاهرة، يعني: الوصلة بالنكاح. منْ بالأنساب؛ لأن التواصل يقعُ بها، وبالمصاهرة؛ لأن التوالد يكون بهما.

٥٥ - ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ إن عبده ﴿ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إن تركوه ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ﴾ على معصية ربه ﴿ ظَهِيرًا ﴾ معيناً ومظاهراً. وفعل بمعنى مفاعل، غير عزيز. والظهير والمظاهر، كالعوين والمعاون. والمظاهرة: المعاونة. والمعنى: أن الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الرحمن.

٥٦ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ منذراً للكافرين.

٥٧ - ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التبليغ ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جُعِلَ مثاله ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾

أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْهِمَىٰ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ
وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ

أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ والمراد إلا فعل من شاء، واستثناءه من الأجر قول ذي
شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعت،
إلا أن تحفظ هذا المال، ولا تضيعه. فليس حفظك المال لنفسك من جنس
الثواب، ولكن صورته بصورة الثواب كأنه يقول: إنَّ حفظك مالك بمنزلة
الثواب لي، ورضائي به كرضا الماثب بالثواب. ولعمري إنَّه عليه الصلاة
والسلام مع أمته بهذا الصدد. ومعنى اتَّخَذَهُمْ إِلَى اللَّهِ سَبِيلًا: تقربهم إليه
بالإيمان، والطاعة، أو: بالصدقة، والنفقة. وقيل: المراد لكن ﴿من شاء أن
يَتَّخِذَ﴾ بالإنفاق ﴿إِلَى﴾ رضا ﴿رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ فليفعل. وقيل: تقديره: لا أسألكم
على ما أَدْعُوكم إليه أجراً إلا اتَّخَذَ المدعو سَبِيلًا إِلَى رَبِّهِ بطاعته، فذلك أجري؛
لأنَّ الله يأجرني عليه.

٥٨ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْهِمَى الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ اتخذ من لا يموت وكيلاً، لا يكلك
إلى من يموت ذليلاً، يعني: ثق به، وأسند أمرك إليه في استكفاء شرورهم،
ولا تتكل على حيٍّ يموت. وقرأها بعض الصالحين فقال: لا يصحّ لذي عقل أن
يثق بعدها بمخلوق. والتوكل: الاعتماد عليه في كلِّ أمر ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزَّهه عن
أن يكل إلى غيره مَنْ تَوَكَّلَ عليه ﴿بِحَمْدِهِ﴾ بتوفيقه الذي يوجب الحمد، أو:
قل: سبحان الله وبحمده. أو: نزَّهه عن كلِّ العيوب بشيءٍ ثني عليه ﴿وَكَفَىٰ
بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي: كفى الله خبيراً بذنوب عباده، يعني: أنَّه خبير
بأحوالهم، كافٍ في جزاء أعمالهم.

٥٩ - ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدَّة مقدارها
هذه المدَّة؛ لأنَّه لم يكن حينئذٍ ليل ونهار. وعن مجاهد: أولها يوم الأحد وآخرها
يوم الجمعة. وإنَّما خلقها في ستة أيَّام، وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة،
تعليماً لخلق الرفق، والتبشيت ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ أي: هو
﴿الرحمن﴾. فالرحمن: خبر مبتدأ محذوف، أو: بدل من الضمير في ﴿استوى﴾،

فَسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا
وَزَادَهُمْ ثُغُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا

أو: ﴿الذي خلق﴾: مبتدأ، و﴿الرحمن﴾: خبره ﴿فَسْتَلِّ﴾ وبلا همزة: مكّي، وعليّ ﴿بِهِ﴾ صلة ﴿سَلِّ﴾، كقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] كما تكون «عن» صلته في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] فسأل به، كقولك: اهتم به، واشتغل به، وسأل عنه، كقولك: بحث عنه، وفتش عنه. أو: صلة ﴿خَيْرًا﴾ ويكون ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ﴿سَلِّ﴾، أي: ﴿فاسأل﴾ عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته، أو: ﴿فاسأل﴾ رجلاً ﴿خَيْرًا﴾ به، وبرحمته. أو: الرحمن: اسم من أسماء الله تعالى مذكور في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يعرفونه، فقيل: فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره. ومن ثم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة، يعنون: مسيلمة، وكان يقال له: رحمان اليمامة.

٦٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: إذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ صلّوا لله، واخضعوا له ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ أي: لا نعرف الرحمن فسجد له. فهذا سؤال عن المسمّى به؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بـ: «ما»، أو: عن معناه؛ لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم، كما استعمل الرحيم، والراحم، والرحوم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ للذي تأمرنا بالسجود له، أو: لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منا به. ﴿يَأْمُرُنَا﴾: عليّ وحزمة، كأنّ بعضهم قال لبعض: ﴿أنسجد لما يأمرنا﴾ محمد، أو: ﴿يأمرنا﴾ المسمّى بالرحمن، ولا نعرف ما هو؟ وقد عاندوا؛ لأنّ معناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة؛ لأنّ إعلان من أبنية المبالغة، تقول: رجل عطشان؛ إذا كان في نهاية العطش ﴿وَزَادَهُمْ﴾ قوله: ﴿اسجدوا للرحمن﴾ ﴿ثُغُورًا﴾ تباعداً عن الإيمان.

٦١ - ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هي منازل الكواكب السبعة السيارة، لكلّ كوكب بيتان يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت، وللقمر بيت. فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا

وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوث بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع، فيصيب كل واحد منها ثلاثة بروج: فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوث مثلثة مائية. سميت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها. واشتقاق البروج من التبرج؛ لظهوره. وعنه قال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج: هي النجوم الكبار لظهورها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في السماء ﴿سِرَاجًا﴾ يعني: الشمس لتوقدها. ﴿سُرْجًا﴾: حمزة، وعلي، أي: نجومًا ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ مضيئًا بالليل.

٦٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ فعلة، من: خلف، كالركبة من: ركب. وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما ذوي خلف، يخلف أحدهما الآخر عند مضيئه، أو: يخلفه في قضاء ما، فإنه من الورد ﴿لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يتدبر في تسخيرهما، واختلافهما، فيعرف مدبرهما. ﴿يَذَّكَّرَ﴾: حمزة، وخلف، أي: يذكر الله. أو: المنسي فيقضي ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: يشكر نعمة ربه عليه فيهما.

٦٣ - ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾. أو: ﴿أولئك يميزون﴾ و﴿الذين يمشون﴾ وما بعدهما: صفة. والإضافة إلى ﴿الرحمن﴾ للتخصيص والتفضيل. وصف أولياءه بعد ما وصف أعداءه ﴿عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ حال، أو: صفة للمشي، أي: هينين، أو: مشياً هيناً. والهون: الرفق، واللين، أي: يمشون بسكينة، ووقار، وتواضع، دون مرح، واختيال، وتكبر، فلا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً؛ ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، ولقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سداداً من القول

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا

يسلمون فيه من الإيذاء، والإثم، أو: تسلماً منكم نتارككم، ولا نجاهلكم، فأقيم السلام مقام التسليم. وقيل: نسختها آية القتال، ولا حاجة إلى ذلك، فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة. هذا وصف نهارهم. ثم وصف ليلهم بقوله:

٦٤ - ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ جمع ساجد ﴿وَقِيَمًا﴾ جمع قائم. فالبيتوتة خلاف الظلول، وهي: أن يدركك الليل نمت أو لم تنم. وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة، وإن قل، فقد بات ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء. والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل، أو: أكثره.

٦٥ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ هلاكاً لازماً. ومنه: الغريم؛ لملازمته. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيداناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون، مبتهلون، متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم.

٦٦ - ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: إن جهنم. و﴿سَاءَتْ﴾ في حكم بثست، وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿مستقراً﴾ والمخصوص بالذم محذوف، معناه: ﴿سَاءَتْ مستقراً ومقاماً﴾ هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إن» وجعلها خبراً لها. أو: بمعنى: أحزنت، وفيها ضمير اسم «إن» و﴿مستقراً﴾ حال، أو: تمييز. ويصح أن يكون التعليلان متداخلين، ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله تعالى، وحكاية لقولهم.

٦٧ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ لم يجاوزوا الحد في النفقة، أو: لم يأكلوا للتنعم، ولم يلبسوا للتصلف. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم ينفقوا في المعاصي. فالإسراف مجاوزة حد الأمر، لا مجاوزة القدر. وسمع رجل رجلاً

وَلَمْ يَقْتُلُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفُ

يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير. وقال ﷺ: «من منع حقاً فقد قتر، ومن أعطى في غير حق فقد أسرف» ﴿وَلَمْ يَقْتُلُوا﴾ بضم التاء: كوفي. وبضم الياء وكسر التاء: مدني، وشامي. ويفتح الياء وكسر التاء: مكّي، وبصري. والقتر، والإقتار، والتقتير: التضييق؛ الذي هو نقيض الإسراف ﴿وَكَانَ﴾ أي: إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: الإسراف، والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ عدلاً بينهما. فالقوام: العدل بين الشئين، والمنصوبان أي: «بين ذلك قواماً» خبران. وصفهم بالقصد؛ الذي هو بين الغلو والتقصير. وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] الآية. وسأل عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته. فقال: الحسنة بين السّيتين، فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية. وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة، ولكن لسدّ الجوعة، وستر العورة، ودفع الحرّ والقرّ. وقال عمر - رضي الله عنه -: كفى سرفاً ألا يشتهي رجل شيئاً إلا أكله.

٦٨ - ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا يشركون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حرّمها، يعني: حرّم قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بقود، أو: رجم، أو: ردة، أو: شرك، أو: سعي في الأرض بالفساد. وهو متعلق بالقتل المحذوف، أو: بـ: لا يقتلون ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين، تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين طهّهم الله مما أنتم عليه ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء الإثم.

٦٩ - ﴿يُضَاعَفُ﴾ بدل من ﴿يَلْقَ﴾ لأنهما في معنى واحد؛ إذ مضاعفة العذاب هي لِقَى الآثام، كقوله:

لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَكَّنًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

متى تَأْتِنَا تَلِمُمْ بنا في ديارنا تجدُ حَطْبًا جزلاً وناراً تَأْجَجَا^(١) فجزم «تلمم» لأنه بمعنى تأتتا؛ إذ الإتيان هو الإلمام ﴿يُضَعَّفُ﴾: مكّي، ويزيد، ويعقوب ﴿يُضَعَّفُ﴾: شاميّ ﴿يُضَاعَفُ﴾: أبو بكر على الاستئناف، أو: على الحال. ومعنى: يضاعف ﴿لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يعذب على مرور الأيام في الآخرة عذاباً على عذاب. وقيل: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك، عذب على الشرك، وعلى المعاصي جميعاً، تضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ﴿وَيُخْلَدُ﴾ جزمه جازم ﴿يضاعف﴾ ورفع رافعه؛ لأنه معطوف عليه ﴿فِيهِ﴾ في العذاب (فيه) : مكّي، وحفص بالإشباع. وإنما خص حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد، والعرب تمدّ للمبالغة، مع أنّ الأصل في هاء الكناية: الإشباع ﴿مُهَكَّنًا﴾ حال، أي: ذليلاً.

٧٠ - ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك. وهو استثناء من الجنس في موضع النصب ﴿وَأَمَنَ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: يوفقهم للمحاسن بعد القبائح، أو: يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان والطاعة، ولم يرد به: أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن المراد ما ذكرنا. ﴿يُبَدِّلُ﴾ مخففاً: البرجمي ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يكفر السيئات ﴿رَحِيمًا﴾ يبدلها بالحسنات.

٧١ - ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: ﴿ومن تاب﴾ وحقّق التوبة بالعمل الصالح فإنه بذلك تائب ﴿إلى الله متاباً﴾ مرضياً عنده، مكفراً للخطايا، محصلاً للشواب.

٧٢ - ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: الكذب، يعني: ينفرون عن محاضر الكذابين، ومجالس الخطّائين، فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله؛

وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

إذ مشاهدة الباطل شركة فيه. وكذلك النظارة إلى ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم؛ لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا، وسبب وجود الزيادة فيه. وفي مواضع عيسى - عليه السلام -: إياكم ومجالسة الخاطئين. أو: ﴿لا يشهدون﴾ شهادة ﴿الزور﴾ على حذف المضاف. وعن قتادة: المراد: مجالس الباطل. وعن ابن الحنفية: لا يشهدون اللهو، والغناء ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ بالفحش، وكل ما ينبغي أن يلغى، وي طرح. والمعنى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بـ﴾ أهل ﴿اللغو﴾ والمشتغلين به ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين، مكرمين أنفسهم عن التلوث به، كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] وعن الباقر - رحمه الله -: إذا ذكروا الفروج كنوا عنها.

٧٣ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قرء عليهم القرآن، أو: وعظوا بالقرآن ﴿لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذا ليس بنفي للخور، بل هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، ونحوه: لا يلقيان زيد مسلماً، هو نفي للسلام لا للقاء، يعني: أنهم إذا ذكروا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ سامعين بأذان واعية، مبصرين بعيون راعية لما أمروا به ونهوا عنه، لا كالمنافقين وأشباههم. دليله قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَوَجَعَيْنَا إِذَا نُنَادِيهِمْ عَلَيْهِمْ أَهْلُ السُّجُودِ﴾ [مريم: ٥٨].

٧٤ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ من: للبيان، كأنه قيل: ﴿هب لنا﴾ قرّة أعين. ثم بينت القرّة، وفسرت بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾. ومعناه: أن يجعلهم الله لهم ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد. أو: للابتداء، على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة، وصلاح. ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ أبو عمرو، وكوفي غير حفص، لإرادة الجنس، وغيرهم: ﴿ذُرِّيَّاتِنَا﴾ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ إنما نكر لأجل تنكير القرّة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قال: هب لنا منهم

وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيْةً وَسَلَامًا ﴿٧٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٧﴾ قُلْ مَا يَعْجُزُ يَكُذِّبُ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ

سروراً، وفرحاً. وإنما قيل: ﴿أَعِين﴾ على القلة دون «عيون»، لأن المراد: أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] ويجوز أن يقال في تنكير ﴿أَعِين﴾: إنها أعين خاصة، وهي: أعين المتقين. والمعنى: أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً، وأعقاباً عمالاً لله تعالى، يسيرون بمكانهم، وتقر بهم عيونهم. وقيل: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى. وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أئمة يقتدون بنا في الدين، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعدم اللبس. أو: واجعل كل واحد منا إماماً. قيل: في الآية ما يدل على أن الرئاسة في الدين يجب أن تطلب، ويرغب فيها.

٧٥ - ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أي: الغرفات، وهي: العلالى في الجنة، فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس، دليله: قوله: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أذى الكفار، ومجاهدتهم، وعلى الفقر، وغير ذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: كوفي، غير حفص ﴿مَنَاجِيْةً﴾ دعاء بالنعيم ﴿وَسَلَامًا﴾ ودعاء بالسلامة، يعني: أن الملائكة يحيتونهم، ويسلمون عليهم، أو: يحيي بعضهم بعضاً، ويسلم عليه.

٧٦ - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿حَسُنَتْ﴾ أي: الغرفة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ موضع قرار، وإقامة. وهي في مقابلة ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

٧٧ - ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُ يَكُذِّبُ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ متضمنة لمعنى الاستفهام، وهي في محل النصب. ومعناه: ما يصنع بكم ربِّي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، أو: لولا عبادتكم له، أي: أنه خلقكم لعبادته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: الاعتبار عند ربكم لعبادتكم، أو: ما يصنع

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ رسولي يا أهل مكة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ أي: ذا لزام، أو: ملازماً. وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل. وقال الضحاك: ﴿ما يعبأ﴾: ما يبالي بمغفرتكم ﴿لولا دعاؤكم﴾ معه إلهاً آخر.

* * *

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّر ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

١ - ﴿طسّر﴾ و﴿طس﴾ و﴿يس﴾ و﴿حم﴾ مُمَالٌ: كوفي غير الأعشى، والبرجمي، وحفص. ويظهر النون عند الميم: يزيد، وحمة. وغيرهما: يدغمها.
٢ - ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه، وصحة أنه من عند الله، والمراد: به: السورة، أو: القرآن. والمعنى: آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾.

٣ - ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتلٌ، و«لعل» للإشفاق ﴿نَفْسَكَ﴾ من الحزن، يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو: لامتناع إيمانهم، أو: خيفة ألا يؤمنوا.

٤ - ﴿إِنْ نَشَأْ﴾ إيمانهم. ﴿نُزِيلٌ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً﴾ دلالة واضحة ﴿فَظَلَّتْ﴾ أي: فتظلل؛ لأن الجزء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل، تقول: إن زرتني أكرمتك، أي: أكرمك، كذا قاله الزجاج ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ رؤسائهم، ومقدموهم، أو: جماعاتهم. يقال: جاء عنق من الناس، لفوج منهم ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ منقادين. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلت فينا وفي بني أمية، فستكون لنا عليهم الدولة، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة، ويلحقهم هوان بعد عزّتهم.

٥ - ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: وما يجدد لهم الله

فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَسْقُونَ ﴿١١﴾

بوحيه موعظة وتذكيراً، إلا جددوا إعراضاً عنه، وكفراً به.

٦ - ﴿فَقَدْ كَذَبُوا﴾ محمداً ﷺ فيما اتاهم به ﴿فَسَيَاتِهِمْ﴾ فسيعلمون ﴿أَنْبَتُوا﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وهذا وعيد لهم، وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر، ويوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله؛ التي كانت خافية عليهم.

٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا﴾ ﴿كم﴾: نصب بأنبتنا ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود، كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام، كالرجل الكريم الذي نفعه عام. وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة: أن كلمة «كل» تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و«كم» تدل على أن هذا المحيط متكاثراً، مفرط الكثرة. وبه نبه على كمال قدرته.

٨، ٩ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن في إنبات تلك الأصناف لآية على أن منبتها قادر على أحياء الموتى، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مَرْجُو إيمانهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن آمن منهم. ووحد آية مع الإخبار بكثرتها؛ لأن ذلك مُشار به إلى مصدر أنبتنا، أو: المراد إن في كل واحد من تلك الأزواج لآية أي آية.

١٠، ١١ - ﴿وَإِذْ﴾ مفعول به، أي: اذكر إذ ﴿نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ﴾ «أن» بمعنى: أي ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، وبني إسرائيل بالاستعباد، وذبح الأولاد. سَجَل عليهم بالظلم، ثم عطف ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عليهم عطف البيان، كأن معنى ﴿القوم الظالمين﴾ وترجمته: ﴿قوم فرعون﴾ وكانت عبارتان تعتقان على مؤدَى واحد ﴿الْأَيُّقُونَ﴾ أي: اتتهم زاجراً، فقد أن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حث وإغراء، ويحتمل أنه حال من الضمير في ﴿الظالمين﴾ أي: يظلمون غير متقين الله، وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

١٢، ١٣ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ﴾ الخوف: غم يلحق الإنسان لأمر سيّقع ﴿أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بتكذيبهم إيتي. مستأنف، أو: عطف على ﴿أَخَافُ﴾ ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأن تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال. وينصبهما يعقوب عطفاً على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾. فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير، وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ﴾ أي: أرسل إليه جبريل، واجعله نبياً يعينني على الرسالة. وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبياً بالشام، ولم يكن هذا الالتماس من موسى - عليه السلام - توفّقاً في الامتثال بل التماس عون في تبليغ الرسالة. وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر وكفى بطلب العون دليلاً على التقبّل، لا على التعلّل.

١٤ - ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ أي: تبعة ذنب بقتل القبطي، فحذف المضاف، أو: سمى تبعة الذنب ذنباً كما يُسمّى جزاء السيئة سيئة ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أن يقتلوني به قصاصاً. وليس هذا تعلّلاً أيضاً بل استدفاع للبلية المتوقعة، وفرّق من أن يقتل قبل أداء الرسالة؛ ولذا وعده بالكلاءة، والدفع بكلمة الردع. وجمع له الاستجابتين معاً في قوله:

١٥ - ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ لأنّه استدفعه بلاءهم، فوعده الله الدفع برده عن الخوف. والتمس منه رسالة أخيه، فأجابه بقوله: ﴿اذْهَبَا﴾ أي: جعلته رسولاً معك ﴿فاذهبا﴾. وعُطف ﴿فاذهبا﴾ على الفعل الذي يدلّ عليه ﴿كَلَّا﴾، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ، فاذهب أنت وهارون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مع آياتنا، وهي: اليد، والعصا، وغير ذلك ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: معكما بالعون والنصرة، ومع من أرسلتما إليه بالعلم، والقدرة ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ خبر لـ: ﴿إِنَّا﴾ و﴿مَعَكُمْ﴾ لغو. أو: هما خبران، أي: سامعون. فالاستماع في غير هذا: الإصغاء للسمع. يقال: استمع إلى حديثه، أي: أصغى إليه. ولا يجوز حمله - هاهنا - على ذلك، فحمل على السماع.

فَأْتِيَافِرْعُونَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِيَشْتَ فِينَا مِنْ عُمَرَاءِ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾

١٦ - ﴿فَأْتِيَافِرْعُونَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يُسَنَّ الرسول كما تُنِّي في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ لأنَّ الرسولَ يكون بمعنى المُرسَل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثمَّ بمعنى المُرسَل، فلم يكن بدَّ من تشيته. وجعل هنا بمعنى: الرسالة، فيستوي في الوصف به الواحد، والتشية، والجمع، أو لأنهما لاتحادهما، واتفاقهما على شريعة واحدة، كأنهما رسول واحد، أو: أريد إنَّ كلَّ واحد متا.

١٧ - ﴿أَنْ أَرْسِلَ﴾ بمعنى: أي أرسل، لتضمن الرسول معنى الإرسال، وفيه: معنى القول ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يريد: خلَّهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما، فأتيا بابه، فلم يؤذن لهما سنة، حتَّى قال البواب: إن هاهنا إنساناً يزعم أنَّه رسول ربِّ العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه. فأذيا إليه الرسالة، فعرِف فرعون موسى، فعند ذلك:

١٨ - ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾. وإنما حذف: فأتيا فرعون فقالا له ذلك اختصاراً. والوليد: الصبي؛ لقرب عهده من الولادة، أي: ألم تكن صغيراً فربيناك؟! ﴿وَلِيَشْتَ فِينَا مِنْ عُمَرَاءِ سِنِينَ﴾ قيل: ثلاثين سنة.

١٩ - ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي. فعرض إذ كان ملكاً ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي، حيث قتلت خبازي، أو: كنت على ديننا الذي تسميه كفراً. وهذا افتراء منه عليه؛ لأنَّه معصوم من الكفر، وكان يعايشهم بالتقية.

٢٠ - ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا﴾ أي: إذ ذاك ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين بأنَّها تبلغ القتل. والضالُّ عن الشيء: هو الذاهب عن معرفته، أو: الناسين، من قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فدفع وصف الكفر عن نفسه، ووضع الضالِّين موضع الكافرين. ﴿وَإِذَا﴾ جواب وجزاء معاً. وهذا الكلام وقع جواباً لفرعون، وجزاء له؛ لأنَّ قول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك﴾ معناه: أنك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم فعلتك

فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

﴿فعلتها﴾ مجازياً لك، تسليماً لقوله؛ لأنّ نعمته كانت جديرة بأن تجازى نحو ذلك الجزاء.

٢١ - ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾ إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلوني. وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ﴿إِنِّي أَلَمْلَأُ بِأَتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ﴾ [القصص: ٢٠] الآية ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ نبوة، وعلماء، وزال عني الجهل، والضلالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من جملة رسله.

٢٢ - ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كرر خبر امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله، وأبى أن تسمى نعمته إلا نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل؛ لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده، وتربيته. ولو تركهم لرباه أبواه، فكأنّ فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه، وإخراجه من حجر أبويه إذا حققت. وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيداً. ووحد الضمير في ﴿تَمُنُّهَا﴾ و﴿عَبَّدْتُ﴾ وجمع في ﴿مِنْكُمْ﴾ و﴿خِفْتُكُمْ﴾ لأنّ الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿إِنِّي أَلَمْلَأُ بِأَتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. وأما الامتنان فمنه وحده، وكذا التعبيد. ﴿وتلك﴾ إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، لا يدري ما هي إلا بتفسيرها. ومحلّ ﴿أَنْ عَبَّدْتُ﴾: الرفع عطف بيان لـ: ﴿تلك﴾، أي: تعبيدك بني إسرائيل ﴿نِعْمَةً تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾.

٢٣ - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إنك تدعي أنك رسول رب العالمين، فما صفته؟ لأنك إذا أردت السؤال عن صفة زيد، تقول: ما زيد؟ تعني: أطويل أم قصير؟ أفتيه أم طيب؟ نصّ عليه صاحب «الكشاف» وغيره.

٢٤ - ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له على وفق سؤاله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تعرفون الأشياء

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾

بالدليل، فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً، أو: إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح، نفعمكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع. والإيقان: العلم الذي يستفاد بالاستدلال، ولذا لا يقال: الله موقن.

٢٥ - ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من أشرف قومه - وهم خمسمئة رجل، عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصة -: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟! معجباً قومه من جوابه؛ لأنهم يزعمون قدمهما، وينكرون أن لهما رباً. فاحتاج موسى إلى أن يستدل بما شاهدوا حدوثه وفناءه، فاستدل حيث:

٢٦ - ﴿قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو خالقكم، وخالق آبائكم، فإن لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم. وإنما قال: ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمْ﴾ لأن فرعون كان يدعي الربوبية على أهل عصره، دون من تقدمهم.

٢٧ - ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث يزعم أن في الوجود إلهاً غيри، وكان فرعون ينكر الإلهية غيره.

٢٨ - ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم، وهذا غاية الإرشاد؛ حيث عظم أولاً بخلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته. ثم خصص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافتين وغروبها في الآخر، على تقدير مستقيم في فصول السنة، وحساب مستو من أظهر ما استدل به، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان. وقيل: سأله الفرعون عن المائنة جاهلاً عن حقيقة سؤاله، فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب، وقع عنده أن موسى حاد عن الجواب، حيث سأله عن المائنة، وهو يجيب عن ربوبيته،

قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّيِّنٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّيِّنٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾

وآثار صنعه، فقال معجباً لهم من جواب موسى: ﴿ألا تستمعون﴾؟ فعاد موسى إلى مثل قوله الأول، فجنّته فرعون زاعماً أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثاً إلى مثل كلامه الأول، مبيّناً أنّ الفرد الحقيقي، إنّما يعرف بالصفات، وأنّ السؤال عن المائنة محال. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كان لكم عقل علمتم أنّه لا تمكن معرفته إلّا بهذا الطريق. فلما تحير فرعون، ولم يتهبأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه:

٢٩ - ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي﴾ أي: غيري إلهاً ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ أي: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه، فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق، فرداً، لا يبصر فيها ولا يسمع، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قيل: لأسجنتك، لم يؤدّ هذا المعنى، وإن كان أخصر.

٣٠ - ﴿قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ﴾ الواو للحال، دخلت عليها همزة الاستفهام، أي: ﴿أ﴾ تفعل بي ذلك ولو جنتك ﴿بِشَيْءٍ مُّيِّنٍ﴾ أي: جانياً بالمعجزة.

٣١ - ﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ﴾ بالذي يبيّن صدقك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ أنّ لك بيّنة. وجواب الشرط مقدر، أي: فأحضره.

٣٢ - ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّيِّنٌ﴾ ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة، والسحر. وروى: أنها ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى! مرني بما شئت، ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلّا أخذتها. فأخذها فعادت عصا.

٣٣ - ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ فيه دليل على أنّ بياضها كان شيئاً مجتمع النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة. وكان بياضها نورياً. روي: أنّ

قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾

فرعونَ لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال لفرعون: ما هذه؟ قال فرعون: يدك. فأدخلها في إبطه، ثم نزعها، ولها شعاعٌ يكاد يغشي الأبصار، ويسد الأفق.

٣٤ - ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ﴾ هو منصوب نصيبين: نصب في اللفظ، والعامل فيه: ما يقدر في الظرف، ونصب المحلّ، وهو: النصب على الحال من الملاء، أي: كائنين حوله. والعامل فيه ﴿قَالَ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر. ثم أغرى قومه على موسى بقوله:

٣٥ - ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا﴾ منصوب؛ لأنه مفعول به، من قولك: أمرتك الخير ﴿تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أمره من حبس، أو: قتل. من: المؤامرة، وهي: المشاورة. أو: من الأمر الذي هو ضدّ النهي. لما تحير فرعون برؤية الآيتين، وزلّ عنه ذكر دعوى الإلهية، وحطّ عن منكيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائضه خوفاً، طفق يؤامر قومه الذين هم بزعمه عبيده، وهو إلهم، أو: جعلهم آمرين ونفسه مأموراً.

٣٦ - ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ آخر أمرهما، ولا تباعث قتلها خوفاً من الفتنة ﴿وَاتَّبِعْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ﴾ شرطاً يحشرون السحرة، وعارضوا قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم:

٣٧ - ﴿يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة، وصيغة المبالغة؛ ليسكنوا بعض قلقه.

٣٨ - ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: يوم الزينة. وميقاته: وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى - عليه السلام - من يوم الزينة في قوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] والميقات: ما وقت به، أي: حدّد من زمان، أو: مكان، ومنه: مواقيت الإحرام.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْفَٰلِغِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَّا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا لَنَحْنُ الْفَٰلِغِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَٰلِغُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابًا ﴿٤٦﴾

٣٩ - ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتمعوا. وهو استبطاء لهم في الاجتماع. والمراد منه: استعجالهم.

٤٠ - ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِن كَانُوا هُمْ الْفَٰلِغِينَ﴾ أي: غلبوا موسى في دينه. وليس غرضهم اتباع السحرة، وإنما الغرض الكلبي ألا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى.

٤١ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَّا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا لَنَحْنُ الْفَٰلِغِينَ﴾.

٤٢ - ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وبكسر العين: علي. وهما لغتان ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: ﴿قال﴾ فرعون: ﴿نعم﴾ لكم أجر عندي، وتكونون مع ذلك من المقربين عندي في المرتبة والجاه، فتكونون أول من يدخل علي، وآخر من يخرج. ولما كان قوله: ﴿أئنَّا لنا لأجراً﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وإنكم إذا لمن المقربين﴾ معطوفاً عليه، دخلت ﴿إذا﴾ قارة في مكانها؛ الذي يقتضيه من الجواب، والجزاء.

٤٣ - ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبته.

٤٤ - ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ﴾ سبعين ألف حبل ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ سبعين ألف عصا. وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً، وكذا العِصِيَّ ﴿وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَٰلِغُونَ﴾ أقسموا بعزته وقوته، وهو من أيمان الجاهلية.

٤٥ - ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويزورونه، فيُخِيلُونَ في حبالهم، وعصيتهم أنها حيات تسعى.

٤٦ - ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابًا﴾ عبّر عن الخور بالالإلقاء بطريق المشاكلة؛ لأنه

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾

ذكر مع الإلقاءات، ولأنهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقوا.

٤٧ - ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن عكرمة - رضي الله عنه -: أصبحوا سحرة، وأمسا شهداء.

٤٨ - ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ عطف بيان لرب العالمين؛ لأن فرعون كان يدعي الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه. وقيل: إن فرعون لما سمع منهم ﴿آمنّا بِربِّ العالمين﴾ قال: إيتاي عنيتم؟ قالوا: ﴿رب موسى وهارون﴾.

٤٩ - ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقد تواطأتم على أمر، ومكر ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبأل ما فعلتم. ثم صرح فقال: ﴿لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ من أجل خلاف ظهر منكم ﴿وَلَا صُلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأنه أراد به ترهيب العامة؛ لئلا يتبعوهم في الإيمان.

٥٠ - ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر - وخبر ﴿لَا﴾: محذوف، أي: في ذلك، أو: علينا - ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

٥١ - ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا﴾ لأن كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل الشهداء، أو: من رعية فرعون. أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا - أو: ﴿لا ضير﴾ علينا فيما نتوعدنا به - إنه لا بد لنا من الانقلاب ﴿إلى ربنا﴾ بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو: لا ضير علينا في قتلك، إنك إن قتلنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته، ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان.

٥٢ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ﴾ وبوصل الهمزة: حجازي ﴿بِعِبَادِي﴾ بني إسرائيل. سمّاهم عباده لإيمانهم بنبية، أي: سر بهم ليلاً - وهذا بعد سنين من

إِنَّا كَرَّمْتُمُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾

إيمان السحرة - ﴿إِنَّا كَرَّمْتُمُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه. علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم، يعني: إني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا، ويتبعوكم، حتى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر، فأهلكهم. وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. وروي: أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت، ثم اذبح الجداء، واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سأمر الملائكة ألا يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسأمرهم بقتل أبكار القبط، واخبزوا خبزاً فطيراً^(١)، فإنه أسرع لكم، ثم ﴿أسر بعبادي﴾ حتى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري.

٥٣ - ﴿فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ جامعين للناس بعنف. فلما اجتمعوا قال:

٥٤ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشِرْذِمَةُ: الطائفة القليلة. ذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل، فجعل كل حزب منهم قليلاً، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة. أو: أراد بالقلة: الذلة، لا قلة العدد، أي: أنهم لقلتهم لا يُبالي بهم، ولا تتوقع غلبتهم. وإنما استقل قوم موسى - وكانوا ستمئة ألف وسبعين ألفاً - لكثرة من معه. فعن الضحاك: كانوا سبعة آلاف ألف.

٥٥ - ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ أي: أنهم يفعلون أفعالاً تغيبنا، وتضيّق صدورنا، وهو خروجهم من مصرنا، وحملهم علينا، وقتلهم أبكارنا.

٥٦ - ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ شامي، وكوفي. وغيرهم: ﴿حذرون﴾. فالحذر: المتيقظ، والحاذر: الذي يحدّد حذره. وقيل: المؤدّي في السلاح. وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه، يعني: ونحن قوم من عادتنا التيقّظ، والحذر،

(١) «الفطير»: خلاف الخمير، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير.

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

واستعمال الحزم في الأمور. فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فسادة. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظن به العجز، والفتور.

٥٧ - ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار جارية.

٥٨ - ﴿وَكُنُوزٍ﴾ وأموال ظاهرة من الذهب والفضة، وسماتها: كنوزاً؛ لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى ﴿وَمَقَامٍ﴾ ومنزل ﴿كَرِيمٍ﴾ بهي بهيج. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: المنابر.

٥٩ - ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ عن الحسن: لما عبروا النهر رجعوا، وأخذوا ديارهم، وأموالهم.

٦٠ - ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ فلحقوهم - ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾: يزيد - ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال، أي: داخلين في وقت شروق الشمس، وهو: طلوعها. أي: أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس.

٦١ - ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كل فريق صاحبه. والمراد: بنو إسرائيل، والقبط ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ أي: قرب أن يلحقنا عدونا، وأمامنا البحر.

٦٢ - ﴿قَالَ﴾ موسى - عليه السلام - ثقة بوعده الله إياه ﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا عن سوء الظن بالله، فلن يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ﴾ حفص ﴿رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيهديني طريق النجاة من إدراكهم، وإضرارهم. (سيهديني) بالياء: يعقوب.

٦٣ - ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي: القلزم هو الذي يسلك الناس فيه من اليمن إلى مصر، أو: النيل ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي: ف ضرب ﴿فَانْفَلَقَ﴾ فانشق، فصار اثني عشر فرقا على عدد الأسباط ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: جزء يفرق منه ﴿كَالطَّوْدِ﴾ كالجبل المنطاد في السماء ﴿الْعَظِيمِ﴾.

وَأَرْسَلْنَا نَحْمُ الْآخِرِينَ ﴿١١﴾ وَأَخْبَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَكَلَّا الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا

٦٤ - ﴿وَأَرْسَلْنَا نَحْمُ الْآخِرِينَ﴾ حيث انفلق البحر ﴿الْآخِرِينَ﴾ قوم فرعون، أي: قربانهم من بني إسرائيل، أو: من البحر.

٦٥ - ﴿وَأَخْبَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من الغرق.

٦٦ - ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ فرعون وقومه. وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوائعهم. روي أن جبريل - عليه السلام - كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، وكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط ويقول: رويدكم يلحق آخركم. فلما انتهى موسى إلى البحر، قال يوشع لموسى: أين أمرت؟ فهذا البحر أمامك، وغشيك آل فرعون. قال موسى: هاهنا فخاض يوشع الماء، وضرب موسى بعصاه البحر، فدخلوا. وروي: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء.

٦٧ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما فعلنا بموسى وفرعون ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة عجيبة لا توصف ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: المغرقين ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ قالوا: لم يؤمن منهم إلا آسية، وحزقيل مؤمن آل فرعون، ومريم التي دلت موسى على قبر يوسف.

٦٨ - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَكَلَّا الْعَزِيزُ﴾ بالانتقام من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإنعام على أوليائه.

٦٩ - ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي قريش ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ خبره.

٧٠ - ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم، أو: قوم الأب ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: شيء تعبدون. وإبراهيم - عليه السلام - يعلم أنهم عبدة الأصنام. ولكنه سألهم ليربهم أن ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة.

٧١ - ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وجواب ﴿ما تعبدون﴾: ﴿أصناماً﴾ ك: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾

فَنَظَّلْ لَهَا عَذَابًا ۖ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾
 قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَأَنْتُمْ
 وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
 يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

[سبأ: ٢٣] لأنه سؤال عن المعبود لا عن العبادة. وإنما زادوا ﴿نعبد﴾ في الجواب افتخاراً، ومباهاة بعبادتها؛ ولذا عطفوا على نعبد، ﴿فَنَظَّلْ لَهَا عَذَابًا﴾ فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنما قالوا ﴿فَنَظَّلْ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، أو: معناه: الدوام.

٧٢ - ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ﴾ هل يسمعون دعاءكم، على حذف المضاف؛ فحذف للدلالة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

٧٣ - ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكَ﴾ إن عبدتموها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها.

٧٤ - ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر، ولا نعبدها لشيء من ذلك، ولكن ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فقلدناهم.

٧٥، ٧٦ - ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أَأَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. الأولون.

٧٧ - ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ العدو والصديق يجيئان في معنى: الوحدة، والجماعة، يعني: لو عبدتهم لكانوا أعداء لي يوم القيامة، كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفراء: هو من المقلوب، أي: فأني عدو لهم. وفي قوله: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ دون «لكم» زيادة نصح؛ ليكون أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدو لكم، لم يكن بتلك المثابة ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع؛ لأنه لم يدخل تحت الأعداء، كأنه قال: لكن رب العالمين:

٧٨ - ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ بالتركيب في القرار المكين ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لمناجح الدنيا، ولمصالح الدين. والاستقبال في ﴿يهديني﴾ مع سبق العناية؛ لأنه يحتمل ﴿يهديني﴾ للآتم الأفضل. والآتم الأكمل. أو: ﴿الذي خلقني﴾ لأسباب خدمته ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى آداب خلته.

وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا
وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِ كَيْدَ ﴿٨٣﴾

٧٩ - ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي﴾ أضاف الإطعام إلى وليّ الإنعام؛ لأنّ الركون إلى الأسباب عادة الأنعام ﴿وَيَسْقِينِي﴾ قال ابن عطاء: هو الذي يحييني بطعامه، ويرويني بشرابه.

٨٠ - ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وإنما لم يقل: أمرضني؛ لأنّه قصد الذكر بلسان الشكر، فلم يُضَفْ إليه ما يقتضي الضير. ابن عطاء: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ بروية الخلق، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ بمشاهدة الحق. الصادق^(١): ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ بروية الأفعال ﴿فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ بكشف منّة الإفضال.

٨١ - ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ ولم يقل: إذا متّ لأنّه الخروج من حبس البلاء، ودار الفناء، إلى روض البقاء، لوعده اللقاء. وأدخل ﴿ثُمَّ﴾ في الإحياء؛ لتراخيه عن الإفناء. وأدخل الفاء في الهداية والشفاء؛ لأنهما يعقبان الخلق والمرض، لا معاً معاً.

٨٢ - ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ طمع العبيد في الموالى بالإفضال، لا على الاستحقاق بالسؤال ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ قيل: هو قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ﴿هَذَا رَيْبِي﴾ [الأنعام: ٧٧] للباغ. هي اختي لسارة. وما هي إلا معاريض جائرة، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

٨٣ - ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ حكمة، أو: حكماً بين الناس بالحق، أو: نبوة، لأنّ النبي - عليه السلام - ذو حكمة، وذو حكم بين عباد الله ﴿وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِ كَيْدَ﴾ أي: الأنبياء. ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّكُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) هو جعفر بن محمد الصادق، من أجلاء التابعين (ت: ١٤٨هـ) (الأعلام ١٢٦/٢).

وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِي إِنَّكَ
كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

٨٤ - ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: ثناء حسناً، وذكر أ جميلاً في الأمم
التي تحيي بعدي. فأعطي ذلك. فكل أهل دين يتولونه، ويشنون عليه. ووضع
اللسان موضع القول؛ لأن القول يكون به.

٨٥ - ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ﴾ ﴿مِنْ﴾ يتعلق بمحذوف، أي: وارثاً من ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ﴾ أي: من الباقيين فيها.

٨٦ - ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِي﴾ اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام. وكان وعده
الإسلام يوم فارقه ﴿إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الكافرين.

٨٧ - ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ الإخزاء من الخزي، وهو: الهوان. أو: من الخزية،
وهي: الحياء. وهذا نحو الاستغفار كما بينا ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير فيه للعباد؛
لأنه معلوم. أو: للضالين، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه، أي: ﴿وَلَا
تُخْزِنِي يَوْمَ﴾ يبعث الضالون، وأبي فيهم.

٨٨ - ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ﴾ هو بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الأول ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أحداً.

٨٩ - ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عن الكفر، والنفاق. وقلب الكافر والمنافق
مريض لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي: أن المال إذا صرف
في وجوه البر، وبنوه صالحون، فإنه ينفع به وبهم سليم القلب. أو: جعل المال
والبنون في معنى الغنى، كأنه قيل: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ غنى إلا غنى ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾
بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما إن غناه في دنياه
بماله، وبنيه. فقد جعل ﴿مَنْ﴾ مفعولاً لـ: ﴿يَنْفَعُ﴾، أي: ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ
وَلَا بَنُونَ﴾ إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله، حيث أنفق في طاعة الله، ومع بنيه
حيث أرشدهم إلى الدين، وعلمهم الشرائع. ويجوز على هذا: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾
بقلب سليم ﴿من فتنة المال، والبنين. وقد صوب الجليل، استثناء الخليل،
إكراماً له. ثم جعله صفة له في قوله: ﴿وَأَتَى مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ﴾
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفافات: ٨٣-٨٤]. وما أحسن ما رتب - عليه السلام - كلامه

وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُزِزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾
 مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمۢ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمۢ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَحُنُودُ إِبْلِيسَ
 أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾

مع المشركين، حيث سألهم أولاً عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم. ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر، ولا تنفع، ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة. ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم، حتى تخلص منها إلى ذكر الله تعالى، فعظم شأنه، وعدّد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته، مع ما يُرجى في الآخرة من رحمته. ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهاال الأوّيين، ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنّى الكرة إلى الدنيا، ليؤمنوا، ويطيعوا.

٩٠ - ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قربت. عطف جملة، أي: تُزَلَّفُ بين موقف السعداء فينظرون إليها.

٩١ - ﴿وَبُزِزَتْ الْجَحِيمُ﴾ أي: أظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين.

٩٢، ٩٣ - ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمۢ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ يوبخون على إشراكهم فيقال لهم: ﴿أين﴾ آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو: هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟ لأنهم وآلهتهم وقود النار.

٩٤ - ﴿فَكَبِكُوا﴾ أنكسوا، أو: طُرح بعضهم على بعض ﴿فِيهَا﴾ في الجحيم ﴿هُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ وعبدتهم الذين بزرت لهم الجحيم. والكبكة: تكرير الكت. جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذ ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها. نعوذ بالله منها.

٩٥ - ﴿وَحُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ شياطينه، أو: متبعوه من عصاة الإنس، والجن.

٩٦ - ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح

تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ اِذْ تُسَوِّىْكُمْ رَبِّبَ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٩٨﴾ وَمَا اَضَلَّنَا اِلَّا الْمُجْرِمُوْنَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شٰفِعِيْنَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صٰدِقٍ حَمِيْمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٠٢﴾ اِنْ فِيْ ذٰلِكَ لَايَةٌ وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١٠٣﴾ وَلَئِنْ رَّبِّكَ هُوَ الْعَزِيْزُ

التقاول، والتخاصم. ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة، والشياطين.

٩٧، ٩٨ - ﴿تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿اِذْ تُسَوِّىْكُمْ﴾ نعدلكم أيها الأصنام ﴿رَبِّبَ الْعٰلَمِيْنَ﴾ في العبادة.

٩٩ - ﴿وَمَا اَضَلَّنَا اِلَّا الْمُجْرِمُوْنَ﴾ أي: رؤساؤهم الذين أضلّوهم، أو: إبليس وجنوده ومن سنّ الشرك.

١٠٠ - ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شٰفِعِيْنَ﴾ كما للمؤمنين من الأنبياء، والأولياء، والملائكة.

١٠١ - ﴿وَلَا صٰدِقٍ حَمِيْمٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، إذا لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون. وأما أهل النار فبينهم التعادي: ﴿الْاِخْلَآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلَّا الْمُتَّقِيْنَ﴾ [الزخرف: ٦٧] أو: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شٰفِعِيْنَ وَلَا صٰدِقٍ حَمِيْمٍ﴾ من الذين كُتِبَ نَعْدَهُمْ شَفْعَاءَ. وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاء لهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. والحميم - من الاحتمام، وهو: الاهتمام، وهو الذي يهّمه ما يهّمك. أو: من الحامة؛ بمعنى: الخاصة، وهو الصديق الخاص. وجمع الشافع ووحد الصديق، لكثرة الشفعاء في العادة. وأما الصديق - وهو: الصادق في ودادك، الذي يهّمه ما أهتمك - فقليل. وسُئِلَ حكيم عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. وجاز أن يراد بالصديق الجمع.

١٠٢ - ﴿فَلَوْ اَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف، وهو: لفعّلنا كيت وكيت. أو: ﴿لو﴾ في مثل هذا، للتّمني - كأنه قيل: فليت لنا كربة - لما بين معني لو وليت من التلاقي.

١٠٣ - ﴿اِنْ فِيْ ذٰلِكَ﴾ فيما ذكر من الأنباء ﴿لَايَةٌ﴾ أي: لعبرة لمن اعتبر ﴿وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾ فيه: أن فريقاً منهم آمنوا.

١٠٤ - ﴿وَلَئِنْ رَّبِّكَ هُوَ الْعَزِيْزُ﴾ المنتقم ممن كذب إبراهيم بنار الجحيم

الرَّحِيمُ ﴿١٠٦﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٢﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٣﴾

﴿الرَّحِيمُ﴾ المسلم كل ذي قلب سليم إلى جنة النعيم.

١٠٥ - ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ القوم يذكر ويؤنث. قيل: وُلد نوح في زمن آدم - عليه السلام -. ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ - والمراد: نوح عليه السلام - قولك: فلان يركب الدواب، ويلبس البرود، وماله إلا دابة أو برد. أو: كانوا ينكرون بعث الرسل أصلاً؛ فلذا جمع. أو: لأن من كذب واحداً منهم، فقد كذب الكل؛ لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وكذا جميع ما في هذه السورة.

١٠٦ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً، لا ديناً ﴿نُّوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام، فتركوا عبادة الأصنام.

١٠٧ - ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ كان مشهوراً بالأمانة فيهم كمحمد ﷺ في قریش.

١٠٨ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فيما أمركم به، وأدعوكم إليه من الحق.

١٠٩ - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على هذا الأمر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أجراً ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ بالفتح: مدني، وشامي، وأبو عمرو، وحفص ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كذلك أريده.

١١٠ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ كثره ليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلّة، فعلة الأول: كونه أميناً فيما بينهم، وعلة الثاني: حسم طمعه منهم. كأنه قال: إذا عرفتم رسالتي وأمانتي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم إذا عرفتم احترازي من الأجر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

١١١ - ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الواو للحال، و«قد» مضمرة بعدها، دليله: قراءة يعقوب: (وأتباعك) جمع تابع، كشاهد وأشهد. أو: تبع، كبطل وأبطال ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ السفلة. والرذالة: الخسة، والدناءة. وإنما استرذلوهم

قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجَنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

لاتضاع نسبهم، وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنيئة. والصناعة لا تزري بالديانة. فالغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى. ولا يجوز أن يُسمى المؤمن رذلاً، وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسباً. وما زالت أتباع الأنبياء - عليهم السلام - كذلك.

١١٢ - ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ﴾ وأي شيء علمي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الصناعات، إنما أطلب منهم الإيمان.

١١٣ - وقيل: إنهم طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم، فقالوا: إن الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يظهرونه، فقال: ما عليّ إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أن الله تعالى يحاسبهم على ما في قلوبهم.

١١٤ - ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس من شأني أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم.

١١٥ - ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ما عليّ إلا أن أندرکم إنذاراً بيتاً بالبرهان الصحيح؛ الذي يتميز به الحق من الباطل، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

١١٦ - ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المقتولين بالحجارة.

١١٧ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ليس هذا بإخبار بالتكذيب؛ لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم؛ ولكنه أراد أنهم كذبوني في وحيك، ورسالتك.

١١٨ - ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا﴾ فاحكم بيني وبينهم حكماً. والفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق، كما سمي: فيصلاً؛ لأنه يفصل بين الخصومات ﴿وَنَجَنِي وَمَنْ مَعِيَ﴾ حفص ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذاب عملهم.

فَأَجْبَنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَنْتَقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَجْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَابِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

١١٩ - ﴿فَأَجْبَنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ السفينة، وجمعه: فلكٌ، فالواحد بوزن: قُفْل، والجمع بوزن: أسد ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء. ومنه: شحنة البلد، أي: الذي يملؤه كفاية.

١٢٠ - ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ﴾ بعد إنجاء نوح، ومن آمن معه ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه.
١٢١، ١٢٢ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ المتنقم بياهانة من جحد، وأصر ﴿الرَّحِيمُ﴾ المنعم بإعانة من وحد، وأقر.
١٢٣ - ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هي: قبيلة. وفي الأصل: اسم رجل، وهو أبو القبيلة.

١٢٤ - ١٢٦ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً ﴿هُودٌ أَلَا نَنْتَقُونَ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تكذيب الرسول الأمين، ﴿وَأَطِيعُوا﴾.
١٢٧، ١٢٨ - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَتَجْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ برج حمام، أو: بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مر بهم ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تلعبون.
١٢٩ - ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مأخذ الماء، أو: قصوراً مشيدة، أو: حصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود في الدنيا.

١٣٠ - ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ أخذتم أخذ العقوبة ﴿بَطَشْتُمْ جَبَابِينَ﴾ قتلاً بالسيف، وضرباً بالسوط. والجبار: الذي يقتل، ويضرب على الغضب.

١٣١ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في البطش ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أدعوكم إليه.

١٣٢ - ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من النعم. ثم عددها عليهم فقال:

أَمَذَكُم بِأَنعَمِ رَبِّينَ ﴿١٣٣﴾ وَخَلَّتْ وَعْيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
 قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا
 نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
 إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّتْ أَمْمَانُ ﴿١٤٦﴾

١٣٣ - ﴿أَمَذَكُم بِأَنعَمِ رَبِّينَ﴾ قرن البنين بالأنعام؛ لأنهم يعينونهم على حفظها، والقيام عليها.

١٣٤ ، ١٣٥ - ﴿وَخَلَّتْ وَعْيُونِ﴾ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن عصيتُموني.

١٣٦ - ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: لا نقبل كلامك، ودعوتك، وعظت أم سكّت. ولم يقل: أم لم تعظ؛ لرؤوس الآي.

١٣٧ ، ١٣٨ - ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت، واتخاذ الأبنية إلا عادة الأولين، أو: ما نحن عليه دين الأولين. ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾: مكّي: وبصري، ويزيد، وعلي. أي: ما جئت به اختلاق الأولين، وكذب المتنبيين قبلك، كقولهم: ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أو: خلّقنا كخلق الأولين، نموت ونحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ في الدنيا، ولا بعث ولا حساب.

١٣٩ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: هوداً ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بريح صرصر، عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٤٠ - ١٤٦ - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنكار لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه ﴿فِي مَا هُنَّتْ أَمْمَانُ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ﴿أَمْمَانُ﴾ من العذاب والزوال والموت. ثم فسره بقوله:

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُدُّوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمَهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْجُثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّمَّا شَرِبَ وَلَكُّمْ يَوْمَ مَقْلُومٍ ﴿١٥٥﴾

١٤٧ - ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل .

١٤٨ - ﴿وَزُدُّوعٍ وَنَخْلٍ﴾ وعطف ﴿نخل﴾ على ﴿جَنَاتٍ﴾ مع أن الجنة تتناول النخل أول شيء، تفضيلاً للنخل على سائر الشجر ﴿طَلْمَهَا﴾ هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿هَضِيمٌ﴾ لين نضيج، كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره .

١٤٩ - ﴿وَتَنْجُثُونَ﴾ تنقبون ﴿مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ﴾ : شامي، وكوفي . حاذقين، حال . وغيرهم : ﴿فَرِهِينَ﴾ أشرين . والقراءة : الكيسُ، والنشاط .

١٥٠ ، ١٥١ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الكافرين، أو : التسعة الذين عقروا الناقة . جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي - والمراد : الأمر - وهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول، كقوله : أنبت الربيع البقل .

١٥٢ - ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم، والكفر ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بالإيمان، والعدل . والمعنى : أن فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح .

١٥٣ - ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحر : الذي سُحِرَ كثيراً حتى غلب على عقله . وقيل : هو من السَّحَر : الرثة، وأنه بشر .

١٥٤ - ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة .

١٥٥ - ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّمَّا شَرِبَ﴾ نصيب من الماء، فلا تزاحمها فيه ﴿وَلَكُّمْ يَوْمَ شَرِبَ يَوْمَ مَقْلُومٍ﴾ لا تزاحكم هي فيه . روي : أنهم قالوا : نريد ناقة عُسراء تخرج

وَلَا تَسْهَوْهَا يُسَوِّوْا فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾

من هذه الصخرة فتلد سقبا^(١)، فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل - عليه السلام -: صل ركعتين، واسأل ربك الناقة. ففعل. فخرجت، ونُتجت سقبا مثلها في العظم، ومُصَدَّرُهَا سِتُون ذراعاً. وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء. وهذا دليل على جواز المهايأة^(٢) لأن قوله: ﴿لَهَا شَرَبٌ وَلَكُمْ شَرَبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ من المهايآت.

١٥٦ - ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا يُسَوِّوْا﴾ بضرب، أو: عقر، أو: غير ذلك ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظم اليوم لحلول العذاب فيه. ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد.

١٥٧ - ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها قدار، ولكنهم راضون به، فأضيف إليهم. روي: أَنَّ عَاقَرَهَا قَالَ: لَا أَعْقَرُهَا حَتَّى تَرْضَوْا أَجْمَعِينَ، فَكَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي خَدْرِهَا فَيَقُولُونَ: أَتَرْضَيْنَ؟ فتقول: نعم. وكذلك صبيانهم ﴿فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندم توبة. أو: ندموا حين لا ينفع الندم، وذلك عند معاينة العذاب، أو: على ترك الولد.

١٥٨ - ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المتقدم ذكره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٥٩ - ١٦٥ - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أراد بالعالمين: الناس.

(١) «السقب»: الذكر من ولد الناقة.

(٢) «المهايأة»: الأمر المتهايأ عليه. وتهايأ القوم على الأمر: توافقوا، وتماثلوا.

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِينَ ﴿١٧١﴾

أي: أنطؤون الذكران من الناس مع كثرة الإناث؟ أو: أنطؤون أنتم من بين من عداكم من العالمين الذكران؟ أي: أنتم مختصون بهذه الفاحشة. ﴿وَالْعَالَمِينَ﴾ على هذا: كل ما ينكح من الحيوان.

١٦٦ - ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ «من» تبين لما خلق، أو: تبعض. والمراد: بما خلق العضو المباح منه. وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات، والمملوكات. ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيماً ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ العادي: المتعدي في ظلمه، المتجاوز فيه الحد، أي: بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

١٦٧ - ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ﴾ عن إنكارك علينا، وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردهنا من بلدنا. ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال.

١٦٨ - ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ هو أبلغ من أن يقول «قال»، فقولك: فلان من العلماء، أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم في العلم. والقيل: البغض الشديد كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد. وفيه دليل على عظم المعصية؛ لأن قلاه من حيث الدين.

١٦٩ - ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقوبة عملهم.

١٧٠ - ﴿فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بناته، ومن آمن معه.

١٧١ - ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي: امرأة لوط، وكانت راضية بذلك، والراضي بالمعصية في حكم العاصي. فاستثناء الكافرة من الأهل، وهم مؤمنون، للاشتراك في هذا الاسم، وإن لم تشاركهم في الإيمان ﴿فِي الْغَايِينَ﴾ صفة لها، أي: في الباقيين في العذاب، فلم تنج منه. والغابر في اللغة: الباقي، كأنه قيل:

ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّجِيمُ ﴿١٧٩﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوْنَ ﴿١٨١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعِينُونَ ﴿١٨٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٤﴾ أَتُوفُونَ أَلْكَئِلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٥﴾

إلا عجوزاً غابرة، أي: مقدراً غبورها، إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم.

١٧٢ - ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ والمراد بتدميرهم: الاتفak بهم.

١٧٣ - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ عن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء، فأهلكهم. وقيل: لم يرض بالاتفak حتى أتبعه مطراً من حجارة ﴿فَسَاءَ﴾ فاعله ﴿مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾. والمخصوص بالذم - وهو مطرهم - محذوف. ولم يرذ بالمندرين قوماً بأعيانهم، بل المراد جنس الكافرين.

١٧٤ - ١٧٦ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّجِيمُ ﴿١٧٧﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ بالهمزة والجر هي: غيضة تَنبُتُ ناعم الشجر، عن الخليل. ﴿لَيْكَةِ﴾: حجازي، وشامي، وكذا في ﴿ص﴾ علم لبلد. قيل: أصحاب الأيكة هم أهل مدين، التجؤوا إلى غيضة؛ إذ ألح عليهم الوحج. والأصح أنهم غيرهم. نزلوا غيضة بعينها بالبادية، وأكثر شجرهم المقل؛ بدليل أنه لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن من نسبهم، بل كان من نسب أهل مدين. ففي الحديث: أن شعيباً أخاً مدين أرسل إليهم، وإلى أصحاب الأيكة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾.

١٧٧، ١٨١ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوْنَ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٤﴾ أَتُوفُونَ أَلْكَئِلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٥﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم. فالكيل واف، وهو مأمور به، وطفيف، وهو منهي عنه، وزائد، وهو مسكوت عنه. فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن، وإن لم يفعله فلا عليه.

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٨﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٩﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٩٠﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٩١﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا

١٨٢ - ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾^(١) وبكسر القاف: كوفي، غير أبي بكر. وهو: الميزان، أو: القَبَان. وإن كان من القسط وهو العدل، وجعلت العين مكررة، فوزنه «فعلاس» وإلا فهو رباعي.

١٨٣ - ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ يقال: بخسته حقه؛ إذا نقصته إياه ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تبالغوا فيها في الإفساد، وذلك نحو: قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك، فنهوا عن ذلك، يقال: عثا في الأرض: إذا أفسد. وعثى في الأرض، لغة في عَثِيَ.

١٨٤ - ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ﴾ الجِلَّة: عطف على «كم»، أي: اتقوا الذي خلقكم، وخلق الجِلَّة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الماضين.

١٨٥، ١٨٦ - ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾^(٢) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا إدخال الواو هنا ليفيد معنيين، كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسخير، والبشرية. وتركها في قصة ثمود ليفيد معنى واحداً وهو كونه مسحراً. ثم قرر بكونه بشراً مثلهم ﴿وَأَنْ تَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة. واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية. وإنما تفرقتا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؛ لأن أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر، كقولك: إن زيدا لمنطلق، فلما كان باباً ﴿كَانَ﴾ و﴿ظَنَنْتَ﴾ من جنس باب المبتدأ والخبر، فعل ذلك في البابين، فقل: إن كان زيد لمنطلقاً، وإن ظننته لمنطلقاً.

١٨٧ - ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾^(٣): حفص. وهما^(٣) جمعا كِسْفَةً، وهي:

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿القُسْطَاسِ﴾. وهي قراءة: ابن عامر، ونافع، وحمزة، وابن كثير، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣٢٥/٤).

(٢) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿كِسْفًا﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣٢٦/٤).

(٣) أي قراءة: ﴿كِسْفًا﴾ وقراءة: ﴿كِسْفًا﴾.

مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ یَوْمِ
الْظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابُ یَوْمٍ عَظِیمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِی ذَٰلِكَ لَآیَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِینَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِیلُ رَبِّ الْعَالَمِینَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ ﴿١٩٣﴾

القطعة. وكسفه: قطعه ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب، أو: الظُّلَّة ﴿إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ أي: إن كنت صادقاً أنك نبي، فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من
السماء، أي: قطعاً من السماء عقوبة.

١٨٨ - ﴿قَالَ رَبِّیْ﴾ بفتح الباء: حجازي، وأبو عمرو. ويسكونها: غيرهم
﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أن الله أعلم بأعمالكم، وبما تستحقون عليها من
العقاب، وإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقاباً
آخر فإليه الحكم، والمشية.

١٨٩ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ هي سحابة أظلمتهم بعد ما حبس
عنهم الريح، وعذبوا بالحر سبعة أيام، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم
من الحر، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابُ یَوْمٍ عَظِیمٍ﴾.

١٩٠، ١٩١ - ﴿إِنَّ فِی ذَٰلِكَ لَآیَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِینَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِیزُ
الرَّحِیمُ﴾ وقد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر، تقريراً
لمعانيها في الصدور؛ ليكون أبلغ في الوعظ، والزجر، ولأن كل قصة فيها
كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت جدية بأن تفتتح
بما افتتحت به صاحبها، وأن تحتتم بما اختتمت به.

١٩٢ - ﴿وَلَئِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَنَزِیلُ رَبِّ الْعَالَمِینَ﴾ منزل منه.

١٩٣ - ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ مخفف. والفاعل: ﴿الرُّوحُ الْأَمِینُ﴾ أي: جبريل؛ لأنه أمين
على الوحي الذي فيه الحياة. حجازي، وأبو عمرو، وزيد، وحفص. وغيرهم:
بالتشديد، ونصب ﴿الروح﴾. والفاعل هو الله تعالى، أي: جعل الله الروح
نازلاً به. والباء على القراءتين للتعدي.

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٦﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٧﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٨﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ

١٩٤ - ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: حفظك، وفهمك إيّاه، وأثبتته في قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله: ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦] ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

١٩٥ - ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ بلغة قريش، وجرهم ﴿مُبِينٍ﴾ فصيح مصتحح عما صحفته العامة. والباء إما أن يتعلق بـ ﴿المنذرين﴾، أي: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل - عليهم السلام - أو: بـ: ﴿نزل﴾، أي: نزله ﴿بلسان عربي﴾ لتنذر به، لأنه لو نزله بلسان أعجمي لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نضع بما لانفهمه، فيتعذر الإنذار به. وفي هذا الوجه: أنّ تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه، وتفهمه قومك. ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها، ولا تعيها. وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات؛ فإذا كلّم بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه إلاّ إلى معاني الكلام، وإن كلّم بغيرها كان نظره أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها، وإن كان ماهراً بمعرفتها. فهذا تقرير أنّه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربيّ.

١٩٦ - ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية. وقيل: إنّ معانيه فيها. وفيه دليل على أنّ القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية، فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة.

١٩٧ - ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ آيَةً﴾^(١): شاميّ. جعلت ﴿آية﴾ اسم كان. وخبره ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ أي: القرآن لوجود ذكره في التوراة. وقيل: في ﴿تكن﴾ ضمير القصة، و﴿آية﴾ خبر مقدّم، فالمبتدأ ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾. والجملة خبر كان. وقيل: كان تامّة، والفاعل ﴿آية﴾، و﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بدل منها، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي:

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تكن... آية﴾.

عَلَّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾

أو لم تحصل لهم آية. وغيره: ﴿يكن﴾ بالتذكير، و﴿آية﴾ بالنصب، على أنها خبره، و﴿أن يعلمه﴾ هو الاسم، وتقديره: ﴿أو لم يكن لهم﴾ علم علماء ﴿بني إسرائيل﴾ آية ﴿عَلَّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كعبد الله بن سلام، وغيره. قال الله تعالى: ﴿وَلِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]. وخط في المصحف ﴿علموا﴾ بواو قبل الألف.

١٩٨ - ﴿لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجم، وهو: الذي لا يفصح، وكذلك الأعجمي، إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم، وأعجمي، شبهوه بمن لا يفصح، ولا يبين. والعجمي: الذي من جنس العجم أفصح، أو: لم يفصح. وقرأ الحسن: ﴿الْأَعْجَمِيِّينَ﴾. وقيل: ﴿الأعجمين﴾ تخفيف ﴿الْأَعْجَمِيِّينَ﴾ كما قالوا: الأشعرون، أي: الأشعريون، بحذف ياء النسبة. ولولا هذا التقدير لم يجوز أن يجمع جمع السلامة؛ لأن مؤنثه عجماء.

١٩٩ - ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: إننا أنزلنا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، ففهموه، وعرفوا فصاحته، وأنه معجز، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب قبله على أن البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه، وصح بذلك أنها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسموه: شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هذه من افتراء محمد - عليه الصلاة والسلام - ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله، فقرأه عليهم هكذا معجزاً لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذراً، ولسموه: سحراً. ثم قال:

٢٠٠ - ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أي: أدخلنا التكذيب، أو: الكفر، وهو مدلول قوله: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر، والإصرار عليه، يعني: مثل هذا السلك ﴿سلكناه﴾ في قلوبهم،

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
 فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾
 ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾

وقرّناه فيها فكيف ما فعل بهم، وعلى أي وجه دبّر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به، والتكذيب له، أي: كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] وهو حجتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرها وشرها.

٢٠١ - وموقع قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن. من قوله: ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾ موقع الموضح والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم فاتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به، وجحوده، حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غير مؤمن به ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ المراد: معاينة العذاب عند الموت، ويكون ذلك إيماناً، فلا ينفعهم.

٢٠٢ - ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

٢٠٣ - ﴿فَيَقُولُوا﴾ و﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ معطوفان على ﴿يروا﴾ ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ يسألون النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجابون إليها.

٢٠٤ - ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ لهم، وإنكار عليهم قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْنِنَا بِعَذَابِ الْبَاسِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك. قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغترّ بحياته، والتدبّر مراداته، وسكن مآلوفاته، والله تعالى يقول:

٢٠٥ - ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ قيل: هي سنو مدّة الدنيا.

٢٠٦ - ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

٢٠٧ - ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ به في تلك السنين. والمعنى: أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن، ولا لاحق بهم، وأنهم تمتعون بأعمار طوال في سلامة، وأمن. فقال الله تعالى: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أشرأ، واستهزاء واتكلاً على الأمل الطويل. ثم قال: هَبْ أَنْ الْأَمْرَ كَمَا

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يعتقدون من تمتيعهم، وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال: عطني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم.

٢٠٨ - ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم. ولم تدخل الواو على الجملة بعد إلا كما في: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] لأن الأصل عدم الواو؛ إذ الجملة صفة لـ: ﴿قَرْيَةٍ﴾، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف.

٢٠٩ - ﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة؛ لأن أنذر وأذكر متقاربان، فكأنه قيل: مُذكرون تذكرة. أو: حال من الضمير في ﴿منذرون﴾ أي: ينذرونهم ذوي تذكرة، أو: مفعول له، أي: ينذرون لأجل التذكرة، والموعظة، أو: مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هذه ﴿ذكري﴾ والجملة اعتراضية. أو: صفة بمعنى ﴿منذرون﴾ ذوو ﴿ذكري﴾. أو: تكون ﴿ذكري﴾ متعلقة بأهلكتنا، مفعولاً له. والمعنى: وما أهلكتنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمتهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم؛ فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين.

٢١٠ - ولما قال المشركون: إن الشياطين تلقي القرآن على محمد، نزل: ﴿وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿الشَّيْطَانُ﴾.

٢١١ - ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يتسهل لهم، ولا يقدر عليهم.

٢١٢ - ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ عن استراقه ﴿لَمَعَزُولُونَ﴾ لمنوعون بالشهب.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾

٢١٣ - ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ تهديد لغيره على التعريض وتحريك له على زيادة الإخلاص.

٢١٤ - ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ خصهم لنفي التهمة؛ إذ الإنسان يساهل قرابته. أو: ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأن التجارة في أتباعه دون قربه. ولما نزلت صعد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب، وقال: «يا بني عبد المطلب! يا بني هاشم! يا بني عبد مناف! يا عباس عم النبي! يا صفية عمّة رسول الله: إنني لا أملك لكم من الله شيئاً»^(١).

٢١٥ - ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وألن جانبك، وتواضع. وأصله: أن الطائر إذا أراد أن ينحط في الوقوع كسر جناحه، وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه. فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع، ولين الجانب ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عشيرتك، وغيرهم.

٢١٦ - ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أنذر قومك، فإن اتبعوك، وأطاعوك، فأخفض لهم جناحك، وإن عصوك، ولم يتبعوك، فتبرأ منهم، ومن أعمالهم من الشرك بالله، وغيره.

٢١٧ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته، يكفك شر من يعصيك منهم، ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على نفعه وضره. وقالوا: المتوكل من إن دمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله. وقال الجنيد - رحمه الله -: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه؛ فإن حاجتك إليه في الدارين. (فتوكل): مدني، وشامي، عطف على ﴿فقل﴾ أو: ﴿فلا تدع﴾.

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٣٣) ومسلم (٢٠٤) والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٦/ ٢٤٨).

الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ

٢١٨ - ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ متهجداً.

٢١٩ - ﴿وَتَقَلِّبُكَ﴾ أي: ﴿و﴾ يرى تقلبك ﴿فِي السَّجْدَيْنِ﴾ فِي المصلين. أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة. وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، وليعلم كيف^(١) يعبدون الله، ويعملون لأخرتهم. وقيل: معناه ﴿يراك﴾ حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلبه ﴿فِي الساجدين﴾: تصرفه فيما بينهم بقيامه، وركوعه، وسجوده، وقعوده إذا أتمهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة. هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني. فتلا له هذه الآية.

٢٢٠ - ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه، وتعمله. هون عليه معاناة مشاق العبادات، حيث أخبر برؤيته له، إذ لا مشقة على من يعلم أنه يعمل بمرأى مولاه، وهو كقولك: بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي.

٢٢١ - ونزل جواباً لقول المشركين: إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَلْقِي السَّمْعَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل أخبركم أيها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾. ثم نبأ فقال:

٢٢٢ - ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ مرتكب للآثام، وهم: الكهنة، والمتنبئة، كسطيح، ومسيلمة. ومحمد ﷺ يشتم الأفاكين ويذمتهم، فكيف تنزل الشياطين عليه؟!

٢٢٣ - ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ هم الشياطين. كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملاء الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به، مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم. و﴿يلقون﴾ حال، أي: تنزل ملقون السمع. أو: صفة لـ: ﴿كل أفَّاكٍ﴾ لأنه في معنى الجمع، فيكون في محل الجر.

(١) في الأصل المخطوط: أنهم كيف.

وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

أو: استئناف فلا يكون له محل، كأنه قيل: لم تنزل على الأفاكين؟ فقول: يفعلون كيت وكيت ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وقيل: ﴿يلقون﴾ إلى أوليائهم ﴿السمع﴾ أي: المسموع من الملائكة. وقيل: الأفاكون ﴿يلقون السمع﴾ إلى الشياطين، ويتلقون وحيمهم إليهم. أو: ﴿يلقون﴾ المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم. فالأفاك: الذي يكثر الإفاك. ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالأفاك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكي عن الجنّي، وأكثرهم مفتر عليه. وعن الحسن: وكلهم. وإنما فرق بين ﴿وإنه لتنزّل رب العالمين﴾ و﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ و﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ وهنّ أخوات؛ لأنّه إذا فرق بينهنّ بآيات ليست منهنّ، ثمّ رجع إليهنّ مرّة بعد مرّة، دلّ ذلك على شدّة العناية بهنّ، كما إذا حدثت حديثاً وفي صدرك اهتمام بشيء، فتعيد ذكره، ولا تنفك عن الرجوع إليه.

٢٢٤ - ونزل فيمن كان يقول الشعر، ويقول: نحن نقول كما يقول محمد ﷺ، واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. أي: لا يتبعهم على باطلهم، وكذبهم، وتمزيق الأعراض، والقدح في الإنسان، ومدح من لا يستحق المدح والهجاء، ولا يستحسن ذلك منهم إلا ﴿الغاوون﴾ أي: السفهاء، أو: الراوون، أو: الشياطين، أو: المشركون. قال الزجاج: إذا مدح، أو: هجا شاعر بما لا يكون، وأحب ذلك قوم، وتابعوه فهم الغاوون. ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ نافع.

٢٢٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهِيمُونَ﴾ خبر أن، أي: في كلّ فنّ من الكذب يتحدّثون، أو: في كلّ لغو وباطل يخوضون. والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له. وهو تمثيلٌ لذهابهم في كلّ شعب من القول، واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأبخلهم على حاتم.

٢٢٦ - عن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

فَبِتْنِ بِجَانِبِي مُصَرَّعَاتٍ وَبِتْ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ
فقال: وجب عليك الحد، فقال: قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ حيث وصفهم بالكذب، والخلف في الوعد.

٢٢٧ - ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك - رضي الله عنهم - ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان ذكر الله، وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالى، والثناء عليه، والحكمة، والموعظة، والزهد، والأدب، ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمة، ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب. وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة، لكنه بالحضور ﴿وَأَنْتَصَرُوا﴾ وهجوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هُجُوا، أي: ردوا هجاء من هجا رسول الله ﷺ والمسلمين. وأحقّ الخلق بالهجاء من كذب رسول الله ﷺ وهجاه. وعن كعب بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال له: «اهجهم، فوالذي نفسي بيده! لهو أشدّ عليهم من النبل»^(١) وكان يقول لحسان: «قل وروح القدس معك»^(٢). ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبرين، وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه، وقوله: ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وإيهامه. وقد تلاها أبو بكر لعمر - رضي الله تعالى عنهما - حين عهد إليه. وكان السلف يتواعظون بها. قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا. و﴿أَيَّ﴾ منصوب بـ ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ على المصدر لا بـ: ﴿سَيَعْلَمُ﴾؛ لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها، أي: ينقلبون أي انقلاب. والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن سعد في الطبقات. (حاشية الكشف ٣ / ٣٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢١٣) ومسلم (٢٤٨٦).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

١ - ﴿طسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: ﴿و﴾ آيات ﴿كتاب مبين﴾. و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة. والكتاب المبين: اللوح. وإبانتة: أنه قد خُطَّ فيه كل ما هو كائن، فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. أو: القرآن، وإبانتة: أنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم. وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخي، والجواد.. ونكر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنما نكر الكتاب هنا، وعزفه في الحجر، وعزف القرآن هنا، ونكره ثم؛ لأن القرآن والكتاب اسمان علما للمنزّل على محمد ﷺ، ووصفان له؛ لأنه يُقرأ ويكتب. فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف.

٢ - ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ في محل النصب على الحال من ﴿آيات﴾، أي: هادية ومبشرة. والعامل فيها ما في ﴿تلك﴾ من معنى الإشارة. أو: الجزر على أنه بدل من ﴿كتاب﴾ أو: صفة له. أو: الرفع على هي ﴿هدى وبشرى﴾، وعلى البدل من ﴿آيات﴾، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر لـ: ﴿تلك﴾، أي: ﴿تلك آيات﴾ وهادية من الضلالة، ومبشرة بالجنة. وقيل: ﴿هدى﴾ لجميع الخلق وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ خاصة.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٤﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٥﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كَرْمَتُهَا بَخْبَرٍ أَوْ آتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ

٣ - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يديمون على فرائضها، وسننها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يؤدّون زكاة أموالهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من جملة صلة الموصول. ويحتمل أن تتم الصلاة عنده. وهو استئناف، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، هم الموقنون بالآخرة. ويدل عليه: أنه عقد جملة اسمية، وكُرِّرَ فيها المبتدأ الذي هو ﴿هُمْ﴾ حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَةً لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ﴾ بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسناً، كما قال: ﴿أَفَمِنْ زِينَةٍ لَمْ سُوءَ عَلَيْهِمْ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون في ضلالتهم، كما يكون حال الضال عن الطريق.

٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أشد الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاة، وثواب الله.

٦ - ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ لتؤتاه، وتلقنه ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند أي ﴿حَكِيمٍ﴾ وأي ﴿عَلِيمٍ﴾. وهذا معنى تنكيرهما. وهذه الآية بساط، وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأفاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

٧ - ﴿إِذْ﴾ منصوب باذكر، كأنه قال: على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى - عليه السلام - ﴿قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين إلى مصر: ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا سَاءَتِ كَرْمَتُهَا بَخْبَرٍ﴾ عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضلّه ﴿أَوْ آتِيَكُمْ بِشِهَابٍ﴾ بالتنوين: كوفي، أي: شعلة مضيئة ﴿قَبَسٍ﴾ نار مقبوسة. بدل، أو: صفة. وغيرهم ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ على

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾

الإضافة؛ لأنه يكون قبساً، وغير قبس. ولا تدافع بين قوله: ﴿سَاتِيكُمْ﴾ هنا، و﴿لَعَلِّي مَاتِيكُمْ﴾ في القصص [الآية: ٢٩] مع أَنَّ أحدهما ترجُّ، والآخر تيقن؛ لأنَّ الراجي إذا قوي رجاءه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة، ومجيئه بسين التسويف عِدَّةً لأهله أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ بِهِ، وإنَّ أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. وبأو؛ لأنَّه بنى الرجاء على أَنَّهُ إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما، إمَّا هداية الطريق، وإمَّا اقتباس النار. ولم يدر أَنَّهُ ظافر على النار بحاجتيه الكلّيتين، وهما عزّ الدنيا والآخرة. واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليلٌ على جواز نقل الحديث بالمعنى، وجواز الصلاة بالفارسية، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم. والطاء بدل من تاء افتعل؛ لأجل الصاد.

٨ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: النار التي أبصرها ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ أن مخففة من الثقيلة. وتقديره: ﴿نودي﴾ موسى بأنَّه ﴿بورك﴾. والضمير ضمير الشأن. وجاز ذلك من غير عوض، وإن منعه الزمخشري؛ لأنَّ قوله ﴿بورك﴾ دعاء. والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة. أو: مفسرة لأنَّ في النداء معنى القول، أي: قيل له: ﴿بورك﴾ أي: قدّس، أو: جعل البركة والخير في ﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: (بورك من في) مكان ﴿النار﴾ وهم الملائكة، ومَنْ حول مكانها - أي: موسى - بحدوث أمر ديني فيها، وهو تكليم الله موسى - عليه السلام - واستبأؤه له، وإظهار المعجزات عليه ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو من جملة ما نودي، فقد نزه ذاته عما لا يليق به من التشبُّه، وغيره.

٩ - ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للشأن ﴿أنا الله﴾ مبتدأ وخبر. و﴿العزیز الحكيم﴾ صفتان للخبر. أو: يرجع إلى مادّل عليه ما قبله، أي: إنَّ مكلمك ﴿أنا﴾، و﴿الله﴾ بيان لأنا، و﴿العزیز الحكيم﴾ صفتان للمبين، وهو تمهيدٌ لما أراد أن يظهر على يده من المعجزة.

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرِجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

١٠ - ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ لتعلم معجزتك، فتأنس بها. وهو عطف على ﴿بورك﴾ لأنَّ المعنى: ﴿نودي أن بورك من في النار...﴾. أن ﴿ألق عصاك﴾. كلاهما تفسير لنودي. فالمعنى: قيل له: ﴿بورك من في النار﴾ وقيل له: ﴿ألق عصاك﴾. ويدل عليه ما ذكر في سورة القصص ﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١] بعد قوله: ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ على تكرير حرف التفسير ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك، حال من الهاء في (رآها) ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ - حية صغيرة - حال من الضمير في ﴿تهتز﴾ ﴿وَلَّى﴾ موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ أدبر عنها، وجعلها تلي ظهره خوفاً من وثوب الحية عليه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يلتفت، أو: لم يرجع. يقال: قد عقب فلان: إذا رجع يقاتل بعد أن ولَّى. فنودي: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي إياهم. أو: لا يخاف لدي المرسلون من غيري.

١١ - ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: لكن ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ من غيرهم؛ لأنَّ الأنبياء لا يظلمون. أو: لكن ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ منهم، من زلَّ من المرسلين فجاء منه غير ما أذنت له، ممَّا يجوز على الأنبياء، كما فرط من آدم، ويونس، وداود، وسليمان - عليهم السلام - ﴿ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا﴾ أي: أتبع توبة ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ زلة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أقبل توبته، وأغفر زلته، وأرحمه، فأحقق أمنيته. وكأنه تعريض بما قال موسى - عليه السلام - حين قتل القبطي: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦].

١٢ - ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك، وأخرجها ﴿تَخْرِجَ بَيْضًا﴾ نيرة تغلب نور الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص. و﴿بيضاء﴾ و﴿من غير سوء﴾ حالان ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ كلام مستأنف. و﴿في﴾ يتعلق بمحذوف، أي: اذهب في ﴿تسع آيات﴾. أو: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ...﴾ وأدخل يدك... في ﴿جمله﴾ ﴿تسع آيات﴾ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ «إلى» يتعلق بمحذوف، أي: مرسلًا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾

لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدَّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

﴿لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن أمر الله، كافرين.

١٣ - ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ معجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ حال، أي: ظاهرة بيّنة. جعل الإبصار لها، وهو في الحقيقة لتأملوها؛ للابستهم إياها بالنظر، والتفكر فيها، أو: جعلت كأنها تبصر فتهدى؛ لأن العمي لا تقدر على الاهتداء، فضلاً أن تهدي غيرها. ومنه قوله: كلمة عوراء؛ لأن الكلمة الحسنة ترشد، والسيئة تغوي ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر لمن تأمله. وقد قوبل بين المبصرة والمبين.

١٤ - ﴿وَحَدَّثُوا بِهَا﴾ قيل: الجحود لا يكون إلا من علم الجاحد، وهذا ليس بصحيح؛ لأن الجحود هو الإنكار. وقد يكون الإنكارُ للشيء للجهل به، وقد يكون بعد المعرفة تعنتاً. كذا ذكر في «شرح التأويلات». وذكر في «الديوان»: يقال: جحد حقه، ويحقه بمعنى. والواو في: ﴿وَاسْتَيْقَنَتَهَا﴾ للحال، وقد بعدها مضمرة. والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: جحدوها بالستهم، واستيقنوها في قلوبهم، وضماثرهم ﴿ظُلْمًا﴾ حال من الضمير في ﴿جحدوا﴾: وأَيُّ ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات من عند الله، ثم سماها سحراً بيناً! ﴿وَعُلُوًّا﴾ تكبراً وترفعاً عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق هنا، والإحراق ثم.

١٥ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم، أو: علماً سنياً غزيراً. والمراد: علم الدين، والحكم ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في ترك الأصلح. وهنا محذوف ليصح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء، كقولك: أعطيته فشكر. وتقديره: آتيناهما علماً، فعملما به، وعلماه، وعرفا حق النعمة فيه ﴿وَقَالَا الحمد لله الذي فضّلنا﴾. والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضلاً على كثير، وفُضِّلَ عليهما كثير. وفي الآية دليل على شرف العلم، وتقديم حملته، وأهله، وأن نعمة

وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

العلم من أجلّ النعم، وأن من أوتيّه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده. وما سَمَاهُمْ رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلاّ لمَدَانَتِهِمْ لَهِمْ فِي الشَّرَفِ، وَالْمَنْزَلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ الْقَوَامُ لِمَا بُعِثُوا مِنْ أَجَلِهِ. وَفِيهَا: أَنَّهُ يَلْزِمُهُمْ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْفَاضِلَةُ أَنْ يَحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا أُوتَوْهُ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ الْعَالَمُ أَنَّهُ إِنْ فَضِّلَ عَلَى كَثِيرٍ فَقَدْ فَضِّلَ عَلَيْهِ مِثْلُهُمْ. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَمْرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: كُلَّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عَمْرِ.

١٦ - ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيّه، وكانوا تسعة عشر، قالوا: أوتي النبوة مثل أبيه، فكأنه ورثه، وإلاّ فالنبوة لا تُورث ﴿وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، واعترافاً بمكانها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة؛ التي هي علم منطق الطير. والمنطق: كلّ ما يصوّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد. وكان سليمان - عليه السلام - يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض. رُوي: أَنَّهُ صَاحَتِ فَاحْتَةً^(١)، فَأَخْبَرَ أَنَّهَا تَقُولُ: لَيْتَ ذَا الْخَلْقِ لَمْ يَخْلُقُوا. وَصَاحَ طَاوُوسٌ فَقَالَ: يَقُولُ: كَمَا تَدِينُ تَدَانُ. وَصَاحَ هَدَهْدُ فَقَالَ: يَقُولُ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ يَا مَذْنُبُونَ. وَصَاحَ خُطَافٌ فَقَالَ: يَقُولُ: قَدِمُوا خَيْرًا تَجِدُوهُ. وَصَاحَتِ رَحْمَةٌ^(٢) فَقَالَ: تَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مَلَأَ سَمَائِهِ وَأَرْضَهُ. وَصَاحَ قُمْرِيٌّ^(٣) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى. وَقَالَ: الْحَدَّةُ تَقُولُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا اللَّهَ، وَالْقَطَاةُ^(٤) تَقُولُ: مِنْ سَكَتِ سَلَمٍ، وَالْدِيكُ يَقُولُ: اذْكُرُوا اللَّهَ يَا غَافِلُونَ، وَالنَّسْرُ يَقُولُ: يَا بَنَ آدَمَ! عَشْ مَا شِئْتَ أَخْرَكَ الْمَوْتَ، وَالْعَقَابُ يَقُولُ: فِي الْبَعْدِ مِنَ النَّاسِ أَيْسٌ، وَالضَّفْدَعُ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْقُدُّوسِ^(٥) ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد به: كثرة

(١) «الفاختة»: نوع من الحمام المُطَوَّق إذا مشى توسع في مشيه، وباعد بين جناحيه وإبطيه، وغايل.

(٢) «الرَّحْمَةُ»: طائر غزير الريش، أبيض اللون مبقّع بسواد، له متقار طويل.

(٣) «القمري»: نوع من الحمام مطوق حسن الصوت.

(٤) «القطاة»: نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

(٥) هذه رواية إسرائيلية، الله أعلم بصحتها.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَخَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

ما أوتي، كما تقول: فلان يعلم كل شيء، ومثله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ قول وارد على سبيل الشكر، كقوله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»^(١) أي: أقول هذا القول شكراً، ولا أقوله فخراً. والنون في ﴿عَلَّمْنَا﴾ و﴿أُوتِينَا﴾ نون الواحد المطاوع، وكان ملكاً مطاعاً، فكلّم أهل طاعته على حاله التي كان عليها، وليس التكبر من لوازم ذلك.

١٧ - ﴿وَخَشَرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾. روي: أن معسكره كان مئة فرسخ في مئة فرسخ: خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمئة منكوحة وسبعمئة سُريّة. وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ. وكان يُوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب وفضّة، فيقعد وحوله ستمئة ألف كرسيّ من ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء على كرسيّ الذهب، والعلماء على كرسيّ الفضّة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظلل الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر^(٢). ويُروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تُسيّره. فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدّت في ملكك: لا يتكلّم أحد بشيء إلاّ ألقته الريح في سمعك. فيُخَكّي: أنه مرّ بحرّاث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه، فتزل، ومشى إلى الحرّاث، وقال: إنّما مشيت إليك لثلاث تمنّي ما لا تقدر عليه، ثم قال: تسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم، أي: يوقّف سُلَافٌ

(١) رواه الحاكم (١ / ٣٠).

(٢) تصدير الرواية بالتضعيف يوحى بعدم صحتها.

حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَرَضَا جَاكِ مِنْ قَوْلِهَا

العسكر^(١) حتى يلحقهم الثواني؛ فيكونوا مجتمعين، وذلك للكثرة العظيمة. والوزع: المنع. ومنه قول عثمان - رضي الله عنه -: ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن.

١٨ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي: ساروا حتى إذا بلغوا وادي النمل - وهو وادٍ بالشام كثير النمل. وعدي بـ «على»؛ لأن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء - ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ عرجاء تسمى طاخية، أو: منذرة - وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتفت عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، فسأله أبو حنيفة - رحمه الله - وهو شاب - عن نملة سليمان: أكانت ذكراً أم أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة - رحمه الله -: كانت أنثى. ف قيل له: بماذا عرفت؟ فقال: بقوله ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة. وذلك: أن النملة مثل الحمامة في وقوعها على الذكر والأنثى، فتميز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو، وهي ﴿يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ ولم يقل: ادخلن؛ لأنه لما جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون في أولي العقل أجرى خطابهن مجرى خطابهم ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسرنكم. والحطم: الكسر. وهو نهى مستأنف. وهو في الظاهر نهى لسليمان عن الحطم، وفي الحقيقة نهى لهن عن البروز والوقوف؛ على طريقة: لا أرينك هاهنا، أي: لا تحضر هذا الموضع. وقيل: هو جواب الأمر، وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد؛ لأنه من ضرورات الشعر ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ قيل: أراد ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ - ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون بمكانكم، أي: لو شعروا لم يفعلوا. قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل، فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال.

١٩ - ﴿فَنَبَسَرَضَا جَاكِ مِنْ قَوْلِهَا﴾ متعجباً من حذرهما، واهتدائهما لمصالحهما،

(١) «سلاف العسكر»: متقدموهم.

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِضِينَ ﴿٢٠﴾

ونصيححتها للنمل. أو: فرحاً لظهور عدله. و﴿ضاحكاً﴾ حال مؤكدة؛ لأنَّ ﴿تبسم﴾ بمعنى ضحك. وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، كذا قاله الزجاج ﴿وقال ربِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني. وحقيقته: كُفِّنِي عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النبوة، والملك، والعلم ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ لأنَّ الإنعام على الوالدين إنعامٌ على الولد ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ في بقية عمري ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: وأدخلني الجنة ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ لا بصالح عملي، إذ لا يدخل الجنة أحد إلا برحمته، كما جاء في الحديث ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في زمرة أنبيائك المرسلين، أو: مع ﴿عبادك الصالحين﴾.

رُوي: أَنَّ النملة أَحَسَّتْ بصوت الجنود، ولا تعلم أنهم في الهواء، فأمر سليمان - عليه السلام - الريح فوقفت لثلاث يَضْعَرْنَ^(١) حَتَّى دَخَلْنَ مساكنهنَّ، ثم دعا بالدعوة.

٢٠ - ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ﴾ مكِّي، وعليّ، وعاصم. وغيرهم بسكون الياء. والتفقّد: طلب ما غاب عنك ﴿لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِضِينَ﴾ ﴿أم﴾ بمعنى بل، والمعنى: أَنَّهُ تَعَرَّفَ الطير، فلم يجد فيها الهدد، فقال: مالي لا أراه؟! على معنى: أَنَّهُ لَا يَرَاهُ وهو حاضر لسائر ستره، أو: غير ذلك. ثم لاح له أَنَّهُ غَائِبٌ، فأضرب عن ذاك، وأخذ يقول: بل هو غَائِبٌ. وذكر: أَنَّ سليمان - عليه السلام - لما حَجَّ خرج إلى اليمين، فوافي صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلي، فلم يجدوا الماء. وكان الهددُ قُنَاقَةً^(٢)، وكان يرى الماء من تحت الأرض، كما يُرى الماء في الزجاج، فتستخرج الشياطين الماء. فتفقده لذلك. وذكر أَنَّهُ وقعت لفحة من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدد خال، فدعا عريف الطير، وهو النسر، فسأله عنه، فلم يجد عنده

(١) وضع في الأصل المخطوط تحت هذه الكلمة معناها وهو: يخوفن.

(٢) «القناق»: الدليل الهادي، والبصير بالماء في حفر القني.

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ.

علمه. ثم قال لسيد الطير - وهو العقاب - : عليّ به. فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبلٌ، فقصده، فناشدها الله فتركته. فلما قرب من سليمان أرحى ذنبه وجناحيه يحرقهما على الأرض، وقال: يا نبيّ الله! اذكر وقوفك بين يدي الله. فارتعد سليمان، وعفا عنه.

٢١ - ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بتف ريشه، وإلقائه في الشمس، أو: بالتفريق بينه وبين إلفه، أو: بإلزامه خدمة أقرانه، أو: بالحبس مع أضداده. وعن بعضهم: أضيّق السجون معاشرّة الأضداد. أو: بإيداعه القفص، أو: بطرحه بين يدي النمل ليأكلته. وحلّ له تعذيب الهدهد؛ لما رأى فيه من المصلحة، كما حلّ ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع. وإذا سخر له الطير ولم يتمّ التسخير إلا بالتأديب حلّ له التأديب والسياسة ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ﴾ بالنون الثقيلة؛ ليشاكل قوله ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ وحذف نون العماد للتخفيف (ليأتيني) بنونين، مكّي، الأولى للتأكيد، والثانية للعماد ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة له فيها عذر ظاهر على غيبته.

والإشكال أنّه حلف على أحد ثلاثة أشياء، اثنان منها فعله ولا مقال فيه، والثالث فعل الهدهد، وهو مشكل؛ لأنه من أين درى أنّه يأتي بسُلطان حتّى قال والله ﴿ليأتيني بسُلطان﴾؟ وجوابه: أنّ معنى كلامه: ليكون أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسُلطان لم يكن تعذيب، ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما. وليس في هذا ادّعاء دراية.

٢٢ - ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقّد سليمان إياه - وبضمّ الكاف غير عاصم، وسهل، ويعقوب، وهما لغتان - ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: مُكثًا ﴿غَيْرَ﴾ طويل، أو: ﴿غَيْرَ﴾ زمان بعيد، كقوله: عن قريب. ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراره خوفاً من سليمان. فلما رجع سأله عما لقي في غيبته ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ﴾ علمت شيئاً من جميع جهاته ﴿بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ﴾ ألهم الله الهدهد

وَجِثَّتْكَ مِنْ سَبَا بَنِي يَاقِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُكُمْ وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

فكافح^(١) سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمّة، ابتلاء له في علمه. وفيه دليل بطلان قول الرافضة: إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه ﴿وَجِثَّتْكَ مِنْ سَبَا﴾ غير منصرف، أبو عمرو. وجعله اسماً للقبيلة، أو: المدينة. وغيره بالتنوين. جعله اسماً للحَيّ، أو: الأب الأكبر ﴿بَنِي يَاقِينَ﴾ النبا: الخبر الذي له شأن. وقوله: ﴿من سبأ نبأ﴾ من محاسن الكلام. ويسمى البديع، وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى هاهنا. ألا ترى أنّه لو وضع مكان ﴿نبأ﴾ بخبر؛ لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح؛ لما في النبا من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

٢٣ - ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل. وكان أبوها ملك أرض اليمن، وقد ولد له أربعون ملكاً ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت على الملك. وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس. والضمير في: ﴿تَمْلِكُكُمْ﴾ راجع إلى سبأ على تأويل القوم، أو: أهل المدينة ﴿وَأُوتِيتَ﴾ حال. و﴿قد﴾ مقدرة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا ما يليق بحالها ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ كبير. قيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً، وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً. وكان من ذهب وفضة. وكان مرضعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودرّ، وزمرد، وعليه سبعة أبيات، على كلّ بيت باب مغلق. واستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم عرشها، كذلك. وقد أخفى الله تعالى على سليمان لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب - عليهما السلام -.

٢٤ - ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: سبيل التوحيد ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق. ولا يبعد من

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

الهدهد التهدي إلى معرفة الله تعالى، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاء العقول يهتدون لها.

٢٥ - ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد. أي: ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ لثلاث ﴿يسجدوا﴾ فحذف الجار مع أن، وأدغمت النون في اللام. ويجوز أن تكون ﴿لا﴾ مزيدة. ويكون المعنى: ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى أن يسجدوا. وبالتخفيف: يزيد، وعلي. وتقديره: ﴿ألا﴾ يا هؤلاء ﴿اسجدوا﴾. فـ﴿ألا﴾ للتنبيه، و﴿يا﴾ حرف النداء، ومناداه محذوف. فمن شدّد لم يقف إلا على ﴿العرش العظيم﴾. ومن خفّف وقف على ﴿فهم لا يهتدون﴾ ثم ابتدأ ﴿ألا﴾ يا اسجدوا. وسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً بخلاف ما يقوله الزجاج: إنّه لا يجب السجود مع التشديد؛ لأنّ مواضع السجدة إمّا أمر بها، أو مدح للآتي بها، أو: ذم لتركها. وإحدى القراءتين أمر، والأخرى ذم للترك ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ سمي المخبوء بالمصدر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قتادة: خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾^(١) وبالناء فيهما: علي، وحفص.

٢٦ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وَصَفُ الهدهد عرش الله بالعظم تعظيماً له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وَوصفه عرش بلقيس تعظيماً له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. إلى هاهنا كلام الهدهد.

٢٧ - فلما فرغ من كلامه ﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنْظُرُ﴾ من النظر؛ الذي هو التأمل ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. وهذا

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿يخفون... يعلنون...﴾ وهي قراءة: حمزة، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٤/٣٤٨).

أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓءَا
إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾

أبلغ من: أم كذبت؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به، فلم يوثق به. ثم كتب سليمان كتاباً صورته: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فلا ﴿تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾. وطبعه بالمسك، وختمه بخاتمه. وقال للهدهد:

٢٨ - ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ﴾ بسكون الهاء تخفيفاً، أبو عمرو، وعاصم، وحزمة. ويختلسها كسر لتدل الكسرة على الياء المحذوفة؛ يزيد وقالون ويعقوب. ﴿فألقه﴾ بإثبات الياء: غيرهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معها في قوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤] وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تنح ﴿عنهم﴾ إلى مكان قريب، بحيث تراهم ولا يرونك؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما الذي يردونه من الجواب.

٢٩ - فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره، ودخل عليها من كوة، فطرح الكتاب على نحرها، وهي راقدة، وتوارى في الكوة، فانتبهت فزعة. أو: أتاها والجنود حوالها فرفرف ساعة، فألقى الكتاب في حجرها، وكانت قارئة. فلما رأت الخاتم ﴿قَالَتْ﴾ لقومها خاضعة خائفة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓءَا إِنِّي﴾ وبفتح الياء: مدني ﴿أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ حسن مضمونه وما فيه، أو محتوم. قال ﷺ: «كرامة الكتاب: ختمه»^(١). وقيل: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخفت به. أو: مصدر بيسم الله الرحمن الرحيم، أو: لأنه من عند ملك كريم.

٣٠ - ﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو تبين لما ألقى إليها، كأنها لما قالت ﴿إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾، قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ كيت وكيت.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٩).

أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُوفِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَأْخُذُهَا الْمَلَكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً

٣١ - «أَنْ» في: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ لا تترفعوا ﴿عَلَىٰ﴾ ولا تتكبروا كما تفعل الملوك مفسرة كقوله: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا﴾ [ص: ٦] يعني: أي: امشوا - ﴿وَأُتُوِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين، أو: منقادين. وكتب الأنبياء - عليهم السلام - مبنية على الإيجاز، والاختصار.

٣٢ - ﴿قَالَتْ يَأْخُذُهَا الْمَلَكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليّ في الأمر الذي نزل بي. والفتوى: الجواب في الحادثة؛ اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء في السن. والمراد - هنا - بالفتوى: الإشارة عليها بما عندهم من الرأي. وقصدها بالرجوع إلى الاستشار بهم تطييب أنفسهم ليمالئوها، ويقوموا معها ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فاصلة، أو: ممضية حكماً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ - بكسر النون. والفتح لحن؛ لأن النون إنّما تُفتح في موضع الرفع، وهذا في موضع النصب. وأصله: تشهدونني، فحذفت النون الأولى للنصب. والياء لدلالة الكسرة عليها. وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب، أي: تحضروني، أو: تشيروني، وتشهدوا أنّه صواب، أي: لا أبتُ أمراً إلاّ بمحضركم. قيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كلّ واحد على عشرة آلاف.

٣٣ - ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ أرادوا بالقوة: قوة الأجساد، والآلات، وبالبأس: النجدة، والبلاء في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: موكلٌ هو إليك، ونحن مطيعون لك، فمرينا بأمرك نطعك، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال. أو: أرادوا: نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي، والمشورة، وأنت ذات الرأي، والتدبير، فانظري ماذا ترين نتبع رأيك. فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة، ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه، وأرثتهم الخطأ فيه، حيث:

٣٤ - ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة، وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أذلّوا أعزتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا، وأسروا.

وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فذكرت لهم سوءَ مغبة الحرب. ثم قالت: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك، ورأت، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية، وما رأت من الرأي السديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها. واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية. ومن استباح حراماً فقد كفر. فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف، فقد جمع بين كفرين.

٣٥ - ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ أي: ﴿مرسلة﴾ رسلاً ﴿بهديَّةٍ﴾ ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ فمنتظرة ﴿بِمَ﴾ أي: بما؛ لأنَّ الألف تحذف مع حرف الجر في: «ما» الاستفهامية - ﴿يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ بقبولها أم بردها؛ لأنها عرفت عادة الملوك، وحُسن مواقع الهدايا عندهم. فإن كان ملكاً قبلها وانصرف، وإن كان نبياً ردها، ولم يرضَ منا إلا أن نتبعه على دينه. فبعثت خمسمئة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن، راكبي خيل مغطاة بالديباج، ومحللة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمئة جارية على رماك^(١) في زي الغلمان، وألف لبننة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدرّ والياقوت، وحُققاً فيه درة عذراء، وجزعة معوجة الثقب. وبعثت رسلاً، وأمّرت عليهم المنذر بن عمرو، بدليل قوله تعالى ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾. وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحق، واثقب الدرة ثقباً مستويّاً، [واسلك في الخزانة خيطاً]^(٢). ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولنك منظره، وإن رأته بشاً لطيفاً فهو نبي. فأقبل الهدهد، فأخبر سليمان الخبر كله. فأمر سليمان - عليه السلام - الجن، فضربوا لبنات الذهب والفضة، وفرشوها في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبانات. وأمر بأولاد الجن - وهم خلق كثير - فأقيموا عن

(١) «رماك»: أي: إناث الخيل.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، ومستدرك من المطبوع.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتِمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَاتْنِي ۖ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

اليمين واليسار، ثم قعد على سريرته والكراسي من جانيبه. واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك. فلما دنا القوم، ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا. ولما وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طلقٍ، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه، وقال: أين الحق؟ فأمر الأَرْضَةَ فأخذت شعرة، ونفذت في الدرة، فأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت فيها^(١)، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه. ثم ردّ الهدية، وقال للمنذر: ﴿ارجع إليهم﴾.

٣٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ رسولها المنذر بن عمرو ﴿سُلَيْمَنُ قَالَ أَتِمِدُّونَنِي بِمَالٍ؟﴾ بنونين، وإثبات الباء في الوصل والوقف: مكّي وسهل. وافق: مدني، وأبو عمرو في الوصل. ﴿أَتِمِدُّونَنِي﴾: حمزة، ويعقوب في الحالين. وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما. والخطاب للرسول ﴿فَمَاءَاتْنِي ۖ اللَّهُ﴾ من النبوة، والملك، والنعمة. وافتح الباء: مدني، وأبو عمرو، وحفص ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ من زخارف الدنيا ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ الهدية: اسم المهدي، كما أنّ العطية اسم المعطى، فتضاف إلى المهدي والمهدي له. تقول: هذه هدية فلان، تريد: هي التي أهداها، أو: أهديت إليه. والمعنى: أنّ ما عندي خير مما عندكم، وذلك أنّ الله آتاني الدين الذي فيه الحظّ الأوفر، والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يُستزاد عليه. فكيف يرضى مثلي بأنّ يمدّ بمال؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزدادون، ويُهدى إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همّتكم. وحالي خلاف حالكم، وما أرضى منكم بشيء، ولا أفرح به إلّا بالإيمان، وترك المجوسية. والفرق بين قولك: أتمدني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء، أنّي إذا قلته بالواو جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي في الغنى، وهو مع ذلك يمدني بمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن

(١) أي: في الخزة المارّ ذكرها.

أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِجْزُورٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَأَيَّأُ الْمَلَكُوتُ أَتَيْتُمُ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفَرْتُ مِنْ آلِجِنِّ أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ

خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بما لا احتاجُ معه إلى إمداده، كآني أقول له: أنكر عليك ما فعلت؛ فأني غني عنه. وعليه ورد: ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ﴾.

وَوَجْهُ الإضراب: أنه لما أنكر عليهم الإمداد، وعلل إنكاره؛ أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يُهدى إليهم حظ من الدنيا؛ التي لا يعلمون غيرها.

٣٧ - ﴿أَرْجِعْ﴾ خطاب للرسول، أو: الهدهد محملاً كتاباً آخر ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِجْزُورٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا﴾ لا طاقة ﴿لَهُمْ بِهَا﴾ وحقيقة القبل: المقاومة، والمقابلة، أي: لا يقدر أن يقابلوه ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز، والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر، واستعباد.

٣٨ - فلما رجع إليها رسولها بالهدايا، وقصَّ عليها القصة، قالت: هو نبي، ومالنا به طاقة. ثم جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات، وغلقت الأبواب، ووكلت به حرساً يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه. وشخصت إليه في اثني عشر ألف قبيل^(١)، تحت كل قبيل ألف. فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان ﴿قَالَ يَتَأَيَّأُ الْمَلَكُوتُ أَتَيْتُمُ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان عليه السلام. - أو: أراد أن يأخذه قبل أن تسلم، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها. وهذا بعيد عند أهل التحقيق. أو: أراد أن يؤتى به فينكر، ويغير، ثم ينظر أثبته، أم تنكره، اختباراً لعقلها.

٣٩ - ﴿قَالَ عَفَرْتُ مِنْ آلِجِنِّ﴾ وهو: الخبيث المارد، واسمه ذكوان: ﴿أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ مجلس حكمك، وقضائك ﴿وَأِنِّي عَلَيْهِ﴾ على حمله

(١) «القبيل»: من ملوك اليمن في الجاهلية، دون الملك الأعظم.

لَقَوِيٍّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ

﴿لَقَوِيٍّ أَمِينٌ﴾ آتى به كما هو، لا اختزل منه شيئاً، ولا أبدله. فقال سليمان - عليه السلام -: أريد أعجلَ من هذا.

٤٠ - ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ - أي: ملك بيده كتاب المقادير، أرسله الله تعالى عند قول العفريت، أو: جبريل - عليه السلام -. والكتاب على هذا: اللوح المحفوظ. أو: الخضر. أو: آصف بن برخيا كاتب سليمان - عليه السلام -. وهو الأصح. وعليه الجمهور. وكان عنده اسمُ الله الأعظم؛ الذي إذا دُعي به أجاب، وهو: يا حيّ، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام. أو: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت. وقيل: كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً - : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ بالعرش. و﴿آتَيْكَ﴾ في الموضعين يجوزُ أن يكون فعلاً، أو: اسم فاعل. ومعنى قوله ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك. ويروى أن آصف قال لسليمان - عليه السلام -: مُدَّ عَيْنِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ طَرْفُكَ. فمدَّ عينيه، فنظر نحو اليمين، ودعا آصف، فغار العرش في مكانه، ثم نبغ عند مجلس سليمان - عليه السلام - بقدرة الله تعالى، قبل أن يَرُدَّ طرفه ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ أي: العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ ثابتاً لديه، غير مضطرب ﴿قَالَ هَذَا﴾ أي: حصول مرادي، وهو حضور العرش، في مدة ارتداد الطرف ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ عليّ، وإحسانه إليّ بلا استحقاق مني، بل هو فضلٌ خالٍ عن العوض، صافٍ عن الغرض ﴿لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرُ﴾ ليمتحنني ﴿أَشْكُرُ﴾ إنعامه ﴿أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران، ويستجلب به المزيد، وترتبط به النعمة، فالشكر قيدٌ للنعمة الموجودة، وصيدٌ للنعمة المفقودة. وفي كلام بعضهم: «إِنَّ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ بَوَارٍ. وَقَلَمَا اتَّسَعَتْ»^(١) نافرة فرجعت في نصابها. فاستدع شاردتها

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: أقشعت.

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ غَيْثٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

بالشكر. واستدتم رايها بكرم الجوار. واعلم أن سبوع ستر الله تعالى متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقاراً أي: لم تشكر الله نعمه ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعمة ﴿فَإِنَّ رَيْبَ غَيْثٍ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٍ﴾ بالإينعام على من يكفر نعمته. قال الواسطي: ما كان مِنَّا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنة والفضل علينا.

٤١ - ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروا، أي: اجعلوا مقدمه مؤخره، وأعلاه أسفله ﴿نَنْظُرْ﴾ بالجزم على الجواب ﴿أَتَنْتَدِي﴾ إلى معرفة عرشها، أو: للجواب الصواب إذا سُئِلَتْ عنه ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٤٢ - ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلفيس ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ ها: للتنبيه. والكاف: للتشبيه، وذا: اسم إشارة. ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكن: أمثل هذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فأجابت أحسن جواب. فلم تقل: هو هو، ولا ليس به. وذلك من راحة عقلها، حيث لم تقطع في المحتمل للأميرين. أو: لما شَبَّهوا عليها بقولهم: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ شَبَّهت عليهم بقولها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ مع أنها علمت أنه عرشها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ من كلام بلفيس. أي: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بقدرة الله تعالى، وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من أمر الهدد والرسول، من قبل هذه المعجزة، أي: أخبار^(١) العرش، أو: من قبل هذه الحالة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لك، مطيعين لأمرك. أو: من كلام سليمان وملته. عطفوا على كلامها قولهم: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بالله، وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها. أو: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة من قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ موحدتين، خاضعين.

٤٣ - ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متصل بكلام سليمان. أي: وصدَّها

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: إحضار.

إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّكُمْ صَرَحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

عن العلم بما علمناه - أو: عن التقدم إلى الإسلام - عبادة الشمس، ونشوها بين ظهرائي الكفرة. ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. أو: كلام مبتدأ. أي: قال الله تعالى: ﴿وصدّها﴾ قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل. أو: ﴿صدّها﴾ الله، أو: سليمان عما ﴿كانت تعبد﴾ بتقدير حذف الجار، وإيصال الفعل.

٤٤ - ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصر، أو: صحن الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء عظيماً ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ ﴿سَاقِهَا﴾: بالهمزة: مكّي. روي: أَنَّ سُلَيْمَانَ أَمَرَ قَبْلَ قُدُومِهَا، فَبَنَى لَهُ عَلَى طَرِيقِهَا قَصْرًا مِنْ زَجَاجٍ أَبْيَضَ، وَأَجْرَى مِنْ تَحْتِهِ الْمَاءَ، وَأَلْقَى فِيهِ السَّمَكَ وَغَيْرَهُ، وَوَضَعَ سَرِيرَهُ فِي صَدْرِهِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَعَكَفَ عَلَيْهِ الطَّيْرُ، وَالْجَنُّ، وَالْإِنْسُ. وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِزَيْدِهَا اسْتِعْظَامًا لِأَمْرِهِ، وَتَحْقِيقًا لِنَبْوَتِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْجَنَّ كَرِهُوا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَتَفْضِي إِلَيْهِ بِأَسْرَارِهِمْ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِنْتُ جَنَّةٍ! وَقِيلَ: خَافُوا أَنْ يُولَدَ لَهُ مِنْهَا وَلَدٌ يَجْمَعُ فِطْنَةَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَانَ إِلَى مُلْكِهِ هُوَ أَشَدُّ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ فِي عَقْلِهَا شَيْئًا، وَهِيَ شَعْرَاءُ السَّاقِينَ، وَرَجُلُهَا كَحَافِرِ الْحِمَارِ. فَاخْتَبَرَ عَقْلَهَا بِتَنْكِيرِ الْعَرْشِ، وَاتَّخَذَ الصَّرْحَ لِيَتَعَرَفَ سَاقِهَا وَرَجُلُهَا. فَكَشَفَتْ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ أَحْسَنُ النَّاسِ سَاقًا وَقَدَمًا - إِلَّا أَنَّهَا شَعْرَاءُ - فَصَرَفَ بَصَرَهُ، ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ لَهَا: ﴿إِنَّكُمْ صَرَحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مَمْلُوسٌ مُسْتَوْ - وَمِنْهُ: الْأَمْرَدُ - ﴿مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ مِنَ الزَّجَاجِ. وَأَرَادَ سُلَيْمَانُ تَرْوِيجَهَا، فَكَرِهَ شَعْرَهَا، فَعَمِلَتْ لَهَا الشَّيَاطِينُ النُّورَةَ، فَأَزَالَتِهَا، فَنَكَحَهَا سُلَيْمَانُ، وَأَحْبَبَهَا، وَأَقْرَبَهَا عَلَى مَلِكِهَا. وَكَانَ يَزُورُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّةً، فَيَقِيمُ عِنْدَهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَوُلِدَتْ لَهُ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِعِبَادَةِ الشَّمْسِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَحْتَالَ سُلَيْمَانُ -

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

عليه السلام - لينظر إلى ساقها وهي أجنبية. فلا يصح القول بمثله.

٤٥ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا﴾ بدل ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بكسر النون في الوصل: عاصم، وحزة، وبصري. وبضمّ النون: غيرهم إتباعاً للباء. والمعنى: بأن اعبدوا الله، أي: وُحْدُوهُ ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُم﴾ مبتدأ ﴿فَرِيقَانِ﴾ خبر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة. وهي العامل في ﴿إِذَا﴾. والمعنى: فإذا قوم صالح ﴿فَرِيقَانِ﴾ مؤمن به وكافر به ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فيقول كل فريق: الحقّ معي. وهو مبين في قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿[الأعراف: ٧٥ - ٧٦]. وقال الفريق الكافر: ﴿يَصْلِحُ اثْنَانِ بِمَا قُودْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

٤٦ - ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب الذي توعدون به ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة؟ ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإجابة.

٤٧ - ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ﴾ تشاء منا بك؛ لأنهم قُحِطُوا عند مبعثه؛ لتكذيبهم؛ فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: ﴿تَطِيعْنَا﴾. وقرئ به. فأدغمت التاء في الطاء، وزيدت الألف لسكون الطاء ﴿وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: سبيكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره، وقسمته. أو: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم، وقتنة. ومنه: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِ طَائِرٌ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. وأصله: أَنَّ المسافر إذا مرّ بطائر فيزجره، فإن مرّ سانحاً^(١) تيامن. وإذا مرّ

(١) «سانحاً»: السانح: ما ولاك ميامنه، بأن يمر من ميسارك إلى ميامنك.

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾

بارحاً^(١) تشاءم. فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله، وقسمته، أو: من عمل العبد؛ الذي هو السبب في الرحمة، والتقمة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون، أو: تعذبون بذنوبكم.

٤٨ - ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود، وهي: الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو جمع لا واحد له، ولذا جاز تمييز التسعة به. فكأنه قيل: تسعة أنفس. وهو من الثلاثة إلى العشرة. وعن أبي ذرٍّ^(٢): رأسهم قدار بن سالف. وهم الذين سعوا في عقر الناقة. وكانوا أبناء أشرافهم ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت، لا يخلط بشيء من الصلاح، كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح. وعن الحسن: يظلمون الناس، ولا يمنعون الظالمين من الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معائب الناس، ولا يسترون عوراتهم.

٤٩ - ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ تحالفوا - خبر في محل الحال بإضمار قد، أي: ﴿قَالُوا﴾ متقاسمين. أو: أمر، أي: أمر بعضهم بعضاً بالقسم - ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ لنقتله بياتاً، أي: ليلاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ولده وتبعه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ لولي دمه. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ بالتاء ويضم التاء الثانية ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالتاء وضم اللام: حمزة، وعلي ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾: حفص. ﴿مَهْلِكَ﴾: أبو بكر، وحماد، والمفضل، من: هلك. فالأول: موضع الهلاك، والثاني: المصدر. ﴿مُهْلِكَ﴾: غيرهم، من: أهلك، وهو الإهلاك، أو: مكان الإهلاك. أي: لم نتعرض لأهله، فكيف تعرضنا له؟ أو: ما حضرنا موضع هلاكه، فكيف توليناه؟ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما ذكرنا.

(١) «بارحاً»: البارح: ما ولاك مياسره، بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك.

(٢) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: دؤاد.

وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرَنًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ
عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا
ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَاثِبَيْنَا قُوتٍ ﴿٥٣﴾

٥٠ - ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرَنًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم: ما أخفوه
من تدبير الفتك بصالح - عليه السلام - وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث
لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روي: أنه كان لصالح
مسجد في الحجر في شعبٍ يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى
ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث. فخرجوا إلى الشعب، وقالوا:
إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله صخرة من
الهضبة حيالهم^(١)، فبادروا، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر
قومهم أين هم، ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلاً منهم في مكانه،
ونجى صالحاً - عليه السلام - ومن معه.

٥١ - ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾ بفتح الألف:
كوفي، وسهل، وبكسرهما: غيرهم، على الاستئناف. ومن فتحه رفعه على أنه
بدل من العاقبة، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهي تدميرهم. أو: نصبه على
معنى لـ ﴿أنا﴾، أو: على أنه خبر كان، أي: كان عاقبة مكرهم الدمار
﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالصيغة.

٥٢ - ﴿فَبِتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ﴾ ساقطة منهمة، من: خوى النجم؛ إذا
سقط. أو: خالية من الخواء. وهي حال عمل فيها ما دلّ عليه ﴿تلك﴾.
﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعل بشمود ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا، فيتعظون.

٥٣ - ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَاثِبَيْنَا قُوتٍ﴾ ترك أوامره،

(١) «صخرة من الهضبة حيالهم»: أي: من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة. وقعد «حياله»:
أي: إزاءه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْتَكُمْ لَأَتُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ
قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُّوطِ مِّنْ قَرِيْبَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

وكانوا أربعة آلاف، نجوا مع صالح من العذاب.

٥٤ - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ﴾ أي: واذكر ﴿لُوطًا﴾. و﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿لُوطًا﴾
أي: واذكر وقت قول لوط ﴿لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: إتيان الذكور
﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها؛ من: بصر القلب. أو:
يرى ذلك بعضهم من بعض؛ لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها
لا يتستر بعضهم من بعض مجانةً، وانهماكاً في المعصية. أو: ﴿تبصرون﴾ آثار
العصاة قبلكم، وما نزل بهم. ثم صرح فقال:

٥٥ - ﴿أَيْتَكُمْ﴾ بهمزة: كوفي، وشامي ﴿لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ للشهوة
﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: أن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر
للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادة لله في حكمته ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾
تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك. أو: أريد بالجهل:
السفاهة، والمجانة التي كانوا عليها. وقد اجتمع الخطاب والغيبة في قوله: ﴿بَلْ
أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ و﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] فغلب الخطاب على
الغبية لأنه أقوى، إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين.

٥٦ - ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُّوطِ﴾ أي: لوطاً
ومتبعيه. فخير ﴿كَانَ﴾: ﴿جواب﴾. واسمه: ﴿أَنْ قَالُوا﴾: ﴿مِّنْ قَرِيْبَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ ينتزهون عن القذورات^(١)، فينكرون هذا العمل القذر،
ويغيظنا إنكارهم. وقيل: هو استهزاء: كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيبُ الرَّشِيدُ﴾
[هود: ٨٧].

٥٧ - ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: القاذورات.

قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْرِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

قَدَرْنَاهَا ﴿٥٧﴾ بالتشديد، سوى حماد، وأبي بكر. أي: قدرنا كونها ﴿٥٨﴾ مِنَ الْغَيْرِ ﴿٥٩﴾ من الباقيين في العذاب.

٥٨ - ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿٥٨﴾ حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها ﴿٥٩﴾ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٩﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار.

٥٩ - ﴿٥٩﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴿٥٩﴾ أمر رسوله محمدًا ﷺ بتحميده، ثم بالصلاة على المصطفين من عباده؛ توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شيء. وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما، ويستظهر بمكانهما. أو: هو خطاب للوط - عليه السلام - وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على من اصطفاه الله، ونجاه من هلكتهم، وعصمه من ذنوبهم ﴿٥٩﴾ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ بالياء: بصري، وعاصم. ولا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شيء. وإنما هو إلزام لهم، وتهكم بحالهم. وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره من زيادة خير، ومنفعة. ف قيل لهم - مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثره لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً -: لينبهوا على الخطأ المفرط، والجهل المورط؛ وليعلموا: أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله خير، وأبقى، وأجل، وأكرم»^(١).

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، فقال:

٦٠ - ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿٥٩﴾ والفرق بين ﴿أم﴾ و﴿أم﴾ في ﴿أما يشركون﴾ و﴿أمن خلق السموات﴾ أن تلك متصلة، إذ المعنى: أيهما خير،

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي غير إسناد، وأخرجه الثعلبي في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر... (حاشية الكشاف ٣/ ٣٧٥).

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة. لما قال ﴿الله خير﴾ أم الآلهة، قال: بل ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ خير، تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته، وإيداناً بأن إنبات الحدائق - المختلفة الأصناف، والألوان، والطُعم، والأشكال مع حسنها - بماء واحد، لا يقدر عليه إلا هو وحده ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿حَدَائِقَ﴾ بساتين. والحديقة: البستان عليه حائط. من الإحداق، وهو: الإحاطة ﴿ذَاتَ﴾ ولم يقل ذوات؛ لأنَّ المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت ﴿بَهْجَةٍ﴾ حسن، لأنَّ الناظر يبتهجُّ به، ثم رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء. أراد: أن تأتي ذلك محالاً من غيره ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ أغیره يقرن به، ويجعل شريكاً له ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره. أو: ﴿يعدلون﴾ عن الحق الذي هو التوحيد. و﴿بل هم﴾ بعد الخطاب أبلغ في تحطئة رأيهم.

٦١ - ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ﴾ وما بعده بدل من ﴿أم من خلق﴾ فكان حكمها حكمه. ﴿قَرَارًا﴾ دحاها، وسواها للاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾ ظرف، أي: وسطها. وهو المفعول الثاني. والأول ﴿أَنْهَارًا﴾. و﴿بين البحرين﴾ مثله ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ للأرض ﴿رَوَاسٍ﴾ جبلاً تمنعها عن الحركة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ مانعاً أن يختلطاً ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوحيد، فلا يؤمنون.

٦٢ - ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الاضطرار: افتعال من الضرورة، وهي: الحالة المحوجة إلى اللجأ. يقال: اضطره إلى كذا. والفاعل والمفعول مضطر. والمضطر: الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر إلى الإلجاء

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا
 تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ
 بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
 صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ

والتضرع إلى الله، أو: المذنب إذا استغفر، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع
 يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد، وهو منه على خطر ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾
 الضرر، أو: الجور ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: فيها. وذلك توارثهم
 سكنائها والتصرف فيها قرناً بعد قرن. أو: أراد بالخلافة: الملك، والتسلط
 ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^(١) وبالياء: أبو عمرو. وبالتخفيف: حمزة،
 وعلي، وحفص. و﴿مَّا﴾ مزيدة. أي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تذكراً قليلاً.

٦٣ - ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم بالنجوم ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليلاً،
 وبعلامات في الأرض نهاراً ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ﴾ الريح: مكى، وحمزة، وعلي
 ﴿بُشْرًا﴾ من البشارة. وقد مر^(٢) ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام المطر ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ
 تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٦٤ - ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئ الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وإنما قيل لهم: ﴿ثُمَّ
 يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة؛ لأنه أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة،
 والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: المطر
 ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ النبات ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾
 حاجتكم على إشراككم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن مع الله إلهاً آخر.

٦٥ - ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿مَنْ﴾ فاعل ﴿يعلم﴾.

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير،
 وعاصم، وأبي عمرو، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان، ويعقوب، وأبي جعفر،
 معجم القراءات القرآنية (٣٦٣/٤).

(٢) أي في سورة الأعراف آية (٥٧).

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمُ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ
مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

و﴿الغيب﴾ - وهو ما لم يقم عليه دليلٌ، ولا اطلع عليه مخلوق -: مفعوله .
﴿والله﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ . والمعنى: لا يعلم أحدُ الغيبِ إلا الله . نعم إنَّ الله
يتعالى عن أن يكونَ مَقْنٌ في السموات والأرض، ولكنه جاء على لغة بني تميم،
حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل، يجيزون النصب والبدل في المنقطع
كما في المتصل، ويقولون: ما في الدار أحد إلا حمار . قالت عائشة - رضي الله
عنها -: من زعم أنه يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية . والله تعالى
يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ . وقيل: نزلت
في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يعلمون
﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ينشرون .

٦٦ - ﴿بَلِ أَدْرَكَ﴾: مكِّي، وبصري، ويزيد، والمفضل . أي: انتهى
وتكامل، من: أدركت الفاكهة: تكاملت نضجاً . ﴿بَلِ أَدْرَكَ﴾ عن الأعشى .
افتعل . ﴿بَلِ أَدْرَكَ﴾: غيرهم . استحكم . وأصله: تدارك، فأدغمت التاء في
الدال، وزيد ألف الوصل ليتمكن التكلم بها ﴿عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في شأن
الآخرة، ومعناها . والمعنى: أنَّ أسباب استحكام العلم وتكامله بأنَّ القيامة
كائنة قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته، وهم شاكون جاهلون . وذلك
قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ . والإضرابات الثلاثة تنزيل
لأحوالهم، وتكرير لجهلهم . وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم
بأنهم لا يعلمون أنَّ القيامة كائنة، ثم بأنهم يخطبون في شكٍّ ومرية، فلا
يزيلونه، والإزالة مستطاعة، ثم بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى . وقد جعل
الآخرة مبتدأ عما هم ومنشأه؛ فلذا عداه بـ «من» دون «عن» لأنَّ الكفر بالعاقبة
والجزاء هو الذي منعهم عن التدبر، والتفكير . ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية
- وهو وصفُ المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكين من
المعرفة - بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب؛ أنَّ العباد لا علم لهم
بشيء منه: أنه لما ذكر أنَّ العباد لا يعلمون الغيب؛ كان هذا بياناً لعجزهم،

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا ابْنَاءَ الْمُخْرُجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه، وهو وقت جزاء أعمالهم: لا يكون - مع أن عندهم أسباب معرفة كونه، واستحكام العلم به. وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكماً بهم، كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزاء. وذلك حيث شكوا، وعموا عن إثباته، الذي الطريق إلى عمله مسلوكة، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه، الذي لا طريق إلى معرفته. ويجوز أن يكون ﴿أدرك﴾ بمعنى: انتهى وفني، من قولك: أدركت الشجرة؛ لأن تلك غايتها التي عندها تُعَدُّ. وقد فسرها الحسن بـ: اضمحل علمهم في الآخرة. و﴿تدارك﴾ من: تدارك بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك.

٦٧ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا ابْنَاءَ الْمُخْرُجُونَ﴾ من قبورنا أحياء؟! وتكرير حرف الاستفهام في: «إذا» و«إن» في قراءة عاصم، وحمزة، وخلف، إنكار بعد إنكار، وجحود عقيب جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل في «إذا» ما دلّ عليه «لمخرجون» وهو نخرج؛ لأن اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام، أو أن، أو لام الابتداء، لا يعمل فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن؟ والضمير في «إننا» لهم ولآبائهم؛ لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآبائهم، لكنه غلبت الحكاية على الغائب. «وآباؤنا» عطف على الضمير في «كنّا» لأن المفعول جرى مجرى التوكيد.

٦٨ - ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ أي: البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل محمد ﷺ. قدّم هنا «هذا» على ﴿نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا﴾ وفي المؤمنون قدّم ﴿نحن﴾ و﴿آباؤنا﴾ على «هذا» ليدلّ على أن المقصود بالذكر هو البعث هنا، وثمّ المبعوث ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا إلا أحاديثهم، وأكاذيبهم.

٦٩ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: آخر أمر الكافرين. وفي ذكر الإجماع لطف للمسلمين في ترك الجرائم، كقوله تعالى:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] وقوله: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥].

٧٠ - ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجل أنهم لم يتبعوك، ولم يُسَلِّمُوا فَيَسَلِّمُوا ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم وكيدهم لك، فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضيقاً بالفتح، وهو قراءة غير ابن كثير، وبالكسر، وهو قراءته.

٧١ - ﴿وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِالْمَكْذَبِ.

٧٢ - ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استعجلوا العذاب الموعود، فقل لهم: عسى أن يكون ردفكم بعضه، وهو عذاب يوم بدر، فزيدت اللام للتأكيد كالباء في: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. أو: ضَمَّنَ معنى فعل يتعدى باللام، نحو: دنا لكم، وأزف لكم. ومعناه: تبعكم، ولحقكم، وعسى ولعلّ وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدلّ على صدق الأمر، وجده، فعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

٧٣ - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: إفضال ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بترك المعالجة بالعذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه، ولا يشكرونه، فيستعجلون العذاب بجهلهم.

٧٤ - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرهم من القول. فليس تأخير العذاب عنهم لحفاء حالهم، ولكن له وقت مقدّر. أو: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ، ومكائدهم، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه. وقرئ ﴿تَكُنْ﴾ يقال: كنت الشيء، وأكنته: إذا

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

سترته، وأخفيته.

٧٥ - ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سَمَى الشَّيْءَ الَّذِي يَغِيبُ

ويخفى: غائبة، وخافية. والتاء فيهما كالتاء في العافية والعاقبة، ونظائرهما: الرمية، والذبيحة، والنطيحة في أنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتاؤهما للمبالغة كالراوية. كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة إلا وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبتته في اللوح المحفوظ. والمبين: الظاهر، البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

٧٦ - ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: يبين لهم ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإنهم اختلفوا في المسيح، فتحزبوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة، حتى لعن بعضهم بعضاً. وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا، وأخذوا به، وأسلموا. يريد: اليهود، والنصارى.

٧٧ - ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن القرآن ﴿لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم، وآمن، أي: من بني إسرائيل. أو: منهم، ومن غيرهم.

٧٨ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: بعدله؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل، فسمي المحكوم به حكماً. أو: بحكمته. ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿بِحُكْمِهِ﴾ جمع حكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يردّ قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه. أو: ﴿العزیز﴾ في انتقامه من المبطلين، ﴿العليم﴾ بالفصل بينهم وبين المحقّين.

٧٩ - ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أمره بالتوكل على الله، وقلة المبالاة بأعداء الدين ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج، وهو: الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك. وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق على الله، وبنصرته.

إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٣﴾

٨٠، ٨١ - ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴿٨٢﴾ لَمَّا كَانُوا لَا يَعُونَ مَا يَسْمَعُونَ، وَلَا بِهِ يَنْتَفِعُونَ، شَبَّهُوا بالموتى، وهم: أحياء، صحاح الحواس، وبالصم الذين يُنْعَقُ بهم فلا يسمعون، وبالعُمى حيث يضلُّون الطريق، ولا يقدر أحدٌ أن يترع ذلك عنهم، ويجعلهم هداةً بصراءٍ إِلَّا الله عزَّ وجلَّ. ثُمَّ أَكَّدَ الْحَالِ الْأَصْمَ بِقَوْلِهِ ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لِأَنَّهُ إِذَا تَبَاعَدَ عَنِ الدَّاعِي بَانَ يُؤَلِّي عَنْهُ مُدْبِرًا، كَانَ أَبْعَدَ عَنِ إِدْرَاكِ صَوْتِهِ. ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ﴾: مكِّي، وكذا في الروم. ﴿وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى﴾ وكذا في الروم: حمزة: ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما يجدي إسماعك إِلَّا عَلَى الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ، أي: يصدقون بها ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني: جعله سالمًا، لله خالصًا له.

٨٢ - ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ سَمَّى مَعْنَى الْقَوْلِ وَمُؤَدَّاهُ بِالْقَوْلِ، وَهُوَ مَا وَعَدُوا مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَالْعَذَابِ. وَوُقُوعُهُ: حَصُولُهُ. وَالْمَرَادُ: مُشَارَفَةُ السَّاعَةِ، وَظُهُورُ أَشْرَاطِهَا، وَحِينَ لَا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هي: الجِثَّاسَةُ. فِي الْحَدِيثِ: «طُولُهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا، لَا يَدْرِكُهَا طَالِبٌ، وَلَا يَفُوتُهَا هَارِبٌ، وَلَهَا أَرْبَعُ قَوَائِمَ، وَزَغَبٌ، وَرِيشٌ، وَجَنَاحَانِ»^(١) وَقِيلَ: لَهَا رَأْسٌ ثَوْرٌ، وَعَيْنٌ خَتَزِيرٌ، وَأُذُنٌ فِيلٌ، وَقَرْنٌ أَيْلٌ، وَعُنُقٌ نَعَامَةٌ، وَصَدْرٌ أَسَدٌ، وَلَوْنٌ نَمْرٌ، وَخَاصِرَةٌ هَرَّةٌ، وَذَنْبٌ كَبْشٌ، وَخَفٌّ بَعِيرٌ، وَمَا بَيْنَ الْمَفْصَلَيْنِ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا، تَخْرُجُ مِنَ الصِّفَا فَتُكَلِّمُهُم بِالْعَرَبِيَّةِ، فَتَقُولُ: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(٢) بِخُرُوجِي، لِأَنَّ خُرُوجَهَا مِنَ الْآيَاتِ. وَتَقُولُ: أَلَّا لَعْنَةُ

(١) قَالَ الْحَافِظُ: أَخْرَجَهُ الثَّعْلَبِيُّ مِنْ حَدِيثِ حَظِيفَةَ. (حَاشِيَةُ الْكَشَافِ ٣ / ٣٨٤).

(٢) أَثْبَتَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْأَصْلِ قِرَاءَةَ: ﴿إِنْ﴾ بِالْكَسْرِ وَهِيَ قِرَاءَةُ: ابْنِ عَامِرٍ، =

وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ
 أَكُذِّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا
 ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

الله على الظالمين. أو: تكلمهم ببطان الأديان كلها سوى دين الإسلام، أو: بأن هذا مؤمن، وهذا كافر. وفتح ﴿أَنْ﴾: كوفي وسهل، على حذف الجار، أي: تكلمهم بأن. وغيرهم كسروا؛ لأنَّ الكلامَ بمعنى القول، أو: بإضمار القول، أي: تقول الدابة ذلك. ويكون المعنى: بآيات ربنا، أو هي حكاية لقول الله تعالى عند ذلك. ثم ذكر قيام الساعة فقال:

٨٣ - ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ «مِنْ»: للتبعيض، أي: واذكر يوم نجتمع من كل أمة من الأمم زمرة ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ﴾ «مِنْ»: للتبين ﴿بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على أنبيائنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد، وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة.

٨٤ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ حضروا موقف الحساب، والسؤال ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى تهديداً: ﴿أَكُذِّبْتُم بِآيَاتِي﴾ المنزلة على رسلي ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال، كأنه قال ﴿أَكُذِّبْتُم بِآيَاتِي﴾ بادية الرأي من غير فكر، ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق، أو: بالكذب؟ ﴿أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حيث لم تتفكروا فيها؟ فإنكم لم تخلقوا عبثاً.

٨٥ - ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي: يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

٨٦ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حال. جعل الإبصار للنهار، وهو لأهله. والتقابل مُراعى من حيث المعنى؛ لأنَّ معنى ﴿مبصراً﴾:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

ليصروا فيه طرق التقلب في المكاسب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون فيعتبرون. وفيه دليل على صحة البعث؛ لأنَّ معناه: ألم يعلموا أننا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا؛ ليعلموا أنَّ ذلك لم يجعل عبثاً، بل محنة وابتلاء، ولا بدَّ عند ذلك من ثوابٍ وعقاب. فإذا لم يكونا في هذه الدار، فلا بدَّ من دارٍ أخرى للثواب والعقاب.

٨٧ - ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن، أو: جمع صورة. والناfox إسرافيل - عليه السلام - ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ واختير ﴿فزع﴾ على يفزع؛ للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، فإنه كائن لا محالة. والمراد: فزعهم عند النفخة الأولى حين يُصْعَقُونَ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة. قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت - عليهم السلام -. وقيل: الشهداء، وقيل: الخور، وخزنة النار، وحمة العرش. وعن جابر - رضي الله عنه -: منهم موسى - عليه السلام - لأنه صُيِّق مرة. ومثله: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿وَكُلُّ أَتَوُهُ﴾: حمزة، وحفص، وخلف. ﴿أَتَوُهُ﴾: غيرهم، وأصله: آتيوه ﴿دَاخِرِينَ﴾ حال، أي: صاغرين. ومعنى الإتيان: حضورهم الموقف، أو رجوعهم إلى أمره، وانقيادهم له.

٨٨ - ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين: شامي، وحمزة، ويزيد، وعاصم. وبكسرهما: غيرهم. حال من المخاطب - ﴿جَامِدَةً﴾ واقفة، ممسكة عن الحركة - من: حمد في مكانه: إذا لم يرح - ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿تَحْسَبُهَا﴾ ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: مرّاً مثل مرّ السحاب. والمعنى: أنك إذا رأيت الجبال وقت النَّفخة ظننتها ثابتة في مكانٍ واحدٍ لعظمتها، وهي تسيرُ سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا يكادُ يُبَيِّنُ حركتها، كما قال النابغة في صفة جيش:

صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّكُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

بَارِعَنَ مِثْلَ الطُّودِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وَقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرَّكَابُ تَهْمَلُجُ^(١)

﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدر عمل فيه ما دلّ عليه ﴿تَمَرَّ﴾ لأنّ مُرورها كمرّ السحاب من صنّع الله، فكأنه قيل: صنع الله ذلك صنعا. وذكر اسم الله؛ لأنه لم يذكر قبل ﴿الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحكم خلقه ﴿إِنَّكُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يفعلون مكّي، وبصريّ غير سهل، وأبو بكر غير يحى، وغيرهم: بالتاء، أي: أنّه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك. ثمّ لخص ذلك بقوله:

٨٩ - ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بقول: لا إله إلا الله عند الجمهور ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّنْهَا﴾ أي: فله خيرٌ حاصل من جهتها، وهو الجنة. وعلى هذا لا يكون ﴿خير﴾ بمعنى أفضل، ويكون ﴿منها﴾ في موضع رفع صفة لخير ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ﴾ كوفي، أي: ﴿من فزع﴾ شديد، مفرط الشدة، وهو: خوف النار. أو: من فزع ما وإن قلّ. وبغير تنوين: غيرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كوفي، ومدنيّ. وبكسر الميم: غيرهم، والمراد: يوم القيامة ﴿ءَامِنُونَ﴾ أمّن يعدى بالجارّ وبنفسه، كقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

٩٠ - ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالشرك ﴿فَكُبَّتْ﴾ ألقيت ﴿وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يقال: كببت الرجل؛ ألقيته على وجهه، أي: ألقوا على رؤوسهم في النار. أو: عبّر عن الجملة بالوجه، كما يعبّر بالرأس والرقبة عنها، أي: ألقوا في النار. ويقال لهم تبيكيتاً عند الكبّ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك، والمعاصي.

(١) «الأرعن»: الجبل العالي. «الطود»: الجبل العظيم. «لحاج»: لحج السيف وغيره بالكسر؛ يلحج لحجاً: إذا نشب في الغمد، فلا يخرج. «الركاب»: المطي، لا واحد له من لفظه. «الهملجة»: السير الرهو السهل. والهملاج: السريع.

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْءٌ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سَيَرْيَكُوهُ آيَاتُهُ فَتَعْرِفُونَهَا

٩١ - ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ مكة ﴿الَّذِي حَرَمَهَا﴾ جعلها حرماً آمناً، يأمن فيها اللاجئ إليها، ولا يختل خلاها، ولا يعضد شوكتها، ولا ينفر صيدها ﴿وَلَمْ كُلْ شَيْءٌ﴾ مع هذه البلدة، فهو مالك الدنيا والآخرة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين له.

٩٢ - ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ من التلاوة، أو: من التلوة، كقوله: ﴿وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]. أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أحص الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش ﴿وَأَنْ أَكُونَ﴾ من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ لأعرف الحلال والحرام، وما يقتضيه الإسلام. وخص مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه، وأعظمها عنده. وأشار إليها بقوله: ﴿هذه﴾ إشارة تعظيم لها، وتقريب، دالاً على أنها موطن نبيه، ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم؛ الذي هو خاص وصفها، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته، كالتابع لدخولها تحتها ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إيتي فيما أنا بصده من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، والدخول في الملة الحنيفية، واتباع ما أنزل علي من الوحي ﴿فَأِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ﴾ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلي ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: ومن ضلّ ولم يتبني، فلا عليّ، وما أنا إلا رسول منذر ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

٩٣ - ﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سَيَرْيَكُوهُ آيَاتُهُ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ ثم أمره أن يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة، وأن يهّد أعداءه بما سيرهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها. وقيل: هو انشقاق القمر، والدخان، وما حلّ بهم

وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

من نقمات الله في الدنيا ﴿وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، مدني، وشامي، وحفص، ويعقوب. خطاب لأهل مكة. وبالياء: غيرهم. أي: كل عمل يعملونه فإن الله عالم به، غير غافل عنه. فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه.

* * *

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ ١ تَلَكَّ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا
يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

١، ٢ - ﴿طَسَّ ١ تَلَكَّ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يقال: بان الشيء، وأبان، بمعنى واحد. ويقال: أبنته. فأبان لازم ومتعد. أي: مبين خيره، وبركته، أو: مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد.

٣ - ﴿نَتَلَوُا عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك، أي: يقرؤه جبريل بأمرنا. ومفعول ﴿نتلوا﴾: ﴿مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: محقين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن سبق في علمنا أنه مؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

٤ - ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل، كأن قائلًا قال: وكيف كان نبؤهما؟ فقال: إن فرعون ﴿عَلَا﴾ طغى، وجاوز الحد في الظلم، أو استكبر، وافتخر بنفسه، ونسي العبودية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مملكته، يعني: مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد، ويطيعونه، لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه. أو: فرقاً مختلفة، يكرم طائفة، ويهين أخرى، فأكرم القبطي، وأهان الإسرائيلي ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: يترك البنات أحياء للخدمة.

إِنَّهُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٢﴾ وَنُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٣﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ

وَسَبَبُ ذبح الأبناء: أَنَّ كاهناً قال له: يولد مولودٌ في بني إسرائيل يذهبُ ملكك على يده. وفيه دليلٌ على حُقوق فرعون، فإنه إن صدَّق الكاهن لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل؟ و﴿يُسْتَضْعَفُ﴾ حال من الضمير في ﴿وجعل﴾. أو: صفة لشيعاء. أو: كلامٌ مستأنف. و﴿يَذْبَحُ﴾ بدل من ﴿يُسْتَضْعَفُ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه: أَنَّ القتلَ ظلماً إنما هو فعلُ المفسدين؛ إذ لا طائل تحته، صدق الكاهن، أو كذب.

٥ - ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ نفضل. وهو دليلٌ لنا في مسألة الأصلح. وهذه الجملة معطوفة على: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون، واقتصاصاً له. أو: حال من ﴿يُسْتَضْعَفُ﴾ أي: يستضعفهم فرعون، ونحن نريد أن نمُنَّ عليهم. وإرادةُ الله تعالى كائنه، فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة يُقتدى بهم في الخير، أو دعاة إلى الخير، أو: ولاية، وملوكاً ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: يرثون فرعون وقومه ملكهم، وكل ما كان لهم.

٦ - ﴿وَنُكِنَ﴾ مكن له: إذا جعل له مكاناً يقعد عليه، أو: يرقد. ومعنى التمكين ﴿لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ - أي: أرض مصر، والشام - أن يجعلها بحيث لا تنبؤ بهم، ويسلّطهم، وينفذ أمرهم ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ بضم النون، وتنصب ﴿فرعون﴾ وما بعده. وبالياء، ورفع ﴿فرعون﴾ وما بعده: عليّ، وحزة، أي: يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولودٍ منهم ﴿وَيَرَى﴾ نصب عطف على المنصوب قبله، كقراءة النون. أو: رفع على الاستثناف ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني إسرائيل. ويتعلق بـ﴿نرى﴾ دون ﴿يحذرون﴾ لأنَّ الصلّة لا تتقدّم على الموصول ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الحذر: التوقي من الضرر.

٧ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ بالإلهام، أو: بالرؤيا، أو: بإخبار ملك، كما كان لمريم. وليس هذا وحي رسالة، فلا تكون هي رسولاً ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ﴿أَنْ﴾:

فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَكَلِّمِهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاءَهُ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا

بمعنى أي، أو مصدرية ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ﴾ من القتل، بأن يسمع الجيرانُ صوته فينموا عليه ﴿فَكَلِّمِهِ فِي الْيَمِّ﴾ البحر - قيل: هو نيل مصر - ﴿وَلَا تَخَافِ﴾ من الغرق، والضباع ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بفراقه ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ﴾ بوجهٍ لطيف لترئيه ﴿وَجَاءَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وفي هذه الآية أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان. والفرق بين الخوف والحزن: أنَّ الخوفَ غمٌ يلحق الإنسانَ لمتوقع، والحزن: غمٌ يلحقه لواقع، وهو: فراقه، والإخطار به. فنهيت عنهما. وبشرت برده إليها، وجعله من المرسلين. ورُوي: أنه ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد. ورُوي: أنها حين ضربها الطلق كانت بعضُ القوايل الموكلات بحبال بني إسرائيل مصافية لها فعالجتها. فلما وقع إلى الأرض هالها نورٌ بين عينيها، ودخل حبُّه قلبها، فقالت: ما جئتُك إلا لأقتل مولودك، وأخبرَ فرعونَ، ولكن وجدتُ لابنك حبًّا ما وجدتُ مثله فاحفظه. فلما خرجت القابلة جاءت عيونُ فرعون، فلفته في خرقة، ووضعت في تنور مسجور، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يلقوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النارَ برداً وسلاماً، فلما ألتحَ فرعونُ في طلب الولدان أوحى إليها بإلقائه في اليمِّ، فألقته في اليمِّ بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

٨ - ﴿فَأَلْقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أخذه. قال الزجاج: كان فرعون من أهل فارس من إصطخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أي: ليصير الأمرُ إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، كقولهم: للموت ما تلد الوالدة، وهي لم تلد لأن يموت ولدها، ولكن المصير إلى ذلك. كذا قاله الزجاج. وعن هذا قال المفسرون: إنَّ هذه لام العاقبة والصيرورة. وقال صاحب «الكشاف»: وهي لام كي؛ التي معناها التعليل، كقولك: جئتُك لتكرمني. ولكن معنى التعليل فيها واردٌ على طريق المجاز؛ لأنَّ ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل فعله لأجله، وهو الإكرام؛ الذي هو نتيجة المجيء ﴿وَحَزَنًا﴾ ﴿وَحُزْنًا﴾:

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّ أَنْ يَحْمِلَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمُّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

عليّ، وحمة. هما لغتان، كالعدم، العدم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّ أَنْ يَحْمِلَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ تخفيف: خاطئين؛ أبو جعفر. أي: كانوا مذنبين، فعاقبهم الله بأن ربّي عدوّهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم. أو: ﴿كانوا خاطئين﴾ في كلّ شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوّهم يبيد منهم.

٩- ﴿وَقَالَتْ أُمُّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ﴾ روي: أنهم حين التقطوا التابوت عاجلوا فتحه، فلم يقدرُوا عليه، فعالجوا كسره فأعياهم، فذنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا بصبي نوره بين عينيه، فأحبّوه. وكانت لفرعون بنت برصاء، فنظرت إلى وجهه فبرئت. فقال الغواة من قومه: هو الذي نحذر منه، فأذن لنا في قتله. فهم بذلك، فقالت آسية: ﴿قرّة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: لك، لا لي. وفي الحديث: «لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها»^(١). وهذا على سبيل الفرض، أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها، ولأسلم كما أسلمت. و﴿قرّة﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو قرّة، و﴿لي ولك﴾ صفتان لقرّة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبته خطاب الملوك، أو: خاطبت الغواة ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فإن فيه مخايل اليمن، ودلائل النفع. وذلك لما عاينت من النور، وبرء البرصاء ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أو: نبتناه؛ فإنه أهل لأن يكون ولداً للملوك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال. وذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ وقالت امرأة فرعون كذا ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنهم على خطأ عظيم في التقاطه، ورجاء النفع منه، وتبنيه. وقوله: ﴿إِنَّ فرعون﴾ الآية: جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان!

(١) قال الحافظ: هذا طرف من حديث الفتون الطويل، أخرجه النسائي. (حاشية الكشاف

فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ - كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

قبل أن نرده على أمه ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته - وقد دخلت داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً -: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ أي: موسى ﴿لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؟ النصيح: إخلاص العمل من شائب الفساد. رُوي: أنها لما قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قال هامان: إنها لتعرفه، وتعرف أهله، فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام. فقالت: إنما أردتُ وهم للملك ناصحون. فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع. فحين وجد ريجها استأنس، والتقم ثديها. فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلني. فدفعه إليها، وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الرد. فعندها ثبت، واستقر في علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله:

١٣ - ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمقام معه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبراً. وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ معطوف على ﴿تَقَرَّ﴾. وإنما حلّ لها ما تأخذه من الدينار كل يوم كما قال السدي - لأنه مال حربي، لا أنه أجره على إرضاع ولدها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو داخل تحت علمها، أي: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه حق فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

١٤ - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ بلغ موسى نهاية القوة، وتمام العقل، وهو جمع شدة، كنعمة وأنعم، عند سيبويه ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ فاعتدل، وتم استحكامه وهو أربعون سنة. ويروي: أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً، أو: علماً بمصالح الدارين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ أَبِي هَارُونَ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

فعلنا بموسى وأمه نفعل بالمؤمنين. قال الزجاج: جعل الله تعالى إتياء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة؛ التي هي جزاء المحسنين. والعالم الحكيم: من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فجعلهم جهالاً إذ لم يعلموا بالعلم.

١٥ - ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي: مصر ﴿عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حال من الفاعل، أي مختفياً وهو بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعني: انتصاف النهار. وقيل: لما شب، وعقل أخذ يتكلم بالحق، وينكر عليهم، فأخافوه، فلا يدخل المدينة إلا على تغفل ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ أَبِي هَارُونَ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ قيل: هو السامري ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من مخالفيه من القبط، وهو فاتون. وقيل: فيهما ﴿هذا. وهذا﴾ - وإن كانا غائبين - على جهة الحكاية. أي: إذا نظر إليهما الناظر قال: ﴿هذا من شيعة أبي هارون وهذا من عدوه﴾ ﴿فَاسْتَغْنَتْهُ﴾ فاستنصره ﴿الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ ضربه بجُمُوع كَفَّه، أو: بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فقتله ﴿قَالَ هَذَا﴾ إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسمّاه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؛ لأنه كان مُسْتَأْمِناً فيهم، ولا يحل قتل الكافر الحربي، أو: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل. وعن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

١٦ - ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا رب ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بفعل صار قتلاً ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ زلتني ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ زلته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ بإقالة الزلل ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإزالة الخجل.

١٧ - ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين.

فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

و﴿بما أنعمت علي﴾ قسم جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾. أو: استعطف، كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة. ﴿فلن أكون﴾ إن عصمتني ﴿ظهيراً للمجرمين﴾. وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون، وانتظامه في جلته، وتكثيره سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد.

١٨ - ﴿فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ على نفسه من قتل القبطي أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حال، أي: يتوقع المكروه، وهو الاستقادة منه، أو: الأخبار، أو: ما يُقال فيه. وقال ابن عطاء: ﴿خائفاً﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ نصرة ربه. وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله، بخلاف ما يقوله بعض الناس: إنه لا يسوغ الخوف من دون الله ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ ﴿إِذَا﴾: للمفاجأة، وما بعدها مبتدأ - ﴿اَسْتَنْصَرُهُ﴾ أي: موسى ﴿بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيثه. والمعنى: أن الإسرائيلي الذي خلّصه موسى استغاث به ثانياً من قبطي آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ أي: للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ضالّ عن الرشيد، ظاهر الغي، فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك. والرشيد في التدبير لا يفعل فعلاً يفضي إلى البلاء على نفسه، وعلى من يريد نصرته.

١٩ - ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي﴾ بالقبطي الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ لموسى والإسرائيلي - لأنه ليس على دينهما، ولأنّ القبط كانوا أعداء بني إسرائيل - ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي لموسى وقد توهم أنه أراد أخذه، لا أخذ القبطي؛ إذ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾: ﴿يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني: القبطي ﴿بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتالاً بالغضب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في كظم الغيظ. وكان قتل القبطي بالأمس قد شاع، ولكن خفي قاتله. فلما أفضى على موسى - عليه

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْأَمَلَاءُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ

السلام - علم القبطي أَنَّ قاتله موسى، فأخبر فرعون، فهتموا بقتله

٢٠ - ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ هو مؤمن آل فرعون. وكان ابنُ عمِّ فرعون ﴿يَسْعَى﴾ صفة لرجل، أو: حال من رجل؛ لأنه وصف بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾. ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْأَمَلَاءُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، أو: يتشاورون بسببك. والائتمار: التشاور. يقال: الرجلان يتأمران، ويتأمران؛ لأنَّ كلَّ واحد منهما يأمر صاحبه بشيء، أو: يشير عليه بأمر ﴿فَاخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ لك بيان، وليس بصلة ﴿الناصحين﴾ لأنَّ الصلة لا تتقدّم على الموصول، كأنه قال: إني من الناصحين. ثم أراد أن يبين فقال: ﴿لَكَ﴾ كما يقال: سقياً لك، ومرحباً لك.

٢١ - ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرّض له في الطريق، أو: أن يلحقه من يقتله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قوم فرعون.

٢٢ - ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ﴾ نحوها. والتَّوَجَّهَ: الإقبال على الشيء. و﴿مَدْيَنُ﴾ قرية شعيب - عليه السلام - سُمِّيَتْ بمدينة بن إبراهيم، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: خرج ولم يكن له علم بالطريق إلاَّ حسن ظنه بربه، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: وسطه، ومعظم نهجه. فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين.

٢٣ - ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ وصل. ﴿مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذي يسقون منه. وكان بئراً ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ على جانب البئر ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة كثيرة ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ في مكان أسفل من

أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا

مكانهم ﴿أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تطردان غنهما عن الماء؛ لأنَّ على الماء مَنْ هو أقوى
منهما، فلا تتمكنان من السقي، أو: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود:
الطرد، والدفع ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما؟ وحقيقته: ما مخطوبكما أي:
مطلوبكما من الذياد، فسَمِي المخطوب خطباً ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ غنمنا ﴿حَتَّى
يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ مواشيهم. ﴿يُصْدِرُ﴾: شامي، ويزيد، وأبو عمرو، أي:
يرجع. فالرعاء: جمع راع، كقائم وقيام ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ﴾ لا يمكنه سقي الأغنام
﴿كَبِيرٌ﴾ في حاله، أو: في السن لا يقدر على رعي الغنم. أبلتا عليه عذرهما
في توليها السقي بأنفسهما.

٢٤ - ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ غنهما لأجلهما رغبة في المعروف، وإغاثة للملهوف.
رُوي: أَنَّهُ نَحَى الْقَوْمَ عَنْ رَأْسِ الْبُئْرِ، وَسَلَّهَمَ دَلَوًا، فَأَعْطَوْهُ دَلَوَهُمَ، وَقَالُوا:
اسْتَقِ بِهَا - فَكَانَتْ لَا يَنْزَعُهَا إِلَّا أَرْبَعُونَ - فَاسْتَقَى بِهَا، وَصَبَّهَا فِي الْخَوْضِ، وَدَعَا
بِالْبُرْكَ. وَتَرَكَ الْمَفْعُولَ فِي ﴿يَسْقُونَ﴾ وَ﴿تَذُودَانِ﴾ وَ﴿لَا نَسْقِي﴾ وَ﴿فَسَقَى﴾
لأنَّ الغرض هو الفعل لا المفعول، أَلَّا تَرَى أَنَّهُ إِنَّمَا رَحِمَهُمَا لِأَنَّهُمَا كَانَتَا عَلَى
الذِّيَادِ، وَهَمَّ عَلَى السَّقْيِ، وَلَمْ يَرْحَمْهُمَا؛ لِأَنَّهُ مَذُودُهُمَا غَنَمٌ، وَمَسْقِيَهُمْ إِبِلٌ مِثْلًا،
وَكَذَا فِي ﴿لَا نَسْقِي﴾ وَ﴿فَسَقَى﴾ الْمَقْصُودُ هُوَ السَّقْيُ لَا الْمَسْقَى. وَوَجْهُ مُطَابَقَةٍ
جَوَابِهِمَا سَوْأَلَهُ: أَنَّهُ سَأَلَهُمَا عَنْ سَبَبِ الذُّودِ. فَقَالَتَا: السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَا أَمْرَاتَانِ
مُسْتَوْرَتَانِ، ضَعِيفَتَانِ، لَا نَقْدِرُ عَلَى مَزَاحِمَةِ الرِّجَالِ، وَنَسْتَحْيِي مِنَ الْاِخْتِلَاطِ
بِهِمْ، فَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ تَأْخِيرِ السَّقْيِ إِلَى أَنْ يَفْرَغُوا. وَإِنَّمَا رَضِيَ شَعِيبٌ - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - لِابْتِنِيهِ بِسَقْيِ الْمَاشِيَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ بِمَحْظُورٍ، فَالَّذِينَ
لَا يَأْبَاهُ. وَأَمَّا الْمَرْوَةُ فَعَادَاتُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ مُتَبَايِنَةٌ، وَأَحْوَالُ الْعَرَبِ فِيهِ خِلَافٌ
أَحْوَالِ الْعَجَمِ. وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْبَدْوِ فِيهِ غَيْرُ مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَضَرِ، خُصُوصًا إِذَا
كَانَتِ الْحَالَةُ حَالَةَ ضَرُورَةٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: ظِلَّ سَمُرَةٍ. وَفِيهِ دَلِيلُ جَوَازِ
الِاسْتِرَاحَةِ فِي الدُّنْيَا، بِخِلَافِ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْمُتَقَشِّفَةِ. وَلَمَّا طَالَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ أُنْسَ
بِالشُّكْوَى، إِذْ لَا نَقْصَ فِي الشُّكْوَى إِلَى الْمَوْلَى ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا لَأَيُّ شَيْءٍ

أَنْزَلَتْ إِلَىٰ مَنْ خَيْرٌ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَنَا
يَدْعُوكَ لِجَعْزِكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا
تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿أَنْزَلَتْ إِلَىٰ مَنْ خَيْرٌ﴾ قليل أو كثير، غث أو سمين ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج. وعُدِّي ﴿فقير﴾ باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: كان لم يذق طعاماً سبعة أيام، وقد لصق ظهره بطنه. ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدارين، وهو النجاة؛ لأنه كان عند فرعون في مُلْكٍ، وثروة. قال ذلك رضاءً بالعدل السني، وفرحاً به، وشكراً له. وقال ابنُ عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سرّه من الأنوار.

٢٥ - ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَنَا يَدْعُوكَ لِجَعْزِكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ﴿على استحياء﴾: في موضع الحال، أي: مستحجة. وهذا دليلُ كمال إيمانها، وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيحبها أم لا. فأتته مستحجة قد استترت بكم درعها. و﴿مَا﴾ في ﴿مَا سَقَيْتَ﴾ مصدرية، أي: جزاء سقيك. رُوي: أَنَّهُمَا لَمَّا رَجَعَتَا إِلَىٰ أَبِيهِمَا قَبْلَ النَّاسِ، وَأَعْنَامُهُمَا حُقْلٌ^(١)، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً، فسقى لنا. فقال لإحدهما: اذهبي فادعيه لي. فتبعها موسى - عليه السلام - فالزقت الريحُ ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: قصته وأحواله مع فرعون. والقصص مصدر، سُمِّيَ به المقصوص ﴿قَالَ﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا. وفيه دليلُ جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى، والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع. وأما أخذ الأجر على البرِّ والمعروف، فقيل: إنه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى - عليه السلام - على أنه رُوي أنها لَمَّا قَالَتْ: ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا ينجب قصدها؛ لأنَّ للقاصد حرمة. ولما وضع شعيبُ الطعام بين

(١) «حُقْلٌ»: ضرع حافل: ممتلئ لبناً.

قَالَتْ لِأَحَدِهِمَا يَتَّابِتْ اسْتَفْجِرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ

يديه امتنع، فقال شعيب: ألسن جائعاً؟ قال: بلى! ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سقيت لهما، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف ثمناً. فقال شعيب - عليه السلام -: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. فأكل.

٢٦ - ﴿قَالَتْ لِأَحَدِهِمَا يَتَّابِتْ اسْتَفْجِرُهُ﴾ اتخذ أجيراً لرعي الغنم. روي: أن كبراهما كانت تسمى: صفراء، والصغرى: صفراء. وصفراء هي التي ذهبت به، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوجها ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ فقال: وما علمك بقوته، وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، وأمرها بالمشي خلفه. وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أن أمانته وقوته أمران متحققان. وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك، وتم مرادك. وقيل: ﴿القوي﴾ في دينه ﴿الأمين﴾ في جوارحه. وقد استغنت بهذا الكلام الجاري مجرى المثل عن أن تقول: استأجره لقوته، وأمانته. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر في عمر.

٢٧ - ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أزوجك ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ قوله: ﴿هاتين﴾ يدل على أنه كان له غيرهما. وهذه مواعدة منه، ولم يكن ذلك عقداً للنكاح، إذ لو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ تكون أجيراً لي. من: أجرته؛ إذا كنت له أجيراً ﴿ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ ظرفه. والحجة: السنة. وجمعها حجج. والتزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع؛ لأنه من باب القيام بأمر الزوجية، فلا مناقضة، بخلاف التزوج على الخدمة ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي: عمل عشر حجج ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: فذلك تفضل منك، ليس بواجب عليك. أو: فإتمامه من عندك، ولا أختمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك

وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

تفضل، وتبرع ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بالزام أتمّ الأجلين، وحقيقة قولهم: شققت عليه، وشقّ عليه الأمر: أن الأمر إذا تعاطمك فكأنه شقّ عليك ظنك بائنين، تقول: تارة أطيعه، وطوراً لا أطيعه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة. والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح؛ الاتكال على توفيقه فيه، ومعونته؛ لأنه إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل ذلك.

٢٨ - ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ. وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب. والخبر: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾. يعني: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قلته، وعاهدتني فيه، وشارطتني عليه، قائم بيننا جميعاً، لا يخرج كلانا عنه، لا أنا عما شرطت عليّ، ولا أنت عما شرطت على نفسك. ثم قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي: أيّ أجل ﴿قَضَيْتُ﴾ من الأجلين يعني: العشر أو الثماني - و﴿أَيَّ﴾ نصب بـ ﴿قَضَيْتُ﴾ و﴿مَا﴾ زائدة مؤكدة لإبهام أي. وهي شرطية، وجوابها: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا يعتدي عليّ في طلب الزيادة عليه. قال المبرّد: قد علم أنه لا عدوان عليه في أتمهما ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان، فكذا طلب الزيادة على الأقل ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو: من وكل إليه الأمر، وعدّي بـ «على» لأنه استعمل في موضع الشاهد والمقيت. روي: أن شعيباً كانت عنده عصي الأنبياء - عليهم السلام - فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذ عصاً من تلك العصي. فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء - عليهم السلام - يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب، فمسّها، وكان مكفوفاً فطن بها، فقال: غيرها. فما وقع في يده إلا هي سبع مرّات. فعلم أن له شأنًا. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإنّ الكلا، وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تنيناً^(١) أخشاه عليك وعلى الغنم. فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر

(١) «تنيناً»: ثعباناً.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَسُودِيَ ۚ وَإِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٠)

على كفها، فمشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام فإذا التين قد أقبل، فحاربه العصا حتى قتله، وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها دامية، والتين مقتولاً ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب من الغنم فوجدها ملاء البطون، وغزيرة اللبن. فأخبره موسى ففرح، وعلم أن لموسى والعصا شأنًا، فقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أذرع وذرعاء. فأوحى إليه في المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثم سقى، فوضعت كلهن أذرع وذرعاء. فوفى له بشرطه.

٢٩، ٣٠ - ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ قال ﷺ: «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما»^(١). وهذا بخلاف الرواية التي مرّت ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ امرأته نحو مصر. قال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة، ودنا أيام الزلفة، وظهر أنوار النبوة، سار بأهله لتشترك معه في لطائف صنع ربه ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴿ عن الطريق؛ لأنه قد ضل الطريق ﴾ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ بالنسبة إلى موسى ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ ﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ العُتَاب، أو: العوسج ﴿ أَنْ يَسُودِيَ ﴾ ﴿ أَنْ ﴾: مفسرة، أو: مخففة من الثقيلة - ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال جعفر: أبصر ناراً دلته على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار. فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلايب الأنس، فخطوب بالطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكلماً شريفاً، أعطي ما سأل، وأمن مما خاف. الجذوة - باللغات الثلاث، وقرىء بهن. فعاصم بفتح الجيم. وحمزة وخلف: بضمها.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٨٨).

وَأَن أَلْتَقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ

وغيرهم: بكسرهما -: العود الغليظ كانت في رأسه نار، أو لم تكن. ﴿من﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة. و﴿من الشجرة﴾ بدل ﴿من شاطئ الوادي﴾ بدل الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، أي: الجانب.

٣١ - ﴿وَأَن أَلْتَقِ عَصَاكَ﴾ ونودي أن ﴿أَلْتَقِ عَصَاكَ﴾. فالتقاها، فقلَّبها الله لعباناً ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ﴾ تتحرك ﴿كَانَتْهَا جَانٌّ﴾ حية في سعيها، وهي ثعبان في جثتها ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع. ف قيل له: ﴿يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

٣٢ - ﴿أَسْلَكَ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك ﴿فَخَرَجَ يَبْضَاءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ بفتحين: حجازي، وبصري. ﴿الرَّهْبُ﴾: حفص ﴿الرَّهْبُ﴾: غيرهم. ومعنى الكل: الخوف. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهب مابك من فرق، أي: لأجل الحية. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل: معنى ضم الجناح: أن الله تعالى لما قلَّب العصا حية، فزع موسى - عليه السلام - واتقاها بيده، كما يفعل الخائف من الشيء. ف قيل له: إن اتقاك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها يضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه. أو: أريد بضم جناحه إليه: تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب، ولا يهرب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما، وإلا فجناحاه مضمومان إليه، مشمَّران. ومعنى ﴿من الرهب﴾: من أجل الرهب، أي: إذا

فَذَنِّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
 لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْشِئُ عُصْدَكَ
 بِأَخِيكَ

أصابك الرهب عند رؤية الحية، فاضمم إليك جناحك. جعل الرهب الذي كان يُصبيه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضمّ جناحه إليه. ومعنى ﴿واضمم إليك جناحك﴾ و﴿اسلك يدك في جيبك﴾ على أحد التفسيرين واحد. ولكن خولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين، إذ الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء، وفي الثاني: إخفاء الرهب. ومعنى ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ في طه: أدخل يمينك تحت يسراك ﴿فَذَنِّكَ﴾ مخفّفاً مثني ذاك. ومشدداً: مكّي، وأبو عمرو، مثني ذلك. فأحدى النونين عوض من اللام المحذوفة. والمراد: اليد، والعصا ﴿بُرْهَنَانِ﴾ حجتان نيرتان بيتان. وسُميت الحجة برهاناً لإنارتها، من قولهم للمرأة البيضاء: برهرمة ﴿مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ﴾ أي: أرسلناك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ﴾ بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ كافرين.

٣٣ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به. وبالياء: يعقوب.

٣٤ - ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ حفص ﴿رِدْءًا﴾ حال، أي: عوناً، يقال: ردأته: أعنته. وبلا همز: مدني ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ عاصم، وحمزة. صفة، أي: ﴿ردءاً﴾ مصدقاً لي. وغيرهما: بالجزم، جواب لأرسله. ومعنى تصديقه موسى: إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت. ألا ترى إلى قوله: ﴿هو أفصح مني لساناً فأرسله معي﴾. وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان، لا لقوله: صدقت. فسحبان وباقل فيه يستويان^(١) ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ يكذبوني في الحالين: يعقوب.

٣٥ - ﴿قَالَ سَنَنْشِئُ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به - إذ اليد تشتد بشدة العضد؛

(١) «سحبان»: رجل من ربيعة يضرب به المثل في البلاغة والبيان. و«باقل»: رجل يضرب به المثل في العمي. انظر لسان العرب مادة (بقل).

وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا
 فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنِ
 تَكُونُ لَهُ عٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

لأنه قوام اليد. والجملة تقوى بشدة اليد على مزاوله الأمور - ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا﴾ غلبة، وتسلطاً، وهيبة في قلوب الأعداء ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا﴾ الباء تتعلق بـ: ﴿يصلون﴾، أي: لا يصلون إليكما بسبب آياتنا. وتم الكلام. أو: بـ: نجعل لكم سلطاناً، أي: نسلطكم بآياتنا. أو: بمحذوف، أي: اذهباً بآياتنا. أو: هو بيان لـ: ﴿الغالبون﴾ لا صلة، أو: قسم جوابه ﴿لا يصلون﴾ مقدماً عليه ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾.

٣٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: سحر عمله أنت، ثم تفتريه على الله. أو: سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر، وليس بمعجزة من عند الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿في آبائنا﴾: حال منصوبة عن هذا، أي: كائناً في زمانهم، يعني: ما حدثنا بكونه فيهم.

٣٧ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنِ تَكُونُ لَهُ عٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ﴿ربي أعلم﴾ منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبياً، وبعثه بالهدى، ووعدته حُسن العقبى، يعني: نفسه. ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أهله لذلك؛ لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين، ولا ينبيء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون. و﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحموده؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقِبٌ الدَّارِ﴾ ﴿جَنَّتْ عَلَيَّ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٣]. والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان، وتلقي الملائكة بالبشرى والغفران. ﴿قال موسى﴾ بغير واو: مكى. وهو حسن؛ لأنَّ الموضوع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام: سحراً مفترياً. ووجه الأخرى: أنهم قالوا ذلك، وقال موسى هذا ليوازن الناظر بين القول والقول، ويتبصر فساد أحدهما، وصحة الآخر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُو آيَاتِهَا أَلَمْ آتِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهَنَّمُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾: حجازي، وأبو عمرو ﴿ومن يكون﴾: حمزة، وعليّ.

٣٨ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُو آيَاتِهَا أَلَمْ آتِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده، أي: مالكم من إله غيري. أو: هو على ظاهره، وأن إلهاً غيره غير معلوم عنده ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهَنَّمُنْ عَلَى الطِّينِ﴾ أي: اطبخ لي الآجر، واتخذ. وإنما لم يقل هذا؛ لأنه أول من عمل الآجر، فهو يُعلمه الصنعة بهذه العبارة، ولأنه أفصح، وأشبه بكلام الجبابة، إذ أمر هامان - وهو وزيره - بالإيقاد على الطين مُناديً باسمه بـ «يا» في وسط الكلام، دليل التعظيم والتجبر ﴿فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا ﴿لَّعَلِّي أَطْلُعُ﴾ أي: أصعد، فالطلع والاطلاع: الصعود ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ حسب: أنه تعالى في مكانٍ كما كان هو في مكان ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أي: موسى ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواه: أن له إلهًا، وأنه أرسله إلينا رسولاً. فقد تناقض المخدول. فإنه قال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾، ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهًا، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه. وكأنه تحصن من عصا موسى - عليه السلام - فلبس، وقال: ﴿لعلِّي أطلع إلى إله موسى﴾. روي: أن هامان جمع خمسين ألف بناء، وبنى صرحاً لم يبلغه بناء أحد من الخلق، ف ضرب الصرح جبريل - عليه السلام - بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل! وقطعة في البحر، وقطعة في المغرب. ولم يبق أحد من عماله إلا هلك.

٣٩ - ﴿وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ تعظم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بالباطل. فالاستكبار بالحق لله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. كما حكى رسولنا عن ربه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار»^(١). وكل مستكبر

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٨) ومسلم (٢٦٢٠) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤).

وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ
إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ
مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

سواه فاستكباره بغير الحق ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ نافع،
وحزة، وعلي، وخلف، ويعقوب.

٤٠ - ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ من الكلام المفخم؛ الذي دلَّ
به على عظمة شأنه. شبههم - استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجم الغفير -
بحصيات أخذهنَّ أخذ بكفه، فطرحهنَّ في البحر ﴿فَأَنْظَرَ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ
كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وحذَّر قومك، فإنَّك منصورٌ عليهم.

٤١ - ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً﴾ قادة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾ أي: عمل أهل
النار. قال ابنُ عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق. فهم في
ظلمات نفوسهم لا يدلُّون على سبيل الرِّشَاد. وفيه دلالةٌ خلق أفعال العباد
﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من العذاب.

٤٢ - ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ ألزمنهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة.
وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ
الْمَقْبُوحِينَ﴾ المطرودين المبعدين، أو: المهلكين، أو المشوهين بسواد الوجوه،
وزرقة العيون. و﴿يَوْمَ﴾ ظرف للمقبوحين.

٤٣ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
الْأُولَى﴾ قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط - عليهم السلام - ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾
حال من الكتاب. والبصيرة: نور القلب الذي يبصر به الرشد، والسعادة، كما
أنَّ البصر نور العين الذي تبصر به. يريد: آتيناه التوراة أنواراً للقلوب - لأنها
كانت عُمية لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً؛ لأنهم
كانوا يخطئون في ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها؛ لأنهم إذا عملوا بها، وصلوا إلى
نيل الرحمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾
 وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو
 عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا
 وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

٤٤ - ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿الْغَرْبِيِّ﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب. وهو الذي وقع فيه ميقات موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي: كلمناه ﴿وَقَرْنَتْهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ للوحي إليه، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته.

٤٥ - ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا﴾ بعد موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم، ففترت النبوة، وكادت الأخبار تخفى، واندرست العلوم، ووقع التحريف في كثير منها، فأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار، مبيتاً ما وقع فيه التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء - عليهم السلام - وقصة موسى - عليه السلام - كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى، وما جرى عليه، ولكننا أوحيناك إليك. فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة، ودلّ به على المسبب اختصاراً، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب، والمؤمنون به ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ تقرأها عليهم تعلماً منهم، يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه. و﴿تَتْلُو﴾ في موضع نصب خبر ثان، أو: حال من الضمير في ﴿ثَاوِيًا﴾ ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكننا أرسلناك، وأخبرناك بها، وعلمناكها.

٤٦ - ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن: خذ الكتاب بقوة ﴿وَلَكِن﴾ علمناك، [وأرسلناك] ^(١) ﴿رَحْمَةً﴾ للرحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في زمان الفترة بينك وبين عيسى، وهو خمسمئة وخمسون سنة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا

٤٧ - ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والظلم. ولما كان أكثر الأعمال تُزاوَل بالأيدي، نسبت الأعمال إلى الأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب، تغليباً للأكثر على الأقل ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند العذاب ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لولا﴾ الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف. والثانية: تحضيضية. والفاء الأولى للعطف، والثانية جواب ﴿لولا﴾ لكونها في حكم الأمر، إذ الأمرُ باعثٌ على الفعل، والباعث والمحضض من وادٍ واحد. والفاء تدخل في جواب الأمر. والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي: هلا ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ محتجين علينا بذلك، لما أرسلنا إليهم، يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليُلزِموا الحجة، ولا يُلْزِمُوها؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى، وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول؛ لدخول لولا الامتناعية عليها دونه؟ قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فأدخلت عليها ﴿لولا﴾. وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.

٤٨ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: القرآن، أو الرسول المصدق بالكتاب المعجز ﴿قَالُوا﴾ كفار مكة ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ هلا أعطي ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ يعني أبناء جنسهم، ومن مذهبهم مذهبهم، وعنادهم عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى - عليه السلام - ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل القرآن؟ ﴿قَالُوا﴾ في موسى وهارون

سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾^(١) تعاونا - ﴿سِحْرَانِ﴾: كوفي، أي: ذوا سحر. أو: جعلوهما سخرين مبالغة في وصفهما بالسحر - ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ﴾ بكل واحد منهما ﴿كَافِرٍ﴾. وقيل: إن أهل مكة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى والتوراة، و﴿قَالُوا﴾ في موسى ومحمد: ﴿ساحران تظاهرا﴾، أو: في التوراة والقرآن: ﴿سحران تظاهرا﴾ وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ، فأخبروهم أنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ﴿ساحران تظاهرا﴾.

٤٩ - ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مما أنزل على موسى، ومما أنزل عليّ ﴿أَتَّبِعُهُ﴾ جواب ﴿فَأَتُوا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهما سحران.

٥٠ - ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ﴿فَاعْلَمْ﴾ أنهم قد أَلْزَمُوا، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أضلّ ممن اتبع في الدين هواه. و﴿بغير هدى﴾ حال، أي: مخذولاً، ولا مُخْلِى بينه وبين هواه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٥١ - ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ التوصليل: تكثير الوصل، وتكريره. يعني: أن القرآن أتاهاهم متتابعاً متواصلًا، وغداً ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ؛ ليتذكروا، فيفلحوا.

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿ساحران﴾ وهي قراءة: ابن عامر، وأبي عامر، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب، والحسن. معجم القراءات القرآنية (٢٦/٥).

الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِيلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

٥٢ - ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن. وخبر ﴿الذين﴾، ﴿هُم بِهِ﴾ بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. نزلت في مؤمني أهل الكتاب.

٥٣ - ﴿وَإِذَا يُنَالَى﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل، نزول القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ كائنين على دين الإسلام، مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿إِنَّهُ﴾ تعليل للإيمان به؛ لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. وقوله ﴿إِنَّا﴾ بيان لقوله ﴿آمَنَّا﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده، فأخبروا بأن إيمانهم به متقادم.

٥٤ - ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمان بالقرآن. أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله. أو: بصبرهم على أذى المشركين، وأهل الكتاب ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية، أو: بالحلم الأذى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يزكون.

٥٥ - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الباطل، والشتم من المشركين ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ للآغين: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثلته ﴿لَا نَبْنِي الْجَهْلِيلِينَ﴾ لا نريد مخالطتهم، وصحبهم.

٥٦ - ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بمن يختار الهداية، ويقبلها، ويتعظ بالدلائل والآيات. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب. وذلك أنه قال عند موته: يا معشر بني هاشم! صدقوا محمداً تفلحوا. فقال ﷺ: «يا عم! تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟!» قال: فما

وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ
إِلَيْهِ ثَمَرَتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

تريد يابن أخي؟ قال: «أريد منك أن تقول: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله». قال: يابن أخي! قد علمت أنك صادق، ولكنني أكره أن يقال: خرع عند الموت^(١). وإن كانت الصيغة عامة. والآية حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الهدى هو البيان. وقد هدى الناس أجمع، ولكنهم لم يبتدوا لسوء اختيارهم، فدل أن ما وراء البيان ما يسمى هداية، وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة.

٥٧ - ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ قالت قريش: نحن نعلم أنك على الحق، ولكننا نخاف إن اتبعناك، وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا، فالقمهم الله الحجة بأنه مكن لهم في الحرم؛ الذي آمنه بحرمة البيت، وآمن قُطانه بحرمة، والثمرات تُجبي إليه من كل أوب، وهم كفرة، فأني يستقيم أن يعرضهم للتخطف، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟ وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ﴾ وبالتالي: مدني، ويعقوب، وسهل. أي: يُجلب، ويُجمع ﴿ثَمَرَتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معنى الكلية: الكثرة، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ هو مصدر؛ لأن معنى ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ﴾ يرزق، أو: مفعول له، أو: حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصيصها بالإضافة، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بـ ﴿مِنْ لَّدُنَّا﴾. أي: قليل منهم يقرّون بأن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به.

(١) قال الحافظ: لم أجده، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق، أو أخصر منه. (حاشية الكشف ٣ / ٤٢٢). وفي حاشية الأصل المخطوط: الخرع: الجُبْنُ والخور.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُوْلًا يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُوْنَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٦٠﴾

٥٨ - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذا تخويفٌ لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم، فلم يشكروا النعمة، وقابلوها بالبطر فأهلكوا. و﴿كم﴾ نصب ب﴿أهلكنا﴾ و﴿معيشتها﴾ بحذف الجاز، وإيصال الفعل، أي: في معيشتها. والبطر: سوء احتمال الغنى، وهو: ألا يحفظ حق الله فيه ﴿فَنِلْكَ مَسْكِنُهُمْ﴾ منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار، كبلاد ثمود، وقوم شعيب، وغيرهم ﴿لَمْ تُسْكَنْ﴾ حال، والعامل فيها: الإشارة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا﴾ من السكنى، أي: لم يسكنها إلا المسافر، وماز الطريق يوماً، أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾ لتلك المساكن من ساكنيها، أي: لا يملك التصرف فيها غيرنا.

٥٩ - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ في كل وقت ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ - وبكسر الهمزة: حمزة، وعليّ، أي: في القرية التي هي أمها، أي: أصلها، ومعظمها - ﴿رَسُوْلًا﴾ لإلزام الحجة، وقطع المذرة. أو: ﴿وما كان﴾ في حكم الله، وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض ﴿حَتَّى يَبْعَثَ﴾ في أم القرى - يعني: مكة؛ لأن الأرض دُحيت من تحتها - ﴿رَسُوْلًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُوْنَ﴾ أي: وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو: إصرارهم على كفرهم، وعنادهم، ومكابرتهم بعد الإعذار إليهم.

٦٠ - ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾ وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل، وهي: مدة الحياة الفانية ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه دائم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ أن الباقي خيرٌ من الفاني. وخير أبو عمرو بين الياء والتاء، والباقون

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ
الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا

بالتاء لا غير. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: إِنَّ الله تعالى خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن، والمنافق، والكافر. فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ثم قرّر هذه الآية بقوله:

٦١ - ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنة - فلا شيء أحسن منها؛ لأنها دائمة؛ ولذا سميت الجنة بالحسنى - ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: رائيه، ومدركه، ومصيبه ﴿كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا النار؟ ونحوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل - عليه اللعنة - أو: في علي، وحزرة، وأبي جهل، أو: في المؤمن، والكافر. ومعنى الفاء الأولى: أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله، عقبه بقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ﴾ أي: أبعد هذا التفاوت الجليّ يُسَوِّى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيح؛ لأنّ لقاء الموعود مسبّب عن الوعد. و﴿ثم﴾ لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع. ﴿ثم هو﴾: عليّ. كما قيل: عضد في عضد، شبه المنفصل بالمتصل.

٦٢ - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي الله الكفار نداء توبيخ، وهو عطف على ﴿يوم القيامة﴾ أو: منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ﴾ بناءً على زعمهم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ومفعولا ﴿تزعمون﴾: محذوفان، تقديره: ﴿كنتم﴾ تزعمونهم شركائي. ويجوز حذف المفعولين في باب: ظننت، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما.

٦٣ - ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: الشياطين، أو: أئمة الكفر. ومعنى ﴿حق عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه، وثبت. وهو قوله: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي: دعوناهم إلى الشرك، وسولنا لهم الغي. صفته، والراجع إلى الموصول محذوف. والخبر: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ والكاف ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ صفة مصدر

تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَعِمِّيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ

محدوف، تقديره: أغويناهم فغفوا غيًّا، مثل ما ﴿غوينا﴾. يعنون: أنا لم نغو إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غفوا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، فلا فرق إذاً بين غيِّنا وغيِّهم. وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابله دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب. وهو كقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ مَوَّاهُ أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم، وتما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

٦٤ - ﴿وَقِيلَ﴾ للمشرِكين ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: الأصنام لتخلصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

٦٥ - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلوا إليكم. حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء، ثم ما يقوله الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغفروهم، ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم، وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يكتنون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل، وإزاحة العلل.

٦٦ - ﴿فَعِمِّيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ خفيت عليهم الحجج، أو: الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة، رجاء أن يكون عنده عذر وحجة؛ لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب.

٦٧ - ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَوَآمَنَ﴾ بربه، وبما جاء من عنده

وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أن يفلح عند الله. وعسى من الكرام تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب للكافرين على الإيمان.

٦٨ - ونزلت جواباً لقول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: نفسه، أو: أبا مسعود: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾. وفيه دلالة خلق الأفعال. ويوقف على: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. أي: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَرَبُّكَ يَخْتَارُ﴾ ما يشاء ﴿مَّا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما، وله ﴿الْخِيَرَةُ﴾ عليهم. ولم يدخل العاطف في ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ لأنه بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، إذ المعنى: أَنَّ الْخِيَرَةَ لِلَّهِ. وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. ومن وصل على معنى ﴿وَيَخْتَارُ﴾: الذي ﴿لَهُمْ﴾ فيه ﴿الْخِيَرَةُ﴾، فقد أبعد. بل ﴿مَا﴾ لنفي اختيار الخلق، تقريراً لاختيار الحق. ومن قال: ومعناه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ للعباد ﴿مَا﴾ هو خيرٌ لهم وأصلح، فهو مائلٌ إلى الاعتزال. و﴿الْخِيَرَةُ﴾ من التخيير يُستعمل بمعنى المصدر، وهو التخيير، وبمعنى التخيير، كقولهم: محمد خير الله من خلقه ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: الله بريء من إشراكهم، وهو منزّه عن أن يكون لأحد عليه اختيار.

٦٩ - ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تضرع ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله ﷺ، وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه. وقولهم: هلاً اختير عليه غيره في النبوة!

٧٠ - ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستأثر بالإلهية المختصة به ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة: القبلة، لا قبله إلا هي ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ هو قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ
اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهَا أَوْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُكُمْ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[الزمر: ٧٥] والتحميد ثم على وجه اللذة، لا الكلفة ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء
بين عباده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث، والنشور. وبفتح التاء وكسر الجيم:
يعقوب.

٧١ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ بحذف الهمزة: علي ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا﴾
هو مفعول ثان لجعل، أي: دائماً من: السرد، وهو: المتابعة، ومنه قولهم في
الأشهر الحرم: ثلاثة سرد، وواحد فرد. والميم مزيدة، ووزنه فَعْمَلٌ ﴿إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ والمعنى: أخبروني مَنْ يقدرُ
على هذا.

٧٢ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ
اللَّهُ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهَا﴾ ولم يقل بنهار تتصرفون فيه، كما قال: ﴿بليل
تسكنون فيه﴾ بل ذكر الضياء، وهو: ضوء الشمس؛ لأنَّ المنافع التي تتعلق به
متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده. والظلام ليس بتلك المنزلة. ومن ثمَّ
قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأنَّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر
منافعه ووصف فوائده. وقرن بالليل: ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ لأنَّ غيرك يبصرُ من
منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون، ونحوه.

٧٣ - ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي:
﴿لتسكنوا﴾ في الليل ﴿ولتبتغوا من﴾ فضل الله في النهار، فيكون من باب
اللف والنشر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه. وقال الزجاج: يجوزُ أن يكون
معناه: ﴿لتسكنوا﴾ فيهما ﴿ولتبتغوا من﴾ فضل الله فيهما. ويكون المعنى
﴿جعل لكم﴾ الزمان ليلاً ونهاراً ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فيه.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا أَنْ مَفَاتِحُهُمْ لِنُوحٍ أَوَّلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ

٧٤ - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كَرَّرَ التوبيخ باتخاذ الشركاء؛ ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراف به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده.

٧٥ - ﴿وَزَعَنَّا﴾ وأخرجنا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: نبيهم؛ لأن الأنبياء للأمم شهداء عليهم، يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك، ومخالفة الرسول ﴿فَعَلِمُوا﴾ حيثد ﴿أَنَّ الْحَقَّ﴾ التوحيد ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من ألوهية غير الله، والشفاعة لهم.

٧٦ - ﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ﴾ لا ينصرف للعجمة والتعريف؛ ولو كان فاعولاً، من: قرنت الشيء؛ لا نصرف ﴿كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ كان إسرائيلياً، ابن عم موسى. فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمى المنور؛ لحسن صورته. وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ من البغي، وهو: الظلم. قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم، أو: من البغي: الكبر. تكبر عليهم بكثرة ماله، وولده، أو: زاد عليهم في الثياب شبراً ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا أَنْ مَفَاتِحُهُمْ لِنُوحٍ أَوَّلِي الْقُوَّةِ﴾ بمعنى الذي، في موضع نصب بآياتنا، وإن واسمها وخبرها صلة الذي، ولهذا كسرت إن. والمفتاح: جمع مِفْتح بالكسر، وهو: ما يفتح به، أو: مِفْتح بالفتح، وهو: الخزانة. والأصوب: أنها المقاليد ﴿لِنُوحٍ أَوَّلِي الْقُوَّةِ﴾ لتفُّل العصبة. فالباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: إذا أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة. وكان يحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً، لكل خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع، وكانت من جلود ﴿أَوَّلِي الْقُوَّةِ﴾ الشدة ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: المؤمنون. وقيل: القائل موسى - عليه السلام -

لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

وعمل ﴿إذ﴾ نصب بـ «تنوء» ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر بكثرة المال، كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. ولا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها، واطمأن بها. وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب؛ فلا يفرح بها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ البطرين بالمال.

٧٧ - ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى، والثروة ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بأن تصدق على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرف إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تأخذ ما يكفيك، ويصلحك. وقيل معناه: واطلب بدنياك آخرتك، فإن ذلك حظ المؤمن منها ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو: أحسن بشرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسن إليك بالإنعام ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم، والبغي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٧٨ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي: المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: على استحقاق لما في من العلم؛ الذي فضلت به الناس، وهو علم التوراة، أو: علم الكيمياء. وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. أو: العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة. و﴿عندي﴾ صفة لـ: «علم». قال سهل: ما نظر أحد إلى نفسه فافلح. والسعيد من صُرفَ بصره عن أفعاله وأقواله، وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال. والشقي من زين في عينه أفعاله، وأقواله، وأحواله، فافتخر بها، وادّعاها لنفسه. فشؤمه يهلكه يوماً، كما خسف بقارون لما ادّعاها لنفسه فضلاً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ هو إثبات لعلمه بأن الله ﴿قد أهلك... من القرون﴾ قبله ﴿من هو﴾ أقوى منه، وأغنى، لأنه قد قرأه في التوراة. كأنه قيل: ﴿أو لم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغير بكثرة ماله،

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُؤْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَوْمُ إِثْمَ لَدُو حَظٌّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وقوته. أو: نفي لعلمه بذلك؛ لأنه لما قال: ﴿أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادّعه، ورأى نفسه به مستوجبة لكلّ نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى بقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أو: أكثر جماعةً، وعدداً ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُؤْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لعلمه تعالى بهم، بل يدخلون النار بغير حساب، أو يعترفون بها بغير سؤال، أو يعرفون بسيماهم فلا يسألون، أو لا يسألون ليُعْلَمَ من جهتهم بل يسألون سؤال توبيخ، أو لا يسأل عن ذنوب الماضين ﴿المجرمون﴾ من هذه الأمة.

٧٩ - ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ في الحمرة والصفرة. وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليه الأرجوان، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر. وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهنّ الحلي والديباج. و﴿في زِينَتِهِ﴾ حال من فاعل ﴿خرج﴾ أي: مترتباً ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قيل: كانوا مسلمين. وإنما تَمَنَّوْهُ على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر. وقيل: كانوا كفاراً ﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَوْمُ إِثْمَ لَدُو حَظٌّ عَظِيمٍ﴾ قالوه غبطة. والغابط: هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، كهذه الآية. والحاسد: هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه. وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. وقيل لرسول الله ﷺ: هل يضرّ الغبط؟ قال: «لا، إلا كما يضرّ العِصَاةَ الْخَبَطُ»^(١) ﴿إِنَّهُمْ لَدُو حَظٌّ عَظِيمٍ﴾ الحَطُّ: الجدّ، وهو: البخت، والدولة.

٨٠ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالثواب، والعقاب، وفناء الدنيا، وبقاء

(١) قال الحافظ: ذكره ثابت السرقسطي في الغريب هكذا بغير إسناد. (حاشية الكشف ٤٣٢/٣).

وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا
الْصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

العقبى، لغابطي قارون ﴿وَيَلَكُمْ﴾ أصل ويلك: الدعاء بالهلاك. ثم استعمل في الزجر، والردع، والبعث على ترك ما لا يرضى. وفي «التبيان في إعراب القرآن»: هو مفعول فعل محذوف، أي: ألزمتكم الله ﴿ويلكم﴾ ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا﴾ أي: لا يلقي هذه الكلمة، وهي: ﴿ثواب الله خير﴾، ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات، وزينة الدنيا، وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير.

٨١ - ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ كان قارون يؤذي موسى - عليه السلام - كل وقت، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، فحسبه، فاستكثره، فشحت به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا: أنت كبيرنا فمُر بما شئت. قال: نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل. فجعل لها ألف دينار، أو: طستاً من ذهب، أو: حكمها. فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل! من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن أحصن رجناه. فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فأحضرت، فناشدتها بالذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق! فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبيكي. وقال: يارب! إن كنت رسولك فاغضب لي. فأوحى الله إليه أن مُر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل! إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل. فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثم قال: يا أرض خذيهم! فأخذتهم إلى الركب. ثم قال: خذيهم! فأخذتهم إلى الأوساط. ثم قال: خذيهم! فأخذتهم إلى الأعناق. وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله والرحم. وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه. ثم قال:

فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

خذيعهم! فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى لموسى: استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزني لو استرحمني مرة لرحمته. فقال بعض بني إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله، فدعا الله حتى خسف بداره، وكنوزه ﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى، أو: من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوه فانصر، أي: منعه منه فامتنع.

٨٢ - ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ منزلته من الدنيا ﴿بِالْأَمْسِ﴾ - ظرف لـ: «تمنوا». ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة - ﴿يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾! ﴿وَيَ﴾ منفصلة عن ﴿كَانَ﴾ عند البصريين. قال سيبويه: وَيَ: كلمة تنبيه على الخطأ وتندم، يستعلمها النادم بإظهار ندامته. يعني: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيههم وقولهم: ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ﴾ وتندموا ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرف ما كنا نتمناه بالأمس ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾^(١). ويفتحين: حفص، ويعقوب، وسهل. وفيه ضمير الله تعالى ﴿وَيَكَانُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: تندموا. ثم قالوا: كأنه لا يفلح الكافرون.

٨٣ - ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ ﴿تِلْكَ﴾: تعظيم لها، وتفخيم لشأنها. يعني: تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها، وقوله: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ - خبر ﴿تِلْكَ﴾ و﴿الدار﴾ نعتها - ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ - بغياً؛ ابن جبير. أو: ظلماً؛

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿لَخَسَفَ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٣٤/٥).

وَلَا فَسَادًا وَالْعَافِيَةُ لِلْمُنَاقِبِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ

الضحاك ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله. ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣]. فعلق الوعيد بالركون. وعن عليّ - رضي الله عنه -: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجدود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها. وعن الفضيل أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأماني هاهنا. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. وقال بعضهم: حقيقته: التنفير عن متابعة فرعون وقارون مشتبهاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] ﴿وَالْعَافِيَةُ لِلْمُنَاقِبِينَ﴾. المحموده ﴿لِلْمُنَاقِبِينَ﴾.

٨٤ - ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا﴾ مر في «النمل»^(١). ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ معناه: فلا يجزون. فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين بحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿ما كانوا يعملون﴾. ومن فضله العظيم: ألا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها، وبسبعمئة.

٨٥ - ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه، والعمل بما فيه ﴿لَرَأْدُكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ أي معاد، و﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ ليس لغيرك من البشر. لذا نكره. أو: المراد به مكة. والمراد: رده إليها يوم الفتح لأنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد؛ لغلبة رسول الله وقهره لأهله، ولظهور عز الإسلام وأهله، وذلل الشرك وحزبه. والسورة مكية، ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده،

(١) أي: الآية [٨٩] من سورة النمل.

قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ تَرْجُوَ أَنْ يُلْقِيَ
إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا
يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

ومولد آبائه. ولما وعد رسوله الرد إلى معادٍ قال: ﴿قُلْ﴾ للمشركين: ﴿رَبِّيَ
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ يعني: نفسه، وماله من الثواب في معادٍ ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ﴾ يعني: المشركين، وما يستحقونه من العقاب في معادهم ﴿مَنْ﴾ في محل
نصب بفعل مضمر، أي: يعلم.

٨٦ - ﴿وَمَا كُنْتُ تَرْجُوَ أَنْ يُلْقِيَ﴾ يوحى ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿إِلَّا
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هو محمول على المعنى، أي: وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة
من ربك. أو: إلا بمعنى: لكن للاستدراك، أي: ولكن لرحمة من ربك ألقى
إليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ معينا لهم على دينهم.

٨٧ - ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ - هو على الجمع - أي: لا يمنعك هؤلاء
عن العمل بآيات الله - أي: القرآن - ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الآيات، أي: بعد
وقت إنزاله. و﴿إِذْ﴾ يضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ، ويومئذ
﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ توحيده، وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٨٨ - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -:
الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به: أهل دينه، ولأنَّ العصمة لا تمنعُ
النهي. والوقف على ﴿آخِر﴾ لازم؛ لأنه لو وصل لصار: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
صفة لـ: ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾. وفيه من الفساد ما فيه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي:
إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات. وقال مجاهد: يعني: عِلْمُ العلماء إذا أريد
به وجه الله ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء في خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبفتح التاء وكسر
الجيم: يعقوب.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾

١، ٢ - ﴿الْعَمَّ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الحسبان: قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن، بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما. ولا يصح تعليقهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل. فلو قلت: حسبت زيدا، وظننت الفرس لم يكن شيئا حتى تقول: حسبت زيدا عالما، وظننت الفرس جوادا؛ لأن قولك: زيد عالم، والفرس جواد، كلام دالّ على مضمون، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين، أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك. والكلام الدالّ على المضمون؛ الذي يقتضيه الحسبان هنا: ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أن تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا. فالترك أول مفعولي ﴿حسب﴾، ولقولهم: آمنا هو الخبر. وأما غير مفتونين فتتمة الترك؛ لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصير، كقول عنتره:

فتركته جَزَرَ السَّبَاعِ يُشْنَنُهُ^(١)

(١) هذا صدر البيت، وعجزه: يقضمن حُسن بنانه والمعصم.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا، على تقدير: حاصل ومستقر قبل اللام. وهو استفهام توبيخ. والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم. وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، أو: في عمار بن ياسر، وكان يُعَذَّبُ في الله.

٣- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: اخترنا - وهو موصول بـ ﴿أَحْسِبَ﴾ أو: بـ: ﴿لَا يَفْتَنُونَ﴾ - ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنواع الفتن. فمنهم من يُوضع المنشار على رأسه، فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الإيمان ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه: ومعنى علمه تعالى - وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده كما علمه قبل وجوده -: أنه يوجد والمعنى: وليتميِّز الصادق منهم من الكاذب. قال ابنُ عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء، فهو من الصادقين. ومن بطر في أيام الرخاء، وجزع في أيام البلاء، فهو من الكاذبين.

٤- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الشرك، والمعاصي ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا. يعني: أن الجزاء يلحقهم لا محالة. واشتمال صلة ﴿أَنْ﴾ على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويجوز أن يضمن ﴿حَسِبَ﴾ معنى قدر. و﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول؛ لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يُظنُّ أنه لا يُجَازَى بمساوئه. وقالوا: الأول في المؤمنين، وهذا في الكافرين ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «ما» في موضع رفع، على

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ رَبُّهُ لَأَتِيَ بِكَ اللَّهُ مِنْهُ لِقَاءً ۖ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا

معنى: ساء الحكم حكمهم. أو: نصب على معنى ساء حكماً يحكمون، والمخصوص بالذم محذوف، أي: بشس حكماً يحكمونه حكمهم هذا.

٥- ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي يأمل ثوابه، أو: يخاف حسابه - فالرجاء يحتملهما - ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿لَأَتِيَ بِكَ اللَّهُ مِنْهُ لِقَاءً﴾ لا محالة. فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه، ويحقق أمله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقوله عباده ﴿الْعَالِمُ﴾ بما يفعلونه، فلا يفوته شيء ما. وقال الزجاج: ﴿مَنْ﴾ للشرط، ويرتفع بالابتداء. وجواب الشرط ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَأَتِيَ بِكَ اللَّهُ مِنْهُ لِقَاءً﴾ كقولك: إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد.

٦- ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله، أو: الشيطان بدفع وساوسه، أو: الكفار ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وعن طاعتهم، ومجاهدتهم. وإنما أمر ونهى رحمة لعباده.

٧- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام.

٨- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ «وصى»: حكمه حكم: «أمر» في معناه وتصرفه، يقال: وصيت زيدا بأن يفعل خيراً؛ كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: وصاهم بكلمة التوحيد، وأمرهم بها. وقولك: وصيت زيدا بعمره، معناه: وصيته بتعهده عمرو، ومراعاته، ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ووصيناه بإيتاء والديه حسناً، أو: بإيلاء والديه حسناً، أي: فعلاً ذا حسن، أو: ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. ويجوز أن يجعل ﴿حسناً﴾ من باب قولك: زيدا، بإضمار:

وَأِنْ جَهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ

اضرب، إذا رأيته متهيئاً للضرب. فتنصبه بإضمار أولهما، أي: أعطهما، أو: افعل بهما حسناً؛ لأنَّ التوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له. كأنه قال: قلنا أولهما معروفًا، ولا تطعهما في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على ﴿بوالديه﴾ وابتدىء ﴿حسناً﴾ حسن الوقف. وعلى التفسير الأول: لا بد من إضمار القول. معناه: وقلنا: ﴿وَأِنْ جَهِدَاكَ﴾ أيها الإنسان ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ - أي: لا علم لك بالهَيْتَةِ. - والمراد: بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: ﴿لتشرك بي﴾ شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً - ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ مرجع مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ، وَمَنْ أَشْرَكَ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم حق جزائكم. وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك، وحث على الثبات، والاستقامة في الدين.

رُوي: أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ لَمَّا أَسْلَمَ نَذَرَتْ أُمُّهُ أَلَّا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ حَتَّى يَرْتَدَّ، فَشَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَتَرَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، وَالتَّتِي فِي لَقْمَانِ^(١)، وَالتَّتِي فِي الْأَحْقَافِ^(٢).

٩ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هو مبتدأ والخبر: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ في جملتهم. والصَّالِح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام - قال سليمان - عليه السلام -: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقال يوسف - عليه السلام -: ﴿تَوَقَّئِ مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أو: في مدخل الصَّالِحِينَ، وهو الجنة.

١٠ - ونزلت في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ المنافقين، أي: إذا مسه أذى من الكفار ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي:

(١) [لقمان: ١٤].

(٢) [الأحقاف: ١٥].

وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيَسَّ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ

جزع من ذلك، كما يجزع من عذاب الله ﴿ وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي: وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوا، فقالوا: ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي: متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، فأعطونا نصيبنا من المغنم ﴿ أَوْ لَيَسَّ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: هو أعلم ﴿ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ من العالمين بما في صدورهم. ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص. ثم وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ، وأُوعِدَ الْمُنَافِقِينَ بقوله:

١١ - ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أي: حالهما ظاهرة عند من يملك الجزاء عليهما.

١٢ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ ﴾ أمروهم باتِّباع سبيلهم، وهي: طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر. وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا، وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، أي: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش. كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف.

١٣ - ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي: أثقال أنفسهم، يعني: أوزارهم بسبب كفرهم ﴿ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أي: أثقالاً آخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي: أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم. وهو كما قال: ﴿ لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]

وَلَيْسَ لَكَ يَوْمَ الْفَيْكَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ

﴿وَلَيْسَ لَكَ يَوْمَ الْفَيْكَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الأكاذيب، والأباطيل.

١٤ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان عمره ألفاً وخمسين سنة، بُعث على رأس أربعين، ولَبِثَ في قومه تسعمئة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعمئة سنة، فقال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلتُ وخرجت. ولم يقل تسعمئة وخمسين سنة، لأنه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره. وهذا لِتَوَهُّمٍ زائل هنا، فكأنه قيل: تسعمئة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أن ذلك أخصر، وأعذب لفظاً، وأملاً بالفائدة. ولأن القصة سبقت لذكر ما ابتلي به نوح - عليه السلام - من أمته، وما كابده من طول المصابرة تسليةً لنبينا ﷺ. فكان ذكر الألف أفخم، وأوصل إلى الغرض، وجيء بالميزز أولاً بالسنة، ثم بالعام، لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ هو: ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سبيل، أو: ظلام ليل، أو: نحوهما ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسهم بالكفر.

١٥ - ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: نوحاً ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، منهم أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونسأوهم ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: السفينة، أو: الحادثة، أو: القصة ﴿آيَةً﴾ عبرة، وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ يتعظون بها.

١٦ - ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ نصب بإضمار اذكر، وأبدل عنه ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها. أو: معطوف على: ﴿نُوحًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. أي: ﴿و﴾ أرسلنا إبراهيم. و﴿إِذْ﴾: ظرف لأرسلنا. يعني: أرسلناه حين بلغ من السن أو العلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه، ويأمرهم بالعبادة

لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

والتقوى . وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة - رحمهما الله - : ﴿ وإبراهيم ﴾ بالرفع على معنى : ﴿ و ﴾ من المرسلين ﴿ إبراهيم ﴾ ﴿ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الكفر ﴿ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كان فيكم بما هو خيرٌ لكم مما هو شرٌ لكم .

١٧ - ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ أصناماً ﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾ وتكذبون ، أو : تصنعون . وقرأ أبو حنيفة والسلمي - رحمهما الله - ﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾ من خلق بمعنى التكثير في خلق ﴿ إفكاً ﴾ وقرئ ﴿ أفكاً ﴾ وهو مصدر ، نحو : كذب ، ولعب ، والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما . واختلافهم الإفك : تسميتهم الأوثان آلهة ، وشركاء لله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ كله ، فإنه هو الرازق وحده ، لا يرزق غيره ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فاستعدوا للقاءه بعبادته ، والشكر على أنعمه . وبفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب .

١٨ - ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : وإن تكذبوني فلا تضروني بتكذيبكم ؛ فإن الرسل قبلي كذبتهم أمهم وما ضرهم ، وإنما ضرّوا أنفسهم حيث حلّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم . وأما الرسول فقد تمّ أمره ، حيث بلغ البلاغ المبين ، الذي زال معه الشك ، وهو : اقترانه بآيات الله ومعجزاته . أي : وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة ، حيث كذبوا ، وعلى الرسول أن يبلغ ، وما عليه أن يصدق ولا يكذب . وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ

محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم - عليه السلام - لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث، وإدريس، ونوح، وغيرهم؛ وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: فالجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه، فلا تقول: مكة وزيد قائم خير بلاد الله؟ قلت: نعم، وبيانه: أن إيراد قصة إبراهيم - عليه السلام - ليس إلا إرادة التنفيس عن رسول الله ﷺ، وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم - عليه السلام - كان مُبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿وإن تكذبوا﴾ على معنى: إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً ﴿فقد كذب﴾ إبراهيم - عليه السلام - قومه، وكل أمة نبيها؛ لأن قوله: ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متصل، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه، ووضوح حجته وبرهانه.

١٩ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: كوفي غير حفص ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي: قد رأوا ذلك، وعلموه. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يُبْدِئُ﴾ وليست الرؤية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] على البدء دون الإنشاء. بل هو معطوف على جملة قوله: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الخلق﴾ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

٢٠ - ﴿قُلْ﴾ يا محمد. وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره: وأوحينا إليه أن قل ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم، واختلاف أحوالهم، لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة. وبدأ وأبدأ: بمعنى ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: البعث وبالمد^(١) حيث كان: مكّي، وأبو عمرو. وهذا

(١) أي: مد الشين بعد تحريكها.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ

دليل على أنهما نشأتان، وأن كل واحدة منهما إنشاء، أي: ابتداء، واختراع، وإخراج من العدم إلى الوجود. غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله. والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق، ثم ينشئ النشأة الآخرة. وإنما قيل كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة؛ لأن الكلام معهم وقع في الإعادة، فلما قرّره في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء. فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألا تعجزه الإعادة. فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة. فللتنبية على هذا المعنى أبرز اسمه، وأوقعه مبتدأ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

٢١ - ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالهداية، وبالحرص والقناعة، أو: بسوء الخلق وحُسنه، أو: بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه، أو: بمتابعة البدع وبملازمة السنة ﴿وَالَّذِينَ يُقْلَبُونَ﴾ تردّون، وترجعون.

٢٢ - ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم، أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ التي هي أفسح منها، وأبسط لو كنتم فيها ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولّى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ولا ناصر يمنعكم من عذابي.

٢٣ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ بدلائله على وحدانيته، وكتبه، ومعجزاته ﴿أُولَٰئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي﴾ جنتي ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٤ - ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين، فاتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ

مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ
أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرٍ ﴿٢٥﴾
﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ﴾

مِنَ النَّارِ ﴿حين قذفوه فيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعلوا به وفعلنا ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾ رُوي: أنه لم يُنْتَفَع في ذلك اليوم بالنار، يعني: يوم ألقى إبراهيم في
النار، وذلك لذهاب حرّها.

٢٥ - ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حمزة، وحفص ﴿مودة بينكم﴾: مدني، وشامي، وحامد،
ويحيى، وخلف ﴿مودة بينكم﴾: مكّي، وبصري، وعلي ﴿مودة بينكم﴾:
الشموني، والبرجمي. فالنصب على وجهين؛ على التعليل، أي: لتوادوا بينكم،
وتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها، كما يتفق الناس على
مذهب، فيكون ذلك سبب تحابهم، وأن يكون مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿اتَّخَذَ
إِلَهُهُ هَوْنَةً﴾ [الفرقان: ٤٣]. و﴿مَا﴾ كافة، أي: اتخذتم الأوثان سبب المودة
بينكم، على تقدير حذف المضاف، أو: اتخذتموها ﴿مودة بينكم﴾ أي: مودودة
بينكم، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾
[البقرة: ١٦٥]. وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لإِنَّ، و﴿مَا﴾ موصولة،
وأن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مودة بينكم. والمعنى: أَنَّ الأوثان مودة
بينكم، أي: مودودة، أو: سبب مودة. وَمَن أضاف المودة جعل ﴿بينكم﴾
اسماً لا ظرفاً، كقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] ومن نون ﴿مودة﴾
ونصب ﴿بينكم﴾ فعلی الظرف ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ تبرأ
الأصنام من عبادها ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يوم القيامة يقوم بينكم
التلاعن، فيلعن الأتباع القادة ﴿وَمَاوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مأوى العابد والمعبود
والتابع والمتبوع ﴿وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرٍ﴾ نعمة.

٢٦ - ﴿﴿فَقَامَنَ لَهُ﴾ لإبراهيم - عليه السلام - ﴿لُوطٌ﴾ هو ابن أخت
إبراهيم، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من كوثي، وهي من سواد الكوفة إلى حرّان، ثمّ منها إلى فلسطين، وهي من برية الشام. ومن ثمّ قالوا: لكلّ نبيّ هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه في هجرته لوط، وسارة، وقد تزوّجها إبراهيم - عليه السلام - ﴿إِلَى رَبِّي﴾ ﴿إِلَى﴾ حيث أمرني ﴿رَبِّي﴾ بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعي من أعدائي ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلّا بما هو خير.

٢٧ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ولدًا ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا وَلَدَ وَلَدٍ. ولم يذكر إسماعيل لشهرته ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ أي: في ذرية إبراهيم، فإنه شجرة الأنبياء - عليهم السلام - ﴿وَالْكِتَابَ﴾ والمراد به: الجنس، يعني: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان ﴿وَأَتَيْنَاهُ﴾ أي: إبراهيم - عليه السلام - ﴿أَجْرَهُ﴾ الشّاء الحسن، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ فيه دليل على أنّه تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا ﴿وَلَمَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من أهل الجنة، عن الحسن.

٢٨ - ﴿وَلُوطًا﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿لُوطًا﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح، وهي اللواط ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقرّرة لفاحشة تلك الفعل، كأنّ قائلًا قال: لم كانت فاحشة؟ فقيل: لأنّ أحدًا قبلهم لم يقدم عليها. قالوا: لم يترّد ذكر عل ذكر قبل قوم لوط.

٢٩ - ﴿أَيْنَكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ بالقتل، وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق. وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ﴾ مجلسكم. ولا يقال للمجلس نادٍ إلّا ما دام فيه أهله ﴿الْمُنْكَرَ﴾ أي: المضارطة، والمجامعة، والسباب، والفحش في المزاح، والحذف بالخصى،

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ

ومضع العلك، والفرقة، والسواك بين الناس ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿أَيْنَكُمْ﴾ شامي، وحفص، وهو: الموجود في الإمام^(١). وكل واحد بهمزيين: كوفي غير حفص. ﴿أَيْنَكُمْ﴾، بهمة ممدودة بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو، و﴿أَيْنَكُمْ﴾ بهمة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكّي، ونافع غير قالون، وسهل، ويعقوب غير زيد.

٣٠ - ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي، والفواحش.

٣١ - ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بالشارة لإبراهيم بالولد والنافلة، يعني: إسحاق، ويعقوب - عليهم السلام - ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ إضافة ﴿مهلكو﴾ لم تفد تعريفاً لأنها بمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجور من قاضي سدوم. و﴿هذه القرية﴾ تشعر بأنها قرية من موضع إبراهيم - عليه السلام - قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم - عليه السلام - ﴿إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة وهم عليه مصرّون. وظلمهم: كفرهم، وأنواع معاصيهم.

٣٢ - ﴿قَالَ﴾ إبراهيم - عليه السلام - ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم، وهو: لوط ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾^(٢): يعقوب، وكوفي غير عاصم

(١) أي: مصحف عثمان - رضي الله عنه -.

(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾.

وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَافِكْ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ

﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ الباقي في العذاب. ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله:

٣٣ - ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم. و﴿أَنْ﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر، كأنهما وجداً في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: كما أحسن بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه أن يتناولوهم بالفجور ﴿سِئَاءَ بِهِمْ﴾^(١): مدني، وشامي، عليّ ﴿وَضَافِكْ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ وضاق بشأنهم، وتبدير أمرهم ذرعه، أي: طاقته. وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة. كما قالوا: رحب الذراع إذا كان مطيقاً له. والأصل فيه: أَنَّ الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع، وضرب ذلك مثلاً في العجز، والقدرة. وهو نصب على التمييز ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ﴾ وبالتخفيف: مكّي، وكوفي غير حفص ﴿وَأَهْلَكَ﴾ الكاف في محل الجز. فت نصب ﴿أَهْلَكَ﴾ بفعل محذوف، أي: ﴿و﴾ ننجي ﴿أَهْلَكَ﴾ ﴿إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾.

٣٤ - ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ ﴿مَنْزِلُونَ﴾ شامي ﴿عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً ﴿مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بفسقهم، وخروجهم عن طاعة الله ورسوله.

٣٥ - ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ من القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لِقَوْمٍ﴾ يتعلّق بـ ﴿تَرَكْنَا﴾ أو: بـ ﴿بَيِّنَةً﴾ ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

٣٦ - ﴿وَإِلَى مَدِينِ﴾ وأرسلنا إلى ﴿مَدِينِ﴾ ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ﴾

(١) قوله: «سِئَاءَ بِهِمْ»: أي: بإشمام كسرة السين الضمة.

اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَنَحْمُودَا وَقَدْ
تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُوتٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمَلٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
مُؤْمِنُونَ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا
بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ

اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٣٦﴾ وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة، أو:
خافوه ﴿٣٦﴾ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ قاصدين الفساد.

٣٧ - ﴿٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ ﴿٣٧﴾ الزلزلة الشديدة، أو: صيحة جبريل
- عليه السلام - لأن القلوب رجفت لها ﴿٣٧﴾ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴿٣٧﴾ في بلدهم،
وأرضهم. أو: في ديارهم فاكفى بالواحد لأنه لا يُلبَسُ ﴿٣٧﴾ جَنِيمِينَ ﴿٣٧﴾ باركين
على الركب ميتين.

٣٨ - ﴿٣٨﴾ وَمَسْكِنُهُمْ ﴿٣٨﴾ منصوب بإضمار أهلكناها، لأن قوله ﴿٣٨﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ ﴿٣٨﴾
يدل عليه، لأنه في معنى الإهلاك ﴿٣٨﴾ وَنَحْمُودَا ﴿٣٨﴾: حمزة، وحفص، وسهل،
ويعقوب ﴿٣٨﴾ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴿٣٨﴾ - يعني ما وصفه من إهلاكهم - ﴿٣٨﴾ مِنْ
مَسْكِنِهِمْ ﴿٣٨﴾ مِنْ جهة ﴿٣٨﴾ مَسَاكِنِهِمْ ﴿٣٨﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. وكان
أهل مكة يمزون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿٣٨﴾ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٨﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿٣٨﴾ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴿٣٨﴾ الذي أمروا بسلوكه،
وهو: الإيمان بالله، ورسله ﴿٣٨﴾ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ عقلاء متمكنين من النظر،
وتمييز الحق من الباطل، ولكنهم لم يفعلوا.

٣٩ - ﴿٣٩﴾ وَقُرُوتٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمَلٌ ﴿٣٩﴾ أي: وأهلكناهم ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُؤْمِنُونَ
بِالْبَيِّنَاتِ فَاَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فائتين. أدركهم أمر الله فلم
يفوتوه.

٤٠ - ﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿٤٠﴾ فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب ﴿٤٠﴾ فَمِنْهُمْ
مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴿٤٠﴾ هي ريح عاصف فيها حصباء، وهي لقوم لوط ﴿٤٠﴾ وَمِنْهُمْ

مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ
الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ

مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴿﴾ هي لمدين وشمود ﴿﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴿﴾ يعني
قارون ﴿﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴿﴾ يعني: قوم نوح عليه السلام وفرعون عليه اللعنة
﴿﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴿﴾ ليعاقبهم بغير ذنب ﴿﴾ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿﴾ بالكفر، والطغيان.

٤١ - ﴿﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴿﴾ أي: آلهة. يعني: مثل من
أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿﴾ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا ﴿﴾ أي: ﴿﴾ كمثال العنكبوت ﴿﴾ فيما تتخذة لنفسها من البيت، فإن ذلك البيت
لا يدفع عنها الحرّ والبرد، ولا يقي بما تقي البيوت. فكذلك الأوثان لا تنفعهم
في الدنيا والآخرة. جعل حاتم ﴿﴾ اتَّخَذَتْ ﴿﴾ حالاً ﴿﴾ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ ﴿﴾ لا بيت أوهن من بيتها. عن علي - رضي الله عنه -: طهروا
بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يورث الفقر ﴿﴾ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ أن
هذا مثلهم، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. وقيل: معنى الآية:
مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت
تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبنى بيتاً بأجرٍ وجصٍّ، أو: ينحته من صخر.
وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً العنكبوت، كذلك أضعف
الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان ﴿﴾ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿﴾. وقال الزجاج
في جملة: تقدير الآية: ﴿﴾ مثل الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴿﴾ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿﴾ كمثال العنكبوت.

٤٢ - ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ ﴿﴾ بالياء: بصريّ، وعاصم، غير الأعشى،
والبرجمي. و﴿﴾ ما ﴿﴾ بمعنى الذي، وهو مفعول ﴿﴾ يعلم ﴿﴾. ومفعول ﴿﴾ يدعون ﴿﴾
مضمر، أي: يدعونه، يعني: يعبدونه ﴿﴾ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿﴾ ﴿﴾ من ﴿﴾ في ﴿﴾ من

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٦﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٧﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

شيء ﴿للتبيين﴾ وهو العزيز ﴿الغالب الذي لا شريك له﴾ الحكيم ﴿في ترك المعاجلة بالعقوبة. وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جاداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء﴾ الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وتدبير.

٤٣ - ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾ (الأمثال): نعت، والخبر: ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبيتها للناس ﴿كان سفهاء قريش وجهلهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ به، وبأسمائه، وصفاته. أي: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم فائدتها إلا هم، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد. وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله، فعمل بطاعته واجتنب سخطه». ودلت الآية على فضل العلم على العقل.

٤٤ - ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: حقاً، يعني: لم يخلقهما باطلاً، بل لحكمة، وهي أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها.

٤٥ - ﴿أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه، ولتقف على ما أمر به ونهى عنه ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾ أي: دُم على إقامة الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: الفعلة القبيحة كالزنى مثلاً ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ هو ما ينكره والعقل والشرع. قيل: من كان مراعيّاً للصلاة جزه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما. فقد روي أنه قيل يوماً لرسول الله ﷺ:

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا
يَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ

إن فلاناً يصلي بالنهار، ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه»^(١) ورؤي أن
فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا
ركبه، فوصف له، فقال: «إن صلاته ستنهاه». فلم يلبث أن تاب^(٢). وقال
ابن عوف: «إن الصلاة تنهى» أي: إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة،
وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. وعن الحسن: من لم تنه صلاته عن
الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة، وهي وبالله عليه «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»
أي: والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات. وإنما قال: «ولذكر الله» ليستقل
بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر لأنها ذكر الله. وعن ابن عباس - رضي الله
عنهما -: «ولذكر الله» إياكم برحمته «أكبر» من ذكركم إياه بطاعته. وقال
ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علة، وذكركم
مشوب بالعلل والأمانى، ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم لا يبقى. وقال سلمان:
ذكر الله أكبر من كل شيء وأفضل. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم
بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء
الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا:
وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»^(٣) وسئل: أي الأعمال أفضل؟ قال:
«أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله»^(٤). أو: ذكر الله أكبر من أن تحويه
أفهامكم وعقولكم، أو: ذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية، أو: ذكر الله
أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» من الخير،
والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

٤٦ - ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالخصلة التي هي

(١) رواه أحمد وابن حبان والبخاري وأبو يعلى. (حاشية الكشف ٣ / ٤٥٦).

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشف ٣ / ٤٥٦).

(٣) رواه مالك (١ / ٢١١) والترمذي (٣٣٧٤) وابن ماجه (٣٧٩٠).

(٤) رواه ابن شاهين وابن النجار (كثر العمال ٣٩٣٩).

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا
وَاللَّهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾

أحسن ﴿ وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم - كما قال: ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦] - ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ فأفرطوا في الاعتداء
والعناد، ولم يقبلوا النصيح، ولم ينفع فيهم الرفق. فاستعملوا معهم الغلظة.
وقيل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ﴾ آذوا رسول الله ﷺ. أو ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ﴾ أثبتوا الولد
والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو: معناه ﴿ ولا تجادلوا ﴾ الداخلين في الذمة
المؤدين للجزية ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فنبذوا الذمة، ومنعوا
الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدلّ على جواز المناظرة مع الكفرة في
الدين، وعلى جواز تعلّم علم الكلام الذي به تتحقّق المجادلة ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي
أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَاللَّهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴾ من جنس المجادلة
بالأحسن. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم
ولا تكذبوهم ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ وكتبه، ورسله. فإن كان باطلاً لم تصدّقوهم
وإن كان حقاً لم تكذبوهم»^(١).

٤٧ - ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي: أنزلناه
مصدقاً لسائر الكتب السماوية. أو: كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك ﴿ أُنْزِلَ
إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ ﴿ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ هم: عبد الله بن سلام، ومن
آمن معه ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي: من أهل مكة ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾. أو: أراد بالذين
أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب، ﴿ ومن
هؤلاء ﴾ الذين كانوا في زمان النبي ﷺ ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾ مع ظهورها،
وزوال الشبهة عنها ﴿ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ إِلَّا المتوغلون في الكفر، المصمّون
عليه؛ ككعب بن الأشرف وأضرابه.

وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ

٤٨ - ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن ﴿مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ خص اليمين، لأن الكتابة غالباً تكون باليمين، أي: ما كنت قرأت كتاباً من الكتب ولا كنت كاتباً ﴿إِذَا﴾ أي: لو كان شيء من ذلك، أي: من التلاوة، والخط ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجد نعته في كتبنا أمي، لا يكتب، ولا يقرأ، وليس به، أو: لارتاب مشركو مكة، وقالوا: لعله تعلمه، أو كتبه بيده. وسماهم مبطلين لإنكارهم نبوته. وعن مجاهد والشعبي: - رحمهما الله - ما مات النبي ﷺ حتى كتب وقرأ!

٤٩ - ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: في صدور العلماء به، وحفاظه. وهما من خصائص القرآن: كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور. بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ الواضحة ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم.

٥٠ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿آيَةٌ﴾ بغير ألف: مكّي، وكوفي غير حفص. أرادوا: هلاً (أنزل عليه آية) مثل: الناقة، والعصا، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزل أيتها شاء، فلست أملك منها شيئاً ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كلّفت الإنذار وإبانه بما أعطيت من الآيات، وليس لي أن أقول: أنزل عليّ آية كذا دون آية كذا، مع علمي: أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة، والآيات كلّها في حكم آية واحدة في ذلك.

٥١ - أي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة

إِنِّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا
وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ
وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ
مُّسَمًّى لَّجَاءَ هُرُّ الْعَذَابِ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ سَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلِإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

لا تزول، كما تزول كل آية بعد كونها، أو: تكون في مكان دون مكان ﴿إِنِّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَى﴾ وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون المتعنتين.

٥٢ - ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة، وإنزال القرآن عليّ، وبتكذيبكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو مُطَّلِع على أمري وأمركم، وعالم بحقي وباطلكم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ﴾ باليهودية، أو بالشرك، أو ببليس ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان. إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ ورد موردي: أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد! من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزلت:

٥٣ - ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو: يوم القيامة، أو: يوم بدر، أو: وقت فنائهم بأجالهم. والمعنى: ﴿ولولا أجل﴾ قد سماه الله، وبيته في اللوح لعذابهم، والحكمة تقتضي تأخيرهم إلى ذلك الأجل المسمى، ﴿لَجَاءَ هُرُّ الْعَذَابِ﴾ عاجلاً ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ العذاب في الأجل المسمى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

٥٤ - ﴿سَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ستحيط بهم.

٥٥ - ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنْ

ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ بِعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا

فَوْقَهُمْ ظُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمُ ظُلُلٌ ﴿[الزمر: ١٦]﴾. ولا وقف على ﴿بالكافرين﴾ لأن ﴿يوم﴾ ظرف إحاطة النار بهم ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء: كوفي، ونافع ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء أعمالكم.

٥٦ - ﴿بِعِبَادِي﴾ وبسكون الياء: بصري، وكوفي، غير عاصم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ وبفتح الياء: شامي، يعني: أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه، ولم يتمش له أمر دينه، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً، وأصح ديناً، وأكثر عبادة. والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً. وقالوا: لم نجد أعون على قهر النفس، وأجمع للقلب، وأحث على القناعة، وأطرد للشيطان، وأبعد من الفتن، وأربط للأمر الديني من مكة - حرسها الله تعالى -. وعن سهل: إذا ظهرت المعاصي والبِدَع في أرض، فأخرجوا منها إلى أرض الطيعين. وعن رسول الله ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنة»^(١) ﴿فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ وبالياء: يعقوب. وتقديره: ﴿فإيتاي﴾ فاعبدوا ﴿فاعبدوني﴾. وجيء بالفاء في ﴿فاعبدون﴾ لأنه جواب شرط محذوف؛ لأنّ المعنى: ﴿إنّ أَرْضِي واسعة﴾ فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرضي، فأخلصوها في غيرها. ثم حذف الشرط، وعوّض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص. ثم شجع المهاجر بقوله:

٥٧ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: واجدة مرارته وكرهه، كما يجذّ الذائق طعم المذوق، لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب ﴿يرجعون﴾ يحيى ﴿ترجعون﴾ يعقوب.

٥٨ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ لنزلتهم من الجنة

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٦١).

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

علاي. (لثبوتهم) كوفي غير عاصم من الثواء، وهو: النزول للإقامة. وثوي غير متعد، فإذا تعدى بزيادة الهمزة لم يتجاوز مفعولاً واحداً. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف إما إجراؤه مجرى لنزلتهم، أو: لثبوتهم، أو: حذف الجار وإيصال الفعل، أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾. ويوقف على: ﴿العاملين﴾ على أن:

٥٩ - ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان، وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي. والوصل أجود ليكون ﴿الذين﴾ نعتاً للعاملين ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله.

٦٠ - ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة، فنزلت: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: وكم من دابة. ﴿وكائن﴾ بالمد والهمز مكّي. والدابة: كل نفس دبّت على وجه الأرض عقلت، أو لم تعقل ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضاً - أيها الأقوياء - إلا هو، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يقدركم، ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل. وعن الحسن: ﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله. وقيل: لا يدخر شيء من الحيوان قوتاً إلا ابن آدم، والفأرة، والنملة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والضيعة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرهم.

٦١ - ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ﴿وَلَئِنْ﴾ سألت هؤلاء المشركين من خالق السموات والأرض على كبرهما، وسعتهما؟ ﴿و﴾ من الذي ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله؟

٦٢ - ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأن من يشاء مبهم غير معين، فكان الضمير مبهماً مثله. قدر الرزق وقتره بمعنى: إذا ضيقه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم. في الحديث: «إِنَّ من عبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانه إِلَّا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وَإِنَّ من عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانه إِلَّا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك»^(١).

٦٣ - ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم مقرون بذلك ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض، أو: على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به، ثم نفعه ذلك في توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات، ونقيم عليهم من الدلالات. أو: ﴿لا يعقلون﴾ ما تريد بقولك ﴿الحمد لله﴾.

٦٤ - ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ أي: ما هي، لسرعة زوالها عن أهلها، وموتهم عنها، إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون. وفيه ازدراء بالدنيا، وتصغير لأمرها. وكيف لا يصغرها وهي لا تزُنْ عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يتلذذ به الإنسان فيلهيه ساعة، ثم ينقضي ﴿وَلِئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة، أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها، فكانت في ذاتها حياة. والحيوان مصدر حيٍّ، وقياسه: حييان، فقلبت الياء الثانية

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٨٠٩٨ و ٨١٠٠) من حديث عمر وأنس رضي الله عنهما.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْخَضِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

واوَأ. ولم يقل: لهي الحياة لما في بناء فَعَلَان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة، والموت سكون فمجيئه على بناء دَالَّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة. ويوقف على ﴿الحيوان﴾؛ لأنَّ التقدير: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي. ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط علمهم ذلك، وليس كذلك.

٦٥ - ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ هو متصل بمحذوف دلَّ عليه ما وصفهم به، وشرح من أمرهم، معناه: هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وأمنوا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عادوا إلى حال الشرك.

٦٦ - ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ من النعمة. قيل: هي لام كي. وكذا في ﴿وَلِيَسْتَمْنَعُوا﴾ فيمن قرأها بالكسر. أي: لكي يكفروا، وكي يتمنعوا. والمعنى: يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها، والتلذذ لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة، لا إلى التمتع والتلذذ. وعلى هذا لا وقف على ﴿يُشْرِكُونَ﴾. ومن جعله لام الأمر - متبئاً بقراءة ابن كثير، وحمزة، وعليّ ﴿وَلِيَسْتَمْنَعُوا﴾ بسكون اللام، على وجه التهديد، كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وتحقيقه في أصول الفقه، تقف عليه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم.

٦٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ ممنوعاً مصوناً ﴿ءَامِنًا﴾ يأمن داخلوه ﴿وَيَنْخَضِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يستلبون قتلاً وسبياً

أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالشیطان والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بمحمد ﷺ والإسلام.

٦٨ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، والكتاب ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: لم يتلثموا في تكذيبه حين سمعوه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ هذا تقرير لثوائهم في جهنم؛ لأن همة الإنكار إذا أدخلت على النفي صار إيجاباً. يعني: ألا يثبون فيها وقد افترؤا مثل هذا التكذيب على الله، وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب. أو: ألم يصح عندهم أن ﴿في جهنم مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ حين اجترؤوا مثل هذا الجراءة. وذكر المَثْوَى في مقابلة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ يؤيد قراءة الثاء.

٦٩ - ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أطلق المجاهدة ولم يقيدھا بمفعول ليتناول كل ما تحب مجاهدته من النفس والشیطان، وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقنا، ومن أجلنا، ولوجھنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أبو عمرو. أي: لتزيدنهم هداية إلى سبيل الخير، وتوفيقاً. وعن الداراني: ﴿والذين جاهدوا﴾ فما علموا ﴿لنهديهم﴾ إلى مالم يعلموا. فقد قيل: من عمل بما علم وفق لما لا يعلم. وقيل: إن الذي نرى من جهلنا^(١) بما لا نعلم، إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم. وعن فضيل: ﴿والذين جاهدوا﴾ في طلب العلم ﴿لنهديهم﴾ سبل العمل به. وعن سهل: ﴿والذين جاهدوا﴾ في إقامة السنة ﴿لنهديهم﴾ سبل الجنة. وعن ابن عطاء: ﴿جاهدوا﴾ في رضانا ﴿لنهديهم﴾ الوصول إلى محل الرضوان. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿جاهدوا﴾ في طاعتنا ﴿لنهديهم﴾ سبل ثوابنا. وعن الجنيد - رحمه الله عليه -: ﴿جاهدوا﴾ في التوبة ﴿لنهديهم﴾ سبل الإخلاص، أو: ﴿جاهدوا﴾ في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا،

(١) في الأصل المخطوط: جَهِدْنَا. وهو خطأ.

وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

والأنس بنا، أو: ﴿جاهدوا﴾ في طلبنا تحرياً لرضانا ﴿لنهديهم﴾ سُبُل الوصول إلينا ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرة، والمعونة في الدنيا، وبالثواب والمغفرة في العقبى.

* * *

سُورَةُ الرُّومِ
آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝^١ فِي
يَضْعِ مِئِينَ^٢

١ ، ٣ - ﴿الْم ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ أي: غَلَبَتْ فارسُ الرومِ ﴿فِي آدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: في أقرب أرض العرب، لأنَّ الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام. أو: أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم ﴿وَهُمْ﴾ أي: الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي: غلبة فارس إياهم، وقرئ بسكون اللام. فالغَلَب والغَلَب مصدران. وقد أضيف المصدر إلى المفعول ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس. ولا وقف عليه لتعلق:

٤ - ﴿فِي يَضْعِ مِئِينَ﴾ به. وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعاتٍ وبصرى، فغلب فارس الروم، والمملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز، فبلغ الخبر مكة، فشقَّ على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأنَّ فارس

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ

مجوس لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون وشمتموا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أمّيون، وقد أظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكر: والله ليظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين. فقال له أبي بن خلف: كذبت! فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «زُد في الخطر، وأبعد في الأجل». فجعلها مئة قلوّص إلى تسع سنين، ومات أبي من جرح رسول الله ﷺ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «تصدّق به»^(١).

هذه آية بيّنة على صحّة نبوته، وأنّ القرآن من عند الله؛ لأنّها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحرّيم القمار. عن قتادة. ومن مذهب أبي حنيفة ومحمّد -رحمهما الله -: أنّ العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفّار. وقد احتجّا على صحّة ذلك بهذه القصة ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل كل شيء، ومن بعد كل شيء. أو: حين غلبوا وحين يغلبون. كأنّه قيل: من قبل كونهم غاليين - وهو وقت كونهم مغلوبين - ومن بعد كونهم مغلوبين - وهو وقت كونهم غاليين، يعني: أنّ كونهم مغلوبين أوّلاً وغاليين آخراً ليس إلّا بأمر الله وقضائه ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس، ويحلّ ما وعد الله من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥ - ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ﴾ وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له، وغيط من شمت بهم من كفّار مكّة. وقيل: نصر الله: هو: إظهار صدق المؤمنين فما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. والباء يتصل بـ ﴿يفرح﴾ فيوقف على ﴿الله﴾

يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

لا على ﴿المؤمنون بنصر الله﴾ ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ العاطف على أوليائه.

٦ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله: ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ وعد من الله للمؤمنين. فقوله: ﴿وعد الله﴾ بمنزلة وعد الله المؤمنين وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بنصر الروم على فارس ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٧ - ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من ﴿لا يعلمون﴾. وفيه بيان: أنّه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوزُ تحصيل الدنيا ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يفيد أنّ للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، وباطنها: أنّها مجازٌ إلى الآخرة يتزوّد منها إليها بالأعمال الصالحة. وتنكير الظاهر يفيد أنّهم لا يعلمون إلّا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿هم﴾ الثانية: مبتدأ. و﴿غافلون﴾ خبره. والجملة خبر ﴿هم﴾ الأولى. وفيه بيان أنّهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها.

٨ - ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً، كأنه قيل: ﴿أو لم﴾ يثبتوا التفكير في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر. والتفكر لا يكون إلّا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقولك: اعتقده في قلبك. وأن يكون صلة للتفكر نحو: تفكر في الأمر، وأجال فيه فكره. ومعناه على هذا: ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم﴾ التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكيم الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لا بُدَّ لها من انتهاء إلى وقت تُجَازَى فيه على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتّى يعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لا بُدَّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ متعلّق بالقول المحذوف. معناه: ﴿أو لم يتفكروا﴾ فيقولوا هذا القول. وقيل معناه:

إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانُوا عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّوْءَاتِ أَن كَذَّبُوا

فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، ومصحوبة بالحكمة، ويتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب. ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ كيف سمي تركهم غير راجعين إليه عبثاً؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث، والجزاء ﴿لَكٰفِرُونَ﴾ لجاحدون. وقال الزجاج - رحمه الله -: أي: لكافرون بقاء ربهم.

٩ - ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية. ثم وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَحَرُثُوهَا وَعَمَرُوهَا﴾ أي: المدمرون ﴿أَكْثَرَ﴾ صفة مصدر محذوف. و«ما» مصدرية في ﴿مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارة أهل مكة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وتقف عليها لحق الحذف، أي: فلم يؤمنوا فأهلكوا ﴿فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ﴾ فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم ﴿وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنهم ظلموا أنفسهم، حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

١٠ - ﴿ثُمَّ كَانُوا عَاقِبَةً﴾ بالنصب: شامي، وكوفي ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّوْءَاتِ﴾ هي تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن. ومحلها رفع على أنها اسم ﴿كان﴾ عند من نصب ﴿عاقبة﴾ على الخبر، ونصب عند من رفعها. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم السوأى - إلا أنه وضع المظهر وهو ﴿الذين أساءوا﴾ موضع المضمَر - أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أعدت للكافرين ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ لأن

يَايَنَّا إِلَهَ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَنْفَرِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَايَ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي

كَذِبًا ﴿١٥﴾ أَوْ: بـ ﴿أَن﴾. وهو يدل على أَنَّ معنى ﴿أَسَاؤُوا﴾ كفروا ﴿يَايَنَّا إِلَهَ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله، واستهزائهم بها.

١١ - ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبالبياء: أبو عمرو، وسهل.

١٢ - ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ﴾ يبئس ويتحير. يقال: ناظرته فأبلس، إذا لم ينبس ويبس من أن يحتج ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون.

١٣ - ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله. وكتب ﴿شُفَعَاؤُا﴾ في المصحف بواو قبل الألف كما كتب ﴿علموا بني إسرائيل﴾. وكذلك كتبت ﴿السواى﴾ بالألف قبل الياء - إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: يكفرون بالهمية، ويجحدونها، أَوْ: ﴿وكانوا﴾ في الدنيا ﴿كافرين﴾ بسببهم.

١٤ - ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَنْفَرِقُونَ﴾ الضمير في ﴿يَنْفَرِقُونَ﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه؛ حيث قال:

١٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أي: بستان، وهي: الجنة. والتنكير لإبهام أمرها، وتفخيمه ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يَسْرُونَ. يقال: حبره، إذا سره سروراً تهلّل له وجهه، وظهر فيه أثره. ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار، فقليل: يكرمون، وقيل: يحلّون، وقيل: هو السماع في الجنة.

١٦ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَايَ الْآخِرَةِ﴾ أي: البعث ﴿فَأُولَئِكَ فِي

الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾ مقيمون، لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم، كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ - لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد، فقال: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ﴾ والمراد بالتسبيح ظاهره؛ الذي هو تنزيه الله من السوء، والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات؛ لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة. أو: الصلاة، ف قيل لابن عباس - رضي الله عنهما -: هل نجد الصلوات الخمس في القرآن؟ فقال: نعم، وتلا هذه الآية. وهو نصب على المصدر. والمعنى: نزهوه عما لا يليق به، أو صلوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر.

١٨ - ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراض. ومعناه: أن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمده. و﴿في السموات﴾ حال من ﴿الحمد﴾ ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر. وهو معطوف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. أظهر: أي: دخل في وقت الظهر. والقول الأكثر أن الصلوات الخمس فرضت بمكة.

١٩ - ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الطائر من البيضة، أو الإنسان من النطفة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ البيضة من الطائر، أو النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن. و﴿الميت﴾ بالتخفيف فيهما: مكّي، وشامي، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحماد، وبالتشديد غيرهم ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(١) حمزة، وعليّ، وخلف. أي: ومثل ذلك الإخراج ﴿تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم. والكاف في محلّ النصب بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾. والمعنى: أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الميت

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تَخْرُجُونَ﴾، وهي قراءة من أشار إليهم المؤلف.

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

من الحي، وعكسه. روى ابن عباس - رضي الله عنهما -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «من قرأ ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى الثلاث، وآخر سورة ﴿والصافات﴾ دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات أجري له بكل حرف عشر حسنات في قبره». وعنه ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ إلى قوله ﴿وكذلك تخرجون﴾ أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته»^(١).

٢٠ - ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ ومن علامات ربوبيته، وقدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ أي: أباكم ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ أي: آدم وذريته ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ تتصرفون فيما فيه معاشكم، و﴿إِذَا﴾ للمفاجآت. وتقديره: ﴿ثم﴾ فاجأتكم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

٢١ - ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: حواء خلقت من ضلع آدم - عليه السلام - والنساء بعدها خُلِقْنَ من أصلاب الرجال، أو: من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. يقال: سكن إليه: إذا مال إليه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي بينكم التواد، والتراحم بسبب الزواج. وعن الحسن: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد. وقيل: المودة للشابة، والرحمة للعجوز. وقيل: المودة والرحمة من الله، والفرك من الشيطان، أي: بغض المرأة زوجها، وبغض الزوج المرأة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعملون أن قوام الدنيا بوجود التناسل.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسَيْنِكُمْ وَالْوَيْكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ

٢٢ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسَيْنِكُمْ﴾ أي: اللغات، أو: أجناس النطق وأشكاله ﴿وَالْوَيْكُمُ﴾ كالسواد والبياض وغيرهما. ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفي ذلك آية بيّنة حيث ولدوا من أب واحد، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله متفاوتون ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) جمع عالم. وبكسر اللام حفص، جمع عالم. ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٣ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ هذا من باب اللف. وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين. أو: المراد منامكم في الزمانين وابتغائكم فيهما. والجمهور على الأول لتكرره في القرآن. وأسد المعاني ما دل عليه القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون سماع تدبر بأذان واعية.

٢٤ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ في ﴿يريككم﴾ وجهان إضمار «أن» كما في حرف ابن مسعود - رضي الله عنه - وإنزال الفعل منزلة المصدر. وبهما فسر المثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»^(٢) أي: أن تسمع، أو: سماعك ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة، أو: من الإخلاف ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. أو: ﴿خَوْفًا﴾ للمسافر ﴿وَطَمَعًا﴾ للحاضر. وهما منصوبان على المفعول له، على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: إرادة خوف، وإرادة طمع؛ أو: على الحال، أي: خائفين، وطامعين ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وبالتخفيف مكّي، وبصري

(١) أثبت المؤلف رحمه الله قراءة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام.

(٢) انظره في: مجمع الأمثال للميداني (١/١٢٩).

مَاءً فَيُخْرِجُهُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ

﴿مَاءً﴾ مطراً ﴿فَيُخْرِجُهُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ﴾ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿﴾ يتفكرون بعقولهم.

٢٥ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ﴾ تثبت بلا عمد ﴿السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بإقامته، أو: بتدبيره، وحكمته ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم. هذا كقوله ﴿يريكهم﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ﴿ومن آياته﴾ قيام السموات والأرض، واستمسакها بغير عمد، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا. والمراد: سرعة وجود ذلك من غير توقف. وإنما عطفَ هذا على قيام السموات والأرض بـ ﴿ثم﴾ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال: ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. و﴿إذا﴾ الأولى للشرط، والثانية للمفاجآت، وهي تنوبُ مناب الفاء في جواب الشرط. و﴿من الأرض﴾ متعلقٌ بالفعل لا بالمصدر. وقولك: دعوته من مكان كذا، يجوز أن يكون: مكانك، ويجوز أن يكون: مكان صاحبك.

٢٦ - ﴿وَلَهُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينُونَ﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم، لا يمتنعون عليه، أو: مقرّون بالعبودية.

٢٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: ينشئهم ثم يعيدهم للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أي: البعث ﴿أَهْوَبُ﴾ أيسر ﴿عَلَيْهِ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء. فلم أنكرتم الإعادة؟ وأخرت الصلة في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وقدمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩] لقصد الاختصاص هناك، وأمّا هنا فلا معنى للاختصاص. وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما: الأهون

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ

بمعنى الهين، فيوصف به الله عز وجل، وكان ذلك على الله يسيراً، كما قالوا: الله أكبر، أي: كبير. والإعادة في نفسها عظيمة، ولكنها هوتت بالقياس إلى الإنشاء. أو: ﴿هو أهون﴾ على الخلق من الإنشاء؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، إلى تكميل خلقهم ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره، وقد عرف به ووصف ﴿في السموات والأرض﴾ على السنة الخلائق، وألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات. ويدل عليه قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل مقدور ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وعن مجاهد - رحمه الله -: هو قول لا إله إلا الله. ومعناه: ﴿وله﴾ الوصف الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضده قوله:

٢٨ - ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهذا مثل ضرب به الله عز وجل لمن جعل له شريكاً من خلقه. و﴿من﴾ للابتداء. كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ﴿هَلْ لَّكُمْ﴾ معاشر الأحرار ﴿مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عبيدكم - و﴿من﴾ للتبعض - ﴿مِّنْ شُرَكَاءَ﴾؟ ﴿من﴾ مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ومعناه: هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر، وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم ﴿فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنْتُمْ﴾ معاشر الأحرار والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ من غير تفصلة بين حر وعبد، يحكم ممالككم في أموالكم كحكمكم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿سواء﴾ أي: تخافون معاشر السادة عبيدكم فيها، فلا تمضون فيها حكماً دون إذنهم، خوفاً من لائمة تلحقكم من جهتهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ أي: خيفة كخيفتكم ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: كما يخاف بعض

كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ

الأحرار بعضاً فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف
ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبده له شركاء
﴿كَذَلِكَ﴾ موضع الكاف نصب، أي: مثل هذا التفصيل ﴿نَقْصِلُ الْآيَاتِ﴾
أي: نبينها؛ لأنَّ التمثيل مما يكشف المعاني، ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
يتدبرون في ضرب الأمثال.

٢٩ - فلما لم ينزجروا أضرب عنهم فقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم
بما أشركوا، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾
أي: اتبعوا ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ جاهلين ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: أضله الله
﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ من العذاب.

٣٠ - ﴿فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فقوم وجهك له، وعدّله، غير ملتفت عنه يمينا
ولا شمالاً. وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه.
فإنَّ مَنْ اهتم بالشئ عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه
﴿حَنِيفًا﴾ حال عن المأمور، وعن الدين ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي: الزموا ﴿فِطْرَةَ
اللَّهِ﴾. والفطرة: الحلقة. ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾؟! والمعنى:
أنَّ خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير ناين^(١) عنه ولا منكرين له؛
لكونه مجاذباً للعقل، مساوفاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه
ديناً آخر. ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن. ومنه قوله ﷺ: «كلَّ
عبادي خلقتُ حنفاءً، فاجتالهم الشياطينُ عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي
غيري»^(٢) وقوله ﷺ: «كلَّ مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما
اللدان يهودانه، وينصرانه»^(٣). وقال الزجاج: معناه: أنَّ الله تعالى فطر الخلق

(١) «نبا»: تحاف وتباعد.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) رواه أحد (٣٩٣/٢) والبخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨).

أَلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
المُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ

على الإيمان به، على ما جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ كَالذَّرَّةِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُ خَالِقُهُمْ»^(١) وقال: ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فكل مولود هو من تلك الذرية؛ التي شهدت بأنَّ الله تعالى خالقها. فمعنى ﴿فطرة الله﴾: دين الله ﴿أَلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: خلق ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة، أو: تغير. وقال الزجاج: معناه: لا تبديل لدين الله. ويدل عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

٣١ - ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه. وهو حال من الضمير في الزموا. وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ و﴿أَقِيمُوا﴾ و﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ معطوف على هذا المضمير. أو: من قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأنَّ الأمر له عليه الصلاة والسلام أمر لأمرته، فكانه قال: فأقيموا وجوهكم ﴿منيبين إليه﴾. أو التقدير: كونوا ﴿منيبين﴾. دليله: قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ و﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها في أوقاتها ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

٣٢ - ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿المشركين﴾ بإعادة الجاز ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ جعلوا أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم. (فارقوا): حمزة، وعليّ. وهي قراءة عليّ - رضي الله عنه - أي: تركوا دين الإسلام ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ فرقاً، كل واحدة تشايح إمامها الذي أضلها ﴿كُلِّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فرح بمذهبه مسرور، يحسب باطله حقاً.

٣٣ - ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدة من هزال، أو: مرض، أو: قحط، أو:

دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
 لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَايَيْنَهُمْ فَيَسْتَعْمُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ
 يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ
 بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

غير ذلك ﴿دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ في العبادة.

٣٤ - ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ - هذه لام كي. وقيل: لام الأمر للوعيد - ﴿بِمَا ءَايَيْنَهُمْ﴾ من النعم ﴿فَيَسْتَعْمُوا﴾ بكفركم قليلاً - أمر وعيد - ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال تمتعكم.

٣٥ - ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وتكلمه مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه: الشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم، وبصحته ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ «ما» مصدرية، أي: بكونهم بالله ﴿يُشْرِكُونَ﴾. أو: موصولة، ويرجع الضمير إليها، أي: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون. أو: معنى الآية: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ذا سلطان، أي: ملكاً معه برهان، فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

٣٦ - ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من مطر، أو: سعة، أو: صحة ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطروا بسببها ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاء من جذب، أو ضيق، أو: مرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب شؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من الرحمة. ف﴿إِذَا﴾ المفاجأة جواب الشرط، نابت عن الفاء لتأخيهما في التعقيب.

٣٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿انكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي، التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته!﴾

٣٨ - ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن

فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُوا عِندَ
اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ

يفعل، وما يجب أن يترك، فقال: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ أعطِ قريبك ﴿حَقَّهُ﴾ من البرِّ
والصلة ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ نصيبهما من الصدقة المسماة لهما. وفيه دليلُ
وجوب النفقة للمحارم، كما هو مذهبنا ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيتاء حقوقهم ﴿خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: ذاته، أي: يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً
﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٣٩ - ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ يريد: وما أعطيتكم أكلة الربا
ليربو في أموالهم، ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿فَلَا يَرِيوُوا عِندَ اللَّهِ﴾ فلا يزكو عند
الله، ولا يبارك فيه. وقيل: هو من الربا الحلال، أي: وما تعطونه من الهدية
لتأخذوا أكثر منها (فلا يربو عند الله) لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله ﴿وَمَا آتَيْتُم
مِّن زَكَاةٍ﴾ صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً، لا تطلبون به
مكافأة، ولا رياء، وسمعة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من
الحسنات. ونظير المضعف: المقوي، والموسر لذي القوة واليسار. ﴿آتَيْتُم مِّن
رَّبًّا﴾ بلا مد: مكّي، أي: وما غشيتموه من إعطاء ربا. ﴿لَتُرَبِّوَا﴾ مدني، أي:
لتزيدوا في أموالهم. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ التفات حسن، لأنه يفيد
التعميم، كأنه قيل: من فعل هذا فسيبله سبيل المخاطبين. والمعنى:
﴿المضعفون﴾ به؛ لأنه لا بد له من ضمير يرجع إلى ﴿مَا﴾ الموصولة. وقال
الزجاج في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: فأهلها ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي:
هم الذين يضاعف لهم الثواب، يعطون بالحسنة عشر أمثالها.

٤٠ - ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ثُمَّ

رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: هو المختص بالخلق، والرزق، والإماتة،
والإحياء ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: أصنامكم التي زعمتم أنهم شركاء الله ﴿مَّنْ

يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ فَأَقْرَرْتَهُم بِأَلْفَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ ﴿٤٤﴾

يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ أي: الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً من تلك الأفعال. فلم يجيبوا عجزاً، فقال استبعاداً: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. و﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

٤١ - ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ نحو: القحط، وقلة الأمطار، والريح في الزراعات، والريح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الغرق، ومحق البركات من كل شيء ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وشركهم - كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] أي: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: لِيُذِيقَهُمْ وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة - وبالنون: عن قبل - ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من المعاصي. ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله، ونكاله بقوله:

٤٢ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ حيث أمرهم بأن يسيروا، فينظروا كيف أهلك الله الأمم، وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم.

٤٣ - ﴿فَأَقْرَرْتَهُم بِأَلْفَيْهِمُ الَّذِينَ الْأَقْبَرُ﴾ البليغ الاستقامة، الذي لا يتأتى فيه عوج ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُمْ﴾ هو مصدر بمعنى الرد ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ يتعلق بـ ﴿يَأْتِي﴾. والمعنى: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يردّه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٤٠] أو بـ ﴿مَرَدٍّ﴾ على معنى: لا يردّه هو بعد أن يجيء به، ولا ردّ له من جهته ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ﴾ يتصدعون، أي: يتفرقون.

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

٤٤- ثُمَّ أشار إلى غناه فقال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: وبال كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه، ويوطئه لثلا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتوء أو غير ذلك. والمعنى بأنه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم، فأضيف إليهم. وتقدير الظرف في الموضعين للدلالة على أَنَّ ضَرَرَ الكفر لا يعود إلا على الكافر، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تتجاوز.

٤٥- ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بـ ﴿يمهدون﴾ تعليل له. وتكرير ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح؛ لتقرير: أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: عطائه. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ تقرير بعد تقرير، على الطرد والعكس.

٤٦- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: ومن آيات قدرته ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ هي الجنوب، والشمال، والصبأ. وهي: رياح الرحمة. وأما الدبور فريح العذاب. ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً»^(١). وقد عُدَّ الفوائد في إرسالها فقال: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي: أرسلها للبشارة بالغيث، ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ولإذابة الرحمة وهي: نزول المطر، وحصول الخصب الذي يتبعه، والروح الذي مع هبوب الريح، وزكاء الأرض، وغير ذلك - ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ﴾ معطوف على ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ على المعنى. كأنه قيل: ليبشركم، وليذيقكم، ﴿وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بتدبيره، أو بتكوينه، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ الآية [يس: ٨٢] ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يريد تجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيها.

(١) رواه أبو يعلى (٢٤٥٦) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٣٥/١٠ - ١٣٦).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجِي الْمَوْقَى

٤٧ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فأمّن بهم قوم، وكفر بهم قوم. ويدل على هذا الإضمار قوله: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ - أي: كفروا - بالإهلاك في الدنيا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكان نصر المؤمنين حقًا علينا بإنجائهم مع الرسل. وقد يوقف على ﴿حقًا﴾. ومعناه: ﴿وكان﴾ الانتقام منه ﴿حقًا﴾. ثم يُبتدأ ﴿علينا نصر المؤمنين﴾. والأول أصح. ٤٨ - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ ﴿الرِّيحَ﴾: مكّي ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ﴾ أي: السحاب ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في سَمَتِ السَّمَاءِ، وشقها - كقوله: ﴿وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] - و﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ناحية الشمال، أو: الجنوب، أو: الدبور، أو: الصبا ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ قطعاً، جمع كِسْفَةٍ، أي: يجعله منبسطاً يأخذ وجه السماء مَرَّةً، ويجعله قطعاً متفرقة غير منبسطة مَرَّةً - ﴿كِسْفًا﴾ يزيد، وابن ذكوان - ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ في التارتين جميعاً ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وسطه ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالودق ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يريد إصابة بلادهم، وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ يفرحون.

٤٩ - ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ كَرَّرَ للتأكيد كقوله: ﴿فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَتَتْهُمَا فِي النَّارِ خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧]. ومعنى التوكيد فيها: الدلالة على أَنَّ عهدهم بالمطر قد تطاول، فاستحكم بأسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين.

٥٠ - ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ﴾ شامي، وكوفي، غير أبي بكر. وغيرهم ﴿أَثَرِ﴾ ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: المطر ﴿كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ﴾ بالنبات، وأنواع الثمار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: الله ﴿لَمُعْجِي الْمَوْقَى﴾ يعني: أَنَّ ذلك القادر الذي يحيي

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّعَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا
أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ ضَلَالِهِمْ

الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم. فهذا استدلالٌ بإحياء
الموات على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ﴿وهو على كل شيء﴾
من المقدورات قادر، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

٥١ - ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي: الدبور ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي: أثر رحمة الله - لأن رحمة
الله هي الغيث، وأثرها: النبات. ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه؛ لأن
معنى آثار الرحمة: النبات، واسم النبات يقع على القليل والكثير؛ لأنه مصدر
سمي به ما ينبت - ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد اخضراره. وقال ﴿مُصْفَرًّا﴾ لأن تلك صفرة
حادثه. وقيل: فرأوا السحاب مصفراً؛ لأن السحاب الأصفر لا يمطر. واللام
في ﴿لن﴾ موطنه للقسم دخلت على حرف الشرط. والساؤ مسدّ جوابي القسم
والشرط: ﴿لَظَلُّوا﴾ ومعناه: لَيَظْلُنَّ ﴿مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: من بعد
اصفراره، أو: من بعد الاستبشار. ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر
قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته،
ورزقهم المطر استبشروا، فإذا أرسل ريحاً ف ضرب زروعهم بالصفار ضجّوا،
وكفروا بنعمة الله، فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، وكان عليهم
أن يتوكلوا على الله وفضلته، فقنطوا؛ وأن يشكروا نعمته، ويحمدوه عليها،
ففرحوا؛ وأن يصبروا على بلائه، فكفروا.

٥٢ - ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ أي: موتى القلوب، أو: هؤلاء في حكم
الموتى، فلا تطمع أن يقبلوا منك ﴿وَلَا تَسْمَعُ الضُّعَّةَ الدُّعَاءَ﴾ ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ﴾
- : مكّي - ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾. فإن قلت: الأصم لا يسمع مقبلاً أو مدبراً، فما
فائدة هذا التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا
ولّى لا يسمع، ولا يفهم بالإشارة.

٥٣ - ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ﴾ أي: عُمي القلوب. ﴿وما أنت تهدي
العمي﴾ حمزة ﴿ضَلَالِهِمْ﴾ أي: لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى طريق قد ضلّ

إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيْسُوا بِغَيْرِ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ

عنه بإشارة منك له إليه ﴿إِنْ تُسْمِعْ﴾ ما تسمع ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لأعلام الله تعالى.

٥٤ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ من النطف، كقوله: ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: حال الشباب. وبلوغ الأشد ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يعني: الشيخوخة، والههم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ضعف، وقوة، وشباب، وشيبة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ﴿الْقَدِيرُ﴾ على تغييرهم. وهذا التردد في الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير. وفتح الضاد في الكل: عاصم، وحمزة، وضَمَّ غيرهما، وهو اختيار حفص^(١). وهما لغتان، والضم أقوى في القراءة؛ لما روى ابن عمر قال: قرأتها على رسول الله ﷺ ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ فأقراني ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾.

٥٥ - ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة. سميت بذلك لأنها في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو: لأنها تقع بغتة، كما تقول: «في ساعة» لمن تستعجله. وجرت علماً لها؛ كالنجم للثرى ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف الكافرون. ولا وقف عليه، لأنَّ ﴿مَا لَيْسُوا بِغَيْرِ سَاعَةٍ﴾ في القبور، أو: في الدنيا ﴿غَيْرِ سَاعَةٍ﴾ جواب القسم. استقلوا مدة لبثهم في القبور، أو: في الدنيا لهول يوم القيامة، وطول مقامهم في شدائدھا، أو: ينسون، أو: يكذبون ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا، ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

٥٦ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ هم الملائكة أو الأنبياء، والمؤمنون

(١) قرأ حفص بالفتح والضم؛ الفتح عن عاصم، والضم عن نفسه. معجم القراءات القرآنية (٧٧/٥).

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَئِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علم الله المثبت في اللوح، أو في حكم الله وقضائه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾. ردوا ما قالوه، وحلفوا عليه، وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَئِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق؛ لتفريطكم في طلب الحق، واتباعه. الفاء لجواب شرط يدل على الكلام، تقديره: إن كنتم منكرين البعث ﴿فهذا يوم البعث﴾ الذي أنكرتموه.

٥٧ - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ﴾ بالياء: كوفي ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة. من قولك: استعطني فلان فاعتبته، أي: استرضاني فأرضيته.

٥٨ - ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ولقد وصفنا لهم كل صفة، كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم، وما يقولون، وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم، ولا يسمع من استعتابهم. ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل!

٥٩ - ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع - وهو: الختم - يطبع الله على قلوب الجهلة؛ الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين. وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة.

٦٠ - ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على أذاهم، أو: عداوتهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرتك على أعدائك، وإظهار دين الإسلام على كل دين ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه،

وَلَا يَسْتَخَفَّنَاكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

والوفاء به ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَاكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحملُكَ هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة في الدعاء عليهم بالعذاب، أو: لا يحملُكَ على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون، فإنهم ضلّال، شاكون، لا يستبدع منهم ذلك ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَاكَ﴾ بسكون النون، عن يعقوب.

* * *

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

١ ، ٢ - ﴿الْعَمَّ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة. أو: وصف بصفة
الله عز وجل على الإسناد المجازي.

٣ - ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالان من الآيات. والعامل معنى الإشارة في
﴿تلك﴾. حمزة: بالرفع، على أَنَّ ﴿تلك﴾ مبتدأ، و﴿آيات الكتاب﴾ خبره،
و﴿هدى﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو، أو: هي هدى
ورحمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للذين يعملون الحسنات المذكورة في قوله:

٤ - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ونظيره قول
أوس:

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَن قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا
أو: للذين يعملون جميع ما يحسن، ثم خصّ منهم القائمين بهذه الثلاث
لفضلها.

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ
الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا

٥ - ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ مبتدأ وخبر ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ صفة لهدى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ عطف عليه.

٦ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث. وكان يشتري أخبار الأكاسرة من فارس، ويقول: إن محمداً يقصّ طرفاً من قصّة عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث الأكاسرة. فيميلون إلى حديثه، ويتركون استماع القرآن. واللهو: كل باطل ألهمى عن الخير وعمّا يعني. ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير التي لا أصل لها والغناء. وكان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما - يحلفان أنه الغناء. وقيل: الغناء: مفسدة للقلب، منقذة للمال، مسخطة للرب. وعن النبي ﷺ: «ما من رجل يرفعُ صوته بالغناء إلاّ بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»^(١). والاشتراء من الشراء كما روي عن النضر، أو: من قوله: ﴿أَشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] أي: استبدلوه منه، واختاروه عليه، أي: يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى «مِن»؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث. والمراد بالحديث: الحديث المنكر، كما جاء في الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»^(٢). أو: للتبعيض، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي: ليصدّ الناس عن الدخول في الإسلام، واستماع القرآن. ﴿لِيُضِلَّ﴾: مكّي، وأبو عمرو، أي: ليثبت على ضلاله الذي كان عليه، ويزيد فيه ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دين الإسلام، والقرآن ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر به ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي: السبيل. بالنصب، كوفي غير أبي بكر،

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١١٩/٨).

(٢) انظره في كشف الخفاء (٤٥٣/١).

هَزُؤًا أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تَنَادَىٰ آيَاتُنَا وَكُنَّ مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا يَسْمَعُهَا كَآفًا فِي أذُنَيْهِ وَقَرَأَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

عطفًا على ﴿ليُضِلَّ﴾. ومن رفع عطفه على ﴿يشتري﴾ ﴿هَزُؤًا﴾^(١) بسكون الزاي والهمزة: حمزة. وبضم الزاي بلا همز؛ حفص. وغيرهم بضم الزاي والهمزة ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: بينهم - و﴿مَنْ﴾ لإبهامه؛ يقع على الواحد والجمع - أي: للنضر وأمثاله.

٧ - ﴿وَإِذَا تَنَادَىٰ آيَاتُنَا وَكُنَّ مُسْتَكْبِرِينَ﴾ أعرض عن تدبرها متكبرًا، رافعًا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿كَانُوا يَسْمَعُهَا﴾ يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها. وهو حال من ﴿مستكبرًا﴾. والأصل: كأنه. والضمير ضمير الشأن ﴿كَانَ فِي أذُنَيْهِ وَقَرَأَ﴾ ثقلًا. وهو حال من ﴿لم يسمعها﴾. و﴿أذنيه﴾: نافع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٨، ٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتُ النَّعِيمِ﴾ ولا وقف عليه؛ لأن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان، الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره. إذ ﴿لهم جنات النعيم﴾ في معنى وعدهم الله جنات النعيم، فأكد معنى الوعد بالوعد. و﴿حقًا﴾ يدلُّ على معنى الثبات، فأكد به معنى الوعد. ومؤكدهما: ﴿لهم جنات النعيم﴾ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء، فيهيئ أعداءه بالعذاب الأليم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ بما يفعل، فيثيب أوليائه بالنعيم المقيم.

١٠ - ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ جمع عماد ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير للسماوات. وهو استشهادٌ برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: ﴿بغير عمد﴾. كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني. ولا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنها مستأنفة، أو: في محلِّ الجرِّ صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئية، يعني: أنه

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿هَزُؤًا﴾.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ يَنْبَغِدَ بِكُمْ وَيَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ

عمدها بعد لا ترى، وهي: إمساكها بقدرته ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي﴾ جبلاً ثوابت ﴿أَنْ يَنْبَغِدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم ﴿وَيَثَّ﴾ ونشر ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن.

١١ - ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ أي: مخلوقه ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: آلهتهم. بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة ممّا خلقه الله، فأروني ما خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

١٢ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ هو لقمان بن باعوراء، ابن أخت أيوب، أو: ابن خالته. وقيل: كان من أولاد أزر. وعاش ألف سنة، وأدرك داود - عليه السلام - وأخذ منه العلم. وكان يفتي قبل مبعث داود - عليه السلام - فلما بعث قطع الفتوى، ف قيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كُفيت؟ وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان نجاراً، وقيل راعياً، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال عكرمة والشعبي - رحمهما الله -: كان نبياً. والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً. وقيل: خُير بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة، وهي: الإصابة في القول والعمل. وقيل تَلَمَّذَ بِأَلْفِ نَبِيٍّ وَتَلَمَّذَ لَهُ أَلْفُ نَبِيٍّ. و«أَنْ» في: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ مُفَسَّرَةٌ، والمعنى: أي اشكر الله؛ لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول. وقد نبّه الله تعالى على أنّ الحكمة الأصلية، والعلم الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله، والشكر له، حيث فسّر إيتاء الحكمة بالحثّ على الشكر. وقيل: لا يكون الرجلُ حكيماً حتى يكون حكيماً في قوله، وفعله، ومعاشرته، وصحبته. وقال السريّ (السقطي)^(١) - رحمه الله -: الشكر: ألا

(١) مستدرك من المطبوع. والسريّ السَّقَطِيّ: أبو الحسن، من كبار المتصوفة، وهو خال الجُنَيْد وأستاذه. توفي ببغداد سنة ٢٥٣ هـ.

وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَلِذَلِكَ قَالَ لِقَمَنْ لَابَنِهِ وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾

تعصي الله بنعمه. وقال الجنيد: ألا ترى معه شريكاً في نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر. والحاصل: أن شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة. ورؤية العجز في الكل، دليل قبول الكل ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعته تعود إليه، فهو يريد المزيد ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بأن يحمد، وإن لم يحمده أحد.

١٣ - ﴿وَلِذَلِكَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿قَالَ لِقَمَنْ لَابَنِهِ﴾ أنعم، أو: أشكم ﴿وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْنَى﴾ ^(١) مكّي ﴿يَا بَنِي﴾؛ حفص، وبفتح في كل القرآن ﴿لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا هي منه وبين من لا نعمة له أصلاً.

١٤ - ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهناً على وهن﴾ أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل كلما ازداد، وعظم ازدادت ثقلًا، وضعفاً ﴿وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: فطامه عن الرضاع لتمام عامين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ﴾ هو تفسير ل: ﴿وصينا﴾ أي: وصينا بشكرنا، وبشكر والديه. وقوله: ﴿حملته أمه وهناً على وهن، وفصّاله في عامين﴾ اعتراض بين المفسّر والمفسّر، لأنه لما وصّى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم، وتعانيه من المشاق في حملها وفصّاله هذه المدة الطويلة، تذكيراً بحقها العظيم مفرداً. وعن ابن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: مصيرك إليّ، وحسابك عليّ.

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - كما في الأصل المخطوط قراءة: ﴿يَا بَنِي﴾. وهي قراءة من أشار إليه المؤلف.

وَلِإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

١٥ - ﴿وَلِإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أراد بنفي العلم به: نفيه، أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد: الأصنام. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: صحاباً ﴿مَعْرُوفًا﴾ حسناً بخُلُقٍ جميل، وحلم، واحتمال، وبر، وصلة ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ المؤمنين في دينك، ولا تتبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهم في الدنيا. وقال ابن عطاء: صاحبٌ مَنْ ترى عليه أنوار خدمتي ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعك، ومرجعهم ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما. وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك، يعني: إنا وصّيناه بوالديه، وأمرناه ألا يطيعهما في الشرك، وإن جهدا كلَّ الجهد؛ لقبحه.

١٦ - ﴿يَبْنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾^(١) بالرفع: مدني. والضمير للقصّة. وأنت المثلث لإضافته إلى الحبة، كما قال^(٢):

... .. كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدَّمِ^(٣)

وكان تامة. والباقون بالنصب. والضمير للهتة من الإساءة والإحسان، أي: إن كانت مثلاً في الصغر كحبة خردل ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فكانت مع صغرها في أخفى موضع، وأحرزه، كجوف الصخرة،

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿مِثْقَالَ﴾.

(٢) الشاعر: الأعشى، ميمون بن قيس.

(٣) عجز بيت، وصدره: وتشرق بالقول الذي أذعته.

يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

أو: حيث كانت في العالم العلوي، أو: السفلي - والأكثر على أنها الصخرة التي عليها الأرض، وهي: السجين تكتب فيها أعمال الكفار، وليست من الأرض - ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ يوم القيامة، فيحاسب بها عاملها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه. أو: ﴿لطيف﴾ باستخراجها ﴿خبير﴾ بمستقرها.

١٧ - ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ في ذات الله إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر. أو: ﴿على ما أصابك﴾ من المحن؛ فإنها تورث المنح ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي أوصيك به ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور، أي: قطعه قطع إيجاب وإلزام، أي: أمر به أمراً حتماً. وهو من تسمية المفعول بالمصدر. وأصله من معزومات الأمور، أي: من مقطوعاتها، ومفروضاتها. وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم.

١٨ - ﴿وَلَا تَصْغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ولا تعرض عنهم تكبراً. (نُصَاعِرُ): أبو عمرو، ونافع، وحزمة، وعلي. وهو بمعنى ﴿تصغر﴾ والصغر: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: تفرح ﴿مَرَحًا﴾، أو: أوقع المصدر موقع الحال، أي: مَرَحًا. أو: ﴿لا تمش﴾ لأجل المرح، والأشر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ متكبر ﴿فَخُورٍ﴾ من يعدد مناقبه تطاولاً.

١٩ - ﴿وَأَقْصِدْ﴾ القصد: التوسط بين العلو والتقصير ﴿فِي مَشْيِكَ﴾ أي: اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين، لا تدب ديبب المتماوتين، ولا تثب وثيب الشطار. قال عليه الصلاة والسلام: «سرعة المشي تذهب بهاء»

وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا

المؤمن»^(١). وأما قول عائشة في عمر - رضي الله عنهما -: كان إذا مشى أسرع. فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن ديبب المتماوت. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: كانوا ينهون عن خبب اليهود وديبب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك. وقيل: معناه: وانظر موضع قدميك متواضعاً ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وانقص منه، أي: اخفض صوتك ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أوحشها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ لأن أوله زفير وآخره شهيق، كصوت أهل النار. وعن الثوري: صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار فإنه يصبح لرؤية الشيطان؛ ولذلك سماه الله منكراً. وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على أن رفع الصوت في غاية الكراهة. يؤيده ما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت. وإنما وحد صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنه لم يرز أن يذكر صوت كل واحد من آحاد الجنس حتى يجمع، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

٢٠ - ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، وغير ذلك ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: البحار، والأنهار، والمعادن، والدواب، وغير ذلك ﴿وَأَسْبَغَ﴾ وأتم ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ مدني، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. ﴿نِعْمَةً﴾: غيرهم. والنعمة: كل نفع قصد به الإحسان ﴿ظَهَرَهُ﴾ ما يُعلم بالمشاهدة ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ ما لا يعلم إلا بدليل. ثم قيل: الظاهرة: البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروي في دعاء موسى - عليه السلام -: إلهي! دلني على أخفى نعمتك على عبادك. فقال: أخفى نعمتي عليهم النَّفْس. وقيل: تخفيف الشرائع، وتضعيف الذرائع، والخلق، والخلق، ونيل العطايا، وصرف البلايا، وقبول الخلق، ورضا الرب. وقال ابن عباس

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٠/٢٩٠).

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

- رضي الله عنه -: الظاهرة: ما سوى من خَلَقَكَ، والباطنة: ما ستر من عيوبك ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِرٍ﴾ نزلت في النضر ابن الحارث. وقد مر في الحج.

٢١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يتبعونهم ﴿ولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي: في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

٢٢ - ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ عُدِّي هنا بـ «إلى» وفي ﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] باللام. فمعناه مع اللام: أنه جعل وجهه - وهو ذاته ونفسه - سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه: مع إلى: أنه سلم إليه نفسه، كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه، والتفويض إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيما يعمل ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ تمسك، وتعلق ﴿بِالْعُرْوَةِ﴾ هي ما يعلق به الشيء ﴿الْوُثْقَى﴾ تأنيث الأوثق. مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاقق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمون انقطاعه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: هي صائرة إليه، فيجازي عليها.

٢٣ - ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه لله ﴿فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ﴾ من: حَزَنَ ﴿يَحْزَنُ﴾ نافع، من: أَحْزَنَ، أي: لا يهتمك كفر من كفر ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ فنعاقبهم على أعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنَّ يعلم ما في صدور عباده، فيفعل بهم على حسبه.

٢٤ - ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ بدنياهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ شديد. شبه إلزامهم التعذيب، وإلحاقهم إياه باضطراب المضطر

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ

إلى الشيء. والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد: الشدة، والثقل على المعدب.

٢٥ - ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر، وألا يعبد معه غيره. ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم، وإذا تبهوا عليه لم يتبهوا.

٢٦ - ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمده.

٢٧ - قال المشركون: إن هذا - أي: الوحي - كلام سينفذ، فأعلم الله: أن كلامه لا ينفذ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ ﴿وَالْبَحْرُ﴾ أبو عمرو ويعقوب عطفاً على اسم أن، وهو: ﴿مَا﴾. والرفع على محل ﴿أَنْ﴾ ومعمولها، أي: ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر. أو: على الابتداء، والواو للحال، على معنى: ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً. وقرئ: ﴿يُمِدُّهُ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أن الشجر أقلام، والبحر مداد. لكن أغنى عن ذكر المداد قوله: ﴿يُمِدُّهُ﴾ لأنه من قولك: مد الدواء، وأمدّها. جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواء، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً، فهي تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع. والمعنى: ولو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكُتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، لما نفذت كلماته، ونفذت الأقلام والمداد. كقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٩] فإن قلت: زعمت أن قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ حال في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

الحال. قلت: هو كقولك: جئت والجيش مصطفً، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف. وإنما ذُكِرَ شجرة على التوحيد؛ لأنه أريد تفصيل الشجر، وتقصُّبها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة؛ إلا قد برت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهي جمع قلة على الكلم، وهي جمع كثرة؛ لأن معناه: أن كلماته لا تفي بكتبتها البحار، فكيف بكلمه؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء، فلا تنفذ كلماته، وحكمه.

٢٨ - ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفٍ وَاحِدَةً﴾ أي: إلا كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة، فحذف للعلم به، أي: سواء في قدرته القليل والكثير، فلا يشغله شأن عن شأن ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول المشركين: إنه لا بعث ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالهم، فيجازيهم.

٢٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل الليل ﴿وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمنافع العباد ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ في فلكه، ويقطعه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة، أو: إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء: عياش.

دل أيضاً - بتعاقب الليل والنهار، وزيادتهما ونقصانهما، وجري النيرين في فلكيهما على تقدير وحساب، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق - على عظم قدرته وكمال حكمته.

٣٠ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: عراقٍ غير أبي بكر، ﴿مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الوصف الذي وصف به - من

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾
يَكَايَأُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ أَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ
وَالِدِهِ شَيْئًا

عجائب قدرته وحكمته؛ التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف
بالجماد الذي يدعونه من دون الله - إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته،
وأن من دونه باطل الإلهية، وأن الله ﴿هو العلي﴾ الشأن ﴿الكبير﴾ السلطان.

٣١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ وقرء ﴿الْفُلْكَ﴾. وكل فعل يجوز فيه: فُعل،
كما يجوز في كل فعل فُعلٌ ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه، ورحمته. أو:
بالريح؛ لأن الريح من نعم الله ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ عجائب قدرته في البحر إذا
ركبتموها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه. وهما
صفتا المؤمن. فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. فكأنه قال: ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ مؤمن.

٣٢ - ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ الموج يرتفع فيعود مثل
الظلل. والظلة: كل ما أظلك من جبل، أو: سحاب، أو: غيرهما ﴿دَعَوْا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ أي: باقي على الإيمان
والإخلاص، الذي كان منه، ولم يعد إلى الكفر أو: متوسط في الكفر والظلم،
انزجر بعض الانزجار، ولا يغلو في كفره. أو: ﴿مقصد﴾ في الإخلاص الذي
كان عليه في البحر، يعني: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف
لا يبقى لأحد قط. والمقصد قليل نادر ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحقيقتها
﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار. والختر: أقبح الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ لربه.

٣٣ - ﴿يَكَايَأُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ أَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لا يقضي
عنه شيئاً. والمعنى: ﴿لا يجزي﴾ فيه، فحذف ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾
وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؛ لأن الجملة
الاسمية أكد من الجملة الفعلية. وقد انضم إلى ذلك قوله: ﴿هو﴾، وقوله:

إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾
 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا
 تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

﴿مولود﴾. والسبب في ذلك: أَنَّ الخطاب للمؤمنين، وَعَلَيْهِمْ^(١): قبض
 آبائهم على الكفر، فأريد حَسَمَ أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة.
 ومعنى التأكيد في لفظ المولود: أَنَّ الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد
 منه لم تقبل شفاعته، فضلاً أن يشفع لأجداده، إذ الولد يقع على الولد وولد
 الولد، بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك، كذا في «الكشاف» ﴿إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ﴾
 بالبعث، والحساب، الجزاء ﴿حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها؛ فإن
 نعمتها دانية، ولذاتها فانية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان، أو: الدنيا،
 أو: الأمل.

٣٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: وقت قيامها ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد:
 شامي، ومدني، وعاصم. وهو عطفٌ على ما يقتضيه الظرف من الفعل،
 تقديره: إِنَّ اللَّهَ يثبت عنده علم الساعة وينزل ﴿الْغَيْثَ﴾ في إبانها، من غير
 تقديم ولا تأخير ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، وتأم أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِي
 نَفْسٌ بِرَّةٍ، أو: فاجرة ﴿مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير، أو شر. وربما كانت
 عازمة على خير فعملت شراً، وعازمة على شر فعملت خيراً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
 أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: أين تموت. وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها، وقالت:
 لا أبرحها، فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكانٍ لم يخطر ببالها. رُوي أَنَّ
 ملك الموت مرَّ على سليمان - عليهما السلام - فجعل ينظر إلى رجل من
 جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت. قال: كأنه يريدني! وسأل
 سليمان - عليه السلام - أن يحمله على الريح، ويلقيه ببلاد الهند، ففعل. ثم
 قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأنِّي أُمِرتُ أن أقبضَ
 روحه بالهند وهو عندك! وجعل العلم لله، والدراية للعبيد، لما في الدراية من
 معنى الختل والحيلة. والمعنى: أَنَّهَا لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها.

(١) «عليتهم»: أي: أشرافهم وعظماؤهم.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

ولا شيء أخصّ بالإنسان من كسبه وعاقبته . فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان ما عدهما أبعد . وأمّا المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع ، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً . على أنه مجرد الظنّ والظنّ غير العلم . وعن النبي ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس »^(١) وتلا هذه الآية . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب .

ورأى المنصور في منامه صورة ملك ، وسأله عن مدّة عمره ، فأشار بأصابعه الخمس ، فعبرها المعبرون بخمس سنوات ، وبخمس أشهر ، وبخمس أيام . فقال أبو حنيفة - رحمه الله - : هو إشارة إلى هذه الآية ، فإنّ هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بالغيوب ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما كان ويما ويكون . وعن الزهري - رحمه الله - : أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب .

* * *

(١) رواه أحمد (٢ / ٢٤ و ٥٢ و ٥٨) والبخاري (٤٦٩٧) .

فهرس الآيات

الموضوع	الصفحة
(١٠) سورة يونس	
تفسير الآيتين (١ - ٢)	٥
تفسير الآية (٣)	٦
تفسير الآيات (٤ - ٦)	٧
تفسير الآيات (٧ - ٩)	٨
تفسير الآيات (١٠ - ١٢)	٩
تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)	١٠
تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)	١١
تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)	١٢
تفسير الآيات (١٩ - ٢١)	١٣
تفسير الآية (٢٢)	١٤
تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)	١٥
تفسير الآية (٢٥)	١٧
تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)	١٨
تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)	١٩
تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)	٢٠

٢١	تفسير الآيتين (٣٤ - ٣٥)
٢٢	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)
٢٣	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٢٤	تفسير الآيات (٤٢ - ٤٥)
٢٥	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
٢٦	تفسير الآيات (٤٨ - ٥١)
٢٧	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٥)
٢٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٩)
٢٩	تفسير الآيتين (٦٠ - ٦١)
٣٠	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٤)
٣١	تفسير الآيتين (٦٥ - ٦٦)
٣٢	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٩)
٣٣	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
٣٤	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٥)
٣٥	تفسير الآيات (٧٦ - ٨١)
٣٦	تفسير الآيات (٨٢ - ٨٥)
٣٧	تفسير الآيات (٨٦ - ٨٨)
٣٨	تفسير الآيتين (٨٩ - ٩٠)
٣٩	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
٤٠	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)
٤١	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٤٢	تفسير الآيتين (٩٨ - ٩٩)
٤٣	تفسير الآيات (١٠٠ - ١٠٣)
٤٤	تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٧)
٤٥	تفسير الآيتين (١٠٨ - ١٠٩)
	(١١) تفسير سورة هود
٤٦	تفسير الآيات (١ - ٣)

٤٧	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٤٨	تفسير الآية (٨)
٤٩	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٥٠	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٥١	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٥٢	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٥٣	تفسير الآيات (٢١ - ٢٥)
٥٤	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
٥٥	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)
٥٦	تفسير الآيات (٣١ - ٣٤)
٥٧	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٧)
٥٨	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٥٩	تفسير الآية (٤١)
٦٠	تفسير الآيتين (٤٢ - ٤٣)
٦١	تفسير الآية (٤٤)
٦٣	تفسير الآية (٤٥)
٦٤	تفسير الآية (٤٦)
٦٥	تفسير الآيتين (٤٧ - ٤٨)
٦٦	تفسير الآيات (٤٩ - ٥٢)
٦٧	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٥)
٦٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٨)
٦٩	تفسير الآيات (٥٩ - ٦١)
٧٠	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٥)
٧١	تفسير الآيتين (٦٦ - ٦٧)
٧٢	تفسير الآيات (٦٨ - ٧١)
٧٣	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٤)
٧٤	تفسير الآيات (٧٥ - ٧٧)

٧٥	تفسير الآيتين (٧٨ - ٧٩)
٧٦	تفسير الآيتين (٨٠ - ٨١)
٧٧	تفسير الآيات (٨٢ - ٨٤)
٧٨	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٧)
٧٩	تفسير الآيتين (٨٨ - ٨٩)
٨٠	تفسير الآيات (٩٠ - ٩٣)
٨١	تفسير الآية (٩٤)
٨٢	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٨)
٨٣	تفسير الآيات (٩٩ - ١٠٢)
٨٤	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٦)
٨٥	تفسير الآيتين (١٠٧ - ١٠٨)
٨٦	تفسير الآيتين (١٠٩ - ١١٠)
٨٧	تفسير الآيتين (١١١ - ١١٢)
٨٨	تفسير الآيتين (١١٣ - ١١٤)
٨٩	تفسير الآيتين (١١٥ - ١١٦)
٩٠	تفسير الآيتين (١١٧ - ١١٨)
٩١	تفسير الآيات (١١٩ - ١٢٣)

(١٢) سورة يوسف

٩٣	تفسير الآيات (١ - ٣)
٩٤	تفسير الآية (٤)
٩٥	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٩٦	تفسير الآيتين (٧ - ٨)
٩٧	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٩٨	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
٩٩	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
١٠٠	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
١٠١	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)

١٠٢	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
١٠٣	تفسير الآية (٢٤)
١٠٤	تفسير الآية (٢٥)
١٠٥	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
١٠٦	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)
١٠٧	تفسير الآية (٣١)
١٠٨	تفسير الآيتين (٣١ - ٣٣)
١٠٩	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٦)
١١٠	تفسير الآية (٣٧)
١١١	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
١١٢	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
١١٣	تفسير الآية (٤٣)
١١٤	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
١١٥	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
١١٦	تفسير الآيتين (٥٠ - ٥١)
١١٧	تفسير الآيتين (٥٢ - ٥٣)
١١٨	تفسير الآية (٥٤)
١١٩	تفسير الآيتين (٥٥ - ٥٦)
١٢٠	تفسير الآيتين (٥٧ - ٥٨)
١٢١	تفسير الآيات (٥٩ - ٦٣)
١٢٢	تفسير الآيتين (٦٤ - ٦٥)
١٢٣	تفسير الآيتين (٦٦ - ٦٧)
١٢٤	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
١٢٥	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٣)
١٢٦	تفسير الآيات (٧٤ - ٧٦)
١٢٧	تفسير الآيات (٧٧ - ٧٩)
١٢٨	تفسير الآيتين (٨٠ - ٨١)

١٢٩	تفسير الآيات (٨٢ - ٨٤)
١٣٠	تفسير الآيتين (٨٥ - ٨٦)
١٣١	تفسير الآيات (٨٧ - ٩٠)
١٣٢	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
١٣٣	تفسير الآيات (٩٣ - ٩٥)
١٣٤	تفسير الآيات (٩٦ - ٩٩)
١٣٥	تفسير الآية (١٠٠)
١٣٦	تفسير الآية (١٠١)
١٣٧	تفسير الآيات (١٠٢ - ١٠٦)
١٣٨	تفسير الآيات (١٠٧ - ١٠٩)
١٣٩	تفسير الآيتين (١١٠ - ١١١)

(١٣) سورة الرعد

١٤١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
١٤٢	تفسير الآيات (٣ - ٥)
١٤٣	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
١٤٤	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
١٤٥	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
١٤٦	تفسير الآية (١٣)
١٤٧	تفسير الآية (١٤)
١٤٨	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
١٤٩	تفسير الآية (١٧)
١٥٠	تفسير الآية (١٨)
١٥١	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
١٥٢	تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
١٥٣	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٦)
١٥٤	تفسير الآيات (٢٧ - ٣٠)
١٥٥	تفسير الآية (٣١)

١٥٦	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤)
١٥٧	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٧)
١٥٨	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
١٥٩	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)

(١٤) سورة إبراهيم

١٦١	تفسير الآيات (١ - ٣)
١٦٢	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
١٦٣	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
١٦٤	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
١٦٥	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
١٦٦	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
١٦٧	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)
١٦٨	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
١٦٩	تفسير الآية (٢٢)
١٧١	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
١٧٢	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
١٧٣	تفسير الآيات (٢٨ - ٣١)
١٧٤	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤)
١٧٥	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٧)
١٧٦	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
١٧٧	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
١٧٨	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
١٧٩	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
١٨٠	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
١٨١	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)

(١٥) سورة الحجر

١٨٢	تفسير الآيتين (١ - ٢)
-----	-----------------------

١٨٣	تفسير الآيات (٣ - ٦)
١٨٤	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
١٨٥	تفسير الآيات (١١ - ١٥)
١٨٦	تفسير الآيات (١٦ - ٢٠)
١٨٧	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
١٨٨	تفسير الآيات (٢٥ - ٣٠)
١٨٩	تفسير الآيات (٣١ - ٣٧)
١٩٠	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٣)
١٩١	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٧)
١٩٢	تفسير الآيات (٤٨ - ٥٤)
١٩٣	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٩)
١٩٤	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٥)
١٩٥	تفسير الآيات (٦٦ - ٧٠)
١٩٦	تفسير الآيات (٧١ - ٧٨)
١٩٧	تفسير الآيات (٧٩ - ٨٥)
١٩٨	تفسير الآيات (٨٦ - ٨٨)
١٩٩	تفسير الآيات (٨٩ - ٩١)
٢٠٠	تفسير الآيات (٩٢ - ٩٦)
٢٠١	تفسير الآيات (٩٧ - ٩٩)

(١٦) سورة النحل

٢٠٢	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٢٠٣	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٢٠٤	تفسير الآيات (٧ - ٩)
٢٠٥	تفسير الآيات (١٠ - ١٢)
٢٠٦	تفسير الآيات (١٣ - ١٥)
٢٠٧	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٢٠٨	تفسير الآيات (١٩ - ٢٤)

٢٠٩	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٢١٠	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)
٢١١	تفسير الآيات (٣١ - ٣٤)
٢١٢	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٨)
٢١٣	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٢١٤	تفسير الآيات (٤٢ - ٤٥)
٢١٥	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٩)
٢١٦	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٢١٧	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٦)
٢١٨	تفسير الآيات (٥٧ - ٦١)
٢١٩	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
٢٢٠	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٦)
٢٢١	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٨)
٢٢٢	تفسير الآية (٦٩)
٢٢٣	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
٢٢٤	تفسير الآيات (٧٣ - ٧٥)
٢٢٥	تفسير الآيتين (٧٦ - ٧٧)
٢٢٦	تفسير الآيات (٧٨ - ٨٠)
٢٢٧	تفسير الآيات (٨١ - ٨٣)
٢٢٨	تفسير الآيات (٨٤ - ٨٧)
٢٢٩	تفسير الآيات (٨٨ - ٩٠)
٢٣٠	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
٢٣١	تفسير الآيات (٩٣ - ٩٥)
٢٣٢	تفسير الآيتين (٩٦ - ٩٧)
٢٣٣	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠١)
٢٣٤	تفسير الآيتين (١٠٢ - ١٠٣)
٢٣٥	تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٦)

٢٣٦	تفسير الآيات (١٠٧ - ١١٠)
٢٣٧	تفسير الآيتين (١١١ - ١١٢)
٢٣٨	تفسير الآيات (١١٣ - ١١٥)
٢٣٩	تفسير الآيات (١١٦ - ١١٩)
٢٤٠	تفسير الآيتين (١٢٠ - ١٢١)
٢٤١	تفسير الآيات (١٢٢ - ١٢٥)
٢٤٢	تفسير الآيتين (١٢٦ - ١٢٧)
٢٤٣	تفسير الآية (١٢٨)

(١٧) سورة الإسراء

٢٤٤	تفسير الآية (١)
٢٤٥	تفسير الآيات (١ - ٣)
٢٤٦	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٢٤٧	تفسير الآيات (٧ - ٩)
٢٤٨	تفسير الآيات (١٠ - ١٢)
٢٤٩	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٢٥٠	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٢٥١	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٣)
٢٥٢	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)
٢٥٣	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٦)
٢٥٤	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٩)
٢٥٥	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٣)
٢٥٦	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٦)
٢٥٧	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)
٢٥٨	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٢٥٩	تفسير الآيات (٤٢ - ٤٤)
٢٦٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٩)
٢٦١	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٤)

٢٦٢	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٧)
٢٦٣	تفسير الآية (٥٨)
٢٦٤	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٢٦٦	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٢)
٢٦٧	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٥)
٢٦٨	تفسير الآيات (٦٦ - ٦٨)
٢٦٩	تفسير الآيتين (٦٩ - ٧٠)
٢٧٠	تفسير الآيات (٧١ - ٧٣)
٢٧١	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)
٢٧٢	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
٢٧٣	تفسير الآيات (٧٩ - ٨٢)
٢٧٤	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٥)
٢٧٥	تفسير الآية (٨٦)
٢٧٦	تفسير الآيات (٨٧ - ٩٠)
٢٧٧	تفسير الآيات (٩١ - ٩٣)
٢٧٨	تفسير الآيات (٩٤ - ٩٧)
٢٧٩	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
٢٨٠	تفسير الآيات (١٠٠ - ١٠٢)
٢٨١	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٥)
٢٨٢	تفسير الآيات (١٠٦ - ١٠٩)
٢٨٣	تفسير الآيتين (١١٠ - ١١١)

(١٨) سورة الكهف

٢٨٥	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٢٨٦	تفسير الآيات (٣ - ٧)
٢٨٧	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٢٨٨	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٢٨٩	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)

٢٩٠	تفسير الآية (١٨)
٢٩١	تفسير الآية (١٩)
٢٩٢	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٢٩٤	تفسير الآية (٢٢)
٢٩٥	تفسير الآية (٢٣)
٢٩٦	تفسير الآية (٢٤)
٢٩٧	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٢٩٨	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٢٩٩	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
٣٠٠	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)
٣٠١	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٩)
٣٠٢	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
٣٠٣	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٣٠٤	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٨)
٣٠٥	تفسير الآيات (٤٩ - ٥١)
٣٠٦	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٤)
٣٠٧	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٣٠٨	تفسير الآيات (٥٨ - ٦٠)
٣٠٩	تفسير الآية (٦١)
٣١٠	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٦)
٣١١	تفسير الآيات (٦٧ - ٧١)
٣١٢	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٤)
٣١٣	تفسير الآيات (٧٥ - ٧٧)
٣١٤	تفسير الآيات (٧٨ - ٨١)
٣١٥	تفسير الآية (٨٢)
٣١٦	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٥)
٣١٧	تفسير الآية (٨٦)

٣١٨	تفسير الآيات (٨٧ - ٩١)
٣١٩	تفسير الآيات (٩٢ - ٩٥)
٣٢٠	تفسير الآيات (٩٦ - ٩٨)
٣٢١	تفسير الآيات (٩٩ - ١٠١)
٣٢٢	تفسير الآيات (١٠٢ - ١٠٨)
٣٢٣	تفسير الآيتين (١٠٩ - ١١٠)

(١٩) سورة مريم

٣٢٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٣٢٦	تفسير الآية (٥)
٣٢٧	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٣٢٨	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٣٢٩	تفسير الآيات (١٣ - ١٧)
٣٣٠	تفسير الآيات (١٨ - ٢١)
٣٣١	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٣٣٢	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٣٣٣	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٣٣٤	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٣)
٣٣٥	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٣٣٦	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
٣٣٧	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
٣٣٨	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٣٣٩	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٨)
٣٤٠	تفسير الآيات (٤٩ - ٥٣)
٣٤١	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٧)
٣٤٢	تفسير الآيتين (٥٨ - ٥٩)
٣٤٣	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٢)
٣٤٤	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٥)

٣٤٥	تفسير الآيتين (٦٦ - ٦٧)
٣٤٦	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٣٤٧	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
٣٤٨	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٤)
٣٤٩	تفسير الآيتين (٧٥ - ٧٦)
٣٥٠	تفسير الآيات (٧٧ - ٧٩)
٣٥١	تفسير الآيات (٨٠ - ٨٤)
٣٥٢	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٧)
٣٥٣	تفسير الآيات (٨٨ - ٩١)
٣٥٤	تفسير الآيات (٩٢ - ٩٦)
٣٥٥	تفسير الآيتين (٩٧ - ٩٨)

(٢٠) سورة طه

٣٥٦	تفسير الآيات (١ - ٣)
٣٥٧	تفسير الآيات (٤ - ٨)
٣٥٨	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٣٥٩	تفسير الآيات (١٣ - ١٥)
٣٦٠	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٣٦١	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)
٣٦٢	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٨)
٣٦٣	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٨)
٣٦٤	تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠)
٣٦٥	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
٣٦٦	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٣٦٧	تفسير الآيات (٤٦ - ٥٠)
٣٦٨	تفسير الآيات (٥١ - ٥٣)
٣٦٩	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٨)
٣٧٠	تفسير الآيات (٥٩ - ٦١)

٣٧١	تفسير الآيتين (٦٢ - ٦٣)
٣٧٢	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٦)
٣٧٣	تفسير الآيات (٦٧ - ٧٠)
٣٧٤	تفسير الآيتين (٧١ - ٧٢)
٣٧٥	تفسير الآيات (٧٣ - ٧٦)
٣٧٦	تفسير الآيات (٧٧ - ٨٠)
٣٧٧	تفسير الآيات (٨١ - ٨٤)
٣٧٨	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٧)
٣٧٩	تفسير الآيات (٨٨ - ٩٠)
٣٨٠	تفسير الآيات (٩١ - ٩٥)
٣٨١	تفسير الآيتين (٩٦ - ٩٧)
٣٨٢	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٢)
٣٨٣	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٦)
٣٨٤	تفسير الآيات (١٠٧ - ١١١)
٣٨٥	تفسير الآيات (١١٢ - ١١٤)
٣٨٦	تفسير الآيات (١١٥ - ١١٧)
٣٨٧	تفسير الآيات (١١٨ - ١٢١)
٣٨٨	تفسير الآيات (١٢٢ - ١٢٥)
٣٨٩	تفسير الآيات (١٢٦ - ١٣٠)
٣٩٠	تفسير الآية (١٣١)
٣٩١	تفسير الآيات (١٣٢ - ١٣٤)
٣٩٢	تفسير الآية (١٣٥)

(٢١) سورة الأنبياء

٣٩٣	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٣٩٤	تفسير الآيات (٣ - ٥)
٣٩٥	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٣٩٦	تفسير الآيات (٨ - ١٢)

٣٩٧	تفسير الآيات (١٦ - ١٣)
٣٩٨	تفسير الآيات (٢٠ - ١٧)
٣٩٩	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢١)
٤٠٠	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٤)
٤٠١	تفسير الآيات (٣٠ - ٢٧)
٤٠٢	تفسير الآيات (٣٣ - ٣١)
٤٠٣	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٤)
٤٠٤	تفسير الآيات (٣٩ - ٣٧)
٤٠٥	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٠)
٤٠٦	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٤)
٤٠٧	تفسير الآيات (٥٠ - ٤٧)
٤٠٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٥١)
٤٠٩	تفسير الآيات (٦١ - ٥٧)
٤١٠	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٢)
٤١١	تفسير الآيات (٦٨ - ٦٥)
٤١٢	تفسير الآيات (٧١ - ٦٩)
٤١٣	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٢)
٤١٤	تفسير الآيات (٧٩ - ٧٧)
٤١٥	تفسير الآيتين (٨١ - ٨٠)
٤١٦	تفسير الآيات (٨٤ - ٨٢)
٤١٧	تفسير الآيات (٨٧ - ٨٥)
٤١٨	تفسير الآيات (٩٠ - ٨٨)
٤١٩	تفسير الآيات (٩٣ - ٩١)
٤٢٠	تفسير الآيات (٩٧ - ٩٤)
٤٢١	تفسير الآيات (١٠١ - ٩٨)
٤٢٢	تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٢)
٤٢٣	تفسير الآيات (١٠٧ - ١٠٥)

تفسير الآيات (١٠٨ - ١١٢) ٤٢٤

(٢٢) سورة الحج

تفسير الآيتين (١ - ٢) ٤٢٦

تفسير الآيتين (٣ - ٤) ٤٢٧

تفسير الآية (٥) ٤٢٨

تفسير الآيات (٦ - ٩) ٤٢٩

تفسير الآيتين (١٠ - ١١) ٤٣٠

تفسير الآيات (١٢ - ١٥) ٤٣١

تفسير الآيات (١٦ - ١٨) ٤٣٢

تفسير الآيات (١٩ - ٢١) ٤٣٣

تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥) ٤٣٤

تفسير الآية (٢٦) ٤٣٥

تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨) ٤٣٦

تفسير الآية (٢٩) ٤٣٧

تفسير الآية (٣٠) ٤٣٨

تفسير الآية (٣١) ٤٣٩

تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤) ٤٤٠

تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦) ٤٤١

تفسير الآيتين (٣٧ - ٣٨) ٤٤٢

تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠) ٤٤٣

تفسير الآيات (٤١ - ٤٤) ٤٤٤

تفسير الآيتين (٤٥ - ٤٦) ٤٤٥

تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩) ٤٤٦

تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢) ٤٤٧

تفسير الآيات (٥٣ - ٥٦) ٤٤٩

تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠) ٤٥٠

تفسير الآيات (٦١ - ٦٣) ٤٥١

٤٥٢	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٦)
٤٥٣	تفسير الآيات (٦٧ - ٧٠)
٤٥٤	تفسير الآيات (٧١ - ٧٣)
٤٥٥	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)
٤٥٦	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)

(٢٣) سورة المؤمنون

٤٥٨	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٤٥٩	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٤٦٠	تفسير الآيات (٧ - ١١)
٤٦١	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٤٦٢	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٤٦٣	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٤٦٤	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٤٦٥	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٤٦٦	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٤٦٧	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٣)
٤٦٨	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٤٦٩	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٤)
٤٧٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٥٠)
٤٧١	تفسير الآيات (٥١ - ٥٣)
٤٧٢	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٩)
٤٧٣	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٤)
٤٧٤	تفسير الآيات (٦٥ - ٧٠)
٤٧٥	تفسير الآيتين (٧١ - ٧٢)
٤٧٦	تفسير الآيات (٧٣ - ٧٧)
٤٧٧	تفسير الآيات (٧٨ - ٨١)
٤٧٨	تفسير الآيات (٨٢ - ٨٨)

٤٧٩	تفسير الآيات (٨٩ - ٩٢)
٤٨٠	تفسير الآيات (٩٣ - ٩٧)
٤٨١	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
٤٨٢	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٦)
٤٨٣	تفسير الآيات (١٠٧ - ١١١)
٤٨٤	تفسير الآيات (١١٢ - ١١٦)
٤٨٥	تفسير الآيتين (١١٧ - ١١٨)

(٢٤) سورة النور

٤٨٦	تفسير الآية (١ - ٢)
٤٨٧	تفسير الآية (٣)
٤٨٨	تفسير الآية (٤)
٤٨٩	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٤٩٠	تفسير الآيات (٧ - ٩)
٤٩١	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٤٩٢	تفسير الآية (١٢)
٤٩٣	تفسير الآيات (١٣ - ١٥)
٤٩٤	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٤٩٥	تفسير الآيات (١٩ - ٢٢)
٤٩٦	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٥)
٤٩٧	تفسير الآية (٢٦)
٤٩٨	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٤٩٩	تفسير الآيتين (٢٩ - ٣٠)
٥٠٠	تفسير الآية (٣١)
٥٠٢	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٥٠٥	تفسير الآيتين (٣٤ - ٣٥)
٥٠٧	تفسير الآية (٣٦)
٥٠٨	تفسير الآيتين (٣٧ - ٣٨)

٥٠٩	تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠)
٥١٠	تفسير الآيات (٤١ - ٤٤)
٥١١	تفسير الآية (٤٥)
٥١٢	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
٥١٣	تفسير الآيات (٤٨ - ٥٠)
٥١٤	تفسير الآيات (٥١ - ٥٣)
٥١٥	تفسير الآيتين (٥٤ - ٥٥)
٥١٧	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٨)
٥١٨	تفسير الآية (٥٩)
٥١٩	تفسير الآيتين (٦٠ - ٦١)
٥٢١	تفسير الآية (٦٢)
٥٢٢	تفسير الآية (٦٣)
٥٢٣	تفسير الآية (٦٤)

(٢٥) سورة الفرقان

٥٢٤	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٢٥	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٥٢٦	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٥٢٧	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٥٢٨	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٥٢٩	تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)
٥٣٠	تفسير الآية (١٩)
٥٣١	تفسير الآية (٢٠)
٥٣٢	تفسير الآيتين (٢١ - ٢٢)
٥٣٣	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٦)
٥٣٤	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٥٣٥	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
٥٣٦	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)

٥٣٧	تفسير الآيات (٣٧ - ٣٥)
٥٣٨	تفسير الآيات (٤٠ - ٣٨)
٥٣٩	تفسير الآيات (٤٣ - ٤١)
٥٤٠	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٤)
٥٤١	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٧)
٥٤٢	تفسير الآيتين (٥٠ - ٤٩)
٥٤٣	تفسير الآيتين (٥٢ - ٥١)
٥٤٤	تفسير الآيات (٥٧ - ٥٣)
٥٤٥	تفسير الآيتين (٥٩ - ٥٨)
٥٤٦	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٠)
٥٤٧	تفسير الآيتين (٦٣ - ٦٢)
٥٤٨	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٤)
٥٤٩	تفسير الآيتين (٦٩ - ٦٨)
٥٥٠	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٠)
٥٥١	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٣)
٥٥٢	تفسير الآيات (٧٧ - ٧٥)

(٢٦) سورة الشعراء

٥٥٤	تفسير الآيات (٥ - ١)
٥٥٥	تفسير الآيات (١١ - ٦)
٥٥٦	تفسير الآيات (١٥ - ١٢)
٥٥٧	تفسير الآيات (٢٠ - ١٦)
٥٥٨	تفسير الآيات (٢٤ - ٢١)
٥٥٩	تفسير الآيات (٢٨ - ٢٥)
٥٦٠	تفسير الآيات (٣٣ - ٢٩)
٥٦١	تفسير الآيات (٣٨ - ٣٤)
٥٦٢	تفسير الآيات (٤٦ - ٣٩)
٥٦٣	تفسير الآيات (٥٢ - ٤٧)

٥٦٤	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٣)
٥٦٥	تفسير الآيات (٦٣ - ٥٧)
٥٦٦	تفسير الآيات (٧١ - ٦٤)
٥٦٧	تفسير الآيات (٧٨ - ٧٢)
٥٦٨	تفسير الآيات (٨٣ - ٧٩)
٥٦٩	تفسير الآيات (٨٩ - ٨٤)
٥٧٠	تفسير الآيات (٩٦ - ٩٠)
٥٧١	تفسير الآيات (١٠٤ - ٩٧)
٥٧٢	تفسير الآيات (١١١ - ١٠٥)
٥٧٣	تفسير الآيات (١١٨ - ١١٢)
٥٧٤	تفسير الآيات (١٣٢ - ١١٩)
٥٧٥	تفسير الآيات (١٤٦ - ١٣٣)
٥٧٦	تفسير الآيات (١٥٥ - ١٤٧)
٥٧٧	تفسير الآيات (١٦٥ - ١٥٦)
٥٧٨	تفسير الآيات (١٧١ - ١٦٦)
٥٧٩	تفسير الآيات (١٨١ - ١٧٢)
٥٨٠	تفسير الآيات (١٨٧ - ١٨٢)
٥٨١	تفسير الآيات (١٩٣ - ١٨٨)
٥٨٢	تفسير الآيات (١٩٧ - ١٩٤)
٥٨٣	تفسير الآيات (٢٠٠ - ١٩٨)
٥٨٤	تفسير الآيات (٢٠٧ - ٢٠١)
٥٨٥	تفسير الآيات (٢١٢ - ٢٠٨)
٥٨٦	تفسير الآيات (٢١٧ - ٢١٣)
٥٨٧	تفسير الآيات (٢٢٣ - ٢١٨)
٥٨٨	تفسير الآيتين (٢٢٥ - ٢٢٤)
٥٨٩	تفسير الآيتين (٢٢٧ - ٢٢٦)

سورة النمل (٢٧)

٥٩٠	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٩١	تفسير الآيات (٣ - ٧)
٥٩٢	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٥٩٣	تفسير الآيات (١٠ - ١٢)
٥٩٤	تفسير الآيات (١٣ - ١٥)
٥٩٥	تفسير الآية (١٦)
٥٩٦	تفسير الآية (١٧)
٥٩٧	تفسير الآيتين (١٨ - ١٩)
٥٩٨	تفسير الآية (٢٠)
٥٩٩	تفسير الآيتين (٢١ - ٢٢)
٦٠٠	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)
٦٠١	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٦٠٢	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)
٦٠٣	تفسير الآيات (٣١ - ٣٤)
٦٠٤	تفسير الآية (٣٥)
٦٠٥	تفسير الآية (٣٦)
٦٠٦	تفسير الآيات (٣٧ - ٣٩)
٦٠٧	تفسير الآية (٤٠)
٦٠٨	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)
٦٠٩	تفسير الآية (٤٤)
٦١٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٧)
٦١١	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٦١٢	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٣)
٦١٣	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٧)
٦١٤	تفسير الآيات (٥٨ - ٦٠)
٦١٥	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٢)

٦١٦	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٥)
٦١٧	تفسير الآية (٦٦)
٦١٨	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٩)
٦١٩	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٤)
٦٢٠	تفسير الآيات (٧٥ - ٧٩)
٦٢١	تفسير الآيات (٨٠ - ٨٢)
٦٢٢	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٦)
٦٢٣	تفسير الآيات (٨٧ - ٨٨)
٦٢٤	تفسير الآيتين (٨٩ - ٩٠)
٦٢٥	تفسير الآيات (٩١ - ٩٣)

(٢٨) سورة القصص

٦٢٧	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٢٨	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٦٢٩	تفسير الآية (٨)
٦٣٠	تفسير الآية (٩)
٦٣١	تفسير الآيات (١٠ - ١٢)
٦٣٢	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٦٣٣	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٦٣٤	تفسير الآيتين (١٨ - ١٩)
٦٣٥	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٣)
٦٣٦	تفسير الآية (٢٤)
٦٣٧	تفسير الآية (٢٥)
٦٣٨	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
٦٣٩	تفسير الآية (٢٨)
٦٤٠	تفسير الآيتين (٢٩ - ٣٠)
٦٤١	تفسير الآيتين (٣١ - ٣٢)
٦٤٢	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٥)

٦٤٣	تفسير الآيتين (٣٦ - ٣٧)
٦٤٤	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
٦٤٥	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٣)
٦٤٦	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
٦٤٧	تفسير الآيتين (٤٧ - ٤٨)
٦٤٨	تفسير الآيات (٤٩ - ٥١)
٦٤٩	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٦)
٦٥٠	تفسير الآية (٥٧)
٦٥١	تفسير الآيات (٥٨ - ٦٠)
٦٥٢	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
٦٥٣	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٧)
٦٥٤	تفسير الآيات (٦٨ - ٧٠)
٦٥٥	تفسير الآيات (٧١ - ٧٣)
٦٥٦	تفسير الآيات (٧٤ - ٧٦)
٦٥٧	تفسير الآيتين (٧٧ - ٧٨)
٦٥٨	تفسير الآيتين (٧٩ - ٨٠)
٦٥٨	تفسير الآية (٨١)
٦٥٩	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
٦٦٠	تفسير الآيتين (٨٤ - ٨٥)
٦٦٢	تفسير الآيات (٨٦ - ٨٨)

(٢٩) سورة العنكبوت

٦٦٣	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٦٦٤	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٦٦٥	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٦٦٦	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٦٦٧	تفسير الآيات (١١ - ١٣)
٦٦٨	تفسير الآيات (١٤ - ١٦)

٦٦٩	تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)
٦٧٠	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
٦٧١	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٦٧٢	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٦٧٣	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٦٧٤	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
٦٧٥	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٦)
٦٧٦	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٠)
٦٧٧	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
٦٧٨	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٦٧٩	تفسير الآية (٤٦)
٦٨٠	تفسير الآية (٤٧)
٦٨١	تفسير الآيات (٤٨ - ٥١)
٦٨٢	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٥)
٦٨٣	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٨)
٦٨٤	تفسير الآيات (٥٩ - ٦١)
٦٨٥	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٤)
٦٨٦	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٦٨٧	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)

(٣٠) سورة ~~الأنعام~~ الروم

٦٨٩	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٩٠	تفسير الآية (٥)
٦٩١	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٦٩٢	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٦٩٣	تفسير الآيات (١١ - ١٦)
٦٩٤	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٦٩٥	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)

٦٩٦	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٦٩٧	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٦٩٨	تفسير الآية (٢٨)
٦٩٩	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)
٧٠٠	تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)
٧٠١	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٧٠٢	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٧٠٣	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)
٧٠٤	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
٧٠٥	تفسير الآيات (٤٧ - ٥٠)
٧٠٦	تفسير الآيات (٥١ - ٥٣)
٧٠٧	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٦)
٧٠٨	تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)

(٣١) سورة لقمان

٧١٠	تفسير الآيات (١ - ٤)
٧١١	تفسير الآيات (٥ - ٦)
٧١٢	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٧١٣	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٧١٤	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٧١٥	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
٧١٦	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٧١٧	تفسير الآية (٢٠)
٧١٨	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٧١٩	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٧)
٧٢٠	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)
٧٢١	تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)
٧٢٢	تفسير الآية (٣٤)